

سيدا شباب أهل الجنة

ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

الحسين بن علي رضي الله عنهما

بقلم
حسين محمد يوسف

مطابع دار الشعب بالقاهرة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الدكتور عبد الحليم محمود

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن أتبع هديه إلى يوم الدين . وبعد :

روى الإمام مسلم بسنده عن زيد بن أرقم قال :

« قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خما — بين مكة والمدينة — فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال :

أما بعد : ألا أيها الناس . . فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما : كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال :

« وأهل بيتي : أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في اهل بيتي » :

وروى الإمام أحمد والترمذي بسندهما عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

قال الترمذي : حديث صحيح ، وروى هذا الحديث كثيرون من أئمة السنة .

وروى الترمذي بسنده عن أسامة بن زيد — رضي الله عنهما — قال :

« طرقت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، في بعض الحاجة : . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو ، فلما فرغت من حاجتي قلت :

ما هذا الذي أنت مشتمل عليه ؟ فكشفه فإذا حسن وحسين على وركيه . فقال :

هذان ، أبناي ، وابنا ابنتي ، اللهم أني أحبهما ، فأحبهما ، وأحب من يحبهما » وقال : حسن غريب

وروى الأمام الترمذي بسنده عن عبد الرحمن بن أبي نعم : أن رجلا من أهل العراق سأل ابن عمر — رضي الله عنهما — عن دم البعوض يصيب الثوب ، فقال ابن عمر :

« انظروا إلى هذا يسأل عن دم البعوض ، وقد قتلوا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن الحسن والحسين هما ريحانتاى من الدنيا » . وقال حديث صحيح ، ورواه البخارى بنحوه :

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

« سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى أهل بيتك أحب إليك ؟

قال : الحسن والحسين . وكان يقول لفاطمة : ادعى إلى ابنى فيشمهما ويضمهما إليه » .

* * *

نشأ الحسين — رضى الله عنه — وفيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ابن بنته . وفيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ابنى وابن بنتى .

ويضرع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله أن يحبه ، فيقول فيه وفى الحسن — رضى الله عنهما — اللهم أنى أحبهما فأحبهما ، ويرجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يحب من يحبهما .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشمه ويضمه إلى صدره ، ويداعبه ويبتسم إليه ويقبله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما يراه هو وأخوه الحسن — رضى الله عنهما — يأتيان إلى المسجد عليهما قمصان أحمران يمشيان ، فيهما نضرة الطفولة ، ونور النبوة ، ينزل من على المنبر ويحملهما ويضعهما بين يديه ، ويقول فى حنان وحب :

« نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويقعدان ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » .

وعن الحسين رضى الله عنه — فيما رواه الترمذى بسند حسن — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسينا ، حسين سبط(١) من الأسباط » .

اللهم إنا نحب حسينا فأحبنا ، اللهم استجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجعلنا فى زمرة من تحبهم لحبهم حسينا .

* * *

ونشأ حسين — رضى الله عنه — يرى أمه الكريمة سيدة نساء الجنة(٢) ، الذاكرة المتعبدة المتبتلة ، أحب بنات رسول الله إليه صلى الله عليه وسلم . روى الامام البخارى بسنده عن المسور بن مخرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها أغضبنى » .

ونشأ حسين يرى أباه ، الذى جمع بين البطولة كأسمى ما تكون البطولة ، والعبادة التى تتجة إلى الله سبحانه فى تقوى وأخلاص .

---

(١) السبط : ولد الولد .

(٢) رواه البخارى .

ونشأ حسين — من قبل كل ذلك ومن بعده — تحت عين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى رعايته . . يدعو له ويسدد خطاه ، ويعوده وهو فى طفولته على أكرم الشيم وأنبل الصفات .

* * *

وفى فطرة آل البيت — رضوان الله عليهم — البطولة أنبل ما تكون البطولة ، أن أرواحهم أكفهم يبذلونها فى سبيل الله ، فى كرم وسخاء :

وفى فطرة آل البيت ، الاستمساك بالحق ، والدفاع عنه ، حتى ولو تخلى عنه الآخرون ، كل الآخرين :

وتجتمع — فى آل البيت — صورة البطل الذى لا تلين له قناة ، وصورة المجاهد فى سبيل الحق مهما كانت الظروف :

وإنك إذا تأملت الكثير من مواقف آل البيت : رأيت فى وضوح هذه الفدائية فى سبيل الحق . . هذه الفدائية التى لا تلين ولا تتردد :

لقد قيل لسيدنا على — رضى الله عنه — بعد أن بويع بالخلافة :

« استبق معاوية على الشام ، وول فلانا البصرة وول فلانا الكوفة فاذا فعلت ذلك أستقام لك الأمر » :

ولم يكن على — رضى الله عنه — يرى أن هذا هو الحق ، فلم يفعل ، ولقد أوذى رضى الله عنه من أجل تمسكه بما يراه حقا ، ايذاء شديدا ، ولكنه صبر مناضلا مجاهدا فى سبيل الحق ، إلى آخر رمق من حياته .

إن هذه الشخصية — شخصية سيدنا على البطل المستمسك بالحق — لو لم تكن موجودة فى تاريخنا الواقعى ، لما تضمن تاريخنا البطولة فى أسمى صورة من صورها .

وتاريخنا — لوجود آل البيت — ملىء بهذا النوع من البطولات ، وأن كتاب « مقاتل الطالبيين » يبين مدى مانال آل البيت من أذى ، من جراء استمساكهم بالحق .

ولقد سار حسين — رضوان الله عليه — على سنة أبيه وجدة الذى قال وهو فى أشد المواقف حرجا :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، ماتركته حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه » .

ولقد استشهد الحسين وهو فى موقف من أكرم مواقف البطولة المستمسكة بالحق . . لقد أختار الاستشهاد على التفريط فى الحق .

وما كان يتأتى لحياة الحسين — رضى الله عنه — وهو بهذه المنزلة من نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن تكون حياة كلها تقوى وصلاحا ، وعبودية لله سبحانه وتعالى ، وحياة جهاد ونضال وكفاح فى سبيل الله ، وفى سبيل الحق ، وقد كانت حياة نتيجتها أن يكون مع أخيه سيدا لشباب أهل الجنة ، وأن تكون حياة يحبها الله ورسوله ، ويحبان من أحبها ، وعمل على نسقها . بطولة واستمساكا بالحق إلى آخر نفس فى الحياة .

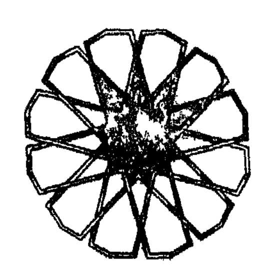
* * *

هذه الحياة : يرسم لها الأستاذ الفاضل حسين محمد يوسف ، صورة بذل جهده فى أن تكون صادقة .

إن الأستاذ حسين يوسف مكث سنوات يبحث وينقب . ويتعقب المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، ويتقصى ويوازن ويستنتج ، ولقد صبر على كل ما يمكن أن يكون من صعوبات ، حتى ذللها بصبره ، ثم خرج على الناس فى نهاية المطاف بهذا الكتاب القيم ، الذى يعتبر فى حقيقة الأمر عدة كتب فى كتاب ، وهو وان كان قد كتب فى عدة جوانب ، الا أن كل ذلك كان ضروريا ليجلية الحق فى شخصية الحسين رضى الله عنه .

ولقد صاحب التوفيق الأخ حسين يوسف فيما كتب ، فكان كتابه صورة نفيسة مثالية للبحث المتقن . والله نرجو أن يهدى به ، وأن يهدى له . أنه سميع قريب مجيب .

دكتور عبد الحليم محمود



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى وعد المجاهدين فى سبيله أحدى الحسنيين : فاما نصر على الأعداء ، أو فوز بمنازل الشهداء ، « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أويغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما »(١) .

وأشهد أن لاإله إلا الله ، لايغفل عما يعمل الظالمون ، وإنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، ولا يضيع عمل المخلصين ، إنما يوفيهم أجرهم بغير حساب .

وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم ، هو أول المؤمنين ، وسيد المجاهدين ، فى سبيل اعلاء كلمة الحق والدين ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبة ، الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، وصدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وما بدلوا تبديلا .

أما بعد . . .

فقد جرت سنة المولى عز وجل ، فى تهذيبه لخلقه ، وتدبيره لملكه ، أن يصطفى – من حين لآخر – بعض ذوى النفوس العالية ، والأرواح السامية ، ليضرب بها الأمثال ، تارة فى قوة الإيمان وصدق اليقين ، وأخرى فى الصبر على البلاء ، والشكر فى السراء والضراء ، وثالثة فى رباطة الجأش فى الملمات ، ورابعة فى الزهد فى الشهوات ، والمسارعة إلى الخيرات . . إلى غير ذلك من أبواب الخير ، ووجود البر ، ومجالات البطولة والفخار ، ليتذكر البطولة والفخار ، ليتذكر الناس بمواقفهم الباهرة ، وسيرهم العطرة ، ما قد أعرضوا عنه من شريف الغايات ، أو انحدروا إليه من الدنايا الشهوات ، وحتى يدركوا مايمكن للايمان أن يحقق من أعجاز . . وما يمكن أن يفيض به على النفس البشرية من قوة ، تدفع بها إلى الترحيب بالشدائد ، والاستخفاف بالأخطار ، والتضحية بكل مرتخص وغال ، دفاعا عن الحق ، وانتصارا لله والرسول ، وردعا لأهل البغى والعدوان ، وحماية للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، فتبرز أمام الغافلين منهم الحقيقة الخالدة ، التى أعلنها سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، فى قوله الكريم :

« حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات »(٢) .

ذلك أن الحياة – كما يريدها الله تعالى لخير أمة أخرجت للناس – ليست مجرد بطون تملأ ، وأموال تجمع . . وشهوات تقضى ، إنما هى قبل كل شىء عزة وكرامة : : ونجدة ومروءة ، وايثار وعفة ،

---

(١) سورة النساء آية ٧٤ .

(٢) أحمد ومسلم والترمذى ، من حديث أنس وابن مسعود وأبى هريرة رضى الله عنهم .

وغير ذلك من المعانى الكريمة ، والقيم الفاضلة ، التى ما بعث الأنبياء إلا لدعوة الناس إليها ، وما بعث خاتم المرسلين – صلى الله عليه وسلم – إلا مبشرا بها ومكملا لها :

من أجل ذلك : كان لابد لهذه المعانى من غذاء تستمد منه حياتها ، وتؤتى به ثمارها ، كما لابد لهذه القيم من وقود تستمر به شعلتها ، ويسطع به ضياؤها ، ولا لهذه وتلك ولا وقود ، إلا مايقوم به دعاة الحق من كفاح فى سبيلها ، وما يقدمونه من تضحيات فى التمسك بها ، والدعوة إليها :

وسواء انتصر هؤلاء فى كفاحهم ، أو استشهدوا دون غايتهم ، فقد خلدوا فى سجل التاريخ سيرتهم ، وكفلوا بتضحياتهم وكفاحهم ، استمرار الحياة للمبادىء التى من أجلها عاشوا . وفى سبيلها جاهدوا وصبروا ، وعليها لقوا ربهم ، فرحين مستبشرين :

فلا فرق مطلقا – بالنسبة لدعاة الحق – بين الحياة والموت ، ولا بين النصر والشهادة ، ولا بين السلامة والبلاء ، فرب ميتة اشرف من ألف حياة ، ورب شهادة فى ميدان الشرف والخلود أكرم من ألف نصر ، ورب بلاء أنفع فى ظهور الحق ، وقطع فى مقاومة الباطل ، من السلامة والنجاة .

صفحات خالدة . . وسيرة مجيدة :

ومن أروع صفحات الخلود فى تاريخ الاسلام ، تلكم الصفحات الرائعة ، التى سطرها أهل البيت فى كربلاء ، تحت لواء أكرم الشهداء ، وسبط سيد الأنبياء ، مع شقيقته أبنه الزهراء ، رضى الله عنهم ، وأكرمنا بحبهم ، ووفقنا للوفاء بعهدهم ، والاهتداء بهديهم :

لقد كانت « كربلاء » هى المكان الذى قدره المولى عز وجل ، موعدا لاجتماع الشقيقين العظيمين ، وميدانا لجهادها ، ومحلا لبلائهما ، حتى غدت هذه البقعة الحمراء ، رمزا خالدا للفداء ، ومدرسة قائمة على مر القرون والأجيال ، يستمد منها أبناء الاسلام ، أروع دروس البطولة ، وأصدق آيات الإيمان ، وأعظم مثل التضحية فى سبيل المبدأ ، دون أدنى حرص على الحياة والبقاء ، أو أقل مبالاة بالموت والفناء :

ولقد سطر أكرم الشهداء ، بجهاده الرائع ، صفحات من نور ساطع ويقين قاطع ، تملأ القلوب إيمانا ، والنفوس تسليما واطمئنانا ، يمتد شعاعها رغم من السنين ، وكر القرون ، تهيب بالضعفاء أن يستمدوا القوى من طاعة الله ، وبالمترددين أن يعتصموا بحبل الله ، وبالخائفين أن يركنوا إلى حصن الله ، وبالخانعين أن يتحرروا من العبودية لغير الله ، وتدوى فى الجميع بصيحة الخلود : أحرصوا على الموت . . . توهب لكم الحياة :

ولقد ضربت شقيقته الطاهرة – رضى الله عنها – أروع المثل لنساء المسلمين ، كيف يكون الصبر الجميل ، على المصاب المهول ، وكيف تكون الثقة بالله ، فى مواطن البلاء ، ورباطة الجأش فى مواطن الخطر . . وكيف تكون العزة والكرامة . . ، حتى لقد أذلت – وهى المرأة الأسيرة – الطغاة المتكبرين ، وأسكتت – وهى الحزينة المكلومة – الجبابرة الحاكمين ، فكانت فى ضعفها ووحدتها ، أعظم قوة وأشد بأسا ، وكانوا فى سلطانهم وجموعهم : أضعف ناصرا . . وأقل عددا . . .

وبالرغم من روعة تلكم التى سطرها أهل البيت المطهرون ، رضى الله عنهم أجمعين — دفاعا عن المبدأ والعقيدة ، وكفاحا فى سبيل الحق والحرية والكرامة ، فان طول العهد بها ، وأهمال التعمق فى دراستها ، واستخلاص العبر النافعة منها : أدى فى النهاية الى إندثار الكثير من معالمها ، وتغيير الكثير من ملامحها ، حتى لم يبق منها — بالنسبة لأكثر الناس — إلا ذلكم الحب المتوارث لاهل البيت — رضى الله عنهم — الذى يدفع يدفع بهم تلقائيا إلى احياء موالدهم ، وتوقير ذكراهم ، دون الوصول إلى الأعماق للتعرف على نواحى العظمة فى مواقفهم ، والبواعث الأصيلة المؤثرة فى تصرفاتهم .. والأسباب الحقيقية التى رفعتهم إلى ذروة المجد والشرف ، وأحلتهم من قلوب المؤمنين أرفع مكانة من التعظيم والاجلال ، وأحاطتهم بأصدق مشاعر الحب والوفاء .

لماذا وضعت هذا البحث :

وعلاوة على ما تقدم : فان تاريخ الحسين — رضى الله عنه — فى كثير من جوانبه ، ما زال فى حاجة إلى مزيد من البحث والتمحيص : يبدد ما أحاطه من غموض ، وما الصق به من أكاذيب ومفتريات . وما يكتنفه من متناقضات ، لاسيما وأن عصر التدوين للتاريخ ، كان عصر تيارات سياسية ، وخصومات حزبية ، أستطاع خلالها أعداء الاسلام من ناحية ، أن يدسوا من الأخبار ما يحقق لهم ما يبغونه من تشويه مبادئه ، والحط من سمعة رجاله وقادته ، ومن ناحية أخرى فقد كان للخلافات بين الشيعة والأمويين من جهة وبين الأمويين والعباسيين من جهة أخرى ، وبين العباسيين والعلويين من جهة ثالثة .. كان ذلك وغيره : كان له أبعد الأثر فى تزييف الكثير من الوقائع والأحداث ، أو تحريفها بما يخدم أهواء السياسة أو أغراض أعداء الاسلام .

يقول فضيلة الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود :

« إن التاريخ — منذ عرف — لم يخل من العوامل التى تحاول وضعه على غير ماكان عليه بالفعل ، وتلوينه على الصورة التى يريد بعض الناس — ملوكا أو أمراء أو زعماء على أى وضع كانوا — أن يكون عليها ، ولكن تزييفهم للتاريخ لم يمنع من ظهور الحقائق ، وكذبهم على التاريخ لم يمنع من بيان الحق ، ومعرفة الناس له .

ولقد وضع المؤرخون المحدثون أصولا للنقد ، وعلامات للحوادث المزيفة ، وقواعد لمعرفة الحقيقة .. ولقد استعانوا فى سبيل المعرفة الصحيحة باللغة ، وبالحوادث اليقينية المتواترة ، وبالشهود العدول ، وبالمقارنات .

لقد استعانوا بالنقد الداخلى ، والنقد الخارجى ، ووصلوا بذلك إلى الحقائق التى يطمئنون إليها ، برغم مايفصل بينهم وبين مكان الأحداث من آلاف الأميال ، وبرغم مايفصل بينهم وبين أزمنة الحوادث من عشرات القرون .. ومع كل ماحاوله المؤرخون من جهد ، ومع كل ما وسعوه وضعوه من قواعد

للوصول إلى اليقين ، فانهم —والحق يقال — لم يصلوا فى كل ذلك إلى ماوصل إليه سادتنا المحدثون رضوان الله عليهم » (١) :

تناقل الأكاذيب من جيل إلى جيل :

وبالرغم من وضوح الوضع والتدليس والتناقض فى كثير من الروايات ، لاسيا مايتصل منها بأحداث القرن الأول الهجرى : :

وبالرغم أن بعض المؤرخين الثقات — لاسيا المحدثون منهم — لم يقيموا وزنا للكثير من هذه المفتريات ، بل مروابها مر الكرام ، دون ذكر لها ، أو اشارة إليها ، كمحمد بن جرير الطبرى فى تاريخه عن الرسل والملوك : : والبعض الآخر اشار إليها واستبعد حدوثها ، أو وقفوا منها موقف التردد والشك ، كالحافظ المفسر ابن كثير فى « البداية والنهاية » : : ومنهم من عنى باستقصائها ، واظهار مافيها من زيف ، وما يحيط بها من أفك وبهتان ، ووضعوا فى ذلك المؤلفات القيمة مثل :

— العواصم من القواصم : للقاضى أبى بكر بن العربى :

— الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة : للمحدث ابن حجر الهيتمى المكى :

— تطير الجيان واللسان عن ثلب معاوية بن أبى سفيان : للمحدث ابن حجر الهيتمى المكى :

ومن المؤلفات الحديثة فى هذا الباب :

— أفادة الأخيار ، ببراءة الأطهار : للشيخ محمد العربى التبانى :

نقول : إنه بالرغم من كل ذلك ، فقد استمر تناقل الأكاذيب الموضوعة ، والمفريات المدسوسة ، من جيل إلى جيل ، بواسطة كتاب لم يؤتوا قلوبا واعية ، ولا معرفة ، ولا بصيرة نافذة ، ولم يطلعوا على ما كتبه الثقات بشأن هذه المفتريات ،وتابع منهم المستشرقين فى آرائهم المعادية للاسلام ، ومن هؤلاء المستشرقين من يتعمد ابراز المطاعن وتضخيمها ، بما يتفق مع أهوائهم السياسية ، أو أحقادهم الطائفية ، واحاطتها بما يزعمون من تحقيقات علمية ، أو تحليلات حرة ، حتى انخدع بهم الكثير من أبناء الاسلام ، الذين درسوا عليهم ، أونقلوا عنهم ، فرددوا المفتريات فى أبحاثهم ومؤلفاتهم ، دون أى تمحيص لها ، أو تثبت منها :

سعى أعداء الإسلام لتشوية سمعته :

وفى هذا المعنى — الذى أشرنا آنفا إليه — يقول الإمام المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثرى :

« وليس بخاف مبلغ سعى اعداء الإسلام فى كل دور ، ووجوه تجدد مكرهم فى كل طبقة ، فمن ألوان مكرهم فى عهد تدوين الروايات : أندساس أناس منهم بين نقلة الإخبار ، متلفعين بغير أزيائهم لترويج أكاذيب بينهم ، مما يشوه سمعة الإسلام وسمعة القائمين بالدعوة إلى الإسلام، فراجت تلك الأكاذيب

(١) السنة فى مكانها ، وفى تاريخها : لفضيلة الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود : ص ٦٢ ، ٦٣ .

المدبرة على نقلة لم يؤتوا بصيرة ، فخلدوها فى الكتب حتى ظلت يتذرع بها الكائدون فى كل قرن ، للكيد للاسلام »(١) .

ويقول بعد ذلك :

« وصفوة القول : أن تدوين أنباء الصدر الأول كيفما اتفق ، بدون تمحيصها بالطرق العلمية المعروفة ، والاكتفاء بسبكها فى أساليب روائية عصرية ، جذابة خلابة ، بدون أى أشارة إلى مصادر النقول ، وبدون أى عناية بتوثيق المرويات وتحقيقها ، مما تكون فيه خطورة بالغة وتشكيك فى مواضع اليقين وتأثير غير حميد فى النفوس ، ولاسيما فى نفوس النشء الحديث ، الذى أفتتن بأساليب كتاب مخصوصين » (٢) .

وفى نفس هذا الصدد يقول فضيلة الدكتور الشيخ ابراهيم شعوط :

« لجأ العلماء المستشرقون إلى تحريف الحقائق ، وتزييف الوقائع الإسلامية ، وانتهزوا فرصة اقبال الشباب الإسلامى على مؤلفاتهم وجامعاتهم فسمموا أفكارهم ، وهونوا عليهم عزة دينهم ، وطعنوا فى الاسلام ورجاله : : ومازالوا بكثير منهم حتى انخدع بما سمع ، وآمن بما قرأ ، فكانوا أبواقا تنعق بما سمعت من خصوم دينهم ووطنهم ، فلما أسندت إليهم مراكز التوجيه العلمى دور التعليم الاسلامية ، نشروا السموم التى شربوها هناك فى أوروبا ، وسخروا من الإسلام ، واستهانوا بأمجاد العرب ، وحفظوا لكل شخصية مثالية ما يحط من قدرها » (٣).

ويقول فضيلة الدكتور الشيخ محمد محمد أبو شهبة :

« ولعل من نافلة القول : أن أنبه إلى الأغراض السيئة التى يقصدها المستشرقون من وراء حملاتهم ، والتى هى أمتداد للحملات الصليبية ، والتى يقصدون منها تقويض دعائم الاسلام والعروبة ، وأضعاف الروح الدينية فى المسلمين : : وهم يريدون من الطعن فى الصحابة حينا ، وفى السنة حينا آخر ، تشكيك المسلمين فى الأصل الثانى من أصول التشريع فى الاسلام ، وهى السنة ، وتقليل الثقة بها : . وقد نجح المستشرقون - إلى حدما — فى التأثير فى بعض الكتاب المسلمين ، فى عصرنا الأخير ، فاقتفوا آثارهم ، فيما زعموا ورددوا من دعاوى ، لم تقم عليها بينات ، بل وزادوا عليها من عند أنفسهم ، وكل هؤلاء وأولئك ، نفثوا سمومهم باسم البحث والمعرفة وحرية النقد ، والله يعلم ، والراسخون فى العلم يعلمون ، أن مازعموا أبعد مايكون عن العلم الصحيح ، والبحث القويم ، والنقد النزيه » (٤) .

---

(١) مقالات الكوثرى : ص ٥٦٠ : للسيد الإمام الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، وكيل المشيخة الإسلامية بدار الخلافة العثمانية ، وأستاذ العلوم القرآنية بمعهد التخصص فى التفسير والحديث ، وأستاذ الفقه وتاريخه بالجامعة العثمانية ، وقد هاجر من أسطنبول فراراً بدينه بعد وصول الكماليين إلى تولى زمام الأمر ، حيث ألغوا الخلافة ، وفصلوا الدين عن الدولة ، واضطهدوا علماء الإسلام ، فاختار الإمام مصر مقراً لهجرته : وميداناً لمواصلة جهاده العلمى ، طوال مدة إقامته بها من ربيع الآخر سنة ١٣٤١ إلى أن توفى — رحمه الله — فى ١٩ من ذى القعدة سنة ١٣٧١ عن ٧٥ عاما

(٢) المصدر السابق : ص ٥٦٩ .

(٣) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ : للدكتور الشيخ ابراهيم شعوط أستاذ التاريخ بجامعة الأزهر : ص ٧ .

(٤) دفاع عن السنة : للدكتور الشيخ محمد محمد أبو شهبة : عميد كلية أصول الدين بأسيوط : ص ١١٢ ، ١١٣ ،

من أجل ما تقدم ؛ فقد حرصت فى وضعى لهذا البحث ، أن أحقق ما يتصل بأحداثه من شبهات ؛ بما يمكن القارىء من الحصول على الصورة الصادقة للوقائع ، والبواعث الحقيقية لها ، والآثار البعيدة التى ترتبت عليها.. وبما يبدد ظلمات الشكوك والأوهام ، التى تكاثفت على مر القرون حول كثير من الشخصيات البارزة فى تاريخ الاسلام ، ويدحض الكثير من الاتهامات الكاذبة التى وجهت إليهم ، فى كثير من المواقف والمناسبات . .

ومن ناحية أخرى : فقد حرصت — أيضا — فى وضعى لهذا البحث ، أن لاأوقف عند حد تصوير الأحداث ، وعرض الوقائع ، بل وضعت فى المقام الأول من الأهمية : تحليل الأسباب التى ترتبت عليها ، وتحقيق البواعث الظاهرة والخفية لها ، وتتبع النتائج التى انتهت إليها ، واستخلاص الدروس النافعة منها ، وابراز العبر الرادعة ، والحكم البالغة فيها ، عسى أن يكون فى كل هذا ما يذكر المسلمين بماضيهم ، ويعاونهم فى تجديد ما اندثر من أمجادهم ، وتربية شبابهم على المثل العليا التى تربى عليها الألوان ، فانه لن يصلح أواخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوائلها .

إتجاهات الكتاب المعاصرين :

وبالرغم من أن بعض الكتاب المعاصرين ، قد تناولوا — بمقدار أو بآخر — فى مقالاتهم ومؤلفاتهم هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ الاسلام ، وبذلوا جهودا فى تصوير وقائعها ، وتعليل أحداثها ، فإن الكثير منهم انحرفوا عن الحقيقة الواقعة ، فى اتجاهين متعارضين ، وبتأثير انفعالاتهم النفسية ، ونزعاتهم الشخصية.

فمنهم من دفعتهم عاطفتهم الجياشة بحب سيد شباب أهل الجنة ، وأهل بيته — رضى الله عنهم أجمعين — والحماسة الجارفة لما اشتهروا به من سمو فى الخلق ، ونبل فى المعاملة ، وفروسية وبطولة ، وإباء وشمم . . فتحاملوا على خصوم أهل البيت ، وكل من اتصل بهؤلاء الخصوم من قرب أو بعد تحاملا أخرجهم عن جادة الصواب ، ودفع بهم إلى التعويض بأكابر الأصحاب ، حتى بلغ الأمر ببعض مشاهير الكتاب إلى التشهير بالأمويين بصفة عامة ، والتشكيك فى ايمانهم ، وايمان أبى سفيان بصفة خاصة ، وانكار مكانة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما ، ككاتب من كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وصاحب من أصحابه ، واتهامه بالتحريض على سم الحسن — رضى الله عنه — ثم اشارته إلى المغيرة بن شعبة اشارة غير كريمة ، ووصفه بأنه « سمسار » . : وقد غفل هؤلاء الكتاب وامثالهم عما لأصحاب سيدنا رسول الله — صلى الله عليها وسلم — من مقام كريم ، و مكانة سامية ، عند الله ورسوله ، وعما لهم من سابقة فى الاسلام وجهاد صادق فى اعلاء كلمتة ، تجعلهم أسمى من كل ريبة ، وأعلى من كل شك أو اتهام ، فضلا عن نهى النبى صلى الله عليها وسلم عن ذكرهم إلا بما يليق بمقامهم منه ، وصحبتهم له ، اذ يقول :

« الله . . الله : : فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم فقد أحبنى ، ومن أبغضهم فقد أبغضنى ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله : ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » (١) :

---

(١) الترمذى : من حديث عبد الله بن مغفل باسناد حسن .

ومنهم من دفعه الغرور والغفلة من ناحية ، أو ضعف العقيدة وفساد الذوق من ناحية ثانية ، أو الشعور بالقصور عن ادراك المقام الكريم لأهل البيت بصفة عامة ، وأبناء الرسول صلى الله عليها وسلم بصفة خاصة من ناحية ثالثة ؛ فتحاملوا على سيدنا الحسين — رضى الله عنه — ووضعوا أنفسهم منه موضع السادة الموجهين ، والقضاة الحاكمين ، فاتهموه بما هو منه براء ، من استبداد بالرأى ، واثارة للفتنة ، وتفريق لكلمة الأمة ، والقاء بنفسه وأهله إلى التهلكة . . ولم يقف البعض منهم عند هذا الحد ، حتى سولت له نفسه أن يغض من قدر والد الحسنين ، ورابع الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين .

وهؤلاء واولئك . . فى أكثر ما كتبوه : أخذوا من الروايات التى وصلت إليهم ،ما يتفق مع امزجتهم ، ومنهم من دفعه الهوى والغرض إلى تأكيد الشبهات البعيدة عن العقل والمنطق ، مادام فيها ما يشبع ميله الدفين إلى التهوين من شأن الصحابة ، دون ما رجوع إلى أقوال الثقات من أئمة التاريخ والسير ، أو محاولة لقياس ما وصل إليهم من الأخبار الموضوعة ، والروايات المتضاربة ، بمقياس العدالة الثابتة بالكتاب والسنة لأصحاب النبى صلى الله عليها وسلم .

ولم يقف هؤلاء واولئك فى انحرافهم عند هذا الحد ، بل ازدادوا بعدا وانحرافا ، بما اضافوه من من تعليقات ، على ما اختاروه من سقيم الروايات ، وما تخيلوه من افتراضات ، واستنبطوه من نتائج ، حتى ابتعدوا بذلك عن الصورة الحقيقية للأحداث ، التى كان يجب الحرص على ابرازها ، وازالة كل غموض حولها ، وسيرى القارئ فى الفصل العاشر من هذا الكتاب أمثلة صارخة لما أوردناه ، أثبتنا بعدها عن الصواب ، بعد الأرض عن السماء .

ولعل من أسباب أنحراف بعض الكتاب المعاصرين — علاوة على تاثرهم بآراء المستشرقين ، وتسممهم بأفكارهم — هو اعتمادهم أحيانا ، فى روايتهم للوقائع ، أو عرضهم للأحداث ، على مؤلفات لها قيمتها الأدبية ، ولكن ليس لها نفس القيمة ، كمراجع تاريخية صادقة مثل :

١ — الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، وقد قال عنه ابن الجوزى : « . . ومثلة لايوثق به فانه يصرح فى كتبة بما يوجب العشق ، ويهون شرب الخمر ، وربما حكى ذلك عن نفسه ، ومن كتاب الأغانى : وجد فيه كل قبيح ومنكر »(١) .

٢ — العقد الفريد : لابن عبد ربه الأندلسى ، وهو من كتب الأدب لا من كتب التاريخ .

٣ — الإمام والسياسة لابن قتيبة ، وقد بين أكابر المحققين قيمتة العلمية والتاريخية ، فقال عنه الحاكم : « أجمعت أمة على أن القتبى كذاب » ! ! وقال الزين العراقى : « كان ابن قتيبة كثير الغلط » .

ووصفة القاضى أبوبكر بن العربى فى كتابه « العواصم من القواصم بأنه « جاهل » لانه : « لم يبق ولم يذر للصحابة رسما فى كتابه الأمامة والسياسة ، إن صح عنه جميع ما فيه » .

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ١١ - ٢٦٣ .

وقد لخص الامام الكوثرى ما قيل عن ابن قتيبة فقال :

« هو صاحب التصانيف ، أحد أئمة الأدب ، أخبارى ، قليل الرواية قد يعتمد فى التشبيه على مايرويه من كتب أهل الكتاب ، يتهم بالنصب (١) ، كذبه الحاكم ، ووثقه غيره » (٢) .

فمثل هذه المؤلفات : لا يصح الاعتماد عليها إلا فيما يتفق مع أقوال المؤرخين والمحدثين الثقات ، أو فيما لا يتعارض مع أقوالهم .

المبادىء الأساسية فى البحث :

من أجل ما تقدم ؛ فقد تحريت فى وضعى لهذا البحث المبادىء والاتجاهات التالية :

أولا — الرجوع بصفة أساسية ، فى سرد الأحداث ، واستجلاء الحقائق إلى المراجع المشهود لها بصدق الرواية ،وغزارة المادة ، لاسيما هؤلاء الذين جمعوا بين فنى التاريخ والحديث ،كابن سعد وابن جرير الطبرى وابن الأثير وابن كثير وغيرهم ممن عرضوا فى تواريخهم الروايات المختلفة بأسانيدها ، ثم عمد الكثير منهم إلى ترجيح الصحيح منها بما لهم من قدم راسخ فى علوم الحديث ، وطبقات الرواة ، وطرق الروايات .

وكان اعتمادى فى المقام الأول على المراجع التالية ، التى أوردها حسب ترتيب أقدميتها :

١ — تاريخ الرسل والملوك : لابى جعفر محمد بن جرير الطبرى المولود سنة ٢٢٤ والمتوفى سنة ٣٢٠ ، وهو اشهر المراجع القديمة ، وأوثقها سندا ، واصدقها أخبارا ، حتى أن القاضى أبا بكر ابن العربى ليقول فيه :

« لا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث ، ولاتسمعوا للمؤرخ كلاما إلا للطبرى ، وغير ذلك هو الموت الأحمر ، والداء الأكبر ، فانهم ينشئون احاديث فيها استحقار الصحابة والسلف والاستخفاف بهم ، واختراع الاسترسال فى الأقوال والأفعال عنهم ، وخروج مقاصدهم عن الدين إلى الدنيا ، وعن الحق إلى الهوى . . . » (٣) .

وقال عنه الحافظ المؤرخ شمس الدين السخاوى :

« . . . التاريخ المعول الجليل عليه فى معناه لكل من بعده ، للإمام ابى جعفر الطبرى ، أحد أئمة الاجتهاد ، الجامع من العلم لما لم يشاركه فيه أحد من معاصريه الأمجاد ، وهو جامع لطرق الروايات وأخبار العالم ، لكنه مقصور على ما وضعه لأجله من علم التاريخ والحروب والفتوحات ، قل أن يلم بجرح وتعديل ونحوه بحيث لم يستوف أخبار أحد من الأئمة ، أنما كانت عنايته فيه بذكر الحروب مفصلة ، والفتوحات مبينة لا مجملة ، وأخبار الأنبياء المتقدمين ، والملوك الماضين ، والطوائف السالفة والقرون الماضية ، بالطرق

---

(١) النصب بتشديد النون وفتح الصاد : أى أنه ناصبى ، ممن يناصبون أهل البيت العداء .

(٢) صفحات البرهان على صفحات العدوان : للإمام الحافظ محمد زاهد الكوثرى : ٣٦ ، ٣٧ .

(٣) العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي : ص ٢٤٨ .

المتنوعة والأساليب المتعددة ... فقد كان بحراً فيها وفى غيرها ... » (١) .

ويعتبر تاريخ الطبرى : أول كتاب فى التاريخ العام . أكمل به ما بدأه السابقون عليه من تاريخ للأحداث أو الأقاليم أو الطبقات .. وبذلك يعتبر تمهيداً لمن جاء بعده ، ومصدراً أصيلا من مصادرهم .

٢ – التاريخ الكامل لابن الأثير ، ولد عام ٥٥٥هجرية ، وتوفى عام ٦٣٠ وله من العمر خمسة وسبعون عاماً . وقد اعتمد ابن الأثير فى تاريخه هذا على تاريخ الرسل والملوك الطبرى ، وبذلك يعتبر مكملا له لأنه أرخ لغاية سنة ٦٢٨ هجرية . وقد أمتدحه السخاوى فقال :

« التاريخ المسمى بالكامل ، وهو كأسمه ، بحيث قال شيخنا (٢) : « إنه احسن التواريخ بالنسبة إلى إيراده الوقائع موضحة مبينة ، حتى كان السامع فى الغالب حاضرها ، مع حسن التصرف وجودة الإيراد » (٣) .

٣ – البداية والنهاية للحافظ العماد ابن كثير ، ولد سنة ٧٠٠ وتوفى سنة ٧٧٤ هجرية وقد اجمعت آراء الثقات على مكانته العلمية .

ذكره الذهبى فى معجمه المختص فقال : « الإمام ... المحدث ... المفتى ... البارع » .

وقال عنه ابن حبيب اشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رئاسة العلم فى التاريخ والحديث والتفسير ويمتاز « البداية والنهاية » - كما يقول مؤلفه حقاً – بخلوه من الإسرائيليات « إلا ما أذن الشارع فى نقله ، مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسولة ، .. فنذكره على سبيل التحلى به ، لا على سبيل الاحتياج إليه ، والاعتماد عليه ، وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما صح نقله أو حسن ، وما كان فيه ضعف بينيه »(٣) . ثم يقول :

« فاذا كان الله – سبحانه وله الحمد – قد أغنانا برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، عن سائر الشرائع ، وبكتابه عن سائر الكتب ، فلسنا نترامى على ما بأيديهم ، مما وقع فيه خبط وخلط ، وكذب ووضع ، وتحريف وتبديل ، بعد ذلك كله نسخ وتغيير .. » (٤) .

وقد اعتمد الإمام البدر العينى فى الأكثر على البداية والنهاية ، عندما ألف كتابه المسمى « عقد الجمان . فى تاريخ الزمان » فى ستين مجلداً ، أكثرها موجود بدار الكتب المصرية ، ما زالت مخطوطة ولم تطبع حتى الآن .

وهناك كثير من المراجع الأخرى ، لها شأنها العلمى والتاريخى وقد اعتمدت عليها فى إيضاح بعض الوقائع ، أو تعريف بعض الشخصيات المهمة مثل : الرياض النضرة ، وذخائر العقبى فى مناقب ذوى

---

(١) الإعلان بالتواريخ لمن ذم التاريخ : للحافظ السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هجرية – ص ١٤٤ .

(٢) أى شيخ السخاوى وهو العلامة الحافظ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هجرية .

(٣) الإعلان بالتوبيخ – للسخاوى : ص ١٤٤ .

(٤ و ٥) البداية والنهاية للحافظ عماد الدين أبى الفدا (ابن كثير) : ١ - ٦ و ٧ .

القرى للمحب الطبرى ، وسير أعلام النبلاء للذهبى ، والعبر فى أيام العرب والعجم والبربر لابن خلدون ، والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ، وغيرها مما ذكرته فى « مراجع الكتاب » مع التعريف اللازم بالمهم منها .

ولم أجد ما يدعو إلى الرجوع إلى المؤلفات الحديثة إلا فى أضيق الحدود ، لما لاحظته فى أكثرها من خلط بين الغث والسمين ، وقصور عن تمحيص الشبهات ، وإبراز الحقائق . . وإهمال لذكر مصادر النقول ، حتى يمكن للباحث المحقق أن يطمئن إلى صحة ما يقرأه فيها ، ولا سيما ما يتعلق منها بأخبار الصدر الأول من الإسلام ورجاله .

ثانياً : العناية دائماً بتمحيص الشبهات ، وبحث الروايات المتناقضة ، وقياس الأحداث المتصلة بالصحابة — رضوان الله عليهم — بمقياس العدالة المقررة لهم بشهادة الله ورسوله ، فلا سبيل بعد ذلك إلى الشك فى أمانتهم ، أو التردد فى التسليم بصدقهم ، وحسن نيتهم ، بعد أن أثبت الله لهم فى كتابه أنهم : « صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وما بدلوا تبديلا » وقرر النبى صلى الله عليه وسلم أنهم خير القرون ، وقد نزل القرآن الكريم عليهم ، وفهموا من معانيه وأسراره ما لا يفهمه غيرهم ، وعرفوا من أحكامه ومقاصده ما لا يعرفه غيرهم ، وسمعوا من النبى صلى الله عليه وسلم ورأوا منه ما لم يسمعه أو يره أحد قبلهم أو بعدهم ، فهم بعد كل ذلك وغيره فوق كل نقد ، وأسمى من كل شبهة ، بلغوا بصحبتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، ووعيهم عنه ، مرتبة الاجتهاد ، فمن أصاب منهم فله أجران ، ومن أخطأ فله أجر واحد .

ثالثاً — العناية — ما أمكن — باستخلاص العبر ، واستنباط الدروس النافعة ، بتحليل الأحداث المهمة ، وإبراز المعانى المستفادة منها ، والمثل العليا التى ترمز إليها ، لأن الهدف الحقيقى من دراسة التاريخ ؛ ليس التسلية بسرد الأحداث والوقائع ، وإنما — قبل كل شىء — هو العظة والاعتبار ، حتى يستطيع الخلف أن يستمد من السلف الخبرات اللازمة لمواصلة السير فى طريق الحق والرشاد . . . والعبرات التى تجنبه التعثر والزلل ، قال تعالى : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (١) .

عرض لفصول الكتاب :

وقد قسمت هذا البحث أو الكتاب إلى مقدمة وخاتمة ، بينهما عشرة فصول ، هذا بيانها :

الفصل الأول — البيت المطهر :

وقد بينت فيه فضل النبى صلى الله عليه وسلم على العالمين ، وكيف أن المسلمين غدوا بفضله خير أمة أخرجت للناس ، الأمر الذى يستلزم منهم محبته ، ثم أوضحت أن هذه المحبة هى المقياس الصحيح للإيمان وضعفه . ثم عرضت طرفاً من فضل أهل البيت على الأمة ، وواجب الأمة نحو توقيرهم وتعظيمهم ،

---

(١) سورة يوسف : آية ١١١ .

لأن توقيرهم وتعظيم لله ورسوله ، ثم عرضت أمثلة من حب السلف الصالح لأهل البيت ، وكيف كانوا يقدمونهم دائماً على أنفسهم وأهليهم ، ثم بينت أن « أهل البيت » وصف يشمل أهل النبي صلى الله عليه وسلم فى السكن ، كما يشمل أهله فى النسب ، وأنهم يتفاضلون بمقدار قربهم منه صلى الله عليه وسلم أو بعدهم عنه ، وان أعلاهم مقاماً وأولاهم بالحب والتوقير : أبناء الزهراء رضى الله عنهم وعنها ، لا سيما الحسن والحسين اللذان اقتضت إرادة المولى عز وجل أن تستمر ذرية النبى صلى الله عليه وسلم منهما إلى يوم القيامة .

الفصل الثانى — أبناء الزهراء :

وقد تكلمت فيه عن مكانة الحسنين — رضى الله عنهما — من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتنشئتهما خير تنشئة ، تقوم على غرس روح العزة والكرامة ، وبث معانى الإيمان والتقوى ، ثم عرضت لمقام الحسنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتكريمهم لهما ، حتى بلغا مبلغ الفتوة ، فتحملا نصيبهما من الجهاد فى سبيل الله ، واشتركا فى غزو المغرب الأقصى وطبرستان ، وفى الدفاع عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم عرضت لصحبتهما لوالدهما — كرم الله وجهه — فى مواقع الجمل وصفين والنهروان وما شاهداه من بطولته وإقدامه ، حتى أصابه ابن ملجم ، فأوصاهما — كرم الله وجهه — وصيته الجامعة ، وأبى أن يعهد لأحد من أبنائه ، تاركاً الأمر لله تعالى .

ثم عرضت بعد ذلك لمناقب الحسنين — رضى الله عنهما — كل على حدة ، وما اشتهرا به من مكارم الأخلاق ، حتى استحقا ما وصفهما به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بأنهما (سيدا شباب أهل الجنة » وعنيت بصفة خاصة بربانية الحسين — رضى الله عنه — وأثرها فى نفسه ، وفى مواقفه من الأحداث الجسام ، وكيف أنه كان على صلة مستمرة بجده صلى الله عليه وسلم ، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وكان على بينة من ربه فى جميع خطواته وتصرفاته .

ثم تكلمت عن السيدة زينب — رضى الله عنها — وكيف اتخذها المولى مثالا عالياً للنساء ، كما اتخذ من شقيقها الحسين — رضى الله عنه — مثالا عالياً للرجال ، وعرضت لما أظهرته من وفاء لأهل بيتها ، وما تقلبت به النوائب بالصبر والرضى بقضاء الله ، وما عرفت به من فصاحة فى القول ، وقوة فى الحجة ، وجرأة فى مجابهة الظالمين ، وقدرة على أفحامهم وأذلالهم ، وغير ذلك من المواقف الباهرة ، والسيرة العطرة ، التى لا تتوفر إلا لأهل البيت رضى الله عنهم أجمعين .

الفصل الثالث — من الخلافة إلى الملك :

وفيه عرضت للخلافة ووجوب إقامتها شرعاً ، واختلاف الطرق التى اتبعت فى اختيار الخلفاء الراشدين ، ثم عرضت لتطور الخلافة إلى صورة من صور الملك ، وموقف الإسلام من الملكية ، وكيف أن هذا التطور كان أمراً مقضياً بتنازل الحسن رضى الله عنه ، تصديقاً لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم « الخلافة بعدى ثلاثون . . ثم ملك بعد ذلك » وبذلك كان معاوية — رضى الله عنه — خير ملوك الإسلام وأولهم ، فقد جمع شمل الأمة ، وسار سيرة حميدة ، إلى أن أنتهى به الأمر حتى عهد من بعده

إلى أبنه يزيد ، وأن ذلك وإن كان على غير رضى من أكابر الصحابة ، إلا أنه كان مجتهداً فى رأيه ، متوخياً مصلحة المسلمين ووحدتهم . . ثم بينت كيف خالف يزيد وصية أبيه بشأن أكابر الصحابة وحاول أرغام من لم يبايع منهم ، على البيعة بالقوة . . ولا سيما الحسين — سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه .

الفصل الرابع — هجرة فى سبيل الله :

وفيه أوضحت أن خروج سيدنا الحسين — رضى الله عنه — من المدينة ، كان اضطراراً ، حتى لا يرغم على بيعة لا يؤمن بها ، وأن إلتجاءه إلى مكة دليل على حرصه على الابتعاد عن الفتن ، والاحتماء بالبيت الحرام من الإرغام ، وأنه لو ترك وشأنه ؛ لقضى البقية الباقية من حياته فى عبادة الله ، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة . ولكنه اضطر بعد قليل إلى الهجرة من مكة ، بعد أن أحس أن القوم يدبرون لأخذه ، طوعاً أو كرهاً ، فغادرها حرصاً على قدسيتها ، وأشفاقاً من أن تستحل حرمتها ، وأن مسئولية تطور الأحداث إلى ما أنتهت إليه ، لا تقع على الحسين رضى الله عنه ، وإنما تقع على يزيد وولاته ، الذين حاولوا إرغام الحسين عليه السلام ، وهو كما يعلمونه صاحب النفس الأبية التى تؤثر الموت على المهانة .

الفصل الخامس — من مكة إلى كربلاء :

وفى هذا الفصل : عرضت لكيفية خروج الحسين — رضى الله عنه — من مكة ظهيرة يوم التروية ، وكيف حاول واليها منعه من ذلك بالقوة ، وكيف أمتنع الحسين — عليه السلام — من معترضيه وواصل طريقه ، مصراً على نيته ، رغم نصائح أكابر الصحابة له بالبقاء ، وكيف كان إصراره نتيجة معرفة صادقة ببواطن الأمور ، وتعليمات صدرت إليه من النبى — صلى الله عليه وسلم — فى رؤياه له ، وحديثه معه ، وكيف أنه واصل طريقه إلى الكوفة ، حتى بعد علمه بتغير الأحوال بها ، ومصرع رسوله إليها ، وانفضاض الناس عنه ، وكيف أنه بلغ من صدقه مع الله ، ونبله مع الناس ، أنه أمر من معه بتقديم الماء لأعدائه ، ورشف خيولهم ، وملء آنيتهم ، مع ما فى ذلك من تقوية لهم على قتاله . . وأخيراً كيف رفض — رضى الله عنه — نصرة عشرين الفاً ، من طيىء ، حرصاً على حقن دماء المسلمين . وحصراً للفتنة فى أضيق الحدود ، ثم تناولت موقف الحفنة المؤمنة من أصحاب الحسين وآل بيته ، وكيف أنهم حين أذن لهم بالأنصراف وتركه وحده — لان القوم إنما يريدونه — أبوا إلا البقاء بجانبه ، وآثروا الشهادة فى سبيله ، على النجاة والحياة . . .

الفصل السادس — المعركة الخالدة :

وقد أوضحت أن أهمية المعارك لا تتوقف على ضخامتها ، وإنما تتوقف على الأثر الذى تتركه فى حياة البشرية ، كما أوضحت أن دعاة الحق وشهداءه ، يتساوى فى حقهم الحياة . . والموت ، وأن دعوتهم تعلو وتظهر بما يحققونه من نصر ، أو يفوزون به من شهادة ، وأن « كربلاء » التى انتهت باستشهاد الحسين وأهل بيته ، رضى الله عنهم ، قد كتبت له الحياة فى أروع صورها ، فى حين باء خصومه — رغم انتصارهم — بأسوأ نهاية فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، ثم عرضت صور

هذه المعركة . . مما أظهرته الحفنة المؤمنة من ضروب البسالة والفداء ، دفاعاً عن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انتهت باستشهاده فى أروع صورة من الكرامة والعزة .

الفصل السابع — مدرسة الإيمان :

أوضحت فى هذا الفصل أن « كربلاء » وما اتصل بها من أحداث ، لم تكن ميدانا للبطولة فى أروع صورها فحسب ، وإنما كانت مدرسة للإيمان فى كثير من نواحيه ، يستطيع أبناء الإسلام أن يتلقوا عنها كيف أن الحياة هى حياة الكفاح فى سبيل الحق ، والجهاد من أجل العقيدة ، وكيف يكون الحرص على الموت فى سبيل الله : أحب إلى نفس المؤمن من السلامة والحياة ، وكيف أن الشدائد لا تزيد المؤمن إلا ثقة بالله ، واتجاها إليه ، وكيف أن المؤمن — مهما كانت الأخطار المحيطة به — لا يرضى أبداً بالدنية فإما النصر وإما الشهادة ، وكيف أن عزة الإسلام وكرامته ، تأبى اشتراك النساء فى الحروب ، ما دام فى الرجال عرق ينبض . . وكيف أن شهامة الإسلام تأبى الغدر ولو بأشد الأعداء خطرا وكفراً . . إلى غير ذلك من المثل العليا التى كان الحسين — رضى الله عنه — وصحبه أشد ما يكونون حرصاً على التمسك بها . . فى كل الظروف . . وفى كل الأحوال .

الفصل الثامن — صدى الأحداث :

وقد عرضت فيه رد الفعل الذى أحدثه مقتل سيد شباب أهل الجنة وآل بيته رضى الله عنهم ، فى المجتمع بكافة طبقاته وكيف أن صدى الجريمة الشنعاء استمر يعلو ، حتى تحول إلى دوى يصم آذان الطغاة ، واعصار يزلزل دولة الظالمين ، الذين أحسوا بأن الزمام يوشك أن يفلت منهم ، فأبوا إلا إيغالا فى البطش ، فهاجموا المدينة وقتلوا الألوف من أهلها ، وأباحوها ثلاثة أيام ، ثم هاجموا البلد الحرام ، وضربوا الكعبة المشرفة بالمجانيق ، حتى أخذهم الله عزيز مقتدر ، فمات يزيد فى عنفوان شبابه ، واستمرت الفتن تقوى ، والدعوة إلى ثارات الحسين — رضى الله عنه — تملأ الآفاق ، وتشق طريقها إلى أعماق القلوب ، مما كان له أبعد الأثر فى سقوط الدولة الأموية فى النهاية .

الفصل التاسع — مصارع الظالمين :

عنيت فى هذا الفصل ببيان سنة الله تعالى فى الطغاة الظالمين ، وأن تأخير المؤاخذة لهم ، انما هو استدراج منه عز وجل ، يعقبه الأخذ الشديد . وهذا هو ما حدث بالنسبة لكل من وقف من الحسين — رضى الله عنه — موقف العداء أو الاعتداء فقد كان انتقام الله منهم أليما بمقدار عظم الجرم الذى اقترفوه ، فلم يبق منهم ولم يذر ، ولم تمض سنوات حتى لم يبق على الأرض منهم أحداً ، رغم أنهم كانوا يعدون بالألوف ، فقد سلط الله عليهم من هو أظلم منهم ، وهو المختار الثقفى «وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » .

وقد تتبعت فى هذا الفصل مصير كل من أئمة البغى والعدوان ، وكيف لقى كل منهم الجزاء الأوفى المناسب لمقدار الجرم الذى اقترفه ونوعه . . وكيف أن عدالة السماء لم تقف عند حد الانتقام منهم ، بل لاحقت ذرياتهم ، حتى بلغ عدد من أصابه العمى فى جدرى وقع بالكوفة : ألفاً وخمسمائة ، من أبناء وذرية من شهدوا مقتل الحسين رضى الله عنه .

الفصل العاشر – شبهات . . وأباطيل :

وقد بدأت هذا الفصل ببيان أن الأصل فى الصحابة – رضى الله عنهم – أنهم جميعاً عدول ، بشهادة الله تعالى ، وشهادة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن حبهم من الإيمان ، وإيذاءهم إيذاء لله والرسول ، وإن مقامهم لا يدركه أحد بعدهم ، وأن توقيرهم دليل على صدق الإيمان ، والغض منهم دليل على الفانق والزندقة .

وعلى هذا الأساس يجب رفض كل الأخبار التى تمس عدالتهم ، لأنه لا شك فى عدم صحتها ابتداء لتعارضها مع كتاب الله وسنة رسوله ، وأن الدراسة الأمينة والبحث العلمى الصحيح سينتهى إلى إثبات هذه العدالة ، ومحق كل شبهة حولها . : :

وانتقلت بعد ذلك إلى أهم الشبهات التى تتصل بموضوع هذه الرسالة وهى التى تمس سمعة وعدالة بعض أكابر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وعرضت أقوال بعض المعاصرين بشأنها ، وقارنتها بما ورد فى روايات الثقات ، وأظهرت مدى ما فيها من تهافت وخلل ، أو جهالة وغرض ، مقدمة فى النهاية الدليل القاطع على زيفها ، بما يثبت لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنهم حقاً نجوم الهدى ، وأئمة الفضائل والتقى ، رضى الله عنهم أجمعين ، وعنيت بصفة خاصة بما أسميته « قضية القضايا » أو موقف سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – من البيعة والخلافة ، وقد عرضت لأقوال بعض المؤرخين والمعاصرين فى هذه القضية ، وبينت وجه الحقيقة فيها ، وأثبت أن الحسين – رضى الله عنه – كان فى كل مواقفه متسامياً عن مطامع الدنيا ، راغباً رغبة أكيدة فى السلام ، حريصاً كل الحرص على حقن الدماء ، وحصر الفتنة فى أضيق نطاق ، وفى سبيل ذلك بذل كل مرتخص وغال وفداء لأمته .

وقد ختمت هذا الفصل ببيان وجه الحق فى بعض الأحاديث والروايات الموضوعة عن سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، بقصد إظهاره بمظهر خارق للعادة ، وبينت أنه – عليه السلام – ليس فى حاجة إلى مزيد فضل أو شرف ، حتى ننسب إليه من الخرافات والخوارق ، ما يتوهمه القائلون ، أنه دليل على سمو مقامه ، وعلو قدره ، مثل قولهم :

– أنه رضى الله عنه – لم ترضعه أنثى ، وإنما كان رضاعه من إبهام النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى أنبت الله لحم الحسين من لحم النبى صلى الله عليه وسلم : :

– أن السماء احمرت لمقتله – رضى الله عنه – وأن الشمس كسفت ، حتى بدت الكواكب نصف النهار .

– أن الشفق الأحمر لم يكن يظهر فى السماء قبل مقتله عليه السلام .

– أن السماء أمطرت دماً ، وأن الكواكب ضربت بعضها بعضاً .

– أنه لم يرفع حجر فى الشام إلا وجد تحته دم عبيط .

– أنه لما جيء برأس الحسين – رضى الله عنه – إلى دار ابن زياد سالت حيطانها دماً . . . . . إلى غير ذلك من الترهات التى لا تتفق مع سنة الله تعالى فى خلقه ، والتى لم يسبق وقوع شيء منها ، أو وقوع ما يشبهها ، حين استشهد والد الحسين – على بن أبى طالب – رضى الله عنهما ، وهو أفضل منه ، ولا حين استشهد عثمان بن عفان أو عمر بن الخطاب رضى الله عنهما . . بل أنه لم يقع شيء من ذلك بالنسبة لأشرف الخلق فى الأولين والآخرين – سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم – حين لحق بالرفيق الأعلى .

وبعد : فقد عنيت – بصفة خاصة – خلال وضعى لهذه الرسالة ، أن اوضح بهامش صفحاتها ، التخريج اللازم لأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، مع بيان موضعها من كتب السنة المطهرة ، . : كما عنيت باثبات اسماء المراجع ، عند ايراد اى قول منقول عنها ، أو أية رواية أعتمدت عليها ، مع ايضاح الجزء والصفحة ، بما يسهل على القارىء متابعة ما يعن له من الاقوال والروايات ، وان يرجع إلى المصادر الأصلية – القديم منها والحديث ، ان اراد مزيدا من المعلومات ، أو تثبتا من البيانات .

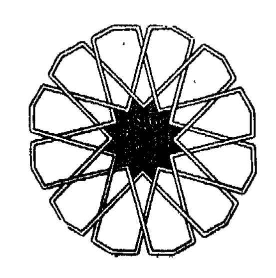
كماانى عنيت عند ذكر الكثير من الصحابة والتابعين ، أن أقدم للقارىء بالهامش تعريفا مختصرا عنهم ، يظهر بعض صورتهم ، ويوضح بعض سيرتهم :

ولعلى بعد كل ماتقدم : اكون قد قدمت إلى المكتبة العربية جديدا فى تاريخ سيد شباب اهل الجنة ، رضى الله تعالى عنه ، واوضحت بعض الغموض الذى كان يكتنف بعض نواحى ذلك التاريخ ، وبددت الكثير من الشبهات التى ألصقت بسيرته الطيبة .

رضى والحمد لله رب العالمين

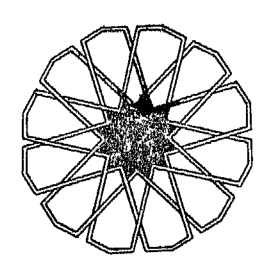
وصلى الله على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه اجمعين .

حسين محمد يوسف



الفصل الأول

« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » .





فضل النبي صلى الله عليه وسلم على العالمين :

لسيد الأنبياء والمرسلين – صلى الله عليه وسلم – فضل عظيم على الناس جميعا بصفة عامة ، وعلى أمة الاسلام بصفة خاصة .

ولا عجب : فقد فضله الله تعالى على العالمين ، بما فى ذلك جميع النبيين والمرسلين ، حتى انه ليقول فى معرض التحدث بنعمة الله عليه ، واحسانه اليه :

أعطيت خمسا لم يعطهن احد من الأنبياء قبلى :

نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأحلت لى الغنائم ، واعطيت لى الشفاعة وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة »(١)

أما فضله على الناس عموما ، فثابت من قوله تعالى : « وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢)

ولقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال : « كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس ، فمن آمن به وصدق به سعد ، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخسف والغرق » (٣) .

وأما فضله على أمة الاسلام ، فواضح من قوله عز وجل : « لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » (٤) .

وفى خطاب المغيرة بن شعبة ، امام كسرى الفرس « يزدجرد » ما يصور لنا طرفا من فضل النبي صلى الله عليه وسلم ، اذ يقول :

« . . كنا نأكل الخنافس ، والجعلان ، والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فانما هى ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا غزلنا من أوبار الابل واشعار الغنم . . ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ، وأن يبغى بعضنا على بعض . . وان كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية ، كراهية ان تأكل من طعامه . . فبعث الله الينا رجلا معروفا ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير ارضنا ، وحسبه خير احسابنا ، وبيته خير بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو نفسه : كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا . . فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه . فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : « إن ربكم يقول : أنا الله وحدى لا شريك لى . . وإن رحمتى ادركتكم ، فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى انجيكم بها بعد الموت من عذابى . ولأحلكم دارى . .

---

(١) متفق عليه من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .
(٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى : ١١ - ٣٥٠ .
(٤) سورة آل عمران : آية ١٦٤ .

دار السلام » . . فنشهد أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم ، وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ، ثم أمنعوه مما تمنعون منه أنفسكم . . ومن أبى فقاتلوه ، فمن قتل منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم آعقبته النصر على من ناواه . . » (١)

فضل النبي صلى الله عليه وسلم على الأمة :

وبهذا الرسول الكريم : فضلت أمة الاسلام على العالمين ، فقال تعالى فى وصفها :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٢) .

وقد جمع الله لهذه الأمة من المكارم ، ما فرقه فى الأمم السابقة لهم — كما جعل للنبي صلى الله عليه وسلم من الفضل ، ما فرقه فيمن سبقه من الأنبياء والمرسلين . . فهم أوسط الأمم مقاما ، وأشرفهم رسالة ، وأصدقهم حديثا ، حتى أنه من المتفق عليه أنهم لا يجتمعون على ضلالة قط ، وأن اجماعهم حجة ، وأختلافهم رحمة — وقد كان أختلاف من قبلهم نقمة وعذابا — كما أن شريعتهم آخر الشرائع وأكملها ، وبها تمت مكارم الأخلاق التى ما بعث الأنبياء إلا بالدعوة اليها ، وقرآنهم محفوظ من التغيير والتبديل إلى يوم القيامة ، ولا تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق ، آمرين بالمعروف ، ناهين عن المنكر لا يضرهم من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله .

ولا يقف فضل هذه الأمة — ببركة نبيها صلى الله عليه وسلم — عند حد هذه الحياة الدنيا ، بل تستمر أفضليتهم فى الدار الآخرة ، فهم أول من تنشق الأرض عنهم يوم القيامة ، قال صلى الله عليه وسلم :

« وأنا أول من تنشق الأرض عنى وعن أمتى ولا فخر » (٣) .

كما أنهم يدعون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الوضوء ، ويخصص لهم يوم القيامة مكان عال يقفون فيه ، ويتخذ منهم رب العالمين شهداء على الناس . قال صلى الله عليه وسلم :

« . . . أنا وأمتى على كوم مشرفين على الخلائق ، ما من الناس أحد إلا ود أنه منا ، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد له أنه بلغ رسالة ربه » (٤) .

ويظل فضل أمة الإسلام ، ببركة أشرف الأنام ، ظاهراً ، حتى يعطى كل منهم كتابه بيمينه ، ويسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . . إلى أن يكونوا أول من يدخل الجنة من العالمين . قال صلى الله عليه وسلم :

« حرمت الجنة على الأنبياء حتى أدخلها ، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى (٥) » .

---

(١) البداية والنهاية : للإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبى الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير : ٧ - ٤٢ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١١٠ .

(٣) الأنوار المحمدية للنبهانى : ص ٣٣٠ : رواه أبو نعيم من حديث ابن عباس رضى الله عنه .

(٤) المصدر السابق : رواه ابن جرير عن جابر رضى الله عنه .

(٥) المصدر السابق ، رواية عن الطبرانى من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

حب النبي . . هو مقياس الإيمان :

وإذا كان ما تقدم هو بعض فضل سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم على أمته ، فان ذلك يستلزم منهم ، أن تخفق بمحبته قلوبهم ، وأن تتوق إلى لقائه ورؤيته أرواحهم ، فضلا عن أن تكون هذه المحبة فرضاً عليهم ، ومقياسة صادقاً صادقاً لإيمانهم ، لأنه إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ، هو الذى دلنا على الله تعالى ، فحبب إلينا الإيمان به ، وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، وأخرجنا من ظلمات الجاهلية ، إلى نور الإسلام وهدايته ، فلا شك أن أصدق المؤمنين إيماناً ، هم أكثرهم حباً له واتباعاً لسنته ، وجهاداً فى سبيله ، وتضحية بكل مرتخص وغال انتصاراً لدعوته ، وإعلاء لكلمته ، لذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والداه والناس أجمعين » (١) .

ومعنى ذلك : أن أحب النبي صلى الله عليه وسلم — بما يتضاءل دونه كل حب — شرط فى صحة الإيمان بالله تعالى ، فمن لم يستشعر قلبه محبته صلى الله عليه وسلم ، بهذا المستوى اللائق بفضله على الناس ، ومكانته من الله تعالى ، فقد دل بذلك على قصوره عن الوفاء بحقه — صلى الله عليه وسلم — ونقص إيمانه بالله تعالى .

هذا هو عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقول له : لأنت يارسول الله أحب إلى من كل شىء ، إلا نفسى التى بين جنبى . . . . فيجيبه النبي صلى الله عليه وسلم : « لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فيقول عمر : والذى أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلى من نفسى التى بين جنبى . فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم : « الآن يا عمر » . . (٢) أى الآن فقط كمل إيمانك .

وسئل على بن أبى طالب — رضى الله عنه كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال :
« كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ، ومن الماء البارد على الظمأ » (٣)

فالتفاوت فى محبة النبي صلى الله عليه وسلم ، هو فى حقيقة أمره تفاوت فى قوة الإيمان وضعفه ، لأن هذا التفاوت فى المحبة هو نتيجة أحد أمرين : إما نقص فى معرفة فضل النبي صلى الله عليه وسلم ، وأثره فى هداية الأفراد والجماعات والأمم ، وجهاده فى سبيل تطهير النفوس من الشرك ، وتحرير المستضعفين من الذل ، وإنصاف المظلومين ، وإقامة العدالة كاملة بين الجميع — وأما ظلمة فى القلب ، حجبته عن نور الله ، وبغضت إليه سبيل الرشاد ، بمقدار أو بآخر ، فلا تزيده الدعوة إلى الحق إلا نفورا منها ، وبعداً عن الداعى إليها ، وكلا الأمرين : الجهل بفضل النبي صلى الله عليه وسلم ، أو ظلمة القلب التى تحجبه عن نور الله ، يؤديان إلى نقصان الإيمان ، بمقدار ذلكم الجهل ، أو تلكم الظلمة .

---

(١) متفق عليه ، من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب الإيمان : باب حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان .

(٣) الفوائد الجليلة البهية ، على الشمائل المحمدية : لمحمد بن قاسم جسوس : ص ٣٠٣ .

كيف أحب الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم :

ولقد كان الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين — هم أعرف الناس بفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصدقهم حباً له ، وأقواهم إيماناً بالله تعالى .

لقد أحبوا الرسول صلى الله عليه وسلم من أعماق قلوبهم ، حتى أن الواحد منهم كان إذا تحدث إليه : بدأ بالتعبير عن صادق حبه ، واستعداده لافتدائه صلى الله عليه وسلم بأغلى ما عنده ، فيقول : بأبى أنت وأمى يارسول الله . أى أفديك بأبى وأمى ! !

ولقد ترجم الصحابة — رضى الله عنهم — ذلكم الشعور الصادق ، شعور المحبة والوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى حقائق واقعة ، ومواقف خالدة رائعة ، من بذل للأموال بسخاء ، إلى صبر على الأذى والبلاء ، ومن جهاد سبيل الله بالروح والدماء ، إلى التنافس فى مضمار الإيثار والفداء ، إلى غير ذلك من الأحوال التى خلدها التاريخ فى صفحاته ، بسطور من النور ، تأخذ بالأبصار .

أحب أبو بكر الصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضع تحت تصرفه ماله وحياته ، حتى إذا كانت الهجرة حمل معه كل ما يملك ، فلما سأله النبى صلى الله عليه وسلم عما ترك لأولاده ، قال : تركت لهم الله ورسوله ، . . وحين انطلاقه مع حبيبه صلى الله عليه وسلم نحو الغار ، بلغ من حبه له ، وخوفه عليه ، وحرصه على افتدائه بحياته من أى خطر أو أذى ، أنه كان تارة يتقدم النبى — صلى الله عليه وسلم — بين يديه ، وأخرى يتأخر حتى يكون خلفه . حتى سأله النبى صلى الله عليه وسلم عن سبب ذلك ، فقال له :

يارسول الله : اذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك (١) ، ومرة عن يمينك ، ومرة عن يسارك ، لا آمن عليك (٢) .

فلما وصلا إلى الغار : سبق الصديق النبى — صلى الله عليه وسلم — فى الدخول ليطمئن على خلو الغار من الحشرات المؤذية ، وسد جميع الثقوب به إلا واحدا ، ألقمه كعبه ، فجعلت الأفاعى تلدغه ، وهو صابر على الألم يكاد يبرح به ، وعلى السم ينسرى فى جسده ، أشفاقا من أن يستيقظ النبى صلى الله عليه وسلم من نومه ، حتى أفاق صلى الله عليه وسلم ، على دموع الصديق تتساقط على وجهه ، فمسح بريقه على قدمه ، فذهب مابه .

وبلغ من حب عمر بن الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، أنه تفانى فى نصرة الدعوة التى بعث النبى صلى الله عليه وسلم بها ، دون مبالاة بما يعرضه من قوة ، أو يصيبه من أذى ، فما كاد يطمئن إلى الاسلام ، حتى ذهب يتحدى قريشا فى مجالسها ، معلنا اسلامه ، ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : يارسول الله : على ما نخفى ديننا ونحن على الحق ، وهم على الباطل ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أناقليل » فقال : والذى بعثك بالحق نبيا ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر ، إلا ظهرت

(١ و ٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٣ - ١٨٠ ، والرياض النضرة للمحب الطبرى ١ - ٩١ .

فيه بالايمان ، غير هائب ولا خائف (١) ، فاستجاب النبي صلى الله عليه وسلم لإيمان عمر ، فخرج إلى الكعبة حتى طاف بالبيت الحرام ، وصلى الظهر علنا بمن كان معه من المسلمين ، وبدأت الدعوة إلى الله تعالى علانية .

وبلغ من حب عثمان رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم ، أنه وضع ماله فى سبيل نصرة دعوته ، حتى لقد جهز فى جيش العشرة الف بعير وسبعين فارسا ، وبعث إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – بعشرة آلاف دينار ، فصبت بين يديه ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها ويقول : « غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت ، وماهو كائن إلى يوم القيامة . . » (٢)

وجهاد على – كرم الله وجهه – مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلاؤه البعيد فى كل المواطن وتمسكه بسننه فى كل صغيرة وكبيرة ، كل هذا وغيره ، لمن أروع صور الايمان المستمدة من حبه للنبي صلى الله عليه وسلم .

* * *

ولقد بلغ من حب الصحابة عامة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتعظيمهم لشخصه ، ما رواه عروة بن مسعود رضى الله عنه ، حين ارسلته قريش – قبل اسلامه – إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أقبل بمن معه حتى نزل بالحديبية ، لقضاء العمرة ، فاخذ عروة يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ويتفرس أحوالهم ، فأخذ بلبه مارآه من وفائهم له ، وتعلقهم به ، وتسابقهم إلى طاعته ،وتنافسهم فى التبرك بآثاره ، حتى أنه ليقول لقومه بعد أن رجع إليهم :

« أى قوم : والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ، ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، والله أن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذ تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له . . » (٣) .

هذا هو ما رواه عروة بن مسعود ، وهو ما زال على دين قومه ، يعبد الأصنام ، ويقدس اللات والعزى ، مما كان له أعمق الأثر فى نفسه ، وشرح صدره للإسلام ، فكان من السابقين .

* * *

ولقد بلغ من تغلغل حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى أعماق الصحابة عموماً ،مبلغاً جعلهم يؤثرون الموت الزؤام على أن يشاك النبي – صلى الله عليه وسلم – بشوكة ، ويستعذبون التضحية بفلذات أكبادهم افتداء لسلامته ، تكاد تزهق منهم الأرواح شوقاً إليه إذا ما غاب عنهم .

---

(١) الرياض النضرة للمحب الطبرى : ١ - ٢٥٦ من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٢) المرجع السابق : ٢ - ١٢١ من حديث حذيفة رضى الله عنه .

(٣) صحيح البخارى : كتاب الشروط : باب شروط الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

هذا هو زيد بن الدثنة — رضى الله عنه — يقع فى أسر المشركين ، فيبتاعه منهم صفوان بن أمية ، ليقتله بأبيه الذى قتله المسلمون ببدر ، ويجتمع أكابر قريش وزعماؤها ليشفوا غيظهم بتعذيب زيد وإزهاق روحه ، ويتقدم أبو سفيان إلى المؤمن البطل وقد شد وثاقه ، فيسأله قائلا :

أنشدك الله يا زيد : أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه ، وأنك فى أهلك ؟ فيجيبه رضى الله عنه — وهو يرى السيوف توشك أن تقطعه ، والرماح توشك أن تخترمه — قائلا دون تردد :

والله ما أحب أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، فى مكانه الذى هو فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنى جالس فى أهلى ..

ويعجب أبو سفيان لهذه الصورة الرائعة من الوفاء والإيثار ، فلا يتمالك نفسه أن يقول :

ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً ، كحب أصحاب محمد محمداً(١) ..

وهذه هى امرأة من الأنصار ، يأتيها الخبر باستشهاد أبيها وأخيها وزوجها ، فى يوم واحد ، فلا تبالى بذلك ، ولا تسأل عن أى أمر يتعلق بهم ، لأن حبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجح كل حب سواه ، فلم يعد يشغل بالها إلا الإطمئنان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتسأل عنه فى لهفة قائلة :

ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فإذا ما أجابوها بما يطمئنها ، قائلين لها : خيراً .. هو بحمد الله كما تحبين ، لم تتمالك نفسها من الفرح بسلامة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم تفكر إلا فى اشباع شوقها إلى رؤية طلعته الشريفة ، فتقول لهم معبرة عن شعورها :

أرونيه أنظر إليه .. فإذا ما وقع بصرها عليه ، قالت له معبرة عن طرف من حبها له : كل مصيبة بعدك جلل (٢) .. أى صغيرة لاقيمة لها ..

* * *

وهذا هو ثوبان (٣) — رضى الله عنه — لا يطيق صبراً على غياب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لشدة حبه له ، وتعلقه به ، فذهب ذات يوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد تغير لونه ، وظهر الحزن فى وجهه ، ولم تغب حالته عن النبى الحبيب ، وهو صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فسأله مشفقاً :

« يا ثوبان : ما غير لونك » ؟ فيجيب ثوبان — رضى الله عنه — مصوراً حاله وآلامه :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٤ - ٦٥ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٢ - ٥٣٣ .

(٣) ثوبان رضى الله عنه ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صحابى مشهور ، أعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخدمه إلى أن لحق بالرفيق الأعلى ، وقد حفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة من التابعين ، وتوفى بحمص سنة ٥٤ (الإصابة لابن حجر : ١ — ٢٠٤) .

يا رسول الله : ما بي ضر ولا وجع ، غير أني لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ، ثم ذكرت الآخرة ، فأخاف أن لا أراك لأنك ترفع مع النبيين ، واني ان دخلت الجنة في منزلة أدنى من منزلتك ، وان لم أدخل الجنة لا أراك أبدا (١) .

وتكريماً لهذه المحبة الخالصة ، وطمأنة لأصحابها ، أنزل الله تعالى قوله :

« ومن يطع الله والرسول ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا »(٢) .

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم ، لصدق إيمانهم بالله ، وخالص محبتهم لرسوله ، صلى الله عليه وسلم ، لا يجدون شفاء لشوقهم إليه ، وتعلقهم به ، إلا بمشاهدة طلعته ، والائتناس بالجلوس إليه ، والاستماع إلى حديثه ، والارتواء من فيضه .

ولقد عبر عن هذه المعاني أحسن تعبير ، وصورها أروع تصوير ، شاعر من شعراء الإسلام ، فقال :

إذا لم ترك العين في كل ساعة	ولم تسمع الآذان منك كلاما
تذوب من الشوق الشديد حشاشتي	عليك ، كما قلبي يذوب غراما
أرى ساعة الهجر يوماً ، ويومه	يخيل لي شهراً ، وشهره عاماً
إذا غبت غاب الجفن في بحر دمعه	فلله جفن في المدامع عاما(٣)

* * *

لذلك : كانت فجيعة الصحابة — رضوان الله عليهم — بانتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، كانت فجيعتهم أليمة وفادحة ، بمقدار حبهم له ، ومعرفتهم لفضله ، حتى لقد أحس البعض منهم ، أن الحياة بعده لاشيء ، وليس فيها ما تقر العين بمشاهدته ، أو تصبو الروح إليه ، وبلغ الحزن بعبد الله ابن زيد بن عبد ربه الأنصاري — رضي الله عنه — انه دعا ربه قائلا :

« اللهم اعمني ، فلا أرى شيئاً بعد حبيبي ، حتى ألقى حبيبي » فعمي مكانه (٤) .

أما هؤلاء الذين كتبت لهم الحياة من بعده صلى الله عليه وسلم ، فقد ظلوا في حنين إليه ، وشوق إلى لقائه ، حتى كان الموت أحب شيء إليهم ، وأطيب الأماني إلى نفوسهم :

لما احتضر بلال — رضي الله عنه — نادت امرأته : واحرباه ، فقال رداً عليها :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ٥ - ٢٧٢ .

(٢) سورة النساء ، آية : ٧٠ .

(٣) الفوائد الجليلة البهية ، على الشمائل المحمدية ، للعلامة محمد بن قاسم جسوس ص ٢٤ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد القرطبي : ٥ - ٢٧١ .

« واطرباه . : غداً ألقى الأحبة ، محمداً وصحبه » (١) . .

حب أهل البيت من الإيمان :

وإذا كان حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، هو المقياس الحقيقي لقوة الإيمان وضعفه ؛ فإن حب أهل بيته هو النتيجة الحتمية لحبه صلى الله عليه وسلم ، وعرفان فضله ، بل هو النتيجة الحتمية للإيمان بالله ورسوله : قال صلى الله عليه وسلم :

« أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به ، وأحبونى بحبكم لله ، وأحبوا أهل بيتى بحبكم لى » (٢) .

وتأكيداً لهذا المعنى : بين النبي صلى الله عليه وسلم أن حق أهل البيت – رضى الله عنهم – على المسلمين ، كحق القرآن عليهم ، من الإجلال والتعظيم ، والإكرام والحب ، لأنهم هم أهل القرآن وخاصته ، نزل القرآن فى بيوتهم ، فكانوا أول العاملين به المعتصمين بحبله ، الداعين إلى هدايته ونوره ، المجاهدين فى سبيل اقامة أحكامه . . قال صلى الله عليه وسلم :

« إنى أو شك أن أدعى فأجيب ، وانى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتى أهل بيتى ، وان اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا بما تخلفونى فيهما »(٣) .

ومن الطبيعى أن يكون حب أهل البيت جزءاً لا يتجزأ من الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الحب لله تعالى ، ولا يعقل أن يزعم زاعم أنه يحب الله تعالى ويحب رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو لا يكن لأهل البيت – الذين هم منه . . وهو صلى الله عليه وسلم منهم – نفس الحب ، ونفس الإجلال والتعظيم .

لذلك : كان حب أهل البيت دلالة على سلامة العقيدة ، وصدق الإيمان بالله ورسوله ، كما أن كراهيتهم تدل دلالة قاطعة على فساد العقيدة ، ومرض القلب ، والبعد عن الله ورسوله ، وهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يؤكد هذه المعانى بقوله :

« لا يحب أهل البيت إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق »(٤) .

وفى هذا الحديث بشرى من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وشهادة منه بالإيمان لمحبي أهل البيت ، وفيه فى نفس الوقت حكم قاطع بالنفاق على مبغضيهم ، فهم المحجوبون بظلمات بعضها فوق بعض ، المحرومون من هداية الإيمان ونوره « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . . قد كتب الله عليهم الشقاوة ، وجعلهم من أصحاب الجحيم ، قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأنوار المحمدية : للقاضى يوسف النبهانى : ص ٤١٩ .

(٢) الترمذى : عن أبى عباس رضى الله عنهما ، بإسناد صحيح .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى عن الإمام أحمد ، والطبرانى ، من حديث زيد بن ثابت ، والأنوار المحمدية للنبهانى ص ٤٣٥ من حديث أبى سعيد ، والثقل كل شىء نفيس مصون .

(٤) ابن عساكر : من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

« لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار »(١) .

وقد زاد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بياناً ووضوحاً ، فقال محذراً من إيذاء أهل البيت ، أو ظلمهم ، أو الاستخفاف بحقهم :

« حرمت الجنة علي من ظلم أهل بيتي ، وآذاني في عترتي ، ومن اصطنع صنيعة إلى أحد من ولد عبد المطلب ، ولم يجازه عليها ، فأنا أجازيه عليها غداً إذا لقيني يوم القيامة »(٢) .

ولقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم ، تأكيداً قاطعاً ، صلة الإيمان بحب أهل البيت رضي الله عنهم ، فقال : « والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان ، حتى يحبكم الله ورسوله »(٣) .

أهل البيت . . هم أهل العلم ودعاة الحق :

ولقد بلغ من مكانة أهل البيت في حياة الإسلام ، ان الله تعالى جعل منهم — على مر القرون وكر العصور — ورثة لأنبيائه ورسله ، في الحفاظ على شريعته ، والدفاع عن ملته ، يقفون عن تعاليم الدين موقف الحارس الأمين ، ومن أعدائه الضالين المضلين ، والجاهلين المبطلين ، موقف المتربصين ، يردون كل ضلالة ، ويمحقون كل بدعة أو جهالة ، وينادون الناس إلى السنن التي اندثرت ، ويدعونهم إلى الآداب والفضائل التي هجرت ، ويحفظون للإسلام روعته وقدسيته ، ويجددون له شبابه وقوته ، تحقيقاً لوعده في محكم كتابه :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٤) .

يقول سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم :

« في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي ، ينفون عن هذا الدين : تحريف الضالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين . . ألا وان أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل ، فانظروا من توفدون »(٥) .

وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم ، بملازمة الهداة المهتدين من أئمة أهل البيت ، والاقتداء بهم ، والأخذ عنهم ، والرجوع إليهم في إيضاح ما غمض من أمور الشريعة ، أو بيان حكم ما ظهر من البدع والضلالات ، لأنهم بحكم فطرتهم السليمة ، وسريان دم النبي صلى الله عليه وسلم في دمائهم وروحه في أرواحهم ، أقرب إلى التوفيق والسداد ، وأبعد عن الغرض والهوى ، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اغفالهم ، أو التقدم عليهم ، لأنهم الأعلى مقاماً ، والأصفى إسلاماً وإيماناً ، وحذر صلى الله عليه وسلم — في نفس الوقت — من التخلف عنهم ، لأن في ذلك تخلفاً عن سبيل الحق ، وتفرقاً في سبل الباطل ، وفي كل من الحالتين — حالة التقدم على أهل البيت ، وحالة التخلف عنهم — الهلاك المحقق . . والضلال المبين . قال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الحاكم : من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٦ - ٢٢ .

(٣) نور الإبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي : ص ١٢٦ .

(٤) سورة الحجر : آية ٩ .

(٥) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي ص ١٥٠ ؛ أخرجه الملا في سيرته .

« إنى تارك فيكم أمرين لن تضلوا ان تبعتموهما ، وهما : كتاب الله ، وأهل بيتى عترتى ، إنى سألت ذلك لهما ، فلا تقدموهما فتهلكوا ، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم »(١) :

وقوله صلى الله عليه وسلم « لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم » اشارة إلى أنهم بفطرتهم هداة مهتدون بموجب كونهم الأطهر حسباً ونسباً ، والأتقى روحاً وقلباً ، والله تعالى يقول « واتقوا الله ويعلمكم الله » (٢) :

لماذا كان حب أهل البيت من الإيمان

ولو لم يأمر الله تعالى ، ويوص الرسول صلى الله عليه وسلم بحب أهل البيت ، لكانت محبتهم واجبة لذواتهم ، بموجب الفطرة السليمة ، فضلاً عما حباهم الله به من فضل ، وأكرمهم به من شرف ، فهم غصون هذه الدوحة المباركة ، التى أصلها فى الأرض ، وفرعها فى السماء ، والتى اصطفاها الله تعالى من بين خلقه ، واصطنعها على عينه ، فبلغت أوج الكمال ، فى الروح والجسد ، والسر والعلن ، بانتسابهم لأشرف خلق الله تعالى ، وأكرم أنبيائه ورسله ، الذى يقول متحدثاً بنعمة الله عليه ، وإحسانه إليه :

« إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »(٣) وقال أيضاً :

« إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقتهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى فى خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً »(٤) :

فكيف لا يكون حب أهل البيت من الإيمان ، ومقامهم من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فهم — فى كل عصر وزمان — خير الناس أنفساً ، وخيرهم بيوتاً .

كيف لا يكون حب أهل البيت من الإيمان ، وهم الذين بلغت بهم الكرامة عند الله تعالى ، أن حرم عليهم الصدقات ، وأحل لهم الهدايا ، لأن الصدقات أدران الناس وأوزارهم ، وهم — رضى الله عنهم — الطاهرون المطهرون .

كيف لا يكون حب أهل البيت من الإيمان ، وهم الذين اقتضت حكمته فى خلقه ، ورحمته بعباده ، أن تستمر بهم ذرية سيد المرسلين — صلى الله عليه وسلم — إلى يوم الدين ، تشع بضيائها على العالمين ، وترشد بهدايتها الضالين ، قال صلى الله عليه وسلم :

كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة ، إلا نسبى وصهرى »(٥) .

---

(١) المصدر السابق : ص ١٥٠ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٢ .

(٣) صحيح مسلم والترمذى : من حديث واثلة رضى الله عنه بإسناد صحيح .

(٤) الترمذى : من حديث العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه .

(٥) الجامع الصغير للسيوطى : عن ابن عساكر من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وكما كانت بعثته صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، أى من أهل السموات وأهل الأرض ، من جن وأنس وغيرهم ، بهداية الطائعين إلى سواء السبيل ، وإثابتهم على ذلك ، وتأخير العقاب عن العصاة والمكذبين ، فكذلك ، فإن فى بقاء أهل البيت المطهر ، رحمة للعالمين ، لأن نورهم من نوره صلى الله عليه وسلم ، وبركتهم من بركته :

وكما أن الله تعالى قد اختص رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يعذب أمته ما دام فيهم فقال تعالى « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم »(١) : : فكذلك: فإن الله تعالى — ببركة أهل بيت المصطفى صلى الله عليه وسلم — لن يعذب الأمة الإسلامية عذاب الاستئصال ، ما دام فيهم أهل البيت فهم الشموع المنيرة فى الظلمات ، والحصون التى يركن إليها فى الملمات ، يجيرون كل من لاذ بحماهم ، ويكرمون كل من نزل بساحتهم ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ قال : « لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي صلى الله عليه وسلم منها والمؤمنون ، ويلحقوا بحيث أمروا »(٢) فإذا كان وجود المؤمنين بقرية ما سبب رحمة لها ، فكيف بوجود أهل البيت ، وهم من خيار المؤمنين وخاصتهم ، وأقربهم إلى الله ورسوله . وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« النجوم أمان لأهل السماء ، وأهل بيتى أمان لأمتى »(٣) وقال أيضاً :

« مثل أهل البيت مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تركها غرق »(٤) .

كيف لا يكون حب أهل البيت من الإيمان ، وهذا الحب هو أوثق عرى الإيمان ، وأساس صرح الإسلام ، فمن لم يستشعر الحب لهم ، وفاء بحقهم ، واعترافاً بفضلهم ، فلا إسلام له ولا إيمان ، ولو قضى الليل قياماً ، وأمضى النهار صياماً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« لكل شىء أساس ، وأساس الإسلام حب أصحاب رسول الله وحب آهل بيته »(٥) .

كيف لا يكون حب أهل البيت من الإيمان ، وهذا الحب هو السبيل إلى رعاية الله تعالى لصاحبه ، والكفيل بحفظه فى الدين والدنيا ، وثباته يوم الدين على الصراط ، وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم له يوم الحساب ، قال صلى الله عليه وسلم: « ثلاث من حفظهن حفظ الله له دينه ودنياه ، ومن ضيعهن لم يحفظ الله له شيئاً ، حرمة الإسلام ، وحرمتى ، وحرمة رحمى »(٦) وقال أيضاً : « أثبتكم على الصراط ، أشدكم حباً لأهل بيتى(٧) » وقال : « شفاعتى لأمتى . . من أحب أهل بيتى »(٨) .

---

(١) سورة الأنفال : آية ٣٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : للقرطبى : ٧ — ٣٠٩ .
(٣) الطبرانى وأبو يعلى من حديث سلمة بن الأكوع بإسناد حسن .
(٤) البزار عن حديث عبد الله بن الزبير وابن عباس ، والطبرانى من حديث أبى ذر وأبى سعيد . . رضى الله عنهم أجمعين .
(٥) البخارى فى التاريخ : عن الحسن بن على رضى الله عنهما .
(٦) الحاكم فى التاريخ ، من حديث أبى سعيد رضى الله عنه .
(٧) الديلمى : من حديث على كرم الله وجهه .
(٨) الخطيب فى التاريخ : من حديث على كرم الله وجهه .

وعلى العكس من ذلك : فمن أبغض أهل البيت أو تطاول عليهم أو استحل حرمتهم ، طرده الله من رحمته ، وأنزل عليه لعنته ، قال صلى الله عليه وسلم :

« ستة لعنهم الله ، وكل نبي مجاب : الزائد فى كتاب الله ، والمكذب بقدر الله ، والمتسلط بالجبروت ، فيعز بذلك من أذل الله ، ويذل من أعز الله ، والمستحل لحرم الله ، والمستحل من عترتى ما حرم الله ، والتارك لسنتى »(١) .

كيف لا يكون حب أهل البيت من الإيمان ، وقد بشر نبي الله من أحبهم بخير ما يبشر به مؤمن ، وتوعد من أبغضهم بشر ما يتوعد به منافق أو كافر ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« من مات على حب آل محمد : مات شهيدا :

ألا ومن مات على حب آل محمد : مات مستكمل الإيمان :

ألا ومن مات على حب آل محمد : بشره ملك الموت بالجنة ، ثم منكر ونكير :

ألا ومن مات على حب آل محمد : فتح له فى قبره بابان إلى الجنة :

ألا ومن مات على حب آل محمد : جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة :

ألا ومن مات على حب آل محمد : مات على السنة والجماعة :

ألا ومن مات على بغض آل محمد : جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه : آيس من رحمة الله .

ألا ومن مات على بغض آل محمد : مات كافرا :

ألا ومن مات على بغض آل محمد : لم يشم رائحة الجنة :

ألا ومن مات على بغض آل محمد : فلا نصيب له فى شفاعتى »(٢) .

كيف لا يكون حب أهل البيت من الإيمان ، وقد بلغ من كرمهم على الله تعالى ، أنه لما توفى النبي صلى الله عليه وسلم ، جاءتهم التعزية من عبد الله ، فى صورة آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه ، يقول لهم :

« السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، « كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » ان فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . قال جعفر ابن محمد : أخبرنى أبى أن على بن أبى طالب قال :

« أتدرون من هذا ؟ . هذا الخضر عليه السلام »(٣) .

---

(١) الترمذى والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان من عائشة رضى الله عنها .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٦ - ٢٣ .
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٢ - ١٥٤ من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وكما كانت نجاة العالم من ظلمات الجاهلية ، على يد سيد أهل البيت سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وكان وجود أهل البيت فى الأمة أماناً لهم من الخسف والنسف ؛ فإن صلاح العالم فى آخر الزمان سيكون بإذن الله على يد « المهدى » الذى يصطفيه الله من أهل البيت ، والذى تواترت الأحاديث واستفاضت عن خروجه فى آخر الزمان ، ليملأ الأرض عدلا ، كما ملئت ظلماً وجورا . . قال صلى الله عليه وسلم : « المهدى من عترتى من ولد فاطمة »(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المهدى منا ، يختم الدين بنا ، كما فتح بنا »(٢) . وقال النبى صلى الله عليه وسلم أيضاً :

« لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد ، لطول الله ذلك اليوم ، حتى يبعث الله فيهم رجلا من أهل بيتى ، يواطىء اسمه اسمى ، واسم أبيه اسم أبى ، يملأ الأرض قسطاً وعدلا ، كما ملئت جوراً وظلما ، يحبه ساكن الأرض ، وساكن السماء ، وترسل السماء قطرها ، وتخرج الأرض نباتها ، لا تمسك فيها شيئاً ، يعيش فيها سبع سنين ، أو ثمانيا ، أوتسعا » :

ولا زال المهدى عليه السلام — لدى كثير من أهل الحق والشهود — هو الأمل المنشود لهذه الأمة ، الذى يوشك أن يتحقق قريباً بإذن الله ، كما أنه هو الكرامة الكبرى ، الدالة على استمرار بركة أهل البيت إلى نهاية الزمان :

فضيلة الصلاة على أهل البيت :

وأخيراً . : كيف لايكون حب أهل البيت من الإيمان ، وهم الذين بلغت بهم كرامتهم عند الله تعالى ، ان جعل الصلاة عليهم مقرونة بالصلاة على سيد الأنبياء والمرسلين — صلى الله عليه وسلم — فى كل صلاة . . وفى كل تشهد : قال تعالى فى محكم كتابه :

« إن الله وملائكته يصلون على النبى : يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »(٣) فإنه لما نزلت هذه الآية : سأل بشير بن سعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا :

أمرنا أن نصلى عليك يا رسول الله ، فكيف نصلى عليك؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« قولوا : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم ، فى العالمين انك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم »(٤) .

وهكذا : بين النبى صلى الله عليه وسلم ، أن أمر الله تعالى إلى الأمة بالصلاة عليه ، يشمل الأمر

(١) أبو داود وابن ماجه والحاكم من حديث أم سلمة رضى الله عنها .
(٢) الصواعق المحرقة ص ١٦٣ رواية عن الطبرانى .
(٣) سوره الأحزاب : أيه ٥٦
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٤ / ٢٣٣

بالصلاة على أهل بيته ، فى كل تشهد ، وفى كل صلاة ، وكفى بهذا تشريفاً وتعظيماً وتوقيراً ، لأن معنى ذلك : ان الله تعالى — وهو أحكم الحاكمين — قد قضى بأن مقام أهل البيت من مقام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن شرفهم من شرفه ، ولذلك أقامهم النبي صلى الله عليه وسلم مقام نفسه فى التعظيم والتكريم .

وزيادة على ما تقدم : فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن إفراده بالصلاة عليه ، فقال : « لا تصلوا على الصلاة البتراء » : قالوا : وما الصلاة البتراء ؟ قال : « تقولون اللهم صل على محمد ، وتمسكون ، بل قولوا : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد »(١) . والصلاة البتراء : أى التى لا بركة فيها ، أو التى انقطع من الخير أثرها .

وتأكيداً لمقام أهل البيت — رضوان الله عليهم — عند الله ورسوله ، بين صلى الله عليه وسلم أنه لا أمل فى رفع دعاء الداعين إلى الله تعالى ، ما لم يتضمن الصلاة عليه وعلى أهل بيته ، فقال :

« الدعاء محجوب حتى يصلى على محمد وآل بيته : اللهم صل على محمد وآله »(٢) .

وفى هذا المعنى : يقول أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه :

« من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يسأل الله حاجته ، ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما »(٣) ، وقد أوضحنا آنفاً : أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، تشمل الصلاة على أهل بيته ، رضى الله عنهم أجمعين .

وقد ذكر الفخر الرازى أن أهل البيت — رضوان الله عليهم أجمعين ، قد تساووا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى خمسة أشياء : فى الصلاة عليه وعليهم فى التشهد ، وفى السلام ، وفى الطهارة ، وفى تحريم الصدقة ، وفى المحبة »(٤) .

ورضى الله عن عالم قريش الذى ملأ طباق الأرض علماً — محمد بن ادريس الشافعى — الذى يقول فى بيان فضل أهل البيت ومقامهم عند الله تعالى :

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله فى القرآن إنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم من لم يصل عليكم : لا صلاة له(٥)

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى : ص ١٤٦ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٤٨ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٤ - ٢٣٤ .
(٤) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى : ص ١٤٩ .
(٥) المصدر السابق : ص ١٤٨ .

صورة من حب السلف لأهل البيت :

ولقد أدرك السلف الصالح ، كل هذه الحقائق بفطرتهم ، واستشعروها بقلوبهم ، فكان حبهم لأهل البيت — رضى الله عنهم — ، وتوقيرهم لهم ، من أبرز مظاهر مجتمعهم الإسلامى ، وأروع سياء أدبهم الشرعى ، وأوثق عرى إيمانهم الربانى ، وفاء منهم بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإيماناً منهم بأن حق أهل البيت عليهم ، هو من حق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان حبهم لهم من حبه ، وتوقيرهم من توقيره ، وإكرامهم من إكرامه ، لأنه منهم وهم منه ، بموجب دعائه صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنهم منى وأنا منهم ، فاجعل صلاتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك على وعليهم »[(١)].

وهكذا : كان الصديق — رضى الله عنه — يقول : « أرقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم فى أهل بيته »[(٢)] . وكان يقول أيضاً : « والذى نفسى بيده : لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلى أن أصل من قرابتى »[(٣)] .

وهذا هو الفاروق عمر بن الخطاب : يفرض لأسامة بن زيد — رضى الله عنهم أجمعين — خمسة آلاف ، فى حين فرض لابنه — عبد الله بن عمر — ألفين ، فقال له عبد الله : فضلت أسامة على ، وقد شهدت ما لم يشهد ؟ فقال له :

« إن أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك ، وأباه كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك »[(٤)] .

هكذا كان موقف الفاروق من أسامة — رضى الله عنهما — ، وهو ابن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم — زيد بن حارثة — لمجرد علمه بحب رسول الله صلى الله عليه وسلم له ولأبيه ، فآثره على ابنه عبد الله بن عمر ، مقدماً هوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على هواه ، أو بمعنى أدق : كان هوى الفاروق — رضى الله عنه — لقوة إيمانه ، تبعاً لهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى أن أسامة أحق بالإكرام من ابنه ، بل رأى — لكمال إيمانه وتواضعه لله — أن زيد بن حارثة [(٥)] — والد أسامة —

---

(١) الصواعق المحرقة : لابن حجر الهيتمى ص ١٤٦ .

(٢) صحيح البخارى : من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

(٣) رواه الخمسة (البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى) من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٤ - ٢٣ .

(٥) زيد بن حارثة : ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب : أنه أصابه سباء فى الجاهلية فاشترته السيدة خديجة رضى الله عنها ، ووهبته للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلما علم قومه بمكانه ، جاءوا لافتدائه من النبى صلى الله عليه وسلم ، فخيره النبى صلى الله عليه وسلم بين الذهاب مع أهله أو البقاء معه ، فقال رضى الله عنه : ما أنا بالذى اختار عليك أحداً ، أنت منى بمكان الأب والعم ، فلما رأى ذلك منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه إلى الحجر فقال : « أشهدوا أن زيداً ابنى ، يرثنى وأرثه » وكان سنه وقتئذ ثمان سنوات ، وظل زيد يدعى ابن محمد حتى نزل قوله تعالى : « أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » .

وشهد زيد بن حارثة — رضى الله عنه — بدراً ، وزوجه النبى صلى الله عليه وسلم مولاته أم أيمن ، فولدت له أسامة . وقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة مؤتة ، فأبلى بلاء حسناً حتى استشهد سنة ثمان من الهجرة ، ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيه ونعى جعفر بن أبى طالب ، بكى وقال : أخواى ومؤنساى ومحدثاى (هامش الإصابة) : ١ - ٥٤٥ — ٥٤٨ .

أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه نفسه ، مع أن مقام الفاروق عمر بن الخطاب لا يفضله إلا الصديق — رضى الله عنهما — ويليه فى الفضل بقية العشرة المبشرين بالجنة ، وليس منهم زيد بن حارثة ، رضى الله عنهم أجمعين :

فإذا كان هذا هو مبلغ حب ابن الخطاب — رضى الله عنه — لابن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان هذا هو موقفه منه ، فكيف يكون حبه وموقفه ممن يتصلون بأشرف الخلق بأوثق الروابط ، نسباً وشرفاً ، وإجلالا وتعظيماً ؟ :

ويقدم لنا الفاروق — رضى الله عنه — صورة أخرى من صور حبه وتعظيمه وتوقيره لأهل البيت ، حينما تقدم إلى على كرم الله وجهه ، طالباً يد ابنته أم كلثوم بنت فاطمة الزهراء ، بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أجابه على بأنه حبس بناته لولد أخيه جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم جميعاً ، قال له عمر :

« انه والله ما على وجه الأرض من يرصد من حسن صحبتها ما أرصد » فلم يسع على إلا الموافقة ، فبلغ الفرح بعمر — رضى الله عنهما — أنه لما عاد إلى مجلسه قال لمن حضر من المهاجرين والأنصار : هنونى ، قالوا : بمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : بأم كلثوم بنت على ، ثم أوضح الفاروق السبب فى إلحاحه على على — رضى الله عنهما — حتى أجابه ، وهو أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كل صهر أو سبب أو نسب ينقطع يوم القيامة إلا صهرى وسببى ونسبى» وانه كانت لى صحبة ، فأحببت أن يكون لى معها سبب(١) :

وصلى زيد بن ثابت على جنازة ، فلما ركب : أخذ ابن عباس — رضى الله عنهما — بركابه ، فقال له : خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجاب ابن عباس : « هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء » : : فقبل زيد بن ثابت يد عبد الله بن عباس وقال له : « وهكذا أمرنا أن نفعل مع أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٢) :

وهذا هو عبد الله بن الحسن — رضى الله عنهما — يذهب إلى عمر بن عبد العزيز ، فى حاجة له ، فبعد أن قضى أمير المؤمنين حاجته ، قال له :

« إذا كانت لك حاجة : فأرسل إلى أحضر ، أو أكتب لى ورقة ، فإنى استحى من الله أن يراك على بابى» (٣) :

* * *

بل ان من حق أهل البيت علينا أن نحبهم ، ولو كانوا على غير قدم الاستقامة . : ، لأنهم بيقين يحبون الله ورسوله ، ومن أحب الله ورسوله لا يجوز بغضه ، وإلى هذا المعنى ذهب العلامة الشعرانى ، واستدل عليه بأن « نعيماً » تكررت إقامة الحد عليه كلما شرب الخمر ، فصار بعض الناس يلعنه ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم :

(١) الصواعق المحرقة : لابن حجر الهيتمى ص ١٥٦ : رواية عن البيهقى والدارقطنى .

(٣،٢) نور الأبصار . للشبلنجى ص ١٢٨ ، ١٢٩ عن المنن الكبرى للشعرانى .

« لا تلعنوا نعيما ، فإنه يحب الله ورسوله » فعلم من ذلك : أنه لا يلزم من إقامة الحدود على الشرفاء أن نبغضهم ، بل إقامة الحدود عليهم إنما هو محبة لهم ، وتطهير لهم (١) :

* * *

ولم يقف إكرام السلف الصالح لأهل البيت عند هذا الحد ، بل تعداه إلى اكرام وتوقير كل من كان له صلة بهم ، من قريب أو بعيد . .

هذا هو أبو بكر :: وهذا هو عمر بن الخطاب – رضى الله عنهما – ، يستمر كل منهما – بعد لحاق سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى – فى التردد على أم أيمن – مولاة النبي صلى الله عليه وسلم ، والتبرك بزيارتها ، وفاء منهما بعهده صلى الله عليه وسلم ، ويقولان : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها (٢) ::

وهذا هو أمير المؤمنين : عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – لا يكاد يرى بنت أسامة بن زيد – حفيدة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وخادمه – تأتيه فى حاجة لها ، حتى يرحب بها أصدق ترحيب ، ويجلسها فى مجلسه ، ويجلس هو بين يديها ، ويتلطف فى السؤال عن أحوالها ، وما ترك لها حاجة – إلاوقضاها (٣) . . لما يعلمه من حب النبي – صلى الله عليه وسلم – لأبيها وجدها :

وهكذا . . على كر السنين ومر القرون ، نرى اجماعاً من أهل الحق والإيمان على توقير أهل البيت ، واستشعار محبتهم ، وإعلان فضلهم ، لا يشذ عن ذلك إلا جاهل أو محروم :: ولا يجادل فى ذلك إلا شقى أثيم .

هذا هو العلامة الشعرانى – رضى الله عنه – يقول :

« سمعت سيدى عليا الخواص – رحمه الله – يقول : من حق الشريف علينا أن نفديه بأرواحنا ، لسريان لحم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودمه الكريمين فيه ، فهو بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وللبعض فى الإجلال والتعظيم والتوقير ما للكل ، وحرمة جزئه صلى الله عليه وسلم ، كحرمة جزئه حياً على حد سواء »(٤) :

من هم أهل البيت المطهر :

وإذ كان حب أهل البيت من الإيمان ، فإن من الطبيعي أن يشمل ذلك الحب – بصفة عامة – ذوى القربى ، وأن يتأكد بصفة خاصة – بالنسبة لأبناء الرسول صلى الله عليه وسلم من فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

فهذه مراتب ثلاث فى حب المتصلين بالنبى صلى الله عليه وسلم : ذوو القربى ، وأهل البيت ، وأبناء الزهراء ، وكلها ثابتة بالكتاب والسنة ::

(١ ، ٢ ، ٣) نور الإبصار . للشبلنجى ص ١٢٨ ، ١٢٩ عن المنن الكبرى للشعرانى .

(٤) المنن الكبرى للشعرانى رضى الله عنه .

فأما « ذوو القربى » ، فقد قال الله تعالى – فى خطابه لنبيه صلى الله عليه وسلم – مبيناً حقهم على الأمة ، ووجوب محبتهم ومودتهم :

« قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى »(١) : أى لا أطلب منكم أى أجر على ما قمت به من دعوتكم إلى الإيمان ، وهدايتكم إلى سبيل الحق والرشاد ، وما تحملته فى سبيل ذلك من عناد واضطهاد : إلا أن توادوا قرابتى من بعدى ، وتراقبوا الله فيهم ، مراعاة لجانبى ، ووفاء ببعض حقى .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فى تفسير هذه الآية : –

« لا أسألكم على ما أنبئكم به من البينات والهدى أجراً ، إلا أن توادوا الله عز وجل ، وأن تتقربوا إليه بطاعته »(٢) .

ولا تعارض بين المعنيين ، لأن موادة الله عز وجل وطاعته ، تشمل بلا شك موادة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وموادة ذوى القربى ، فهذه الموادة كل لا يتجزأ – كما أوضحنا آنفاً – ولا يعقل أن تتحقق الموادة لله تعالى ، والتقريب إليه بالطاعة ، دون تحققها بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وذوى قرباه رضى الله عنهم .

وقد تعددت أقوال المفسرين فى معنى « ذوى القربى » واختلفت تعميماً وتخصيصاً .

فمنهم من قال : ان المقصود بالقربى : هم قريش عموماً – كابن عباس وابن عطية – لأنه صلى الله عليه وسلم : لم يكن بطن من بطون قريش ، إلا كان له فيه قرابة ، وهذه القرابة تتفاضل حسب قربها أو بعدها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم من قال : انهم على وفاطمة وأبناؤهما ، وهذا المعنى ورد فى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما : لما أنزل الله عز وجل : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربة » قالوا يارسول الله من هؤلاء الذين نودهم ؟ قال : « على وفاطمة وأبناؤهما »(٣) .

ويدل على ذلك : ما روى عن على رضى الله عنه قال : شكوت إلى النبى صلى الله عليه وسلم حسد الناس لى ، فقال : « أما ترضى أن تكون رابع أربعة أول من يدخل الجنة ، أنا وأنت والحسن والحسين ، وأزواجنا عن إيماننا وشمائلنا ، وذريتنا خلف أزواجنا »(٤) ؟

وأما « أهل البيت » فقد نزل فيهم قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(٥) .

وكما اختلفت أقوال المفسرين فى تحديد « ذوى القربى » فقد اختلفوا كذلك بالنسبة لأهل البيت .

---

(١) سورة الشورى : آية ٢٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٦ - ٢٣ .

(٣ ، ٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٦ - ٢٢ .

(٥) سورة الأحزاب : آية ٣٣ .

ـ فنهم من قال : هم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، لقوله تعالى فى أول الآية : « وقرن فى بيوتكن . . » وفى الآية التالية « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة » وقد أخذ بهذا المعنى عطاء وعكرمة وابن عباس وغيرهم ، رضى الله عنهم أجمعين(١) .

ـ وأكثر المفسرين قالوا : « نزلت فى على وفاطمة والحسن والحسين»(٢) . وإلى هذا المعنى ذهب أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ، وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة ، وحجتهم فى ذلك :

١ ـ أن قوله تعالى : « . . ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم . . » بالميم يدل على ذلك ، ولو كان الخطاب خاصاً بنساء النبي صلى الله عليه وسلم وحدهن ، لكان «عنكن . . ويطهركن »(٣)

٢ ـ حديث أم سلمة رضى الله عنها ، الذى تقول فيه :

« نزلت هذه الآية فى بيتى ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا وفاطمة ، وحسنا وحسينا ، فدخل معهم تحت كساء خيبرى وقال : « هؤلاء أهل بيتى » : وقرأ الآية ـ وقال : اللهم أذهب عنهم الرجس . . وطهرهم تطهيرا » فقلت ـ أى أم سلمة رضى الله عنها ـ وأنا معهم يارسول الله ؟ قال : « أنت على مكانك . . وأنت على خير » .

وفى رواية أخرى أن أم سلمة رضى الله عنها قالت : أنا منهم يارسول الله ؟ قال : « نعم » (٤) .

٣ ـ حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنزلت هذه الآية فى خمسة : فىّ ، وفى على وحسن وحسين وفاطمة »(٥) .

٤ ـ حديث أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول « الصلاة أهل البيت . . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(٦) . وفى رواية أخرى : أنه صلى الله عليه وسلم استمر على ذلك تسعة أشهر (٧) .

وفى رواية ثالثة لأبى سعيد الخدرى : أنه صلى الله عليه وسلم جاء أربعين صباحاً إلى باب فاطمة يقول : « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته . . الصلاة : يرحمكم الله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(٨) .

وفى رواية رابعة عن ابن عباس رضى الله عنه : أنه صلى الله عليه وسلم استمر على ذلك سبعة أشهر .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٤ - ١٨٢ .

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى ص ١٤٣ .

(٣ ، ٤) الجامع لأحكام القرن للقرطبى : ١٤ - ١٨٣ .

(٥) اسعاف الراغبين للصبان بهامش نور الإبصار : ص ١١٦ .

(٦) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى للمحب الطبرى ، ص ٢٤ وقال : أخرجه أحمد .

(٧) المصدر السابق : ٢٥ .

(٨) إسعاف الراغبين فى سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين . بهامش نور الإبصار ص ١١٦ ، ١١٧ .

وفى روايات أخر : ثمانية أشهر(١) .

– ومنهم من رأى أن معنى « أهل البيت » يشمل أولاد النبى صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، والحسن والحسين ، وعلى منهم ، لأنه كان من أهل البيت ، بمعاشرته للزهراء رضى الله عنها ، وملازمته لها ، وإلى هذا ذهب الفخر الرازى فى تفسيره ، كما ذهب إليه ابن حجر الهيتمى فى الصواعق : وقال : المراد من أهل البيت هنا : ما يعم أهل بيت سكناه كأزواجه ، وأهل بيت نسبه ، وهم جميع بنى هاشم والمطلب ، وقد ورد عن الحسن قوله : وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا »(٢) .

وقد روى عن زيد بن أرقم – رضى الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فى الناس فقال : « أذكركم الله فى أهل بيتى : . أذكركم الله فى أهل بيتى : : أذكركم الله فى أهل بيتى » فقيل لزيد بن أرقم : من أهل البيت ؟ قال : أهل البيت هم من تحرم عليهم الصدقة بعده : آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس »(٣) :

ومنهم من حدد « أهل البيت » بأنهم ذرية النبى صلى الله عليه وسلم من الحسن والحسين ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « ما بال قوم يؤذوننى فى أهل بيتى ؟ والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى يحبنى ، ولا يحبنى حتى يحب ذريتى » :

* * *

ومن جملة ما تقدم : يتضح أن معنى « أهل البيت » متداخل فى « القربى » من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه لا يقتصر على زوجات النبى : وإنما يشمل أهل بيته صلى الله عليه وسلم فى السكن ، وهم – فضلا عن أزواجه – فاطمة وعلى وأبناؤهما ، كما يشمل أهل بيته فى النسب ، وهم جميع بنى هاشم والمطلب ، الذين حرم الله الصدقة عليهم ، لأنها أوساخ الناس ، ولما فيها من ذل وخضوع ، وعرضهم عن الصدقات بخمس الغنائم والفىء ، مما يتفق مع الكرامة التى يريدها الله لهم ، والعزة المناسبة لمكانتهم من الله ورسوله .

مكانة أبناء النبى من أهل البيت :

وأما أبناء النبى صلى الله عليه وسلم ، أو بمعنى أوضح : أبناء الزهراء – رضى الله عنها وعنهم – ، اعتبارهم فى النسب أنهم أبناؤه صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء ذكرهم فى قوله تعالى :

« فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »(٤) : فإنه لما نزلت هذه الآية : « جاء النبى صلى الله عليه وسلم بالحسن والحسين وفاطمة

---

(١) اسعاف الراغبين فى سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين . بهامش نور الإبصار : ص ١١٦ ، ١١٧ .
(٢) الصواعق المحرقة : لابن حجر الهيتمى ص ١٤٤ .
(٣) إسعاف الراغبين : ص ١١٧ .
(٤) سورة آل عمران : آية ٦١ .

تمشى خلفه ، وعلى خلفها ، وقال لهم : « إن أنا دعوت فأمنوا »[1] :

وقد جاء ذكر أبناء النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فى قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس : : » الآية ، وقد سبق الإشارة إلى أن أكثر المفسرين ذهبوا إلى أنها نزلت فيهم :

وسيأتى فى الفصل الثانى من هذه الرسالة ، ما فيه الكفاية عن أبناء النبي صلى الله عليه وسلم من الزهراء رضى الله عنها وعنهم أجمعين :

ومجمل القول أن « ذوى القربى » مرتبة عامة تشمل قريشا وبنى هاشم والمطالب ، ويدخل ضمنها أهل البيت وأبناء النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن « أهل البيت » مرتبة خاصة تشمل أهله صلى الله عليه وسلم فى السكن وهم أزواجه وأبناؤه من فاطمة الزهراء ، كما تشمل أهله صلى الله عليه وسلم فى النسب وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، وأن « أبناء الزهراء » أو « أبناء النبي » صلى الله عليه وسلم ، مرتبتهم أخص من مرتبة « أهل البيت » بمعناها الذى ذكرناه ، لأنهم ينحصرون فى أبناء الزهراء وحدهم ، وفى ذرية الحسن والحسين : : ومنهما تستمر ذرية النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

« كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى »[2] : أى سببه ونسبه من الحسن والحسين — عليهما السلام — وذريتهما المباركة :

ونظراً لانحصار سببه ونسبه — صلى الله عليه وسلم — فى الحسن والحسين وذريتهما ، فقد جرى العرف بأن « أهل البيت » صفة لكل من يتصل نسبه بالحسن والحسين : : ، وذريتهما إلى يوم القيامة : وفى هذا المعنى يقول النبي صلى الله عليه وسلم « كل ولد أب فعصبتهم لأبيهم ، ما خلا ولد فاطمة فإنى أنا أبوهم وعصبتهم »[3] : ويقول أيضاً : « المهدى منا أهل البيت ، يصلحه الله فى ليلة » : ومن ثم كان استمرار أهل البيت إلى يوم القيامة — كما قلنا — أماناً لأهل الأرض ، لكونهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، الذى كان أماناً للعالمين :

أهل البيت . . المطهرون تطهيراً :

وإذا كان يوم هو مقام أهل البيت بالنسبة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فى كل زمان ومكان ، هداية للناس من الضلال ، ووقاية من الأخذ الشديد ، ورحمة لهم من العذاب العاجل : : فإن ذلك لا يكون إلا إذا كانوا على قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا إذا كانوا على خلق عظيم ، كما كان صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم :

وهذا دليل على وجوب كونهم أغلى جوهراً ، وأعلى إيماناً ، وأسمى يقيناً ، لسريان روح النبي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٤ - ١٠٤ ، ذخائر العقبى للمحب الطبرى ص ٢٥ .

(٢–٣) رواه الدارقطنى وأبو نعيم من حديث عمر رضى الله عنه .

صلى الله عليه وسلم فى أرواحهم ، ودمه فى دمائهم ، إلا لما كان وجودهم فى الأرض أماناً لأهلها ، ورحمة وبركة ، كما جاء فى حديثه صلى الله عليه وسلم :

بل هذا دليل على أن الرجس الذى اقتضت حكمة المولى عز وجل أن يذهبه عنهم : ، ويطهرهم منه ، ليس هو الذنوب أو المعاصى التى ينغمس فيها كثير من الناس ، فهم بفضل الله تعالى بعيدون كل البعد عنها ، بريئون كل البراءة منها — ولا سيما الكبائر — فإنهم بحكم صلتهم بأشرف الخلق ، بعيدون عن التلوث بها : أو التردى فيها ، : إنما هو رجس من نوع آخر ، يتفق مع مقامهم عند الله تعالى ، ومع كرامتهم عليه :

وإذا كان أهل البيت — وهم كما أوضحنا آنفاً : سلالة الحسن والحسين رضى الله عنهما — ابنى الزهراء ، بضعة سيد الأنبياء الذى اصطفاه الله من أطهر المنابت ، وأعرق الأصول ، وتعهد نوره فى تنقله من الأصلاب الطيبة ، إلى الأرحام الطاهرة ، من لدن آدم عليه السلام . حتى حملته أمه ، ما تشعبت شعبتان إلا وكان صلى الله عليه وسلم فى خيرهما شعبة ، ولاافترقت فرقتان إلا وكان صلى الله عليه وسلم فى أكرمهما فرقة ، لم يلتق أبواه على سفاح قط ولم يشب نسبه — صلى الله عليه وسلم — أى دنس من دنس الجاهلية :

إذا كان هذا هو شأن أهل البيت حسباً ونسباً ، وطهراً وشرفاً ، ونفاسة فى المعدن ، وصفاء فى الجوهر ، فإنه لمما يتنافر مع هذه الصفات العالية ، والسجايا السامية ، أن يلوثهم أى رجس ، أو ينالهم أى دنس ، كيف وقد طهرهم الله تعالى منذ الأزل ، عناية منه ورعاية ، ثم اقتضت إرادته أن يذهب عنهم الرجس ، فضلا منه وكرماً ، وأن يطهرهم تطهيرا : ثم تأكدت عنايته عز وجل ورعايته ، وفضله وكرمه ، على أهل البيت ، بما دعا به النبى صلى الله عليه وسلم — وهو الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى — إذ يقول : « اللهم هؤلاء أهل بيتى : فأذهب عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا » :

ومن هنا قال العارف بالله الشيخ محيي الدين بن العربى رضى الله عنه :

« إن ذنوب أهل البيت إنما هى ذنوب فى الصورة لا فى الحقيقة ، لأن الله تعالى غفر لهم ذنوبهم ، بسابق العناية ، لقوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(١) :

وذهب المحدث ابن حجر الهيتمى إلى أن إرادته تعالى فى أمر أهل البيت على اذهاب الرجس عنهم — الذى هو الإثم أو الشك فيما يجب الإيمان به — وتطهيرهم من سائر الأخلاق والأحوال المذمومة ، يقتضى تحريمهم على النار ، وهو فائدة ذلك التطهير وغايته ، اذ منه : الهام الأنابة إلى الله تعالى ، وإدامة الأعمال الصالحة (٢) ! !

---

(١) نور الابصار ، للشبلنجى : ص ١٢٨ .

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى ص : ١٤٤ ، ١٤٥ .

وقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بتحريم فاطمة رضى الله عنها وذريتها على النار ، وروى عن ابن عباس رضى عنهما فى تفسير قوله : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » أنه قال : « رضى محمد صلى الله عليه وسلم آن لا يدخل أحد من أهل بيته النار »(١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن ابنتى فاطمة حوراء ، إذ لم تحض ولم تطمث ، وإنما سماها فاطمة لأن الله عز وجل فطمها ومحبيها عن النار» (٢) .

أهل البيت سادة الدنيا وسادة الآخرة :

وعلاوة على ما تقدم : فإن فى قوله تعالى : « ويطهركم تطهيرا » ما يفهم منه كمال ذلك التطهير وروعته وشموله لأهل البيت ، فى كل ناحية من نواحى حياتهم الخاصة والعامة ، وما يستشعر معه أن المقصود به ليس التطهير المعروف من الذنوب والمعاصى فحسب ، وإنما المقصود به أعمق من كل ذلك وأبعد ! !

إنه التطهير الذى يسمو بنفوس أهل البيت — رضى الله عنهم — فوق شهوات الدنيا الفانية ، ومتاعها الزائل ، فهم لا ينظرون إليها ، ولا يفكرون فيها ، ولا يريدون علواً فى الأرض ، ولا يبغون سيطرة أو سلطانا ، لأن الله تعالى رفعهم فوق كل ذلك ، ونأى بهم من مطامع الدنيا ومفاتنها ، وهون أمرها عليهم ، حتى تركوها مختارين ، وهم المتمكنون فيها ، القادرون عليها ، فتنازل الحسن — رضى الله عنه — عن الخلافة . . طائعاً مختاراً ، وقد كانت معه كتائب جاء فى وصفها أنها «كأمثال الجبال» ضخامة وقوة ولكنه مع كل ذلك : رأى — وهو صاحب الحق فى إمارة المؤمنين بلا منازع — أن استمراره فى القتال دفاعاً عن الخلافة فى الدنيا ، فيه من معانى الحرص عليها ، وطلب العلو فيها ، مالا يتفق مع ما يريده الله تعالى لأهل البيت من طهر وسمو ، وما لا يخلو من تورط فى شبهات ، أو تلوث بآثام ، فآثر — رضى الله عنه — حقن الدماء ، وتنازل عن خلافة الدنيا الظاهرة ، إيثاراً لما عند الله تعالى ، وتفويضاً منه لحكمه ، وثقة منه أن العاقبة للمتقين ، فهم خلفاء الله فى أرضه حقاً وصدقاً ، وهم ملوك الآخرة وسادتها ، لهم ما يشاءون عند ربهم . . وذلك جزاء المحسنين .

أهل البيت — هم أهل الله وخاصته :

فأهل البيت ، هم أهل الله وخاصته ، لا يرجون أحداً إلا الله ، ولا يخشون قوة إلا قوة الله ، ولا يعتمدون على نصرة غير نصرة الله ، فذلكم هو المقام الجدير بأهل بيت أشرف خلق الله ، وأحب خلق الله إلى الله ، وأكرمهم على الله .

ذلك أن مقام النبوة ، الذى يتصل به أهل البيت ، يتنافى مع التعلق بالدنيا ، والتمتع فيها ، ولذلك

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٢٠ - ٩٥ .

(٢) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، للمحب الطبرى : ص ٦٦ ، وقال أخرجه النسائى

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا » ، أى بقدر حاجتهم ، دون ما زيادة تشغلهم عن الله ، أو عوز يحوجهم إلى الناس ، كما كان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يدعو ربه قائلا : اللهم أحيني مسكيناً ، وتوفني مسكيناً ، واحشرني فى زمزة المساكين» (١) .

وفى مثل هذا المعنى يقول الحافظ تقى الدين المقريزى :

« لما كانت بنو هاشم من بنى قريش ، اختصها الله سبحانه بهذا الأمر ، أعنى الدعوة إلى الله والنبوة والكتاب ، فحازت بذلك الشرف الباقى ، وكانت أحوال الدنيا من الخلافة والملك ونحوه زائلة : لهذا أزواها الله تعالى عنهم ، تنبيهاً على شرفهم ، وعلو مقدارهم ، فإن ذلك هو خيرة الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم لما خير : اختار أن يكون نبياً عبداً ، ولم يختر أن يكون نبياً ملكاً ، وسأل مثل ذلك لآله ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث عمارة بن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » . : وروى أبو عيسى الترمذى من حديث عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم أبى عبد الرحمن عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم :

« عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب : . ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً : : فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك »(٢) انتهى .

ومن ثم كانت النبوة والرسالة ، على طرفى نقيض مع الملك والسلطان ، لأن النبوة تستمد من السماء ، وتتجه إلى السمو والعلياء ، والملك والسلطان يتعلقان بالأرض ، ويتجهان إلى العلو فيها ، والتكاثر بالأموال والأعوان ، فالفارق بين النبوة والسلطان ، كالفارق بين السماء والأرض :

وثمن الملك رخيص ، لا يحتاج إلى جهاد أو بلاء ، فقد يصل إلى صاحبه بالميراث ، وقد يصل إليه بالغصب والعدوان ، بعكس النبوة ، فإنها غالية الثمن ، بعيدة المنال ، لا يمكن الوصول إليها باجتهاد ، أو الحصول عليها بقوة ، لأنها اصطفاء من الله « والله أعلم حيث يجعل رسالته » فلا يصطفى لها إلا من أعدهم — منذ الأزل — لحمل الأمانة ، واختارهم لتبليغ الدعوة .

لذلك : حينما التقى عبد الله بن عمر ، مع الحسين رضى الله عنهم جميعاً ، وهو فى طريقه إلى الكوفة ، وقد ظن أن خروجه إليها سعياً إلى الخلافة ، قال له :

انى محدثك حديثاً ، ان جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فخيره بين الدنيا والآخرة ، فاختار الآخرة ، ولم يرد الدنيا : . وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ما يليها أحد منكم أبدا ، وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خير لكم »(٣) .

---

(١) الترمذى وابن ماجة : عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) النزاع والتخاصم ، فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، للمقريزى : ص ٦٧ ، ٥٨ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٦٠ .

وحقاً قال ابن عمر — رضى الله عنهما — فقد ادخر المولى عز وجل لأهل البيت ، ما هو خير من الدنيا وما فيها : ادخر لهم الدار الآخرة ، التى جعلها جزاء موفوراً ، « للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين»(١) .

قال أبو معاوية : « الذى لا يريد علواً : هو من لم يجزع من ذلها ، ولم ينافس فى عزها ، وأرفعهم عند الله أشدهم تواضعاً ، وأعزهم غداً ألزمهم لذل اليوم »(٢) .

أهل البيت . . أهل البلاء والاصطفاء :

وطبيعى وقد كرم الله أهل البيت ، فأذهب عنهم الرجس ، وطهرهم من المطامع والأهواء ، أن يصطفيهم الله تعالى لحماية دعوته ، ونشر هدايته ، وأن يرتضيهم محلا لبلائه ، وهدفاً لقدره وقضائه ، وأن يضرب بهم للعالمين ، أروع المثل فى الأولين والآخرين ، ذلك أن « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، فخيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا »(٣) . وأهل البيت — رضوان الله عليهم — بحكم صلتهم بأشرف خلق الله ، هم أصدق الناس إيماناً ، وأرسخهم يقيناً ، وأعرقهم أصلا ، وأشرفهم حسباً ونسباً ، فلا عجب أن يكونوا أولى الناس بمواقف الشرف والاباء ، والبطولة والفداء ، وأجدرهم بالصدق عند اللقاء ، والصبر فى البأساء والضراء .

ومن ثم : كان أهل البيت هم أقرب الناس إلى البلاء ، وأقلهم حظاً فى السعادة والهناء ، لاضناً من رب العالمين بإكرامهم ، وإنما أعلاء لشأنهم ، ورفعاً لدرجاتهم ، وتخليداً لذكراهم ، فتلك سنة الله تعالى فى خلقه ، أوضحها سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فى حديثه ، إذ يقول :

« أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى المرء على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة »(٤) .

لذلك : نجد أن تاريخ المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وتاريخ أهل بيته الكرام البررة ، بفيض بالمآسى والآلام ، بما تنفطر له القلوب ، وترجف له الأحلام ، وكما أن المعادن النفسية ، لا تزيدها النار إلا إشعاعاً ونوراً ، فكذلك أهل البيت : لم يزدهم البلاء إلا إظهاراً لفضائلهم ، ورفعاً لدرجاتهم عند الله ، وتمكيناً لمحبتهم عند الناس ، حتى أصبح ذلك الحب هو الفطرة التى فطر الله المؤمنين عليها ، وهو الحب الذى تجتمع حوله القلوب المطمئنة ، والنفوس الطاهرة ، لأنه فى الله : ولله وحده : فهو سبحانه وتعالى — الذى اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم ، نبياً ورسولا ، وبعثه إلى الناس كافة هادياً

---

(١) سورة القصص : ٨٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٣ - ٣٢٠ .

(٣) البيهقى : عن أبى هريرة رضى الله عنه .

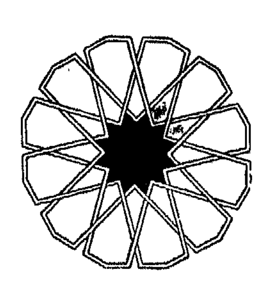
(٤) أحمد والبخارى والترمذى : من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .

ومبشراً ونذيرا ، وجعله سبب كل هداية ، وعلة كل خير ، فكان من الطبيعى — وفاء بحقه صلى الله عليه وسلم — أن يتفانى المؤمنون فى حبه ، وأن يحبوا كل من أحبه صلى الله عليه وسلم ، وكل من يتصل به أو ينتسب إليه من أهل البيت المطهر ، رضى الله عنهم أجمعين :

عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال :

« أما بعد : ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب : وأنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله : فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به — فحث على كتاب الله ورغب فيه — ثم قال : وأهل بيتى :. أذكركم الله فى أهل بيتى :: أذكركم الله فى أهل بيتى :: أذكركم الله فى أهل بيتى »(١) : وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« استوصوا بأهل بيتى خيراً : فإنى أخاصمكم عنهم غداً ، ومن أكن خصمه أخصمه ، ومن أخصمه دخل النار »(٢).



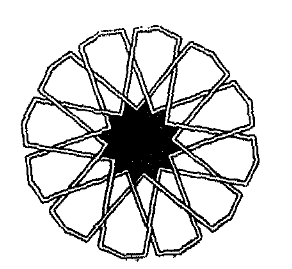
(١) رواه مسلم : فى فضائل على كرم الله وجهه .

(٢) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، للمحب الطبرى : ص ١٨ ، وقال : أخرجه أبو سعد والملا فى سيرته .

الفصل الثانى

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » :
« .. هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة ، استأذن ربه أن يسلم على ، ويبشرنى أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، وأن الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة » .

« رواه الترمذى من حديث حذيفة رضى الله عنه » .



ابناء الزهراء

مكانة الزهراء رضى الله عنها

محبة النبي صلى الله عليه وسلم لها :

كانت فاطمة الزهراء — رضى الله عنها — أحب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه ، فعن أسامة بن زيد : أن علياً — رضى الله عنهما قال :

يا رسول الله : أى أهلك أحب إليك ؟ قال : « فاطمة بنت محمد »(١) .

وقد بلغ من حبه — صلى الله عليه وسلم — لها ما رواه ثوبان رضى الله عنه ، حيث قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر : آخر عهده اتيان فاطمة ، وأول من يدخل عليه إذا قدم : فاطمة عليها السلام »(٢) . . وما رواه أبو ثعلبة قال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم من غزو أو سفر : بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ، ثم أتى فاطمة ، ثم أتى أزواجه »(٣) .

مبلغ إكرام النبي صلى الله عليه وسلم لها :

ولقد بلغ من اكرام النبي صلى الله عليه وسلم لها ، وإعزازه لشخصها ، أنها — رضى الله عنها — كانت إذا دخلت عليه : قام صلى الله عليه وسلم إليها فقبلها ، وأجلسها فى مجلسة(٤) ،

وكذلك : كانت — رضى الله عنها — تقابل ذلك الإكرام والإعزاز بالمثل ، فإذا دخل عليها النبي صلى عليه وسلم ، قامت من مجلسها فقبلته ، وأجلسته فى مجلسها(٥) .

ولقد بلغ من مكانتها عند النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال فى بيان فضلها :

« فاطمة بضعة منى ، يقبضنى ما يقبضها ، ويبسطنى ما يبسطها »(٦) . وقال صلى الله عليه وسلم :

« فاطمة بضعة منى ، فمن أغضبها أغضبنى »(٧) . وقال — صلى الله عليه وسلم أيضاً « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »(٨) .

ويأبى الله تعالى — يوم القيامة — ألا أن يزيد الزهراء — رضى الله عنها — تشريفاً وتعيظماً ، وإجلالا وتكريماً ، معلناً للعالمين مكانتها كسيدة لنساء أهل الجنة ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إذا كان يوم القيامة : نادى مناد من وراء الحجب : يا أهل الجمع غضوا أبصاركم عن فاطمة بنت محمد حتى تمر »(٩) . وفى رواية أخرى :

---

(١) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى : للمحب الطبرى : ص ٣٦ .

(٢ ، ٣) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى : للمحب الطبرى : ص ٣٧ .

(٤ ، ٥) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى : للمحب الطبرى : ص ٤١ .

(٦) أحمد والحاكم : من حديث المسور بن مخرمة رضى الله عنه .

(٧ ، ٨) صحيح البخارى : فى كتاب المناقب .

(٩) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير إلى الحاكم فى مستدركه ، عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه . وصححه .

« إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش يا أهل الجمع : نكسوا رءوسكم ، وغضوا أبصاركم ، حتى تمر فاطمة بنت محمد على الصراط ، فتمر مع سبعين ألف جارية من الحور العين كمر البرق »(١) .

ولقد بلغ من مكانتها عند الله تعالى : إنه حرمها وذريتها على النار . فعن على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة :

« يا فاطمة : تدرين لم سميت فاطمة . . » ؟ قال على : يارسول الله : لم سميت فاطمة . . ؟ قال : « إن الله عز وجل قد فطمها وذريتها عن النار يوم القيامة » (٢) . أخرجه الحافظ الدمشقى ، وقد رواه الإمام على بن موسى الرضا فى مسنده ، ولفظه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن الله عز وجل فطم ابنتى فاطمة وولدها ومن أحبهم من النار فلذلك : سميت فاطمة » «(٣) .

زواجها . . وذريتها :

ولما بلغت — رضى الله عنها — مبلغ النساء ، خطبها سيد شباب أهل البيت — على بن أبى طالب كرم الله وجهه — فأتاها النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها :

« إن علياً قد ذكرك » (٤) . . فسكتت ، فزوجها له ، وهى ابنة خمس عشرة سنة وستة أشهر ، وسن على يومئذ : إحدى وعشرون سنة ، وخمسة أشهر ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت (٥) .

وقد ولدت السيدة الزهراء لعلى كرم الله وجهه ، حسناً وحسينا ، ولهما عقب ، ومحسناً مات صغيراً ، وأم كلثوم الكبرى ، وزينب الكبرى (٦) . . رضى الله عنهم أجمعين .

ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم عقب إلا من فاطمة رضى الله عنها ، وأعظم بها مفخرة (٧) .

مكانة الحسنين من النبى صلى الله عليه وسلم :

ولقد اختص النبى صلى الله عليه وسلم ، ثلاثة من أهل بيته ، من أبناء الزهراء ، بأوفر قدر من الحب والإكرام ، لما يعلمه من سمو مكانتهم عند الله ، وعظيم بلائهم فى سبيله ، أولئك هم : الحسن والحسين ، وشقيقتهما السيدة زينب ، رضى الله عنهم أجمعين .

وقد ولد الحسن — رضى الله عنه — فى منتصف رمضان من السنة الثالثة من الهجرة ، وبعده بعام واحد ، ولد الحسين عليه السلام ، فحنكهما النبى صلى الله عليه وسلم بريقه ، وتفل فى فيهما ، وأذن فى

---

(١) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير لأبى بكر فى الغيلانيات عن أبى أيوب رضى الله عنه .
(٢) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، للمحب الطبرى : ص ٢٦ .
(٣) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، المحب الطبرى : ص ٢٦ .
(٤) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى : ص ٣٣ .
(٥) المصدر السابق : ص ٢٦ .
(٦) الرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبرى ٢ - ٢٣٣ .
(٧) ذخائر العقبى ص ٥٥ .

أذنيهما ، وسماهما باسمين لم يسبق للعرب أن سمت بهما ، فقد أخرج ابن سعد عن عمران بن سليمان قال : « الحسن والحسين اسمان من أسماء أهل الجنة ، ما سمت العرب بهما فى الجاهلية »(١) .

وقال المفضل : إن الله حجب اسم الحسن والحسين ، حتى سمى بهما النبى صلى الله عليه وسلم ابنيه(٢)

وعن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال :

لما ولد الحسن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أرونى ابنى ما سميتموه ؟ » قلت سميته حرباً ، قال : « بلى :: هو حسن » ، فلما ولد الحسين سميناه حرباً ، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟ » قلت : سميته حرباً ، قال : « بل هو حسين » ، فلما ولد الثالث جاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « أرونى ابنى . . ما سميتموه ؟ » قلت حرباً : قال : « بل هذا محسن » ثم قال :

« سميتم بأسماء ولد هارون « شبر وشبير ومشبر »(٣)

« وهكذا : عدل النبى صلى الله عليه وسلم بأبناء الزهراء عن مسميات الجاهلية ، وما تدل عليه من القتال وسفك الدماء ، واختار لهم أكرم الأسماء ، وأجمل المعانى ، التى تتفق مع روح الإسلام ومثله العليا ::

وقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم لكل منهما عند مولده ، قائلا : « اللهم انى أعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم » وعق كل منهما بكبش ، وأمر بحلق شعره والتصدق بوزنه فضة ، وختنهما لسبعة أيام من مولدهما(٤) .

وقد عنى النبى صلى الله عليه وسلم ببيان فضلهما ، وأوصى بحبهما واعزازهما ، حتى أنه اعتبر حبهما من حبه ، وبغضهما من بغضه ، فلقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حسن وحسين ، هذا على عاتقه الواحد ، وهذا على عاتقه الآخر ، وهو يلثم هذا مرة ، وهذا مرة ، حتى انتهى إلينا ، فقال له رجل : يا رسول الله : وإنك لتحبهما ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « من أحبهما فقد أحبنى ، ومن أبغضهما فقد أبغضنى »(٥) .

وقد بلغ من حبه صلى الله عليه وسلم لهما ، أنه ابصرهما ذات يوم ، فلم يتمالك من شدة حنانه لهما أن قال : « اللهم إنى أحبهما ، فأحبهما »(٦) . . ولما كان دعاء النبى صلى الله عليه وسلم مجاباً ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، فمعنى ذلك ، أن الحسنين — رضى الله عنهما — كلاهما من أحباب الله تعالى .

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحسن والحسين يلعبان على صدره ، فقلت : يارسول الله : أتحبهما ؟ قال : « كيف لا أحبهما وهما ريحانتاى من الدنيا »(٧) .

(١ ، ٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٨٨ .

(٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير : ٢ - ١١ .

(٤) نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار للشبلنجى ، ص ١٢١ .

(٥) أحمد فى مسنده : من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٦) الترمذى ، من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه .

(٧) سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ - ١٨٩ .

وعن أنس رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أحب أهل بيتى إلى الحسن والحسين » (١) .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا غاب عنه الحسن والحسين ؛ اشتد شوقه إليهما ، وأمر بمن يدعوهما ، « فيشمهما إلى صدره » (٢) .

ولم يكن ذلك الحب العظيم ، الذى يستشعره النبى صلى الله عليه وسلم نحو حفيديه ، لكونهما ابنى ابنته فحسب ، وإنما كان حبه لهما لما علمه من مكانتهما الكريمة عند الله تعالى ، ومقامهما السامى بين عباده

فعن حذيفة رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتانى ملك فسلم على ، نزل من السماء ، لم ينزل قبلها ، فبشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » (٣)

الهدى المحمدى فى تربية الحسنين :

ومع عظيم حب النبى صلى الله عليه وسلم للحسنين ، وعميق اعزازه لهما ، فانه لم يأل جهداً فى تنشئتهما الصالحة ، وتربيتهما التربية الكريمة ، التى تقوم على غرس روح العزة والكرامة ، وبث معانى الإيمان والتقوى ، مما كان له أبعد الأثر فى نفس الحسنين ، وفى تكوين شخصيتهما ، على أساس من المثل العليا ، والسجايا الفاضلة ، وذلك رغم قصر الفترة التى سعدا فيها برؤية النبى صلى الله عليه وسلم ، وظفرا بتوجيهه وإرشاده .

ومن أروع الصور التى يمكن أن نقدمها لهذه التنشئة العالية ، ما رواه الحسن رضى الله عنه بنفسه إذ يقول :

« أخذت تمرة من تمر الصدقة ، فتركتها فى فمى ، فنزعها صلى الله عليه وسلم بلعابها ، وقال : إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة » (٤) : وفى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كخ كخ .. ارم بها ، ما شعرت أنا لا نأكل الصدقة » (٥) ؟ .

وفى هذه الكلمات القليلة ، يحرص النبى صلى الله عليه وسلم على توجيه حفيده الصغير إلى التسامى بنفسه إلى المكانة اللائقة بأهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، فتكون أيديهم هى العليا ، يعطون ولا يأخذون ، ويتصدقون ولا يتصدق عليهم ، لأن مقام أهل البيت من غيرهم ، مقام النجوم فى السماء من أهل الأرض ، ولا يليق بهم أن يأكلوا من الصدقات لأنها ملوثة بذنوب الناس وبها يتطهرون منها ، قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (٦) .

(١ ، ٢) الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه .

(٣) الجامع الكبير للسيوطى : عن ابن عساكر : حديث صحيح .

(٤) أحمد فى مسنده عن الحسن رضى الله عنه .

(٥) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٦) سورة التوبة : آية ١٠٣ .

ويروى الحسن — رضى الله عنه — صورة أخرى رائعة ، من صور التوجيه المحمدى الكريم ، إذ يقول : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن فى قنوت الوتر :

« اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ما قضيت ، فإنك تقضى ولا يقضى عليك ، وأنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، وصلى الله على النبي محمد »(١) .

وفى هذه الكلمات القليلة من المعانى الكبيرة ، من طلب الهداية والعافية والتولى من الله تعالى ، وسؤال البركة والوقاية ، مع الاعتراف بقدرته وقهره ، وأنه لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا معجز له فى الأرض ولا فى السماء ، فالعزيز من تولاه الله برعايته ، وأعزه بطاعته وهدايته ، والذليل من عاداه الله باعراضه عنه ، وأذله بالمعاصى والآثام .. نقول : فى هذه الكلمات الكبيرة ، ما يدل على مبلغ ما أحرزه سيدا شباب أهل الجنة — رضى الله عنهما — فى طفولتهما من نجابة وفطنة ، حتى استطاعا استيعاب هذه المعانى ، وهما دون السابعة :

ويقدم لنا الحسن — رضى الله عنه — صورة ثالثة لما استوعبه من توجيهات سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، إذ يقول :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«من صلى صلاة الغداة فى مصلاه حتى تطلع الشمس ، كان له حجاب من النار » أو قال « ستر من النار »(٢) .

شبه الحسن والحسين بالنبي :

ولقد شابه الحسنان — رضى الله عنهما جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كثير من صفاته الخلقية ، حتى لقد اختلفت الروايات فى أيهما كان أشبه به صلى الله عليه وسلم ، فعن أبى جحيفة — رضى الله عنه — قال :

« رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الحسن بن على يشبهه » . وفى حديث لأنس رضى الله عنه :

« إن الحسين كان أشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم » . وقد جمع بين الحديثين ما روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : :

« كان الحسن أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين الرأس إلى الصدر ، والحسين أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم ما كان أسفل من ذلك »(٣) .

ولقد جاء فى نشأة النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما حدثت به السيدة حليمة بنت الحارث ، — مرضعته — إنه « كان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً »(٤) أى مكتمل النضوج ، تم فصاله وقدر على الأكل .

(١) رواه أصحاب السنن وغيرهم بإسناد حسن .

(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير : ٢ - ١٢ .

(٣) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى للمحب الطبرى : ص ١٢٧ ، وقال أخرجه الترمذى وقال حسن غريب .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير : ٢ - ٢٧٤ .

وكذلك كان الشأن فى الحسن والحسين — رضى الله عنهما — فى قوة البنية ، وسرعة النمو ، وبسطة الجسم ، حتى أن أبا سفيان لما وفد إلى المدينة فى السنة الثامنة من الهجرة ، ليشد العهد بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، ويزيد فى المدة ، فلما أبى عليه النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وقال له : « نحن على مدتنا وصلحنا يوم الحديبية ، لا نغير ولا نبدل » . فقصد أبو سفيان فيمن قصد : السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها . فناشدها أن تتوسط لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما جاء من أجله ، فقالت : « إنما أنا امرأة ، وإنما ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الحسن — رضى الله عنه — إذ ذاك غلاماً يدب بين يديها ، فقال لها أبو سفيان : يابنت محمد : هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ! ! فأجابته الزهراء رضى الله عنها : والله ما بلغ بنى ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على النبى صلى الله عليه وسلم(1) .

ولما كان الحسن — رضى الله عنه — حينذاك لم يتجاوز الخامسة من عمره ، فقد دل ذلك على أنه — رغم حداثته — كان يظهر أكبر من سنه ، جسماً وروحاً ، حتى ظن أبو سفيان أنه يستطيع أن يجيره بين الناس :

* * *

وقد ورث الحسنان — فيما ورثاه من شبه عن جدهما صلى الله عليه وسلم — الكثير من هيبته ونوره ، حتى أنهما فى حداثتهما ، كان الناظر إليهما ليؤخذ بما يشع من وجههما من البهاء والسماحة والهيبة ، بما يؤكد سمو مكانتهما عند الله ، وعظم جاههما عنده .

هؤلاء هم أكابر النصارى وسادتهم فى نجران ، يفدون إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فى السنة العاشرة من الهجرة ، فيدعوهم إلى الإسلام ، ويتلو عليهم القرآن ، فاذا ما أصروا على المكابرة والعناد ، دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة طبقاً لأمر الله تعالى إليه فى قوله :

« فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

ووافق القوم على المباهلة ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه فاطمة وعلى والحسن والحسين عليهم السلام ، فلما رأوهم قالوا :

هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها . ! !

وهكذا : عدلوا عن المباهلة ، وصالحوا النبى صلى الله عليه وسلم على الجزية .

رعاية النبى صلى الله عليه وسلم للحسنين :

ولقد أحاط النبى صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين — رضى الله عنهما بمزيد من رعايته ، وأفاض عليهما من شفقته وعطفه ، حتى أنه صلى الله عليه وسلم ، كان يخطب ذلك مرة ، « إذ جاء الحسن والحسين

(1) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٣ - ٤٦ ، البداية والنهاية : ٤ - ٢٨٠ .

ـ رضى الله عنهما ـ وعليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران : : : فنزل صلى الله عليه وسلم عن المنبر ، فحملهما ، ووضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) : : نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما »(١) :

وكثيراً ما كان صلى الله عليه وسلم ، يركبهما معه بغلته « الشهباء » ، هذا قدامه ، وهذا خلفه ، حتى يدخل بهما حجرته(٢) .

ولقد بلغ من حنانه لهما ، وحدبه عليهما ، ما رآه المسلمون رأى العين ، حينما كان صلى الله عليه وسلم يصلى العشاء ، فاذا سجد وثب الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ على ظهره ، فاذا رفع رأسه أخذهما أخذاً رقيقاً فيضعهما على الأرض ، فاذا عادا ، حتى إذا قضى صلاته ، اقعدهما على فخذيه (٣) :

كما بلغ من تكريمه لهما ، أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصفهما بما يتفق مع طيب عنصرهما ورقة روحهما ، فقال : « هما ريحانتاى من الدنيا »(٤) .

كما بين صلى الله عليه وسلم ، أن مكانتهما منه ، وسيادتهما بين الناس ، لا تقف عند حد الدنيا ، ولا تقتصر على قومهما ، بل تمتد إلى الدار الآخرة ، وتشمل الشباب الصالح من جميع الأمم والقرون ، إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة(٥) » :

ولا شك فى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى كل هذه الصور الكريمة ، من المحبة والحنان ، والإعزاز والتكريم ، لحفيديه الصغيرين ، لم يكن مدفوعاً بعاطفة خاصة فحسب ، وإنما كان مأموراً بوحى من ربه ، كى يعلم المسلمين ما يجب عليهم نحو أبنائهم عامة ، ونحو أهل البيت والحسنين خاصة ، من صدق المحبة ، وخفض الجناح ، ومعرفة حقهم ، واستشعار كل الإجلال والتوقير لهم ، حتى أنه حين قال له الأقرع بن حابس ـ وقد رآه يقبل الحسن أو الحسين ـ ان لى من الولد عشرة ، ما قبلت واحداً منهم : فقال له النبى صلى الله عليه وسلم مستنكراً حاله : « من لا يرحم لا يرحم »(٦) :

وإذا كان هذا هو مقام الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ من الله ورسوله ، ومكانتهما ، فلا عجب إذا حرص صلى الله عليه وسلم ، على التحذير من مغبة معاداتهما ، أو مشاقتهما ، لأن معاداتهما معاداة لله ورسوله ، ومشاقتهما مشاقة لله ورسوله ، قال تعالى « ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب »(٧) .

(١) الترمذى : من حديث بريرة عن أبيه رضى الله عنهما .
(٢) صحيح مسلم : باب فضائل الحسن والحسين رضى الله عنهما .
(٣ ، ٤) أحمد فى مسنده من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .
(٥) أحمد فى مسنده من حديث أبى سعيد رضى الله عنه .
(٦) أسد الغابة : ١ - ١٣٠ .
(٧) سورة الأنفال : آية ١٣ .

وتأكيداً لهذا المعنى ، وزيادة فى إيضاحه ، فقد أعلنه النبي صلى الله عليه وسلم صراحة إذ يقول للحسن والحسين – رضى الله عنهما : « أنا حرب لمن حاربكم ، سلم لمن سالمكم »(١) .

ولقد بلغ من تكريم النبي صلى الله عليه وسلم لسبطيه الكريمين أنه – رغم صغر سنهما – قبل منهما بيعتهما له ، ضمن الثلاثة الصغار الذين بايعوه من أهل البيت : الحسن والحسين ، وعبد الله بن جعفر – رضى الله عنهم أجمعين – ولم يبايع قط صغيراً إلا هم(٢) .

* * *

ولقد بلغ من رعايته – صلى الله عليه وسلم للحسنين وحرصه على وقايتهما من كل سوء أنه كثيراً ما كان يعوذهما ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين قائلا : « أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » . ويقول : « هكذا كان يعوذ إبراهيم ابنيه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام(٣) » .

وعن عبد الرحمن بن عوف – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الرحمن : ألا أعلمك عوذة كان إبراهيم يعوذ بها ابنيه اسماعيل واسحاق ، وأنا أعوذ بها ابنى : الحسن والحسين ؟ – كفى بالله واعياً لمن دعا ، ولا مرمى وراء أمر الله لمن رمى(٤)

تعود الحسنين حياة الخشونة والتقشف :

وبالرغم من حداثة سن الحسنين – رضى الله عنهما – فقد شاطرا جدهما – صلى الله عليه وسلم – وأهل بيته ، ما كانوا يعانونه – أحياناً – من شدة ومسغبة ، ولقد صبرا على ذلك صبر الرجال الأقوياء

ومن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقام أياماً لم يطعم طعاماً ، حتى شق ذلك عليه ، فطاف فى منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً ، فأتى فاطمة فقال : يابنية : هل عندك شيء آكله ؟ فإنى جائع ، فقالت : لا والله ، بأبى أنت وأمى . . . فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم ، فأخذته منها ، فوضعته فى جفنة لها ، وقالت : لأوثرن بهذا رسول الله على نفسى ومن عندى ، وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام ، فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إليها فقالت له : بأبى وأمى قد اتى الله بشيء فخبأته لك . قال : هلمى يابنية . قالت : فكشفت عن الجفنة فاذا هى مملوءة خبزاً ولحماً ، فلما نظرت إليها بهتت ، وعرفت أنها بركة من الله ، فحمدت الله وصليت على نبيه ، وقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أين لك هذا

---

(١) أحمد فى مسنده ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٢ - ٢٤٣ .

(٣) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، للمحب الطبرى : ص ١٣٤ من حديث ابن عباس .

(٤) المصدر السابق : من حديث عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه .

يابنية ؟ ؟ » قالت : « هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » فبعث رسول الله صلى الله وأهل بيته جميعاً ، حتى شبعوا ، وبقيت الجفنة كما هي ، فأوسعت ببقيتها على الجيران ، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً(١) .

* * *

وقد تشتد بالحسنين — رضى الله عنهما — الحاجة إلى الطعام ، حتى ليصل الأمر بهما — أحياناً — إلى البكاء من ألم الجوع ، فعن عمر — رضى الله عنه — قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزل فاطمة ، والحسن والحسين يبكيان جوعاً ، ويتضوران ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من يصلنا بشىء » ؟ ؟ فطلع عبد الرحمن بن عوف ، بصفحة فيها حيس ورغيفان ، بينهما أهالة ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« كفاك الله أمر دنياك ، وأما آمر آخرتك فأنا لها ضامن »(٢) .

ولا شك أنه كان لهذه النشأة الخشنة التى عاشها سيدا شباب أهل الجنة ، أثرها العميق فيما عرف عنهما من صمود للشدائد ، وزهد فى متاع الحياة الدنيا ، واعراض عن زيف جاهها وسلطانها .

تكريم الصحابة للحسنين :

ولقد شاهد الناس جميعاً ، مبلغ حب النبى صلى الله عليه وسلم لابنيه ، ومبلغ حرصه عليهما ، ورعايته لهما ، فكان من الطبيعى أن نجد أكابر الصحابة رضوان الله عليهم ، يجلون الحسن وأخاه أعظم الإجلال ، ويكرمونهما كل الاكرام ، لمقامهما من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، ولما سطع فيهما من أنوار النبوة ، ولما يرونه فيهما من مخايل النجابة ، ومميزات الرجولة .

هذا هو الصديق أبو بكر يخرج مع على — رضى الله عنهما — بعد صلاة العصر ، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بليال ، فيلقى الحسن رضى الله عنه يلعب مع الغلمان ، فلا يتمالك خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحمله على عنقه ، ويقول له متبسطاً : بأبى شبيه بالنبى : : ليس شبيهاً بعلى ، وعلى ... ينظر ويضحك(٣) ، أى أفديك بأبى لأنك تشبه النبى صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان الفاروق عمر بن الخطاب ، يحب الحسنين — رضى الله عنه وعنهما — ويعظمهما ، حتى بلغ من قدرهما عنده أنه جعلهما فى مقدمة الأربعة الذين ألحقهم بأهل بدر من غير أهلها — والحسين وأبو ذر وسلمان رضى الله عنهم أجمعين — وجعل منهما مثل عطاء أبيهما — خمسة آلاف(٤) .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ - ٢٩ .

(٢) الرياض النضرة للمحب الطبرى : ٢ - ٩٧ ، ٩٨ ، من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط ، والاهالة : دسم اللحم .

(٣) صحيح البخارى : باب مناقب الحسن والحسين .

(٤) البداية والنهاية : ٨ - ٣٦ ، سير أعلام النبلاء للذهبى ٣ - ١٩١ .

بل لقد كان عمر رضى الله عنه يقدمهما على ولده ، ولقد قسم يوماً ، فأعطى الحسن والحسين — رضى الله عنهما — كل واحد منهما عشرة آلاف درهم ، وأعطى ولده عبد الله ألف درهم ، فعاتبه ولده قائلا : قد علمت سبقى فى الإسلام وهجرتى ، وأنت تفضل على هذين الغلامين ؟ فقال عمر رضى الله عنه :

« ويحك يا عبد الله : جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبواهما على وأمهما فاطمة ، وجدتهما خديجة ، وخالهما إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخالاتهما : زينب ورقية وأم كلثوم ، وعمهما جعفر بن أبى طالب ، وعمتهما أم هانىء بنت أبى طالب »(١) .

وقدم على عمر — رضى الله عنه — حلل من اليمن فكسا الناس ، فراحوا فى الحلل ، وهو بين القبر والمنبر جالس والناس يسلمون عليه ، فخرج الحسن والحسين من بيت فاطمة — رضى الله عنهم جميعاً — فى جوف المسجد ، وليس عليهم شىء من تلك الحلل ، فقال عمر : والله ما هنانى ما كسوتكم ! ! قالوا : لم يا أمير المؤمنين؟ قال : من أجل هذين الغلامين ، يتخطيان الناس ، ليس عليهما مما كسوت الناس شىء . ثم كتب لصاحب اليمن : أن أبعث إلى بحلتين ، لحسن وحسين ، وعجل : فلما كساهما عمر قال : الآن طابت نفسى(٢) ... ! !

* * *

ولقد بلغ من تعظيم الفاروق لمقام الحسنين — رضى الله عنهم أجمعين — وتقديره لمكانتهما عند الله ورسوله ، أنه عرض له ذات يوم من البكاء ، ما كان يعرض له بين حين وآخر ، حين يتذكر مسئوليته عن الأمة ، ويشفق من تقصيره فى القيام بها ، فقال له على — كرم الله وجهه : « والله إنك لتعدل فى كذا — وكذا ... وتعدل فى كذا وكذا ... » .

ولكن الفاروق استمر فى بكائه ، حتى تكلم الحسن — عليه السلام — بما شاء الله ، فذكر من ولايته وعدله ما ذكر ، ثم تبعه الحسين فتكلم بمثل كلام أخيه — رضى الله عنهما — . وعندئذ فقط انقطع بكاء الفاروق ، وقال لهما :

أتشهدان بذلك يا بنى أخى ؟ . فنظرا إلى أبيهما ... فقال على كرم الله وجهه :

اشهدا ، وأنا معكما من الشاهدين(٣) .

* * *

---

(١) الحسين عليه السلام لعلى جلال الحسينى : ١ - ٣٢ ، من رواية سبط بن الجوزى فى تذكرة خواص الأمة .
(٢) التاريخ الكبير لابن عساكر : ٤ - ٣٢١ .
(٣) الرياض النضرة للمحب الطبرى : ٢ - ٦٠٢ .

وهذا هو عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — بينما كان جالساً فى ظل الكعبة ، إذ رأى الحسين — رضى الله عنه — مقبلا ، فلم يلبث أن قال : هذا أحب أهل الأرض إلى أهل السماء اليوم(١) .

وهذا هو عبد الله بن عباس — حبر الأمة العظيم — كان يمسك بركاب الحسن والحسين حتى يركبا ، ويقول : هما ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) ، فلما عوتب فى ذلك ، وقيل له : أنت أسن منهما ، قال : ان هذين ابنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفليس من سعادتى أن آخذ بركابهما(٣) ؟ ؟

وهذا هو أبو هريرة — صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم — لا يكاد يرى الحسين — رضى الله عنه — وقد أعيا فى الطريق أثناء مسيره فى جنازة ، فقعد ، حتى أقبل أبو هريرة عليه ، فجعل ينفض التراب عن قدميه بطرف ثوبه ، والحسين — رضى الله عنه — يقول له : يا أبا هريرة : وأنت تفعل هذا ؟ فقال له : دعنى ! ! فوالله لو يعلم الناس منك ما أعلم لحملوك على رقابهم(٤) ! !

ولقد بلغ من حب الصحابة للحسنين ، أنهما كانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مما يزدحمون عليهما ، للسلام عليهما(٥) .

جهاد الحسنين فى سبيل الله :

ولما بلغ ابنا الزهراء مبلغ الفتوة ، حملا نصيبهما من الجهاد فى سبيل الله تعالى ، فكانا ضمن الجيش الذى بعث به ثالث الخلفاء الراشدين — عثمان بن عفان رضى الله عنه — من المدينة ، وفيه جماعة من أكابر الصحابة ، منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير :: فساروا إلى افريقية ، مدداً لأمير مصر وقتئذ عبد الله بن أبى سرح ، وذلك سنة ٢٧ من الهجرة ، فهزموا الروم فى طرابلس ، ثم طاردوهم حتى التقوا بهم على مسيرة يوم وليلة من سبيطلة ، وكان الروم فى مائة وعشرين ألفا ، فدعاهم المسلمون إلى الإسلام أو الجزية ، فاستكبروا :: فقاتلوهم ، وهزموهم شر هزيمة ، وقتلوا ملكهم جرجير ، ثم تابعوا زحفهم إلى المغرب الأقصى ، وكان الحسنان فيمن دخلوه من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين(٦) .

* * *

كما كانا — رضى الله عنهما — مع أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ضمن الجيش الذى غزا طبرستان سنة ثلاثين من الهجرة ، بإمرة سعيد بن العاص أمير الكوفة ، فساروا إلى « جرجان » فصالحهم أهلها على مائتى ألف ، ثم أتوا « طميسة » وهى مدينة على ساحل البحر فى تخوم جرجان ، فقاتلهم أهلها ، حتى صلوا صلاة الخوف وهم يقتتلون ، ثم حاصرهم المسلمون حتى طلبوا الأمان ،

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر : ١ - ٣٣٣ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد .
(٣ ، ٤) التاريخ الكبير : ٤ - ٣٢٢ .
(٥) البداية والنهاية : ٨-٣٧ .
(٦) الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى : لأحمد بن خالد الناصرى : ١ - ٣٩ .

فأعطاهم سعيد بن العاص عهداً أن لا يقتل منهم رجلا واحداً ، ففتحوا الحصن مستسلمين ، فقتلهم جميعاً إلا رجلا واحداً(١) :

دفاع الحسنين عن ثالث الخلفاء الراشدين :

ولقد أبلى الحسنان — رضى الله عنهما — أحسن البلاء ، دفاعاً عن ثالث الخلفاء الراشدين رضى الله عنه ، ضد المعتدين الذين جاءوا من مصر وغيرها من البلدان ، بتأثير الفتنة التى دبرها ابن السوداء ، عبد الله بن سبأ ، اليهودى الأصل ، فأحاطوا بدار أمير المؤمنين ، ومنعوا عنه المياه ، ورموه بالسهام ، وأصبح الخطر مؤكداً على حياته :

فلما بلغ ذلك علياً — كرم الله وجهه — أرسل إلى دار الخليفة بثلاث قرب من الماء ، حملها بنفسه ، وأوصلها بعد جهد جهيد ومقاومة من المحاصرين ، ثم دعا على بابنيه رضى الله عنهم أجمعين فقال لهما «اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه» فسارا إليه ، فى جماعة من أبناء الصحابة ، عن أمر آبائهم ، وصاروا يحاجون عنه ، ويناضلون دونه ، منهم عبد الله بن عمر وابن الزبير ومروان وأبو هريرة ، حتى اجتمع حول الدار زهاء سبعمائة من المهاجرين والأنصار(٢) ، ولكن عثمان رضى الله عنه أقسم بما له عليهم من حق الطاعة أن ينصرفوا : فاستجاب الكثيرون : حتى طمع المعتدون فى الوصول إلى غرضهم ، لولا بقاء حفنة من الشباب يمنعونهم من الداخل ، منهم الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ولما تعذر على المعتدين الأمر ، أحرقوا باب الدار وسقيفتها ، فبرز لهم الحسن فيمن برز لمقاومتهم وهو يقول :

لا دينهم دينى ولا أنا منهم   حتى أسير إلى طمار شمام(٣)

ولا عجب : فقد كانت صلة الحسن بعثمان — رضى الله عنهما — تقوم على أصدق الولاء ، وأعمق الوفاء ، لما يعرفه الحسن عن ثالث الخلفاء من سابقة فى الإسلام ، وجهاد فى سبيله ، فضلا عن مكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى زوجه بابنتيه — رقية وأم كلثوم رضى الله عنهما — واحدة بعد الأخرى :

ولقد بلغ من وفاء الحسن للخليفة ، ومحبته له ما رواه أرطأة بن المنذر ، قال : لقى على بن أبى طالب ؛ الحسن بن على — رضى الله عنهما فقال :

« يا بنى : أما لى عليك حق الوالد » ؟ : فقال الحسن رضى الله عنه :

« حق الخليفة أعظم من حق الوالد »(٤) :

ولم ينكر الوالد على ولده هذا القول : لعلمه أنه إنما صدر عن فقه فى الدين ووعى سليم :

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٤ - ٢٦٩ و ٢٧٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧ - ١٥٤ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٧ - ١٨١ .
(٣) الطبرى : ٤ - ٣٨٨ .
(٤) الرياض النضرة للمحب الطبرى : ٢ - ١٥١ .

وظل الحسن والحسين يدفعان عن أمير المؤمنين ، مع من بقى معهما من أبناء الصحابة . . واستماتا فى ذلك حتى خضبت الدماء وجهيهما ، وأشفق عثمان – رضى الله عنه – على ابنى بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يصيبهما سوء بسببه ، فقال : إن القوم لم يحرقوا الباب إلا وهم يطلبون ما هو أعظم منه ، فأخرج على رجل أن يستقتل أو يقاتل ، فخرج الناس كلهم ، ولم يبق معه سوى الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وقد شهرا سيفيهما يصدان عن أمير المؤمنين ، الذى أتى بمصحف يقرأ فيه ، ثم قال للحسن : إن أباك الآن لفى أمر عظيم ، فأقسمت عليك لما خرجت(١) .

ومع ذلك فقد ظل ابنا الزهراء رضى الله عنهما يحرسان الباب من الخارج ، حتى خشى المعتدون غضبة بنى هاشم ، فلم يتعرضوا لهما ، وتحايلوا حتى تسوروا دار عثمان – رضى الله عنه – من خلفها ، ودخلوا عليه فقتلوه : وفوجىء من بالباب بمن يصرخ قائلا : قتل أمير المؤمنين ، فدخل الحسن والحسين – رضى الله عنهما – ومن معهما فوجدوه – رضى الله عنه – مذبوحاً ، فأكبوا عليه يبكون (٢) . .

وبلغ الخبر عليا كرم الله وجهه ، فخرج مع من كان بالمدينة من أكابر الصحابة ، وقد ذهبت عقولهم ، حتى دخلوا على عثمان رضى الله عنه ، فاسترجعوا ، وبالرغم من أن عليا رأى ولديه مخضبين بالدماء فإنه لم يتمالك نفسه غضباً ، فصاح بهما :

«كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب» ؟ !

ثم رفع يده فلطم الحسين ، وضرب صدر الحسن : : وخرج غضبان أسفا(٣) .

مصاحبة الحسنين لأبيهما فى الحروب :

ولما آلت الخلافة إلى على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، لازم الحسنان أباهما فى كل المعارك والحروب ، ففى موقعة الجمل : خرج على ومعه المهاجرون والأنصار من أهل المدينة ، وأعطى الراية إلى محمد بن الحنفية ، وجعل الحسن على ميمنته ، والحسين على ميسرته ، فلما التقى الجمعان وحمى وطيس القتال ، بتدبير عبد الله بن سبأ – لعنه الله – زحف على بنفسه نحو الجمل ، فى كتيبته الخضراء ، من المهاجرين والأنصار ، وحوله بنوه : الحسن والحسين ومحمد عليهم السلام (٤) .

وصاحب الحسنان أباهما فى صفين ، مع أخيهما محمد بن الحنفية ، وقد أحاط به الثلاثة يقيه كل منهم بنفسه ، فيكره على ذلك ، ويأبى إلا أن يتقدم عليهم ، ليحول بينهم وبين أهل الشام ، فأخذ من تقدم منهم بيده ، فيلقيه بين يديه ، أو ورائه : فبصر بعلى أحمر – مولى بعض بنى أمية – فأقبل نحوه ، فخرج إليه كيسان مولى على ، فقتله الأول ، فما كان من على إلا أن جذبه فحمله على عاتقه ، ثم ضرب به الأرض فكسر منكبه وعضديه ، وشد الحسين ومحمد عليه ، فضرباه بأسيافهما حتى برد ،

---

(١) الطبرى : ٤ - ٣٩٢ .

(٢ ، ٣) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٢ - ٢٠٨ .

(٤) الكامل لابن الأثير : جـ ٣ .

والحسن قائم ينظر دون أن يشتركهما فى المعركة ، فقال له والده : يا بنى ما منعك أن تفعل كما فعل أخواك ؟ » قال : كفيانى يا أمير المؤمنين(١) .

ولقد كان والد الحسنين — رضى الله عنه وعنهما — مع حرصه كل الحرص على تنشئتهما على البطولة والإقدام ، يشفق كل الإشفاق عليها أن ينالهما أى أذى ، ويحرص كل الحرص على سلامتهما ، لصلتهما برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى انه ليقول بعد يوم صفين :

« لقد هممت بالإقدام على القوم ، فنظرت إلى هذين قد ابتدرانى — يعنى الحسن والحسين — رضى الله عنهما ، ونظرت إلى هذين قد استقدمانى — يعنى عبد الله بن جعفر ، ومحمد بن على رضى الله عنهما — فعلمت أن هذين ان هلكا : انقطع نسل محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الأمة ، فكرهت ذلك ، وأشفقت على هذين أن يهلكا ، وعلمت أنه لولا مكانى لم يستقدما ، وأيم الله لئن لقيتهم بعد يومى هذا ، لألقينهم وليسوا معى فى عسكر ولا دار »(٢) .

ويأبى أمير المؤمنين — رضى الله عنه — إلا أن يضرب لأبنائه من حوله مثلا عالياً فى رباطة الجأش وصدق التوكل على الله ، والإيمان بقضائه وقدره ، حينما دنا منه جند الشام ، فما تغير عن ثباته وهدوئه ، وما زاده قربهم منه سرعة فى مشيته ، حتى لقد أشفق عليه الحسن رضى الله عنهما ، فقال له : ما ضرك لو سعيت حتى تنتهى إلى هؤلاء الذين قد صبروا لعدوك من أصحابك ؟ ؟ فما كان من والد الحسنين — كرم الله وجهه — إلا أن قال :

« يا بنى : إن لأبيك يوماً لا يعدوه ، ولا يبطىء به عند السعى ، ولا يعجل به إليه المشى ، إن أباك والله ما يبالى أوقع على الموت ، أو وقع الموت عليه »(٣) .

واستمر الوالد العظيم ، يتعهد أبناءه بالتوجيه السامى ، والقدوة الطيبة ، ويغرس فى أعماق نفوسهم كل فضيلة ، حتى طعنه ابن ملجم وهو خارج لصلاة الغداة ، فلم يخرج به العدوان الأثيم عن طبيعته الأصلية فى النبل والشرف ، ولم يفكر وهو فى ساعاته الأخيرة إلا فى إيقاف أبنائه وأهله عند حدهم ، حتى لا يسرفوا فى عدوان ، أو ينساقوا إلى تمثيل أو إنتقام ، فصاح بهم — رضى الله عنه — قائلا :

« النفس بالنفس .. إن أنا مت فاقتلوه كما قتلنى ، وإن بقيت رأيت فيه رأيى(٤) » .

ولم يكتف — رضى الله عنه بذلك ، بل جمع أبناءه وأهله وقال لهم :

« يا بنى عبد المطلب : لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين ، تقولون : قتل أمير المؤمنين .. قتل أمير المؤمنين .. ألا لا يقتلن إلا قاتلى . أنظر يا حسن : إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ١٩ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٦١ .
(٣) المرجع السابق : ٥ - ١٩ .
(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ١٤٦ .

بضربة ، ولا تمثل بالرجل ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إياكم والمثلة ، ولو أنها بالكلب العقور »(١) .

وصية الشهيد العظيم إلى أبنائه :

وحينما أيقن رابع الخلفاء الراشدين — رضى الله عنه — أنه على وشك الانتقال من هذه الدنيا الفانية ، والقدوم على ربه عز وجل ، دعا ابنى الزهراء — رضى الله عنها وعنهما — فأخذ يوصيهما بخير ما يوصى به والد ولده ، ويقول لها :

« أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شىء زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف ، واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم ناصرا ، واعملا بما فى كتاب الله ، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم » :

ثم نظر — رضى الله عنه — إلى محمد بن الحنفية وقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم : قال « فإنى أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك ، لعظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ، ولا تقطع أمراً دونهما » : ثم قال لهما : « أوصيكما به ، فإنه شقيقكما ، وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه » ثم قال — رضى الله عنه للحسن :

« أوصيك أى بنى بتقوى الله ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء ، فإنه لاصلاة إلا بطهور ، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة ، وأوصيك بغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم عند الجهل ، والتفقه فى الدين ، والتثبت فى الأمر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش »(٢) :

فلما حضرته الوفاة : أوصى — رضى الله تعالى عنه — أبناءه وأهله وصية جامعة ، جمع فيها كل أبواب البر والخير ، حيث قال بعد أن شهد بأنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله :

« أوصيك يا حسن وجميع ولدى وأهلى بتقوى الله ربكم ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، فإنى سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول : « إن إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام » انظروا إلى ذوى أرحامكم ، فصلوهم ، يهون الله عليكم الحساب ، الله : الله فى الأيتام ، فلا تعنوا أفواههم ، ولا يضيعن بحضرتكم ، والله الله فى جيرانكم ، فإنهم وصية نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ما زال يوصى بهم حتى ظننا أنه سيورثهم ، والله الله فى القرآن ، فلا يسبقنكم إلى العمل به غيركم ، والله الله فى الصلاة ، فإنها عمود دينكم ، والله الله فى بيت ربكم فلا تخلوه ما بقيتم ، فإنه ان ترك لم يناظر ، والله الله فى شهر رمضان ، فإن صيامه جنة من النار ، والله الله فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم والله الله فى الزكاة ، فإنها تطفىء غضب الرب ، والله الله فى

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ١٤٨ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ١٤٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧ - ٣٢٧ ,

ذمة نبيكم ، فلا يظلمن بين أظهركم ، والله : : الله فى أصحاب نبيكم فإن رسول الله أوصى بهم ، والله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معايشكم ، والله الله فيما ملكت أيمانكم ، فإن آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « أوصيكم بالضعيفين : : نسائكم وما ملكت أيمانكم » . : الصلاة الصلاة ، لا تخافن فى الله لومة لائم ، يكفكم من أرادكم وبغى عليكم ، وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيولى الأمر شراركم ، ثم تدعون فلا يستجاب لكم ، وعليكم بالتواصل والتباذل ، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب : حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ فيكم نبيكم ، أستودعكم الله ، وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله » .

وظل رضى الله عنه بعد ذلك لا ينطق إلا بلا إله إلا الله ، حتى لقى ربه ، ولحق بالسابقين من المهاجرين والأنصار ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وما بدلوا تبديلا . . فقام أبناؤه بغسله ، وكفنوه فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ، وكبر عليه الحسن – رضى الله عنه تسع تكبيرات(١) .

التنشئة الصالحة للحسنين :

ولقد كان لهذه الصورة الرائعة من التنشئة الصالحة ، والتربية السامية ، والتوجيهات الكريمة ، والفروسية الكاملة ، أثرها العميق فى حياة الحسنين – رضى الله عنهما – بصفة خاصة ، وحياة شباب أهل البيت المطهر بصفة عامة .

وأى صورة أروع من والد ، يدفع بأبنائه وهم فى ميعة صباهم ، وزهرة شبابهم : تارة إلى مصاحبة الجيوش المجاهدة فى سبيل الله ، واختراق الفيافى والقفاز ، سيراً إلى أبعد الأقطار ، وأخرى يزج بهم إلى مواقف المروءة والشهامة ، فيحملهم مسئولية الدفاع عن ثالث الخلفاء الراشدين ولو بذلوا فى سبيل ذلك أرواحهم ، ثم يؤاخذهم أشد المؤاخذة على ما تخيله من تقصير منهم . . وتارة ثالثة ؛ يرمى بهم فى لجة المعارك الضارية ، وهو معهم فى مقدمتهم ، حريص عليهم ، يحاول أن يدرأ عنهم ، ويحاولون افتداءه بأجسامهم : . وبين هذا وذاك : يريهم من آيات بسالته وبطولته ، وضروب أقدامه وجرأته ، وصور بطشه وقوته ، مع إيمان لا يتزعزع فى قضاء الله ، واطمئنان لا تنال منه العواصف والأخطار ، ما يأخذ بأبصارهم وتخفق له قلوبهم ، ويؤكد فى أعماقهم ما شبوا عليه من أخلاق سامية ، وما تأصل فيهم من همة عالية ، أو توارثوه من روح التضحية والفداء . . فإذا ما أصابته الضربة الغادرة ، والطعنة المسمومة ، ظل كما هو فى مكانته الشامخة ، من المروءة والجلد ، لم تغيره الخصومة ، ولم يبرح به الألم ، ولم تصرفه المحنة عن أداء واجبه ، وتزويد أبنائه وأهله بالوصايا التى تنفعهم ، فى دينهم ودنياهم ، حتى إذا ما حضرته الوفاة . : أهدى لهم موعظة بالغة ، ووصية جامعة ، حشد فيها من النصائح ما يجل عن الوصف ، ومن جوامع الكلم ما يقصر عنه المدح والشرح ، وضمنها التنبيه إلى الإخلاص فى عبادة

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ١٤٧ و ١٤٨ ؛ البداية والنهاية لابن كثير : ٧ - ٣٢٨ .

الله ، وابتغاء وجهه فى كل الحالات ، والتوصية بتقواه ، والاعتصام بحبله ، والحذر من الفرقة والاختلاف ثم ذكر حقوق ذوى الأرحام ، والأيتام ، والجيران ، ثم ناشدهم الله فى القرآن ووجوب العمل بأحكامه ، ثم ذكر عرى الإسلام عروة عروة — أى روابطه والتزاماته التى فرضت على كل مسلم — فبعد أن قدم العروة الكبرى فى مقدمة وصيته ، وهى عروة التوحيد والشهادتين : أتبعها بباقى عرى الإسلام فذكر الصلاة والحج ، والجهاد والزكاة ، مبيناً حكمة كل منهما ، وواجب العبد نحوها ، ثم أوصى بأهل الذمة ، وحذر من ظلمهم : : وبالصحابة والفقراء والمساكين ، مبيناً حق كل منهم : : ثم عطف على النساء والاماء ، فأكد عناية النبى صلى الله عليه وسلم بهم ثم كرر التوصية بالصلاة لأنها عماد الدين ، دعا إلى الاعتماد على الله ، والدعوة إلى الحق ومواصلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلى آخر ما جاء فى تلكم الوصية الغالية التى ما أحوج المسلمين فى أيامنا هذه إلى وضعها نصب أعينهم ، وجعلها دستوراً لهم فى حياتهم : :

ولقد بلغ به الورع رضى الله عنه ، أنه أوصى وهو فى الرمق الأخير ، بقاتله الذى ضربه بسيف مسموم ، فأمر له بأطيب طعام ، وألين فراش ، وأوصى بحسن معاملته طالما ظل حياً ، وبحسن قتله إذا أدت به إصابته إلى لقاء ربه ، ونهى نهياً مغلظاً عن إيذائه أو التمثيل به ، وحدد طريقة القصاص منه ، بما لا يدع مجالا لأقل تعذيب أو إنتقام ، فقال رضى الله عنه : ضربة بضربة :

وهكذا : ضرب — كرم الله وجه — المثل الأعلى فى سمو الخلق ، وبقاء القلب ، والتعالى عن السخائم والأحقاد : : ومقابلة السيئة بالإحسان ، والعدوان الأثيم بالإكرام ، إلى الحد الذى يستشف منه احتمال عفوه عن ضاربه ، لو كتب الله له الحياة ، أملا فى هدايته إلى طريق الحق والرشاد ، واستنقاذه من هوة الضلال والفساد :

وأخيراً . : يختم الإمام العظيم قصة حياته الخالدة ، بدرس أخير من دروس الزهد فى الدنيا ، والعزوف عن العلو فيها ، وذلك حين يسأله بعض أصحابه أن يعهد بالأمر من بعده إلى سيد شباب أهل الجنة — الحسن رضى الله عنه — فيأبى ذلك ، تاركاً الأمر لله وحده ، يصرفه كيف يشاء : : : وخرج من الدنيا شهيداً كريماً ، راضياً مرضياً : لم يخلف شيئاً يورث عنه ، فقد روى عن الحسن بن على — رضى الله عنهما — أنه قال : لم يترك أبى إلا ثمانمائة درهم فضلت من عطائه ، كان يعدها لخادم يشتريها لاهله .

ذرية بعضها من بعض :

وقد كان من الطبيعى ، أن تترك الأسوة الطيبة التى عنى الإمام بتقديمها إلى أبنائه ، والمثل العليا التى حرص على الاعتصام بها فى كل أطوار حياته ، طابعها الواضح فى نفوسهم ، وخاصة فى الحسن والحسين — رضى الله عنهما — فتجعل من كل منهما ، صورة شبيهة كل الشبه ، وقريبة كل القرب ، من صورة والدهما العظيم ، تنعكس فيه فضائله الأصيلة ، بمقدار أو بآخر ، وتبرز فيه الكثير من طباعه وسجاياه . فتظهر في الحسن — في المقام الأول — فصاحة الإمام وبلاغته ، وورعه وزهده ، وتظهر

فى الحسين فى المقدمة من صفاته : صلابة الشكيمة ، وشدة البأس ، وقوة المراس (١) . ويشترك الأثنان بعد ذلك فيما عرف عن والدهما من فضائل كثيرة ومكارم سامية ، من سخاء وكرم ، ومروءة ونجدة ، وعلم وفقه .

ومع بلوغ الحسنين سن الرجولة الكاملة فى حياة والدهما ، ومشاركتهما له فى كل المواطن فقد بلغ من أدبهما معه ، أنهما كانا شديدى الهيبة له ، والحياء منه ، حتى بلغ الأمر فى ذلك ، أن علياً وقد بلغه عن فصاحة الحسن – رضى الله عنهما – ما قرت به عينه ، قال له ذات يوم :

يابنى : ألا تخطب حتى أسمعك ؟ فأجاب الابن البار :

يا أبت : إنى استحى أن أخطب وأنا أراك !

فذهب على فجلس حيث لا يراه الحسن – رضى الله عنهما – ثم قام الحسن فى الناس خطيباً ، وعلى – كرم الله وجهه – يسمع ، فأدى خطبة بليغة فصيحة ، فلما انصرف : جعل على يقول معبراً عن اغتباطه : « ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم » (٢) .

خير الناس – الحسن والحسين :

وخير ما نختم به حديثنا عن الحسنين معا ، لنبدأ الكلام عن كل منهما ، وما اختص به من الفضائل ، وأشتهر به من السجايا ، وسجله من الأحداث ، نقول : خير ما نختم به هذا الجزء من هذه الرسالة ، حديث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم – عن سيدى شباب أهل الجنة – الذى يقول فيه :

« ألا أخبركم بخير الناس جدا وجدة ، ألا أخبركم بخير الناس عما وعمة ، ألا أخبركم بخير الناس خالا وخالة ، ألا أخبركم بخير الناس أبا وأما ؟ الحسن والحسين . . ، جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدتهما خديجة ، وأمهما فاطمة بنت رسول الله ، وأبوهما على بن أبى طالب ، وعمهما جعفر بن أبى طالب ، وخالهما القاسم بن رسول الله ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم بنات رسول الله ، وجدهما فى الجنة ، وأبوهما فى الجنة ، وأمهما فى الجنة ، وعمهما فى الجنة ، وعمتهما وخالاتهما فى الجنة ، وهما فى الجنة ، ومن أحبهما فى الجنة » (٣) .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس رضى الله عنهما :

أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى المسجد ، فقام على قدميه ، وهما – أى الحسن والحسين – على عاتقيه ، ثم قال :

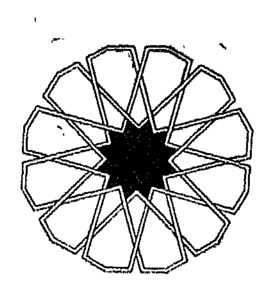
« معاشر المسلمين : ألا أدلكم على خير الناس جدا وجدة ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : الحسن

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى ٣ : ١٩٣ عن سعيد بن عمر : أن الحسن قال للحسين : وودت أن لى بعض شدة قلبك ؟ فيقول الحسين : وأنا وودت لو أن لى بعض ما بسط من لسانك .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٨ : ٣٨ .
(٣) أخرجه الطبرانى وابن عساكر .

والحسين : جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين ، وجدتهما خديجة بنت خويلد سيدة نساء أهل الجنة ، . . ألا أدلكم على خير الناس عما وعمة ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : الحسن والحسين ؛ عمهما جعفر بن أبي طالب. وعمتها أم هانىء (١) ، بنت أبي طالب ، . . أيها الناس : ألا أدلكم على خير الناس خالا وخالة ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : الحسن والحسين : خالهما القاسم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخالتهما زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » . . ثم قال :

« اللهم أنك تعلم أن الحسن والحسين في الجنة ، وعمهما في الجنة ، وعمتهما في الجنة ، ومن أحبهما في الجنة ، ومن أبغضهما في النار » (٢) .



(١) أم هانىء بنت أبي طالب : ابنة عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخت على بن أبي طالب رضى الله عنه ، كانت زوجة هبيرة بن عمرو المخزومي ، وأسلمت عام الفتح ، ففرق الإسلام بينها وبينه ، فخطبها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله : لأنت أحب إلى من سمعي وبصري ، وحق الزوج عظيم ، وأنا أخشى أن أضيع حق الزوج .

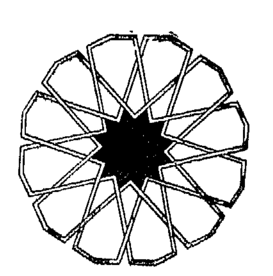
وقد روت أم هانىء عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث في الكتب الستة وغيرها . (الاصابة : ٤ - ٣٠٥) .

(٢) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى : للمحب الطبرى ٤ ص ١٣٠ ، ١٣١ أخرجه الملأ فى سيرته وغيره

الفصل الثالث

« عن ابى بكر رضى الله عنه قال : سـمعت رسول الله صلى الله وسلم على المنبر ، والحسن الى جنبه ، ينظر الى الناس مـرة ، واليه مرة ويقول : ان ابنى هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين » .

« اخرجه البخارى »



الحسن رضى الله عنه

محبة النبي صلى الله عليه وسلم له :

كان أبو هريرة — رضى الله عنه — يحب الحسن عليه السلام حباً لا مزيد عليه ، ويعلن عن ذلك فى كل مناسبة ، لما شاهده من محبة النبي صلى الله عليه وسلم له ، وما سمعه منه بشأنه ، من ذلك :

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحسن : « اللهم إنى أحبه فأحبه ، وأحب من أحبه » (١) ، يقول أبو هريرة رضى الله عنه : فما كان احد أحب إلى من الحسن بن على بعدما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال (٢) .

وفى رواية أخرى لأبى هريرة رضى الله عنه ، قال :

« لا أزال أحب هذا الرجل — يعنى الحسن بن على رضى الله عنهما — بعد ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع به ما يصنع ، قال : رأيت الحسن فى حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يدخل أصابعه فى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يدخل لسانه فى فيه ثم يقول : « اللهم إنى أحبه . . . » وذكر الحديث (٣) . وفى رواية ثالثة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« ما رأيت الحسن بن على قط إلا فاضت عيناى دموعاً ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرج يوماً وأنا فى المسجد ، فأخذ بيدى ، واتكأ على ، حتى جئنا سوق قينقاع ، فنظر فيه ثم رجع ، ورجعت معه حتى جلس فى المسجد ، ثم قال : « ادعوا ابنى » فأتى الحسن بن على يشتد حتى وقع فى حجره ، ثم جعل يقول بيده هكذا فى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح فمه فى فمه ، ويقول : « اللهم إنى أحبه فأحبه ، وأحب من يحبه » . ثلاث مرات يقولها (٤) .

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم فى طائفة من النهار ، لا يكلمنى ولا أكلمه ، حتى أتى سوق بنى قينقاع ، فجلس بفناء فاطمة رضى الله عنها فقال : « أثم لكع ؟ . . . أثم لكع ؟ » (٥) فحبسته — أى فاطمة — شيئاً — فظننت أنها تلبسه سخاباً (٦) أو تغسله ، فجاء يشتد — أى الحسن رضى الله عنه — حتى عانقه وقبله ، وقال : « اللهم أحبه ، وأحبب من يحبه » (٧) .

وعن أبى زهير بن الأرقم — رجل من الأزد — قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للحسن بن على : « من أحبنى فليحبه ، فيبلغ الغائب منكم الشاهد » (٨) . ولولا عزمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما حدثتكم . . .

---

(١) صحيح مسلم : باب فضائل الحسن والحسين رضى الله عنهما .
(٢ ، ٣) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، للمحب الطبرى : ص ١٢٢ . (٤) المصدر السابق .
(٥) أثم : اسم يشار به إلى المكان البعيد ، ولكع : الصغير . والمعنى : هل أنت هنا أيها الصغير ؟
(٦) السخاب : قلادة من طيب ليس بها ذهب ولا فضة ، أو هى من قرنفل وخرز .
(٧) الحديث رواه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة . (٨) ذخائر العقبى : ص ١٢٣ ، وقال أخرجه أحمد .

وهكذا كانت محبة النبي صلى الله عليه وسلم للحسن رضى الله عنه ، لما كان يتوقع له من موقف عظيم ، ودور حاسم فى حياة الأمة بأسرها ، حيث أصلح الله به – كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم – بين فئتين من المسلمين ، ووحد به كلمتهم .

تقوى الحسن . . . وزهده وورعه :

كان الحسن – رضى الله عنه – مثالا عالياً فى مكارم الأخلاق . . كان – رضى الله عنه عابداً تقياً ، زاهداً ورعاً ، راضياً بالله تعالى ، عزيزاً على الله ورسوله ، كريماً . . حليماً متواضعاً ، حبيباً . إلى قلوب الناس ، معظماً فى أعينهم .

بلغ – رضى الله عنه – من عبادته : إنه كان إذا صلى الغداة ، جلس فى مصلاة يذكر الله تعالى حتى ترتفع الشمس ، ويجلس إليه من يجلس من سادات الناس يتحدثون عنده ، ثم يقوم فيدخل على أمهات المؤمنين ، فيسلم عليهن ، ثم ينصرف إلى منزله » (١) .

وكان – رضى الله عنه – يقرأ فى كل ليلة سورة الكهف ، من لوح مكتوب ، يدور معه حيث دار فى بيوت أزواجه ، قبل أن ينام ، وهو فى فراشه ، رضى الله عنه (٢) .

وبلغ – رضى الله عنه – من تقواه ، أنه كان يأبى أن يحج إلا ماشياً ، ويقول : إنى لأستحى من ربى أن ألقاه ولم أمش إلى بيته ، فمشى عشرين حجة والنجائب تقاد بين يديه (٣) .

وبلغ من زهده وورعه ، أنه حين ولى الخلافة بعد أبيه – رضى الله عنهما – استقبل معاوية بكتائب كالجبال – لكثرتها وقوة بأسها – ومع أنه كان أحق الناس بالخلافة ، وأقدرهم عليها ، فقد رأى أنه لن يستقر له الأمر إلا بعد سفك دماء غزيرة من الناحيتين ، فتنازل عن الخلافة لمعاوية ، زهداً فيها ، وتورعاً عن إهدار الدماء من أجلها ، وحقق بذلك ما أخبر به المصطفى صلى الله عليه وسلم ، من أن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، فلما تم الأمر لمعاوية ، خرج معه الحسن – رضى الله عنهما – إلى مسجد الكوفة ، حيث قدمه فخطب الناس ، ثم قام الحسن – رضى الله عنه – فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أما بعد أيها الناس : إن الله قد هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وأن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول ، وأن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وأن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين »(٤)

وبلغ من رضائه بالله تعالى فى كل حال ، أنه قيل له : إن أبا ذر رضى الله عنه يقول :

« الفقر أحب إلى من الغنى . . والسقم أحب إلى من الصحة » ! ! فقال رضى الله عنه :

« رحم الله أبا ذر . . أما أنا فأقول : من أتكل على حسن اختيار الله له ، لم يتمن أن يكون فى غير الحالة التى اختارها الله له » (٥) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٣٧ .

(٢ ، ٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٩ و ٣٧ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ١٥٩ .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٣٩ .

تواضع الحسن رضي الله عنه :

ومع ما كان له من مكانة في النفوس ، وهيبة في الأعين ، فقد كان — رضي الله عنه — في حياته بسيطاً يكره التكلف ، متواضعاً مع الجميع ، كأنه واحد منهم :

مر ذات يوم بصبيان يأكلون كسراً من الخبز ، فاستضافوه ، فنزل وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله ، وقدم لهم أنواعاً من الطعام ، وكساهم بألوان من الثياب وقال :

« اليد لهم (١) . . ! ! لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني ، ونحن نجد كثيراً مما أعطيناهم » (٢) !

كرامة الحسن على الله ورسوله :

ومع هذا التواضع الذي قدمنا صورة له :

فقد بلغ من كرامته على الله ورسوله ، أنه كان له على معاوية — رضي الله عنهما — جائزة في كل عام ، وكان يغدو إليه ، فربما أجازه بأربعمائة ألف درهم ، فانقطع سنة عن الذهاب إليه ، وجاء وقت الجائزة ، فاحتاج الحسن — رضي الله عنه — إليها ، وكان من أكرم الناس ، فأراد أن يكتب إلى معاوية ليبعث بها إليه ، فلما نام تلك الليلة ، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام ، فقال له : يابني : أتكتب إلى مخلوق بحاجتك ؟ » وعلمه دعاء يدعو به ، فترك الحسن — رضي الله عنه — ما هم به من الكتابة ، فذكره معاوية وافتقده وقال : أبعثوا إليه بمائتي ألف ، فلعل له ضرورة في تركه القدوم علينا ، فحملت إليه من غير سؤال (٣) .

وفي رواية أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « ادعوت بدواة لتكتب إلى مخلوق مثلك تذكره ؟ فقال : نعم يارسول الله ، فكيف أصنع ؟ قال قل :

اللهم اقذف في قلبي رجاءك ، واقطع رجائي عمن سواك ، حتى لا أرجو أحداً غيرك ، اللهم ما ضعفت عنه قوتي ، وقصر عنه عملي ، ولم تنته إليه رغبتي ، ولم تبلغه مسألتي ، ولم يجر على لساني ، مما أعطيت أحداً من الأولين والآخرين من اليقين ، فخصني به يا أرحم الراحمين » ، فلم يمض أسبوع ، يدعو فيه بهذا الدعاء ، حتى بعث إليه معاوية — رضي الله عنه — بألف ألف وخمسمائة ألف ، فقال : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، ولا يخيب من دعاه ، . فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « ياحسن . كيف أنت » ؟ قال : بخير يارسول الله ، قال صلى الله عليه وسلم : « يابني : هكذا من رجا الخالق ، ولم يرج المخلوق » (٤) .

---

(١) اليد لهم : أي الفضل لهم . .

(٢) اسعاف الراغبين للصبان ، بهامش نور الابصار ، للشبلنجي : ١٩٦ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٣٧ .

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٣ طبعة المطبعة التجارية ، عن البيهقي وابن عساكر ، نور الابصار في مناقب آل النبي المختار للشبلنجي من علماء القرن الثالث عشر ، ص ١٣٦ ، طبعة الحلبي سنة ١٣٦٧ هـ ، ومفرج الكروب ومفرج القلوب للقاضي يوسف النبهاني ص ٦٣ — طبعة بيروت سنة ١٣٢٣ هـ ، وذكر فيه أن الحاكم أخرجه في معجم شيوخه ، وابن النجار عن المنذر بن هشام بن محمد عن أبيه .

ولم تقف كرامة الحسن — رضى الله عنه — على الله ورسوله ، عند حد الدنيا ، بل أنها لتمتد إلى ما بعد انتقاله منها ، فقد روى المناوى فى الطبقات قال : أخرج أبو نعيم وابن عساكر عن الأعمش : أن رجلا تغوط على قبره فجن ، وجعل ينبح كما ينبح الكلب ، ثم مات ، فسمع يعوى فى قبره (١) .

سخاء الحسن رضى الله عنه :

وكان — رضى الله عنه — كريماً . . سخياً ، لا يرد سائلا ، ولا يمسك أى مال مهما كثر ، حتى لقد قاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات ، وخرج منه مرتين ، وربما أجاز الرجل الواحد بمائة ألف(٢) !

ولقد بلغ من كرمه — رضى الله عنه — أنه سمع رجلا يسأل الله تعالى أن يرزقه عشرة آلاف درهم فانصرف الحسن إلى منزله ، فبعث بها إليه (٣) . . . وشكا إليه رجل حاله ، فدعا الحسن رضى الله عنه وكيله ، فجعل يحاسبه على نفقاته ومقبوضاته حتى استقصاها ، وأحضر له ما فاض عن ذلك وقدره خمسون ألف درهم ، ثم قال له : ما فعلت بالخمسمائة دينار التى معك ؟ قال : عندى . قال الحسن — رضى الله عنه — فأحضرها ، فلما أحضرها دفع الدراهم والدنانير إلى الرجل واعتذر منه (٤) . . . ! !

ولقد سئل — رضى الله عنه — لأى شىء نراك لا ترد سائلا ، وإن كنت على فاقة ؟ فقال :

« إنى لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحى أن أكون سائلا ، وأرد سائلا ، وأن الله تعالى عودنى عادة : عودنى أن يفيض نعمه على ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس ، فأخشى أن قطعت عادتى ، أن يمنعنى عادته ، وأنشأ يقول :

إذا ما أتانى سائل قلت مرحباً بمن فضله فرض على معجل
ومن فضله فضل على كل فاضل وأفضل أيام الفتى حين يسأل (٥)

وبلغ من سخائه — رضى الله عنه — أنه كان يشترى البستان من أصحابه ، ويدفع لهم الثمن ، فاذا علم أنهم فى حاجة إليه رده إليهم بلا مقابل ، ولا يسترد الثمن الذى كان دفعه (٦) .

علم الحسن وفقهه :

وقد روى الحسن — رضى الله عنه — عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أحاديث حفظها عنه ، منها : حديث الدعاء فى القنوت ، وحديث إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة ، وقد سبق الإشارة إليهما ، كما روى عن أبيه وأخيه الحسين رضى الله عنهم أجمعين ، ولا عجب أن يكون رضى الله عنه فى المقام الأعلى من العلم بالكتاب والسنة ، فلقد نشأ فى بيت النبوة ، ووضع بلبانها ثم تلقى عن أبيه — باب مدينة العلم — رضى الله عنه — ما تلقى ، وورث عنه ما ورث من الفهم والمعرفة .

(١) جامع كرامات الأولياء للقاضى النبهانى : ١ - ١٣١ .
(٢) البداية والنهاية : ٨ - ٣٧ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٣٨ .
(٤ ، ٥) نور الابصار للشبلنجى : ١٣٥ .
(٦) الإمام الحسن بن على : للأستاذ حسن كامل الملطاوى : ص ٤٢ .

ومن أمثلة علمه الواسع ، وفقهه العميق ، ما روى من أنه بينما كان جالساً بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد اجتمع حوله الناس يستمعون إلى حديثه ، إذ دخل رجل المسجد فوجد عبد الله بن عباس فى حلقة يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والناس حوله مجتمعون ، فسأله قائلا : أخبرنى عن شاهد ومشهود ؟ فأجاب ابن عباس رضى الله عنهما : نعم : أما الشاهد فيوم الجمعة ، وأما المشهود فيوم عرفة . .

واتجه الرجل إلى حلقة ثانية ، يحدث فيها الناس عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، فأعاد عليه السؤال فقال له : أما الشاهد فيوم الجمعة ، وأما المشهود فيوم النحر .

وتجاوز الرجل الحلقتين إلى ثالثة ، حيث كان الحسن بن على رضى الله عنهما يحدث الناس فيها ، فسأله الرجل عن شاهد ومشهود ، فأجابه سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمشهود يوم القيامة ، أما سمعته عز وجل يقول : « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » ؟ وقال تعالى : « ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » (١) ؟ !

ويتضح من إجابة الحسن — رضى الله عنه — واستشهاده فى رده بالآيات التى تصدق قوله وترجح رأيه ، مدى ما وهبه الله من بصيرة ، وأفاض عليه من هداية وعرفان ، ولا عجب . . ، فلقد عوضه الله تعالى عن الخلافة الظاهرة ، التى تنازل عنها طائعاً مختاراً ، وهو فى مكان القوة والقدرة ، حقناً لدماء المسلمين ، « عوضه الله عن ذلك بالخلافة الباطنة ، حتى ذهب قوم إلى أن قطب الأولياء فى كل زمان ، لا إلا من أهل البيت (٢) » .

وعن محمد بن سعد البربوعى قال : قال على رضى الله عنه للحسن بن على :

« كم بين الإيمان واليقين ؟ قال : أربعة أصابع ! قال بين : قال : اليقين ما رأته عينك ، والإيمان ما سمعته أذنك ، وصدقت به . قال : أشهد أنك من من أنت منه ، ذرية بعضها من بعض » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين (٣) .

سرعة خاطره . . وقوة حجته :

وكان — رضى الله عنه — مع سعة علمه ، حاضر الذهن ، سريع الخاطر ، قوى الحجة . . . كأنه السيف القاطع فى رده ، أو الرمح النافذ فى إجابته ، حتى لا يتمالك من يجادله إلا أن يلوذ بالسكوت ، لا يجد جواباً ، ولا يملك رداً . .

« خرج — رضى الله عنه — ذات يوم من داره وعليه حلة فاخرة ، ووفرة ظاهرة ، ومحاسن سافرة ، فعرض له فى طريقه شخص من محاويج اليهود ، وعليه مسح من جلود ، قد أنهكته العلة ، وركبته القلة

(١ ، ٢) نور الابصار فى مناقب آل النبى المختار : للشبلنجى ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) ذخائر العقبى ، للمحب الطبرى : ص ١٣٨ .

والذلة ، وشمس الظهيرة قد شوت شواه ، وهو حامل جرة ماء على قفاه ، فاستوقف الحسن رضى الله عنه وقال : يابن رسول الله : سؤال ! ! قال : ما هو ؟ قال :

جدك يقول : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » . . وأنت مؤمن ، وأنا كافر ، فما أرى الدنيا إلا جنة لك ، تتنعم بها ، وما أراها إلا سجناً على قد أهلكنى ضرها ، واجهدنى فقرها ! ! ؟

لو أن غير ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل هذا السؤال لاحتاج برهة ليفكر فى الرد ، ولكن الحسن رضى الله عنه — انطقه الله بالحجة القاطعة فأجاب على الفور :

« يا هذا : لو نظرت إلى ما أعد الله لى فى الآخرة ، لعلمت أنى فى هذه الحالة بالنسبة إلى تلك فى سجن ، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك فى الآخرة من العذاب الأليم ، لرأيت أنك فى جنة واسعة » (١) ! ! فبهت اليهودى ولم يحر جواباً ! !

فصاحة الحسن وبلاغته :

ومن أبرز الفضائل التى ورثها الحسن عن أبيه — رضى الله عنهما — فصاحة القول ، وبلاغة العبارة ، ولقد كانت هذه الفضيلة أظهر ما يكون فى الحسن — رضى الله عنه — يوم استشهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فإن هول الفاجعة ، وفداحة الخطب ، أرهفت من مشاعر ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلته يصوغ المعانى أروع ما يكون ، ويرسل الكلمات كالدر المنثور . . :

فعن زيد بن الحسن — رضى الله عنهما — قال :

خطب الحسن الناس حين قتل على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، فحمد الله وأثنى ثم قال :

« لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون ، ولا يدركه الآخرون ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيه رايته ، فيقاتل جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن شماله ، فما يرجع حتى يفتح الله عليه ، : : وما ترك على وجه الأرض صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم : فضلت من عطائه ، أراد أن يبتاع بها خادماً لأهله » ثم قال :

« أيها الناس : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على ، وأنا ابن الوصى ، وأنا ابن البشير ، وأنا ابن النذير ، وأنا ابن الداعى إلى الله بإذنه والسراج المنير ، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، : : وأنا من أهل البيت الذى افترض الله مودتهم على كل مسلم ، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

« قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا » (٢) :

فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت » (٣) :

---

(١) نور الابصار فى مناقب آل النبى المختار ، للشبلنجى ص ١٣٣ .

(٢) سورة الشورى : آية ٢٣ .

(٣) ذخائر العقبى ، فى مناقب ذوى القربى ، للمحب الطبرى : ص ١٣٨ ، وقال ، أخرجه الدولابى .

الحسن : القوى الأمين :

ولعل أبرز مناقب الحسن – رضى الله عنه – ظهورا ، وأبعدها أثراً فى حياته ، بل فى حياة الأمة الإسلامية بأسرها فى ذلك الحين ، هو زهده فى الإمارة ، وكراهيته للعلو فى الدنيا ، شأنه فى ذلك : شأن أبيه العظيم – كرم الله وجهه – لم يكن له أى هوى فى تحمل أمر المسلمين – على عكس ما يزعمه المبطلون من حرصه على ذلك ، وسعيه إليه – ولولا أنه أرغم على تقلد الخلافة ، بعد أن فر من الناس ، والتجأ إلى حائط بنى عمرو بن مبذول ، وأغلق بابه عليه . . لولا ذلك ما كان – رضى الله عنه – ليفكر فيها ، فضلا عن أن يسعى إليها ، مع أنه كان أقوى الناس عليها ، وأحقهم بها بعد أصحابه الثلاثة ، الذين سبقوه إلى لقاء الله ، رضى الله عنهم أجمعين .

ولو أن عليا – كرم الله وجهه – كان حريصاً على الخلافة ، أو لو أنه كان يعتبرها حقاً لأهل البيت – كما زعم البعض عنه – لعهد إلى ابنه – رضى الله عنهما – بالأمر بعده ، ولما تعدى فى ذلك الحق والصواب ، ولكنه لم يفكر فى ذلك . . بل وأكثر منه : فإنه حين سئل فيه قال « لا آمركم . . ولا أنهاكم . . أنتم أبصر »(١) وفى رواية أخرى أنه قال :

« لا . . ولكن أترككم كما ترككم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم ، كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٢) .

وكذلك كان شأن الحسن – رضى الله عنه ، بايعه قيس بن سعد ، على غير رغبة منه ورضى ، وتابعه الناس على ذلك ، فسعت إليه الخلافة ، وهو الجدير بها ، ولم يسع هو إليها ، واضطر إلى قبولها ، حتى لا يصير أمر الناس إلى الفوضى .

وتظهر عظمة ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أوجها ، وتبرز من أعماق نفسه القوة الكامنة فى أروع صورها ، حين دانت له العراق وما وراءها من خراسان ، واجتمعت حوله الكتائب كالجبال ضخامة وقوة . . ومع ذلك : فلم تغلبه نفسه . . ولم تفتنه الإمارة ، ولم تخدعه الدنيا بإقبالها وسلطانها ، فظل يترقب الفرصة للفرار منها ، وهو المتمكن فيها ، القادر عليها ، لا ضعفاً منه عن تحمل أعباء الخلافة ، وإنما زهداً فيها ، وكرهاً للمنازعة عليها ، وما قد يجره ذلك من سفك الدماء ، وتفرق الكلمة ، حتى انه – رضى الله عنه – ليقول :

« والله ما أحببت – منذ علمت ما ينفعنى ويضرنى – أن إلى أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، على أن يهراق فى ذلك محجمة دم » (٣) .

لقد كان فى استطاعة الحسن – رضى الله عنه – وهو ينظر إلى جيوشه فى الحديد ، تقطر أسيافهم جداً وحرصاً على قتال أهل الشام . . كان فى استطاعته بإشارة واحدة : أن تندفع هذه الجيوش كالإعصار ،

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ١٤٦ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٤ .
(٣) الاستيعاب لابن عبد البر القرطبى ، بهامش الاصابة : ١ - ٣٧٠ .

مكتسحة كل قوة فى طريقها ، ليصبح فى النهاية أمير المؤمنين بلا منازع ، وصاحب الكلمة النافذة فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولو أنه فعل ذلك ، ما أصابه أى لوم ، فلم يكن أحد على وجه الأرض أحق بالخلافة منه .

ولكن الحسن — رضى الله عنه — وهو القوى الأمين ، كان أكبر من كل ذلك وأعظم ، وكان أسمى وأكرم .. لقد كان رضى الله عنه من أكابر المتقين ، الذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فسادا ، فنظر إلى هذه الكتائب التى اجتمعت تحت لوائه ، نظرة حب ووفاء .. ثم نظر إلى تلك التى اجتمعت حول معاوية ، نظرة رحمة وإشفاق ، فلم يلبث أن قال مستنكراً :

« أضرب هؤلاء بعضهم ببعض ، فى ملك من ملك الدنيا ؟ .. لا حاجة لى به ! ! » (١) .

وعنه — رضى الله عنه — أنه قال :

« ماكنت لأقاتل بعد رؤيا رأيتها .. رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعاً يده على العرش ، ورأيت أبا بكر واضعاً يده على منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت عمر واضعاً يده على منكب أبى بكر ، ورأيت عثمان واضعاً يده على منكب عمر ، ورأيت دماً دونه ، فقلت : ما هذا ؟ .. قالوا : هذا دم عثمان ، يطلب الله به » (٢) .

انتصار الحسن فى الجهاد الأكبر :

وهكذا : اعتزم الحسن — رضى الله عنه — أن يسلك طريق الإيمان والتقوى ، وأن يقف من أمة محمد صلى الله عليه وسلم موقف الراعى القوى الأمين ، فعدل عن الجهاد الأصغر ضد أهل الشام ، ليحقق أعظم نصر فى ميدان الجهاد الأكبر — جهاد النفس — بتنازله عن الخلافة حقنا للدماء ، وحرصاً على الوحدة .

ولم يتردد — رضى الله عنه — فى الأمر ، ولكنه أبى أن ينفرد به دون تحقيق الشورى التى يأمر بها الإسلام ، فقال لعبد الله بن جعفر :

« إنى رأيت رأياً ، وإنى أحب أن تتابعنى عليه » قال : ما هو ؟ قال :

« قد رأيت أن أعمد إلى المدينة فأنزلها ، وأخلى بين معاوية وبين هذا الحديث ، فقد طالت الفتنة ، وسفكت الدماء ، وقطعت الأرحام ، وعطلت الفروج »(٣) .

فلم يتردد ابن جعفر فى موافقته ، فقال :

« جزاك الله عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أنا معك » .

---

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة ، للعلامة ابن حجر العسقلانى : ١ - ٣٣٠ .

(٢) الرياض النضرة للمحب الطبرى : ٢ - ١٧٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، للذهبى : ٣ - ١٧٦ .

واستدعى الحسن شقيقه الحسين – رضى الله عنهما – فلم يوافقه على رأيه ، فقال له الحسن : « والله ما أردت أمراً قط إلا خالفتنى . . والله لقد هممت أن أقذفك فى بيت فأطينه عليك حتى أقضى أمرى » فلما رأى الحسين غضب أخيه – رضى الله عنهما – قال له :

« أنت أكبر ولد على ، وأنت خليفته ، وأمرنا لأمرك تبع »(١) .

ولم يزل الحسن بشقيقه – رضى الله عنهما – حتى رضى . . فجمع رءوس أهل العراق فى مقر المدائن فقال لهم :

« إنكم قد بايعتمونى على أن تسالموا من سالمت ، وتحاربوا من حاربت ، وإنى قد بايعت معاوية ؛ فاسمعوا له وأطيعوا »(٢) .

أمثلة كريمة . . ومواقف سامية ، لا يستطيعها إلا أهل البيت الذين اصطفاهم الله من خيرة خلقه ، ثم اذهب عنهم الرجس . . وطهرهم تطهيرا . .

ولقد سجل التاريخ لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بموقفه الحاسم هذا ، أطيب سيرة ؛ وأكرم ذكرى ، وأجمع الناس على تسمية هذا العام « عام الجماعة » لاجتماع كلمة الأمة ، وتوحيد صفوفها ، وحقن دمائها ، لتستأنف من جديد سيرتها الأولى ، فى نشر الدعوة إلى الإسلام ، واخراج الناس من الظلمات إلى النور .

وان من أعجب العجب بعد ذلك ، أن نجد بعض الكتاب المعاصرين يسخرون من تسمية هذا العام بعام الجماعة ، وينكرونه كل الإنكار ، وكأنهم يتمنون لو أن الحسن – رضى الله عنه – قاتل معاوية ، ولو كان فى ذلك سفك دماء الألوف من المسلمين ، فضلاً عن إضعاف شوكة الدولة ، وضياع بأسها فيما بينها .

وكفى بالحسن رضى الله عنه شرفاً وفخراً ، ورضاً من الله ورسوله ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد أخبر بموقفه هذا ، وامتدحه عليه ، قبل ذلك بسنوات طويلة ، حين كان يخطب الناس من فوق منبر المدينة ، والحسن – رضى الله عنه – بجواره ، طفلا لم يتعد بضع سنين ، فقال صلى الله عليه وسلم : وقد جعل ينظر إلى الناس تارة ، وإلى الحسن – رضى الله عنه – تارة أخرى :

« إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » .

حلم الحسن – رضى الله عنه :

ومع ما كان عليه الحسن – رضى الله عنه – من مكانة فى النفوس ، فقد كان حليماً ، متواضعاً لا يغضب لنفسه ، ولا تستثيره جهالات الجاهلين ، بل يقابل كل ذلك بصدر واسع ، وصبر جميل .

هذا هو – رضى الله عنه – وقد سلم الأمر إلى معاوية ، يأتيه شيخ يدعي أبو عامر سفيان بن أبي

---

(١) المصدر السابق : ٣ – ١٧٧ .

(٢) الاصابة فى تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلانى : ١ - ٣٣١ .

ليلى ، فيقول له متحدياً : السلام عليك يا مذل المؤمنين « فيقابل الحسن رضي الله عنه هذه الجهالة باللطف ، وهذا التحدى بنفس راضية ، ويظل فى مكانته من الرجل ، مكانة المعلم والهادى فيقول له موضحاً الأمر : « لا تقل يا أبا عامر : فإنى لم أذل المؤمنين ، ولكنى كرهت أن أقتلهم فى طلب الملك »(١) ! !

ويأتيه آخرون فيقولون له : يا عار المؤمنين ! ! فيجيب رضى الله عنه هادئاً : «العار : : ولا النار»(٢)

ولكن هذا الحلم : . ينقلب إلى حدة وشدة ، دون ما خروج على الحق ، أو إيغال فى الخصومة ، إذا كان الأمر يستدعى ذلك ، كما حدث بينه وبين مروان بن الحكم ، فى خصومة وقعت بينهما ، فجعل مروان يغلظ القول للحسن — رضى الله عنه — والحسن ساكت ، فامتخط مروان بيمينه : : وهنا وقف منه الحسن — رضى الله عنه — موقف المعلم والمرشد ، فقال له منتهراً ، ويحك ! ! أما علمت أن اليمين للوجه ، والشمال للفرج ؟ أف لك ! ! فسكت مروان مرغماً (٣) .

وأخرج ابن سعد عن عمير بن إسحاق قال :

« ما تكلم عندى أحداً كان أحب إذا تكلم إلا يسكت من الحسن بن على ، وما سمعت منه كلمة فحش قط إلا مرة ، فإنه كان بينه وبين عمرو بن عثمان خصومة فى أرض ، فعرض الحسن أمراً لم يرضه عمرو ، فقال الحسن : فليس له عندنا إلا ما رغم أنفه : : فهذه أشد كلمة فحش سمعتها منه » (٤) ! !
وقال أيضاً :

«كان مروان أميراً علينا ، وكان يسب علياً على المنبر ، وحسن يسمع فلا يرد ، فأرسل إليه مروان رجلا يبلغه ويعيد عليه ما ناله من على : : ومن الحسن ، فقال له الحسن : ارجع إليه فقل له : إنى والله لا أمحو عنك شيئاً مما قلت : بأن أسبك ، ولكن موعدى وموعدك الله ، فإن كنت صادقاً جزاك الله بصدقك ، وإن كنت كاذباً فالله أشد نقمة »(٥) .

ولما قضى — رضى الله عنه — لم يملك مروان نفسه من البكاء ، وهو يشيع جنازته ، فقال له الحسين عليه السلام : أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه ؟ فقال مروان : إنى أفعل ذلك مع أحلم من هذا ، وأشار إلى الجبل (٦) .

سيرة الحسن فى أهله :

بالرغم من أن الحسن — رضى الله عنه — كان — كما جاء فى وصفه — مطلاقاً للنساء ، مزواجاً ، حتى أنه أحصن تسعين امرأة ، فإنه كان باراً بأهله ، كريماً فى معاملته لهن ، لا تفارقه امرأة ، إلا وهى تحبه وتصبو إليه ، وكان لا يفارقه أربع حرائر(٧) :

(١ ، ٢) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبد البر القرطبى ، بهامش الاصابة : ١ - ٣٧١ و ٣٧٢ .
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى : ص١٩٠ .
(٤ ، ٥) تاريخ الخلفاء للسيوطى : ص ١٩٠
(٦) اسعاف الراغبين للصبان : بهامش نور الابصار للشبلنجى : ص ١٩٧ .
(٧) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٣٨ ، تاريخ الخلفاء للسيوطى : ١٩١ .

طلق — رضى الله عنه — فى يوم واحد امرأتين ، واحدة من بنى أسد ، والأخرى من بنى فزارة ، وبعث إلى كل منهما بعشرة آلاف ، وزق من عسل ، وقال لغلامه : اسمع ما تقول كل واحدة منهما ، فأما الفزارية فقالت : جزاه الله خيراً ، ودعت له ، وأما الأسدية فقالت : متاع قليل من حبيب مفارق . . فارتجعها (١) .

وقد يعجب البعض لكثرة زواج الحسن — رضى الله عنه — وطلاقه ، ويخطىء كل الخطأ من يظن أن ذلك كان إشباعاً لحظ النفس ، فحاشا لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك ، وهو التقى الورع ، المشهود له بالزهد فى الدنيا والعزوف عنها ، وإنما كان زواجه وطلاقه لأسباب أهم من ذلك وأخطر ، منها حرصه على تكثير نسل النبى صلى الله عليه وسلم وذريته ، ولعله رأى بما وهبه الله من نور البصيرة ، ما سوف يتعرض له أهل البيت من تقتيل وتشريد فأشفق عليهم من الفناء ، لأن وجودهم فى الأرض رحمة للناس جميعاً . . فعمد إلى الزواج كوسيلة للإبقاء على نسل النبى صلى الله عليه وسلم وعترته ، إلى يوم القيامة ، تحقيقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « كل نسب وصهر منقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى » .

ولقد أشفق البعض من كثرة زواج الحسن رضى الله عنه وطلاقه ، خشية أن يورث ذلك عداوة فى القبائل ، ولكن مكانة الحسن — رضى الله عنه — فى النفوس ، ومعرفة الناس بنبل قصده ، وعظيم إكرامه لنسائه ، كل ذلك جعل الناس والقبائل ، لا يبالون بزواجه أو طلاقه ، بل يرحبون بالأمرين ابتغاء المصاهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا هو والد الحسن — على بن أبى طالب — رضى الله عنهما ، يقف بين الناس قائلا : يا أهل الكوفة : لا تزوجوا الحسن بن على فإنه مطلاق ! ! فقام إليه رجل من همذان فقال :

« والله يا أمير المؤمنين ، لو خطب إلينا كل يوم لزوجناه من شاء ، ابتغاء فى صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم » ! ! وقام آخر فقال « والله لنزوجنه ، فما رضى أمسك وما كره طلق »(٢) . . وتابعه الجميع على ذلك ! !

نحو لقاء الله تعالى :

ولما مرض الحسن — رضى الله عنه — مرضه الأخير ، الذى توفى فيه : أتاه الحسين رضى الله عنه ، وقد بلغه أن السم قد دس إليه ، فسأله عن ذلك ، ولكن ورع الحسن وتقواه ، وهو على وشك لقاء ربه ، منعاه من الأخذ بالظنة ، أو القضاء بالشبهة ، فأبى أن يتهم أحداً ، وقال : « لئن كان صاحبى الذى أظنه ، لله أشد نقمة وأشد بأساً وأشد تنكيلا ، وإن لم يكنه ، فما أحب أن تقتل بى بريئاً » (٣) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٨ - ٣٨ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٣٨ ، تاريخ الخلفاء للسيوطى : ١٩١ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٤٢ ، وقد قيل ان الذى تحايل على دس السم للحسن هو معاوية ، وقد أثبتنا بطلان ذلك فى الفصل العاشر من هذا الكتاب .

ولما اشتدت وطأة المرض عليه ، وأحس بقرب أجله ، كان اتجاهه بكليته إلى الله تعالى ، حتى أنه أمر بإخراج فراشه إلى صحن الدار ، قائلا : « لعلى أتفكر فى ملكوت السموات » . . ثم قال مناجياً ربه : « اللهم إنى احتسب نفسى عندك ، فإنها أعز الأنفس على » (١) .

ولما حضرته الوفاة ، ظهر عليه الجزع ، وهو التقى النقى ، الطاهر الورع ، السابق إلى الخيرات فى كل المواطن . . ولكنه الخوف من الله تعالى ، تضطرب به نفس المؤمن ، بمقدار صدق إيمانه بالله ، وعمق معرفته به ، فهو شيمة العارفين ، الذين هم من خشية ربهم مشفقون . . ولقد كان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وهو أول المؤمنين ، وأقرب المقربين . . وهو الذى غفر الله له ما تقدم ذنبه وما تأخر . . ومع ذلك : فقد كان يقول : « أنا أعرفكم بالله . . وأخوفكم منه » . . وفى رواية أخرى « . . والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية »(٢) . وإذ كان الحسن — رضى الله عنه — بضعة من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، فقد ورث عنه — فيما ورث من فضائله وسجاياه — خشية الله تعالى ، للحد الذى جعله يستصغر أعماله مهما عظمت ، لأن شعوره بعظمة الله كان أجل وأعظم . . ويستقل حسناته مهما كثرت لأن إدراكه لنعم الله ، وتقديره حق قدره كان أوفى وأعمق ، حتى أيقن بأنه المقصر فى جنب الله تعالى ، المفرط فى الوفاء بحقه .. ولا عجب ! !

فهو القائل رضى الله عنه :

«لقد أدركنا أقواماً كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم ، أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها »(٣) .

وكانت وفاته — رضى الله عنه — سنة تسع وأربعين ، وقيل سنة خمسين فى ربيع الأول منها ، فكانت سنه حين لحق بربه ، بين السادسة والأربعين والسابعة والأربعين ، وكانت مدة خلافته ستة أشهر وخمسة أيام ، ودفن بالبقيع ، إلى جنب أمه فاطمة الزهراء ، رضى الله عنها وعن بنيها أجمعين(٤) .

من أقوال الحسن رضى الله عنه :

ولقد روى عن الحسن — رضى الله عنه — الكثير من المواعظ البليغة ، والحكم الغالية ، ولا غرو ، فقد ورث عن والده — رابع الخلفاء الراشدين — الكثير من فصاحة القول ، وقوة الحجة ، وعمق المعنى ، وفيما يلى أمثلة لبعض أقواله ومواعظه :

١ — لا أدب لمن لا عقل له ، ولا مودة لمن لا همة له ، ولا حياء لمن لا دين له ، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل ، وبالعقل تدرك الداران جميعاً ، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً (٥) .

٢ — هلاك النفس فى ثلاث : الكبر ، والحرص ، والحسد :

فالكبر : هلاك الدين . . وبه لعن أبليس . .

والحرص : عدو النفس . . وبه خرج آدم من الجنة . .

---

(١) نور الابصار فى مناقب آل بيت النبى المختار : ص ١٣٦ .

(٢) صحيح البخارى : كتاب الأدب — باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، من حديث عائشة رضى الله عنها .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٢ - ١٣٢ .

(٤) الاستيعاب لابن عبد البر القرطبى ، بهامش الاصابة : ١ - ٣٧٨ .

(٥) نور الابصار فى مناقب آل النبى المختار ، العلامة الشبلنجى : ص ١٣٦ .

والحسد : رائد السوء . . ومنه قتل قابيل هابيل(١) . .

٣ — وكان رضى الله عنه يقول لبنيه . وبنى أخيه ، فى الحث على طلب العلم : «تعلموا العلم ، فان لم تستطيعوا حفظه ، فاكتبوه وضعوه فى بيوتكم (٢) » .

٤ — ومن كلامه المنظوم : فى التوكل على الله : والثقة فى فضله وانعامه :

اغن عن المخلوق بالخالق تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله فليس غير الله بالرازق
من ظن أن الناس يغنونه فليس بالرحمن بالواثق
من ظن أن الرزق من كسبه زلت به النعلان من حالق (٣)

٥ — ومن جوامع كلمه — رضى الله عنه :

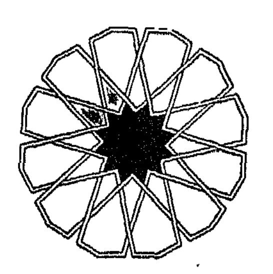
— المروءة : العفاف وإصلاح الحال . .
— الإخاء : المساواة فى الشدة والرخاء .
— الغنيمة الباردة : الرغبة فى التقوى ، والزهادة فى الدنيا .
— كن فى الدنيا ببدنك ، وفى الآخرة بقلبك . .
— الطعام أهون من أن يقسم عليه(٤) .

٦ — وآخر ما أوصى به شقيقه الحسين — رضى الله عنهما . أن حذره من السعى إلى الخلافة ، أو الاستجابة لسفهاء الكوفة ، حيث قال له :

« يا أخى : أوصيك أن لا تطلب الخلافة ، فإنه والله ما أرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة ، فإياك ان يستخفنك سفهاء الكوفة ويخرجوك ، فتندم من حيث لا ينفع الندم » (٥) .

وقد بلغ من حب الناس له — رضى الله عنه — وتعلقهم به ، وجزعهم لفقده ، ما رواه ثعلبة بن أبى مالك قال :

« شهدت الحسن — رضى الله عنه — يوم مات ودفن بالبقيع ، ولو طرحت فيه أبرة ما وقعت على رأس إنسان » (٦) .

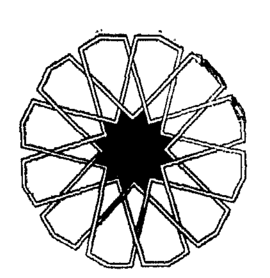


(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق : ص ١٣٤ . وقال : ذكره العلامة عبد القادر الطبرى المالكى فى شرح الدرية .
(٤) اسعاف الراغبين . . للشيخ محمد بن على الصبان ، بهامش المصدر السابق : ١٩٩ ، ٢٠٠ .
(٥) اسعاف الراغبين : للصبان ، بهامش نور الابصار : ص ٢٠٠ .
(٦) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر : ١ - ٣٣١ .

الفصل الرابع

عن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

((من سره أن ينظر الى رجل من أهل الجنة ، ـ وفى لفظ : الى سيد شباب أهل الجنة ـ فلينظر الى الحسين بن على)) .



الحسين رضى الله عنه

نشأته . . وصفاته :

ولد الحسين — رضى الله عنه — فى الخامس من شعبان سنة أربع من الهجرة ، ولم يكن بين الحمل به ، وبين ولادة الحسن — رضى الله عنهما — سوى طهر واحد (١) .

وفى اليوم السابع من مولده : جاء النبى صلى الله عليه وسلم وقال :

« أرونى ابنى ... ما سميتموه ؟ » فقال على كرم الله وجهه :

سميته حرباً ... ! ! فقال صلى الله عليه وسلم : « بل هو حسين » (٢) .

وكانت كنيته — رضى الله عنه « أبا عبد الله » وله بخلاف هذا عدة ألقاب ، أشهرها ما دعاه بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فى حديثه عنه وعن أخيه الحسن — رضى الله عنهما — إذ قال : أنهما : سيدا شباب أهل الجنة ، كما دعا الحسين فى مناسبة أخرى بأنه « سبط من الأسباط .. (٣) » والسبط بمنزلة الجماعة أو القبيلة ، والمعنى أنه رضى الله عنه فى قدره وفضله ، وعلمه وفقهه ، وإيمانه وصدقه .. يعدل جماعة أو قبيلة بل يعدل أمة من الناس .. .

وكان سيدنا الحسين — رضى الله عنه — من أحسن الناس خلقاً وخلقا ، حتى أن أنس بن مالك — رضى الله عنه ليقول : كان أشبههم — أى اشبه رجال أهل البيت — برسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أنه لما شمل الشيب لحيته ، ترك بعض شعيرات فى مقدمتها ، وخضب سائرها ، تشبهاً بجده صلى الله عليه وسلم ، أو أنه كان يشبه فى ذلك ، حين بدأ أنها الشيب (٤) .

وفى رواية أخرى : أنه — رضى الله عنه — كان أسود اللحية ، إلا شعيرات ها هنا فى مقدمة لحيته(٥) وكذلك كان شأن جده صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : « إنما كان شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نحواً من عشرين شعرة بيضاء » (٦) .

وبوجه عام : كان رضى الله عنه جميل الطلعة ، حلو الحديث ، فى صوته غنة ، وصفه عبد الله ابن الحر فقال : « ما رأيت أحداً قط أحسن ولا أملأ للعين من الحسين » (٧) .

مكانة الحسين عند النبى صلى الله عليه وسلم :

ولقد خص النبى صلى الله عليه وسلم حسيناً — رضى الله عنه — بمزيد من حنانه وعطفه خلال السنوات

---

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلانى : ١ - ٣٣٢ .

(٢) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب ، لابن عبد البر القرطبى ، بهامش الإصابة : ١ - ٢٦٩ وفيه أن النبى صلى الله عليه وسلم سمى أولاد على الثلاثة بأسمائهم « حسن وحسين ومحسن » وقال انى سميتهم بأسماء ولد هارون : شبر وشبير ومشبر .

(٣) الإصابة لابن حجر : ١ - ٣٢٢ .

(٤ ، ٥) ابن عساكر فى التاريخ الكبير : ٤ - ٣١٣ .

(٦) الشمائل المحمدية : للترمذى .

(٧) الحسين عليه السلام ، لعلى جلال الحسينى : ١ - ٩٢ ، نقلا عن الخزانة : ج ٢ .

السبع التى أدركها من حياته صلى الله عليه وسلم ، كان خلالها ملء الأسماع والأبصار ، حتى لقد اعتبره جزءاً لا يتجزأ منه ، وأوصى المسلمين باعزازه وحبه ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« حسين منى وأنا من الحسين ، أحب الله من أحب حسيناً » (١) . .

وعن جابر رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة — وفى لفظ : إلى سيد شباب أهل الجنة — فلينظر إلى الحسين بن على » (٢) .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يرى بنور الله عز وجل ، ما تضطرم به نفس الحسين — رضى الله عنه — من شدة فى الحق ، واستعداد للكفاح ، فكان دائب التشجيع له ، والحدب عليه ، حتى لقد رُوى أنه كان ذات يوم يصطرع مع شقيقة الحسن — رضى الله عنهما — بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل صلى الله عليه وسلم يقول :

(هى حسين » . . ! تشجيعاً له ، وتثبيتاً . فقالت الزهراء — رضى الله عنها — متعجبة :

« لم تقول : هى حسين » ؟ ! فأجاب صلى الله عليه وسلم :

« إن جبريل يقول : هى حسين » (٣) ! !

. . أى إن أهل السماء يؤيدون الحسين ويناصرونه . . . وفى ذلك إشارة إلى أنه — رضى الله عنه — على الحق ، وأن الحق دائماً معه . . .

ولقد بلغ من تدليل النبى صلى الله عليه وسلم ، ومحبته له ، ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه ، إذ يقول :

« أبصرت عيناى هذه ، وسمعت أذناى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو آخذ بكفى حسين ، وقدماه على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول « ترق عين بقة » . . . ! ! فرقى الغلام حتى وضع قدميه على صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له : « افتح فاك » ثم قبله ، ثم قال : « اللهم أحبه ، فانى أحبه (٤) » . . وعين البقة كناية عن صغير الجسم .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أيضاً : أن النبى صلى الله عليه وسلم جلس فى المسجد ، فقال : « اين لكع » ؟ ! فجاء الحسين يمشى حتى سقط فى حجره ، فجعل أصابعه فى لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففتح رسول الله صلى الله عليه وسلم فمه — أى فم الحسين عليه السلام — فأدخل فاه فى فيه ثم قال :

« اللهم إنى أحبه ، فأحبه ، وأحب من يحبه » (٥) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أيضاً : قال :

---

(١) الترمذى عن يعلى بن مرة — رضى الله عنه — بإسناد حسن .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ - ١٩٠

(٣) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى : ١ - ٣٣٢ .

(٤) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب ، لابن عبد البر القرطبى ، بهامش الاصابة لابن حجر . ٢ - ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

(٥) نور الأبصار فى مناقب آل النبى المختار ، للشبلنجى : ١٣٩

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتص لعاب الحسين ، كما يمتص الرجل التمرة » (١) .

ولقد بلغ من مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لهوى حفيده الحبيب وموافقته له ، ما نراه واضحاً فيما رواه لنا عبد الله بن شداد ، عن أبيه ، إذ يقول :

« خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى احدى صلاتى العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً ، فتقدم النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضعه ، ثم كبر للصلاة . . فأطال سجدة الصلاة ، فرفعت رأسى ، فإذا الصبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ساجد ، فرجعت إلى سجودى ، فلما قضى الصلاة : قيل له :

يارسول الله : إنك سجدت بين ظهرى صلاتك ، سجدة أطلتها ، حتى ظننا أنه قد حدث أمر ، أو أنه يوحى إليك ! . . فقال صلى الله عليه وسلم :

« كل ذلك لم يكن . . ولكن ابنى ارتحلنى ، فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته »(٢) . ! !

وهذه هى صورة أخرى لهدى النبي صلى الله عليه وسلم ، فى معاملته للحسين — عليه السلام — وشغفه به ، يقدمها لنا ابن عباس رضى الله عنهما ، إذ يقول :

« كان النبي صلى الله عليه وسلم : حامل الحسين على عاتقه ، فقال رجل : نعم المركب ركبت ياغلام : فقال صلى الله عليه وسلم :

« ونعم الراكب هو » (٣) .

وطبيعى وهذا هو مقدار حب النبي صلى الله عليه وسلم لحفيده ، وحرصه على ملاعبته ومداعبته ، وموافقته لهواه ؛ أن يكون ألمه شديداً لما يؤلمه ويؤذيه ، كيف وهو صلى الله عليه وسلم من الحسين ، والحسين عليه السلام منه ؟

ويعطينا صورة لهذه الناحية من عاطفة النبي صلى الله عليه وسلم ، ما رواه يزيد بن أبى زيادة . . قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم من بيت عائشة ، فمر على بيت فاطمة الزهراء — رضى الله عنهما — فسمع صلى الله عليه وسلم حسيناً يبكى ، فقالت لفاطمة — رضى الله عنها : « ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى »(٣)؟

ولقد بلغ بالنبي صلى الله عليه وسلم — فى مداعبته للحسين — رضى الله عنه — أنه كان يدلع له لسانه ، فيرى الصبي حمرته فيهش إليها ، وعجب عيينه بن بدر لفعل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : والله أن لى اولد . . وما قبلته قط . . ! ! فأجابه نبي الله صلى الله عليه وسلم قائلا :

« من لا يرحم : لا يرحم » (٤) .

ويصل النبي صلى الله عليه وسلم ، فى ممازحته للحسين — رضى الله عنه — ومضاحكته له ، إلى هذه

---

(١) نور الابصار فى مناقب آل النبى المختار ، للشبلنجى : ١٣٩ .

(٢) أخرجه النسائى فى سننه .

(٣) التاج الجامع للأصول ، للشيخ منصور على ناصف : ٣ - ٣١٨ من رواية الترمذي .

(٤) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى : ص ١٤٣ .

(٥) متفق عليه ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الصورة الرائعة التى يصفها لنا يعلى بن مرة رضى الله عنه ، إذ يحكى لنا كيف أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى طعام دعوا إليه . . فاذا حسين فى السكة مع غلمان يلعب ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمام القوم باسطاً يديه ، وجعل الغلام يفرها هنا . . وها هنا ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضاحكه ، حتى أخذه ، فوضع احدى يديه تحت قفاه ، ووضع الأخرى تحت ذقنه ، وقبله وقال :

« حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسيناً . . حسين سبط من الأسباط » (١) .

ويتضح من مجموع هذه الصور ، مدى ما كان يتمتع به الحسين — رضى الله عنه — من محبة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وشفقته عليه ، وفى ذلك أسوة طيبة للآباء ، توضح لهم ما يجب عليهم — فى معاملتهم لأبنائهم — من التبسط معهم . . والتعاطف عليهم ، والاجتهاد فى إدخال السرور إلى قلوبهم .

مكانة الحسين لدى الخلفاء الراشدين :

ولما لحق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وبايع الصحابة الصديق — رضى الله عنه — خليفة للمسلمين ، كان الحسين — رضى الله عنه — محل اكرامه وإعظامه ، حتى لحق بربه ، وبويع الفاروق عمر بن الخطاب — أميرا للمؤمنين ، فتابع الصديق — رضى الله عنهما — فى أكرامه للحسين عليه السلام ، وحدبه عليه .

وتصور لنا الواقعة التالية ، التى يقصها سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — بنفسه ، مدى ما كان يحظى به من حفاوة وتكريم ، ومحبة وإجلال ، من أمير المؤمنين الفاروق — رضى الله عنه — ومن ناحية أخرى : تصور لنا مدى ما جبل عليه الحسين — رضى الله عنه — منذ نشأته ، من جرأة فى الحق ، وقوة فى الشخصية ، وحرية فى الرأى ، إذ يقول رضى الله عنه :

« أتيت عمر بن الخطاب وهو يخطب على المنبر ، فصعدت إليه فقلت انزل من منبر أبى ، وأذهب إلى منبر أبيك » ! ! فقال عمر :

« لم يكن لأبى منبر » . . وأخذنى فأجلسنى معه ، أقلب حصى فى يدى ، فلما نزل : انطلق بى إلى منزله ، فقال لى : « من علمك » ؟ قلت :

« والله ما علمنى أحد » . . ! قال : « بأبى . . لو جعلت تغشانا » ؟ ؟ فأتيته يوماً وهو خال بمعاوية ، وابن عمر بالباب . . فرجع ابن عمر فرجعت معه ، فلقينى بعد فقال : « لم أرك » ؟ : قلت :

« يا أمير المؤمنين : إنى جئت وأنت خال بمعاوية ، فرجعت مع ابن عمر » فقال :

أنت أحق من ابن عمر ، فانما انبت ما فى رءوسنا الله . . ثم أنتم » (٢) !

(١) الترمذى ، من حديث يعلى بن مرة رضى الله عنه باسناد حسن

(٢) الاصابة فى تمييز الصحابة ، لابن حجر : ١ - ٣٣٣ .

مكانة الحسين . . لدى الصحابة :

وعلى هذا النمط كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى حبهم لسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه وعنهم — وفى توقيرهم له ، وتعظيمهم لشأنه ، وإيثارهم له على أنفسهم . . ومسارعتهم إلى خدمته . . هذا هو ابن عباس — رضى الله عنهما — يمسك بركابه ، وهذا هو أبو هريرة ينفض التراب عن قدميه ، وهذا هو بلال بن رباح ، لا يكاد يرى الحسين وأخاه حتى جعل يضمهما إلى صدره ، ويقبلهما(١) وهو يبكى ، فقد تذكر بهما الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم .

وحتى هؤلاء الذين أدى بهم اجتهادهم من الصحابة — رضى الله عنهم — إلى الوقوف من والد الحسين — كرم الله وجهه — موقف العداء ، وانحازوا إلى معاوية بن أبى سفيان ، كانوا إذا التقوا بسيد شباب أهل الجنة فى ميدان القتال ، يتفادون التعرض له ، ويحاذرون مواجهته أو مبارزته ، لما يعرفونه من مقامه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما يكنونه له من محبة ووفاء .

هذا هو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يتقدم الصفوف يوم صفين ، وهو يصيح متحدياً خصوم أبيه : هل من مبارز ؟ ؟ . . فانبرى له « الزبرقان بن أسلم » وكان شديد البأس ، قوى الشكيمة ، فقال له : ويلك ! ! من أنت ؟ قال :

أنا الحسين بن على . . . !

ولم يكد الرجل يعرف أنه أمام ابن بنت سيد العالمين صلى الله عليه وسلم حتى قال : انصرف يابنى . . ! فانى والله لقد نظرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقبلا من ناحية قباء ، على ناقة حمراء ، وإنك يومئذ قدامه ، فما كنت لألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بدمك ! !

وانصرف وهو يردد أبياتاً من شعره(٢) .

بل لقد بلغ الأمر ببعض الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين ، فى حبهم لسيدى شباب أهل الجنة — الحسين وأخيه — أنهم كانوا يوصون لهم ، ويشركونهم فى ميراثهم ، ومن هؤلاء : المقداد بن عمرو — رضى الله عنه — فقد أوصى للحسن والحسين بستة وثلاثين ألفاً(٣) .

ولا عجب ! ! فقد كان الحسين — رضى الله عنه — صورة صادقة ، لمكارم الأخلاق ، التى بعث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، مكملا لها ، وداعياً إليها ، فاشتهر بالعلم بالكتاب والسنة ، والحرص

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى : ١ - ٢٥٨ .

(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لابن الأثير : ٢ - ٢٤٦ ، الاصابة لابن حجر : ١ - ٥٤٤ .

(٣) سير أعلاء النبلاء للذهبى : ١ - ٢٥٨ .

والمقداد بن عمر : من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد السبعة الذين كانوا أول من أظهروا الإسلام ، وأول من قاتل على فرس فى سبيل الله ، وقد شهد بدرا ، وكان الفارس الوحيد فيها ، وهو القائل للنبى صلى الله عليه وسلم يومها : « لا نقول لك كما قال أصحاب موسى لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا أنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون » ، كما شهد ما بعدها من المشاهد ، وكان أحد الأربعة الذين أمد بهم الفاروق جيش الفتح فى مصر ، واعتبر كل واحد منهم يعدل ألفا ، وهم الزبير ، والمقداد ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد . وتوفى رضى الله عنه سنة ٣٣ من الهجرة فى خلافة عثمان وهو ابن سبعين سنة (الاصابة : ٤ - ٤٥٤ ، والاستيعاب ٤ - ٤٧٣) .

على العمل بهما ، والتفقة فى أمور الدين ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما عرف — رضى الله عنه — بالجود والكرم ، والتواضع فى غير ذلة ، والعفو مع القدرة ، مع علو فى الهمة ، وحرص على الكرامة ، وإباء للضيم :

كما كان رضى الله عنه ذو مروءة عالية ، يكرم الضيف ، ويمنح الطالب ، ويصل الرحم ، ويعطى الفقير ، ويسعف السائل ، ويكسو العارى ، ويعاون الغارم ، وينصر الضعيف ، ويشفق على اليتيم ، ويساعد ذا الحاجة . . .

علم الحسين . . وفقهه :

حفظ الحسين — رضى الله عنه — عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه ، وأخرج له أصحاب السنن (أبو داود والترمذى والنسائى) عدة أحاديث ، كما روى عن أبيه وأخيه الحسن ، وأمه الزهراء ، وخاله هند بن أبى هالة ، كما روى عنه أخوه وبنوه : على زين العابدين وفاطمة وسكينة ، وحفيده الباقر ، وآخرون ، رضى الله عنهم أجمعين(١) :

وكان — رضى الله عنه — فقيهاً فى الدين ، عالماً بالكتاب والسنة ، يرجع إليه أكابر الصحابة والتابعين ، فيما قد يغيب عنهم من أمور الدين ، أو يستشكل عليهم من أحكامه ، من ذلك : ما روى عن عبد الله بن الزبير — رضى الله عنهما — أنه سأله قائلا :

يا أبا عبد الله : ما تقول فى فكاك الأسير ؟ على من هو ؟ فأجاب سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه :
« على القوم الذين أعانهم ، أو قاتل معهم » : : ثم سأله :
يا أبا عبد الله : متى يجب عطاء الصبى ؟ قال رضى الله عنه :
« إذا استهل : وجب له عطاؤه ورزقه » .

وآخر أ : : سأله عبد الله بن الزبير عن الشرب قائماً ، فدعا — رضى الله عنه — بلقحة له أى ناقة — — فحلبت ، فشرب قائماً ، وناوله(٢) : : : ! !

وكان رضى الله عنه — حريصاً على نشر العلم ، قائماً بالدعوة والإرشاد إلى الله تعالى : : يقبل الناس على مجلسه ، ويتزاحمون حول حلقته ، ويتسابقون إلى سماع حديثه ، بقلوب واعية ، وآذان صاغية ، تحف مجلسه الجلالة ، وتكتنفه الهيبة والوقار ، حتى أن معاوية — رضى الله عنه — ليقول فى رده على سؤال رجل من قريش : اين يجد الحسين رضى الله عنه :

« إذا دخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت حلقة فيها قوم كان على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبى عبد الله ، مؤتزرا إلى أنصاف ساقيه(٣) » :

(١) الاصابة فى تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلانى : ١ / ٣٣٢ .
(٢) الاستيعاب فى أسماء الاصحاب ، لابن عبد البر القرطبى المالكى ، بهامش الاصابة : ٢ /٣٨٣ ، ٣٨٤ .
(٣) التاريخ الكبير لابن عساكر ٤ / ٣٢٢ .

ولقد استمر – رضى الله عنه – فى الدعوة إلى ربه ، حتى بعد خروجه إلى مكة المكرمة . . وإقامته بها ، فقد عكف الناس على الوفود إليه ، والقدوم عليه ، يستمعون إلى حديثه ، باعتباره السيد العظيم ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد ، يساويه مكانة ، أو يساميه شرفاً ومنزلة . .

وكان – رضى الله عنه – فى دعوته إلى الله ، وإرشاده إلى سبيله ، حريصاً على التزام هدى النبي صلى الله عليه وسلم ، الذى عرف بأنه ما جابه أحد قط بأمر يسوءه . . من ذلك ما روى من أنه كان يتوضأ مع أخيه الحسن – رضى الله عنهما – فإذا بإعرابى لا يدرى كيف يسبغ الوضوء ، فأراد أن يقدما له النصيحة ، الواجبة شرعاً ، لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ، ولكنهما استحييا أن يصارحاه بخطئه ، توقيراً منهما لسنه ، فقال أحدهما للآخر :

« تعال بنا ، لنرى أينا يحسن الوضوء » ؟ !

وأخذ الشيخ ينظر إليهما متعجباً . . وتقدم الحسين فتوضأ وضوءاً يشبه وضوء الإعرابى ، ثم تبعه الحسن – رضى الله عنهما – فأسبغ الوضوء وأحسنه . وهنا تقدم الحسين إلى أخيه وقال :

« أنا الذى لا أحسن الوضوء »[1] . . ! !

وتعلم الإعرابى كيف يحسن الوضوء ، دون ما حاجة إلى مصارحته بخطئه ، مما قد يمس كرامته ، أو ينال من شعوره . .

حرص الحسين على العمل بالسنة :

وكان – رضى الله عنه – فى جميع أحواله يتبع العلم بالعمل ، فكانت سيرته ومعاملاته فى كل ناحية من النواحى ، ترجمة صادقة لعلمه ، ودليلا ناصعاً على صدقه وإخلاصه . حتى لقد بلغ من حرصه على التزام سنة جده العظيم صلى الله عليه وسلم ، فى كل صغيرة وكبيرة ، أدرك الحكمة منها أم لم يدرك ، ما رواه عكرمة رضى الله عنه قال :

وقفت مع الحسين – أى يوم الحج – فلم أزل أسمعه يقول : لبيك . . لبيك ، حتى رمى الجمرة ، فقلت : يا أبا عبد الله : ما هذا الإهلال ؟ قال :

« سمعت على بن أبى طالب – رضى الله عنه – يهل حتى انتهى إلى الجمرة ، وحدثنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل حتى انتهى إليها » .

ومن ذلك : ما رواه الإمام على بن موسى الرضا : أن الحسين بن على – رضى الله عنهما – حين دخل الخلاء ذات مرة ، وجد لقمة ملقاة ، فدفعها إلى غلام له ، وقال :

« يا غلام : أذكرنيها إذا خرجت » . . فأكلها الغلام ، فلما سأله عنها قال : أكلتها يا مولاى . فقال الحسين :

---

(١) الحسين عليه السلام ، لعلى جلال الحسينى ١ - ١٣٩ ، عن مسند أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

« اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى » . . ثم قال :

سمعت جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من وجد لقمة ملقاة . . فمسح ، أو غسل ، ثم أكلها ، أعتقه الله من النار » . . فلم أكن أستعبد رجلا أعتقه الله من النار(١) .

وواضح أن الحسين – رضى الله عنه – حينما طلب من غلامه أن يذكره باللقمة ، حين خروجه من الخلاء . . إنما كان يقصد أن يتبع فى شأنها حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، فيمسحها ويأكلها ، طمعاً فى أن يكون ممن يعتقهم الله من النار . .

* * *

وصورة ثالثة لحرصه – عليه السلام – على الأخذ بكل ما سمعه عن جده – صلى الله عليه وسلم ، ما روته السيدة فاطمة بنت الحسين – رضى الله عنهما – أنها سمعت أباها يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ما من مسلم ولا مسلمة تصيبه مصيبة ، وان قدم عهدها ، فيحدث لها استرجاعاً إلا أحدث الله له عند ذلك ، وأعطاه ثواب ما وصده بها يوم أصيب بها »(٢) .

وبالرغم من حداثة سن الحسين عليه السلام ، حين سمع هذا الحديث إذ أن النبى صلى الله عليه وسلم لحق بالرفيق الأعلى ، والحسين لم يتجاوز السادسة إلا قليلا . . بالرغم من ذلك : فقد ظل – رضى الله عنه – حافظاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم طوال هذه السنين ، حريصاً عليه ، حتى خفق برأسه أثناء مسيره إلى الكوفة ، ثم انتبه فأخذ يردد :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين » . .

لقد رأى – رضى الله عنه – فى خفقته ، فارساً يقول : القوم يسيرون والمنايا تسرى إليهم ، فعلم علم اليقين أنهم مقبلون على الموت ، وتذكر حديث جده صلى الله عليه وسلم ، فأخذ به ، واسترجع ، إيماناً . . وتصديقا .

سخاء الحسين . . وكرمه :

وفى التزام الحسين – رضى الله عنه – لسنة النبى صلى الله عليه وسلم ، كان فى جوده وكرمه كالريح المرسلة ، قل أن وصله مال الا فرقه .

بلغ من جوده أن سائلا خرج يتخطى أزقة المدينة ، حتى أتى باب الحسين رضى الله عنه فقرعه وأنشأ يقول :

لم يخب اليوم من رجاك ومن حرك من خلف بابك الحلقة

وكان سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – وقتئذ واقفاً يصلى ، فخفف من صلاته ، وخرج إلى الإعرابى فرأى عليه أثر الضر والفاقة ، فنادى على غلامه ، فنبر – فقال : لبيك يا بن بنت رسول الله ،

(١) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، للمحب الطبرى : ص ١٤٣ .

(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير : ٢ - ١٩ ، الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر : ١ - ٣٣٢ .

قال : ما تبقى معك من نفقتنا ؟ قال : مائتا درهم أمرتنى بتفرقتها فى أهل بيتك ، فقال الحسين رضى الله عنه :

«هاتها . فقد أتى من هو أحق بها منهم » ، فأخذها ، وخرج إلى الإعرابى فدفعها معتذراً له عن قلة المبلغ ، فأنشأ الإعرابى يقول : معبراً عن شكره :

مطهرون نقيات جيوبهم — تجرى الصلاة عليهم أينما ذكروا
وأنتم . أنتم الأعلون عندكم — علم الكتاب وما جاءت به السور
من لم يكن علوياً حين تنسبه — فما له من جميع الناس مفتخر(١)

* * *

ودخل يوماً على أسامة بن زيد — رضى الله عنهما — وهو مريض ، فسمعه يقول : واغماه ! فقال له الحسين عليه السلام : وما غمك يا أخى ؟ قال : دينى . . وهو ستون ألف درهم ، فقال الحسين — رضى الله عنه — : هو على . قال : إنى أخشى أن أموت — أى قبل سداده — قال الحسين رضى الله عنه : لن تموت حتى أقضيها عنك : فقضاها قبل موته(٢) .

وكان يحمل إليه — رضى الله عنه — بالمتاع من البصرة ، فكان لا يقوم حتى يهب عامته ، مقتدياً فى ذلك بالرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى كان لا يبيت فى بيت من بيوته ، وعنده من حطام الدنيا دينار واحداً ، أو درهم واحد .

* * *

ومن صور كرمه المتعددة ، حرصه على إجابة الدعوة ومقابلتها بأطيب منها ، ورد التحية أو الهدية بأحسن منها ، متأسياً فى ذلك بجده صلى الله عليه وسلم ، الذى كان يجيب دعوة الفقير . . ويقبل الهدية ويكافىء عليها . .

هؤلاء هم جماعة من المساكين ، يتناولون طعامهم فى الصفة ، ويمر بهم الحسين — رضى الله عنه — ، فيدعونه إلى مشاركتهم طعامهم ، فلا يتردد فى الإجابة ، وهو صاحب المكانة العالية بين أهل الأرض وأهل السماء ، تواضعاً منه لله ، وتطييباً لنفوس هؤلاء المساكين ، فينزل للجلوس بينهم وهو يقول : « إن الله لا يحب المتكبرين » .

وبعد أن تغدى الحسين — رضى الله عنه — مع القوم ، قال لهم :
« قد أجبتكم فأجيبونى » : قالوا : نعم .
فمضى بهم — رضى الله عنه — إلى منزله . . وقال للرباب — زوجته :
« قدمى ماكنت تدخرين »(٣) . .

(١) التاريخ الكبير ، لابن عساكر : ٤ - ٣٢٣ .
(٢) الحسين عليه السلام لعلى جلال الحسينى : ١ - ١١٥ عن لواعج الأشجان ص ١٤ .
(٣) التاريخ الكبير لابن عساكر : ٤ - ٣٢٣ .

فقدم إليهم – رضى الله عنه – أطيب ما عنده ، مقابلا تحيتهم له بأحسن منها ، ودعوتهم إليه ، بأكرم وأجمل : :

* * *

وهذه هى جارية من جواريه ، تستأذن فى الدخول عليه ، فتحييه أطيب تحية ، وتقدم إليه طاقة من الريحان ، ومع أنه – رضى الله عنه – سيدها ، وهى ملك يمينه ، فإنه لم يتردد فى أن يرد هذه التحية بخير ما يمكن أن يقدمه إليها ، فيقول لها :

« أنت حرة لوجه الله تعالى » : :

وتعجب أنس – رضى الله عنه – لهذه الأريحية التى بلغت الذروة فى الجود فقال له !

« جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها » ؟ فقال الحسين عليه السلام : كذا أدبنا الله ، فقال تبارك وتعالى :

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها »(١) وكان أحسن منها عتقها(٢) :

تسامح الحسين وعفوه :

ومع ما عرفت به الحسين – رضى الله عنه – من شدة فى الحق ، واباء للذل ، فإنه كان سليم القلب ، طاهر النفس ، لا يغضب لنفسه ، إلا أن يكون فى الأمر مجانبة الحق ، أو مخالفة لله والرسول ، كما كان أسرع ما يكون إلى التسامح والعفو ، متى أبديت له المعذرة ، واقتنع بوجاهتها .

وقعت جفوة بينه وبين عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما ، فقد ساء الحسين – رضى الله عنه أن يراه فى صفوف المحاربين لأمير المؤمنين على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – يوم صفين ، وقد كانت ثقته فى أن تقوى عبد الله بن عمرو ، وورعه ، ومعرفته بالله عز وجل ، أكبر من أن يغيب عنه أن الحق كان فى جانب على كرم الله وجهه ، وأن الخطأ كان فى جانب معاوية : .

نعم ! لقد تأول كثيرون من أكابر الصحابة الأمر ، وحاربوا عليا – رضى الله عنهم أجمعين – قبل ذلك فى موقعة الجمل ، ولكن الأمر بينه وبين معاوية كان أوضح من أن يحتمل أى تأويل أو اجتهاد ، لا سيما بالنسبة لمن كان فى درجة عبد الله بن عمرو بن العاص ، علماً وفقهاً ، وإيماناً وإخلاصاً (٣) : :

ومرت الأيام : : وانصرمت السنون ، حتى كان ذات يوم دخل فيه سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمر بقوم قد اجتمعوا فى حلقة ، فحياهم بالسلام ،

---

(١) سورة النساء : آية ٨٦ .

(٢) الحسين عليه السلام ، لعلى جلال الحسينى : ١ - ١١٧ ، عن رسالة الآداب والحكم لياقوت المستعصمى .

(٣) عبد الله بن عمرو بن العاص : أحد العبادلة الأربعة : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . وعبد الله بن عمرو بن العاص ، أسلم قبل أبيه ، وكان بينه وبين أبيه فى العمر اثنا عشرة سنة ، وكان غزير العلم ، مجتهداً فى العبادة ، قواماً بالليل ، صواماً بالنهار ، حتى نهاه النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وأمره بصيام يوم بعد يوم ، وبقراءة القرآن فى كل ثلاث . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل كان أكثر رواية من أبى هريرة ، وله فى البخارى ستة أو خمسة وعشرون حديثا : الاصابة ٢ - ٣٥٢ ، وفتح المبدى لشيخ الإسلام عبد الله الشرقاوى : ١ - ٤٧ .

وردوا تحيته بأحسن منها . . وكان من بينهم عبد الله بن عمرو ، فرفع صوته قائلا : وعليك السلام ورحمة الله ، ليسمعه الحسين ويعرف صاحبه . .

وأقبل عبد الله بن عمرو على القوم فقال :

« ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء » ؟ قالوا بلى . . قال :

« هذا هو الماشي ، ما كلمني كلمة منذ ليالي صفين ، ولأن يرضى عني أحب إلي من أن تكون لي حمر النعم » : فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : ألا تعتذر إليه ؟ قال بلى . .

فتواعدا أن يغدوا إليه ، فاستأذن أبو سعيد فأذن له الحسين — رضي الله عنهما — فدخل ، ثم استأذن لعبد الله بن عمرو ، فلم يزل به حتى أذن له ، بعد أن أخبره أبو سعيد بالذي كان من قوله . .

ودخل عبد الله بن عمرو ، فقال له الحسين رضي الله عنهما :

« أعلمت يا عبد الله إني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء » ؟ فأجاب :

« أي ورب الكعبة » . : قال الحسين — رضي الله عنه :

« فما حملك على أن قاتلتني وأبي يوم صفين ؟ فوالله لأبي كان خيراً مني » ؟

فقال عبد الله بن عمرو :

أجل . . ! ولكن عمرو شكاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يارسول الله : إن عبد الله يقوم الليل ويصوم النهار » . فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الله : صل ونم ، وصم وأفطر ، وأطع عمرا . . » . . فلما كان يوم صفين : أقسم علي فخرجت ، أما والله ما اخترطت سيفاً ، ولا طعنت برمح ، ولا رميت بسهم »[1] .

وهكذا : اتضح لسيد شباب أهل الجنة — رضي الله عنه — حقيقة الأسباب والظروف التي دفعت بعبد الله بن عمرو بن العاص إلى ميدان القتال . . وأنه مع كل ذلك : لم يقاتل بسيف ، ولم يطعن برمح ، فقبل معذرته ، وتجاوز عنه ، لأن غضبه كان لله ، وفي سبيل الله ، وكذلك كان رضاه لله ، وفي سبيل الله .

صورة من خلق شباب أهل البيت :

ويضرب لنا شباب أهل البيت صورة عالية لمكارم الأخلاق ، وما يجب أن يحرص عليه أبناء الإسلام فيما بينهم من نبل وتسامح ، ومحبة وإيثار .

وقع بين الحسين وأخيه محمد بن الحنفية — رضي الله عنهما — ما حملهما على الافتراق متغاضبين ، فلم يلبث محمد أن كتب إلى الحسين يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن علي بن أبي طالب ، إلى الحسين بن علي بن أبي طالب : أما بعد : فإن لك شرفاً لا أبلغه ، وفضلا لا أدركه ، أبونا « علي » رضي الله عنه ، لا أفضلك فيه ولا

(١) أسد الغابة ، لابن الأثير : في ترجمة عمرو بن العاص .

تفضلني ، وأمك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمى ، ما وافين بأمك ، فإذا قرأت رقعتي هذه ، فالبس رداءك ونعليك ، وتعال فترضنى ، وأياك أن أسبقك إلى هذا الفضل ، الذى أنت أولى به منى . . والسلام »(١) .

تلقى الحسن هذه السطور من أخيه — رضى الله تعالى عنهما — ففهم مقصودها ، وعلم أن أخاه الأصغر يشير فى كلامه إلى حديث سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، الذى يحرم فيه التقاطع ، ويحث على التسامح والعفو ، إذ يقول :

« لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان : . فيعرض هذا : . ويعرض هذا . . وخيرهما الذى يبدأ بالسلام »(٢) :

ولم يتردد ابن بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الاستجابة لطلب أخيه ، ولم يمنعه من ذلك أنه الأكبر سناً ، والأشرف حسباً ونسباً ، فلبس رداءه ، وسارع إليه فترضاه : :

* * *

ووقع ما يشبه ذلك بين الشقيقين العظيمين — سيدا شباب أهل الجنة رضى الله عنهما — فلما أتى على الحسن ثلاثة أيام ، تأثم من هجره لأخيه — رضى الله عنهما — فسارع إليه ، وأقبل عليه وهو جالس ، فأكب على رأسه يقبله ، ثم جلس بجانبه ، فقال الحسين رضى الله عنه :

« إن الذى منعنى من ابتدائك ، والقيام إليك ، أنك أحق بالفضل منى ، فكرهت أن أنازعك ما أنت أحق به منى »(٣) :

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، والسابق السابق إلى الجنة » قال : فبلغنى أنه كان بين الحسن والحسين هجران وتشاجر ، فقلت للحسين — رضى الله عنه — الناس يقتدون بكما ، فلا تهاجرا ، وأقصد أخاك الحسن وأدخل عليه وكلمه فإنك أصغر سناً منه ، فقال :

لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « السابق السابق إلى الجنة » لقصدته ، ولكن أكره أن أسبقه إلى الجنة :

فذهبت إلى الحسن فأخبرته بذلك فقال « صدق أخى » وقام وقصد أخاه وكلمه واصطلحا رضى الله عنهما(٤) .

---

(١) الحسين عليه السلام : ٢ - ١١٩ ، عن ألف باء ليوسف بن محمد البلوى : ١ - ٤٦٧ .

(٢) البخارى من حديث أبى أيوب الأنصارى فى كتاب الأدب باب الهجرة .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٢٠٨ .

(٤) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، للمحب الطبرى ؛ ص ١٣٨ . وقال خرجه ابن أبى الفزارى .

نفوس نبيلة . . وأصول طيبة . . تجملت بالأخلاق العالية . . والسجايا السامية ، فغدوا وكأنهم ملائكة يمشون على الأرض ، أو أسمى من ذلك وأكرم ، وليس ذلك بغريب على من نشأوا فى بيوت النبوة والخلافة ، واتصلت أنسابهم بأشرف خلق الله فى الأولين والآخرين .

الحسين . . فى عبادته وإيمانه :

ولقد كانت هذه الأخلاق الكريمة هى ثمرة المجاهدة الصادقة فى الله . . نعم . . فقد كان الحسين — رضى الله عنه — قواماً بالليل ، صوماً بالنهار ، عابداً لله ، حريصاً على طاعته ، مسارعاً إلى الخيرات ، سابقاً إلى التزود بالطاعات والقربات ، حتى لقد روى عنه مصعب الزبيرى : أنه حج خمسة وعشرين حجة ، ملبياً . . ماشياً على الأقدام(١) .

كما كان — رضى الله عنه — قوياً شجاعاً ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، ولا تلين له فى الحق قناة ، صبوراً على المكاره ، لا تزلزله الأحداث ، ولا تهزه العواصف ، مطمئناً إلى قدر الله ، واثقاً بما عنده . . مات ابن له ، فلم تظهر عليه أية كآبة ، فلما سئل فى ذلك قال :

« أنا أهل بيت : نسأل الله فيعطينا ، فإذا أراد ما نكره فيما يحب . . رضينا »(٢) . .

الحسين الأسد . . رضى الله عنه :

ومع كانت عليه نفس سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — من تواضع ، ومع ما عرف به — رضى الله عنه — من تسامح مع من دونه فى حق نفسه ، وحرص على العفو ، مع القدرة على المؤاخذة والعقاب ، مع كل ذلك : فقد كانت سيرته مع الأمراء والولاة بخلاف ذلك ، فهو يقف دائماً منهم موقف الشمم والأباء ، ولا يعرف التسامح معهم إليه سبيلا ، وخاصة إذا كان الأمر يتصل بالكرامة ، أو يمس العقيدة ، فعندئذ ترى الحسين الوديع ، وقد تحول إلى أسد هصور ، لا يقف غضبه عند حد . . ولا يبالى بأى قوة أو سلطان .

كتب إليه معاوية — رضى الله عنهما — بما بلغه من أن أهل الكوفة قد دعوه إلى الشقاق ، ويقول له فى ختام خطابه مهدداً :

« فاتق الله واذكر الميثاق ، فإنك متى تكدنى أكدك والسلام » .

وتلقى الحسين كتاب معاوية رضى الله عنهما ، وفهم مغزاه ، **فكتب إليه يؤكد** له خلاف ما بلغه ، وأنه ما أراد له محاربة ، ولا عليه خلافاً . . وفى نفس الوقت لم يترك تهديد معاوية له ، دون أن يرد عليه بما هو أشد وأنكى ، إذ يقول له فى ختام خطابه :

« . . وما أظن لى عذراً عند الله فى ترك جهادك ، وما أعلم فتنة أعظم من ولا يتك أمر هذه الأمة » . .

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر : بهامش الإصابة : ٢ - ٣٨٣ .

(٢) الاصابة فى تمييز الصحابة ، لابن حجر : ٢ - ٣٣٣ .

ولم يملك معاوية حين تلقى كتاب الحسين – رضى الله عنهما – إلا أن قال « ان أثرنا بأبى عبد الله الا أسدا »(١) ! !

* * *

وحاول الوليد بن عتبة أن يتحامل على الحسين – عليه السلام – فى مال له ، مستغلا سلطانه كأمير للمدينة ، ومع ما عرف عن سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، من زهد فى الدنيا ، وبذل للمال بسخاء ، فإنه رأى فى موقف الوليد استخفافاً بحقه ، وامتهاناً لكرامته ، فلم يلبث أن قال متحدياً :

« احلف بالله لتنصفنى من حقى ، أولآخذن سيفى هذا ، ثم لأقومن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون بحلف الفضول »(٢) :

وبلغ ذلك عبد الله بن الزبير – رضى الله عنهما – فقال :

« وأنا أحلف بالله لئن دعانى : لآخذن سيفى ، ثم لأقومن معه حتى ينتصف من حقه ، أو نموت جميعاً » : .

وحذا حذو عبد الله بن الزبير : المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عثمان التيمى : : فلما علم الوليد بذلك : سارع إلى أنصاف الحسين – رضى الله عنه (٣) ، تفادياً من غضبه :

* * *

وحينما دعاه الوليد بن عتبة – أمير المدينة – لأخذ البيعة ليزيد ، وشدد عليه القول – فى بعض الروايات – ونصح مروان بن الحكم أمير المدينة بحبس الحسين – رضى الله عنه – حتى يبايع أو تضرب عنقه : : عندئذ : وقف الحسين – عليه السلام – من هذا التهديد موقف الأسد الذى اشتهر به ، وعرف عنه ، فنهض إلى مروان وقال له :

– يا ابن الزرقاء : : أنت تقتلنى ؟ كذبت والله واؤمت : : ثم التفت إلى الوليد فشتمه ، وأخذ بعمامته فنزعها من رأسه وانصرف ؟ ولم يملك أمير المدينة إلا أن عبر عن إحساسه بالخطأ ، وأسفه لما تورط فيه ، بنفس العبارة التى قالها معاوية من قبل : إن هجنا بهذا إلا أسدا(٤) : : ! !

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٦٢ ، سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ - ١٩٨ .

(٢) حلف الفضول : دعت إليه قبائل من قريش فى الجاهلية ، حيث تعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها ، أو من غيرهم ، إلا قاموا معه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف : حلف الفضول ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لقد شهدت فى دار ابن جدعان حلفا ، ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو ادعى به فى الإسلام لأجبت » .

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٦ - ٣٣ . والمسور بن مخرمة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولد بعد الهجرة بسنتين ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان من أهل الفضل والدين وكان مع ابن الزبير – رضى الله عنهما – فى الحصار الأول لمكة فى عهد يزيد ، فأصابه حجر من المنجنيق فاستشهد سنة ٦٤ من الهجرة (الاصابة لابن حجر : ٣ / ٤١٩) .
أما عبد الرحمن بن عثمان فقد أسلم فى الحديبية وشهد عمرة القضاء وما بعدها من المشاهد ، كما شهد اليرموك مع أبى عبيدة ، واستشهد مع ابن الزبير – رضى الله عنهما – ، فى يوم واحد ، بمكة ، سنة ثلاث وسبعين من الهجرة (الاصابة : ٢ - ٤١٠) .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٤٧ ، سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ - ١٩٨ .

ولقد عرف الجميع للحسين — رضي الله عنه — هذه الروح العالية ، وشهد له بها خصومه ، والفضل ما شهدت به الأعداء :

حينما جاء شمر بن ذى الجوشن ، إلى عمر بن سعد ، بكتاب عبيد الله بن زياد ، يأمره فيه بإرغام الحسين — رضي الله عنه — على المجيء إليه ، أو قتاله وقتله ، عندئذ قال عمر مخاطباً شمر :

« ويلك ! ! لا قرب الله دارك ، وقبح الله ما قدمت به على ، والله انى لأظنك أنت الذى ثنيته أن يقبل ماكتبت به إليه ، أفسدت علينا أمراً كنا نرجو أن يصلح ، لا يستسلم والله الحسين . . ان نفساً أبيه لبين جنبيه »(١) ! !

وصدق عمر بن سعد بن أبي وقاص فى قوله ، وأصاب فى تقديره ، فإن الحسين الأسد رضى الله عنه — أبى أن يستسلم وفيه عرق ينبض ، وكافح كفاح الليث المصور ، الألوف التى كانت تحيط به ، حتى سقط فى ميدان الشرف شهيداً كريماً ، وبطلا مغواراً ، بعد أن أصيب بعشرات من ضربات السيوف ، وطعنات الرماح .

سرعة استجابته للحق :

ومع ماكان عليه سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — من اباء وشمم ، وحرص على الكرامة واستعداد للذود عنها بكل مرتخص وغال ، مع ذلك ، فقد كان — رضى الله عنه — أسرع ما يكون رجوعاً إلى الحق ، بمجرد وضوحه ، وحرصاً على السلم ، ما لم يكن فيه غضاضة عليه .

عهد إليه شقيقه الحسن — رضى الله عنهما — قبيل وفاته ، أن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستأذن فى ذلك أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فأذنت ، فإن خاف أن يكون فى ذلك شر أو قتال ، فليدفنه بالبقيع .

وحدث ما توقعه الحسن — رضى الله عنه — فقد اعترض مروان بن الحكم ، ومن خلفه بنو أمية ، على دفن الحسن بجوار جده صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أيدفن عثمان بالبقيع ، ويدفن الحسن بالحجرة ؟ : وتفاقم الخلاف ، وأصر كل على رأيه ، ولبس الفريقان سلاحهم ، وأوشكت الفتنة أن تقع ، لولا أن تقدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — سعد ابن أبى وقاص ، وأبو هريرة ، وجابر ، وعبد الله بن عمر — فقالوا لسيد شباب أهل الجنة :

« يا أبا عبد الله : اتق الله ولا تثر فتنة ، فإن أخاك كان لا يحب ما ترى ، فادفنه بالبقيع بجانب أمه ، فإنه قد عهد بذلك إليك »(٢) .

فلم يتردد — رضى الله عنه — فى الاستجابة لنصيحتهم ، حين ذكروه بوصية أخيه إليه ، ففعل ما أشاروا به ، ودفن الحسن بجوار أمه الزهراء — رضى الله عنه وعنها وعن أهل بيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أجمعين .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، لابن جرير الطبرى : ٥ - ٤١٥ .

(٢) البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ٤٤ .

الحسين رضى الله عنه فى أهله :

أما سيرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهله ، فقد كانت مثالا كريماً يحتذى به ، فهو الأب الشفيق ، والزوج الحنون ، والراعى الأمين ، وكفى به شرفاً أنه ربى أبناءه تربية العزة والاباء ، والفروسية والفداء ، حتى وقفوا — وهم فى ميعة الصبا ومقتبل العمر — وقفتهم المشهودة فى كربلاء ، . : يفاخرون بافتداء أبيهم بالروح والدماء ، ويسقطون واحداً بعد الآخر شهداء ، فى ميدان الشرف والعلياء ، ومن عاش منهم بعد ذلك : كعلى زين العابدين رضى الله عنه ، كان هداية للمؤمنين ، وقدرة حسنة للمتقين ، وعلماً من أعلام الإيمان والعرفان ، حتى أن الفرزدق ليجبب ذلك الذى رأى زين العابدين — رضى الله عنه — حين أقبل يريد الطواف ، فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحى له الناس اجلالا وإعظاما ، فى حين أن هشام بن عبد الملك — وهو أمير المؤمنين — لم يستطع إلى الحجر وصولا ، ولا له استلاماً ، . : رأى ذلك الناس جميعاً ، فسأل رجل من أهل الشام متعجباً :

« من هذا الذى هابه الناس ، فتنحوا له يميناً وشمالا » ؟ ! فقال هشام :

لا أعرفه . : مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، فأجاب الفرزدق — وكان حاضراً : أنا أعرفه : فقال له الشامى : من هو يا أبا فراس ؟ فأجابه الفرزدق بقصيدته المشهورة التى يصف فيها عليا زين العابدين ، وهى القصيدة التى أغضبت هشام بن عبد الملك ، وسجن الفرزدق من أجلها ، وقد جاء فيها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل . : والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
يغضى حياء : : ويغضى من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم
من جده دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمم
ينشق نور الهدى من نور غرته ... كالشمس ينجاب عن اشراقها الظلم
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والخيم والشيم
هذا ابن فاطمة : : إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
من معشر : حبهم دين : : وبغضهمو ... كفر : : وقربهمو منجى ومعتصم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم ... ولا يدانيهمو قوم وان كرموا
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... والدين من بيت هذا ناله الأمم(١)

ولقد كان الحسين — رضى الله عنه — خير الرجال لنسائه ، بلغ من اكرامه لهن ، وحد به عليهن ،

(١) نور الأبصار ، فى مناقب آل النبى المختار ، للشبلنجى : ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

ما يصور لنا بعضه ، ما نظمه من أشعار ، يصف فيها خالص وفائه ، وصادق حبه ، من ذلك : قوله فى زوجته « الرباب » ابنة امرىء القيس بن عدى ، وأم ولديه : سكينة ، وعبد الله الذى استشهد مع أبيه فى كربلاء ، رضى الله عنهم أجمعين :

لعمـــــرك اننى لأحب دارا ... تحل بها سكينة . . والرباب
أحبهما وأبذل فوق جهـدى ... وليس لعاذل عنـدى عتاب
ولست لهم وان عتبـوا مطيعـا ... حياتى :: أو يغيبنى التراب(١)

وكانت الرباب من خيار النساء وفضلياتهن ، وكان سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — يحبها حباً شديداً ، لفضلها وطيب عنصرها ، :: ولقد بادلته « الرباب » وفاء بوفاء ، وحباً بحب ، فلما استشهد — رضى الله عنه — بكربلاء ، واستشهد قبله ابنها منه « عبد الله » وجدت عليهما وجداً شديداً ، وحزنت حزناً قاتلا ، حتى بلغ بها أن قامت سنة على قبره ، ثم انصرفت وهى تقول :

إلى الحول :: ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وبالرغم من أن الكثير من أشراف قريش طلبوا يدها ، بعد استشهاد الحسين — رضى الله عنه — فإنها أبت ، وقالت : ما كنت لأتخذ حموا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووالله لا يؤوينى ورجلا — بعد الحسين — سقف أبدا(٢) .

ومن مراثيها التى تشف عن دفين ألمها لفقده ، وعميق حزنها عليه :

ان الذى كان نوراً يستضاء به ... بكربلاء :: قتيل غير مدفون
سبط النبى :: جزاك الله صالحة ... عنا :: وجنبت خسران الموازين
قد كنت لى جبلا صعباً . : ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى :: ومن للسائلين ومن ... يغنى :: ويأوى إليه كل مسكين
والله لا أبتغى صـهرا بصهركم ... حتى أغيب بين الرمل والطين(٣)

ربانية الحسين رضى الله عنه :

ولعل أبعد سجايا الحسين — رضى الله عنه — أثراً فى حياته ، كونه عبداً ربانياً ، ولخفاء هذه السجية على الكثيرين ، فقد استباح البعض منهم نقد بعض تصرفاته ، فاتهموه بالاستبداد بالرأى تارة ، ورموه بالتهور وعدم التبصر فى العواقب أخرى ، وأكدوا — ثالثة — أنه — رضى الله عنه — أراد بخروجه منازعة للخلافة ، وعلواً فى الأرض ::

أما الذين أنار الله قلوبهم ، فقد وضعوا سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — فى المقام اللائق بمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأوا فى كل تصرفاته ، أنها أعمق من أن تصدر عن هوىء ولكنها صدرت عن إلهام ربانى ، وكشف واضح جلى ::

---

(١) البداية والنهاية ، للحافظ ابن كثير : ٨ - ٢٠٩ .
(٢) البداية والنهاية ، للحافظ ابن كثير : ٨ - ٢٠٨ .
(٣) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى : ج ١٤ .

ذلك أن الحسين — رضى الله عنه كان حبيباً لله تعالى ، فقد دعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، ولأخيه الحسن ، رضى الله عنهما ، فقال :

« اللهم إنى أحبهما ، فأحببهما ، وأحبب من يحبهما »(١) : ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم مجاب ، لأنه لا ينطق عن الهوى :

ولقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ، أن محبة الله تعالى لعبده ، تسمو به إلى مقام الربانية ، فيصبح — بفضل الله — عبداً ربانياً ، على بصيره من كل أموره ، وعلى يقين فى جميع أحواله ، فقال صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه عن رب العزة جل وعلا :

« ان الله تعالى قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه »(٢) :

ومقتضى هذا الحديث ، أن وصول العبد إلى هذا المقام من المحبة والقرب من الله تعالى ، يكسبه قدرة خاصة ، وأحوالا خاصة ، منها :

١ — أن يسمع بأذنيه فى بعض الأحيان ، ما لا يسمعه الآخرون ، لأنه يسمع بسمع الله تعالى ، كما حدث لسارية ، حين سمع وهو بفارس ، صوت الفاروق عمر بن الخطاب — رضى الله عنهما — يصيح به : يا سارية : الجبل ! !

٢ — أن يبصر مالا يبصره الآخرون ، لأنه يبصر بنور الله تعالى كما وقع لعمر بن الخطاب مع سارية — رضى الله عنهما — حيث رأى وهو يخطب المسلمين من فوق منبر المدينة ، جيوش المسلمين بفارس ، بقيادة سارية ، وهى تحاصر نهاوند ، وقد تكاثر حولهم العدو ، وأوشكت جموعه أن تحيط بهم ، : . رأى عمر كل ذلك من فوق منبره ، فاستغاث فى أثناء خطبته ، وصاح بأعلى صوته :

« يا سارية : الجبل الجبل : : من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم » ! !

فاسمع الله عز وجل سارية وجيوشه أجمعين — وهم على أبواب نهاوند — صوت عمر فقالوا : هذا صوت أمير المؤمنين ، فلجأوا إلى الجبل ، فنجوا وانتصروا :

وكان على كرم الله وجهه حاضراً ، فقيل له : ما هذا الذى يقوله أمير المؤمنين ؟ وأين سارية منا الآن ؟ : فقال « دعوه . : فما دخل فى أمر إلا وخرج منه »(٣) :

ثم تبين الحال بعد ذلك ، وجاءت الأنباء مصدقة لما أبصره عمر بنور من ربه :

---

(١) الترمذى : من حديث البراء رضى الله عنه .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه . فى باب التواضع من كتاب الرقاق ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) جامع كرامات الأولياء ، للنبهانى : ١ - ١٥٧ .

ومن هذا القبيل ما روى عن عثمان بن عفان — رضى الله عنه — أنه دخل عليه رجل كان قد لقى امرأة فى الطريق ، فتأملها ، فقال له :

« يدخل أحدكم وفى عينيه أثر الزنا » ؟ . فقال الرجل متعجبا :

أوحى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ : فأجاب عثمان — رضى الله عنه .

« لا : : ولكنها فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله »(١) .

وقد ذكر التاج السبكى هذه الواقعة فى « الطبقات » ثم قال ما ملخصه :

« واعلم أن المرأ إذا صفا قلبه ، صار ينظر بنور الله ، فلا يقع بصره على كدر أو صاف إلا عرفه ، : : ثم تختلف المقامات . فنهم من يعرف أن هناك كدراً ولا يدرى ما أصله ، ومنهم يكون أعلى من هذا المقام فيدرى أصله ، كما اتفق لعثمان — رضى الله عنه — فإن تأمل الرجل للمرأة أورثه كدرا أبصره عثمان رضى الله عنه ، وفهم سببه » : ثم يقول :

« وهنا دقيقة : هى أن كل معصية لها كدر ، وتورث نكته سوداء فى القلب بقدرها : : فالمعاصى الصغيرة : تورث كدراً صغيراً بقدرها ، قريب المحو بالاستغفار وغيره من المكفرات ، ولا يدركه إلا ذو بصر حاد كعثمان — رضى الله عنه ، : : وإذا انضم إلى الصغيرة صغيرة أخرى ازداد الكدر ، : : وإذا تكاثرت الذنوب : وصلت إلى اظلام القلوب ، بحيث يشاهده كل ذى بصر : : فمن رأى متضمخاً بالمعاصى قد أظلم قلبه ، ولا يتفرس فيه ذلك ، فليعلم أنه لم يبصره لما عنده أيضاً من العمى المانع للإبصار »(٢)

٣ — أن يقدر على ما قد يعجز عنه الآخرون ، لأنه مؤيد بقوة الله تعالى ، محاط برعايته ووقايته ، كما كان شأن المسلمين — كجماعة — حين أخلصوا فى إيمانهم بالله ورسوله ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فقهروا أعداءهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، مع كثرتهم الساحقة ، وأسلحتهم الموفورة ، وفى مثل ذلك يقول الله تعالى فى محكم كتابه :

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »(٣) :

أما شأنهم كأفراد : فقد سطر لهم التاريخ فى صفحاته من خوارق الأعمال ، ما تحار فيه الألباب ، من ذلك : ما ثبت وقوعه من خالد بن الوليد رضى الله عنه ، حين نزل « الحيرة » فجاءه عبد المسيح ابن بقيلة — من كبراء الاقليم — للتحدث معه حول شروط الصلح ، فرأى معه خالد كيساً صغيراً ، فلما سأله عنه قال : هو سم ساعة : : فقال خالد : ولم استصحبته ؟ فقال : حتى إذا رأيت مكروهاً فى قومى أكلته ، فالموت أحب إلى من ذلك ! !

فأخذ خالد — رضى الله عنه — السم فى يده وقال :

---

(١) جامع كرامات الأولياء : للنبهانى : ١ - ١٥٠ .

(٢) المصدر السابق : ١ - ١٥١ .

(٣) سورة الأنفال : آية ١٧ .

« إنه لن تموت نفس حتى تأتى على أجلها : : بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض والسماء ، الذى لا يضر مع اسمه داء ، الرحمن الرحيم » : : وأهوى إليه أمراء الجيش ليمنعوه ، فبادرهم فابتلعه ، فلما رأى ذلك ابن بقيلة قال : والله يا معشر العرب لتملكن ما أردتم ما دام منكم أحد (١) : : ! !

ومن هذا القبيل : ما روى عن سعد بن أبى وقاص — رضى الله عنه — فإنه حين سار لفتح المدائن — عاصمة كسرى ومستقر ملكه — اعترضته الدجلة ، وقد اسود لونها ،ورمت بالزبد من كثرة الماء فيها ، فطلب السفن للعبور عليها ، فلم يقدر على شىء منها : : فرأى رؤيا : أن خيول المسلمين اقتحمتها فعبرت : : ! !

واستبشر سعد — رضى الله عنه — برؤياه ، وعزم على تحقيقها ، معتمداً على وعد الله تعالى بالنصر لعباده ، ما صدقوا فى إيمانهم به ، واعتمادهم عليه : : فقام فى جيشه خطيباً ، فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه :

« إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه معه ، وهم تخلصون إليكم إذا شاءوا ، فيناوشونكم فى سفنهم ، وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه : : وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، إلا إنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » : : فقالوا جميعاً :

« عزم الله لنا ولك على الرشد : : فافعل »(٢) : . ! !

واقتحم سعد — رضى الله عنه — البحر بمن معه من الناس ، وأمرهم أن يقولوا عند دخول الماء : « نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » : : وجعل سعد — رضى الله عنه يقول :

« حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزمن عدوه ، إن لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات »(٣) . : ! !

وكان يساير سعدا فى الماء : سلمان الفارسى — رضى الله عنهما — فقال له :

« إن الإسلام جديد : : ذللت لهم والله البحور ، كما ذلل لهم البر ، أما والذى نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجا ، كما دخلوا أفواجا » (٤) : : ! !

وتحققت الكرامة : : فسار المسلمون فى البحر ، وكأنما يسيرون على وجه الأرض ، يتحدث بعضهم إلى بعض على وجه الماء ، لما استقر فى أعماقهم من الطمأنينة ، والثقة بوعد الله ، ونصره وتأييده ، وكان الفرس إذا أعيا وهو فى الماء يقيض الله له نشزا مرتفعاً يقف عليه فيستريح ، فى حين كان بعض الخيل ليسير ، وما يصل الماء إلى حزامها : : حتى خرج المسلمون من الماء ، لم يغرق منهم أحد ، ولم

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٦ - ٣٤٧ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٤ - ٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧ - ٦٤ .

(٣ ، ٤) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٤ - ١٠ — ١٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧ - ٦٥ - ٦٦ .

يفقدوا شيئاً من متاعهم(١) : : فكان يوماً عظيماً ، وكرامة باهرة ، حققها الله تعالى لعبده الرباني سعد ابن أبى وقاص ، وأصحابه المؤمنين الصادقين ، رضى الله عنهم أجمعين :

٤ — أن يعطيه الله بسؤاله ودعائه ، ما لا يعطيه للآخرين ، لأن مقتضى المحبة بين العبد وربه ؛ اتفاق هوى العبد مع إرادة الرب ، فهو لا يسأل إلا ما يرضيه ، ولا يطلب إلا ما قدره ، فكان من ذلك ، مسارعة المحب وهو الله تعالى إلى إرضاء محبوبه ، وهو العبد الربانى الذى فنت إرادته فى إرادة الله ، فأصبح هواه من هواه ، وإرادته من إرادته :

قيل لعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ان النيل لا يجرى قليلا ولا كثيراً ، حتى هم الناس بالجلاء ، لأن عمر رفض سنة أهل مصر فى إلقاء جارية بكر كل عام فى النيل ، ترضية له ، فلم يتردد الفاروق — رضى الله عنه — فبعث ببطاقة إلى عمرو بن العاص — والى مصر فى ذلك الحين — وأمره بإلقائها فى النيل ، وكان بها :

« من عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد : فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجرى ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » :

فأصبح الناس وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة(٢) : . ! !

٥ — أن يعيذه الله تعالى من كل شر يستعيذ به منه ، كيف لا وهو الحبيب إلى الله تعالى ، كما حدث لجعفر الصادق حفيد على زين العابدين رضى الله عنهما ، فقد أمر المنصور باستدعائه ، وقد عزم على قتله ، وبلغه ذلك فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم أدخل على المنصور وهو فى ثورة غضبه :: فلم يلبث المنصور ان قال له : فى حفظ الله وكلاءته ، وبعث فى آثره بجوائز حسنة ، وكسوة سنية ! !

وسئل جعفر الصادق : بأى شىء كنت تحرك شفتيك ، وكلما حركتهما سكن غضب المنصور ؟ قال : بدعاء جدى الحسين . فقيل له : وما هو ؟ قال :

« اللهم ياعدتى فى شدتى ، ويا غوثى عند كربتى ، أحرسنى بعينك التى لا تنام ، واكنفنى بركنك الذى لا يرام ، وارحمنى بقدرتك على ، فلا أهلك وأنت رجائى : . اللهم إنك أكبر وأجل وأقدر مما أخاف وأحذر ، اللهم بك أدرأ فى نحره ، وأستعيذ من شره ، إنك على كل شىء قدير »(٣) .

* * *

فكل هذه الأحوال كانت متحققة — ابتداء — فى سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — دون ما عبادة أو مجاهدة ، بثبوت حب الله تعالى له ، استجابة لدعاء حبيبه ورسوله — صلى الله عليه وسلم ، فكيف والحسين رضى الله عنه هو ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ؟ بل كيف وسيرة الحسين تقرر أنه كان فى مقدمة المتقربين إلى الله تعالى بالنوافل ؟ ؟ كيف هو القوام بالليل ، الصوام بالنهار ،

(١) تاريخ المرسل والملوك ، للطبرى : ٤/ ١٠ — ١٢ البداية والنهاية لابن كثير ٦٥٧—٦٥

(٢) جامع كرامات الأولياء ، للنبهات : ١ - ١٥٨ .

(٣) نور الأبصار فى مناقب آل النبى المختار للشبلنجى : ١٦١ .

الساعي إلى [illegible] على الأقدام ؟! كيف وهو المجاهد الصادق في سبيل الله بنفسه وماله ؟ ألا يكون من [illegible] هذا وغيره من أكرم الربانيين على الله تعالى ، الذى يسعون به ، ويبصرون به ، فهم على نور من ربهم ، وبينة منه فى جميع أحوالهم ؟ ؟ :

ان الحقيقة التى لا شك فيها ، هى ان الحسين رضى الله عنه كان ربانياً ، بكل ما فى الربانية من معانى وبكل ما ترمز له من أحوال . .

كان الحسين رضى الله تعالى عنه — ربانياً ، حينما رفض بيعة يزيد بن معاوية ، وآثر الخروج من المدينة ، إباء للذل والإرغام ، ووفاء بعهد الله وميثاقه . : وحينما اختار فى خروجه الطريق الأعظم إلى مكة ، دون ما خوف من مطاردة ، أو خشية من طلب ، بل أقسم أن لا يفارق ذلك الطريق ، حتى يقضى الله ما هو أحب إليه : .

وكان الحسين — رضى الله عنه — ربانياً حينما وصل مكة فقال لأميرها : جئنا عواذاً بالبيت ، ثم آثر أن يخرج منها إشفاقاً على البلد الحرام أن يكون سبباً فى أن تستحل حرمته ، وعلى البيت الحرام أن تهدر قدسيته . . ورفض كل رجاء قدم إليه للبقاء بها ، مؤثراً التضحية بنفسه والمخاطرة بحياته ، على أن تصاب أم القرى بأى سوء ، أو تنالها أية مهانة : :

وكان الحسين — رضى الله عنه — ربانياً حينما أخبر بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقتل الحسين بأرض بابل » فلم يصرفه ذلك عن المسير إليها ، وقال « فلا بد إذن من مصرعى » : : ! !

وكان الحسين — رضى الله عنه — ربانياً حينما لحق به عبد الله بن جعفر — رضى الله عنهما — بعد خروجه بأيام من المدينة — ومعه كتاب أمير المدينة بالأمان له ، فأبى أن يرجع وقال لهم : « إنى رأيت رؤيا : ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم آمرنى بأمر ، وأنا له ماض ، على كان أولى » :

وكان الحسين — رضى الله عنه — ربانياً ، حينما علم بمقتل مسلم بن عقيل — رضى الله عنه — ونقض أهل الكوفة لعهدهم ، فصارح من حوله بالموقف ، وأذن لهم بالانصرف ، وأبى مع ذلك إلا مواصلة الطريق ، دون مبالاة بانفضاض الناس من حوله ، وانقلاب أهل الكوفة عليه :

وكان الحسين — رضى الله عنه — ربانياً ، حينما أمر فتيانه ، بتقديم الماء إلى أعدائه ، ورشف خيلهم ، وملء أوانيهم . : حتى رووا وسقوا الخيل ، وأخذوا حاجتهم من الماء ، وهو يعلم أن فى ذلك تقوية لهم على قتاله : : ! !

وكان الحسين — رضى الله عنه — ربانياً ، حينما عرض عليه الطرماح بن عدى ، نصرة عشرين ألفاً من طيء ، فى الوقت الذى كان عدة من معه دون المائة ، يقابلهم بضعة آلاف بين فارس وراجل ، ومع ذلك ، أبى الحسين — جزاه الله عن أمة محمد خير الجزاء — هذه النصرة ، ضناً بدماء المسلمين أن تسفك فى فتنة داخلية ، تبدد قوتهم ، وتمزق شملهم : . فشكر الطرماح مروءته ، ودعا له قائلا : « جزاك الله وقومك خيراً »(١) :

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٠٦ ، البداية النهاية لابن كثير : ٨ - ١٧٤ .

وكان الحسين - رضى الله عنه - ربانياً ، حينما خفق برأسه خفقة خلال مسيره ، ثم انتبه فأخذ يردد « إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين » : : فلما سأله ابنه على الأكبر قائلا :

« يا أبت : جعلت فداك : مم حمدت الله واسترجعت ؟ » قال :

« رأيت فارساً على فرس يقول : القوم يسيرون والمنايا تسرى إليهم ، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا » فقال له الابن البار :

يا أبت : لا أراك الله سوءاً ، ألسنا على الحق ؟ قال : بلى والذى إليه مرجع العباد ، قال : يا أبت : إذا لا نبالى ، نموت محقين ، فقال الحسين رضى الله عنه ، وقد قرت عينه بكلام ابنه :

« جزاك الله خير ما جزى ولدا عن والده »(١) :

وواصل سيد شباب أهل الجنة - رضى الله عنه - المسير ، راضى النفس ، مطمئن القلب ، إلى قدره المقدور ، ومصيره المحتوم :

وكان الحسين - رضى الله عنه - ربانياً ، حين جلس أمام بيته محتبياً بسيفه ، وقد أجهده التعب ، وأنهكه السفر ، فخفق برأسه على ركبتيه ، وسرت روحه الطاهرة إلى الملأ الأعلى ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فأكد له أمره السابق إليه ، وكرر له البشرى بالشهادة المقدرة عليه ، وقال له : « إنك تروح إلينا »(٢) ! !

وكان الحسين - رضى الله عنه - ربانياً ، حينما حل وقت الظهر ، والمعركة بينه وبين جند ابن زياد على أشدها : : وبالرغم من الفارق الشاسع فى العدد والعدة ، بين الحفنة المؤمنة ، التى عاهدت ربها على نصرة الحق ، أو الموت دونه ، وبين الجموع الكثيفة التى تواجهها : : بالرغم من كل ذلك : فقد أبت ربانية الحسين - رضى الله عنه - إلا أن يؤدى الصلاة فى ميقاتها ، فصلى بأصحابه صلاة الخوف ، ثم استأنفوا القتال بعد ذلك ، وهم أشد قوة : : وأثبت قدماً ! !

وأخيراً : : كان الحسين - رضى الله عنه - ربانياً ، حينما أسرف القوم فى عدوانهم عليه ، وقابلوا سخاءه بالماء لهم ، بمنعه عنه ، وحرمان أطفاله ونسائه منه ، حتى إذا ما حاول أخذ غرفة من الفرات ، رماه أحد الأشقياء بسهم فى حنكه ، فانتزعه الحسين - رضى الله عنه - ففار الدم غزيراً ، فلم يتمالك - رضى الله عنه - أن دعا عليهم دعاء بليغاً ، وقال :

« اللهم احصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تذر على الأرض منهم أحداً »(٣) :

وقد استجاب الله تعالى لعبده الربانى ، وفاء بوعده : « : : ولئن دعانى لأجيبنه » : : فآذن أعداءه بالحرب ، فلم ينج منهم أحد - رغم كثرتهم - فقصفت أعمارهم ، واجتثت أصولهم ، ودالت دولتهم ، واستمرت نقمة الله تلاحق ذريتهم ، وقيل بعداً للقوم الظالمين ! !

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٠٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٧٤ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤١٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٧٦ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٤٩ .

عن جلال الدين السيوطي — رحمه الله — في المحاضرات والمحاورات : قال :

« حصل بالكوفة جدري في بعض السنين ، عمي فيه ألف وخمسمائة من ذرية من حضروا قتل الحسين رضي الله عنه »(١) .

خاتمة عن سيد شباب اهل الجنة :

وبعد : فقد كان الحسين — رضي الله عنه — معظماً موقراً ، شهماً عالي الهمة ، نبيلاً في معاملاته لأصحابه وأعدائه على السواء ، مباركاً أينما حل ، مر في خروجه من المدينة بابن مطيع ، يحفر بئراً ، وإذا ماؤها مالح ، فتناول — رضي الله عنه — شربة منه ، تمضمض بها ، ثم ردها إلى البئر ، فعذبت ماؤها(٢) .

وبركة الحسين عليه السلام : مستمرة في ذريته بإذن الله إلى يوم القيامة ، ومن هذه الذرية المباركة : يكون المهدي في آخر الزمان .

فعن حذيفة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد ، لطول الله ذلك اليوم ، حتى يبعث رجلا من ولدي ، اسمه كاسمي » فقال سلمان : من أي ولدك يارسول الله ؟ قال : « من ولدي هذا » . وضرب بيده على الحسين »(٣) .

وكان رضي الله عنه — نوراً على نور ، يحبه كل من يراه ، ويهابه في آن واحد ، لما يسطع فيه من نور النبي صلى الله عليه وسلم وهيبته ، ولما كان عليه من شبه عظيم به ، في خلقة وخلقه .. حتى لقد عرف حبه للطيب ، شأنه في ذلك .. شأن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ورد في أخبار استشهاده ، أنه أمر بفسطاط ضرب له ، ثم دعا بمسك فيث في جفنة عظيمة ، ثم دخل — رضي الله عنه — فتطيب وتطلى بالنورة(٤) .. استعداداً للموت ، والقدوم على الله تعالى .

وكان نقش خاتمه — رضي الله عنه — « حسبي الله » ، وقيل : كان نقشه : « ان الله بالغ أمره » .. وروى أنه كان : « لكل أجل كتاب » .

وكانت إقامته — رضي الله عنه بالمدينة المنورة ، إلى أن خرج في صحبة والده إلى الكوفة ، فلازمه حتى استشهد ، ثم ظل بجوار شقيقه الحسن — رضي الله عنهما — إلى أن تنازل عن الأمر لمعاوية فتحول الحسين مع أخيه إلى المدينة ، واستمر بها حتى ولي يزيد الخلافة ، فخرج منها إلى مكة عائذاًبالبيت، ثم خرج من مكة خشية أن تستحل به .

---

(١) نور الأبصار ، في مناقب آل بيت النبي المختار ، للشبلنجي : ص ١٥٢ .

(٢) التاريخ الكبير لابن عساكر : ٤ - ٣٢٣ .

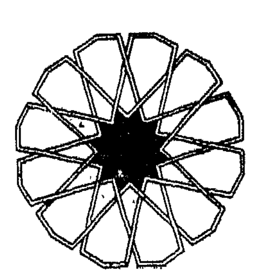
(٣) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ، للمحب الطبري : ص ١٣٧ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبري : ٥ - ٤٢٣ .

الفصل الخامس

« ان رأس الامام الحسين ـ رضى الله عنه ـ حقيقة فى المشهد الحسينى قريبا من خان الخليلى وان « طلائع ابن رزيك » وضعها فى القبر المعروف بالمشهد » ..

« الشعرانى : عن شيخه الخواص رضى الله عنه » .



رأس سيد شباب أهل الجنة وقبره

اختلاف المؤرخين حول مكان الرأس :

أين يوجد رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة ؟ وأين استقر به الترحال ، بعد إرساله إلى عبيد الله بن زياد ، ثم إلى يزيد بن معاوية طبقاً لما هو مشهور عند أهل التاريخ والسير ؟

وبعد ذلك : يبدأ الخلاف بين المؤرخين حول مصير الرأس الشريف .

١ – فأما محمد بن سعد فيروى « أن يزيد بعث بالرأس إلى عمرو بن سعيد بن العاص – نائب المدينة ، فدفنه عند قبر أمه الزهراء ، وأخيه الحسن – رضى الله عنهما – بالبقيع »(١) .

٢ – وقد اعتمد القرطبي على هذا القول ، وأخذ به ابن بكار ، والعلامة الهمداني وغيرهما(٢) .

٣ – وذهبت الإمامية إلى أن الرأس أعيد إلى الجثة ، حيث دفن بكربلاء ، بعد أربعين يوماً من استشهاد الحسين رضى الله عنه(٣) .

٤ – وذكر ابن أبي الدنيا : أن الرأس الشريف ظل فى خزانة يزيد حتى توفى ، فأخذ من خزائنه وكفن ، ودفن داخل باب الفراديس الثانى من مدينة دمشق ، ويعرف مكانه اليوم بمسجد الرأس(٤) .

٥ – وذكر ابن عساكر فى تاريخه ، أن يزيد حين وضع رأس الحسين بين يديه : نصبه بدمشق ثلاثة أيام ، ثم وضع فى خزائن السلاح ، حتى كان زمن سليمان بن عبد الملك ، فجيء به إليه – وقد بقى عظماً ابيض – فكفنه وطيبه ، وصلى عليه ، ودفن فى مقبرة المسلمين ، فلما جاءت المسودة – يعنى بنى العباس – نبشوه ، وأخذوه معهم(٥) .

٦ – وذكر ابن كثير « أن الفاطميين أدعوا أن رأس الحسين – رضى الله عنه – وصل إلى الديار المصرية ، ودفنوه بها ، وبنوا عليه المشهد المشهور به ، بعد سنة خمسمائة ، وقد نص غير واحد من أهل العلم على أنه لا أصل لذلك ، وإنما أرادوا أن يروجوا بذلك بطلان ما أدعوه من النسب الشريف(٦) » .

مزاعم ابن تيمية . . والرد عليها :

٧ – وممن انكر وجود رأس الحسين – عليه السلام – بالقاهرة : ابن تيمية ، وله فى ذلك مقال طويل ضمن الرسائل المعروفة باسمه ، ذكر فيه أن أهل العلم اتفقوا على أن (مشهد عسقلان) محدث بعد قتل الحسين بأكثر من ٤٣٠ سنة ، وأن مشهد القاهرة : محدث بعد مقتله بقريب من ٥٠٠ سنة .

ثم بنى على ما تقدم قوله :

« وإذا كان أصل المشهد القاهرى : منقولا عن ذلك المشهد العسقلانى باتفاق الناس ، وبالتواتر ، فمن المعلوم أن قول القائل : إن ذلك الذى بعسقلان مبنى على رأس الحسين – رضى الله عنه – قول بلا

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٢٠٤ .

(٢ ، ٣) نور الأبصار ، للشبلنجى : ص ١٤٧ .

(٤ ، ٥ ، ٦) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٢٠٤ .

حجة أصلا ، فإن هذا لم ينقله أحد من أهل العلم والدين الذين من شأنهم نقل هذا . . فاضافة مثل هذ إلى الحسين ، قول بلا علم أصلا ، ولا فرق بين ذلك وبين أن يجيء الرجل إلى بعض القبور ، فيدعي أن في واحد منها رأس الحسين ، أو نبياً من الأنبياء ، أو نحو ذلك مما يدعيه كثير من أهل الكذب والضلال وغالب ما يستند الواحد من هؤلاء : أن يدعى أنه رأى مناماً ، أو علامة تدل على صلاح ساكن القبر : أما رائحة طيبة ، وأما توهم خرق عاده ، ونحو ذلك . . : ورائى المنام غالباً ما يكون كاذباً ، وبتقدير صدقه : فقد يكون الذى أخبره بذلك شيطان »(١) ! ! : ثم يقول :

« وكان من الشيوخ المشهورين بالعلم والدين بالقاهرة : من ذكروا عنه أنه قال : هو قبر نصراني . . وهذا غير مستبعد ، فان اليهود والنصارى هم السابقون فى تعظيم القبور والمشاهد »(٢) !

« وإذا كان ذلك المشهد : قد قالت طائفة : إنه قبر بعض النصارى أو بعض الحواريين ، وليس معنا ما يدل على أنه قبر لرأس الحسين ، كان قول من قال أنه قبر الحسين ، قولا زوراً ، وكذباً مردوداً على قائله ، فهذا كاف فى المنع من أن يقال : هذا مشهد الحسين » (٣) ! :

وقد أخطأ ابن تيمية فى استنتاجاته هذه من عدة وجوه : منها :

أولا : إن عدم تناقل أحد من أهل العلم والدين فى نظر ابن تيمية للقول بوجود الرأس فى عسقلان لا يكفى للدلالة على أنه قول بلا حجة أصلا ، فان استشهار وجود الرأس بعسقلان بين جمهور المسلمين ، وعدم ظهور من ينكر ذلك ، قبل بناء عسقلان أو بعده ، إلى أن تم نقله إلى القاهرة فى مشهد عظيم ، يحف به العلماء والأمراء والكبراء . . كل ذلك ولا شك أقوى دلالة على وجود الرأس الشريف ، من النفى الذى ذهب إليه ابن تيمية دون أى دليل أو برهان :

ثانياً : إن قوله بأن « رائى المنام غالباً ما يكون كاذباً ، وإن صدق فقد يكون الذى أخبره بذلك شيطان » هو قول لا تقوم به حجة ، واحتمال يقبل عكسه ، بأن يكون الرائى صادقاً ، وأن تكون رؤياه من الملك لا من الشيطان ، وقد قال الله تعالى فى محكم كتابه :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين »(٤) ، وقد تحققت الرؤيا ، وصدق الله ورسوله .

كما أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء فى حديثه : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، الرؤيا الصالحة »(٥) وفى رواية أخرى « الرؤيا الصالحة : جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »(٦) ، وفى حديث ثالث : « الرؤيا الصالحة من الله . . والحلم من الشيطان »(٧) .

(١) مجموعة رسائل ابن تيمية : ص ٨ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٠ .
(٣) المصدر السابق : ص ١٤ .
(٤) سورة الفتح : آية ٢٧ .
(٥) صحيح البخارى : عن أبى هريرة رضى الله عنه .
(٦) البخارى ومسلم وغيرهما : عن أبى سعيد وابن عمر رضى الله عنهما .
(٧) رواه الأربعة ، من حديث قتادة رضي الله عنه .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يصف الرؤيا بالصلاح .. ويقرر أنها من الله تعالى ، بشارة منه بخير ، أو إنذار منه بخلاف ذلك ، كما يقرر أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، بينما ابن تيمية يصف الرؤيا ـ غالباً ـ بالكذب ، ولا يذكر إلا أنها قد تكون من الشيطان ، ليبرر بذلك ظنونه و أوهامه ، التي عجز عن تدعيمها بالدليل القاطع ، أو البرهان الساطع .

ثالثاً : أنه فى قوله « « إن من الشيوخ المشهورين بالعلم والدين من قالوا : هو قبر نصرانى » وقد وقع فى أشد مما أنكره على القائلين بوجود الرأس بعسقلان ، من أنهم لم ينقلوا ذلك عن أحد من أهل العلم والدين ، فانه كذلك : لم يقدم على صحة قوله هذا برهاناً واحداً أو قرينة واحدة ، ولم يذكر لنا اسم واحد من هؤلاء الشيوخ المشهورين بالعلم والدين ، الذين قرروا أن القبر الذى ظل المسلمون يعظمونه ويجلونه مئات السنين بعسقلان ، كان قبر نصرانى ، كما أنه لم يذكر لنا دليلا واحداً من أدلة الشيوخ المزعومين المشهورين بالعلم والدين ، على أن القبر قبر نصرانى ، لا قبر رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أجمعت الأمة على ذلك جيلا بعد جيل .

رابعاً : إن قوله بعد ذلك : إنه إذا قالت طائفة « إنه قبر بعض النصارى أو الحواريين ، وليس معنا ما يدل على أنه قبر رأس الحسين .. » الخ .. هذا القول مغالطة لا دليل عليها ، لأن الحقيقة الواقعة عكس ذلك ، فليس لدى ابن تيمية ما يدل على أن المشهد الذى كان بعسقلان ، هو قبر بعض النصارى أو الحواريين ، فى حين أن الأمة كلها كانت تقرر أنه قبر رأس الحسين رضى الله عنه ، ولا يقلل من جدية هذه الدلالة أن بناء المشهد جاء متأخراً بعد مقتل الحسين بأربعمائة سنة ، فكم من الصحابة والصالحين والشهداء لم تبن مشاهدهم بصورتها الأخيرة إلا بعد وفاتهم بمئات السنين .

وعلاوة على ما تقدم . فان الكثيرين من أكابر العلماء والمؤرخين ، الذين جاءوا بعد ابن تيمية أو كانوا قبله : لم ينكروا وجود الرأس الشريف بعسقلان ، قبل نقله إلى القاهرة ، بل جاءت رواياتهم وأقوالهم مؤكدة لوجوده ، من هؤلاء :

٨ ـ ما ذكر الفارابى من أن رأس الحسين ـ رضى الله عنه ـ بقى بعسقلان حتى سنة تسع و أربعين وخمسمائة .. فقويت الأفرنج على أهل مصر ، وعزموا على منازلة عسقلان ، فخرج خليفة مصر بنفسه وصحبه إلى عسقلان ـ وكان الظافر ابن الحافظ عبد المجيد ـ فحمل الرأس ملفوفاً فى صندوق على صدره ، من عسقلان إلى مصر وبنى عليه مشهداً عظيماً »(١) .

٩ ـ وذكر على بن أبى بكر ، المشهور بالسائح الهروى ، والمتوفى سنة ٦١١ فى « الإشارات إلى أماكن الزيارات » عند الكلام عن عسقلان : « وبها مشهد الحسين ـ رضى الله عنه ـ كان رأسه بها ، فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون إلى مدينة القاهرة فى سنة ٥٤٩ من الهجرة »(٢) .

١٠ ـ وذكر ابن أياس أنه : « فى أيام الفائز نقلت رأس الحسين من عسقلان إلى القاهرة سنة ٥٤٩ هـ »(٣) . وذكر ابن بطوطة فى رحلته إلى عسقلان ما يشبه ما سبق .

---

(١) تاريخ ميارافين وآمد للفارابى : ص ٧٠ .

(٢) رحلة الهروى ص ٣٧ (نسخة دار الكتب) .

(٣) تاريخ ابن اياس : ١ - ٦٧ .

١١ — وقال المقريزى : « وكان حمل الرأس إلى القاهرة من عسقلان ، ووصوله إليها ، فى يوم الأحد ، الثامن من جمادى الآخرة ، سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وكان الذى وصل بالرأس من عسقلا الأمير سيف المملكة تميم — واليها — والقاضى المؤتمن بن مكين ، وحصل فى القصر يوم الثلاثاء عاش جمادى الآخرة . وقال نقلا عن ابن عبد الظاهر : وذلك فى خلافة الفائز ، على يد طلائع فى س ٥٤٠ هـ »(١) .

* * *

ويتضح مما تقدم : مدى الاختلاف بين أقوال المؤرخين ، حول مكان الرأس الشريف وإن كا الملاحظ أن المتأخرين منهم ، كابن كثير والمقريزى قد رددوا الرواية المتعلقة بنقله إلى القاهرة ، وإن كا ابن كثير ذكر فى روايته أنه لا أصل لذلك ، ولكن غيره لم ينكره .

أجماع أهل الحقيقة على وجود الرأس :

أما أهل الحقيقة وأئمة التصوف ، فانهم يجمعون على أن رأس الحسين — عليه السلام — قد استقر به الترحال فى النهاية ، فعلا . فى مكانه الحالى ، بالمشهد الحسينى بالقاهرة ، وهم بذلك يدعمون قول بعض المؤرخين المتأخرين كالمقريزى وغيره .

١ — فقد أورد المناوى فى طبقاته ، قال : ذكر لى بعض أهل الكشف والشهود ، أنه حصل ل أطلاع على أن الرأس دفن مع الجثة بكربلاء ، ثم ظهر بعد ذلك بالمشهد القاهرى ، وذكر أنه خاطب منه(٢) .

وواضح أن هذا القول قد جمع بين رأى الإمامية القائل بدفن الرأس بكربلاء ، وبين قول المقريزى ومن نحا نحوه بنقل الرأس إلى القاهرة .

٢ — وقال الشيخ على الأجهورى فى رسالة : فضائل عاشوراء «ذهب جمع من أهل التاريخ إلى دفن الرأس بالمشهد المصرى المعروف ، وكذا جمع من أهل الكشف ، قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى كتاب طبقات الأولياء ، عند ذكره الحسين — عليه السلام : « دفنوا رأسه فى بلاد المشرق ، ثم رشا عليها طلائع ابن رزيك بثلاثين ألف دينار ، ونقلها إلى مصر ، وبنى عليها المشهد الحسينى ، وخرج هو وعسكره حفاة إلى نحو الصالحية من طريق الشام ، يتلقون الرأس الشريف ، ثم وضعها طلائع فى كيس أخضر ، على كرسى آبنوس .. وفرشوا تحتها المسك والعنبر والطيب »(٣) ..

٣ — وذكر العارف بالله العلامة الشعرانى فى « المنن » ما نصه :

« أخبرنى — يعنى شيخه القطب الربانى الشيخ على الخواص رضى الله عنه — أن رأس الإمام الحسين

---

(١) خطط المقريزى ، للعلامة المؤرخ تقى الدين أحمد بن على المقريزى : ٢ - ٢٨٤ .
(٢) نور الأبصار فى مناقب آل النبى المختار : للشبلنجى : ص ١٤٧ .
(٣) نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار للشبلنجى : ص ١٤٨ .

رضى الله عنه ، حقيقة فى المشهد الحسينى ، قريباً من خان الخليلى ، وأن طلائع ابن رزيك وضعها فى القبر المعروف بالمشهد فى كيس أخضر »(١) .. إلى آخر ما ذكر قبل ذلك .

٤ — وذكر الشعرانى أيضاً فى موضع آخر من « المنن » قال :

« زرت مرة رأس الحسين — رضى الله عنه — بالمشهد ، أنا والشيخ شهاب الدين بن الجابى الحنفى ، وكان عنده توقف فى أن رأس الإمام الحسين فى ذلك المكان ، فثقلت رأسه فنام ، فرأى شخصاً كهيئة النقيب طلع من عند الرأس ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما زال بصره يتبعه حتى دخل الحجرة النبوية ، فقال : يارسول الله : أحمد بن الجلبى ، وعبد الوهاب زارا قبر رأس ولدك الحسين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم تقبل منهما واغفر لهما » .. ومن ذلك اليوم : ما ترك الشيخ الشيخ شهاب الدين زيارة الرأس إلى أن مات ، وكان يقول : « آمنت بأن رأس الحسين هنا »(٢) .

٥ — وذكر شيخ الإسلام نجم الدين الغيطى ، نقلا عن شيخ الإسلام شمس الدين اللقانى — شيخ السادة المالكية فى عصره — أنه كان جالساً يوماً بالأزهر ، مع القطب الكبير الشيخ أبى المواهب التونسى . وإذا به يقوم مستعجلا ، فتبعه الشيخ شمس الدين وهو لا يشعر ، إلى أن وصل إلى المشهد المبارك ، فوجد إنساناً واقفاً على باب الضريح الشريف ، ويداه مبسوطتان بالدعاء ، فلما فرغ ومسح على وجهه بيديه : رجع الشيخ أبو المواهب ، فأخبره اللقانى بأنه تبعه فى ذهابه إلى المسجد الحسينى ، وسأله عن سبب ذلك ، فقال له : ما رأيت ؟ قال : رأيت إنسانا واقفا على باب الضريح يدعو وقد وقفت خلفه ، فوقفت خلفكما أدعو أيضاً ، فقال : أبشر يا شمس الدين ، فان جميع ما دعوت به استجيب لك : : قال : ومن هذا الرجل ؟ قال : القطب الغوث الجامع ، يأتى كل يوم — أو قال كل يوم ثلاثاء — فيزور هذا المشهد ، فلما وقع عندى مجيئه فى ذلك الوقت ، قمت إليه وحضرت معه الزيارة وقبلت يده فالزم ذلك يحصل لك خير ، فما زال الشيخ شمس الدين اللقانى يزور ذلك المكان إلى أن مات رحمه الله(٣) .

٦ — ونقل عن الشيخ الجليل أبى حسن التمار رضى الله عنه ، أنه كان إذا دخل الضريح يقول : السلام عليكم ، فيسمع الجواب : وعليك السلام يا أبا الحسن ، فجاء يوماً من الأيام فسلم ، فلم يسمع الجواب برد السلام ، فزار ورجع ، ثم جاء مرة أخرى ، فسمع الجواب برد السلام ، فقال ياسيدى : جئت بالأمس فسلمت فما سمعت جوابا ، فقال : يا أبا حسن لك المعذرة !! كنت أتحدث مع جدى صلى الله عليه وسلم ، فلم أسمع كلامك(٤) .

٧ — وأخبر العلامة الشيخ فتح الدين أبو الفتح الغمرى الشافعى : أنه كان يتردد إلى الزيارة غالباً ، فجلس يوماً يقرأ الفاتحة ، ودعا ، فلما وصل فى دعائه : وأجعل ثواباً مثل ذلك فى صحائف سيدنا الحسين — رضى الله عنه — حصلت له حالة ، فنظر فاذا .. بشخص جالس على الضريح ، وقع عنده أنه سيدنا الحسين رضى الله عنه ، فقال : فى صحائف هذا .. وأشار بيده إليه ، فلما أتم الدعاء ، ذهب

(١ ، ٢) المصدر السابق : ١٤٨ .

(٣ ، ٤) نور الأبصار ، للشبلنجى : ص ١٤٨ .

إلى الشيخ الجليل عبد الوهاب الشعرانى — رضى الله عنه — فأخبره بذلك ، فقال له الشيخ : صدقت : وأنا وقع لى مثل ذلك : : ! ! ثم ذهب إلى الشيخ كريم الدين الخلوتى — رضى الله عنه — فأخبره بذلك ، فقال له الشيخ كريم الدين : صدقت ، وأنا ما زرت هذا المكان إلا باذن من النبى صلى الله عليه وسلم(١) :

وبوجه عام : فان أقوال أكابر المحققين من أهل التقوى ، وأصحاب الكشف والشهود — وهى أكثر من أن تحصى — تجمع كلها على وجود الرأس الشريف بالمشهد الحسينى الحالى بالقاهرة :

* * *

والذى نراه : بعد هذا العرض الموجز ، لروايات المؤرخين ، وأقوال العارفين المحققين ، أنه ليس هناك أى مبرر لإنكار وجود الرأس الشريف ، بالمشهد المعروف ، لا سيما وأنه ليس لدى المنكرين أى دليل قاطع على عدم وجوده فى المشهد المذكور ، ولا أى دليل على وجوده فى مكان آخر ، فقد جاءت روايات المؤرخين عن مصير الرأس الشريف مختلفة كل الاختلاف ، فابن سعد يقول : إن الرأس مدفون بالبقيع بالمدينة المنورة ، وابن أبى الدنيا يقول بدفنه فى باب الفراديس بدمشق ، وابن عساكر يقرر أنه كان مدفوناً فى مقبرة للمسلمين نبشها العباسيون وأخذوه معهم ، فى حين نجد أن المقريزى وآخرون يرون أنه نقل من عسقلان إلى القاهرة . .

الاختلاف حول نسب الفاطميين :

فاذا أضفنا إلى ما تقدم : أن بعض المنكرين لوجود رأس الحسين — عليه السلام — بالقاهرة ، فقد بنوا إنكارهم على ما ذكره بعض الرواه ، من أن الفاطميين جاءوا برأس فوضعوه فى مكان المشهد الحالى ، وقالوا : هذا رأس الحسين ، ليروجوا بذلك ما ادعوه من النسب الشريف : : الخ . :

ونقول : ان صحة نسب الفاطميين للسيدة فاطمة الزهراء ، رضى الله عنها ، أو عدم صحته ، لا ينهض دليلا على أن الرأس الموجود ليس رأس الحسين — رضى الله عنه — لأن الفاطميين لو كانوا كاذبين فى أدعائهم النسب الشريف ، فان ذلك لا يمنع من سعيهم فى نقل الرأس الشريف إلى القاهرة ، لو أمكن ذلك ، تثبيتاً لنسبهم المزعوم ، وتدعيماً لسلطانهم السياسى ، وان كانوا صادقين فى هذا النسب ، فانهم من باب أولى يكونون أشد حرصاً على ذلك :

على أن مسألة نسب الفاطميين — التى اتخذها البعض سبيلا للشك فى حقيقة الرأس الموجود بالمشهد الحسينى : : هذه المسألة مختلف فيها ومن أكابر المؤرخين من يرى صحة نسبهم للبيت المطهر :

فقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه : إنه ناقش مسألة نسب الفاطميين مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب ، فلم يرتابوا فى أن الفاطميين ممن أبناء على وفاطمة رضى الله عنهما(٢) :

وذكر المقريزى ما يدل — فى نظره — على صحة نسب الفاطميين إلى فاطمة الزهراء — رضى الله عنها — فقال :

---

(١) المصدر السابق : ص ١٤٨ .

(٢) الكامل ، لابن الأثير : ٨ - ١٢٨ .

« وكفاك بكتاب المعتضد – من خلائف بنى العباس – حجة ، فانه كتب فى شأن عبيد الله ، إلى ابن الأغلب بالقيروان ، وابن مدرار بسجلماسة ، بالقبض على عبيد الله ، فتفطن لصحة هذا الشاهد ، فان المعتضد – لولا صحة نسب عبيد الله عنده : ما كتب لمن ذكرنا بالقبض عليه ، فلو كان من الأدعياء ؛ لما مر بفكره الإمامة على ضيعة من ضياع الأرض »(١) .

* * *

رفض الشك . . والأخذ باليقين :

فهذا الاختلاف بين المؤرخين حول مكان الرأس الشريف ، يجعل القول بوجوده بالقاهرة جديراً بكل اعتبار ، لا سيما وقد تأيد هذا القول بشهادة أهل الكشف والحقيقة بالإجماع ، رغم تباعد عصورهم ، واختلاف مشاربهم ، فضلا عن استحالة تواطئهم على الكذب ، وفيهم أمثال الخواص والشعرانى ، ممن لا ينكر مقامهم ، ولا تجهل ربانيتهم ، ولا يشك فى صدقهم وإخلاصهم :

وإذا تعارض الشك واليقين : فالذى يقره المنطق السليم ؛ هو رفض الشك ، والأخذ باليقين :

وقد تخفى هذه المعانى – بمقدار أو بآخر – على كثير من الناس ، ولكن الذى لا شك فيه ، ولا يستطيع إنكاره إلا أهل العناد والحجاب ، أن هؤلاء القوم من أهل الحقيقة ، لديهم من المعارف والأسرار ، ومن الإدراك والأنوار ، ما ليس لغيرهم ، وما يمكنهم به إدراك ما لا يدركه الآخرون ، ومعرفة الحقيقة بما قصر عن معرفته الغافلون ، وتلك هى عاقبة التقوى ، وثمرة المجاهدة : قال تعالى :

« واتقوا الله . . ويعلمكم الله(٢) »

وقال عز وجل :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا(٣) » :

ولله در من قال :

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يرى للناظرين

ولسنا هنا فى مقام التحدث والإفاضة فى مثل هذه المواضيع ، ولكن يكفى لإعطاء صورة عنها ، أن يعلم المنكرون لفضل الله على من اجتباهم مولاهم ، أن الشيخ الشعرانى الذى بلغ القمة فى علوم الفقه والحديث والتفسير واللغة والأصول وغيرها ، كان أستاذه بعد ذلك فى سلوك طريق الحق والشهود : هو الشيخ على الخواص ، الذى يقول عنه الشعرانى : « ان من منن الله عليه أن كان وصوله وفتحه على يد أمى لا يعرف القراءة والكتابة »(٤) : ثم يقول فى وصف ذلك الأمى :

« رجل غلب عليه الخفاء ، فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم إلا العلماء العاملون ، لأنه رجل كامل عندنا بلا شك ، والكامل إذا بلغ مقام الكمال فى العرفان ، صار غريباً فى الأكوان »(٥) :

---

(١) الخطط للعلامة المؤرخ تقى الدين المقريزى : ١ - ٣٤٩ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٢ .

(٣) سورة العنكبوت : آية ٦٩ .

(٤ ، ٥) الشعرانى والتصوف الإسلامى ، للأستاذ طه عبد الباقى سرور : ص ٣٠ .

شعور المخلصين في رحاب الحسين :

والذى لا شك فيه أن تلكم القوة الخفية التى تدفع بالمسلمين من كل فج عميق ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، إلى الخروج أفراداً وجماعات ، خلال مئات السنين ، وفى كل وقت وحين ، متجشمين الصعاب ، ومفارقين الأهل والأحباب ، دون ما سابق دعوة أو اعلام ، ودون ما رهبة من قسر أو إرغام ، أو طمع فى أجر أو إنعام ، قاصدين عاصمة الكنانة ، فى جموع حاشدة ، وألوف مؤلفة ، تحية منهم لأكرم الشهداء ، وتعبيراً له عن صادق الحب والوفاء ، وإعلاناً منهم : أنه رغم انقضاء مئات السنين والأعوام ، على استشهاد حفيد أشرف الأنام ، وسيد شباب أهل الجنان ، فإنه ما زال يحتل من نفوسهم : اسمى مكانة ، وأرفع مقام :

إن هذه القوة الخفية ، لا يمكن أن يكون مصدرها الوهم والخيال : : إنما هى أقطع دليل على أن ذلكم المشهد المقدس ، يضم حقيقة واقعة ، لها إشعاعاتها التى يلمسها المخلصون بقلوبهم ، ويراها الصادقون بعين بصائرهم ، وإن غابت عن أعين بعض من الناس وأبصارهم :

هذه القوة الخفية ، التى لها ذلكم التأثير القاهر ، مصدرها بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تلك هى رأس الحسين عليه السلام ، وتلك هى التى تجذب إليها الناس يلتمسون البركة فى رحابها ، ويطمعون فى الإجابة تحت قبتها :

وإن الذين حظوا بزيارة الروضة الشريفة ، بالمدينة المنورة ، وشرفوا بالمثول بين يدى سيد الأنبياء والمرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، ليشرون خلال زيارتهم للمشهد الذى يضم رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما يذكرهم بشعورهم وهم فى رحاب الرسول صلى الله عليه وسلم من هيبة لشخصه ، وإجلال لسيرته ، وتعظيم لذكراه ، ويلمسون هنا بعض ما لمسوه هناك ، من أنوار تشع بها روضته ، ورحمات تفيض بها ساحته : : وغير ذلك ، مما لا يمكن صدوره إلا عن روح كريم لها مقامها عند الله : : ولها هيبتها فى النفوس ، وتأثيرها فى الأرواح .

عن موسى بن على الرضا بن جعفر قال : سئل جعفر بن محمد عن زيارة قبر الحسين — رضى الله عنه — فقال : « أخبرنى أبى أن من زار قبر الحسين عليه السلام عارفاً بحقه ، كتب الله له فى عليين »(١)

وقال : « إن حول قبر الحسين — عليه السلام — سبعين ألف ملك شعثاً غبرا ، يبكون عليه إلى يوم القيامة »(٢) :

قبر الحسين — رضى الله عنه — بكربلاء :

أما فيما يتعلق بجسد الحسين — رضى الله عنه — فلا يكاد يوجد خلاف حول الموضع الذى دفن فيه ، فإنه بعد انصراف عمر بن سعد بن أبى وقاص إلى الكوفة ، ومعه بقية أهل البيت من النساء والصبيان ،

(١) ذخائر العقبى ، فى مناقب ذوى القربى ، للمحب الطبرى : ص ١٥١ .

(٢) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى : ص ١٥١ .

تاركاً خلفه أشلاء الشهداء مبعثرة فى العراء ، خرج قوم من أهل الغاضرية — من بنى أسد — فصلوا على سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — وأصحابه ودفنوهم(١) .

وقد أوضح المفيد فى كتاب « الإرشاد » الصورة التى تم بها دفن الشهداء الكرام فقال :

« : : ودفنوا الحسين حيث قبره الآن ، ودفنوا ابنه على بن الحسين — الأكبر — عند رجليه ، وحفروا للشهداء من أهل بيته وأصحابه الذين صرعوا حوله ، مما يلى رجلى الحسين — رضى الله عنه — وجمعوهم فدفنوهم جميعاً ، ودفنوا العباس بن على — رضى الله عنهما — فى موضعه الذى قتل فيه على طريق الغاضرية : حيث قبره الآن » .

وقال ابن الأثير : « قتل الحسين — رضى الله عنه — بكربلاء ، من أرض العراق وقبره مشهور يزار »(٢) :

ووصف ابن بطوطة فى رحلته : كربلاء : ومشهد الحسين بها فى أيامه ، فقال : « ثم سافرنا إلى مدينة كربلاء — مشهد الحسين بن على عليهما السلام وهى مدينة صغيرة ، تحفها حدائق النخل ، ويسقيها ماء الفرات ، والروضة المقدسة داخلها ، وعليها مدرسة عظيمة ، وزاوية كريمة ، فيها الطعام للوارد والصادر ، وعلى باب الروضة الحجاب والقومة ، لا يدخل أحد إلا عن أذنهم فيقبل العتبة الشريفة — وهى من الفضة — وعلى الضريح المقدس : قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب أستار الحرير »(٣) :

وقد استمر الشهيد الأكرم فى روضته — محلا لحب المسلمين واجلالهم ، تقصده الجموع من كل مكان ، وتهفوا إليه القلوب والأرواح فى كل وقت وحين ، باعتباره بضعة من سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة إلى يوم الدين ، إلى أن كانت سنة ٢٣٦ من الهجرة ، فساء الخليفة العباسى — المتوكل على الله — أن يلتف الناس حول الشهداء من أهل البيت ، ورأى فى ذلك انتصاراً للأحياء منهم ، الذين يخشاهم العباسيون على سلطانهم ونفوذهم .

وهكذا : « أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن على — رضى الله عنهما — وهدم ما حوله من المنازل والدور ، وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من اتيانه : : ونادى صاحب الشرطة فى الناس : من وجدناه عند قبره بعثنا به إلى المطبق ، فهرب الناس ، وامتنعوا من المسير إليه ، وحرث ذلك الموضع ، وزرع ما حوله »(٤) .

مصير هادم قبر الحسين رضى الله عنه :

وقد كان لذلك الذى أمر به المتوكل : آسوأ الأثر فى نفوس المسلمين عامة ، فأطلقوا ألسنتهم فيه ، وكتبوا شتمه على الحيطان والمساجد ، وهجاه كثير من الشعراء ، ومن أشهر ما نظم فى هجائه ، ما ذكره ابن خلكان عن أبيات للشاعر على بن محمد بن بسام ، المعروف بالبسامى ، حيث قال :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٤٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٨٩ ، وغيرهما .

(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير : ٢ - ٢١ .

(٣) الحسين عليه السلام ، لعلى جلال الحسينى : ٢ - ١٣٤ .

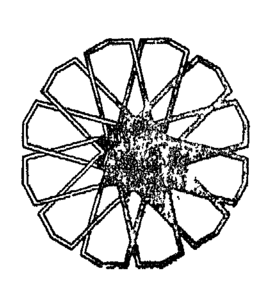
(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٩ - ١٨٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ١٠ - ٣١٥ ، طبقات الشافعية للسبكى : ١ - ٢١٦ .

تالله أن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما

فلقد أتاه بنو أبيه بمثـــــله ... هذا عمرك قبره مهدوماً

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميما[١]

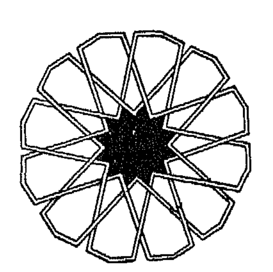
ولقد لقي المتوكل على الله جزاء عدائه لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم تمض سنة حتى لقي مصرعه في ثالث أيام الفطر ، من سنة ٢٤٧ ، وهو في لهوه وشرابه ، بين ندمائه ومغنيا وكان قتله على يد أقرب الناس إليه : ابنه المنتصر بالله .



(١) وفيات الأعيان ، لابن خلكان : ١ - ٤٥٥ .

الفصل السادس

وسليلة الزهــراء بضعة أحمد
نور الوجود وســيد الثقلين
نسب كــريم للفصيحة زينب
شمس الضحى وكريمة الدارين



السيدة زينب رضي الله عنها

مولدها . . . ونشأتها :

لا شك أن فى مقدمة سيدات أهل البيت المطهر ، الجديرات بكل تعظيم ؛ وتشريف ، وإكرام وإجلال : السيدة زينب ، ابنة الإمام على كرم الله وجهه ، من سيدة نساء العالمين — فاطمة الزهراء — فقامها من مقام أخويها العظيمين — الحسن والحسين — وشرفها من شرفهما ، رضى الله عنهم وعن آل بيت رسول الله أجمعين ؛

ولدت — رضى الله عنها — بالمدينة المنورة ، فى شعبان من السنة الخامسة من الهجرة ، فهى أصغر من الحسين — رضى الله عنه — بعام ؛ وقد فرح بمقدمها سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وسماها باسم خالتها زينب ، وأحبها بحبه لفاطمة الزهراء ؛ وأعزها باعزازه لها ، حتى أنه كان كلما عاد من سفر أو غزو ، بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ، ثم ثنى ببيت الزهراء — رضى الله عنها ، فاذا ما وقع نظره على حفيدته الغالية ، حملها بين يديه ، وضمها إلى صدره ، وحباها بالمزيد من حنانه وعطفه ، وكأنه — صلى الله عليه وسلم — كان يرى خلال حجب الغيب ما سوف تلقاه من بلاء ومحن ، فأراد أن يعوضها بعض الشيء عنه ، بما كان يحيطها به من شفقة وإكرام ؛

ولقد نشأت — رضى الله عنها — فى أطيب بيئة ، وانحدرت من أطهر معدن ، تحيط بها أنوار النبوة ، وتغذى روحها أمثلة البطولة والفخار ، فشبت كريمة فى أخلاقها ، طيبة فى شمائلها ، شريفة فى طباعها ، فكانت عزيزة النفس ، حمية الأنف ، لا تقيم على مذلة ، ولا تسكت على غضاضة ، ولا ترضى بهوان ؛

ولقد تشربت من أبيها — رضى الله عنهما — الكثير من فصاحته وعلمه ، فكانت البليغة فى قولها ، القوية فى حجتها ، إذا تحدثت : خفقت الأفئدة لسماع صوتها ، وسكنت الجوارح إعظاماً لها ، وإذا خطبت : اهتزت القلوب بتأثير عباراتها ، وخشعت الأبصار لهيبتها ، وفاضت الأعين من الدمع ، تجاوباً معها ، ورحمة لها ؛

كما ورثت — رضى الله عنها — عن ابيها الكثير من ورعه وتقواه ، فكانت دائبة الصيام والقيام ، دائمة التلاوة لكتاب الله ، فقيهة فى الدين ، عارفة بالأحكام ، روت أصدق الحديث عن أبويها ، كما روت عن أخويها الحسن والحسين — رضى الله عنهما — وروى عنها عبد الله بن عباس ؛ حبر الأمة ، الذى دعا له النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

« اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل »(١) ؛

(١) رواه أحمد والطبرانى من حديث عبد الله بن عباس .

زواجها . . . وأولادها :

ولما بلغت السيدة زينب – رضى الله عنها – مبلغ النساء ، اختارت لها العناية الإلهية : شابا من أكرم شباب الإسلام : زوجاً لها ، هو عبد الله بن جعفر ؛ ابن عمها جعفر بن أبي طالب رضى الله عنهما ، وهو الشهيد الطيار ، وثانى الأمراء فى « سرية مؤتة » . وأحد الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وما بدلوا تبديلا : لقد أبلى أحسن البلاء فى سبيل الله : حمل اللواء بيمينه فقطعت يمينه : فرفعه بشماله ، فقطعت شماله ، فاحتضن اللواء بين ذراعيه ، حتى قطعته السيوف ، واخترمته الرماح ، فاستشهد مقبلا غير مدبر ، وأبدله الله بذراعيه ، جناحين يطير بهما فى الجنة حيث يشاء .

وقد ولد عبد الله بن جعفر بالحبشة ، خلال هجرة أبويه إليها ، وكان أول من ولد من أبناء المسلمين بها ، وقد مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه – بعد استشهاد والده – ودعا له قائلا : « اللهم أخلف جعفراً فى ولده » (١) .

وكان لعبد الله بن جعفر – حين لحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى – عشر سنين : وقد حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه كما روى عن أبويه وعمه على وأبى بكر وعثمان وعمار ابن ياسر رضى الله عنهم أجمعين :

وكان رضى الله عنه أحد أمراء على كرم الله وجهه يوم صفين ، وأخباره فى الكرم كثيرة ومشهورة ، وكفى به شرفاً وصف النبي صلى الله عليه وسلم له بقوله : « : وأما عبد الله فيشبه خلقى وخلقى » (٢) .

وقد بارك الله فى زواج السيدة زينب بابن عمها – رضى الله عنهما – فولدت له علياً وعونا الأكبر وعباسا ومحمداً وأم كلثوم ، كما بارك الله فى ذريتها منهم ، فانتشرت بكثرة فى مشارق الأرض ومغاربها وفى ذلك يقول الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى ما ملخصه :

« أولاد السيدة زينب من عبد الله بن جعفر – رضى الله عنهم – موجودون بكثرة ، وهم آل بيت النبي وأهل بيته ، وذريته وأولاده بالإجماع ، وإن كانوا لا يشاركون الحسن والحسين فى الانتساب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن ذلك خاص بأولاده فاطمة دون غيرها ، وتحرم عليهم الصدقة ، لأن بنى جعفر من الآل قطعاً : : » (٣) .

القدوة الطيبة للنساء :

ولقد اقتضت حكمة المولى عز وجل ، فى الوقت الذى جرت فيه مشيئته ، أن يصطفى الحسين – رضى الله عنه – ليخلد به فى تاريخ البشرية أروع صور البسالة والإقدام ، وأقوى أمثلة الشمم والآباء ، والتضحية والفداء : : اقتضت حكمة المولى – عز وجل – فى نفس الوقت ، أن يتخذ من شقيقته الطاهرة ،

(١ ، ٢) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى : ٢ - ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٣) اسعاف الراغبين فى سيرة المصطفى وفضائل أهل بيته الطاهرين ص ٢١٨ عن السيوطى فى رسالته الزينبية .

مثلا رائعاً ، ونوراً ساطعاً ، يستمد منه نساء الإسلام القدوة الطيبة ، والأسوة الحسنة ، لبروا كيف يكون الصبر الجميل فى أشد مواطن البلاء ، وكيف يكون الرضا بالله تعالى ، مع قسوة القضاء ، وكيف تكون العزة والكرامة .. وكيف يكون الإيمان بالله تعالى .. والثقة فيه ، وكيف تكون رباطة الجأش مهما أدلهمت الخطوب ، واشتدت العواصف ، حتى لقد أذلت — وهى المرأة الأسيرة — الطغاة المتكبرين .. وأسكتت — وهى الحزينة المكلومة — الجبابرة الحاكمين ، فكانت فى ضعفها ووحدتها ، أعظم قوة وأشد بأساً ، وكانوا فى جموعهم وسلطانهم ، أضعف جنداً ، وأقل عدداً ..

ولقد أعدت العناية الإلهية ، بنت الزهراء — رضى الله عنها — منذ نشأتها ، لكى تتحمل نصيبها من البلاء ، بما يتفق مع مكانتها السامية من أهل الاصطفاء ، كحفيدة لسيد الأنبياء ، وكريمة لرابع الخلفاء ، وشقيقة لأكرم الشهداء ، فكانت حياتها ، سلسلة متصلة من الآلام والأحزان .. وكذلك شأن أهل الصدق والإيمان ، قلما تصفو لهم الأيام ، أو تطيب لهم الحياة ..

* * *

ولكى نتصور ما حل بالعقيلة الطاهرة من كروب ، وأحاط بها من شدائد وخطوب ، يجب أن نتذكر أنها شهدت أسعد أيام الإسلام ، وبلغت المنتهى فى العز والأكرام ، فكانت قرة عين سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم ثم .. عاصرت عهد الخلفاء الراشدين ، وما كان يفيض به من عدل وأمان ، ويسر واطمئنان ، حتى انتهت إلى أبيها أمارة المؤمنين ، بعد مقتل ثالث الخلفاء ، سيدنا عثمان .. الشهيد المظلوم .

على أن هذه الأيام ، لم تخل من أحزان وآلام ، فلقد رأت جدها المصطفى — صلى الله عليه وسلم — يلحق بالرفيق الأعلى ، ولم يمض قليل حتى فقدت أمها الزهراء رضى الله عنها ، وكانت خلافة والدها كلها حروب وفتن ، ومتاعب ومحن ، انتهت بقتله غيلة ، بيد أشقى الآخرين ، وانتقلت الخلافة بعد ذلك إلى شقيقها الحسن ، فتنازل عنها لمعاوية — رضى الله عنهما — حقناً لدماء المسلمين ، ثم لحق الحسن بعد ذلك بأبيه وجده ، وانتقل إلى جوار ربه .

نحو البلاء المبين :

على أن كل ما تقدم من بلاء ، لم يكن بالنسبة للسيدة زينب — رضى الله عنها — إلا بمثابة إعداد لنفسها ، وصقل لروحها ، لتتحمل ما هو أشد وطأة ، وأفدح ألماً .. ! !

رضى الله عن بنت بنت رسول الله ، إن بلاءها لهو البلاء المبين ، حتى أنها وإن لم تكن من الشهداء ، فإن صبرها على ما لاقته من كرب وعناء ، يرتفع بها إلى أعلى مقام بين الصديقين والشهداء .. !

وأى بلاء أعظم مما حل بها فى مذبحة أهل البيت بكربلاء ؟

لقد رأت — رضى الله عنها — كيف أحاطت جيوش ابن زياد ، فى خمسة آلاف من الجنود والفرسان بتلكم الحفنة المؤمنة من أقمار أهل البيت ، ومن والاهم من أهل الصدق والإيمان ، حتى لقد أيقن اكرم

الشهداء — رضى الله عنه — بالنهاية المشهودة ، والشهادة المنشودة ، فأخذ بعد سيفه لمواجهة الأعداء ، ويهيء نفسه للقاء رب السماء ، ويعبر عن ذلك بأبيات حزينة من الشعر ، لا تكاد تطرق مسامع العقيلة الطاهرة ، وتدرك مغزاها ، وتفهم منها أن الفراق أصبح قاب قوسين أو أدنى من أحب الناس إليها ، وأعزهم عليها ، حتى تصيح وقد خنقتها العبرات : ياحسيناه : : يابقية أهل بيتاه : : إلى أن يغشى عليها ، فاذا ما أفاقت أخذ الحسين فى تعزيتها بعزاء الله ، وتذكرتها بأن الموت مصير كل حى ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، وأن له ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة(١) : :

ولقد رأت — رضى الله عنها — أصحاب الحسين — رضى الله عنهم — وهم يسلمون عليه مثنى وفرادى مودعين ، ثم يندفعون إلى القتال فلا يعودون ، حتى فنوا عن آخرهم ، افتداء لابن بنت رسول الله ، وأهل بيته الكرام :

ولقد رأت — رضى الله عنها — بعد ذلك : : أقمار أهل البيت المطهر ، من أبناء أبيها ، وأبناء شقيقيها سيدى شباب أهل الجنة ، وهم يسقطون الواحد بعد الآخر ، حول عاهل أهل البيت ، فى ميدان الشرف والخلود ، ويحملون إليها ، وقد مزقتهم الرماح ، وقطعتهم السيوف :

ولقد رأت — رضى الله عنها — ابنها وفلذة كبدها — عوناً الأكبر — وقد انطلق يقاتل قتال المستميت دفاعا عن خاله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول مفاخرا :

أن تنكرونى فأنا ابن جعفر ‏ شهيد صدق فى الجنان أزهر
يطير فيها بجناح أخضر ‏ كفى بهذا شرفاً فى المحشر

حتى لحق — رضى الله عنه — بمن سبقه من الشهداء الكرام ، فحمل إليها جثة هامدة ، فلم تزد على أن قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون :

ولقد رأت — رضى الله عنها — فى النهاية ، وقوع البلاء الأكبر ، بعد أن ظل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — نهاراً طويلا ، يصول وحده ويجول ، بعد سقوط جميع من كانوا معه شهداء ، وقد أخذ العطش منه كل مأخذ : : وقد نزفت دماؤه من عشرات الجراح ، من ضربات السيوف ، وطعنات الرماح ، حتى أصيب فى النهاية ، بالضربة القاضية ، والطعنة النافذة ، فسقط سقوط الأبطال فى ميادين الشرف والفخار : :

بل لقد لقيت — رضى الله عنها — بعد ذلك ، ما هو أشد وقعاً على نفسها الأبية ، وروحها العلية ، من ضرب الرقاب ، وفقد الأعزة والأحباب ، حيث سيقت مع بقية سيدات أهل البيت وغلمانه ، فى حراسة جند ابن زياد : فمرت بميدان المعركة ، ورأت شقيقها الحبيب — ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — مجندلا فى الفلاة ، وقد احتز الآثمون رأسه ، وداسوا بسنابك الخيل جسده ، وحوله أصحابه وأبناؤه وأخوته ، ممزق الأشلاء ، مقطعى الأعضاء ، مسفوكى الدماء : : فلم تستطع — رضى

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٢٠ ، ٤٢١ ، البداية والنهاية : ٨ - ١٧٧ .

الله عنها — أن تغالب ما تملكها من جزع ، فصاحت من الأعماق باكية . وأخذت تنعى أخاها بألفاظ تتفتت لها الأكباد ، وتنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليرى ابنه مزملا بالدماء ، وبناته سبايا ، وذريته مقتلة ، وما زالت — رضى الله عنها — تعبر عن حزنها الدفين ، وتصدر عن قلبها المكلوم ، حتى أبكت الجميع ، وأشجت الأعداء قبل الأصدقاء(١) .

رعايتها لشئون أهل البيت :

ولما عقد الحسين — رضى الله عنه — العزم على الخروج من المدينة ، حتى لا يرغم على بيعة لا يطمئن قلبه إليها ، ولا يؤمن بصلاحية صاحبها ، لم تتردد السيدة زينب — رضى الله عنها — فى الوقوف بجوار شقيقها ، ومصاحبته مع ابنها — عون الأكبر — إلى مكة المكرمة ، ثم لازمته بعد ذلك فى خروجه من مكة قاصداً الكوفة ، وقطعت معه الفيافى والقفار ، دون مبالاة بما يحيط بها من الأخطار ، وتحملت معه من الأهوال ما تشيب لهوله الولدان ، فلم تخنها الشجاعة ، ولم يعوزها الصبر ، بل استقبلت المحن بصدر رحيب ، وتلقت النوائب بقلب مطمئن ، وظلت فى كل الأحوال — كما كانت دائماً — مرفوعة الرأس رابطة الجأش ، لا تخشى فى الحق لومة لائم ، ولا تقيم وزناً لطاغية ، أو اعتباراً لجبار .

ولقد كانت فى صحبتها لسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — هى العين الساهرة على شئونه ، والراعية الأمينة لأهل البيت ، والمدبرة الحكيمة لاحتياجات هذه الحفنة المؤمنة من أهل الصدق والإيمان .

هذه هى — رضى الله عنها — ترى أخاها وقد جلس أمام بيته ، محتبياً بسيفه ، وقد أخذته سنة من النوم ، فخفق برأسه على ركبتيه ، فتأبى أن توقظه ، وتقف بالقرب منه موقف الحارث الأمين ، فلا تكاد تسمع صوت الخيل فى زحفها نحوه ، حتى تدنو منه فى رفق وتقول : يا أخى : أما تسمع الخيل فى زحفها نحو ، حتى تدنو منه فى رفق وتقول : يا أخى : أما تسمع الأصوات قد اقتربت ؟ فيرفع الحسين — رضى الله عنه — رأسه نحوها ويقول :

« إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال لى : « إنك تروح إلينا » :

وفهمت السيدة الطاهرة معنى الرؤيا ، فاشتد بها الجزع حتى صاحت من أعماقها قائلة : ياويلتاه ! ! فقال لها الحسين — رضى الله عنهما — ليس لك الويل يا أخية . . أسكنى رحمك الله(٢) .

وهذه هى خلال رعايتها لغلمان أهل البيت ، وحمايتها لهم من الخروج إلى ميدان القتال ، ترى عبد الله بن الحسن — رضى الله عنهما — وقد بلغت به الحمية أنه اندفع نحو عمه الحسين ، وقد رأى الأعداء يحيطون به ، وهى تحاول أن تمنعه ، والحسين — رضى الله عنه يأمرها أن تحبسه ، ويأبى الغلام الباسل إلا أن يخرج ليقف بجوار عمه ، يقية بساعده ، ويفتديه بنفسه(٣) .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : ٥ - ٤٥٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٩٣ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤١٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٧٦ .
(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٥١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٨٧ .

وهذه هى — رضى الله عنها - ترى عاهل أهل البيت ، وقد أمسى وحيداً فى الميدان ، وقد تكاثر وهو مع ذلك يحمل عليهم ذات اليمين فيكشفهم ، و ذات الشمال فيدحرهم فلا تتمالك نفسها ، فتندفع نحو عمر بن سعد - قائد جيش ابن زياد - الباغى آخر سهم فى جعبتها ، وتناشده قائلة :

« ياعمر بن سعد : أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه ؟ » فانصرف عنها بوجهه وقد سالت دموعه على خديه ولحيته(١) .

وتبلغ السيدة زينب — رضى الله عنها — القمة فى الوفاء لأخيها — سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه — ورعاية البقية الباقية من غلمان أهل البيت ، وذلك فى موقفها من عبيد الله بن زياد ، حين أمر بقتل على زين العابدين ، وهو آخر من بقى من سلالة الحسين — رضى الله عنهما — فطرحت السيدة الكريمة بنفسها عليه وأقسمت قائلة : « والله لا يقتل حتى تقتلونى » ! مما كان له أعمق الأثر فى نفس الطاغية ، فكف عنه(٢) :

وتواصل السيدة زينب — رضى الله عنها — حمايتها لأهل البيت ، بكل ما فيها من قوة وإيمان بالله ، رغم ما تفيض به نفسها من أحزان دامية ، وآلام تتصدع لها الجبال الرواسى ، فلا تكاد رضى الله عنها — وهى فى مجلس يزيد بن معاوية — ترى ذلك الجاهل الأحمر من أهل الشام ، وقد أعجب بوضاءة أختها — السيدة فاطمة بنت على — فيطلب من يزيد أن يهبها له : : لا تكاد — رضى الله عنها — تسمع ذلك ، حتى تهب بالرجل مغضبة ، وكأنها الأسد فى دفاعه عن عرينه — وحمايته لأشباله ، فتصيح به قائلة :

« كذبت والله : : وأومت : : ما ذلك لك ولا له » . فاذا ما اعترضها يزيد بأنه لو شاء لفعله ، تحدته قائلة :

« كلا والله ، ما جعل الله ذلك ، إلا أن تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا(٣) » فأرغمته بقوة حجتها وشدة دفاعها ، على الشعور بخطئه ، حتى أن الشامى لما كرر طلبه صاح به يزيد :

« أعزب : : ! ! وهب الله لك حتفا قاضياً(٤) » ! !

مواقف خالدة للعقلية الطاهرة :

وخلال هذه المحن الأليمة ، وذلكم البلاء المبين ، الذى لو قسم على العديد من أشداء الرجال ، لانهدمت منهم القوى ، وزلزلت منهم الأقدام : .

ومع ما كانت تستشعره السيدة — رضى الله عنها ، من لهيب الحزن والأسى ، وعميق الألم والجزع ، فانها لم تعوزها الشجاعة قط ، فى أشد المواطن خطراً ، وأكثر المواقف دقة وحرجاً ، فظلت — رضى الله عنها — رابطة الجأش ، حاضرة الذهن ، مطمئنة القلب ، تخطب الناس بأفصح لسان ، وأبلغ بيان ، وتتحدى الجبابرة فى ثقة وإيمان ، وتسفه بهتانهم فى قوة ويقين ، وتسوق الحجة قاطعة مانعة ، والأدلة من الكتاب والسنة واضحة ساطعة ، وتقذف بالحق من قولها على الباطل فتجعله هباء منثورا . .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٥٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٨٧ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٥٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٩٤ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٦١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٩٤ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٦٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٩٥ .

هذه هي — رضى الله عنها — عند دخولها الكوفة ، بعد منصرفها من كربلاء يستقبلها أهل الكوفة بالحزن والبكاء ، وترى علياً بن الحسين — رضى الله عنهما — يقول بصوت خافت ، قد انهكه المرض : « يا أهل الكوفة : أنكم تبكون علينا ؟ ! فمن قتلنا غيركم ! ! »(١) .. وكأن هذه العبارة أثارت شجون السيدة زينب رضى الله عنها ، فأومأت إلى الناس أن اسكتوا .. ثم انبرت تقول لهم بعد حمد الله والصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم :

« أما بعد يا أهل الكوفة : يا أهل الختل(٢) والغدر .. أتبكون فلا سكنت العبرة ، ولا هدأت الرنة(٣) . . وأنما مثلكم مثل التى « نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم .. »(٤) فابكوا كثيراً ، واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها(٥) بغسل ابدا .. وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومنار حجتكم ، وسيد شباب أهل الجنة .. أتدرون أى كبد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فريتم ؟ وأى دم له سفكتم ؟ وأى كريمة له أبرزتم ؟ « لقد جئتم شيئاً أداً ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا .. »(٦) ثم قالت :

« فلا يستخفنكم المهل .. . فان ربى وربكم لبالمرصاد »(٧) .

أحدثث هذه العبارات القليلة فى ألفاظها ، الكثيرة فى معانيها ، أعمق الأثر فى النفوس ، حتى أن خزيمة الأسدى ليقول — فيما أورده عنه أبو أسحاق — فى وصف ذلك الأثر :

« ثم سارت — أى السيدة زينب رضى الله عنها — فرأيت الناس حيارى ، واضعى أيديهم على أفواههم ، ورأيت شيخاً قد دنا منها يبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : بأبى أنتم وأمى .. : كهولكم خير الكهول ، وشبابكم خير الشباب ، ونسلكم لا يبور ولا يخزى أبداً »(٨) .

موقف السيدة من ابن زياد . . ويزيد :

.. وهذه هى — رضى الله عنها — حين أدخلت على عبيد الله بن زياد ، وهى فى أرذل ثيابها ، ومع ذلك فقد كانت مرفوعة الرأس ، شامخة الأنف ، يحف بها من المهابة والجلال ، ما حمل عبيد الله على أن يسأل : من هذه ؟ ؟ ولم تجبه السيدة ، أظهاراً لعدم مبالاتها به ، حتى قيل له : هذه زينب بنت فاطمة ! !

---

(١) نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار ، للشبلنجى : ٢٠٣ .
(٢) الختل : الخداع .
(٣) الرنة : الصوت .
(٤) سورة النحل : آية ٩٢ .
(٥) رحض الثوب : غسله ، والمعنى : انكم لن تغسلوا ذلك العار أبدا مهما فعلتم . .
(٦) سورة مريم : آية ٨٩ ، ٩٠ .
(٧) نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار ، للشبلنجى : ص ٢٠٣ .
(٨) نور الأبصار ، للشبلنجى : ص ٢٠٣ .

وبالرغم من معرفة الطاغية بمقام العقيلة الطاهرة ، فقد أبى خبثه إلا أن يظهر الشماتة بما حل بها من البلاء ، وما اصاب آهل بيتها من قتل وفناء ، فيقول :

الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وكذب أحدوثتكم ! ! ، فأجابته على الفور قائلة :

« بل الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وطهرنا تطهيراً ، لا كما تقول ، وإنما يفتضح الفاسق ، ويكذب الفاجر » : : !

فقال الطاغية

كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟

فأجابت العقيلة الطاهرة :

« كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم ، فتحاجون إليه ، وتخاصمون عنده »(١) : .

* * *

وهذه هى – رضى الله عنها – تساق بعد ذلك إلى يزيد بن معاوية ، فتدخل عليه ، وقد اجتمع حوله كبار رجال الدولة وقادتها : : وأمامه رأس سيد شباب أهل الجنة ، ينكته بقضيب فى يده ، وينشد الأشعار شامتاً مغروراً ، فلا تبال السيدة الكريمة بكل ما رأته من أبهة الملك والسلطان ، وقوة الجند والأعوان ، بل تتحدى كل ذلك بايمانها ، وتقول :

« أظننت يا يزيد : أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض ، واكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى ، آن بنا هواناً على الله ، وبك عليه كرامة ، فشمخت بأنفك جذلان فرحاً ، حين رأيت الدنيا مستوثقة لك ، والأمور متسقة عليك ، انسيت قول الله تبارك وتعالى : « ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خيراً لأنفسهم أنما نملى لهم ليزدادوا أثماً . ولهم عذاب مهين »(٢) : ثم قالت له :

« آمن العدل – يا ابن الطلقاء – تخديرك حرائرك واماثك ، وسوق بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا ، قد هتكت شعورهن ، وأبديت وجوههن ، ليس معهن من حماتهن حمى ، ولا من رجالهم ولى ، وأنت تنكت ثنايا أبى عبد الله بمخصرتك ؟ والله ما فريت إلا فى جلدك ، ولا حززت إلا فى لحمك : : وسترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، وستعلم – إذا كان الحكم الله ، والخصم محمد صلى الله عليه وسلم ، وجوارحك شاهدة عليك – أيكم شر مكاناً . : وأضعف جنداً ! ! الخ » : (٣)

ولقد كان لموقف العقيلة الطاهرة – رضى الله عنها – أعمق الأثر فى نفس يزيد ، فتحول من موقف الغرور والشماتة ، إلى استشعار الحسرة والندامة ، واستمطر اللعنات على عبيد الله بن زياد ، وأمر باكرام نساء أهل البيت كل الإكرام : : فلما حان أوان الرحيل إلى المدينة ، أخذ يودعهم ، ويعتذر عما حدث ، ويتمنى أن لو استطاع دفع الحتف عن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو بهلاك بعض ولده ! !

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٥٧ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٧٨ .

(٣) العقلية الطاهرة ، لفضيلة الشيخ أحمد فهمى محمد : ص ٤٧ – ٤٨ .

صلة السيدة . . بالله تعالى :

ومن مثل هذه المواقف سالفة الذكر ، وأمثالها ، يمكننا أن ندرك مدى ما كانت عليه السيدة زينب – رضى الله عنها – من صلة وثيقة بالله تعالى ، وإيمان راسخ به ، مما جعلها – كشقيقها سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه – لا تقيم وزناً لأى خطر ، ولا تبالى بأى طاغية أو جبار ، لأنها . . – وقد أيقنت أنه سبحانه وتعالى ، هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القاهر فوق عباده ، لا يذل من والاه ، ولا يعز من عاداه – كانت فى كل تصرفاتها . . وفى جميع أحوالها ، لا تنظر إلا إلى الله ، ولا ترى فى الكون متصرفاً سواه وكأن لسان حالها يقول :

فليتك تحلو . . والحياة مريرة ... وليتك ترضى . . والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين . . خراب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

وهكذا . . كانت السيدة زينب – رضى الله عنها – من العابدات القانتات ، القائمات بالليل ، الصائمات بالنهار . . الذاكرات الله كثيرا . .

بلغ من حرصها على رضاء الله تعالى ، وتزودها من طاعته وتقواه . إنها كانت خلال صحبتها للحسين – رضى الله عنه – تقضى ليلها مع بقية آل البيت الكرام ، فى صلاة وقيام ، وتلاوة للقرآن ، ومناجاة للرحمن ، بما توارثه أهل البيت عن النبى عليه الصلاة والسلام ، بمثل الدعاء التالى :

« يامن لبس العز وتردى به ، سبحان من تعطف بالمجد وتكرم ، سبحان من لا ينبغى التسبيح إلا له . . سبحان من أحصى كل شيء عدداً بعلمه . . سبحان ذى العزة والنعم ، سبحان ذى القدرة والكرم ، سبحان ذى المن والنعم . . اللهم أنى أسألك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، وباسمك الأعظم ، وجدك الأعلى ، وكلماتك التامات التى تمت صدقاً وعدلا ، أن تصلى على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين ، وأن تجمع لى خير الدنيا والآخرة . . برحمتك يا أرحم الراحمين »(١) .

ومما كانت – رضى الله عنها – تدعو به ، مما حفظته عن والدها – كرم الله وجهه – مما تعلمه من النبى صلى الله عليه وسلم :

« يا عماد من لا عماد له ، ويا ذخر من لا ذخر له ، ويا سند من لا سند له ، يا حرز الضعفاء ، ويا سميع الدعاء ، ويا مجيب دعوة المضطرين ، ويا كاشف السوء ، ويا عظيم الرجاء ، ويا منجى الغرقى ، ويا منقذ الهلكى . . أنت الذى سجد لك سواد الليل وضوء النهار ، وشعاع الشمس وحفيف الشجر . . يا الله . . يا الله . . أنت الذى لم يكن قبله قبل ، ولا بعده بعد ، ولا نهاية له ولا حد ، ولا كفوء له ولا ند . . الخ »(٢)

(١ ، ٢) العقلية الطاهرة ، لفضيلة الشيخ أحمد فهمى محمد : ٤١ ، ٤٢ .

ومما كانت ترddه عن أبيها – رضى الله عنهما :

« اللهم أنى أسألك يا عالم الأمور الخفية ، ويامن الأرض بعزته مدحية ويا من الشمس والقمر بنور جلاله مشرقة مضيئة ، ويا مقبلا على كل نفس مؤمنة زكية ، يا مسكن رعب الخائفين وأهل التقية . يا من حوائج الخلق عنده مقضية . . يا من ليس له أبواب ينادى ، ولا صاحب يغشى ، ولا وزير يؤتى ، ولا غير رب يدعى ، ولا يزداد على الالحاح إلا كرماً وجوداً ، أعطنى سؤالى إنك على كل شيء قدير ، وصلى على محمد وآله »(١) .

ولقد بلغ من إيمانها بالله تعالى ، أنها كانت كلما ادلهمت الأمور ، واشتدت الأعاصير ، وتكاثفت الظلمات ، لا تزداد إلا ثقة بالله ، وتوكلا عليه ، وأملا فيه ، وتردد من الشعر ، ما تهدف به إلى تبرئة النفوس من الجزع واليأس ، وعمارة القلوب بالرضى والطمأنينة ، إذ تقول :

وكم لله من لطف خفى ... يدق خفاه عن فهم الذكى
وكم يسر أتى من بعد عسر ... وفرج كربة القلب الشجى
وكم أمر تساء به صباحاً ... فتأتيك المسرة بالعشى
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً ... فثق بالواحد الفرد العلى
توسل بالنبى . فكل خطب ... يهون إذا توسل بالنبى
ولا تجزع إذا ما ناب خطب ... فكم لله من لطف خفى(٢)

كرم السيدة . . وإيثارها :

وبمقدار ما كانت عليه الطاهرة المطهرة – رضى الله عنها – من ثقة فى الله تعالى ، وإيمان وطيد به . . بمقدار ما كانت عليه من كرم وإيثار ، ولا غرو ، فان الإيمان والسخاء لا يفترقان .

وهكذا . . كانت – رضى الله عنها – عطوفة على المساكين والفقراء ، ورحيمة بالبؤساء والضعفاء ، تواسى الأرملة ، وتكرم اليتيم ، وتؤثر على نفسها بكل مرتخص وغال . . وتغمر السائل والمحروم بالعطاء ، مع ما بها من خصاصة . . ! !

بلغ من كرمها وإيثارها ، أنها حين وصلت مدينة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، عائدة من الشام ، على رأس القافلة الحزينة ، من سيدات أهل البيت وغلمانه . . ، أرادت أن تكافىء الرجل الذى كلف بصحبتهم ، والقيام بحراستهم ، لما لمسته فيه من أمانة فى السير ، وإخلاص فى الصحبة ، ومبادرة إلى قضاء حوائجهم ، وتلبية إشاراتهم ، مع أدب موقور ، وذوق مشكور ، فاذا ساروا ليلا ، تابعهم عن كثب ، لا يتحول عنهم لحظة ، ولا تصرفه عنهم غفلة ، فاذا ما نزلوا ، تفرق هو وأصحابه من حولهم ، ليقفوا منهم موقف التربص والحراسة لهم ، وتنحوا بعيداً عنهم ، بما يمكن السيدات – دون حرج – من قضاء حوائجهن ، وأصلاح شئونهن .

(١ ، ٢) العقلية الطاهرة ، لفضيلة الشيخ أحمد فهمى محمد : ٤٢ ، ٤٣ .

رأت السيدة زينب — رضى الله عنها — كل ذلك ، وهى سليلة بيت النبوة والشرف ، وربيبة مدرسة المروءة والكرم ، فأبت إلا أن تقابل المعروف بالإحسان ، وإلا أن تعبر عن شكرها لهذا الرجل ، الأمين فى سلوكه ، النبيل فى مروءته ، الكريم فى صحبته ، مما كان لكل ذلك أجمل الأثر فى نفوس سيدات أهل البيت ، رضى الله عنهم أجمعين .

رأت السيدة — رضى الله عنها — كل ذلك ، فلم تجد ما تقدمه سوى حليها وحلى اختها فاطمة فبعثت بهن إلى الرجل ، تقديراً لمروءته وفضله ، ومعتذرة عن التقصير فى الوفاء بحقه : : ولكن الرجل كان قد رأى من كرامة أهل البيت وشرفهم ، ما عمر قلبه باجلالهم وحبهم ، فرد الحلى ، وقال :

« لو كان الذى صنعت إنما هو للدنيا ، لكان فى حليكن ما يرضينى ودونه ، ولكن والله ما فعلته إلا لله ، ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم »(١) .

خاتمة المطاف :

ولم يستقر المقام بالمدينة للسيدة زينب — رضى الله عنها — إلا قليلا ، فقد التف الناس حولها ، يستمعون إلى حديثها المرير . . عن الكرب والبلاء ، الذى حل بأهل البيت بكربلاء ، وهى المشهود لها بالفصاحة فى التعبير ، والبلاغة فى التصوير ، مما أقض مضاجع ولاة الأمور من بنى أمية ، فكتب والى المدينة عمرو بن سعيد بن العاص — بأمرها إلى يزيد ، فأمره بمشاورة أكابر بنى هاشم ، ليروا رأيهم ، وكان من نتيجة ذلك ، أن قررت السيدة زينب الهجرة إلى مصر ، وقد خرج لاستقبالها فى طريقها من الشام ، أمير مصر فى ذلك الحين : مسلمة بن مخلد الأنصارى(٢) ، فى جمهور كبير من أعيان البلاد ووجهائها ، وعلمائها وتجارها ، حيث التقوا بالسيدة الكريمة ، حفيدة سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم ، عند قرية « العباسة » شرقى بلبيس ، فاستقبلوها بالإجلال والإعظام ، وقدموا لها أجمل العزاء . . فبكت رضى الله عنها — وقالت :

« هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون »(٣) .

وبكى لبكائها جميع الحاضرين .

ووصلت رضى الله عنها إلى القاهرة فى الأول من شعبان سنة أحدى وستين من الهجرة(٤) ، فمكثت زهاء عام ، كانت خلاله موضع كل تقدير ، ومنارة للهداية والنور ، يفد إليها الناس من كل فج عميق ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

(٢) مسلمة بن مخلد الأنصارى : ولد حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة ، وتوفى النبى وهو ابن عشر سنين ، وقد شهد فتح مصر وسكنها ، ثم تحول إلى المدينة ، وولاه معاوية مصر وأفريقية سنة خمسين ، واستمر عليها فى خلافة يزيد وهو أول من جعل بمصر بنيان المنابر فى المساجد ، وكان عابداً قارئاً للقرآن ، حافظاً له . روى ابن عيينة عن ابراهيم بن ميسرة عن مجاهد قال : كنت أرى أنى أحفظ الناس للقرآن ، حتى صليت خلف مسلمة بن مخلد ، الصبح ، فقرأ سورة البقرة ، فما أخطأ واوا ولا ألفا ، توفى بمصر سنة اثنتين وستين - الاصابة ٣ - ٤١٨ : والاستيعاب بالهامش : ٣ - ٤٦٤ .

(٣) سورة يس : ٥٢ .

(٤) العقلية الطاهرة ، للشيخ أحمد فهمى محمد : ٦٧ .

يلتمسون بركاتها ، ويطلبون دعواتها ، ويأخذون عنها ما تحدث به عن سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وعن رابع الخلفاء الراشدين . . وعن شقيقيها الحسن والحسين — رضى الله عنهم أجمعين — من علم وفقه ، وكتاب وحكمة . . إلى أن صعدت روحها الطاهرة إلى بارئها . . مساء الأحد الرابع عشر من رجب سنة ٦٢ من الهجرة(١) ، وبعد زهاء عام واحد من وصولها إلى القاهرة ، أو بعد عام ونصف من استشهاد الحسين — رضى الله عنه — بكربلاء . حيث دفنت بمحل سكناها ، الذى أقيم به مسجدها العامر بالميدان المعروف باسمها بالقاهرة .

قبر السيدة . . القاهرة :

يقول الشيخ الشعرانى — رضى الله عنه — : « وقد أخبرنى سيدى على الخواص ، رحمه الله تعالى ، أن السيدة زينب المدفونة بقناطر السباع ابنة الإمام على كرم الله وجهه ، فى هذا المكان بلا شك ، وكان — رضى الله عنه — يخلع نعليه من عتبة الدرب ، ويمشى حافياً ، حتى يجاوز مسجدها ، ويقف تجاه وجهها ، ويتوسل بها إلى الله تعالى فى أن يغفر له(٢) .

ولا شك فى أن مقامها الحالى — رضى الله عنها — من الأماكن المباركة ، تجاب فيه الدعوات ، وتتنزل عليه الرحمات ، كيف لا وهى بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ورضى الله تعالى عمن قال :

هذا ضريح شقيقة القمرين   بنت الإمام شريفة الابوين
وسليلة الزهراء بضعة أحمد   نور الوجود وسيد الثقلين
نسب كريم للفصيحة زينب   شمس الضحى وكريمة الدارين(٣)

وما زالت السيدة زينب ، رضى الله عنها — كما كانت فى حياتها — ملاذا للمساكين والفقراء ، وسنداً للبؤساء والضعفاء ، ومقصداً للبررة الأتقياء ، ولها فى نفوس المؤمنين السيرة العطرة ، والذكرى الخالدة ، ورحم الله القائل :

لذ فى الشدائد بابنة الزهراء   واقصد حماها توق كل عناء
هى زينب ذات المقامات العلى   وكريمة الأجداد . . والآباء
هى ربة الشورى وغوث من التجى   بنت الإمام . . وفارس الهيجاء(٤)

كرامات السيدة . . . الطاهرة :

وللسيدة زينب — رضى الله عنها — من الكرامات التى تواترت انباؤها ، وفاح عبيرها ما تناقله العام والخاص ، جيلا بعد جيل ، فقل من قصدها باخلاص ، متوسلا بها إلى الله تعالى ، فى تفريج كرب ،

(١) النهضة الأصلاحية ، للشيخ مصطفى الحمامى ، خطيب الحرم الزينبى ٤ ص ٦٧٥ .

(٢) المنن الكبرى ، العارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعرانى ٤ ص ٣٣٧ .

(٣) العقلية الطاهرة ، للشيخ أحمد فهمى محمد : ص ٧٥ .

(٤) من قصيدة المرحوم الشيخ أحمد الكنانى .

او كشف ضر ، أو جلب خير ، أو دفع جور ، الا وأصابه من نفحاتها ما قدره الله له ، ومن عونها ما يتفق مع صدق إيمانه بالله ورسوله ، ومحبته لأهل البيت المطهر ، رضى الله عنهم أجمعين :

ولما كانت هذه الحقيقة مما لا يدركه الكثيرون ، لا سيما أولئك الذين لم يحظوا بصحبة أهل الحق والشهود ، ولم يسلكوا طريقهم إلى الله تعالى ، فظلوا فى حجاب عن الله ورسوله ، فتطاولوا على مقام أهل البيت ، وسخروا من اللائذين بحماهم ، وكفروا المتوسلين بهم إلى الله ورسوله ، وفاتهم أن الله تعالى هو الفعال لما يريد ، وأنه يصطفى من يشاء لما يشاء ، وأن أرواح المؤمنين هى أقطع سلاح فى نصرة المؤمنين ، وأن حياة الصالحين وفاعليتها لا تنقطع بالموت ، وأن أهل البيت هم أئمة الصالحين المتقين ، وأنهم — فى روضاتهم — هم الأحياء حقاً ، وهم الأمراء حقاً ، لا يذل أبداً من ولاهم ، لأنه أنما يوالى الله تعالى ، ولا يعز أبداً من عاداهم ، لأنه أنما يعادى الله تعالى ، من اقترب من هداهم ، وعاش فى أمن وسلام ، ومن لاذ بحماهم حاشا أن يضام ، فهم أهل التقوى وأهل المغفرة : : وهم أهل البطش وأهل المقتدر : :

نقول لما كانت هذه الحقيقة مما غاب عن أدراك الكثيرين ، فانا نكتفى هنا بسرد ما ذكرته الصحف الكبرى ، عن آخر كرامة للسيدة الطاهرة . شهد خاتم فصولها بعض أكابر رجال الدولة من وزراء ووكلاء ومدبرين ، عسى أن يكون فى ذلك ، ما يبدد بعض ظلمات المعاندين ، ويهديهم إلى سواء السبيل :

وتتلخص هذه الكرامة — طبقاً لما نشرته « الأهرام » بعددها الصادر صباح الأحد : ٢٤ من شعبان سنة ١٣٩٠ ، الموافق ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩٧٠ ، فيما يلى :

« أصيبت الطفلة « أميلة » بالخرس والعمى فجأة ، واستعصى علاجها بموطنها «الصومال الفرنسى » فسافرت بها والدتها « السيدة خضرة » إلى لندن ، وعرضتها على أكبر الأطباء العالميين بها ، : : ولكن دون جدوى ، فعادت بها إلى بلادها ، وقد أيئست من شفائها تماماً :

وقامت السيدة « خضرة » ذات ليلة ، وهى فى كرب شديد من ناحية ابنتها ، بعد أن ابتهلت إلى الله تعالى باخلاص وخشوع ، أن يشفيها بقدرته ، وبعد الفجر بلحظات : فوجئت الأم بالسيدة زينب — رضى الله عنها — فى هيئة غاية فى الجمال الملائكى ، والأنوار تحوطها من كل جانب : : تقدم لها ابنتها « اميلة » وقد شفاها الله تماماً ، فعادت تتكلم وتبصر ! !

وهبت الأم غير مصدقة . . لتوقظ ابنتها ، وإذا بها تجدها فعلا وقد أصبحت تنطق وتبصر ! !

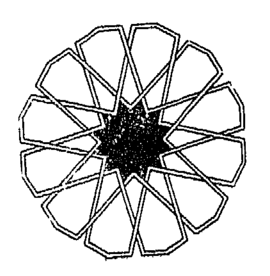
وسجدت الأم وابنتها . تعالى شكراً ، ونذرت أن تهاجر إلى مصر لتعيش فى البلد الذى يضم ثراه جثمان السيدة الطاهرة — بطلة كربلاء . . وابنه فاطمة الزهراء :

وفعلا حضرت ومعها أولادها وبناتها الخمس ، ومعها كسوة خضراء جديدة ، أهدتها إلى المقام الطاهر ، عرفاناً بشفاء ابنتها من العمى والخرس :

وقد حضر حفل تركيب الكسوة الدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف ، والسيد عبد الرحمن أبو العينين : الوزير برئاسة الجمهورية ، ووكلاء وزارة الأوقاف ، ومدير المراسم بوزارة الخارجية .

وقد أهدى وزير الأوقاف للسيدة الصومالية ثلاث مصاحف شريفة ، وتم توزيع الصدقات . وقامت الجالية الصومالية بترتيل الصلوات ، وكان يوماً من الأيام المشحونة بالأسرار ،وكرامات السيدة زينب : : رضى الله عنها »[1] .

وما هو جدير بالذكر : أن والد « أميلة » هو رجل الأعمال الصومالى : فرج عثمان ، وقد استشهد فى الجهاد لتحرير بلاده « الصومال الفرنسى » . . ولكن بلاده استطاعت فعلا أن تحقق آمالها ، وتسترد حريتها ، فكان أكرام لوالدها ، تصديقاً لقول الله تعالى فى محكم كتابه « وكان أبوهما صالحاً »[2] : :

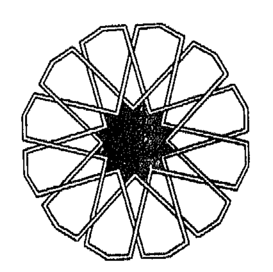


(١) الأهرام فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠ .
(٢) سورة الكهف : آية ٨٢ .

الفصل السابع

« الخلافة بعدي ثلاثون .. ثم ملك بعد ذلك » .

حديث شريف





الخلافة . . . والخليفة :

الخلافة . . أو الإمامة ، هى النظام العام الذى جعله الإسلام أساساً للحكم بين الناس :

ويهدف هذا النظام إلى اختيار الأصلح من المسلمين – قدر الإمكان – لتجتمع حوله كلمة الأمة ، وتتحد به صفوفها ، وتقام به أحكام الشريعة الغراء .

وفى مثل هذه المعانى ، يقول البيضاوى :

« الإمامة عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى إقامة القوانين الشرعية ، وحفظ حوزة الملة »(١) . ويقول ابن خلدون :

« الخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى ، فى مصالحهم الآخروية والدنيوية الراجعة إليها »(٢) . وقال الشيخ عبد السلام :

« الخلافة : رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا ، نيابة عن النبى صلى الله عليه وسلم »(٣) .

وحكم الخلافة – فى الإسلام – الوجوب ، وهو ثابت بالكتاب والسنة والاجماع .

فقد قال تعالى فى كتابه المبين :

١ – وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » (٤) .

وقال أيضاً :

٢ – « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض »(٥) .

وقال عز وجل :

٣ – « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم »(٦) .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة ، مات ميتة جاهلية »(٧) .

وقد ثبت اجماع الصحابة – رضوان الله عليهم – على وجوب إقامة الخلافة ، فور صعود النبى

(١ ، ٢ ، ٣) نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ، لشيخ الإسلام ، السيد محمد الخضر حسين : ص ٤ ، ٥ .

(٤) سورة البقرة : آية ٣٠ .

(٥) سورة ص : آية ٢٦ .

(٦) سورة النور : آية ٥٥ .

(٧) صحيح مسلم : باب الأمر بلزوم الجماعة : من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، مبايعتهم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم في انتظامهم بعد ذلك . . ، في تولية خليفة ، كلما توفي من قبله :

قال القاضي : أبو الحسن الماوردي :

« الإمامة موضوعة لخلافة النبوة ، في حراسة الدين ، وسياسة الدنيا ، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع »[١] .

* * *

ولما كانت مهمة الخليفة أو الإمام ، هي إقامة القوانين الشرعية ، وحمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية ، فقد أوجب الإسلام طاعته ، ما دام ملتزماً ما أقيم من أجله ، وهذه الطاعة مستمدة من طاعته لله ورسوله ، وثابتة بالكتاب والسنة والإجماع ، قال تعالى في محكم كتابه .

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول . إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا »[٢] . . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصى أميري فقد عصاني[٣] » . وفي بعض الروايات : « ومن يطع الأمير . . ومن يعص الأمير » .

وقد أنعقد الإجماع على وجوب طاعة الإمام أو الخليفة ، ما لم يأمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية : فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

أهمية الخلافة وموقف الصحابة منها :

ولقد فهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم نجوم الهدى ، الذين بهم يقتدى ، أهمية الخلافة ، وآمنوا بوجوبها . . « وإنها ركن من أركان الدين ، الذى به قوام المسلمين »[٤] . . حتى أنهم حرصوا — فور انتقال النبي صلى الله عليه وسلم — على اختيار من يكون خليفته في إقامة حكم الله ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمته ، وتبليغ دعوته ، والأخذ بناصية المسلمين إلى طريق الهدى والرشاد . .

ولا عجب في ذلك : فقد رأى الصحابة رأى العين كيف كان أمرهم في الجاهلية فوضى ، تتقاذفهم الأحداث ، وتستنزفهم الحروب والغارات ، وتستبعدهم الأمم والشعوب ، حتى أكرمهم الله تعالى من فضله ، ومن عليهم بهدايته ونوره « إذا بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »[٥] فبدل الله به فرقتهم تضامناً واتحاداً ، وأحقادهم تعاطفاً ومحبة ، وذلتهم عزة وسيادة ، وضعفهم قوة وهيبة ، وخوفهم أمناً واطمئناناً ، وإيماناً وتسليماً .

---

(١) الأحكام السلطانية ، والولايات الدينية للماوردي : ص ٣ .

(٢) سورة النساء : آية ٥٩ .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، واللفظ لمسلم ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، وتحريمها في المعصية .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ١ - ٢٦٥ .

(٥) سورة آل عمران : ١٦٤ .

لقد بلغ من أهتمام الصحابة — رضوان الله عليهم — بهذا الأمر ، أنهم — مع شدة حبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وحزنهم لموته ، ولوعتهم لفراقه ، مع كل ذلك : تركوه صلى الله عليه وسلم مسجى على فراش الموت ، واتجهوا إلى سقيفة بني ساعدة ، للتشاور في عقد هذا الأمر ؛ وكأنهم حرصوا على آن لا يغيب الرسول الحبيب صلى الله عليه وسلم عن أعينهم ، قبل أن يشهدوه على اجتماع عقدهم ، واتفاق كلمتهم ، على من يخلفه في قيادة الأمة ، وإقامة أحكام الكتاب والسنة ، والاستمرار في نشر الدعوة « حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله (١) » .

مما تقدم : يتضح أن إقامة الخلافة من الأمور الواجبة شرعاً ، « ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة »(٢) .

كيفية اختيار الخليفة :

ومع تقدير الإسلام لأهمية الخلافة ، ووجوب إقامتها ، فانه في نفس الوقت لم يحدد طريقة معينة لاختيار الخليفة ، بل ترك ذلك للمسلمين ، تبعاً لظروفهم ، وطبقاً لما يتفق مع مصالحهم .

ومن هنا اختلفت الوسائل والسبل التي سلكها النبي صلى الله عليه وسلم ، وسلكها من بعده الخلفا الراشدون — رضي الله عنهم — في موقفهم من الخلافة . .

فليس في القرآن الكريم ، ولا في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما يشير إلى نظام معين ، في اختيار الخليفة ، ومقتضى ذلك أن للأمة مطلق الحرية في اختيار أي نظام يؤدي إلى إقامة الخلافة ، وتحقيق الغرض منها ، ما دام لا يخرج عن إطار دينها الحنيف ، وفي حدود كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وهكذا : فان النبي صلى الله عليه وسلم ، صعد إلى الرفيق الأعلى ، دون أن يعين من يخلفه تعييناً صريحاً ، ولكن الصحابة — رضوان الله عليهم — بعد تبادل الآراء فيما بينهم ، اجتمعت كلمتهم على مبايعة الصديق رضي الله عنه ، خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما يعلمونه من سابقته في الإسلام ، ومصاحبته للنبي صلى الله عليه وسلم في كل المواطن ، وايثاره له على نفسه وأهله وماله : فضلا عن تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مقامه ، حين اشتد به المرض ، فقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس(٣) » فكان اختيار النبي صلى الله عليه وسلم له إماماً للصلاة ، التي هي عماد الدين ، إشارة إلى جدارته أن يكون — من باب أولى — إماماً للمسلمين في أمور الدنيا كذلك .

* * *

أما أبو بكر رضي الله عنه ، فانه حين ثقل المرض عليه ، وأحس بدنو أجله ، آمر الفاروق عمر ابن الخطاب أن يصلي بالناس ، وفي هذا إشارة إلى استخلافه من بعده ، كما فعل النبي صلى الله عليه

(١) سورة البقرة : آية ١٩٣ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي : ١ — ٢٦٤ .
(٣) البخاري : من حديث عائشة رضي الله عنها .

وسلم ، ثم دعا بعض أكابر الصحابة لمشاورتهم ، وأخيراً . رأى أن يستخلف بعده عمر بن الخطاب — رضى الله عنهما — وكتب بذلك عهداً جاء فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما دعا به أبو بكر بن أبى قحافة ، فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إنى قد استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وأنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً ، فان عدل فذلك ظنى به ، وعلمى فيه ، وإن بدل فلكل امرىء ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »(١) والسلام عليكم ورحمة الله(٢) .

* * *

وتورع الفاروق عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أن يتحمل أمر الأمة حياً وميتاً ، فقال : — إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى — يعنى أبا بكر رضى الله عنه — وأن أترككم فقد ترككم من هو خير منى .. رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣)

فلما ألح الناس عليه أن يستخلف ، قال رضى الله عنه :

« عليكم بهؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنهم من أهل الجنة : « سعيد ابن عمرو بن نفيل منهم ولست مدخله ، ولكن الستة : على وعثمان ابنا عبد مناف ، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والزبير بن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، وطلحة الخير بن عبيد الله ، فليختاروا منهم رجلا ، فاذا ولوا والياً فليحسنوا مؤازرته وأعينوه ، إن أئتمن أحداً منكم فليؤد إليه أمانته »(٤) .

* * *

فلما استشهد عثمان — رضى الله عنه — عدل الناس إلى على — رضى الله عنهما — فامتنع من إجابتهم إلى قبول الخلافة ، وفر منهم إلى حائط بنى عمرو بن مبذول ، وأغلق بابه ، ولكن الناس ما زالوا به حتى أجابهم(٥) :

وحذا على — كرم الله وجهه — حذو النبى صلى الله عليه وسلم ، حين قيل له — بعد أن ضربه ابن ملجم — استخلف يا أمير المؤمنين : فقال :

— لا .. ولكن أدعكم كما ترككم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان يرد الله بكم خيراً يجمعكم على خيركم ، كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) سورة الشعراء : آية ٢٢٧ .
(٢) عيون الأخبار : ١ - ١٥ . الكامل للمبرد ١ - ١٢ .
(٣) البخارى ومسلم ، من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .
(٤) تاريخ الرسل والملوك ، لأبى محمد بن جرير الطبرى : ٤ - ٢٢٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧ - ١٤٥ .
(٥) تاريخ الرسل والملوك ، لأبى محمد بن جرير الطبرى : ٤ - ٤٢٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧ - ٢٢٦ .

فلما قبض — رضى الله عنه — تقدم قيس بن سعد[١] إلى الحسن رضى الله عنه فقال له :

أبسط يدك أبا يعك على كتاب الله وسنة نبيه . .

وسكت الحسن — رضى الله عنه — فبايعه قيس ثم بايعه الناس[٢] .

نظرية الماوردى فى عقد الإمامة :

وقد استنبط القاضى : أبو الحسن الماوردى ، من كيفية اختيار الخلفاء الراشدين : أن الإمامة تنعقد بوجهين : أحدهما باختيار أهل الحل والعقد ، (كما وقع بالنسبة للصديق وعثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين) والثانى بعهد الإمام من قبل ، (كما وقع بالنسبة لعمر رضى الله عنه) ثم قال :

« فأما انعقادها باختيار أهل الحل والعقد : فقد اختلف العلماء فى عدد من تنعقد به الإمامة منهم على مذاهب شتى ، فقالت طائفة : لا تنعقد إلا بجمهور أهل الحل والعقد من كل بلد ، ليكون الرضاء به عاماً ، والتسليم لإمامته إجماعاً ، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبى بكر رضى الله عنه على الخلافة ، باختيار من حضرها ، ولم ينتظر ببيعته قدوم غائب عنها »[٣] .

« وقالت طائفة أخرى : أقل من تنعقد به منهم الإمامة خمسة ، يجتمعون على عقدها ، أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة ، استدلالا بأمرين ، أحدهما أن بيعة أبى بكر — رضى الله عنه — انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ، ثم تابعهم الناس فيها ، وهم : عمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة الجراح ، وأسيد بن حضير ، وبشير بن سعد ، وسالم مولى أبى حذيفة — رضى الله عنهم . والثانى أن عمر — رضى الله عنه — جعل الشورى فى ستة ، ليعقد لأحدهم برضا الخمسة . وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة »[٤].

ونقول : إنه استدلال بدون دليل ! ! أولا : لأن بيعة أبى بكر لم تنعقد بخمسة اجتمعوا عليها ، لأن الصحابة — رضى الله عنهم — حين اجتمعوا بالسقيفة ، أنصاراً ومهاجرين ، لم يكن أحد منهم قد استقر فى ذهنه من يكون خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم — كما سيأتى إيضاحه فيما بعد — حتى انتهت المحاورات بين الفريقين ، إلى ظهور فضل أبى بكر — رضى الله عنه — فصاح الأنصار قائلين : معاذ الله أن نتقدم أبا بكر وسارع الجميع — لا الخمسة المذكورون فقط — إلى الضرب على يد الصديق مبايعين ، وثانياً : لأن حصر عمر — رضى الله عنه — الشورى فى ستة ، لم يكن مقصوداً ، حتى يتخذ هذا العدد أساساً لانعقاد البيعة ، وإنما كان ذلك لأنهم كانوا بقية العشرة المبشرين بالجنة ، ولولا قرابة سعيد بن عمرو بن نفيل لعمر — رضى الله عنهما — لأدخله فيهم ، ولكانوا سبعة ، ولكنه أخرجه من أهل الشورى تورعاً من أن يختار لقرابته له ، . . ولو كان من تبقى من العشرة الكرام أقل من ستة ،

---

(١) هو قيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنهما ، من دهاة العرب وأهل الرأى والمكيدة فى الحرب ، مع النجدة والسخاء والشجاعة ، شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد ، وكان حامل راية الأنصار يوم الفتح ، وكان مع على فى مشاهده وأميراً له على مصر ، « الاصابة لابن حجر : ٣ - ٢٤٩ » .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٤ .

(٣ ، ٤) الأحكام السلطانية ، والولايات الدينية ، للقاضى أبى الحسن الماوردى : ص ٤ ، ٥

لم يكن هناك ما يمنع من حصر الاختيار فيهم . . ومن ثم فالعبرة هنا ليست بالعدد ، إنما العبرة بالخيرية والفضل ، وهؤلاء الستة كانوا بشهادة الذى لا ينطق عن الهوى — صلى الله عليه وسلم — هم خير الأمة وأفضلها .

ويواصل القاضى الماوردى عرض بقية المذاهب بشأن العدد الذى تنعقد به الإمامة من أهل الحل والعقد ، فيقول :

« وقال آخرون من علماء الكوفة : تنعقد بثلاثة ، يتولاها أحدهم برضا الاثنين ، ليكونوا حاكماً وشاهدين ، كما يصح عقد النكاح بولى وشاهدين »(١) .

« وقالت طائفة أخرى : تنعقد بواحد ، لأن العباس قال لعلى — رضوان الله عليهما — أمدد يدك أبايعك ، فيقول الناس : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بايع ابن عمه ، فلا يختلف عليك اثنان ، ولأنه حكم ، وحكم واحد نافذ »(٢) .

أما فيما يتعلق بقول بعض علماء الكوفة أن الإمامة تنعقد بثلاثة ، قياساً على عقد النكاح بولى وشاهدين ، فهو قياس مع الفارق ، وأما القول بأنها تنعقد بواحد لقول العباس لعلى — رضى الله عنهما — أمدد يدك أبايعك . . الخ فيمكن رده بأن علياً — كرم الله وجهه — أبى ذلك ولم يقبله .

المبادىء التى يقوم عليها عقد الإمامة :

والذى يمكن استخلاصه على ضوء ما تقدم ، أن الاعتبار فى اختيار الخليفة ، ليس بالعدد الذى يتفق على اختياره من أهل الحل والعقد ، وإنما بالكيفية التى يتم بها الاختيار .

ولو رجعنا إلى الكيفية التى تم بها اختيار كل من الصديق وعثمان — رضى الله عنهما — عن طريق أهل الحل والعقد ، لأمكننا أن نستنبط منها المبادىء الأساسية التى تتفق مع روح الإسلام ومقاصده .

ولقد كان أبرز ما فى الحالتين ظاهرتان :

الأولى : الشورى ، بتبادل الآراء بين أهل الحل والعقد ، قبل عقد الإمامة لهذا أو لذاك ، وذلك أخذاً بقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم »(٣) وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما شقى قط عبد بمشورة ، وما سعد باستغناء رأى »(٤) وقال الحسن رضى الله عنه . « ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم »(٥) ومن ثم فلا يصح لأحد من أهل الحل والعقد ، أو لأى عدد منهم : أن يعقدوا الإمامة لأى كان إلا بعد الانتهاء من الشورى ، التى بها تستعرض وجهات النظر المختلفة ، ويتضح ما قد يكون خافياً من الأمور ، أو غامضاً من الاعتبارات ، وهذا ما حدث فى مؤتمر السقيفة ، بعد لحاق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وما حدث فى اجتماعات الستة من أهل الشورى الذين اختارهم عمر رضى الله عنه .

(١ ، ٢) الأحكام السلطانية ، والولايات الدينية ، للقاضى أبى الحسن الماوردى : ص ٥ .

(٣) سورة الشورى : آية ٣٨ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : ٤ - ٢٥١ ، من حديث سهل بن سعد الساعدى .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبى : ١٦ - ٣٦ .

أما أن تعقد الإمامة بواسطة فرد – كما كان ابن عباس رضى الله عنه يرى – أو بواسطة جماعة مكونة من ثلاثة أو خمسة ، قبل تحقيق المشورة الواجبة شرعاً ، فان ذلك قد يؤدى إلى تحكم الأهواء وتفرق الكلمة ، بحيث قد يتحول الأمر إلى الفوضى ، بتعدد الخلفاء الذين قد تتم بيعتهم فى آن واحد ، من بعض أهل الحل والعقد ، هنا أو هناك ، لا سيما بعد ذهاب الصف الأول من الصحابة المشهود لهم جميعاً بالعدالة.

الثانية : الانقياد لرأى الجماعة ، وذلك بعد تبادل الآراء ، وانتهاء المشورى ، بظهور الحق ، ووضوح الأمر ، كما حدث فى مؤتمر السقيفة . فان عمر لم يطالب الصديق أن يمد يده ليبايعه ، إلا بعد أن ظهر له رأى جماعة المسلمين واضحاً ، وفيهم أهل الحل والعقد ، فقد تعالت الأصوات معترفة بمقام الصديق وفضله ، وتتابع الجميع يبايعونه ، ولم يتخلف عن ذلك أحد ، حتى هؤلاء الذين كانوا يعارضونه فى أول الأمر ، لأن رأى الجماعة يلزم الأفراد فى مثل هذه الأمور .

ويؤيد ذلك : ما حدث بالنسبة لثالث الخلفاء الراشدين – رضى الله عنهم – فان عمر – رضى الله عنه – بعد أن حصر الأمر فى الستة من أصحاب الشورى ، دعاهم إليه وقال لهم :

« إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض ، إنى لا أخاف الناس عليكم أن استقمتم ، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها ، فتشاوروا واختاروا رجلا منكم »(١) .

وأرسل – رضى الله عنه – إلى أبى طلحة الأنصارى فقال له :

« يا أبا طلحة ، إن الله عز وجل طالما أعز الإسلام بكم ، فاختر خمسين رجلا من الأنصار : فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلامنهم . . وقم على رءوسهم ، فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا ، وأبى واحد ، فاشدخ رأسه بالسيف ، وان أتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان ، فاضرب رءوسهما ، فان رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، اللهم أنت خليفتى فيهم »(٢) .

وانتهى أهل الشورى إلى أن جعلوا الأمر لعبد الرحمن بن عوف – بعد أن أخرج نفسه منه – ليختار لهم أحد رجلين ، عثمان بن عفان أو على بن أبى طالب – رضى الله عنهم أجمعين – فأخذ فى مشاورة الناس مثنى وفرادى ، سرا وجهرا ، فتبين له أن أكثرية الناس لا تعدل عن عثمان أحداً ، فأعلن ذلك فى المسجد ، وازدحم الناس يبايعون عثمان ، وفى مقدمتهم على بن أبى طالب – رضى الله عنهما –

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٤ - ٢٢٨ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٤ - ٢٢٩ ، البداية والنهاية لابن كثير ٧ - ١٤٥ .

« وما يذكره كثير من المؤرخين أن عليا قال لعبد الرحمن خدعتني ، وأنما وليته لأنه صهرك ؟ ؟ إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحاح ، فهي مردودة على قائليها وناقليها . . »[١] .

وقدم طلحة في اليوم الرابع الذي بويع فيه لعثمان — رضي الله عنهما — فسأل : أكل قريش راض به ؟ قيل : نعم فلما التقى بعثمان قال له عثمان : أنت على رأس أمرك ، أن أبيت رددتها ، قال ، أتردها ؟ قال نعم ، قال أكل الناس بايعوك ؟ قال نعم . قال طلحة : قد رضيت ، لا أرغب عما أجمعوا عليه ، وبايعه[٢] :

وهكذا يتضح من وصية عمر بقتل المخالفين — إذا أصروا على الخلاف — ومن مسارعة علي إلى بيعة عثمان — رضي الله عنهما — ومن قول طلحة بن عبيد الله « لا أرغب عما أجمع الناس عليه » يتضح من كل ذلك أن الانقياد لرأي الجماعة من المبادىء المقررة في أمر الخلافة — التي لم يكن بين الصحابة أي خلاف حولها — إذا كان عقدها عن طريق أهل الحل والعقد :

عدم توارث الخلافة بين الخلفاء الراشدين :

على أنه من الواضح كل الوضوح . بمراجعة موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، من الخلافة بسكوته عن العهد بها إلى أحد من بني هاشم ، ومواقف الخلفاء الراشدين — رضي الله عنهم — من بعده ، حيث أنهم جميعاً لم يعهدوا من بعدهم لأحد من أهليهم : أن الخلافة — على ضوء ما تقدم — ليست حقاً متوارثاً ، وإلا لكان أولى الناس بها أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه — صلى الله عليه وسلم — لم يعهد بها إلى أحد منهم : فاختار المسلمون الصديق — رضي الله عنه — خليفة لهم ، لما يعلمونه من سابقته في الإسلام ، وتقديم النبي — صلى الله عليه وسلم — له ، وقد حذا الصديق — رضي الله عنه — حذو النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يعهد بها إلى أحد من أهله ، بل عهد بها إلى الفاروق رضي الله تعالى عنه

واقتدى الفاروق بصاحبيه — رضي الله عنهما — ، فكان أشد ما يكون حرصاً على الابتعاد بأهله عن مسئوليات الخلافة وأعبائها ، حتى أنه لما أشار عليه المغيرة بن شعبة[٣] بتولية عبد الله بن عمر قال :

« يحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ، ويسأل عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم »[٤] .
ويروى عنه أيضاً أنه قال :

« من استعمل رجلا لمودة أو قرابة ، لا يحمله على استعماله إلا ذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ومن استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله »[٥] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٧ - ١٤٧ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبري : ٤ - ٢٤٤ .

(٣) المغيرة بن شعبة : أسلم يوم الخندق ، وشهد الحديبية وبيعة الرضوان ، وحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كما شهد اليمامة وفتوح الشام والعراق ، وأصيبت عينه باليرموك ، وولاه عمر البصرة ، ففتح ميسان وهمدان وعدة بلاد ، وكان من دهاة العرب ، ما وقع في امر إلا وجد له مخرجاً ، وتوفي سنة ٤٩ أو ٥٠ من الهجرة . الاصابة لابن حجر : ٣ - ٤٥٢ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبري ٤ - ٢٢٨ .

(٥) الفتوحات الإسلامية : ٢ - ٤٢٧ .

بل لقد بلغ بالفاروق - رضى الله عنه - من تمام الورع ، ما حمله على استبعاد سعيد بن عمرو من أهل الشورى ، مع أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة ، رضى الله عنهم أجمعين ، وذلك لكونه ابن عمه ، خشية أن يراعى فيولى[١] .

وكذلك كان موقف رابع الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم أجمعين - فقد دخل جندب بن عبد الله[٢] على على - كرم الله وجهه - وهو على فراش الموت فقال :

« يا أمير المؤمنين : أن فقدناك - ولا نفقدك - فنبايع الحسن » ؟ . . فقال :

« ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر »[٣] .

زهد الصحابة فى الخلافة :

وهكذا كانت نظرة الصحابة - رضى الله عنهم - إلى الخلافة - مع أدراكهم بوجوبها وأهميتها - نظرة الزهد فيها ، والأشفاق منها ، لقوة الوازع الدينى فى نفوسهم ، وتهيبهم خطورة المسئولية التى يتحمل الخليفة أعباءها ، أمام الله والناس ، حتى أن الصديق - رضى الله عنه - لما عهد بها إليه ، وهو بلا شك أحق الناس بها ، وأقدرهم عليها . ومع ذلك : فقد كان متبرماً بها ، مشفقا منها ، حتى أنه ليقول فى خطابه للناس ، وقد أجتمعوا على بيعته ، واستقرت مقاليد الأمور بين يديه :

والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة ، ولا كنت فيها راغباً ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية ، ولكنى أشفقت من الفتنة ، ومالى فى الإمارة من راحة ، ولقد قلدت أمرا عظيماً ما لى به طاقة ولا يدان إلا بتقوية الله عز وجل ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكانى اليوم[٤] .

ولقد روى أن الصديق - رضى الله عنه - قال فى موطن آخر : « ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر فقال لى : « يا أبا بكر ، هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش عليه ، وهو لمن يتضاءل عنه لا لمن يشمخ إليه ، وهن لمن يقال له هو لك . لا لمن يقول : هو لى »[٥] .

وهذا هو الفاروق - رضى الله عنه - وهو على وشك لقاء ربه ، يقول لمن أثنوا عليه خيراً : « أما والله على ما تقولون ؟ وددت أنى خرجت منها كفافاً ، لا لى ولا على ، وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت لى » [٦] .

* * *

ولما استشهد عثمان - رضى الله عنه : حاول الناس أن يبايعوا علياً كرم الله وجهه ، ففر منهم إلى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٧ - ١٤٥ .

(٢) جندب بن عبد الله بن سفيان البجلى : صحبته ليست بالقديمة ، كان من أهل الكوفة ، ثم صار إلى البصرة ، روى عنه كثيرون ، وله رواية عن أبى بن كعب وحذيفة . (الاصابة . ١ - ٢١٧) .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : ٥ - ١٤٦ .

(٤) الرياض النضرة ، للمحب الطبرى : ١ - ٢١٩ ، البداية والنهاية : ٦ - ٣٠٢ .

(٥) صبح الأعشى : ٥ - ٢٤٠ .

(٦) الرياض النضرة : ٢ - ٩٣ .

حائط بني عمرو بن مبذول ، « أغلق بابه عليه » . . وبقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان ، وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر ، والمصريون يلحون على علي ، وهو يهرب منهم إلى الحيطان ، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه ، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم . . فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص ، فقالوا : إنك من أهل الشورى ، فلم يقبل منهم ، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم ، فحاروا في أمرهم . . فرجعوا إلى علي فألحوا عليه ، وأخذ الأشتر بيده فبايعه ، وبايعه الناس ، وذلك يوم الخميس ، الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٣٥ ، فلما كان يوم الجمعة ، وصعد المنبر ، بايعه من لم يبايعه بالأمس » (١) .

فأي روح عالية تلك التي كانت تهيمن على هذه الصفوة الممتازة من أصحاب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وأي شعور بالمسئولية هذا الذي كان يملأ قلوبهم ، وترجف له أوصالهم . . مسئولية الرعاية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى كان الجميع يفرون من الخلافة ، وكأنها الخطر الداهم . أو الموت الأحمر ! !

تخرصات بعض المعاصرين والمستشرقين :

ومن العجب بعد ذلك : أن نرى بعض المعاصرين يتهمون علياً — كرم الله وجهه — بالسعي إلى الإمارة ، ويصورون تخلفه عن بيعة الصديق : طمعاً فيها أو حرصاً عليها ! ! فماذا يقولون في تهربه منها ، بعد أن سبقت إليه ؟ . . وزهده فيها رغم إلحاح الناس عليه ؟ .

وأعجب من ذلك : ما تناقله بعض المعاصرين من أوهام وافتراءات المستشرقين ، عما زعموه من انقسام الصحابة — عقب لحاق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى — إلى عدة أحزاب ، كان يعمل للوصول إلى الخلافة ، والاستئثار بالسلطان . . ! !

وحاشا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكونوا كذلك ، وهم نجوم الهدى . . الذين وضعوا الدنيا تحت أقدامهم ، وبذلوا كل مرتخص وغال في سبيل رضاء ربهم ، ونصرة دينهم . .

إنما الأمر كان أمر خلاف حول الحق ، وفي سبيل المصلحة العامة ، نتيجة الاختلاف في وجهات النظر ، ولا لوم في ذلك عليهم ، ما دام رائد الجميع الصدق في القول ، والأخلاص في النصيحة . . إنما اللوم أن يكون الخلاف قائماً على الهوى ، وأن تكون النصيحة مشوبة بالغرض ، وأن يستمر الخلاف قائماً بعد وضوح الحق وظهوره ، وهو ما لم يحدث .

وليس أدل على ذلك : من أن الأنصار الذين كانوا يظنون أن الحق في جانبهم ، فما كادت الحقيقة تتضح أمام ناظرهم ، حين صاح بهم الفاروق — رضي الله عنه — قائلا :

« يا معشر الأنصار : ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس ؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ » (٢) .

ما كادت حجة الفاروق تقرع آذان الأنصار — رضي الله عنهم أجمعين — حتى أجابوا على الفور : « نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر » (٣) : ليس ذلك فحسب : بل سارعوا إلى بيعة الصديق ، حين أخذ عمر

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري : ٤ - ٤٣٢ ، البداية والنهاية : ٧ - ٢٢٦ .

(٢ ، ٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٥ - ٢٤٧ .

بيده ، فابتدره أحد الأنصار — هو بشير بن سعد ، والد النعمان بن بشير رضي الله عنهما — فضرب على يد الصديق مبايعاً ، وهو يقول « والله لا يبايعه أحد قبلي »[1] .. ثم تتابع الأنصار والمهاجرون يبايعون جنباً إلى جنب ، وقد وحد الحق كلمتهم ، وألف الإسلام بين قلوبهم .

ودليل آخر على سمو هؤلاء الكرام البربرة فوق المطامع والأهواء — الأنصار والمهاجرون يبايعون جبنا إلى جنب ، وقد وحد الحق كلمتهم ، وألف أن يستأثر بالأمر لنفسه ، أو أن يرى له فضلا على غيره ، وبعكس ذلك ؛ كان كل منهم يرى نفسه دون غيره فضلا ومقاماً ، ويرى غيره أولى بالأمر حقاً وإيماناً ، حتى أن كلا منهم كان يبحث بين الناس عمن يصلح فى نظره خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا هو عمر وأبو بكر يفكر كل منهما فى مبايعة أمين الأمة : أبي عبيدة الجراح ، فى حين نرى أبا عبيدة يتضاءل دون ذلك ، لما يعلمه من فضل الصديق وصحبته للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإيثاره على نفسه وولده وماله ، وما نزل من القرآن فى شأنه ، وما وقع من أختيار النبي صلى الله عليه وسلم ليحل محله إماماً للمسلمين فى الصلاة . . بينما نرى الصديق نفسه يرشح للخلافة عمر بن الخطاب ، وأبا عبيدة ، ثقة منه أنهما أقوى منه على القيام بأعبائها ، وأحق منه بها . .

فأين هذه الصورة الكريمة السامية ، مما يصوره بعض المستشرقين ، ويردده نقلا عنهم تلامذتهم من المعاصرين ، من انقسام الصحابة إلى أحزاب متناحرة . . وأشتات متنافرة . . بل أين كانت هذه الأحزاب المزعومة بعد خلو مكان الخلافة باستشهاد عثمان رضى الله عنه ، وقد كان يجب أن تكون — فى وجودها — أوضح صورة ، وأكثر فاعلية ، وقد مضى على تكوينها المزعوم منذ مؤتمر السقيفة ما يقرب من خمس وعشرين سنة : ؟ !

وأين كانت هذه الأحزاب حين ظلت المدينة — بل ظلت الأمة الإسلامية بأسرها — خمسة أيام ، دون أمير مسئول عن سياستها ، أو راع يسهر على مصالحها ؟ . . فلو أن هذه الأحزاب كانت حقيقة واقعة لرأينا التنافس على أشده بين المرشحين للخلافة ، والطامعين فى السلطان ، ولكن : على العكس من ذلك : رأينا الصورة النبيلة التى قدمها الصحابة فى السقيفة ، هى نفس الصورة التى يقدمونها فى هذه المحنة ، أعراضاً من أكابر أهل الحل والعقد عن الخلافة ، وزهداً فيها ، مع أنهم جميعاً : هم العارفون بحقها ، القادرون عليها ، ولكنهم مع ذلك : كانوا جميعاً مشفقين منها ، لأنهم لا يعنيهم العلو فى الدنيا ، بقدر ما يعنيهم عدم التلوث بأدرانها ، ليسلم لهم دينهم ، وتسلم لهم آخرتهم .

ومن ناحية أخرى : لقد ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الصفوة المختارة من أئمة الهدى على الإيثار ، فكل منهم — كما ذكرنا — يؤثر غيره بالفضل . . وهكذا ظل كل منهم يرفض الإمارة ، لأنه يرى أن غيره أحق بها ، وأقدر عليها ، حتى أعرض عنها الجميع ، وأصروا على مجانبتها ، فعرضت

(١) طبقات ابن سعد : ٣ - ١٨٣ .

من جديد على أولهم – على بن أبي طالب كرم الله وجهه – فاضطر إلى قبولها ، حتى لا تظل الأمة بدون راع . . وحتى لا تصير أمور الناس ومصالحهم إلى الفوضى .

إن هذه الصورة الكريمة ، من العزوف عن الخلافة ، لتهدم من القواعد كل ما زعمه الزاعمون من تنازع الصحابة على الحكم ، وتنافسهم على السلطان .

حكمة عدم تحديد نظام للخلافة :

وقد أوضحنا أن الطرق التي تم بها اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة – رضى الله عنهم أجمعين – تختلف كل منها عن الأخرى ، ويمكننا أن ندرك من ذلك : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضع نظاماً معيناً يرجع إليه المسلمون فى إقامتهم للخلافة ، ولم يكن ذلك عفوا ، أو كما يزعم بعض المستشرقين آن مرضه – صلى الله عليه وسلم – فى أيامه الأخيرة حال دون ذلك(١) . : لأن نزول الوحى بقوله جل وعلا : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »(٢) . نص قاطع فى أن التشريعات اللازمة لبناء الأمة المسلمة ، وتنظيم المجتمع الإسلامى ، قد اكتملت فى كل ناحية من نواحيها .

ومن ثم : فان سكوت النبي صلى الله عليه وسلم – وهو الذى لا ينطق عن الهوى – عن بيان النظام المطلوب ، معناه رضاء المولى عز وجل عن ذلك ، لحكمة عظمى فى علمه ، قد يخفى علينا الإحاطة الشاملة بها ، ولكن فى الإمكان أن ندرك بعض مراميها ، مثل : عدم تقييد الأمة بنظام معين ، قد يصلح فى بعض الظروف ، وقد لا يصلح فى ظروف أخرى . . ومثل : إتاحة الفرصة لقادة الأمة ، أن يجدوا المرونة الكافية فى تطبيقهم لأصول الحكم ، بما يمكنهم من تطويره ، ليلائم الصالح العام ، فى مختلف العصور والأقطار .

وفى مثل هذا المعنى يقول فضيلة الشيخ زكى الدين شعبان – أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية حقوق عين شمس :

« من الأمور المقررة : أن الكتاب العزيز أساس الشريعة وأصلها الأول ، وأن الله تعالى جعله تبياناً لكل شيء ، كما يدل على ذلك قول الله سبحانه : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء »(٣) . غير أن بيان الكتاب للأحكام على سبيل الإجمال لا التفصيل ، وعلى نحو كلى لا جزئى ، كما دل على ذلك الاستقراء والتتبع : . والحكمة من مجيء التشريع فى الكتاب على هذا النحو ؛ جعل قواعد الشريعة ونصوصها من المرونة والشمول ، بحيث تتسع لحاجات الناس مهما طال الزمن ، وتطور حال الأمة ، وتعددت الحاجات وتنوعت ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأن القواعد لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وإنما الذى يختلف هو الجزئيات ، مما يدلنا على مرونة النصوص الشرعية ، وشمولها »(٤) .

---

(١) راجع النظريات السياسية الإسلامية ، للدكتور الريس : ص ٢٤ .

(٢) سورة المائدة : آية ٣ .

(٣) سورة النحل : آية ٨٩ .

(٤) أصول الفقه الإسلامى ، للشيخ زكى الدين شعبان : ص ٤٧ ، ٤٨ .

ويقول : الشيخ إبراهيم دسوقى الشهاوى : أستاذ الفقه المقارن بكلية الشريعة بجامعة الأزهر :

« . . إن قواعد الدين ونصوصه لم تعرض للتفاصيل والجزئيات ، فإن الحوادث لا تقف عند حد ، فكل زمن يحدث لأهله من الوقائع ما لم يكن يعرفه أهل الزمان السابق ، لكن أهل الفقه والمعرفة يستطيعون بقوة مداركهم أن ينزلوها على عمومات الكتاب والسنة »(١) .

ويقول الدكتور : محمد ضياء الدين الريس : الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة :

« إن من الصفات الظاهرة التى حرص عليها المشرع : أن تظل القوانين الإسلامية مرنة ، حتى تعطى مرونتها الفرصة للتفكير ، وللجماعة أن تشكل نظمها وأوضاعها بحسب المصالح المتجددة ، وهذه أحدى الخصائص التى يعرف بها التشريع الإسلامى ، فالتشريع السياسى فيه لم يخرج عن هذه القاعدة ، والذى يرجحه الذهن أن هذه الحكمة كانت مراعاة ، وأن هذا وحدة هو التفسير الذى ينبغى أن يقبل »(٢) .

القواعد العامة للحكم الصالح :

على أن الكتاب والسنة وإن كانا قد تركا تفصيل النظام اللازم لإقامة الخلافة : فإنهما من ناحية أخرى قد تضمنا من القواعد العامة ، ما يكفى لتحقيق الحكم الصالح فى أكمل صورة ، بصرف النظر عن النظام العام للدولة . . من ذلك :

أولا : طالب الولاية لا يولى : لأن حرصه عليها دليل على استخفافه بمسئوليتها ، قال تعالى ، : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى »(٣) . . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا والله لا نولى هذا العمل أحداً حرص عليه »(٤) .

ثانياً — وجوب إقامة الشورى : أى فيما لم يرد فيه نص ، فإذا وجد النص بطل الاجتهاد ، قال تعالى : « وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله »(٥) .

ثالثاً — وجوب مراعاة العدل : قال تعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(٦)

رابعاً — وجوب طاعة الأمير : ما لم يأمر بأمر بمعصية ، فإن أمر بها فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »(٧)

خامساً — الاحتكام إلى الله والرسول : لحل ما قد يشجر بين الناس من منازعات أو خلافات ، قال تعالى : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول »(٨) .

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى ، لابراهيم دسوقى الشهاوى ، ص ٣٩ .

(٢) النظريات السياسية الإسلامية ، للدكتور محمد ضياء الدين الريس : ص ٢٥ .

(٣) سورة النجم : آية ٣٢ .

(٤) متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى .

(٥) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .

(٦) سورة النساء : آية ٥٨ .

(٧ ، ٨) سورة النساء : آية ٥٩ .

سادساً — الحكم بما أنزل الله . . أى فى سياج الأوامر والنواهى التى تضمنها كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم »(١) :

ويمكننا أن نستخلص مما تقدم : أن الخلافة فى الإسلام ، تستهدف اختيار أصلح الناس — قدر الإمكان ليكون أميراً للمؤمنين ، دون ما سعى منه إلى ذلك ، ليحكم الأمة حكماً شورياً ، يقيم به العدل بين الناس ، فى حدود ما أمر به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وله حق الطاعة عليهم ، ما أطاع الله ورسوله : :

وتتضح مثل هذه المعانى من خطاب الصديق بعد انعقاد البيعة له ، حيث قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أما بعد أيها الناس ، فانى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه أن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا خذلهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوة إلا عمهم البلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم »(٢) :

أثر الوازع الدينى فى نهضة الأمة :

ولقد كان لقوة الوازع الدينى فى النفوس ، وتقدير الصحابة للمسئولية ، وايثارهم المصلحة العامة على مصالحهم الخاصة ، وأدراك كل من الراعى والرعية ما لهم وما عليهم . . كل ذلك وغيره . . كان كفيلا باستقرار الأمور فى الدولة الإسلامية ، وظهور المجتمع الإسلامى فى أروع صور العدالة والأخوة والمساواة ، حتى بلغ السمو بذلكم المجتمع ، أن الفاروق عمر بن الخطاب ، وقد تولى القضاء فى خلافة الصديق — رضى الله عنهما — « مكث سنة لا يأتيه رجلان »(٣) :

ولا شك أن لمثل هذه الصورة الرائعة مغزاها البعيد المدى : :

أن أمة كانت تتكون إلى عهد قريب من أعراب غلاظ الأكباد ، بلغوا من الجهالة والتخلف ، أن وصفهم الله تعالى بأنهم أشد كفراً ونفاقاً ، وكانت حياتهم ثارات متوارثة ، وغارات مستمرة . . هذه الأمة : يرتفع بها الإسلام إلى أسمى مقام ، وأرفع مكانة ، فيوحد كلمتها ، ويطفىء ثاراتها ، ويؤلف بين قلوبها : : فتصبح بحق خير أمة أخرجت للناس ، وتضرب للعالمين أكرم المثل فى المروءة والوفاء ، والبطولة والفداء ، والتعاون والأخاء ، حتى استشعر جميع من فيها الطمأنينه التامة على أعراضهم ودمائهم وأموالهم : : لا خوفاً من القانون ، ولا رهبة من بطش السلطان ، وإنما كان ذلك إيماناً منهم بالله ، واطمئناناً لشريعة الله ، إذ قد تحولت هذه العقيدة فى أعماقهم إلى سلوك يحكم كل تصرفاتهم ، ويسيطر على أفكارهم وآمالهم ، فلم يعد هناك أحد يفكر فى العدوان على أحد أو فى أغتصاب حقوق أحد ، أو أنكار أى حق قبله لأى أحد : : إلى أن وصل الأمر بهذه الأمة : : فى خلال سنوات قليلة ، أن ارتفعت

---

(١) سورة المائدة : آية ٤٩ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٢ - ٣٧٤ ؛ تاريخ الطبرى : ٣ - ٢١٠ ، الكامل لابن الأثير : ٢ - ٢٢٥ ، البداية والنهاية ٦ - ٣٠١ .

(٣) التاريخ الكامل لابن الأثير : ٢ - ٢٨٩ .

إلى ذلكم المستوى : الذى استغنت فيه بإيمانها بالله ، وحرصها على طاعته وابتغائها مرضاته عن الحاكم والقضاة ، فلا ظلم بينهم ولا طغيان ، ولا بغى ولا عدوان ، فكل منهم يحكم نفسه بنفسه ، ويقضى على نفسه بنفسه بما يقضى به الله ورسوله :

تلك هى ثمرة النظام الإسلامى ، القائم على تعاليم القرآن ، وتوجيهات سيد الأنبياء والمرسلين :

تطور الخلافة إلى ملك :

غير أن أتساع الفتوحات الإسلامية ، وما تبع ذلك من دخول عناصر جديدة فى الإسلام ، ليس للوازع الدينى فى نفوسها ، ما له من قدسية فى نفوس الرعيل الأول من الصحابة : أدى ذلك إلى تطور الأحوال فى بعض الأقطار الإسلامية الجديدة ، واختلاف بعض الصحابة فى نظرتهم إلى الإمارة — وهى الصورة المصغرة للخلافة — وطريقتهم فى القيام بأعبائها ، فبعد البساطة المتناهية ، التى كان يتسم بها عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ كان لا يتميز عن أصحابه ، ويجلس بينهم كواحد منهم ، حتى كان الغريب إذا جاء مجلسه يقول : أيكم محمد ؟ وبعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، التزم الخلفاء الراشدون من بعده سنته — صلى الله عليه وسلم — فى البساطة وعدم التكلف ، فكان الفاروق عمر ابن الخطاب — رضى الله عنه — وهو أمير المؤمنين الذى يمتد سلطانه إلى مشارق الأرض ومغاربها ، كان يلبس المرقعة ، ويأتدم بالخل ، ويتوسد الحجر ، ويمشى فى الأسواق كأى فرد من الناس ، لا يرافقه حشم ، ولا يتبعه حرس ، حتى أن سفير كسرى حين وفد المدينة وجده نائماً ملء جفنيه ، فى ظل دوحة كبيرة ، لا يحيط به جند ، ولا يبال به أحد . . فأخذه العجب ، وأذهلته العبرة ، فقال عبارته المشهورة : حكمت . . فعدلت . . فأمنت . . فنمت يا عمر . ! !

بعد هذه البساطة . . وبعد هذا الزهد . : بدأ بعض أمراء الأمصار ، يضفون على أماراتهم مسحة من تقاليد الملك وصورته ، بما يتطلبه من مظاهر الأبهة والفخامة ، والسيطرة والسلطان ، مدفوعين إلى ذلك بالرغبة فى إظهار الإسلام بمظهر العزة والقوة ، بالطريقة التى تعودها أهل تلك الأمصار ، دون أن يحيد بهم ذلك عن إقامة حكم الله ، ورعاية مصالح الناس ، وحماية مقدساتهم :

روى أن عمر بن الخطاب : حينما التقى بمعاوية — رضى الله عنهما — عند قدومه إلى الشام ، وقد أقبل عليه فى أبهة الملك وزيه ، من العديد والعدة ، الأمر الذى استنكره عمر ، ولم يستطع عليه سكوتا ، فقال : اكسروية يامعاوية ؟ فاجاب :

يا أمير المؤمنين : أنا فى ثغر تجاه العدو ، وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة . فسكت عمر رضى الله عنه ، ولم يخطئه ، لما احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين(١) .

موقف الإسلام من الملكية :

ومن ثم ، فان تطور الخلافة إلى صورة من صور الملك ، والأخذ ببعض مظاهره ، لا يتعارض مع روح الإسلام ، ولا مع مقاصده فى نظام الحكم ، ما دام هذا الحكم فى سياج ما أمر به الله تعالى فى محكم

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٢٠٣ .

كتابه ، أو بينه المصطفى صلى الله عليه وسلم فى سنته ، وما دام الهدف من الأخذ بمظاهر الملك ، هو اظهار الدولة بمظهر القوة ، وإرهاب الأعداء المتربصين بها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم موصياً أصحابه — رضى الله عنهم — حين دخولهم مكة المكرمة فى عمرة القضاء ، وقد وقف المشركون برءوس الجبال ينظرون إليهم :

« رحم الله امرءا أراهم اليوم قوة »(١) لما فى ذلك من أرهاب لهم .

وفى سكوت الفاروق رضى الله عنه على رد معاوية — رضى الله عنهما — ما يدل على اقتناعه بهذا الرد ، وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون : « . . فلو كان قصده — أى عمر رضى الله عنه — رفض الملك من أصله ؛ لم يقنعه الجواب فى تلك الكسروية وانتحالها ، بل كان يحرص على خروجه عنها بالجملة »(٢) .

* * *

وإذا كان الكتاب الحكيم قد ورد فى بعض مواضعه بدم الملك فى مثل قوله تعالى : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة »(٣) . . فإن هذا الذم ليس الملك لذات ، وإنما لماقد يتصل به من التغلب بالباطل ، والإفساد فى الأرض ، والظلم للناس : أما إذا كان الملك قائماً على العدل ، مؤسساً على التقوى ، وكان الملك فى غلبه للناس ، قاصداً وجه الله تعالى ، وحملهم على عبادته ، والتزام حدوده ، وجهاد عدوه ، إذا كان الأمر كذلك ، فلا سبيل إلى ذم ذلك الملك أو إنكاره . بل إن هذا النوع من الملك ، المقصود به إعلاء كلمة الله ، كان طلبة نبى الله سليمان ، عليه الصلاة والسلام ، حين دعا ربه فقال : « رب أغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى ، إنك أنت الوهاب »(٤) .

* * *

ولقد كان الخلاف الذى شجر بين رابع الخلفاء الراشدين — على بن أبى طالب ، وبين أمير الشام — معاوية بن أبى سفيان — رضى الله عنهما ، أول مظهر من مظاهر الخلاف بين الخلافة الراشدة ، التى يمثلها الأول ، وبين الملكية العادلة ، التى يمثلها الثانى ، وبالرغم من تفاقم الأمر بينهما ، ووصوله إلى حد القتال ، فان الذى لا شك فيه ، أن كلا منهما لم يكن فى خلافه مع الآخر « بهدف لغرض دنيوى ، أو لإيثار باطل ، أو لاستشعار حقد ، كما قد يتوهمه متوهم ، أو ينزع إليه ملحد ، وإنما كان اجتهادهم فى الحق ، فاقتتلوا عليه ، وأن كان المصيب علياً كرم الله وجهه ، فلم يكن معاوية قائماً فيها بالباطل إنما قصد الحق ، وأخطأ ، والكل كانوا فى مقاصدهم على الحق »(٥) .

---

(١) أمتاع الاسماع للمقريزى : ١ - ٣٣٨ .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٢٠٣ .

(٣) سورة النمل : ٣٤ .

(٤) سورة ص آية ٣٥ .

(٥) مقدمة ابن خلدون : ٢٠٥ .

اختلاف الصحابة كان لله وحده :

وليس أدل على صدق إيمانهم ، ونزاهة قصدهم ، وأنهم -- رضى الله عنهم أجمعين — ما اجتمعوا إلا لله ، وما اختلفوا إلا فى الله ، مما ذكره يحيى بن سليمان الجعفى — أحد شيوخ الإمام البخارى — عن أبى مسلم الخولانى أنه قال لمعاوية : أأنت تنازع علياً الخلافة ، أو أنت مثله ؟ ؟ قال : لا ، وأنى لأعلم أنه أفضل منى ، وأحق بالأمر . .(١) .

ولما رأى ملك الروم انشغال المسلمين بحروبهم الداخلية : بعد أن هزموه ودحروا جيوشه ، أنتهز هذه الفرصة ، وأقبل إلى بعض البلاد فى جموع كثيفة ، فلما بلغ الأمر إلى معاوية كتب إليه يقول : والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يالعين ، لأصطلحن أنا وابن عمى عليك ، ولأخرجنك من جميع بلادك ، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت . : فعندئذ خاف ملك الروم وانكف ، وبعث يطاب الهدنة(٢)

ولما جاء نعى على بن أبى طالب إلى معاوية — رضى الله عنهما — جلس وهو يقاول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وجعل يبكى ، فقالت له زوجته « فاخته » أنت بالأمس تطعن عليه واليوم تبكى عليه ؟ ! فقال : ويحك : : أنما أبكى لما فقد الناس من حلمه وفضله ، وسوابقه وخيره(٣) .

وروى أن معاوية رضى الله عنه قال لضرار بن ضمرة الكنانى : صف لى علياً ، فقال : أعفنى ، فقال : أقسمت عليك بالله ، فقال ضرار :

« كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطلق الحكمة من لسانه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفة ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب (أى تغير) وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدينا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن والله مع تقريبه لنا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلمه هيبة له ، ولا نبتديه لعظمته ، فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظم ، يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لايطمع القوى فى باطله ولاييأس الضعيف من عدله وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمعه وهو يقول : يا دنيا . . يا دنيا إلى تعرضت ، أم لى تشرقت ؟ هيهات هيهات ! ! غرى غيرى ، قد ابنتك ثلاثة لا رجعة لى فيك ، فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير ، آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق »

فذرفت دموع معاوية فما يملكها ، وهو ينشفها بكمه ، ثم قال :

« رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه ياضرار » ؟ قال :

---

(١) افادة الأخبار ، للعلامة محمد العربى التبانى : ١ - ٦٤ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١١٩ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٥ .

« حزن من ذبح واحدها فى حجرها ، فلا ترقأ عبرتها ، ولا تسكن حسرتها »(١) .

نهاية عهد الراشدين :

ولقد تولى معاوية خلافة المسلمين ، بعد أن تنازل عنها سيدنا الحسن رضى الله عنه ، حرصاً منه على حقن دماء المسلمين ، وتصديقاً لما أخبر به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، بوحى من ربه ، حيث قال :

« الخلافة بعدى فى أمتى ثلاثون ، ثم ملك بعد ذلك »(٢) .

وإنما أكتملت الثلاثون ، بخلافة الحسن بن على — رضى الله عنهما — فانه تنازل عنها فى ربيع الأول من سنة احدى وأربعين من الهجرة ، وذلك كمال الثلاثين من لحاق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى سنة أحدى عشرة من الهجرة ، وهذا الحديث من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ، كما أن من دلائلها قبل لك ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم صعد المنبر ذات يوم ، وقد جلس الحسن — رضى الله عنه — إلى جانبه ، فجعل ينظر إلى الناس مرة ، وإليه أخرى ثم قال :

« أيها الناس : ان ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »(٣) .

والفئتان العظيمتان اللتان أشار إليهما النبى صلى الله عليه وسلم فى حديثه ، هما أهل العراق الذين بايعوا سيدنا الحسن رضى الله عنه ، وأهل الشام الذين بايعوا معاوية ، وقد تجهز كل منهما لقتال الآخر ، ولكن تنازل الحسن — رضى الله عنه — حقن دماء الفريقين ، وتحقق به حديث النبى الكريم صلى الله عليه وسلم .

فانتهاء عهد الخلافة الراشدة ، كان آمراً مقضياً ، سبق تقديره فى علم الله تعالى ، وأنبأ به النبى صلى الله عليه وسلم ، بل انبأ بما يليه من أطوار الحكم وصوره ، فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم :

« إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم كائن ملكاً عضوضاً ، ثم كائن عتوا وجبرية وفساداً فى الأرض ، يستحلون الحرير والفروج والخمور ، ويرزقون على ذلك وينصرون ، حتى يلقوا الله عز وجل »(٤) .

ويعتبر تنازل الحسن — رضى الله عنه — ختاماً لعهد الخلفاء الراشدين ، حيث كان الوازع الدينى ، يحتل المقام الأول فى حياة الأمة الإسلامية ، أفراداً وجماعات ، فاجتمعت بالدين كلمتهم ، واتحدت صفوفهم ، وأئتلفت قلوبهم ، وأهدرت بينهم كل الفوارق التى أقامتها الجاهلية الأولى ، فغدوا سواسية كأسنان المشط ، وأصبح التفاضل بينهم بالإيمان والتقوى والعمل الصالح ، لا بالمال والجاه ، ولا بالحسب والنسب .

---

(١) الرياض النضرة ، للمحب الطبرى : ٢ - ٢٨٢ .

(٢) أحمد والترمذى : من حديث سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) صحيح البخارى فى كتاب الصلح ، من حديث أبى بكرة الثقفى رضى الله عنه .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٢٠ ، وقال : رواه الطبرانى وإسناده جيد .

أول الملوك فى الإسلام :

وقد كان من الطبيعى – وقد آل الأمر إلى معاوية رضى الله عنه ، وهو الذى ارتدى فى إمارته رداء الملوك ، أن يواصل فى خلافته نفس الطريق الذى ارتضاه فى إمارته ، أرهاباً للأعداء ، وأعزازا للإسلام ، فكان بذلك أول ملوك الإسلام حكماً ، وخيرهم إيماناً وتقوى ، كما كان أول من اتخذ الحرس ، وأول من حزم الكتب وختمها(١) .

وهكذا ، فان تطور الخلافة إلى الملك كان أمراً ضرورياً اقتضته ظروف الدولة ونموها ، وقد تم هذا التطور على يد معاوية رضى الله عنه ، وهو الصحابى العدل ، أسلم بعد الحديبية – قبل أبيه – وكتم إسلامه حتى أظهره عام الفتح(٢) ، وفى رواية أخرى أن معاوية قال : « أسلمت يوم القضية ولقيت النبى صلى الله عليه وسلم مسلماً »(٣) . وقد صحب النبى صلى الله عليه وسلم وكان كاتبه منذ أسلم ، ودعا له النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال :

« اللهم علم معاوية الكتاب »(٤)

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « اللهم أجعله هادياً مهدياً »(٥) .

وقد روى معاوية – رضى الله عنه – عن النبى صلى الله عليه وسلم الكثير من الأحاديث ، فى الصحيحين ، وغيرهما من السنن والمسانيد ، كما شهد معركة اليمامة فى خلافة الصديق رضى الله عنهما ، وكانت له مواقف مشهودة يوم اليرموك ، وقد جاهد فى الله حق جهاده ، وتم فى عهده فتح الكثير من أقطار الروم ، وظلت – طوال عهده – كلمة الله عالية ، وشوكة الإسلام نافذة .

تولى معاوية – رضى الله عنه – الملك ، والأمة أشد ما تكون حاجة إلى الوحدة والاستقرار ، فاستطاع بحكمته وحلمه ، أن يطفىء الفتن ، ويخمد الثورات ، ويجمع الصفوف ، ويعبىء الطاقات لمواصلة العمل والبناء . واستئناف الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وتبليغ دعوته ، ونشر هدايته ونوره ، حتى لقد سمى العام الذى تولى فيه « عام الجماعة » لاجتماع المسلمين على أمير ، بعد فرقة وشقاق . .

ومن أشهر ما روى عنه كشعار لسياسته التى ساس بها المسلمين ، قوله :

« لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » : قيل : وكيف ذلك ؟ قال : « كنت إذا مدوها خليتها ، وإذا خلوها مددتها »(٦)

وقوله : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يشفى به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى »(٧)

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٢١ .
(٢) الاصابة لابن حجر : ٣ - ٤٣٣ .
(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ، بهامش الاصابة : ٣ - ٣٩٥ .
(٤ ، ٥) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٢١ .
(٦ ، ٧) نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ، للأستاذ الأكبر السيد محمد الخضرى حسين ص ٤٩ .

وكان معاوية حين صالح الحسن - رضى الله عنهما - عهد إليه بالأمر من بعده(١) . فلما توفى سنة تسع وأربعين - وقد قارب معاوية وقتئذ السبعين من عمره أو جاوزها - كان من الطبيعى أن يفكر فيمن يخلفه ، حتى لا تتعرض الأمة إلى الاختلاف من بعده ، مما يستنزف قواها ، ويعطل رسالتها ، ويطمع الأعداء فيها .

التفكير فى ولاية العهد :

ولم يمض قليل حتى تقدم إليه المغيرة بن شعبة فقال له :

« يا أمير المؤمنين : قد رأيت ما كان من سفك الدماء ، والاختلاف بعد عثمان - رضى الله عنه - وفى يزيد منك خلف ، فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس ، وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة »(٢) .

وسواء كان الدافع لما أشار به المغيرة ، هو حرصه على وحدة الأمة - وهو اللائق به كصحابى له مكانته - أو كان ذلك سعياً إلى كسب رضاء معاوية ، حينما أراد عزله عن الكوفة ، أو كان هذا وذاك فى آن واحد ، وسواء لقى هذا الرأى من معاوية رضى الله عنه قبولا أو إعراضا ، فان الثابت أنه لم يتخذ أى قرار فى الموضوع فى ذلك الحين ، بل أجاب المغيرة بقوله : ارجع إلى عملك ، وتحدث مع من تثق إليه فى ذلك ، وترى . . ونرى(٣) .

وتوفى المغيرة بن شعبة سنة تسع وأربعين أو خمسين على المشهور ، وظل معاوية بعدها ست سنوات دون أن يبت فى مشورته برأى ، ولكنه وضع الأمر موضع الدراسة والتفكير ، سعياً إلى معرفة آراء أكابر الصحابة ، وأهل الحل والعقد ، وحرصاً على الوصول إلى ما فيه تحقيق الخير للإسلام والمسلمين .

وطبيعى أن يدرك معاوية رضى الله عنه ، من موقف النبى صلى الله عليه وسلم ومواقف خلفائه الراشدين من الخلافة ، أنه أن عين من يخلفه ، فقد اقتدى بذلك بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن ترك فقد اقتدى بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن الأمر يتوقف على ظروف الدولة فى ذلك الحين ، وأحوالها فى الداخل والخارج . وترجح لديه فى النهاية أن لا يترك مكان الخلافة شاغراً ، خوفاً من نشوب الخلاف واندلاع الفتن .

اختيار معاوية لابنه يزيد :

وأخيراً . . وبعد طول تفكير ودراسة ومشاورة أكابر الصحابة وأهل الحل والعقد ، رأى معاوية - رضى الله عنه - أن يعهد بالأمر من بعده إلى ابنه يزيد ، لتوفر العصبية والقوة والسلطان فى بنى أمية ، الأمر الذى يجعل انتزاع الخلافة منهم - لو أنها آلت إلى غيرهم - أمراً غير مأمون العواقب ، لا سيما

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٨٠ .

(٢) الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٤٩ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٣٠٢ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٤٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٧٩ .

وأن الوازع الديني في ذلك الحين لم يكن له في النفوس المكانة السامية التي كانت له في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن بعده من الخلفاء الراشدين :

ومن الثابت أن معاوية لم ينته إلى هذا الرأي إلا بعد أن استشار من رأى أن يستشيرهم من أهل الحل والعقد ، كزياد بن أبي سفيان ، والأحنف بن قيس ، ومحمد بن عمرو بن حزم ، ومروان بن الحكم ، وغيرهم[1] : فمنهم من وافقه ، ومنهم من خالفه :

ولما كانت المدينة المنورة ، هي موطن أكابر الصحابة ، فقد كان من الضروري أن يعني معاوية باستشارتهم ، والتعرف على آرائهم ، تأليفاً لقلوبهم ، وأملا في موافقتهم ، وهكذا كتب معاوية إلى مروان بن الحكم — والى المدينة — يقول :

« أما بعد ، فاني قد كبر سني ، ودق عظمي ، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدى ، وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك ، فأعرض ذلك عليهم ، وأعلمني بالذى يردون عليك »[2] :

وقام مروان في الناس خطيباً فأخبرهم بما يراه معاوية ، فاعترضه عبد الرحمن بن أبي بكر وقال له :

« كذبت والله يا مروان . . وكذب معاوية ، ما الخيار أردتما لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل »[3] ! !

وتابعه الحسين — سيد شباب أهل الجنة — وابن عمر وابن الزبير وابن عباس — رضى الله عنهم أجمعين — فأنكروا تولية يزيد ، ولم يوافقوا عليها :

وسواء كانت آراء من استشارهم معاوية ، أو من أشاروا عليه ، متفقة مع رأيه في تولية يزيد ، أو معارضة له ، فان الشورى كما يأمر بها الإسلام قد تمت ، ولمعاوية الحق بعد ذلك أن يختار — وهو الأمين على مصالح الإسلام والمسلمين — ما يراه في نظره محققاً لسلامة الدولة ، ومانعاً من أثارة الفتن ، قال تعالى : « وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله »[4] .

موقف كبار الصحابة من تولية يزيد :

وقد ترجح لدى معاوية آخر الأمر تولية يزيد من بعده ، لا لأفضليته على أكابر الصحابة ، ولكن لتوفر العصبية اللازمة لحماية الملك من المطامع .

من أجل ذلك : كتب معاوية إلى الأمصار سنة ست وخمسين من الهجرة ، يدعو الناس إلى بيعة يزيد ، فاستجاب له الناس ، إلا خمسة نفر ، هم : عبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمر ، والحسين ابن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس — رضى الله عنهم — فانهم لم يوافقوا ولم يظهروا ولم يظهروا خلافاً ، فاتسقت البيعة ليزيد في سائر البلاد ، ووفدت إليه الوفود من كل مكان[5] :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى: ٣٠٢/٥؛ تاريخ الكامل لابن الأثير : ٢٥٠/٣ ، البداية والنهاية لابن كثير: ٨٠/٨ .
(٢) التاريخ الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٥٠ .
(٣) المصدر السابق: ٣ - ٢٥٠ .
(٤) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .
(٥) البداية والنهاية لابن كثير : ٨-٧٩ ، ٨٠ .

ومع ذلك : فقد كان معاوية — رضى الله عنه — بما عرف عنه من حكمة وحسن سياسة ، حريصاً على تأليف هؤلاء الخمسة ، اعترافاً منه بفضلهم ومكانتهم فى الإسلام ، حتى أنه توجه إليهم بمكة المكرمة — حيث كانوا قد غادروا المدينة إليها — حتى أنه توجه إليهم بمكة المكرمة — حيث كانوا قد غادروا المدينة إليها — فأرسل إلى الحسين — عليه السلام — فقال له : :

« يا ابن أخى : قد استوسق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم ، يا ابن أخى ، فما أربك إلى الخلاف » ؟ قال : أنا أقودهم ؟ ! قال : « نعم ، أنت تقودهم » قال الحسين رضى الله عنه : فأرسل إليهم ، فإن بايعوا كنت رجلا منهم ، وإلا لم تكن عجلت على بأمر ، قال : وتفعل ؟ قال نعم .

فأرسل معاوية إلى ابن الزبير ، فحدثه بما حدث به الحسين — رضى الله عنهم أجمعين — وأجابه بمثل ما أجابه :

ثم أرسل إلى عبد الله بن عمر فقال :

« إنى أرهب أن أدع أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعدى كالضأن لا راعى لها ، وقد استوسق الناس لهذا الأمر غير خمسة نفر من قريش أنت تقودهم ، فما اربك إلى الخلاف » ؟ ؟ قال :

هل لك فى أمر يذهب الذم ويحقن الدم وتدرك به حاجتك ؟ قال :

وددت ! : : قال ابن عمر :

تبرز سريرك ، ثم أجىء فأبايعك على أنى أدخل بعدك فيما تجتمع عليه الأمة ، فوالله لو أن الأمة اجتمعت بعدك على عبد حبشى لدخلت فيما تدخل فيه الأمة . قال :

وتفعل ؟ قال : نعم .

وأرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبى بكر فقال :

« يا ابن أبى بكر : بأية يد أو رجل تقدم على معصيتى » ؟ قال :

أرجو أن يكون ذلك خير لى » فقال معاويه : والله لقد هممت أن اقتلك . قال :

« لو فعلت لأتبعك الله به لعنة فى الدنيا ، وأدخلت به فى الآخرة النار »(١) !

هكذا خاطب معاوية كلا من هؤلاء بالأسلوب الذى يناسبه ، وهذا كمال كياسته ، وتمام حنكته . . : فلما تم له ذلك : . دعاهم جميعاً ، وتحدث إليهم فى أمر يزيد وصلاحيته للولاية . . فأجابه ابن الزبير رضى الله عنه :

تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر ، فقال معاوية : وما صنعوا ؟ قال :

قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يستخلف أحداً ، فارتضي الناس أبا بكر : قال ؛

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

ليس فيكم مثل أبى بكر ، وأخاف الاختلاف . قال :

صدقت . . فاصنع كما صنع أبو بكر ، فانه عهد إلى رجل من قاصية قريش ، ليس من بنى أبيه ، فاستخلفه ، وان شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه . قال معاوية :

— هل عندك غير هذا ؟ قال : لا . . فوجه معاوية الكلام إلى بقية الخمسة قائلا : فأنتم ؟ ؟ قالوا : قولنا قوله(١) .

اجتهاد الصحابة . . فى الوصول إلى الحق :

ولا شك أن هذا الخلاف فى الرأى ، بين معاوية والخمسة الكبار — رضى الله عنهم أجمعين — إنما كان حول الحق ، الذى يحرص الجميع على الوصول إليه ، ويجاهدون بصدق لإقامته ، كما أن الدافع إليه من الناحيتين ، هو الغيرة الدينية ، والرغبة الأكيدة فى اختيار أقوم السبل إلى أعلاء كلمة الله .

ولكل وجهته . . فهؤلاء الخمسة — وكل له مقامه فى الإسلام ، وجهاده فى سبيل الله — يخشون تطور الحكم فى الإسلام ، إلى هرقلية أو كسروية ، بحيث تصبح الخلافة ميراثاً ، يتوارثه الأبناء عن الآباء بصرف النظر عن صلاحيتهم لها ، أو عدم صلاحيتهم ، الأمر الذى قد يؤدى إلى إهدار مصلحة الأمة . . وتحكم الأهواء فيها .

من أجل ذلك : فهم يعارضون أى تغيير يتعلق باختيار الخليفة ، ويحرصون كل الحرص على التزام سنة النبى صلى الله عليه وسلم وهديه ، وكذا سنة الخلفاء الراشدين وهديهم ، فبذلك أمروا ، بموجب قوله صلى الله عليه وسلم :

« . . فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فان كل بدعة ضلالة »(٢) .

ولعل من الأسباب التى حملت هؤلاء الخمسة على التشدد فى معارضتهم ، ما كان يحيط بيزيد من شبهات عن انحرافه عن الجادة ، وانغماسه فى الشهوات ، وتركه لبعض الصلوات(٣) . .

أما معاوية . . فقد كان يرى أنه لا حرج فى أن يعهد بالخلافة من بعده لابنه — وان لم يكن لذلك سابقة — ما دامت أهليته لها — فى نظره — متحققة ، وما دامت أكثرية الأمة قد ارتضته ، وبايعه فى النهاية أهل الحل والعقد من بنى أمية ، الذين بيدهم القوة والغلبة ، ولا يرضون أن تخرج السلطة من أيديهم إلى غيرهم .

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٣ : ٢٥١ .

(٢) رواه أبو داود والترمذى ، من حديث فى نحيح العرباض بن سارية — رضى الله عنه ، حديث حسن صحيح .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٢٣٠ .

وهذه الأهلية التي كان معاوية يراها في ابنه ، مسألة تقديرية ، تختلف باختلاف الظروف والأحداث « ولا تمكن أن تقاس بمقياس معين ، كأن يبلغ يزيد مبلغ أبي بكر وعمر في سجاياهما ، فهذا ما لم يبلغه خليفة في تاريخ الإسلام ، والمطالبة بذلك إنما هي مطالبة بمستحيل »(١) .

وإن كان في الأمة من يفضلون يزيد بن معاوية ، فقد أجاز الإسلام ترك الأفضل إلى المفضول(٢) ، ما دام في ذلك تحقيق للمصالح ، ودرء للمفاسد ، وهو ما قصد إليه معاوية « وعدالته وصحبته للنبي صلى الله عليه وسلم تجعلانه فوق أي إتهام ، وحضور أكابر الصحابة وسكوتهم عنه ، دليل على انتفاء الريب فيه ، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة ، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق »(٣)

وإن كان يزيد هو ابن لمعاوية ، فان الإسلام لا يتعارض مع ذلك ، إذا ما توفرت الصلاحية في الابن المستخلف — وهو ما كان يظنه معاوية — فقد سبق أن أشار المغيرة بن شعبة على عمر بتولية ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة ، وإنما عدل عنه عمر تورعاً وخشية ، كما أن الصحابة بعد استشهاد علي — كرم الله وجهه — لم يروا حرجاً في استخلاف ابنه الحسن ، فبايعوه على الخلافة لما علموا من صلاحيته لها ، وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون في مقدمته :

« ولا يتهم الإمام في هذا الأمر وأن عهد إلى أبيه أو ابنه ، لأنه مأمون على النظر لهم في حياته ، فأولى أن لا يحتمل فيها تبعة بعد مماته ، خلافاً لمن قال باتهامه في الولد والوالد ، أو لمن خصص التهمة بالولد دون الوالد ، فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله ، لا سيما إذا كانت هناك داعية تدعو إليه ، من إيثار مصلحة ، أو توقع مفسدة ، فتنتفي الظنة في ذلك رأساً ، كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد ، وإن كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب »(٤)

وحتى على فرض أن استخلاف يزيد تم عن طريق التغلب أو القهر ، كما ورد في بعض الأقوال المتعلقة بأخذ البيعة له(٥) ، فقد أجاز الإسلام ذلك ، ما دام الناس قد اجتمعوا عليه ، وما دامت البيعة أساسها السمع والطاعة ، في حدود كتاب الله تعالى ، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وخلاصة القول في موقف معاوية رضي الله عنه : أنه كان مجتهداً في رأيه ، وأنه حين دعا الأمة إلى بيعة يزيد ، كان حسن الظن به « لأنه لم يثبت عنده أي نقص فيه ، بل كان يزيد يدس على أبيه من يحسن له حاله ، حتى اعتقد أنه أولى من أبناء بقية الصحابة كلهم »(٦) فإن كان معاوية قد أصاب في

---

(١) العواصم من القواصم ، لابن العربي : ٢١٤ .

(٢) ذكر ابن العربي في العواصم : أن معاوية ترك الأفضل في أن يجعل الخلافة شورى : وعدل إلى ولاية يزيد ، وعقد له البيعة فبايعه الناس وانعقدت بيعته لأنها تنعقد بواحد ، وقيل باثنين ، ويزيد أهل الملك ، وليس للخلافة سن مخصوص ، وهو رجل ليس مسلوب العدالة ، وإن كان هناك من هو أحق بالإمامة من يزيد ، فإن إمامة المفضول جائزة على الاختلاف فيها .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ٢١٠ ، ٢١١ .

(٤) مقدمة ابن خلدون : ٢١٠ .

(٥) أثبتنا بطلان هذه الأقوال عقلا ونقلا بالفصل العاشر .

(٦) تطهير الجنان واللسان ، لابن حجر الهيثمي : ٢٥ - ٢٦ .

اختياره فله أجران ، وإن كان قد أخطأ فله أجر واحد ، وليس لأحد بعد ذلك أن يخوض فيما وراء ذلك ، فانما الأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى .

ويؤكد ما تقدم ، ما روى عن معاوية رضى الله عنه ، أنه قال يوماً فى خطبة له : « اللهم إن كنت تعلم أنى وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك ، فأتمم له ما وليته ، وإن كنت وليته لأنى أحبه ، فلا تتمم له ما وليته (١) » .

شخصية معاوية وأثرها فى الموقف :

ولا شك أن من أقوى الأسباب التى حملت أكثرية المسلمين على الموافقة ، وصرفتهم عن المخالفة والمعارضة ، هو شخصية معاوية رضى الله عنه ، كصحابى جليل له مكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكسياسى محنك له حكمته ودهاؤه ، وكمجاهد له سابقته وبلاؤه فى سبيل الله ، وكفاحه ضد أعداء الإسلام ، فان هذه الشخصية القوية ، كانت كفيلة ببقاء الأمور مستقرة ، والصفوف متحدة ، كما كانت كفيلة ببقاء الفتنة نائمة ، والخلاف محصوراً فى أضيق نطاق .

ذلك أن استخلاف يزيد بهذه الصورة التى يخيل للكثيرين أنها غريبة عن الإسلام ، وأن رضى به أكثرية المسلمين فى ظاهر الأمر ، إلا أن البعض منهم لم يكن — فى قرارة نفسه — راضياً عنها ، أو مقتنعاً بها ، وفى مقدمة هؤلاء ، الخمسة الكبار ، الذين لم يوافقوا ، ولم يظهروا خلافاً ، ورأى معاوية بحسن سياسته أن لا يتعرض لهم ، أو يحاول ارغامهم ، مقتدياً فى ذلك بالصديق — رضى الله عنهما — حين ترك سعد بن عبادة أمير الأنصار ، ولم يحاول ارغامه على البيعة ، كما أن الخمسة الكبار رأوا من جانبهم أنهم قد أبرأوا الذمة بهذا القدر من الاعتراض ، فاكتفوا به .

ولكن الأمر بالنسبة ليزيد ، يختلف كثيراً عنه بالنسبة لأبيه ، فإن شخصيته دون شخصيته ، ومكانته بين الصحابة والتابعين دون مكانته ، وحقه عليهم دون حقه ، فضلاً عن أنه لم يكن له من الدهاء والخبرة وحسن السياسة ما كان لوالده .

وصية معاوية الى يزيد .

ومن الطبيعى أن يدرك معاوية رضى الله عنه كل ذلك ، ولعله من الأسباب التى حملته على التعجيل بأخذ البيعة ليزيد ، ليشعره بالمسئولية قبل أن يحملها بسنين ، وليعده لها ، ويدربه عليها ، فى البقية الباقية من حياته .

والثابت أن معاوية — رضى الله عنه — لم يأل جهداً فى تقويم ما اعوج من أمر يزيد ، وإرشاده إلى أقوم سبيل ، وتزويده بالنصائح التى تهديه إلى السداد ، وتمهد له الصعاب ، فقد روى أنه لما حضرته الوفاة ، دعاه وقال له :

« يا بنى ، إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد(٢) ، وإنى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٨٠ .

(٢) من جمع واحد : أى ما لم يجمعه أحد .

استتب لك ، إلا أربعة نفر من قريش ، الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر(١) ، فأما عبد الله بن عمر فرجل وقذته العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فأصفح عنه ، فإن له رحماً ماسة ، وحقاً عظيماً ، وأما ابن أبي بكر فرجل أن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه ارباً اربا »(٢) ؟ ! !

وقد ذكر بعض المؤرخين أن هذه الوصية مشكوك فى نسبتها إلى معاوية ، لأنه ذكر فيها عبد الرحمن ابن أبي بكر — رضى الله عنهما — فى حين أنه توفى قبل ذلك بعامين ، سنة ثمان وخمسين من الهجرة ، ومن ناحية أخرى فإن يزيد حين حضرت معاوية الوفاة لم يكن موجوداً ، بل كان فى البادية .

* * *

وفى رواية أخرى ، ان معاوية حين حضرته الوفاة ، كان يزيد فى الصيد ، فاستدعى معاوية الضحاك بن قيس الفهرى ، ومسلم بن عقبة ، فأوصى إليهما أن يبلغا يزيد السلام ويقولا له :

« أنظر أهل الحجاز فإنهم أصلك ، فأكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فإن عزل عامل أحب إلى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطالتك وعيبتك ، فإن نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، فإنهم ان أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ، وانى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة ، حسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، فأما ابن عمر فرجل وقذه الدين ، فليس ملتمساً شيئاً قبلك ، وأما الحسين بن علي ، فإني أرجو أن يكفيكه الله عن قتل أباه وخذل أخاه ، وان له رحماً ماسة ، وحقاً عظيما ، وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإني لو كنت صاحبه عفوت عنه ، وأما ابن الزبير فإنه خب ضب ، فإذا شخص لك فانبذ إليه ، إلا أن يلتمس منك صلحاً ، فإن فعل فاقبل ، واحقن دماء قومك ما استطعت »(٣) .

والمعنى متقارب فى الوصيتين ، ولكن الثانية أقرب إلى الصحة ، فيما يتعلق بعدم ذكر عبد الرحمن ابن أبي بكر — رضى الله عنهما — وفيما يتعلق برأى معاوية فى عبد الله بن الزبير — رضى الله عنهما — فقد أوصى فى الوصية الثانية بقبول الصلح إذا التمسه ، وهو اللائق بمثل معاوية ، فى حين أنه نسب إليه فى الوصية بأن يقطعه ارباً اربا ، وهو مستبعد فى حقه .

وواضح من الوصيتين بعد نظر معاوية رضى الله عنه ، وسداد آرائه ، وحرصه بصفة خاصة

(١) والصحيح ان عبد الرحمن بن أبي بكر كان قد توفى قبل موت معاوية بسنتين « ابن كثير فى البداية والنهاية » .
(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٢٢ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٥٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١١٥ .
(٣) الطبرى : ٥ - ٣٢٣ ، وابن كثير ٨ - ١١٥ .

على تعريف يزيد بقدر الحسين رضى الله عنه ، وتأكيد مكانته من رسول لله صلى االله عليه وسلم ، ووجوب اكرامه والصفح عنه ، حتى ولو خرج عليه :

موقف يزيد من المعارضين :

لم تكن ليزيد حنكة أبيه ، كما قلنا — كما أنه لم تكن له حكمته وبعد نظره ، ولو أنه اتخذ من هذه الوصية دستوراً له ، لاستتب له الأمر ، وذلت له الصعاب ، ولجمع القلوب حوله ، ولكنه على العكس من ذلك ، ألقى وصية أبيه ظهريا ، وبدأ سياسة جديدة لا عهد للمسلمين بها ، تقوم على التجبر والعنف ، والتهور والاندفاع ، ففرق من حوله القلوب التى جمعها أبوه بتسامحه وعفوه ، وأثار الأحقاد التى أخمدها بحزمه وحكمته ، وبدد فى سنوات ثلاث ما شاده أبوه خلال أربعين سنة قضاها أميراً على الشام ، ثم أميراً للمؤمنين ، من اتحاد الكلمة ، واستقرار الأحوال ، واطمئنان النفوس :

ولقد كان فى إمكان يزيد — وقد تولى أمر المسلمين — أن يقف من كبار الصحابة الذين رفضوا دعوة معاوية إلى مبايعته ، موقف والده منهم ، من التوقير لأشخاصهم ، والتغاضى عنهم ، فقد كان ذلك أدعى إلى تأليف قلوبهم ، وكسب مودتهم ، لا سيما وأنهم احتفظوا بمعارضتهم لأنفسهم ، ولم يفكروا فى التمرد عليه ، أو الخروج على طاعته :

ولكن يزيد — على العكس من ذلك ، تجاهل لهؤلاء الكبار مكانتهم وفضلهم ، وفاته أنه وان كانت له الإمارة فى الدنيا ، فهم أعلى منه مقاما ، وأسبق أثراً ، فقد فازوا بما لم يفز به ، من صحبة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهاد للمشركين تحت لوائه ، فضلا عن أنهم فى مقام الآباء منه ، لحداثة سنه بالنسبة لهم :

وهكذا : لم يكد يزيد يتبوأ مكانه من الحكم والسلطان ، حتى كان أول ما عنى به هو ارغام المعارضين له على مبايعته طوعاً أو كرهاً ، فكتب إلى الوليد بن عتبة — والى المدينة — خطاباً يخبره فيه بموت معاوية — رضى الله عنه — ويقول :

« أما بعد : فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة ، أخذاً شديداً ، ليست فيه رخصة ، حتى يبايعوا ، والسلام »(١) :

وأرسل الوليد بن عتبة من فوره إلى الحسين وعبد الله بن الزبير — وكانا بالمسجد — يدعوهما إلى الحضور ، فسار إليه الحسين رضى الله عنه فى جمع من مواليه وأهل بيته ، لأنه كان يخشى الغدر به ، وأمرهم أن لايبرحون حتى يخرج إليهم ، وأن يقتحموا الدار إذا ما دعاهم ، فلما نعى الوليد معاوية رضى الله عنه ، ودعاه إلى البيعة ، قال :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٣٨ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٦٣ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٤٦ ، ١٤٧ ، وفى سير أعلام النبلاء : ٣ - ١٩٨ ، وتاريخ الإسلام للحافظ الذهبى : ٢ - ٣٤١ : أن يزيد كتب إلى الوليد « أن ادع الناس إلى البيعة ، وابدأ بوجوه قريش ، وليكن أول من تبدأ به الحسين وارفق به » . ونرى ترجيح رواية الطبرى وابن كثير ، وخاصة ان الذهبى جاء فى روايته بعد ذلك « وأغلظ الوليد للحسين ، فشتمه الحسين وأخذ بعمامته فنزعها » وهو ما يتعارض مع الرفق الذى أمر به يزيد فى رواية الذهبى .

« إنا لله وإنا إليه راجعون . . رحم الله معاوية وعظم لك الأجر ، أما ما سألتنى من البيعة ، فإن مثلى لا يعطى بيعته سراً ، ولا أراك تجتزئ بها منى سرا ، دون أن تظهرها على رءوس الناس علانية ، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا إلى الناس ، فكان أمراً واحداً » فقال له الوليد بن عتبة — وكان يحب السلامة :

فانصرف على اسم الله ، حتى تأتينا مع جماعة الناس ، فاعترضه مروان بن الحكم قائلا :

والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع ، لا قدرت منه على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه ، احبس الرجل ، ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه(١) . . ؟

وكان من البديهى ألا يقبل الحسين رضى الله عنه هذا الوعيد ، فأجاب مروان متحدياً :

« يا ابن الزرقاء ، أنت تقتلنى أم هو ؟ كذبت والله وأثمت » . . وخرج رضى الله عنه ، عائداً مع أصحابه إلى بيته . .

وأجاب الوليد مروان قائلا : .

« انك اخترت لى التى هلاك دينى ، والله ما أحب أن لى ما طلعت عليه الشمس وغربت من مال الدنيا وملكها ، وأنى قتلت حسينا ، سبحان الله . . أقتل حسينا ان قال لا أبايع ؟ . والله إنى لأظن أن من يقتل حسينا يكون خفيف الميزان يوم القيامة »(٢) .

وتشاغل الوليد بن عتبة بابن الزبير عن الحسين رضى الله عنهما ، وكلما بعث إليه أستمهله قائلا : حتى تنظر وننظر . .

موقف الحسين من الإكراه على البيعة :

كان من الطبيعى — وقد عاد الحسين — عليه السلام — إلى بيته — أن يستعرض الأمر من جميع نواحيه ، وأن يحدد موقفه على ضوء النتائج التى ينتهى إليها ، فى تفكيره فى الأمر ، ودراسته له .

ولقد تأكد للحسين — من تهديد مروان بن الحكم له — أنه مطالب بالبيعة طوعاً ، أو كرهاً ، وأن يزيد لن يقف منه موقفت معاوية ، حين تركه وأصحابه الذين رفضوا البيعة ، فلم يتعرض لهم بسوء ولم يحاول لهم ارغاماً ، كما تأكد له أنه إذا أصر على موقفه . . ورفض البيعة المطلوبة ، فإن حياته ستكون فى خطر محقق ، ولن يحول دون وقوع هذا الخطر ، ما أظهره والى المدينة من لين فى معاملته ، أو حرص على مجاملته ، فإن هذا الوالى سيضطر فى النهاية إلى تنفيذ الأمر الصادر إليه ، فإن أبى ، فسيحل محله من يسارع إلى ذلك .

ومن ناحية أخرى فإن الحسين — رضى الله عنه — لم يجد أى مبرر للعدول عن موقفه الذى اتخذه فى عهد معاوية ، إزاء بيعة يزيد ، أنه لم يرفض بيعته لأمر من أمور الدنيا ، وإنما لأنه — فى نظره — غير

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ — ٣٤٠ ، الكامل لابن الأثير : ٣ — ٢٦٥ ، البداية والنهاية : ٨ — ١٤٧ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ — ٣٤٠ ، الكامل لابن الأثير : ٣ — ٢٦٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ — ١٤٧ .

أهل للخلافة ، وما زال يزيد فى نظره بعد وفاة معاوية ، هو يزيد كما يعرفه خلال حياته ، بل ان حرصه على ارغام المعارضين على مبايعته ، وإلا ضربت اعناقهم ، وسفكت دماؤهم - وهم من أكابر الصحابة - لمن أقوى الأسباب التى تؤكد عدم صلاحيته أميراً للمؤمنين ، وأنه سينهج فى حكمه نهج الجبابرة المسرفين ، لا نهج المتقين الراشدين .

وإذا كان الحسين - عليه السلام - قد أعطى الوليد بن عتبة شبه وعد بمبايعة يزيد إذا ما اجتمع الناس لذلك ، فإن حديثه هذا كان تقية منه ، ولا يلزم شرعاً بالوفاء به لأنه كان مكرهاً ، « والإكراه متى وقع لا يؤاخذ به ، ولا يترتب عليه حكم ، وبه جاء الأثر المشهور على النبى صلى الله عليه وسلم : (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » (١) .

ورأى الحسين - عليه السلام - من ناحية أخرى - أن الأمر ليس أمر بيعة يزيد أو غيره ، ولكنه أعمق من ذلك أثراً ، وأعظم خطراً ، أنه لا يتعلق بشخصه فحسب ، ولكنه يتعلق بالأمة المسلمة .. ونظام الحكم فيها .. ويتعلق بالأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها (٢) ..

إن الناس ينظرون إلى الحسين - رضى الله عنه - نظرتهم إلى الإمام الذى يجب الاقتداء به ، والاهتداء بهديه ، وذلك لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم بذلك أمانة فى عنقه ، رضى بذلك أم كره ، ولا يليق به أن يروا منه إلا المثل الأعلى فى القيام بحق الله ورسوله ، فى كل المواقف .. وفى كل الظروف ، دون أن يخشى فى الله لومة لائم ، أو سطوة ظالم .

وأخيراً .. اختار سيد شباب أهل الجنة - رضى الله عنه - الطريق الذى قدره الله له ، وهداه إليه ، الطريق اللائق بابن رابع الخلفاء الراشدين ، وحفيد سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم .. طريق الكرامة والاباء .. طريق الجهاد والبلاء .. طريق المؤمنين الذين « صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » (٣) .

لقد اصطفته العناية الإلهية - كما اصطفت شقيقته العظيمة ، السيدة زينب رضى الله عنهما - ليقدما للبشرية الأسوة الحسنة ، والقدوة الطيبة فى الحفاظ على الدين ، والحرص على الكرامة .. والتضحية فى سبيل المبدأ والعقيدة :

الخيرة فيما اختاره الله :

وبعد : فإذا كان تطور الخلافة الراشدة إلى ملك عضود ، قد أحزن الكثيرين من أهل الإيمان والتقوى ، الذين كانوا يرون أن الخير كل الخير ، لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فى أن تستمر الخلافة فى صورتها الكريمة التى كانت عليها فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وعهود الراشدين من بعده .. وأن يظل الأمر شورى بين المسلمين إلى يوم القيامة .. فلا شك أنه لولا هذا التطور الذى قضى الله تعالى

(١) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبى : ١٠ - ١٨٢ ، والحديث رواه الطبرانى عن ثوبان بإسناد صحيح .

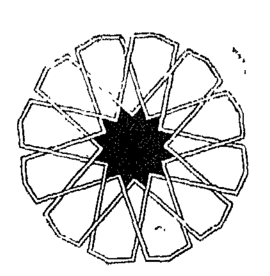
(٢) والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور : (القرطبى : ١٤ - ٢٥٣) .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٢٣ .

بوقوعه « وكان أمر الله قدراً مقدوراً »(١) . . والذى كان آثاره أن يصبح مثل يزيد بن معاوية : أميراً للمؤمنين ، فى المكان الذى كان يشغله أئمة الهدى ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، رضى الله عنهم أجمعين : :

نقول : لولا ذلك التطور ، الذى سبق أن أخبر به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ؛ لما سطر التاريخ فى سجله تلكم الصفحات الخالدة ، التى كتبها سيد شباب أهل الجنة ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهل بيته البررة الأطهار بأرواحهم ودمائهم ، لتستمد منها البشرية — على مر السنين ، ومر القرون — أطيب غذاء للأرواح المريضة ، وأقوى حافز للعزائم الخائرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بما يصلح لعباده ، وأدرى بما ينفعهم ويضرهم :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين »(٢) .

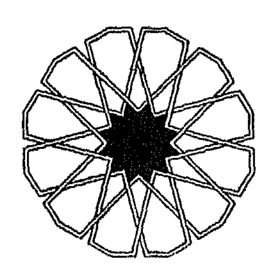


(١) سورة الأحزاب : آية ٣٨ .
(٢) سورة البقرة : آية ٢٥١ .

الفصل الثامن

« ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله .. » .

قرآن كريم



هجرة فى سبيل الله

خروج الحسين — رضي الله عنه — من المدينة :

استقر رأى سيد شباب أهل الجنة — رضي الله عنه — على الخروج من المدينة ، بعد أن ترجح له أن بقاءه فيها سيجعله بين أمرين ، أحلاهما مر ، فإما أن يبايع مكرهاً من لا يؤمن بصلاحيته أميراً لخير أمة أخرجت للناس ، طلباً للسلامة ، ودرءاً للظلم والعدوان ، ومجانبة للأذى ، وأما أن يأبى البيعة ابراء للذمة ، وإرضاء لله ورسوله ، فيقع به من العدوان ، ما قد يصل إلى سفك دمه ، وضرب عنقه .

ولقد رأى الحسين رضي الله عنه ، كيف أن الوليد بن عتبة — والى المدينة — أرسل بعد انصرافه من عنده ، إلى عبد الله بن الزبير ، ليبايع ليزيد ، وألح عليه بكثرة الرسل والرجال فى أثر الرجال ، حتى بلغ به الأمر إلى حد تهديده بالقتل ان لم يلب دعوته ، ولكن ابن الزبير أبى أن يستجيب وقال لهم :

والله لقد استربت بكثرة الإرسال ، وتتابع هذه الرجال ، فلا تعجلونى حتى أبعث إلى الأمير من يأتيني برأيه وأمره :

وأرسل ابن الزبير أخاه جعفر إلى الوليد فقال له :

رحمك الله ! ! كف عن عبد الله فإنك قد أفزعته وذعرته بكثرة رسلك ، وهو آتيك غداً ان شاء الله ، فمر رسلك فلينصرفوا عنا .

وبعث الوليد إليهم فانصرفوا ، وانتهز ابن الزبير رضى الله عنهما هذه الفرصة ، فخرج مستتراً بالليل مع أخيه جعفر ، ليس معهما ثالث ، وتجنب الطريق الأعظم مخافة الطلب ، متوجهاً نحو مكة ، فلما علم بذلك الوليد ، أرسل خلفه ثمانين راكباً ، فطلبوه فلم يقدروا عليه ، فرجعوا[1] :

رأى الحسين — رضي الله عنه — كل ذلك ، وسمع به ، فأيقن أنه مطالب ببيعة يزيد طوعاً أو كرهاً ، وإلا ضربت عنقه — كما أشار بذلك مروان بن الحكم — فلم يكن أمامه — وهو الفقيه فى دين الله ، العارف بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم — إلا أن يهاجر من المدينة ، استجابة لقول الله تعالى فى محكم كتابه :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم : قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض : قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا * إلا المستضعفين

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ / ٣٤٠ .

من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا »(١) .

وما كان للحسين — رضي الله عنه — وهو سليل بيت النبوة ، وربيب العزة والكرامة ، أن يرضى لنفسه مثل هذا المصير ، أو أن يعيش مرغماً وأرض الله واسعة .

وما كان له أن يتأخر عن الهجرة ، فراراً بدينه ، وحفاظاً على حريته وكرامته ، والله تعالى يقول فى محكم كتابه :

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت . فقد وقع أجره على الله . وكان الله غفوراً رحيما »(٢) .

فالإسلام لا يرضى لصاحبه غير العزة والكرامة ، ولا يقبل له المقام بدار ذل أو هوان ، ما دام فيه عرق ينبض ، أو نفس يتردد .

ومن أولى من سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — بالحرص على كل هذه المعانى ؟ والعمل بها ؟ وهو أشرف من كان على وجه الأرض نسباً ، وأعلاهم مقاماً ، وأصدقهم إيمانا ، وأعمقهم يقينا ؟

إلى البلد الحرام . . والبيت الحرام :

ولم يكن أمام الحسين — رضى الله عنه — فى عزمه على الهجرة من المدينة المنورة ، إلا طريق واحد ، يؤدى به إلى أم القرى : : البلد الحرام ، الذى من دخله كان آمنا ، والذى به البيت الحرام ، الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، ففى رحاب مكة المكرمة ، يستطيع الحسين — رضى الله عنه — ومن معه من أهل البيت المطهر ، أن يقضوا البقية الباقية من حياتهم فى هدوء واطمئنان ، وفى ظل البيت العظيم ، يمكنه أن يتزود بما يقربه إلى الله تعالى ، والله خير وأبقى : :

ولم يتخلف عن الخروج مع الحسين — رضى الله عنه أحد من أهله ، سوى أخيه محمد بن الحنفية ، فإنه اعتذر عن الخروج ، ووقف من الحسين موقف الناصح الأمين ، إذ قال له :

« والله يا أخى لأنت أحب الناس إلى ، وأعزهم على ، وإنى ناصح لك ، لا تدخل مصرا من هذه الأمصار ، ولكن اسكن البوادى والرمال ، وابعث إلى الناس ، فإذا بايعوك ، واجتمعوا عليك ، فادخل المصر ، وأن أبيت إلا سكنى المصر فاذهب إلى مكة ، فإن رأيت ما تحب ، وإلا ترفعت إلى الرمال والجبال ، حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس » :

فشكر الحسين لأخيه — رضى الله عنهما — نصيحته ، وقال له : « يا أخى : لقد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً موفقاً »(٣) .

(١ ، ٢) سورة النساء : ٩٧ — ١٠٠ ، وقد جاء فى تفسير هذه الآيات ، فى الجامع لأحكام القرآن القرطبى : ٥ — ٣٤٨ . أن الإمام مالك رضى الله عنه قال : « هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المقام بأرض يسب فيها السلف ، ويعمل فيها بغير الحق » . وقد كانت كل الظواهر كافية لإقناع الحسين بعدول يزيد عن الحق ، لما اشتهر به من شرب للخمر ، وإقبال على الشهوات ، وترك للصلوات فى بعض الأوقات ، مما سيأتى ذكره فى الفصول التالية ، بمزيد من الإيضاح .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٣٤٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٤٧ .

وأخذ سيد شباب أهل الجنة من نصيحة أخيه – رضى الله عنهما – ما يتفق من رغبته الأكيدة فى السلم ، وكراهيته الشديدة لسفك دماء المسلمين ، فخرج مع أبنائه وأهل بيته فى الثامن والعشرين من رجب سنة ستين ، متلفعاً ظلمة الليل ، وهو يتلو قول الله تبارك وتعالى ، حكاية عن موسى عليه السلام .

« فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجنى من القوم الظالمين »[١] . . فلما بلغ – رضى الله عنه – مكة المكرمة ؛ دخلها وهو يتلو قوله عز وجل :

« ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل »[٢] .

وفى تلاوة الحسين – رضى الله عنه – لهاتين الآتين ، حين خروجه من المدينة المنورة ، ودخوله مكة المكرمة ، ما يبين بوضوح لا غموض فيه ، حقيقة الهدف الذى من أجله غادر المدينة وهى أحب البلاد إليه ، وحقيقة الأمل الذى ينشده من اتجاهه إلى مكة ، فهو لم يكن قط طامعاً فى خلافة ، أو ساعياً إلى فتنة – كما يظن بعض الكتاب والمؤرخين – وإنما خرج خوفاً من عدوان الظالمين ، وطمعاً فى أن يهديه الله تعالى سواء السبيل .

هكذا كان ظن الحسين – رضى الله عنه – حينما خرج من المدينة ، اباء للذل والإرغام ، وسعياً إلى الأمن والسلامة ، وهو فى كل ذلك : كان محقاً كل الحق ، لا سبيل إلى مؤاخذته ، ولا محل لنقده أو اتهامه :

لقد كان خروجه – رضى الله عنه – قدراً مقدوراً ، ما كان له أن يتأخر عنه ، أو أن يتردد فيه ، ولم يكن بحال من الأحوال لغرض دنيوى ، وإنما كان استجابة لله تعالى ، وانصياعاً منه لأمره ، وحرصاً على طاعته ومرضاته ، وهجرة خالصة فى سبيله ،. وابتغاء وجهه .

جئنا عواذا بالبيت :

وبلغ من إيمان سيد شباب أهل الجنة بربه ، وتوكله عليه ، انه فى خروجه من المدينة ، لزم الطريق الأعظم ، ولم يفكر فى أن يسلك غيره ، فلما قال له أهل بيته : لو تنكبت الطريق الأعظم كما فعل ابن الزبير :. لا يلحقك الطلب ، أجاب رضى الله عنه : لا . . ، والله لا أفارقه حتى يقضى الله ما هو أحب إليه[٣] . .

وهكذا كان رضى الله عنه دائماً ، واضحاً :. صريحاً فى كل تصرفاته ، يعمل فى ضوء النهار ، لا يعرف مداراة ، ولا خداعاً ، اكتفاء بكونه على الحق ، ورضاء بأى قضاء يبرمه الله ، وأى مصير ينتهى إليه أمره .

وفى مسيره إلى أم القرى : التقى الحسين بعبد الله بن مطيع[٤] – رضى الله عنهما – فقال له : جعلت فداك ! أين تريد ؟ فأجاب الحسين – رضى الله عنه – أما الآن فإنى أريد مكة ، وأما بعدها فإنى أستخير

(١ ، ٢) سورة القصص : آية ٢١ و ٢٢ – تاريخ الرسل والملوك : ٥ - ٣٤٣ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٦٥ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٥١ .

(٤) كان ابن مطيع من خيرة رجال قريش شجاعة ونجدة وجلدا ، وكان أمير أهل المدينة من قريش وغيرهم فى وقعة الحرة ، فلما انهزم أهل الحرة ، فر عبد الله إلى مكة ، ووازر ابن الزبير على أمره ، فأرسله ابن الزبير إلى الكوفة أميراً عليها ، فلما غلبه عليها المختار ، لحق بابن الزبير ، فكان معه إلى أن استشهد معه فى حصار الحجاج لمكة . « الإصابة لابن حجر : ٣ - ٦٥ » .

الله ، فقال : « خار الله لك ، وجعلنا فداك ، فإذا أنت أتيت مكة ، فإياك أن تقرب الكوفة ، فإنها بلدة مشئومة ، بها قتل أبوك ، وخذل أخوك ، واغتيل بطعنة كادت تأتى على نفسه ، الزم الحرم ، فإنك سيد العرب ، لا يعدل بك والله أهل الحجاز أحداً ، ويتداعى إليك الناس من كل جانب ، لا تفارق الحرم . . فو الله لئن هلكت لنسترقن بعدك »(١) .

ووصل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — إلى مكة المكرمة ، وأميرها يومئذ : عمرو بن سعيد ابن العاص ، فقال له الحسين رضى الله عنه : « انا جئنا عواذاً بالبيت »(٢) .

بهذه العبارة القاطعة ، والكلمات الواضحة ، أعلن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هدفه من الخروج إلى مكة ، وكأنه رضى الله عنه يقول :

جئنا عواذاً بالبيت ، البيت الحرام : الذى من دخله كان آمناً من كل بغى أو طغيان ، محصناً من كل ظلم أو عدوان .

جئنا عواذاً بالبيت ، حفاظاً على حرياتنا أن تقيد ، وكرامتنا أن تذل ، ودمائنا أن تهدر ، ومقدساتنا أن تهان . .

جئنا عواذاً بالبيت : لنبتعد بأنفسنا عن عواصف السياسة وأهوائها ، ومطامع الولاية وأوزارها ، وأعاصير الفتن وتقلباتها : :

جئنا عواذاً بالبيت : فاطمئنوا يا طلاب الدنيا : : قد ألقينا بها خلف ظهورنا ، فلا تخشوا منا بأسا ، ولا تخافوا منا منازعة على حكم ، أو مزاحمة على سلطان :

جئنا عواذاً بالبيت : فدعونا نقضى البقية الباقية من حياتنا فى سلام ، بجوار بيت الله الحرام ، نتزود من طاعة الله ، ونعظم شعائره ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا : .

زهد الحسين فى الإمارة :

وإذا قال سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — « جئنا عواذاً بالبيت » فالقول ما قاله ، لأنه الصادق الأمين ، الذى لا مجال للشك فى قوله ، ولأنه لو أراد بخروجه منازعة على الخلافة ، أو سعياً إلى السلطان ، ما قصد مكة المكرمة ، وهو يعلم أن بها أميراً من أمراء بنى أمية ، معروفاً بالتجبر والطغيان ، ذلك هو عمرو بن سعيد بن العاص ، ولكنه مع علمه بذلك اتجه إليها ، ثقة منه أنه ما دام لا يتعرض للقوم فى دنياهم ، فإنهم لن يتعرضوا له فى العمل لدينه ، وعبادة ربه .

ولو كان الحسين — رضى الله عنه ، يريد فى الأرض علواً أو سلطانا ، لكان أولى به أن يسعى إلى ذلك بعد وفاة أخيه الحسن رضى الله عنهما ، حيث كتب إليه أهل الكوفة يدعونه إلى الخروج ، ويعدونه النصرة ، وهو يأبى الاستجابة لهم ، أو المبالاة بهم ، حتى عدلوا عنه إلى أخيه محمد بن الحنفية —

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٥١ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٦٦ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٤٨ .

رضى الله عنهما — فكرروا عرضهم عليه ، ودعوتهم إليه ، فلما علم الحسين بذلك من أخيه — رضى الله عنهما — لم يتردد أن يقول له مستنكراً :

« إن القوم إنما يريدون أن يأكلوا بنا ، ويستطيلوا بنا ، ويستنبطوا دماء الناس : : ودماءنا »(١).

ولو كان — رضى الله عنه — يريد أن ينازع يزيداً الخلافة ، لكان فى استطاعته ذلك حينما أخذت ليزيد البيعة فى عهد معاوية ، على غير رضى من كثير من المسلمين ، وفيهم أكابر الصحابة ، ولكن الحسين — رضى الله عنه — كان من الفقه بدرجة لا يخفى عليه أن اعتراضه ومن كانوا على رأيه على البيعة ، لا يمنع من إتمامها ، فاكتفى بالسكوت ، فلم يبايع ، إرضاء للضمير ، وإبراء للذمة ، ولم يخالف حرصاً على وحدة الصف ، واجتماع الكلمة ، وضناً بدماء المسلمين أن تسفك فى فتنة لا يعرف مداها ، ولا تعلم نهايتها .

ومن أعجب العجب أن الكثيرين ممن تناولوا هذه الناحية فى بحوثهم وكتاباتهم ، ظنوا أن سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — إنما كان خروجه للمطالبة بالخلافة ، واستدلوا على ذلك بأقوال بعض من أسدوا إليه النصيحة بعدم الخروج ، دون أن يضعوا فى الميزان أقوال الحسين رضى الله عنه ، وهو أعلم بما فى نفسه من غيره ، فضلا عن أن طبيعته الصريحة ، لا تحتمل مداراة أو تحايلا ، والمتأمل فى أقوال الحسين عليه السلام ، التى ثبت صدورها عنه ، برواية الثقات ، لا يجد ذكراً لهذه الأوهام والخيالات .

وقد كان فى إمكاننا — لو أن الحسين — رضى الله عنه — كان يسعى فعلا إلى الخلافة ، أن نجد من الأسباب ما يبرر موقفه ، وأنه حتى لو كان مخطئاً فى هذا السعى ، فإنه فى نهاية الأمر لا يعدو أن يكون مجتهداً ، له أجره فى خطئه ، فكيف وهو رضى الله عنه — لم يكن على وجه الأرض من يفضله شرفاً وحسباً ، أو يرجحه علماً وفقهاً ، وإيماناً ويقيناً ، وهو بهذه الصفات السامية — فضلا عن مقامه من رسول الله صلى الله عليه وسلم — كان أحق بالخلافة من يزيد ، ولا وجه مطلقاً للمفاضلة بينهما . . نقول : كان فى إمكاننا أن نبرر خروج الحسين — مطالباً بالخلافة — بمثل هذا وغيره ، ولكنا لسنا فى حاجة إلى شىء من ذلك ، لأن الحقيقة الواقعة تقرر خلافه ، وتؤكد أن السعى إلى الخلافة لم يخطر ببال الحسين رضى الله عنه ، وأنه تركها زهداً فيها ، وتسامياً عنها(٢) .

معرفة الحسين بأهل الكوفة :

وعلاوة على ما تقدم : فإن معرفة الحسين — رضى الله عنه — بأهل الكوفة ، ومدى صدقهم فى البلاء ، وصبرهم فى الشدائد ، وقدرتهم على النصرة ، لا يعقل معه أن يكون خروجه من المدينة بقصد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٦١ ، سير أعلام النبلاء : ٣ - ١٩٧ ، وتاريخ الإسلام الحافظ الذهبى ، وقد جاء فى المرجعين الآخرين : « أن أهل الكوفة كانوا يكتبون إلى الحسين يدعونه إلى الخروج إليهم زمن معاوية — رضى الله عنهما — وهو يأبى ، فقدم منهم قوم إلى محمد بن الحنفية ، وطلبوا إليه أن يخرج معهم ، فأبى ، وجاء إلى الحسين فأخبره بما عرضوا عليه وقال : « ان القوم يريدون أن يأكلونا ويشيطوا دماءنا — أى يسفكوها — . . الخ الرواية ، مما يوهم أن العبارة الأخيرة قول محمد بن الحنفية ، فى حين أنها فى رواية ابن كثير : من كلام الحسين لأخيه — رضى الله عنهما .

(٢) تناولنا هذه الناحية بالتفصيل بالفصل العاشر بعنوان « قضية القضايا » .

الاعتماد عليهم ، وقد رأى رأى العين موقفهم من أبيه - رابع الخلفاء الراشدين - ومن أخيه الحسن بعد ذلك ، فضلا عن تحذير أكابر الصحابة له من الركون إليهم ، أو الثقة فيهم . . ! !

هذا هو أبو سعيد الخدرى يأتى الحسين - رضى الله عنهما - فيقول له :

« يا أبا عبد الله : إنى لكم ناصح ، وإنى عليكم مشفق ، وقد بلغنى أنه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة ، يدعونكم إلى الخروج إليهم ، فلا تخرج إليهم، فإنى سمعت أباك يقول بالكوفة : والله لقد مللتهم وأبغضتهم ، وملونى وأبغضونى ، وما يكون منهم وفاء قط ، ومن فاز بهم : فاز بالسهم الأخيب ، والله ما لهم ثبات ، ولا عزم على أمر ، ولا صبر على السيف»(١) .

جرأة الحسين رضى الله عنه - فى الحق :

ولم يكن ركون ابن بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السلم حينئذ ، كما قد يخيل للبعض : نتيجة لتمكن معاوية - رضى الله عنه - فى الأرض ، وقوة سلطانه ، وقدرته على البطش : . فلما خلفه يزيد ، وهو أقل مكانة ، وأضعف حيلة ؛ انتهز الحسين - رضى الله عنه - هذه الفرصة ، فحاول - فى زعمهم - الخروج عليه ، والوقوف فى وجهه .

ان الحسين - رضى الله عنه - أعظم من ذلك وأكرم ، فليس هو الذى يقيم وزناً لقوة السلطان ، وما يتبعها من جند وأعوان ، وعدة وسلاح ، ما لم تكن هذه القوة قائمة على الحق ، محصنة بتقوى الله عز وجل :

ان الحسين - رضى الله عنه - هو من يعرفه الجميع جرأة فى الحق ، وشدة على الباطل ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول فيه وفى شقيقه - سيدا شباب أهل الجنة - رضى الله عنهما - « أما الحسن فله هيبتى وسؤددى ، وأما الحسين فإن له جراءتى وجودى »(٢).

وهكذا : فإن ركون الحسين إلى السلم فى عهد معاوية - رضى الله عنهما - إنما كان وفاء منه بعهده ، والتزاماً منه لبيعته ، ولم يمنعه هذا ولا ذاك من النصح له عند اللزوم ، أو الإنكار عليه ، كلما رأى منه عدولا عن الحق ، أو مجانبة للعدل .

هذا هو المسيب بن نجبة الفزارى(٣) : يقدم فى عدة معه على الحسين ، بعد وفاة الحسن - رضى الله عنهما - فيدعونه إلى خلع معاوية - رضى الله عنه - ويقولون له : « قد علمنا رأيك ورأى أخيك » أى محمد بن الحنفية ، ولكن الحسين رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك ، وينكره ، ولكنه فى نفس الوقت

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٦١ .

(٢) الصواعق المحرقة ، لابن حجر الهيتمى : ١٩١ .

(٣) المسيب بن نجبة الفزارى : شهد القادسية وفتوح العراق ، وكان مع على كرم الله وجهه فى جميع مشاهده ، وقتل مع سليمان بن صرد فى معركة عين الوردة ، حينما خرج معه مطالباً بدم الحسين رضى الله عنه سنة ٦٥ « الاصابة لابن حجر : ٣ - ٤٩٥ » .

يقول لهم : « إنى لأرجو أن يعطى الله أخى على نيته فى حبه الكف ، وأن يعطينى على نيتى فى جهاد الظالمين »(١) .

وهذا هو معاوية — رضى الله عنه — يكتب إليه مروان بن الحكم قائلا : « إنى لست آمن عليك أن يكون الحسين مرصداً للفتنة ، وأظن يومكم من حسين طويلا»(٢) :

تلقى معاوية كتاب مروان — وهو العارف بحق الحسين — رضى الله عنه — ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يسعه إلا أن يكتب إليه مصارحاً إياه بما بلغه عنه ، قائلا له :

« ان من أعطى صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء ، وقد أنبئت أن قوماً من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق ، وأهل العراق من قد جربت . . قد أفسدوا على أبيك وأخيك ، فاتق الله واذكر الميثاق ، فإنى متى تكدنى أكدك »(٣) ! !

تلقى الحسين كتاب معاوية — رضى الله عنهما — وهو أمير المؤمنين بلا منازع ، فرد عليه فى صراحة ، ينفى ما نسب إليه باطلا من سعى إلى الشقاق ، أو ارصاد للفتنة ، ولكنه فى نفس الوقت يعلنه برأيه فيه ، وإنكاره عليه ، إذ يقول فى كتابه إليه :

«أتانى كتابك ، وأنا بغير الذى بلغك عنى جدير : : والحسنات لا يهدى لها إلا الله ، وما أردت لك محاربة ، ولا عليك خلافا ، وما أظن لى عذراً عند الله فى ترك جهادك ، وما أعلم فتنة أعظم من ولايتك أمر الأمة »(٤) .

ولم يسع معاوية : حين تلقى خطاب الحسين — رضى الله عنهما — إلا أن يستشعر الندم لإساءته الظن بالحسين عليه السلام ، فقال : « أن أثرنا بأبى عبد الله إلا شراً »(٥) . وفى رواية للذهبى : « أن أثرنا بأبى عبد الله إلا أسدا »(٦) .

الحسين أقوى من ان يدبر فى الظلمات :

وهكذا : لم يكن الحسين — رضى الله عنه — بالذى يدبر فى الظلمات ، أو يلجأ إلى المداراة والخداع ، لأن ذلك شأن الضعفاء ، والحسين — رضى الله عنه — قوى فى أصله الذى يستمد من شرف النبوة وعزتها ، قوى فى نشأته التى تمرست على النخوة والبطولية ، قوى فى إيمانه بربه ، وتوكله عليه ، وثقته فيه ، فإذا قال — رضى الله عنه — انه لا يريد محاربة ، ولا يبغى خلافا ، فالقول ما قاله ، لأنه الصادق

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٦٢ ، وتصريح الحسين بحبه لجهاد الظالمين ، لا يعتبر دليلا على اعتزامه الخروج عليهم ، فإن الحب غير العزم ، وجهاد الظالمين درجات ، أفضلها : «كلمة حق عند سلطان جائر » . . وقد نهى الإسلام عن الخروج على ولاة الأمر ، لما يترتب عليه من فتنة وفساد كبير ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : «إذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه ، فاكرهوا عمله ، ولا تنزعوا يدا من طاعة » .

والإسلام يحث على مجاهدة الظالمين بالإنكار عليهم ، دون الخروج على طاعتهم ، وهذا هو ما قصده الحسين بقوله ، وأكده فى جميع مواقفه ، فى عهد كل من معاوية ويزيد على السواء ، كما سنوضحه فيما بعد .

(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) البداية والنهاية : للحافظ ابن كثير : ٨ - ١٦٢ .

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ - ١٩٨ .

فى كل ما يقول ، الأمين فى كل الأحوال ، وليس لأحد أن يتشكك فيما قال ، أو أن يرتاب فيما يقصده من قوله ، لأنه — رضى الله عنه — فوق الشبهات ، وقوله حجة على غيره ، وقول غيره لا يصح أن يكون حجة عليه .

لقد كان موقف الحسين — سيد شباب أهل الجنة — من معاوية — رضى الله عنهما — موقف المؤمن القوى ، والناصح الأمين ، الذى لا يخشى فى الله لومة لائم ، وليس من المعقول أن يتحول سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — عن موقفه ، أو أن يتغير عن طبيعته ، بمجرد وفاة معاوية ، وتولية يزيد ، لأن قدرة الحسين — رضى الله عنه — على يزيد ، أعظم منها ولا شك على معاوية ، فإذا كان الحسين لم يخش معاوية — رضى الله عنهما — مع مكانته فى قومه ، وقوته فى سلطانه ، وجابهه بكلمة الحق قوية عالية ، فإنه من باب أولى لا يخاف يزيد ، وهو دون أبيه مكانة وقدرة .

كما كان رأى الحسين — رضى الله عنه — فى أهل الكوفة واضحاً — فهم فى نظره أهل خلاف وشقاق ، لا عهد لهم ولا وفاء ، وقد لقى منهم أبوه مع علو مكانته ، ما بغضه فيهم ، وأيأسه منهم ، كما لقى منهم أخوه مثل ذلك ، ولا يعقل — وهذا هو رأى الحسين فيهم منذ سنوات طويلة — أن يتحول عن موقفه منهم ، من النقيض إلى النقيض : حتى يقال : ان خروجه إلى أم القرى ، كان يقصد الاعتماد عليهم ، أو الانتصار بهم فى خروجه على يزيد ، وسعيه إلى الخلافة .

* * *

وأخيراً . . فلو كان سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — حين خرج من المدينة ، يهدف إلى الخروج على يزيد ، معتمداً على الشيعة بالكوفة ، لما قصد مكة المكرمة ، التى تقع فى جنوب المدينة ، بينما الكوفة تقع فى شمالها الشرقى ، فهو باتجاهه إلى أم القرى ، يزداد بعداً عن الكوفة ، بدلا من أن يقترب منها ، فالمسافة من المدينة المنورة إلى الكوفة تبلغ زهاء ٩٠٠ كيلو متراً ، بينما المسافة من مكة إلى الكوفة تبلغ زهاء ١٢٠٠ كيلو متراً بمعنى أن الفارق بين المسافتين زهاء ٣٠٠ كيلو متراً ، وهو مقدار لايستهان به ، وفى هذا دليل قاطع على أن الحسين — رضى الله عنه — حينما خرج من المدينة ، لم يكن فى ذهنه أن يخطط لحركة واسعة ، تهدف إلى تغيير نظام الحكم ، كما يزعم الزاعمون ، وإنما كان يهدف فقط إلى تفادى الضغط الواقع عليه بشأن البيعة المطالب بإعطائها طوعاً أو كرهاً ، كما أنه حين قال لأمير المدينة « جئنا عواذاً بالبيت » إنما كان فى الواقع يعبر عما تجيش به نفسه ، بكل ما عرف به من صدق وصراحة وإخلاص .

وزيادة فى الإيضاح نقول : ان الحسين — رضى الله عنه — لو كان يعتزم فعلا الخروج لمنازعة يزيد ، لأخذ بالشطر الأول من نصيحة أخيه — محمد بن الحنفية رضى الله عنهما — فاعتصم بالبوادى والرمال ، ليكون فى أمن من أى خطر ، وليكفل لنفسه حرية الحركة ، وسلامة التنظيم ، بدلا من أن يتجه إلى مكة ، وهو يعلم ما عليه أميرها من غلظة وفظاظة ، وشدة وقوة تحول دون نشر أى دعوة ، أو أحكام أى تدبير .

مكانة الحسين بين أهل مكة :

وصل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — إلى أم القرى ، فى الثالث من شعبان ، سنة ستين من الهجرة ، ولم يكن مضى على تولى يزيد للخلافة أكثر من أسبوعين ، فتلقاه أهل مكة بالحفاوة والإجلال وأحاطوه بالمحبة والولاء ، وكان بالنسبة لهم ملء الأسماع والأبصار .

ولا عجب : فالحسين — رضى الله عنه ، هو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس على وجه الأرض يومئذ من يساميه شرفاً أو حسباً ، أو يدانيه مكانة أو مقاماً . .

وهكذا : عكف الناس على الوفود إليه ، والقدوم عليه ، والالتفاف حوله ، والاستماع لحديثه ، وقد رأوا فيه ما يذكرهم بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، خلقاً وخلقا ، وكرماً وفضلا ، وعلماً ونورا .

وطبيعى أن لايطمئن اليزيديون لمقام الحسين رضى الله عنه — بالبلد الحرام ، وهم يرون الناس لا يزدادون له إلا تشريفاً وتعظيما ، وإجلالا وتكريما ، ليس أهل مكة وحدهم ، بل جميع الناس من مختلف الآفاق ، الذين وفدوا من مشارق البلاد ومغاربها ، لقضاء العمرة ، وزيارة البيت العتيق .

وزاد من خطورة الموقف فى نظرهم ، معرفة الناس بامتناعه وابن الزبير عن مبايعة يزيد ، ووصول هذه الأنباء إلى الكوفة ، وبها أكثرية الشيعة ممن حاربوا مع على كرم الله وجهه ، واجتمعوا بعده حول الحسن رضى الله عنه ، إلى أن تناول عن الخلافة إلى معاوية .

وهكذا . . كانت مكانة الحسين — عليه السلام — بمكة تزداد رسوخاً يوماً بعد يوم ، فى الوقت الذى بدأ فيه أهل الكوفة من الشيعة ، يتحركون من جمودهم الذى ارتضوه طيلة خلافة معاوية رضى الله عنه ، حيث اطمأنوا إلى عدالته ، وارتاحوا لسيرته ، فلما مات معاوية ، وخلفه يزيد وخرج الحسين — رضى الله عنه — إلى مكة المكرمة ، اجتمعوا فى منزل سليمان بن صرد فقال لهم :

« إن معاوية قد هلك ، وان حسينا قد تقبض على القوم ببيعته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ، ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه ، وإن خفتم الوهل والفشل فلا تغروا الرجل من نفسه » قالوا : لا . . بل نقاتل عدوه ، ولقتل أنفسنا دونه . . قال : فاكتبوا إليه(١) .

ومع أن الحسين لم يكن يفكر فى شىء من ذلك ، فإن هذه الحركة بعثت القلق فى نفوس اليزيديين ، لا سيما وأنه فى نفس الوقت : بدأ عبد الله بن الزبير — رضى الله عنهما — يقف موقف التحدى والعداء الصريح .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٥٢ .

تعنت يزيد في موقفه من الحسين :

وقد كان في استطاعة يزيد – وقد أبى الحسين – رضي الله عنه – أن يغير موقفه منه ، وأصر على عدم مبايعته ، وآثر الخروج من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أهله وولده ، إلى البلد الحرام ، فراراً بدينه ، وحفاظاً على كرامته ، حتى لايرغم على أمر لا يرضاه ضميره ، ولا تطمئن إليه نفسه :. كان في استطاعة يزيد أن يترك الحسين – رضي الله عنه – وشأنه ، ما دام لا يبغي خلافاً ، ولا يشكل خطراً ، ولكن يزيد لم تكن له حنكة أبيه معاوية رضي الله عنه ، كما لم تكن له معرفته بأقدار أهل الفضل السابقين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يجب عليه نحوهم من توقير وتعظيم ، وفي مقدمتهم سيد شباب أهل الجنة : الحسين بن علي – رضي الله عنهما – رغم أن معاوية طالما أوصاه به خيراً ، حتى قال له قبيل وفاته :

« أنظر الحسين بن علي وابن فاطمة ، فإنه أحب الناس إلى الناس ، فصل رحمه ، وارفق به يصلح لك أمره »(١) :

ولكن يزيد أخذته العزة بالإثم ، فعزل الوليد عن عتبة عن امرة المدينة ، لتهاونه في أمر الحسين – رضي الله عنه – حتى استطاع الخروج إلى مكة ، وأضافها إلى أمير مكة – عمرو بن سعيد بن العاص – فقدم المدينة ، رمضان ، وكان متألهاً متكبراً ، فأخذ بعد الجيوش لمحاربة ابن الزبير بمكة ، استجابة منه لتعليمات يزيد إليه ، دون مبالاة بحرمة البيت الحرام والبلد الحرام :. وسارت القوات المعبأة في ألفين من الرجال ، بقيادة عمرو بن الزبير ، ومعه أنيس بن عمرو الأسلمي ، وعسكروا بالجرف :. ولما علم بذلك مروان بن الحكم ، جاء إلى عمرو بن سعيد وقال له :

« لا تغز مكة ، واتق الله ، ولا تحل حرمة البيت ، وخلوا ابن الزبير ، فقد كبر ، وله بضع وستون سنة :. والله لئن لم تقتلوه ليموتن » فانبرى عمرو بن الزبير قائلا : والله لنقاتلنه ، ولنغزونه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم »(٢) :

وتقدم الصحابي الجليل : أبو شريح الخزاعي رضي الله عنه ، بنصيحة مماثلة إلى عمرو بن سعيد ، حيث قال له :

« ائذن لي أيها الأمير : أحدثك قولا قام به النبي صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح (أي ثاني يوم فتح مكة) سمعته أذناي ، ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي حين تكلم به ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن مكة حرمها الله ، ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ، – صلى الله عليه وسلم – فيها ، فقولوا : قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، ثم عادت حرمتها اليوم ، كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الحاضر »(٣) :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨-١٦٢ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبري : ٥-٣٤٤ الكامل لابن الأثير ٣-٢٦٥ ، ٢٦٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨-١٤٩ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب يبلغ العلم الشاهد الغائب .

ولكن الوالى - عمرو بن سعيد - أجاب أبا شريح الخزاعى اجابة المتكبر ، المستهتر بحدود الله ، حيث قال :

« نحن أعلم بذلك منك يا أبا شريح . ان الحرم لا يعيذ عاصيا ، ولا فاراً بدم، ولا فاراً بخربة »(١) .

وهذا الرد حق يراد به باطل ، لأن عبد الله بن الزبير - رضى الله عنهما - لم يرتكب أمراً يوجب قصاصا ، ولم يسفك دماً يوجب حداً ، بل هو كصحابى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضل من يزيد بن معاوية ، وأولى بالخلافة منه ، وقد بويع بها قبله (٢) .

وهكذا : ضرب عمرو بن سعيد عرض الحائط بالنصائح التى أهديت إليه ، وسار أنيس بن عمرو بمن معه من الرجال ، فى طريقهم إلى مكة حتى نزل بذى طوى ، فأرسل ابن الزبير إليهم عبد الله ابن صفوان فيمن معه من مكة ، فهزمهم أقبح هزيمة .

خوف الحسين من استباحة مكة :

كل هذه الأحداث تتابعت : والحسين - رضى الله عنه - بمكة : يراقبها عن كثب ، ويتابعها باهتمام ؛ لما لها من صلة وثيقة بموقفه . فإنه ما قصد البلد الحرام إلا ظنا منه أنه يجد فيه الأمن الذى يفتقده ، والاستقرار الذى ينشده ، . ولكنه رأى عكس ما كان يتوقع ، وأيقن أن عمرو بن سعيد : وقد حاول فعلا استباحة البلد الحرام فى سبيل ارغام عبد الله بن الزبير - رضى الله عنهما - ، فإنه لن يتورع عن استباحتها فى سبيل ارغامه ، ولو تعلق بأستار الكعبة .

ولقد كان لهذه الأحداث أثرها العميق فى نفس سيد شباب أهل الجنة - رضى الله عنه - وكانت من أهم البواعث - ان لم تكن أهمها فعلا - التى دفعت به إلى التفكير فى التحول عن مكة ، والخروج منها : لقد أشفق - رضى الله عنه - على البلد الحرام أن يكون سبباً فى هتك حرمته ، وإهدار قدسيته ، وأشفق على أهلها الآمنين المسالمين أن تستباح أموالهم ، وتهدر دماؤهم ، فلا بد له اذن من مغادرة مكة المكرمة ، مهما كانت الأخطار التى تحيط به ، والنهاية التى تنتظره ، مفضلا التعرض للهلاك ، على أن يمس البلد الحرام بسببه بأى امتهان أو عدوان .

هذا هو الباعث الحقيقى ، والعامل القهرى ، الذى دفع بسيد شباب أهل الجنة - رضى الله عنه - ، إلى التفكير فى الخروج من البلد الحرام ، بعد أن أستقر به وبأهله المقام بها ، وأن من أعجب العجب ، أنه مع وضوح هذا الباعث ، نجد أن الكثير من الكتاب يتجاهلونه ، أو يغفلون عنه ، ليغرقوا أنفسهم فى لجة لا قرار لها ، باحثين عن بواعث أخرى يتخيلونها ، وعن عوامل مختلفة يستنبطونها ، مما سنوضحه بالفصل العاشر من هذا الكتاب الذى خصصناه للرد على الشبهات والمفتريات .

* * *

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٤٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٤٨ .

(٢) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ، للشيخ عبد الله الشرقاوى : ١ - ١١١ .

وقد تواترت الأخبار التى تناقلها المؤرخون والمحدثون فى هذا الصدد ، وكلها يقوى بعضها بعضا ، ويؤكد الحقيقة التى لاشك فيها ، وهى أن الحسين – رضى الله عنه – حينما فكر فى الخروج من مكة ، كان الدافع الأول والأهم فى ذلك ، هو شعوره بالأخطار تحيط به ، وتورعه عن أن يصاب البلد الحرام والبيت الحرام بسببه بأى سوء .

هذا هو عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يقول :

« استشارنى الحسين بن على – رضى الله عنهما – فى الخروج – أى من مكة – فقلت له : لولا أن يزرى بى وبك ، لنشبت يدى فى رأسك ، فلم أتركك تذهب ، فكان الذى أن رد على قال : لأن أقتل فى مكان كذا وكذا ، أحب إلى من أن أقتل بمكة وتستحيل بم ، فكان هذا الذى سلى نفسى عنه »(١) .

وهذا هو عبد الله بن الزبير ، يأتى الحسين – رضى الله عنهما – وقد بلغه تفكيره فى الخروج من مكة ، فيقول له :

« أين تذهب ؟ إلى قوم قتلوا أباك ، وطعنوا أخاك ؟ » فلا يجيبه الحسين – رضى الله عنه – إلا بقوله : لأن أقتل بمكان كذا وكذا ، أحب إلى من أن تستحل بى »(٢) .

وفى رواية أخرى أن عبد الله بن الزبير جاء إلى الحسين – رضى الله عنهما – فقال له : ما أدرى . ما تركنا هؤلاء القوم وقد كففنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين ، وولاه هذا الأمر دونهم ؟ خبرنى : ما تريد أن تصنع ؟ قال الحسين رضى الله عنه :

« لقد حدثت نفسى بإتيانى الكوفة ، ولقد كتبت إلى شيعتى بها وأشراف الناس ، وأستخير الله » .
فقال ابن الزبير :

أما إنك لو أقمت بالحجاز . ثم أردت هذا الأمر ها هنا ، لما خالفنا عليك ، وساعدناك وبايعناك ونصحنا لك : فرد الحسن رضى الله عنه قائلا :

« إن أبى حدثنى أن لها كبشاً به تستحل حرمتها : فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش ، . والله لأن أقتل خارجاً منها بشبر ، أحب إلى من أن أقتل فيها ، ولأن أقتل خارجاً منها بشبرين ، أحب إلى من أن أقتل خارجاً منها بشبر ، وأيم الله لو كنت فى جحر هامة من هذه الهوام ، لاستخرجونى حتى يقضوا بى حاجتهم ، والله ليعتدن على كما اعتدت اليهود فى السبت »(٣) .

وواضح كل الوضوح أن سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – لم يكن يبالى بحياته ، بقدر ما كان يهمه أن يظل البيت الحرام له مكانته فى النفوس ، وله حرمته وقدسيته .

كما أنه من الواضح أن سكوت كل من ابن عباس ، وابن الزبير – رضى الله عنهما – على ما ذكره الحسين – رضى الله عنه – عن احتمال مقاتلته بمكة ، واستحلالها به : يدل على إن ظنه كان فى موضعه ،

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٥٩ .
(٢) المصدر السابق ٨ - ١٦١ .
(٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٨٥ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

وأن النية المبيتة ضده لم تكن محل شك ، أو غموض ، ولذلك لم يعترض أحد منهما على قوله ، ليس ذلك فحسب : بل لقد أقره عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — على رأيه ، حتى أنه ليقول : « فذاك هذا الذى سلى نفسى عنه » :

الحسين فى مفترق الطرق :

أحس الحسين — رضى الله عنه — بأن الاستقرار الذى كان يسعى إليه أوشك أن يصبح سرابا ، وأن الأمن الذى كان يطمع فيه يزداد بعداً ، : وأن العواصف التى حاول الابتعاد عنها ، تأبى الأقدار إلا أن تدفع به فى تياراتها العنيفة :

وبالرغم من أنه لم يكتب إلى أحد ، ولم يدع إليه أحداً ، فقد بدأت الكتب تأتى إليه متتابعة ، والوفود تسير إليه من كل فج عميق ، والكل يستحثونه على الاستجابة لهم ، والتقدم لقيادتهم ، فى الطريق إلى اعلاء كلمة الله ، أو الاستشهاد فى سبيله : .

كتب إليه أهل الكوفة يقولون :

« سلام عليك ، فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، : أما بعد : فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد ، الذى انتزى على هذه الأمة ، فانتزع حقوقها ، واغتصبها أمورها ، وغلبها على فيئها ، وتأمر عليها بغير رضاً منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وجعل مال الله دولة بين جبابرتها وأغنيائها ، فبعداً له كما بعدت ثمود : . وبعد : فإنه ليس علينا أمام ، فاقدم علينا ، لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والهدى ، فإن النعمان بن بشير فى قصره الإمارة ، ولسنا نجتمع فى جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا ، أخرجناه من الكوفة ، وألحقناه بالشام إن شاء الله ، والسلام ورحمة الله عليك »(١) :

ولم يمض قليل حتى بعث إليه أهل الكوفة وفداً من أعيانهم ومعهم نحوا من مائة وخمسين صحيفة : الصحيفة من الرجل والإثنين والأربعة (٢) .

ثم كتبوا إليه يستحثونه ويقولون :

« أما بعد : فحيهلا ، فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأى فى غيرك ، فالعجل العجل ، والسلام عليك »(٣) :

ثم كرروا الكتابة إليه قائلين : :

« أما بعد : فقد اخضرت الجنان ، وأينعت الثمار ، وطمت الجمام ، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجند ، والسلام عليك »(٤) :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٥٢ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٦٦ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٥٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٥١ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٥٣ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٥١ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٥٣ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٥١ .

واجتمع لدى سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — الكثير من الرسل والكتب ولكنه مع ذلك لم يتحرك ساكناً ، وظل زهاء ثلاثة أشهر يفكر فى الأمر ، ويتابع الأحداث .. ويزن الأمور بميزان الحق والإيمان ، متحرياً فيها خير الإسلام ومستهدفاً صالح المسلمين ..

إن الأمر جد خطير ، انه يتعلق بدماء المسلمين ، والحسين رضى الله عنه أشد الناس حرصاً على حقنها ، ويتعلق بمصير الأمة الإسلامية ، والحسين — رضى الله عنه — من أصدق العاملين على اعلاء شأنها ، وتوطيد سلطانها .. .

* * *

وجد الحسين رضى الله عنه نفسه فى مفترق الطرق . . ولا بد له من أن يختار إحداها !

لقد أصبحت مكانته فى مكة أقوى من أن تزعزعها قوة . لا سيما بعد أن ظفر ابن الزبير بكل السرايا والبعوث التى أرسلت لقتاله ، وانتصر عليها ، فارتدت مهزومة مدحورة « وعظم شأن ابن الزبير بالحجاز ، واشتهر أمره ، وبعد صيته ، ومع ذلك فليس هو معظماً عند الناس مثل الحسين ، بل الناس إنما ميلهم إلى الحسين ، لأنه السيد الكبير ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم »(١) .

ليس ذلك فحسب .. بل ان ابن الزبير نفسه عرض على الحسين — رضى الله عنهما — أن يبايعه فلا يخالف له أمراً .. ولا شك أن الحسين — عليه السلام — لو قبل ذلك لكان فى منعة وقوة ، تجعلانه فى أمن من الأخطار .. ولو إلى حين ...

ولكن إيمان الحسين رضى الله عنه وورعه كانا أعظم من كل ذلك .. انه لم يكن طامعاً فى عرض من أعراض الدنيا ، ولو كان كذلك لقبل ما عرضه ابن الزبير ، ولكنه رفض ، لأنه يعلم علم اليقين أن انتصارات عبد الله بن الزبير ، وتمكنه من مكة ، لن تمنع يزيد من إرسال الجيوش واستمرار القتال ، مما يضاعف الأخطار المحيطة به ، ويؤدى إلى وقوع ما يخشاه ، من استباحة البلد الحرام ، فى سبيل أخذه وإرغامه .. وفى نفس الوقت فإن هناك بالكوفة ، عشرات الألوف من الناس ، ما زالوا يلحون فى دعوته إليهم ويؤكدون استعدادهم لنصرته ، والعمل تحت لوائه .

استطلاع الحسين للأحوال بالكوفة :

ورأى الحسين — رضى الله عنه — فى النهاية ، قبل أن يتخذ قراره الأخير ، أن يقطع الشك باليقين ، وأن يكتب إلى القوم للتثبت من رأيهم ، وأن يبعث إليهم بمن يكشف له حقيقة موقفهم ، فإن كانوا صادقين فى نيتهم ، فكر فى الاستجابة لهم ، والسير إليهم ، وإن كانوا خلاف ذلك ، سلك بنفسه وأهله المسلك الذى يوفر له البعد عن الظالمين ، ويحقق له الأمن والكرامة فى الدنيا والدين .

وهكذا كتب سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — إلى أهل الكوفة يقول :

« من حسين بن على ، إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فقد فهمت كل الذى اقتصصتم

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨-١٥١ .

وذكرتم ، ومقالة جلكم : انه ليس علينا امام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والهدى ، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملئكم ، وذوى الفضل والحجى منكم ، على مثل ما قدمت على به رسلكم ، وقرأت فى كتبكم ، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله ، فلعمرى ما الامام إلا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ؛ ، والحابس نفسه على ذات الله والسلام »(١) ؛

أرسل الحسين — رضى الله عنه — كتابه مع آخر الرسل الذين وفدوا إليه من الكوفة ، وبعث فى أثرهم ابن عمه مسلم بن عقيل فى ذى القعدة سنة ستين ، فلم يكد يصل إلى الكوفة ، ويتسامع أهلها بقدومه ، حتى هرعوا إليه ، وبايعوه على امرة الحسين — رضى الله عنه — وأقسموا لينصرنه بأنفسهم وأموالهم ، وبلغ تعداد من بايعوه ثمانية عشر ألفا . ثم زادوا إلى أربعين ألفا(٢) ؛

هنالك : كتب مسلم إلى الحسين — رضى الله عنهما — يقول :

« أما بعد : فإن الرائد لا يكذب أهله ، وإن جميع أهل الكوفة معك ، فأقبل حين تقرأ هذا والسلام »(٣) ؛

تلقى الحسين — رضى الله عنه — كتاب مسلم بن عقيل ، فلم يعد هناك مجال لأى تردد : فإن الخطر فى مقامه بمكة ، كان محققاً لا ريب فيه ؛ بالنسبة له ، وبالنسبة للبلد الحرام ، والبيت الحرام ، فى حين أن الخطر فى الخروج إلى العراق محتمل بالنسبة له ومن معه فقط ، فاختار — رضى الله عنه — التعرض لخطر محتمل يحيق به وبأهله ، على خطر محقق ، يمتد لهيبه إلى البلد الحرام ، والبيت الحرام ، ومن يعيش فى كنفهما ، ويلوذ بحماهما ، من القائمين والعاكفين ؛ والركع السجود ؛

صدى عزم الحسين على الخروج :

أشفق المخلصون من الصحابة والتابعين على سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — أشد الإشفاق ، وجزعوا لما علموه من اعتزامه الخروج إلى الكوفة ، فتتابعوا فى القدوم عليه ، وإسداء النصيحة له ، ومناشدته عدم الالتجاء إلى قوم لا عهد لهم ولا ميثاق ؛ ؛

لم يكد عبد الله بن عباس — رضى الله عنه — يبلغه ذلك ، حتى أسرع إليه ، فقال له :

« يا ابن عم : انه قد أرجف الناس إنك مسافر إلى العراق ، فبين لى ما أنت صانع ؟ إن كانوا قد دعوك بعد ما قتلوا أميرهم ، ونفوا عدوهم ، وضبطوا بلادهم ، فسر إليهم ، وإن كان أميرهم حى ، وهو مقيم عليهم ، قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال ، ولا آمن عليك أن يستفزوا عليك الناس ، ويقبلوا قلوبهم عليك ، فيكون الذين دعوك أشد الناس عليك » ثم قال له :

« لا تبرح الحرم ، فإنهم إن كانت بهم إليك حاجة ، فسيضربون إليك اباط الإبل حتى يوافوك ، فتخرج فى قوة وعدة » ؛ فأجابه رضى الله عنه : « إنى أستخير الله فى ذلك ، وانظر ماذا يكون »(٤) ؛

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٥٣ .

(٢ ، ٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٦٨ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٥٩ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٧٥ .

وانصرف عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، وهو فى قلق شديد ، ولم يلبث حتى عاد إليه فى اليوم التالى فقال له :

« يا ابن عم : إنى أتصبر ولا أصبر .. إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك ، إن أهل العراق قوم غدر فلا تغترن بهم ، أقم فى هذا البلد حتى ينفى أهل العراق عدوهم ، ثم أقدم عليهم ، وإلا فسر إلى اليمن فإن به حصوناً وشعاباً ، ولأبيك به شيعة ، وكن عن الناس فى معزل ، واكتب إليهم ، وبث دعاتك فيهم ، فإنى ان فعلت ذلك . أن يكون ما تحب » فأجابه الحسين رضى الله عنه :

« يا ابن عم : والله إنى لأعلم انك ناصح شفيق ، ولكنى قد أزمعت المسير .. » فرد عليه :

« فإن كنت ولا بد سائراً فلا تسر بأولادك ونسائك ، فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه »(١) .

وجاءه بكر بن عبد الرحمن بن هشام فقال له : يا ابن عم : قد رأيت ما صنع أهل العراق بأبيك وأخيك ، وأنت تريد أن تسير إليهم ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعد أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره ، فاذكر الله فى نفسك .

فأجابه الحسين — رضى الله عنه — : جزاك الله يا بن عم خيرا ، مهما يقض الله من أمر يكن ! !

مراجعة للحقائق . . والأسباب :

استمر الحسين — رضى الله عنه — على موقفه الذى كان قد اعتزمه ، بعد أن استمع إلى نصائح المخلصين واستخار رب العالمين ، وجدير بنا ، ونحن نصور الأحداث ، أن نراجع الحقائق التالية :

أولا — أن الحسين قد رفض دعوة أهل الكوفة إلى الخروج على معاوية عقب وفاة شقيقه الحسن رضى الله عنهما ، كما أنه سبق أن حذر أخاه محمد بن الحنفية من الإصغاء إليهم ، أو الاطمئنان لهم .

ثانيا — إنه كان على علم تام بما عليه أهل الكوفة من تردد وضعف ، وخلاف وشقاق ، وبما لاقاه منهم أبوه وأخوه من قبل ، من خذلان ونقض للعهود .

ثالثا — إنه رضى الله عنه كان أحد الخمسة الكبار ، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فامتنعوا عن إجابة معاوية إلى بيعة يزيد ، وعرف لهم معاوية مقامهم فلم يحاول لهم ارغاما ، وتركهم على حريتهم ، درءاً للفتنة ، وحرصاً على السلام .

رابعا : إنه رضى الله عنه اكتفى والأربعة الآخرون بهذا القدر من المعارضة فلم يبايعوا ، ولكنهم فى نفس الوقت لم يظهروا خلافاً ، وظلوا طوال خمس سنوات — بعد أخذ البيعة ليزيد حتى وفاة معاوية — ملتزمين سبل السلام ، رغم المحاولات العديدة لأهل العراق والكوفة ، لإغراء الحسين رضى الله عنه بالخروج إليهم .

خامسا : إن الحسين — رضى الله عنه — بعد وفاة معاوية كان واقعاً تحت ضغط شديد ، مطالباً بالبيعة ليزيد طوعاً أو كرهاً ، وإلا ضربت عنقه ، وأهدرت دماؤه ، مما اضطره إلى الخروج من المدينة إلى مكة . .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٨٤ ، البداية والنهاية : ٨ - ١٦٠ ، ١٦٣ .

سادسا : انه رضى الله عنه كان – مع كل ذلك – لا يفكر حين خروجه إلى مكة المكرمة ، أن يدعو إلى فتنة ، أو يخرج عن طاعة ، وإنما قصد بخروجه السلامة لدينه وكرامته وحريته ، بدليل قوله لأمير مكة حين وصوله إليها : « جئنا عواذاً بالبيت » .

على من تقع مسئولية الفتنة ؟

وهكذا : تضافرت الظروف ، وتكاتفت العوامل ، على الدفع بحفيد سيد المرسلين – صلى الله عليه وسلم – فى لجة الأحداث ، لا سعياً وراء فتنة ، ولا منازعة على خلافة ، وإنما نجاة بدينه وعقيدته ، وحفاظاً على حريته وكرامته ، وضناً بالبلد الحرام أن يستحل بسببه . . « والله غالب على أمره . ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(١) .

وإذ كان هذا هو حقيقة موقف سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – وحقيقة العوامل والظروف التى أحاطت به ، فإنه بعد ذلك : لم يكن – فى قليل أو كثير – مسئولا عن الأحداث الدامية التى تتابعت ، والدماء الغزيرة التى سفكت ، إنما المسئول عن ذلك : هو يزيد بن معاوية ، لأنه خالف وصية أبيه – رضى الله عنه – وأبى إلا أن يسلك مسلك الجهالة من ابن بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهم أهل السوء من بطانته وعماله ، الذين زينوا له سبيل البغى والعدوان ، وأغروه بالتجبر والطغيان .

فلو أن يزيد سار سيرة أبيه ، فترك الذين أبوا مبايعته كما تركهم أبوه من قبل ، دون أن يتعرض لهم ، أو أن يتحرش بهم ، وقد كان أبوه أقدر منه عليهم ، ولكنه كان أعرف منه بقدرهم . . لو أن يزيد فعل ذلك : لاستمرت الأحوال مستقرة ، ولحقنت الدماء التى أهدرت ، وسلمت النفوس التى أزهقت ، ولكنه أبى إلا أن يرغمهم على ما تغاضى عنه والده من قبل ، حتى دفع بالحسين وابن الزبير – رضى الله عنهما – إلى الخروج من المدينة ، والالتجاء إلى مكة ، ثم أبى إلا أن يستمر فى جبروته ، ويستعد للعدوان على البلد الحرام ، حتى اضطر الحسين – رضى الله عنه – إلى الخروج منها : .

ولو أن يزيد حفظ الوصية الجامعة التى أهداها إليه معاوية – رضى الله عنه – وهو على فراش الموت ، يوضح له فيها طريق الحكم الصالح ، ويرشده إلى سبيل السياسة الرشيدة ، ويحضه على الرفق بالناس ، ومعاملتهم على قدر منازلهم ، والحرص على تأليف قلوبهم ، ويقول له :

« يا يزيد اتق الله ، فقد وطأت لك هذا الأمر ، ووليت من ذلك ما وليت ، فإن يك خيراً فأنا أسعد به ، وإن كان غير ذلك شقيت به ، فارفق بالناس وأغمض عما بلغك من قول تؤذى به وتنتقص به ، وطأ عليه يهنك عيشك ، وإياك وخيرة أهل الشرف واستهانتهم والتكبر عليهم ، وكن لهم لينا بحيث لا يروا منك ضعفاً ولا خورا ، وأوطئهم فراشك ، وقربهم إليك ، وأدنهم منك ، فإنهم يعلموا لك حقك ، ولا تهنهم ولا تستخف بحقهم فيهينوك ، ويستخفوا بحقك ، ويقعوا فيك ، فإذا أردت أمراً فادع أهل السن والتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوى ، فشاورهم ولا تخالفهم ، وإياك والاستبداد برأيك ، فإن الرأى ليس فى صدر واحد ، وصدق من أشار عليك إذا حملك على ما تعرف ،

---

(١) سورة يوسف : آية ٢١ .

واخزن ذلك عن نسائك وخدمك ، وشمر إزارك ، وتعاهد جندك ، وأصلح نفسك تصلح لك الناس ، لا تدع لهم فيك مقالا ، فإن الناس سراع إلى الشر ، واحضر الصلاة ، فإنك إذا فعلت ما أوصيتك به عرف الناس لك حقك ، وعظمت مملكتك ، وعظمت فى أعين الناس ، واعرف شرف أهل المدينة ومكة ، فإنهم أصلك وعشيرتك ، واحفظ لأهل الشام شرفهم ، فإنهم أهل طاعتك ، واكتب إلى أهل الأمصار تعدهم فيه منك بالمعروف ، فإن ذلك يبسط آمالهم ، . . ولا تسمعن لقول قاذف أو ماحل ، فإنى رأيتهم وزراء سوء »(١) .

استبداد يزيد . . وطغيانه :

ولكن يزيد — كما أكدته الحوادث — لم يأخذ بهذه الوصية الجامعة ، بل عمل تماماً على عكسها ، فسار فى حكمه سيرة الاستبداد والقسوة ، وسلك مسلك الطغاة المتجبرين ، فلم يكتف بمحاولته ارغام الحسين على بيعته ، بل استمر فى احراجه بمكة ، ومطاردته من مكان إلى آخر ، حتى قتل فى كربلاء ، وفى خلال ذلك كان يشجع ابن زياد على البطش ، ويرحب بما يسفكه من دماء ، ويضربه من أعناق ، حتى أنه حين بعث إليه برأس كل من مسلم بن عقيل ، وهانىء بن عروة ، كتب إليه يزيد يعلن رضاءه عنه ، وثقته فيه ويقول له :

« أما بعد : فإنك لم تعد أن كنت كما أحب ، عملت عمل الحازم ، وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش ، فقد أغنيت وكفيت ، وصدقت ظنى بك ، ورأيى فيك ، وقد دعوت رسوليك فسألتهما ، وناجيتهما ، فوجدتهما فى رأيهما وفضلهما كما ذكرت ، فاستوص بهما خيراً ، وأنه قد بلغنى أن الحسين ابن على قد توجه نحو العراق ؛ فضع المناظر والمسالح ، واحترس على الظن وخذ على التهمة ، غير أن لا تقتل إلا من قاتلك ، واكتب إلى فى كل ما يحدث من الخبر ، والسلام عليك ورحمة الله »(٢) .

أما أهل المدينة : الذين أوصاه معاوية ، رضى الله عنه — أن يعرف لهم شرفهم ، مع أهل مكة ، فإنهم حين ثاروا — لمقتل الحسين عليه السلام — لم يكتف بقتالهم ، والتغلب عليهم ، حتى أذن لجيوشه باستباحتها ثلاثة أيام ، فقتلوا الكثير من أشرافها وقرائها ، وانتهبوا آموالها ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، حتى وقعوا على النساء ، فحملت ألف امرأة من غير زواج(٣) .

ولو أن سكان هذه المدينة كانوا من الزنادقة المشركين بالله ورسوله ، لما كان ليزيد أن يستبيحها ساعة واحدة ، فكيف وهى موطن نجوم الهدى ، من أصحاب سيد الأنبياء والمرسلين ، وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من انتهاك حرمتها ، أو الاعتداء على أهلها فقال فيما رواه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه :

« لايكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح»(٤) . . وفى رواية أخرى:
« لا يريد أحد المدينة بسوء ، إلا أذابه الله فى النار ذوب الرصاص »(٥) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٢٢٩ — ٢٣٠ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٨٠ — ٣٨١ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ٢٢١ .
(٤ ، ٥) البخارى ومسلم : من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .

كما حذر النبي — صلى الله عليه وسلم ، أشد التحذير من إخافة أهلها — فكيف بسفك دمائهم ، وهتك أعراضهم ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« من أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا »(١) .

* * *

ولم يكتف يزيد بذلك حتى سير جيوشه إلى مكة المكرمة فحاصروها . . وضربوا الكعبة بالمجانيق . . ورموها بالنار . . »(٢) .

ولقد لقي يزيد جزاءه العاجل على ما اقترفه من طغيان « وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه ، ودوام أيامه من غير منازع ، فعاقبه الله بنقيض قصده ، وحال بينه وبين ما يشتهيه ، فقصمه الله قاصم الجبابرة ، وأخذه أخذ عزيز مقتدر « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة أن أخذه أليم شديد »(٣) .

صحة تقديرات الحسين :

وقد أثبتت هذه الأحداث الشنيعة ، أن الحسين رضى الله عنه — حين رفض مبايعة يزيد خليفة للمسلمين ، لم يصدر فى ذلك عن هوى ، وإنما كان الدافع به إلى الرفض ثقته بعدم صلاحيته ، كما أن خوفه من استباحة يزيد لحرمة البيت الحرام ، لم يكن مبالغاً فيه ، فهذا هو يأمر باستباحة المدينتين المقدستين ، ويقترف فيهما من الآثام ، ما « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا »(٤) .

كما أثبتت هذه الأحداث أن الحسين — رضى الله عنه — كان محقاً فى خروجه من المدينة والتجائه إلى مكة المكرمة ، نجاة بدينه ومقدساته ، وسوف نرى بعد ذلك أنه كان محقاً كذلك فى خروجه من مكة إلى العراق لنفس الأسباب ، التى من أجلها ترك المدينة ، ولأسباب أخرى لا تقل خطورة عنها .

كان سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — محقاً فى كل ذلك ، فإن الحاكم الذى يستبيح لنفسه — بعد أن تغلب على أهل المدينة — أن يفعل بالمستضعفين من أهلها من الرجال والنساء والولدان ، ما لم يفعله نيرون حين أحرق روما . . ويزيد على ذلك هدم بيت الله الحرام وأحرقه . . مثل هذا الحاكم ماكان ليتورع عن التنكيل بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، لو تمكن من ذلك .

إنما الأعمال بالنيات :

ومهما يكن من نتيجة هجرة الحسين — رضى الله عنه — من المدينة المنورة وما ترتب عليها من آثار وما سفك بعدها من دماء : فإن الخيرة فيما اختاره الله . وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله . . »(٥) .

---

(١) رواه الإمام أحمد والنسائى ، من حديث السائب بن خلاد .

(٢) البداية والنهاية : ٨ - ٢٢٥ .

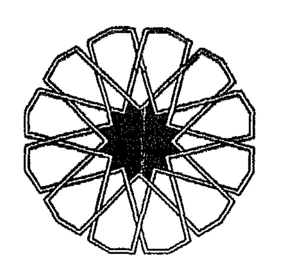
(٣) البداية والنهاية : ٨ - ٢٢٢ .

(٤) سورة مريم : آية ٩٠ .

(٥) متفق عليه ، من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ولقد كانت هجرة الحسين — رضى الله عنه — إلى مكة ، فى سبيل الله ، كما كان خروجه منها فى سبيل الله وحده ، وابتغاء وجهه ، وليس لأحد بعد ذلك يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقف من سيد شباب أهل الجنة موقف المنتقد لأعماله ، المتأول لأقواله ، وقد صرح سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : أن الحسين منه ، وأنه من الحسين ، وأن الله تعالى يحب من أحبه ، ويبغض من يبغضه ، فإنه لا يصح لمن يتجارأ على نقد الحسين — عليه السلام إلا أن يكون أفضل منه مقاما ، وأفقه منه علما . . والمتفق عليه أنه لم يكن على وجه الأرض — فى حينه — من يدانيه شرفاً وحسباً ، وإيماناً وتقوى ، وعلماً وفضلا ، فكيف بمن جاءوا بعده بمئات السنين : : وهم بلا شك دون من قبلهم بنص الحديث الشريف : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته »(١) :

إن الذى لا شك فيه : أن كل خطوة خطاها سيد شباب أهل الجنة — عليه السلام — كانت فى سبيل الله ، وكل كلمة قالها كانت لله : : وبالله ، ولقد كان خروجه من المدينة : : قدراً مقدوراً ، كما كان خروجه من مكة خيراً كثيراً . . خيراً للإسلام عقيدة وديناً ، وخيراً للمسلمين جماعة وأفرادا ، وقبائل وشعوبا : :

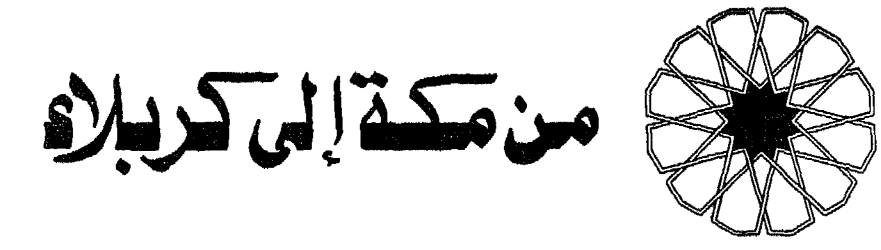


(١) أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

الفصل التاسع

« انى رأيت رؤيا ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى فيها بأمر ، وأنا له ماض ، على كان أو لى » .

« الحسين رضى الله عنه »



لو لم أعجل . . لأخذت . . ! !

لم يكن فى استطاعة الحسين — رضى الله عنه — أن يتجاهل الأصوات التى تناديه إلى الخروج ، وتعده النصرة ، وتمنيه السلامة والأمان ، فى الوقت الذى كانت الأخطار محدقة به ، والمؤامرات تدبر لأخذه أو أرغامه ، فضلا عن حرصه على مكة المكرمة ألا تهدر حرمتها ، وعلى البيت الحرام أن لا تستباح حرمته .

* * *

وعلى بركة الله . . وفى سبيل الله ، اعتزم سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — الخروج إلى الكوفة ، وكأنه أراد قبيل انطلاقه أن يتزود من القوة الروحية ، بما يشد عزيمته ، ويثبت فؤاده ، فأبى ألا أن يطوف بالبيت الحرام سبعاً ، داعياً مبتهلا ، ؛ ؛ وألا أن يسعى بين الصفا والمروة ، ثم يقصر من شعره ، ويحل من عمرته[١] . ولم ينتظر — رضى الله عنه — حتى يتم شعائر الحج ، فخرج ظهيرة يوم التروية — الثلاثاء : الثامن من ذى الحجة — فلقيه الفرزدق فقال له :

« بأبى وأمى يابن رسول الله : ما أعجلك عن الحج ؟ » قال : « لو لم أعجل لأخذت[٢] » ثم قال :

« أخبرنى عن الناس خلفك » ؟ ؟ فأجابه الفرزدق :

« قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » فقال له الحسين رضى الله عنه :

« صدقت ! ! لله الأمر من قبل ومن بعد ، يفعل ما يشاء ، وكل يوم ربنا فى شأن ، إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر ، وإن حال القضاء دون الرجاء ، فلم يعتد من كان الحق نيته ، والتقوى سريرته[٣] » .

حقاً . . لقد كان الخطر فعلا محدقاً بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يعجل بالخروج ، لحيل بينه وبين ذلك ، ولوقع أسيراً فى يد أمير مكة ، الذى ما كاد يبلغه انطلاق الحسين رضى الله عنه ، حتى بعث فى أثره نفراً من رجاله ، يعترضون سبيله ، وتدافع الفريقان : ولكن الحسين — رضى الله عنه — امتنع منهم امتناعاً قوياً[٤] ، وسار فى سبيله رغم أنفهم ، فغادروه قائلين :

ياحسين : ألا تتقى الله ؟ تخرج من الجماعة ، وتفرق بين هذه الأمة ؟ فرد عليهم قائلا :

« لى عمل ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون »[٥]

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٦٦ .

(٢ ، ٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٨٦ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٧٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٦٦ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٨٥ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٧٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٦٦ - ٨ .

(٥) سورة يونس : آية ٤١ .

وصحب الحسين – رضى الله عنه – فى خروجه ستون شخصاً من أهل الكوفة . وجميع أهل بيته من رجال ونساء وصبيان ، عدا محمد بن الحنفية ، فانه عارض فى الخروج ، ومنع ولده ، فقال له الحسين رضى الله عنه :

ترغب بولدك عن موضع أصاب فيه ؟ فأجابه قائلا :

وما حاجتى إلى أن تصاب ويصابون معك ، وإن كانت مصيبتك أعظم عندنا منهم .

لابد إذن من مصرعى ! !

وتوالت نصائح المخلصين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبيل خروجه من مكة ، وبعد خروجه منها ، ولكن الحسين – رضى الله عنه – كان وكأنه مدفوع بقوة قاهرة ، إلى قدر معلوم ، لاتبديل له ، ولا انفكاك عنه :

كتبت إليه عمرة بنت عبد الرحمن ، تعظم عليه ما يريد أن يصنع ، وتأمره بالطاعة ولزوم الجماعة ، وتقول له « أشهد : لسمعت عائشة رضى الله عنها تقول : أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يقتل الحسين بأرض بابل » . فلما قرأ سيد شباب أهل الجنة كتابها قال :

« فلابد أذن من مصرعى »[1] ! ! . . ومضى فى سبيله .

وكتب إليه عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – يخبره أنه أنما يساق إلى مصرعه ، ويعلمه بحديث عائشة رضى الله عنها عن مقتله ببابل ، ولكنه قال بمثل قوله السابق[2] .

ولما بلغ ابن عمر – رضى الله عنهما – خروجه ، لحق به على مسيرة ثلاث ليال . وقال له :

« إنى محدثك حديثاً ، أن جبريل أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فخيره بين الدنيا والآخرة : فاختار الآخرة ، ولم يرد الدنيا ، وأنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ما يليها أحد منكم أبداً ، وما صرفها الله عنكم إلا للذى هو خير لكم » .

ولكن الحسين – رضى الله عنه – أبى أن يرجع عن عزمه . فاعتنقه ابن عمر وبكى قائلا :

« أستودعك الله من قتيل »[3] !

وبلغ أبو واقد الليثى مخرج الحسين – رضى الله عنه – ، فأدركه بملل ، وناشده الله ألا يخرج فإنه أنما يخرج فى غير وجه ، ليقتل نفسه ، ولكنه أصر مواصلة على طريقه وقال : لا أرجع ![4] .

وجاءه أحد أبناء عمومته فقال له : أنشدك الله لما انصرفت راجعاً ، فوالله ما بين يديك من القوم أحد يذب عنك ولا يقاتل معك ، وإنما والله أنت قادم على الأسنة والسيوف . فرد الحسين – رضى الله عنه – قائلا : أنه ليس يخفى على ما قلت وما رأيت ، ولكن الله لا يغلب على أمره[5] .

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٦٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، للذهبى : ٣ - ١٩٩ .

(٣) البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٦٠ .

(٤) البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٦٣ .

(٥) البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٧١ .

وهؤلاء هم :: أبو سعيد الخدرى ، وجابر بن عبد الله ، والمسور بن مخرمة ، وسعيد بن المسيب وغيرهم كثيرون ، ممن تتفجر قلوبهم حباً لسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه وعنهم أجمعين — وتنقبض أفئدتهم جزعاً لخروجه ، والجميع يحاولون صده عن وجهته ، وتحويله عن عزمته ، ولكنه — رضى الله عنه — كان يتقبل نصائحهم برفق ، داعياً لهم بالخير ، مخبراً البعض بأنه يستخير الله ، ومؤكداً للآخرين بأنه سيكون ما يقضى به الله !

البواعث الخفية للخروج :

كان إصرار الحسين على رأيه :: واعتذاره عن قبول ما أسدى إليه من نصائح أكابر الصحابة والتابعين ، من أعجب الظواهر فى هذه الأحداث الفاصلة فى تاريخ الأمة الإسلامية ، وقد اختلف المؤرخون فى تعليل البواعث الحقيقية لهذا الإصرار ، وفسره بعض المعاصرين بأنه استبداد بالرأى تارة(١)، أو حرص على اغتنام فرصة البيعة التى عقدها أهل الكوفة له تارة أخرى(٢) ، ولكن الذى لا شك فيه ، أن كلا من الافتراضين بعيد عن الحقيقة والواقع ، وأن الباعث للحسين — رضى الله عنه — على موقفه أعمق من كل ذلك ، لأنه لا يقف عند حد العوامل الحسية التى يمكن إدراكها لأول وهلة ، كافتقاده الأمن الذى كان ينشده :: وتورعه عن أن يستباح البيت الحرام بسببه ، وإنما يمتد إلى عوامل أخرى ، لا يدركها إلا الباحثون عن الحقيقة ، احتفظ الحسين — رضى الله عنه — بها لنفسه ، فلم يفصح عنها إلا بمقدار ، لا يستطيع تحصيل مغزاه ، إلا أرباب القلوب الذين أنار الله بصيرتهم ، فأدركوا من الأسرار ما لم يدركه الآخرون بعقولهم وعلومهم .

وكما أن الحسين — رضى الله عنه — لم يكن مغالياً فى تصور العوامل الحسية التى كانت تحيط به ، والأخطار التى كانت تهدده ، وتهدد معه البيت الحرام ، فقد سلم بصحة كل ذلك ابن عباس وابن الزبير — رضى الله عنهما — وأكدته الأحداث بمحاولة أمير مكة — عمرو بن سعيد — إرغام الحسين بالقوة على الرجوع ، ليظل فى قبضة اليزيديين ، ثم استباحة البيت الحرام بعد ذلك بسنوات ، وضرب الكعبة بالمجانيق ، وحرق أستارها . . فكذلك : لم يكن — سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه — واهما ، فيما أدركته روحه السامية من أسرار ، وما تلقته من أوامر ، جعلته يسير فى ثقة ، ويمضى فى طمأنينة ويعين إلى الخاتمة التى وعد بها ، موقناً فى النهاية أن فى موته الخلود ، وأن فى استشهاده الفوز بأطيب حياة ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . :

شعور الصحابة بالأخطار المحيقة بالحسين :

وهذا الذى سلم بصحته ابن عباس وابن الزبير — رضى الله عنهما — كان يختلج فى أعماق الكثيرين من الناس ، من أن الحسين رضى الله عنه لم يكن آمناً فى مكة ، وأن الأخطار تكتنفه من كل جانب ، وأن عمال يزيد يدبرون له فى الظلمات ، ويتربصون به الدوائر :

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية ، للشيخ محمد الخضرى : ص ٥١٦ .

(٢) أبو الشهداء للعقاد : ٧٩ .

هذا هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب — رضى الله عنهما — لا يكاد يعلم بخروج الحسين — عليه السلام — من مكة ، حتى يرسل فى أثره أبنيه — عوناً ومحمداً — بكتاب إليه ، يناشده فيه التريث فى الأمر ، ويقول :

« أما بعد : فإنى أسألك بالله لما انصرفت حتى تنظر فى كتابى هذا ، فإنى مشفق عليك من الوجه الذى توجهت له ، أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك ، ان هلكت اليوم طفئ نور الإسلام ، فإنك علم المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير ، فإنى فى أثر كتابى والسلام »(١) :.

واتجه عبد الله بن جعفر — رضى الله عنهما — على الفور إلى نائب مكة — عمرو بن سعيد بن العاص ، فصارحه بأن الدافع بالحسين عليه السلام إلى الخروج منها ، هو خوفه من البطش به ، أو الإرغام له ، ولو أنه كان آمناً : ما فكر فى الخروج بأهله ، هذا الخروج الشديد الوعورة ، الخفى المصير ، ثم قال له :

« اكتب إلى الحسين كتاباً تجعل له فيه الأمان ، وتمنيه فيه البر والصلة ، وتوثق له فى كتابك ، وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن فيرجع »(٢) :

ومن الطبيعى أن يرحب نائب مكة بمثل هذا الاقتراح ، ما دام سيحقق له ما كان يسعى إليه ، من منع الحسين من المسير ، وإرغامه على العودة ، ولذلك : لم يتردد أن قال : اكتب عنى ما شئت ، وأئتنى به حتى أختمه :. ! !

فكتب عبد الله بن جعفر إلى الحسين — رضى الله عنهم جميعاً — ما يأتى :

« أما بعد : فانى أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك ، وأن يهديك لما يرشدك ، بلغنى أنك عزمت على الشخوص إلى العراق ، وأنى أعيذك بالله من الشقاق ، فانى أخاف عليك فيه الهلاك ، فان كنت خائفاً فأقبل إلى ، فلك عندى الأمان والصلة ، والبر وحسن الجوار ، والله على ذلك شهيد :. والسلام عليك »(٣) :

إنى رأيت رؤيا . ! !

وختم عمرو بن سعيد الكتاب بخاتمه ، وبعث به إلى الحسين — رضى الله عنه — مع أخيه يحيى بن سعيد ، ومعه عبد الله بن جعفر ، فلحقا به ، وأقرأه يحيى الكتاب ، وبذل جهده فى أقناعه ، ولكنه أصر على موقفه وأبى :.

وقد كان رفض الحسين — عليه السلام — أمراً طبيعياً ، تحتمه طبيعة الحوادث الظاهرة ، فلم يكن من المعقول أن يطمئن إلى أمان عمرو بن سعيد وأخيه يحيى ، وقد حاولا منذ قليل أن يعترضا طريقه بالقوة ، وأن يرغماه على العودة بالسياط والسيوف ؟ :

كان هذا وحده كافياً لإصرار سيد شباب أهل الجنة على موقفه ، فكيف به وهو — رضى الله عنه — العبد الربانى ، المصطفى من الله ورسوله ، المحبوب منهما ، المقرب إليهما ، المستمد منهما ، المتلقى عنهما ، العارف من بواطن الأمور وأسرارها ، ما لا يدركه إلا من اقتفى أثره ، من المصطفين الأخيار ! !

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٨٧ ، البداية والنهاية : ٨ - ١٦٧ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٧٧ .

(٢ ، ٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٨٨ ، البداية والنهاية : ٨ - ١٦٧ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٧٧ .

لذلك : لا عجب إذا اضطر الحسين — رضي الله عنه — وقد لجوا في الالحاح عليه ، أن يفصح لهم عن طرف من سره فيقول :

« إني رأيت رؤيا ... ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني فيها بأمر ، وأنا له ماض ، على كان أو لي » ... ! فلما سألاه : وما تلك الرؤيا ؟ قال :

« ما حدثت أحداً بها ، وما أنا محدث بها أحداً حتى ألقى ربي عز وجل »(١) .

ورؤيا الرسول صلى الله عليه وسلم حق بموجب قوله : « من رآني في المنام فقد رآني ، فان الشيطان لا يتمثل بي »(٢) فإذا فقال الحسين رضي الله عنه — أنه صلى الله عليه وسلم قد أمره — وهو صادق ولا شك في قوله — فمعنى ذلك أنه رضي الله عنه ، كان يسير على هدى ونور من الله ورسوله ، وهو اللائق بمقامه ، المناسب لأحواله ، وما كان له أن يعرض عما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم — وهو الذي لا ينطق عن الهوى — إلى ما يظنه الناس ويرجونه ، وشتان بين من يتكلم من دار الحق ، بلسان الحق ، وبين من يتكلم من دار الباطل والغرور ، بلسان العاطفة والرجاء ...

* * *

وأتبع الحسين — رضي الله عنه — قوله ، بكتاب سطره إلى عمرو بن سعيد — رداً على خطابه — يقول فيه :

« أما بعد : فانه لم يشاقق الله ورسوله ، من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ، وقد دعوت إلى الأمان والبر والصلة ، فخير الأمان أمان الله ، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا ، فنسأل الله مخافة في الدنيا ، توجب لنا أمانة يوم القيامة ، فإن كنت نويت بكتابك صلتي وبري فجزيت خيراً في الدنيا والآخرة ، والسلام »(٣) .

وبالتأمل في كتاب سيد شباب أهل الجنة رضي الله عنه ، يتضح أنه يقرر أموراً منها :

أولا — أنه ينفي عن نفسه تهمة الدعوة إلى الشقاق ، والخروج على الجماعة ، لأن ذلك لا يتفق مع ما يقوم به من الدعوة الخالصة إلى الله ، والعمل الصالح ابتغاء وجهه .

ثانياً — أنه بالتزامه الصدق في عمله لله تعالى ، يكون في أمن الله وكنفه ، بما يغنيه عن أمان غيره ، والله تعالى هو القائل في محكم كتابه : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »(٤)

ثالثاً — أنه لا يثق بوعود القوم وأمانهم ، لأن تجاربه معهم ، وخبرته بهم تجعلانه دائماً في شك منهم ، ومع ذلك فهو يقابل النية الظاهرة في الصلة والبر — إذا كانت صادقة — بالدعاء لصاحبها في الدنيا والآخرة أن يجزيه الله عن ذلك خيراً ..

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبري : ٥ - ٣٨٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٦٧ .

(٢) أحمد في مسنده ، والبخاري والترمذي صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه ، بإسناد صحيح .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبري : ٥ - ٣٨٩ .

(٤) سورة الأنعام ، آية ٨٢ .

موقف الحسين على ضوء الإسلام :

لم يرجع الحسين رضى الله عنه عن عزمه . . وأبى ألا أن يواصل طريقه إلى النهاية ، لأنه كان يعلم من خفايا الأمور ما لا يعلمه غيره ، ولأنه ما خرج يريد علواً فى الأرض ولا فساداً ، بل خرج بهدف الدعوة إلى الله والعمل الصالح للمسلمين . . وما كان له أن يتحول عن عزمته وهو يعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن تجهز للغزو يوم أحد ، حاول البعض أن يرده عن الخروج ، فأبى ، مع كون ذلك موافقاً لرأيه السابق ، وقال لهم :

« لا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته آن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه »(١) .

ولا مجال مطلقاً للقول بأن الحسين رضى الله عنه ، قد استبد برأيه « ورمى بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط ، وظن بأهل العراق خيراً . . »(٢) فقد ثبت أن بعض الصحابة كانوا يرون رأيه ، مع ذلك : ما روى عن الفرزدق أنه قال : « لما خرج الحسين ، لقيت عبد الله بن عمرو فقلت : إن هذا قد خرج فما ترى ؟ قال أرى أن تخرج معه ، فانك أن أردت الدنيا أصبتها ، وأن أردت الآخرة أصبتها ، فرحلت نحوه ، فلما كنت فى بعض الطريق بلغنى قتله ، فرجعت إلى عبد الله وقلت : أين ما ذكرت ؟ قال كان رأيا رأيته » . . ويقول الذهبى تعليقاً على ما تقدم : « وهذا يدل على تصويب عبد الله بن عمرو للحسين فى سيره ، وهو رأى ابن الزبير وجماعة من الصحابة شهدوا الحرة »(٣) .

ثم أن الاستبداد بالرأى لا يكون مع الشورى ، ولا مع الاستخارة ، وقد ثبت أن الحسين — رضى الله عنه — قد استشار من ناحيته من رأى أن يستشيرهم من كبار الصحابة ، واستمع من ناحية أخرى لمشورة آخرين ، كما أنه استخار الله فى أمره ، كما جاء فى رده على ابن عباس — رضى الله عنهما — ومن حق الحسين — عليه السلام — بعد ذلك : وهو الأدرى بالظروف التى تحيط به ، ظاهراً وباطناً . . وهو الفقيه فى دين الله ، الحريص على ما فيه رضاه ، أن يختار السبيل الذى اطمأن قلبه إليه ، وانشرح صدره له ، متوكلا على الله تعالى ، مستمداً العون منه ، راضياً بقضائه وقدره ، قال تعالى مخاطباً سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم :

« وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله »(٤) .

وقد جاء فى تفسير هذه الآية : « الشورى مبنية على اختلاف الآراء ، والمستشير ينظر فى ذلك الخلاف وينظر أقربها قولا إلى الكتاب والسنة إن أمكنه ، فاذا أرشده الله إلى ما شاء ، عزم عليه ، وأنقذه متوكلا عليه ، إذا هذه غاية الاجتهاد المطلوب ، وبهذا أمر الله تعالى نبيه فى هذه الآية »(٥) .

وهكذا أوجب الإسلام الشورى ولكنه لم يجعلها ملزمة ، فعلى الإمام أن يستشير من يرى استشارتهم ، فيما لم يرد فيه نص ، وله فى النهاية أن يختار ما يراه محققاً للصالح العام ، وأقرب إلى التقوى .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٣ - ٨٠ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية ، للحضرى : ٥١٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، للذهبى : ٣ - ١٩٧ .

(٤) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبى : ٤ - ٢٥٢ .

ومقام الحسين — رضى الله عنه — فى ذلك الحين فوق مقام كل أمام ، وكفى به فضلا وشرفاً قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسيناً »(١) . ولا محل مطلقاً — بعد أن تبين أن الحسين رضى الله عنه — قد استشار واستخار ، وأن خروجه كان خوفاً من أن يرغم ، وحرصاً على أن لا يستباح الحرم ، واستجابة لأمر النبي — صلى الله عليه وسلم — نقول : لا محل بعد ذلك لأى نقد لموقف سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — أو لأى شك أو ارتياب فى قوله ، إلا إذا كان ذلك عن غفلة بأن الحسين رضى الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم من الحسين ، لا سيما وأن النبي صلى الله عليه وسلم رفع مقام الحسين — رضى الله عنه — فوق كل مقام ، حين وصفه بأنه سيد شباب أهل الجنة ، وأن أكابر الصحابة — رغم مخالفتهم له فى الرأى — لم يخطئوه ولم ينكروا عليه اجتهاده ، اعترافاً منهم بمكانته ، وتقديراً لعلمه وفقهه ، فأولى بمن دونهم أن يقفوا من ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، موقف الأدب الذى وقفه من هم خير منهم وأن يوقنوا بأن كل ما قاله الحسين — رضى الله عنه — صدق ، وكل ما فعله حق ، وهو بذلك فوق أى نقد ، وأجل من أى حساب :

الحسين يذكر بالنبي صلى الله عليه وسلم :

وسار الحسين — رضى الله عنه — بمن معه فى طريقهم إلى الكوفة ، وقد حرص الكثيرون على اللحاق به ، بعد أن أتموا شعائر الحج ، ومامر — رضى الله عنه — بماء من مياه العرب إلا أتبعوه ، حتى تجمع له ألوف من الناس ، دون مادعوة منه لهم ، أو ترغيب منه لهم :: لقد كانوا يرون فيه أنوار النبوة وسجاياها ، ما يذكرهم بشخص النبي صلى الله عليه وسلم وسجاياه ، فأحبوه بحبهم للنبي صلى الله عليه وسلم ورغبة صادقة فى نصرته ، وباعوا فى سبيل ذلك الدينا بما فيها ::: ومن فيها ، واسترخصوا فى حبهم لله كل تضحية ، واستعذبوا كل بلاء ::

* * *

هذا هو زهير بن القين البجلى ، يسارع فى عودته من الحج ، مع نفر من أصحابه ، حتى يلحق بسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — سائراً إلى الكوفة ، فلا يكاد يلتقى به ، ويعلم وجهته ، ويستشعر الخطر الذى ينتظره ، حتى يعقد العزم على مصاحبته ، وهو يعلم أى نهاية متوقعة له ، وأى مصير يتربص به ، ولكنه فى سبيل حبه لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطلق الدنيا ثلاثا لا رجعة فيها ، استعدادا للقاء الله عز وجل ، فى صحبة أشرف خلق الله على وجه الإرض فى ذلك الحين :

وهكذا : عاد زهير إلى أصحابة مستبشرا قد أسفر وجهه ، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقدم وحمل إلى الحسين — رضى الله عنه — ثم قال لهم :

« من أحب منكم أن يتبعنى ، إلا فإنه آخر العهد ، إنى سأحدثكم حدثياً : غزونا بلنجر ، ففتح الله

---

(١) الترمذى من حديث يعلى بن مرة باسناد حسن .

علينا ، وأصبنا غنائم ، ففرحنا ، وكان معنا سلمان الباهلي رضي الله عنه فقال لنا : إذا أدركتم سيد شباب أهل الجنة ، فكونوا أشد فرحا بقتالكم معه ، منكم بما أصبتم اليوم من الغنائم ، أما أنا فإني استودعكم الله »(١) .

ولم يكتف زهير – رضي الله عنه – بذلك ، بلغ به الصدق في حرصه على لقاء الله مع ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم – أن يقطع كل رابطة تربطة بالدنيا ، يمكن أن تصرفه عن وجهته ، أو تضعف من نيته في الجهاد ، أو عزمه على الاستشهاد .. حتى ولو كانت هذه الرابطة من أقوى الروابط واقدسها .. ألا وهي رابطة الزوجية .

وهكذا .. التفت الرجل إلى زوجته .. فودعها .. وأعلنها بطلاقها منه بطلاقها منه قائلا :

« الحقي بأهلك .. فاني لاأحب أن يصيبك في سببي الآخير »(٢) !

وما أروع ما وصف به زهير حاله من الحسين – رضي الله عنهما – لبعض من عجبوا من موقفه ، وصدقه في الأنتصار له ، والدفاع دونه ، اذ يقول : « أما والله ماكتبت إليه كتابا قط ، ولاأرسلت إليه رسولا قط ، ولا وعدته نصرتي قط ، ولكن الطريق جمع بيني وبينه ، فلما رأيته : ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه ، فرأيت أن أنصره وأكون في حزبه ، وأن أجعل نفسي دون نفسه ، حفظا لما ضيعتهم من حق الله وحق رسوله عليه السلام »(٣) .

* * *

وهذا هو يزيد بن نبيط – من أهالي البصرة – لايكاد يسمع بخروج سيد شباب أهل الجنة – رضي الله عنه – إلى الكوفة ، ويبلغه ما كتب به ابن زياد إلى عامله بالبصرة ، يأمره باغلاق الطريق إلى الكوفة ، وأن يضع المناظر عليه – أي الحرس – حتى لايستطيع أحد من البصريين الخروج لنصرة الحسين – رضي الله عنه .

لايكاد يزيد بن نبيط يعلم كل ذلك ، حتى تتفاعل نفسه بشتى الأحاسيس من الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، إلى الاشفاق على ابن بنته ، إلى الرغبة الصادقة في نصرته .. فلم يلبث أن عقد العزم على تعجل الخروج ، قبل أن يغلق الطريق ، فاتجه مسرعاً إلى بيته ، وكان له بنون عشرة ، فقال لهم :

« أيكم يخرج معي » ؟ فأظهروا جميعاً استعدادهم لمتابعته ، ولكنه أكتفى بأن انتدب منهم إثنين ! عبد الله ، وعبيد الله .

وقال الرجل لأصحابه : إني زمعت الخروج ، وأنا خارج ، فقالوا له :

« إنا نخاف عليك أصحاب ابن زياد » فقال :

(١ ، ٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبري : ٥ - ٣٩٦ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٧٨ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبري : ٥ - ٤١٧ .

« إني والله لو استوت أخفافها بالجدد : لهان على طلب من طلبني » .

وخرج الرجل مع ابنيه مسرعين فى الطريق ، حتى لحقوا بالحسين عليه السلام فدخلوا فى رحله بالأبطح، وبلغ الحسين مجيئه ، فخرج كل منهما يطلب الآخر ، فلا يجده ، فجلس الحسين فى رحل الرجل انتظاراً لقدومه ، وكانت فرحة البصرى عظيمة حين وجد ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتمالك أن تلا قوله تعالى : « بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا . . » معبرا عن سروره ، ثم سلم عليه وجلس إليه ، وأخبره بما جاء من أجله ، فدعا له الحسين — رضى الله عنه — بخير .

وصدق الرجل وأبناه ما عاهدوا الله عليه ، وأبوا إلا أن يظلوا بجوار الحسين — رضى الله عنه — يقاتلون دونه ، ويقدمون أرواحهم فداءه ، حتى استشهدوا جميعاً . . وما بدلوا تبديلا(١) .

تطور الأحداث بالكوفة :

وبعث الحسين — رضى الله عنه — كتابا مع قيس بن مسهر الصيداوى ، يخبر أهل الكوفة أنه خرج إليهم يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذى الحجة — يوم التروية — وأنه قادم عليهم فى أيامه هذه إن شاء الله(٢) .

وفى نفس الوقت ، كانت الأحداث بالكوفة تتطور ، والأحوال تتغير ، فقد عزل يزيد النعمان بن بشير — رضى الله عنهما — عن الكوفة ، لموقفه السلبى من سفير الحسين — عليه السلام — إليهم — مسلم ابن عقيل — وضمها إلى عبيد الله بن زياد مع البصرة ، وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله ، فسار ابن زياد مسرعاً إلى الكوفة ، فى جماعة من وجوه أهل البصرة ، فدخلها متلثما ، فما مر على قوم وألقى عليهم السلام إلا أجابوه : وعليكم السلام . . مرحبا بابن بنت رسول الله . . قدمت خير مقدم ، ظنا منهم أنه الحسين الذى يترقبون قدومه(٣) .

واستقر ابن زياد بقصر الإمارة ، وعلم الناس بأمره ، فاضطربت أحوالهم وتفرقوا عن مسلم بن عقيل ، ونقضوا عهدهم إليه ، وتخاذلوا عن نصرته ، حتى أمسى وحيداً ، فاعتقله ابن زياد — بعد أن أمنه محمد بن الأشعث — فأمر به فاصعد إلى أعلى القصر ، وهو يكبر ويهلل ، ويسبح ويستغفر ، ويصلى على الملائكة والرسل ، ويقول : « اللهم أحكم بيننا وبين قومنا ، غرونا وكذبونا وأذلونا » . . وضرب عنقه — رضى الله عنه — وسقط رأسه إلى أسفل القصر ، وأتبع به جسده . . ثم قتل بعده هانئ بن عروة لإيوائه مسلم بن عقيل ، وبعث برأسيهما إلى يزيد بالشام(٤) .

* * *

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٥٤ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٩٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٦٨ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٥٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٥٣ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٧٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٥٧ .

وأقبل رسول الحسين ــ قيس بن مسهر الصيداوى ــ وهو لايدرى من الأمر شيئاً ، ومعه كتاب الحسين ــ رضى الله عنه ــ إلى أهل الكوفة ، حتى إذا بلغ القادسية : أخذه الحصين بن تميم ــ قائد شرطة زياد ــ فبعث به إليه ، فقال له :

اصعد إلى أعلا القصر ، فسب الكذاب بن الكذاب ــ على بن أبى طالب وابنه الحسين :

وصعد قيس ــ رضى الله عنه ــ وهو يعلم أن الأمر بالنسبة له أمر حياة أو موت ، وأنه ليس بينه وبين النجاة ، إلا أن يستجيب لأمر ابن زياد ، فيسب سيد شباب أهل الجنة وأباه ــ رضى الله عنهما ــ ولو أنه فعل : ماكان عليه حرج فى ذلك ولاتثريب ، لأن الله تعالى أجاز النطق بالكفر لمن أكره عليه ، فقال : « من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان »(١) . وأكد النبى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى فى حديثه : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وماأستكرهوا عليه »(٢) .

ولكن إيمان قيس وإخلاصه كانا أعظم من كل ذلك وأسمى ، فلم يكد يصل إلى أعلى القصر ، حتى حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال مخاطباً الجموع التى تحيط بالقصر : أيها الناس : إن هذا الحسين بن على خير خلق الله ، وهو ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقته بالحاجر من بطن ذى الرمة ، فأجيبوه واسمعوا له وأطيعوا . ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه ، واستغفر لعلى بن أبى طالب كرم الله وجه ، فأمر به ابن زياد فألقى من رأس القصر ، فتهشم جسده ، وتكسرت عظامه ، وبقى به بعض الرمق ، فقام إليه أحد الناس فذبحه ، رحمة به ، وشفقة عليه(٣) .

موقف الحسين من تطور الأحداث :

سار سيد شباب أهل الجنة ــ رضى الله عنه ــ فى طريقه ، دون أن يدرى شيئاً عما حدث ، حتى انتهى إلى ماء من مياه العرب عليه عبد الله بن مطيع العدوى ، الذى ماكاد يراه حتى قام إليه فقال : بأبى أنت وأمى يابن بنت رسول الله . ماأقدمك ؟ . . واحتمله فأنزله . فقال له الحسين ــ رضى الله عنه : كتب إلى أهل العراق يدعوننى إلى أنفسهم ، فأجابه ابن مطيع وقد استولى عليه الجزع إشفاقا على ابن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يصيبه سوء : « أذكرك الله يابن بنت رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك . أنشدك الله فى حرمة رسول الله ، أنشدك الله فى حرمة العرب ، فوالله لئن طلبت ما فى ايدى بنى أمية ليقتلنك ، ولئن قتلوك لايهابون بعدك أحداً أبداً . ولاتأت أنها لحرمة الإسلام تنتهك ، وحرمة قريش ، وحرمة العرب ، فلا تفعل ولا تأت الكوفة » ولكنه ــ رضى الله عنه ــ أبى إلا أن يمضى فى طريقه(٤) .

---

(١) سورة النحل : آية ١٠٦ .

(٢) أورده السيوطى بالجامع الصغير من حديث ثوبان رضى الله عنه باسناد

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ ـ ٣٩٥ ، الكامل لابن الأثير : ٣ ـ ٢٧٧ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ ـ ١٦٨ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ ـ ٣٩٦ .

واستمر ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مواصلا طريقه ، حتى اقترب من الكوفة . . وبدأت الحقائق تظهر واضحة أمام ناظره . .

علم — رضى الله عنه — بما أصاب مسلم بن عقيل ، وهانئ بن عروة ، فلم يزد على أن قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لاخير فى العيش بعدهما . ثم التفت إلى من حوله من الناس فصارحهم بما حدث ، وقال لهم « خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف من غير حرج ، وليس عليه منا ذمام » . . فتفرق الناس عنه يمينا وشمالا ، حتى لم يبق معه سوى أصحابه الذين خرجوا معه من مكة (١) .

ولقد كان موقف سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — من أصحابه وأنصاره ، موقف الرائد الأمين والقائد الصادق ، فلم يخف عنهم حقيقة الأمر ، وخطورة الموقف ، بل صارحهم بكل شئ ، حتى لا ينخدع أحد بأنه يسير إلى بلد قد استقامت أموره ، وذلت صعابه ، وحتى لايبقى معه إلا من كانوا على شاكلته ، ممن وطدوا العزم على الوفاء بعهدهم لله تعالى ، ولرسوله صلى الله عليه وسلم مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك . . لهم . . أو عليهم !

تحريض الحسين الناس على الانصراف عنه :

ومن أبرز الظواهر التى لها مغزاها فى خروج الحسين — رضى الله عنه — هو أنه ماخطر بباله — ولو مرة واحدة — أن يحاول جمع الناس حوله ، أو أن يحفزهم على الثبات ، أو يحرضهم على الجهاد ، أو يمنيهم بالنصر . إنما كان دائماً على عكس ذلك — يصارحهم بالشدائد التى تعترضه ، ويهون عليهم الإنصراف عنه ، حتى لايصيبهم أى أذى بسببه ، أو يرغموا على أى تضحية فى سبيله :

ولو أن الحسين — رضى الله عنه — كما يزعم الغافلون — كان يسعى إلى أى عرض من أعراض الدنيا ، لاستطاع أن يستغل مقتل ابن عقيل وهانئ بن عروة ، فى إثارة النفوس ، وتحفيز الهمم إلى الثأر ، فى سبيل إعلاء كلمة الحق وإزهاق سطوة الباطل ، ولوجد حينئذ استجابة تامة ممن ساروا معه ، بل ولسارع إليه آخرون . أو كان فى استطاعته ، وقد علم بخروج الكوفة من حسابه ، ووقوعها تحت سلطان عدوه ، أن يتحول عن المسير إليها ، إلى أى مكان آخر ، نجاة بنفسه وبمن معه ، واستعدادا لمواجهة تطور الأحداث بما تتطلبة من إعداد للقوة ، وحشد للخيل والسلاح ، ولكن الحسين — رضى الله عنه — كان خروجه حرصاً على حقن الدماء ، لأنه لايبغى قتالا ، ولايسعى إلى فتنة .

وهكذا : سار الحسين — رضى الله عنه — بمن بقى معه من الرجال والنساء والأطفال — وهم زهاء المائة أو يزيدون قيلا — وهو يعلم علم اليقين أنه يسير إلى نهاية محتومة ، وشهادة مؤكدة ، فلم يكن أحب إليه من الاسراع إلى هذه الخاتمة ، التى طابت لها نفسه وأطمأن إليها قلبه ، وارتضاها له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رؤياه له :

وعلم الحسين — رضى الله عنه — بعد ذلك بما أصاب قيسا ، فترقرقت عيناه ، لم يملك دمعه ، ردد

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٩٩ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٧٨ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٦٩ .

قوله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » ثم دعا ربه قائلا : « اللهم اجعل لنا ولهم الجنة نزلا ، واجمع بيننا وبينهم فى مستقر رحمتك ، ورغائب مذخور ثوابك »(١) .

استعداد الحسين للقاء الله :

وواصل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — مسيره إلى قدره : وكان طوال رحلته قواما لليل ، يقضى ساعاته فى عبادة ربه ، وتلاوة كتابه ، وقد فاضت عيناه بالدموع ، حتى بللت خده ولحيته ، وكأنه — وقد أيقن بتقرب أجله — يستعد للقاء الله عزوجل ، ويتزود بطاعته وتقواه ، ويستمد من عفوه ورضاه .

ولم يكن — رضى الله عنه — يخامره أى شك فى موقف أهل الكوفة منه ، وأنهم سينقلبون عليه ، ويعاونون على قتله ، ولكنه مع ذلك أستمر فى طريقه ، استجابة منه لأمر الله رسول صلى الله عليه وسلم وتسليما لقضاء الله . .

رآه بعض الناس وقد ضرب أخبيته بفلاة من الأرض ، فقال له :

بأبى أنت وأمى يابن بنت رسول الله . . ماأنزلك هذه البلاد والفلاة التى ليس بها أحد ؟

فقال — رضى الله عنه — : «هذه كتب أهل الكوفة إلى ، ولا أراهم إلا قاتلى ، فاذا فعلوا ذلك : لم يدعوا لله حرمة إلا انتهكوها ، والله ليعتدن على كما اعتدت بنو إسرائيل فى السبت ، والله لايدعونى حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفى فاذا فعلوا ذلك : سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرم الأمة(٢) .

وفى تكرار الحسين — رضى الله عنه — للقسم بالله ، ما يشعر بعلمه علم اليقين ، باصرار القوم على قتله ، وتمكنهم فى النهاية من ذلك ، وقد تحقق فعلا كل ذلك ، كما تحقق ماذكره بشأن المعتدين عليه ، إذ سلط الله عليهم من أذلهم ، ونكل بهم ، وأعفى آثارهم ، كما سنوضحه بالفصل التاسع من هذه الرسالة ، وهذا من أظهر كرامات الحسين رضى الله تعالى عنه .

كرب .. وبلاء :

وسار سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — حتى نزل أرضا بها بمكان ما فسأل من معه : مااسم هذه الأرض ؟ قالوا : كربلاء : فرد رضى الله عنه : كرب وبلاء (٣) .

ولاشك أن الحسين — رضى الله عنه — حين وصل إلى كربلاء ، كان على علم سابق بما يحيط بهذا المكان من أحداث ، وما يتصل بشأنه من أحاديث ترتبط أرتباطا وثيقاً بشخصه ، حتى أنه ماكان يعرف اسم المكان الذى نزل به ، حتى صرفه بالصورة التى تتفق مع مااستقر فى نفسه عن ذلك المكان من المعانى ، فقال : كرب .. وبلاء .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٠٥ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٧٧ ، البداية والنهاية لابن كثير ٨ - ١٧٤ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٣٩٤ ، البداية والنهاية : ٨ - ١٦٩ ، والفرم ، خرقة الحيض .

(٣) البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٧٠ .

فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ، أخبر بأن الحسين — عليه السلام — سوف يقتل ، وأن الذى أبلغه ذلك : جبريل عليه السلام .

ففى رواية لابن سعد والطبرانى ، عن عائشة — رضى الله عنها — أنه صلى الله عليه وسلم قال : أخبرنى جبريل أن ابنى الحسين يقتل بعدى بأرض الطف ، وجاءنى بهذه التربة ، وأخبرنى بأن فيها مضجعه»(١)

ولابن سعد أيضاً عن أم سلمة — رضى الله عنها — أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أخبرنى جبريل أن ابنى الحسين يقتل بأرض العراق . فقلت لجبريل : أرنى تربة الأرض التى يقتل فيها ، فجاء بها ، فهذه تربتها »(٢) .

وفى رواية ثالثة لابن سعد : عن على كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أخبرنى جبريل أن حسينا يقتل بشط الفرات » (٣) .

وفى رواية للإمام أحمد ، عن كل من السيدة عائشة والسيدة أم سلمة — رضى الله عنها — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لقد دخل على البيت ملك لم يدخل قبلها ، فقال لى : إن ابنك هذا حسين مقتول ، وأن شئت أريتك الأرض التى يقتل بها ، قال : فأخرج تربة حمراء »(٤) .

وقد روى الطبرانى هذا الحديث عن أبى أمامة رضى عنه ، ورواه محمد بن سعد عن عائشة ، وراوه آخرون عن زينب بنت جحش ولبابة أم الفضل امرأة العباس — رضى الله عنهم أجمعين — وأرسله غير واحد من التابعين(٥) .

وفى رواية للبغوى عن أنس بن الحارث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أبنى — يعنى الحسين — رضى الله عنه — يقتل بأرض يقال لها كربلاء ، فمن شهد منكم ذلك فلينصره » قال : فخرج أنس بن الحارث إلى كربلاء ، فقتل مع الحسين رضى الله عنها (٦) .

وفى رواية أخرى للإمام أحمد عن عبد الله بن يحيى عن أبيه ، أنه سار مع على كرم الله وجهه — وكان صاحب مطهرته — فلما جاءوا نينوى ، وهو منطلق إلى صفين ، نادى على رضى الله عنه : أصبر أبا عبد الله . . أصبر أبا عبد الله . . بشط الفرات ، قلت وماذا تريد ؟ قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم ، وعيناه تفيضان : فقلت ما أبكاك يارسول الله ؟ قال : بلى : قام من عندى جبريل ، فحدثنى أن الحسين يقتل بشط الفرات ، وقال : هل لك أن أشمك من تربته ؟ : فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها ، فلم أملك عينى أن فاضتا » (٧) .

وقد روى محمد بن سعد مثل هذا الحديث الأخير عن عامر الشعبى عن على كرم الله وجهه :

وفى رواية أخرى لمحمد بن سعد وغيره من على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أنه مر بكربلاء

(١ ، ٢ ، ٣) الجامع الكبير للسيوطى : ١ - ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٩٩ .

عند أشجار الحنظل ، وهو ذاهب إلى صفين ، فسأل عن اسمها فقيل : كربلاء فقال : كرب وبلاء ، ونزل فصلى عند شجرة هنالك ، ثم قال :

« يقتل ههنا شهداء ، هم خير الشهداء غير الصحابة ، يدخلون الجنة بغير حساب »(١) .

وفي رواية عن غرفة الأزدي قال : دخلني شك من شأن علي ، فخرجت معه على شاطئ الفرات ، فعدل عن الطريق ، ووقف ، ووقفنا حوله ، فقال بيده » (٢) .

« هذا موضع رواحلهم ، ومناخ ركابهم ، ومهراق دمائهم ، بأبي من لاناصر له في الأرض ولا في السماء إلا الله » ! !

فلما قتل الحسين : خرجت حتى أتيت المكان الذي قتلوه فيه ، فاذا هو كما قال ، ماأخطأ شيئا ، فاستغفرت لله مما كان مني من الشك (٣) .

* * *

ومن المستبعد — وأحاديث مقتل الحسين بكربلاء بهذه الصورة من الاستفاضة — أن لايكون على علم ببعضهما ، إن لم يكن على علم بأكثرها . لاسيما وأنه كان مع أبيه — رابع الخلفاء الراشدين — في صفين ولعل هذا هو سر استهانته بما كتبت به إليه عمرة بنت عبد الرحمن ، وأكده عبد الله بن عمر — رضي الله عنهم أجمعين ، من حديث أم المؤمنين عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « يقتل الحسين بأرض بابل » فانه تلقى هذا الحديث تلقي العارف به ، المطمئن إليه .. حتى قال رضي الله عنه : فلا بد إذن من مصرعي !

ولاشك أن كل هذه الأحاديث والآثار ، بجانب ماتلقاه الحسين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم من توجيهات وأوامر . كل ذلك يجعلنا نجزم بأن سيد شباب أهل الجنة — رضي الله عنه — كان يسير سير الواثق من طريقه ، العارف بنهايته ، على بينة من أمره ، وعلى نور من ربه ورسوله .

* * *

ولم يمض إلا قليل ، حتى بدأت نذر البلاء تلوح في الأفق : اذا أقبل الحر بن يزيد في ألف من الفرسان ، هم مقدمة جيش ابن زياد ، فلما بدت طلائعهم في الظهور تساءل الحسين — رضي الله عنه — عن ملجأ يلجأ إليه ، يجعله في ظهره ، ليستقبل القوم من وجه واحد ، فأشير عليه بذي حسم ، فاتجه إليها ، ونزل بها ، وأمر بأبنيته فضربت ، ووقف مع أصحابه موقف التربص والاستعداد ، وقد تحكموا في المياه ، في انتظار وصول الحر بن يزيد وفرسانه . .

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٩٩ ، ولا تعارض بين جميع هذه الروايات فيما يتعلق بالمكان الذي استشهد فيه الحسين عليه السلام ، فإن الطف هو ساحل البحر مما يلي الفرات ، والفرات يمر بأرض الطف من بلاد كربلاء ، والجميع في أرض العراق .

(٢) أي أشار بيده .

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير : ٤ - ٣٣٧ .

سلوك النبلاء .. مع الأعداء :

وأخيراً .. ووقف الحر بن يزيد بخيله مقابل الحسين وأصحابه — رضى الله عنهم — فى حر الظهيرة ، وقد بلغ العطش بالرجال والخيل كل مبلغ ، ولكن أنى للقوم أن يطمعوا فى قطرة واحدة من الماء ، والحسين — رضى الله عنه — وأصحابه يقفون دونه ، وقد تعمموا برؤوسهم ، وتقلدوا أسيافهم ؟ لقد كان فى إمكان الحسين — رضى الله عنه — أن يرهق أعداءه ويحرجهم ، رغم كثرتهم ، ولكنه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المبعوث بمكارم الأخلاق ، القائل فى حديثه الشريف (اصنع المعروف فى أهله وغير أهله » .

وهكذا .. تغلبت طبيعة الحسين كداعية للهدى ، وساع لما فيه خير الانسانية ، ورحمة للمؤمنين .. فإذا به — رضى الله عنه — لا يكاد يرى ما يعانيه القوم ويخيرهم عن عنت وارهاق ، حتى يأمر فتيانه بسقى الناس ، ورشف الخيل ، وملء القصاع والأوانى .. ليس ذلك فحسب ، بل كل الحسين بشخصه فى خدمة القوم ، حتى رووا وسقوا الخيل عن آخرها (١) .

ودخل وقت الظهر ، فأمر الحسين — رضى الله عنه — فأذن للصلاة ، ثم خرج إلى الناس من أصحابه واعدائه ، فخطب فيهم موضحاً لهم حقيقة موقفه ، وانه أنما جاء بناء على دعوة أهل الكوفة له : « أقدم علينا ، فانه ليس علينا امام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى » . ثم قال : فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم .. وأن كنتم لمقدمى كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه إليكم .

وصلى — رضى الله عنه — بالناس جميعا .. فلما كان العصر : صلى بهم كذلك ، ثم أقبل على القوم بوجهه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وخطبهم بمثل ما خطبهم به ظهرا ، وعرض عليهم خرجين مملوءين بصحف أهل الكوفة إليه ، فقال له الحر بن يزيد :

لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك ، وقد أمرنا اذا نحن لقيناك ، ألا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله ابن زياد .. فأجاب الحسين — رضى الله عنه — الموت أدنى من ذلك (٢) .

وأمر الحسين — رضى الله عنه — أصحابه بالركوب ، فلما أرادوا الانصراف : حال القوم بينهم وبين ذلك ، وتقدم الحر بن يزيد فقال :

إنى لم أومر بقتالك ، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك على ابن زياد ، فاذا أبيت : فخذ طريقا لا يدخلك الكوفة ، ولا يردك إلى المدينة ، حتى أكتب إلى ابن زياد ، لعل الله أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية ، من أن أبتلى بشئ من أمرك .. ثم قال : وأنى أذكرك الله فى نفسك ، فأنى أشهد لئن قاتلت لتقاتلن ، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى .. فأجاب سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٠١ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٧٩ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٧٢ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٠٢ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٨٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٧٢ .

أفبالموت تخوفنى ؟ . . وهل يعدو كم الخطب أن تقتلونى ؟ ماأدرى ما أقول لكم ؟ ولكنى أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ، وقد لقيه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : اين تذهب فانك مقتول : فقال :

سأمضى وماِبالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقا وجاهـــد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق خوفا أن يعيش ويرغما(١)

فتنحى عنه القوم ، ولكنهم ظلوا يتابعونه عن كثب . .

يرفض نصرة عشرين ألفا :

ولم يمض قليل حتى لاح فى الأفق أربعة نفرأقبلوا من الكوفة على رواحلهم ، ومعهم الطرماح بن عدى ، يقصدون الحسين رضى الله عنه ، فحاول الحر بن يزيد أن يمنعهم ، فقال له الحسين متوعدا : إنما هؤلاء أنصارى وأعوانى ، وهم بمنزلة من جاء معى ، فان تممت على ماكان بينى وبينك ، وإلا ناجزتك !

فلما كف الحرعن اعتراضهم سألهم الحسين رضى الله عنه قائلا :

أخبرونى خبر الناس وراءكم ؟ فأجابه واحد منهم :

أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم ، وملئت غرائرهم ، يستمال ودهم ، ويستخلص به نصيحتهم ، فهم ألب واحد عليك ، وأما سائر الناس بعد ، فان أفئدتهم تهوى إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك . .

ثم قال له الطرماح بن عدى :

« والله أنى لأنظر فما أرى معك أحداً إلا هذه الشرذمة اليسيرة ، وإنى لأرى هؤلاء القوم الذين يسايرونك أكفاء لمن معك ، فكيف وظاهر الكوفة مملوء بالخيول والجيوش ، اجتمعوا ليعرضوا ، ثم يسرحون إليك ، فأنشدك الله أن قدرت أن لاتتقدم اليهم شبراً فافعل ، فان أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به : فسر حتى أنزلك مناع جبلنا الذى امتنعنا والله به من ملوك غسان وحمير ، من النعمان بن المنذر ، ومن الأسود والأحمر ، والله أن دخل علينا ذل قط ، فأسير معك حتى أنزلك القرية ، ثم نبعث إلى الرجال ، فلا يأتى عليك عشرة أيام ؛ حتى تأتيك طيء رجالا وركبانا ، ثم أقم فينا مابدا لك فان هاجك هيج ، فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائى ، يضربون بين يديك بأسيافهم ، والله لايوصل إليك أبدا ومنهم عين تطرف(٢)

* * *

وهنا : يقف سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — الموقف الحاسم ، الذى يكفى لتقويض كل الدعاوى الزائفة ، التى توهم بأن ابن بنت رسول الله « أخطأ خطأ عظيما فى خروجه هذا الذى جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف ، وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا : وأنه لاينبغى لمن يريد عظائم الأمور

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٠٤ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٨٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٧٣ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٠٦ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٨١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٧٤ .

أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية ، فلا يرفع سيفه إلا اذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح »(١) .
أو تشعر بأن الحسين – رضى الله عنه – « تنازع البيعة مع يزيد ، وأنه قد طلب خلافة الراشدين ، فكانت عنايته بالدعوة والاقناع ، أعظم من عنايته بالتنظيم والإلزام »(٢)
أو تزعم زورا وبهتانا ، وتؤكد دون دليل أبو برهان (أنه أثناء السنين التى قضاها فى المدينة ، بعد صلح أخيه ، كان يتحرق تشوقا إلى الفرصة التى تتيح له استئناف الجهاد من حيث تركه أبوه . فقد أصبح سيد قومه ، ورئيس حزبه »(٣) . إلى غير ذلك من الأوهام التى ماأنزل الله بها من سلطان – وماسوف نتناول الرد عليها تفصيلا ، بالفصل العاشر من هذا الكتاب – والتى صور بها أصحابها الحسين رضى الله عنه – فى المستوى الذى يقارب مستواهم وقاسوا موقفه من الاحداث بالمقاييس التى يتخذونها فى حياتهم ، والحسين – رضى الله عنه – أسمى من كل ذلك وأجل ، ونفسه المحمدية الأبية ، ترفعه درجات ودرجات فوق كل الناس فى عهده وقرنه ، فكيف بمن جاءوا بعدهم بعهود طويلة ، وقرون عديدة :

أن موقف الحسين – رضى الله عنه – من النصرة الفعالة التى عرضها الطرماح بن عدى عليه ، يكفى وحده لاسقاط كل هذه المزاعم الرخيصة وأمثالها ، وإثبات أن الحسين – رضى الله عنه – لم يجر على الأمه وبال أى فرقة ، ولم يرفع سيفه للوصول إلى عظائم الأمور . ولم ينازع يزيد البيعة ، ولم يطلب خلافة الراشدين ، ولم يكن بحال من الأحوال يتحرق شوقاً إلى استئناف الجهاد ، كما أنه لم يكن بحال من الأحوال يتحرق إلى الحكم والسيطرة ، على نمط الأحزاب السياسية التى كان يعرفها أصحاب هذه المزاعم ، وسار البعض منهم فى ركابهم .

فلو أن سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – كان كما وصفه أمثال هؤلاء الواهمين ، لما تردد فى قبول ما عرض عليه من تأييد ونصرة ، دون ماطلب منه ، أو سعى إليه ، لاسيما وهويرى رأى العين ، ما أعده ابن زياد لحربه ، ومن ألوف الرجال والفرسان ، مما تعتبر قوة الحسين – رضى الله عنه – بالنسبة لذلك ، قطرة فى بحر ، ومما يجعل أمله فى النصر خيالا ونجاته من الهلاك مستحيلا .

ولكن الحسين – رضى الله عنه – وهو يرى العواصف تحيط به من كل ناحية ، والأخطار تكتنفة من كل جانب ، رفض نصرة عشرين ألف ، كانوا كفيلين بحمايته من كل خطر ، وانتصاره على أيه قوة .
رفض الحسين – عليه السلام – كل ذلك ، حرصا منه على وحدة الأمة ، وبقاء الفتنة محصورة فى أضيق نطاق وضناً منه بدماء المسلمين أن تسفك فى حرب داخلية تبدد قوتهم ، وتمزق شملهم ، مفضلا أن يكون هو ومن معه كبش الفداء ، لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ، المحاضرة ٣٤ – ص ٥١٧ ، وما أشبه هذا القول بما قاله بعض المستشرقين أما عن جهل أو عن سوء نية أساسها الحقد الدفين ضد الإسلام ورجاله ، مثل سير وليم ميور ، الذى يقول : « ان الحسين بانسياقه إلى تدبير الخيانة سعياً وراء العرش ، ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع ، وتطلبت من أولى الأمر فى الدولة الأموية التعجيل بقمعها » . راجع تاريخ الإسلام السياسى ، للدكتور حسن ابراهيم : ١ - ٤٠١ .

(٢) أبو الشهداء للعقاد : ٦٢ ، ١١٠ ، ١١١ .

(٣) الفتنة الكبرى ، للدكتور طه حسين : ٢ - ١٩٥ .

وهكذا : لم يتردد الحسين — رضي الله عنه — في رفض ما عرضه الطرماح بن عدى ، داعيا له بقوله : « جزاك الله وقومك خيراً[1] . .

فهل هذا تصرف من يريد خلافا ، أو سعيا إلى فتنة ، أو منازعة لبيعة أو تشوقاً إلى قتال ؟

وهل بعد ذلك يستمر الجاهلون في اتهامهم لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وانتقادهم له ، وتحاملهم عليه ؟

وصول جيش ابن زياد :

مضى الحسين — رضى الله عنه — في طريقه ، بعد أن ودعه الطرماح ، فلما أقبل الليل أمر فتيانه أن يتزودوا بكفايتهم من الماء . . ثم واصل المسير ، فأخذته — في مسيره — سنة من النوم ، حتى خفق رأسه ثم استيقظ وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين . ثم قال :

— رأيت فارساً على فرس وهو يقول : القوم يسيرون والمنايا تسرى إليهم ، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا !

وصلى سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — الفجر بأصحابه ، وأسرع بالركوب حتى انتهى إلى نينوى . . ولم يمض قليل حتى أقبل جيش ابن زياد ، في أربعة آلاف ، بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص ، فكان أول مافعلوه أن حالوا بين الحسين — رضى الله عنه — وبين ماء الفرات ، تنفيذاً لأمر ابن زياد — انتقاما منه — في زعمه — للتقى المظلوم عثمان رضى الله عنه .

واجتمع الحسين — رضى الله عنه — بعمر بن سعد عدة مرات ، فعرض عليه أحد أمرين : أما أن يرجع من حيث جاء ، وأما أن يدعوه يذهب في الأرض العريضة حتى ينظر مايصير أمر الناس إليه ، فكتب عمر بن سعد بذلك إلى عبيد الله بن زياد ، فلم يقبل ذلك ، وكتب عمر يقول :

— أما بعد ، فانى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ، ولا لتمنيه ولا لتطاوله ، ولا لتقعد له عندى شافعا ، أنظر : فان نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا ، فابعث بهم إلى سلما ، وان أبوا : فازحف إليهم ، حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون . . فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وأن أنت أبيت : فاعتزل جندنا ، وخل بين شمر وبين العسكر والسلام (٢) . . ! !

وفي بعض الروايات أن الحسين — رضى الله عنه — عرض على عمر أمراً ثالثا ، وهو أن يسير إلى يزيد ابن معاوية ، ليضع يده في يده ، وهو عرض غريب ، لا يتفق مع طبيعة الحسين رضى الله عنه ، وهى تتفجر بالإباء والعزة ، وهيهات أن ترضى بأقل مهانة أو إرغام . ومن ناحية أخرى : لو أن الحسين — عليه السلام — عرض ذلك لأجيب إليه ، لأن فيه غاية ما يطمع القوم من نصر ، وأى نصر أعظم من عدول ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موقفه السلبي من يزيد ، وقبوله بيعته ويؤكد ذلك : ماروّاه عقبة بن سمعان حيث قال :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٠٦ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٨١ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٨٤ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤١٥ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٧٥ .

« صحبت الحسين من المدينة إلى مكة ، ومن مكة إلى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل ، وسمعت جميع مخاطباته الناس إلى يوم مقتله ، فوالله ما أعطاهم ما يتذاكر به الناس من أنه يضع يده فى يد يزيد ، ولا أن يسيروه إلى ثغر من ثغور المسلمين ، ولكنه قال : دعونى أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه ، أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة ، حتى تنظر مايصير إليه أمر الناس ، فلم يفعلوا »(١) :

وعلم الحسين برد ابن زياد ، وأيقن أن المعركة آتية لاريب فيها ، فأرسل إليهم أخاه العباس بن على وقال له :

أرجع فارددهم هذه العشية ، لعلنا نصلى لربنا هذه الليلة ، ونستغفره وندعوه ، فقد علم الله منى أنى أحب الصلاة له ، وتلاوة كتابه ، وكثرة الدعاء والاستغفار(٢) :

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه :

أيقن الحسين رضى الله عنه — بقرب منيته ، فلم يحوله ذلك قيد شعرة عن عزيمته ، بل ازداد قوة على قوة ، لثقته بالظفر بالشهادة ، حتى أنه خطب أصحابه بعبارة فصيحة ، وكلمات بليغة ، قائلا لهم :

(: أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمده على السراء والضراء : اللهم إنى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا فى الدين : أما بعد : فانى لاأعلم أصحابا خيراً ولا أولى من أصحابى ، ولا أهل بيت أبر ولا أصل من أهل بيتى ، فجزاكم الله عنى خيرا ، ألا وإنى أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا ، ألا وأنى قد رأيت لكم : فانطلقوا جميعا فى حل ، ليس عليكم منى ذمام : هذا ليل قد غشيكم فاتخذوه جملا : . فان اليوم إنما يريدوننى ، فلو قد أصابونى لهوا عن طلب غيرى »(٣).

يالها من صورة خالدة من صور الوفاء والإيثار صورة القائد الانسان ، الذى يعرف لأصحابه مروءتهم ، وتربطه بأهل بيته أوثق روابط البر والتراحم ، فيؤثرهم على نفسه بالنجاة ، ويفتدى بحياته على نفسه بالنجاة ، ويفتدى بحياته حياتهم ، وبهلاكه خلاصهم ، ويطلب منهم أن يتركوه وحيداً ، ليلقى مصيره المنتظر ، وليشغل القوم بنفسه عن التفكير فى طلبهم : :

وياله من امتحان رهيب للإيمان والوفاء ، وأى امتحان أكبر من هذا التخيير بين الحياة والموت : : بين السلامة والبلاء : : بين كل شهوات الدنيا « من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام » . وبين ضرب الأعناق ، وتمزيق الأوصال ، وترمل النساء ، وتيتم الأبناء ، ومفارقة الأهل والاصحاب ، وضياع الأموال ، وخراب الديار :

ولكن الصلة التى كانت تربط أفراد هذه الحفنة المؤمنة بقائدهم ، وتربط القائد بهم ، كانت أسمى وأغلى من الدنيا وما فيها ، لأنها كانت فى الله ، وقامت ابتغاء وجهه ، وازدهرت فى ظل توفيقه ورعايته ، فهى بهذه الصورة ، رابطة خالدة ، لايتطرق إليها تحلل أو فناء ، ولاتقف عند حدود هذه

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٨٤ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٧٥ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى ، ٥ - ٣١٧ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٧٦ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤١٨ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٧٦ .

الدنيا وما يتصل بها من متاع الغرور ، وإنما تمتد وتستمر إلى الحياة الآخرة حيث يفرح المتقون بما آتاهم الله من فضله ، ويلقى بعضهم بعضا فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

لذلك : لم يتردد أحد منهم فى الاختيار ، فبادلوا قائدهم الكريم وفاء بوفاء ، وايثار ، فصدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وأجابوا أجابة رجل واحد فقالوا : لابقاء لنا بعدك ولاأرانا الله فيك ما نكره .

وعاد الحسين – رضى الله عنه – يؤكد أمره اليهم ويقول : أذهبوا فقد أذنت لكم !

وعاد أصحابه يؤكدون صدق عهدهم فى الوفاء ، وحرصهم على التضحية والفداء ، ويقولون :

« فما تقول الناس ؟ إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبنى عمومتنا – خير الأعمام – ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب معهم بسيف ، ولاندرى ماصنعوا : رغبة فى الحياة الدنيا ؟ . لا والله نفعل ، ولكن : نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ، ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك(١) » !

وتتابع المخلصون يؤكدون مثل هذه المعانى السامية ، فى صدق وإيمان هذا هومسلم بن عوسجة الأسدى يقوم إلى سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – ويقول مستنكرا :

« ونحن نخلى عنك ولما نعتذر إلى الله فى أداء حقك ؟ أما الله حتى أكسر فى صدروهم رمحى ، وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمة فى يدى ، ولاأفارقك ولولم يكن معى سلاح أقاتلهم به ، لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك(٢) » ! !

وهذا هو سعيد بن عبد الله الحنفى ، يقسم على الوفاء والفداء ، ويقول : « والله لو علمت أنى أقتل ثم أحيا ثم أحرق حيا ثم أذر ، يفعل ذلك بى سبعين مرة ، مافارقتك ، حتى ألقى حمامى دونك ، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هى قتلة واحدة : ثم هى الكرامة التى لاانقضاء لها أبداً »(٣) ! !

وهذا هو زهير بن القين يؤكد القسم الذى طرق ، أذنيه فى صيغة أخرى :

« والله لوددت أنى قتلت ثم نشرت ثم قتلت ، حتى أقتل كذا ألف قتلة ، وأن الله يرفع بذلك القتل عن نفسك ، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك »(٤) .

* * *

وهكذا : استمر كل من هؤلاء الأوفياء واحداً بعد الآخر ، يتنافسون فى التعبير عما يجيش فى أعماقهم من إحساسات المحبة والفداء لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى ارتفعت حرارة الإيمان إلى أوجها ، فى أعماق هذه الحفنة المختارة من أنصار الحق ، الذين أصطفاهم الله من بين عباده ، ليشاركوا سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – أشرف مصير ، وليصاحبوه فى رحلته إلى الدار الآخرة : فعادوا يقولون من أعماق قلوبهم :

« والله لانفارقك ، وأنفسنا الفداء لك ، نقيك بنحورنا وجباهنا ، وأيدينا وابداننا ، فان نحن قتلنا كنا وفينا ، وقضينا ما علينا »(٥) .

(١ ، ٢ ، ٣) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤١٩ ، الكامل لابن الأثير : ٢ - ٢٨٥ ، البداية والنهاية : ٨ - ١٧٧ .

(٤ ، ٥) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٢٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٧٧ .

وخلال هذه الصور الرائعات من الوفاء والإيثار ، يكتب عبيد الله بن زياد — بناء على طالب عبد الله ابن أبي المحل — كتاب أمان إلى كل من العباس وعبد الله وجعفر وعثمان ، أولاد على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبنو عمه عبد الله بن أبي المحل ، من أم البنين إبنة حزام :: وارسل عبد الله الكتاب إلى أولاد عمته ، ولكنهم لم يترددوا فى رفضه وقالوا لمن جاءهم به : « لاحاجة لنا فى أمانكم :: أمان الله خير من أمان ابن سمية »(١) :

وأصر هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم ، على الرفض مرة أخرى ، حينما حادهم شمر بن دى الجوشن ، حتى وقف تجاه أصحاب الحسين — رضى الله عنه — ثم نادى قائلا :

اين بنو أختنا ؟ فخرج إليه الأربعة وقالوا له :

مالك :: وما تريد ؟ قال أنتم يابنى أختى آمنون :: فأجابوه قائلين :

لعنك الله :: ولعن أمانك ! ! لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله صلى الله عليه وسلم لاأمان له ؟ !

وهكذا : أبى هؤلاء الفتية المباركون ، إلا أن يقفوا — حتى الرمق الأخير — بجور ابن أبيهم — سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه وعنهم — يفتدونه بكل مرتخص وغال : حتى استشهدو جمعياً دونه ، وقد صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وما بدلوا تبديلا ::

الاستعداد للمعركة :

واعتزل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، بعد أن شكر لهم وفاءهم وصدقهم ، ودخل خباءه ، وأخذ يعالج سيفه ويصلحه ، وهو يردد :

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع :: بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل وكل حى سالك السبيل(٢)

وأدرك ابن سبط شباب أهل الجنة — على زين العابدين — رضى الله عنهما — مغزى العبارت التى يرددها والده فخنقته العبرات ، ولكنه حبسها وألزم نفسه السكوت ، ولكن السيدة زينب — رضى الله عنها — لم تكد تسمع ذلك : حتى وثبت تجر ثوبها ، وقد تملكها الجزع إشفاقاً على شقيقها ، حتى انتهت إليه ، فصاحت من أعماقها قائلة :

« واثكلاه ! ليت الموت أعدمنى الحياة ، اليوم ماتت أمى فاطمة ، وعلى أبى ، وحسن أخى ، ياخليفة الماضى وثمال الباقى :: »

وخرت رضى الله عنها مغشيا عليها ، فأسرع إليها الحسين فصب على وجهها الماء ، فلما أفاقت قال لها : ياأخية : لايذهبن حلمك الشيطان : وترقرقت عيناه . . ثم قال :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤١٥ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٧٥ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك ، الطبرى : ٥ - ٤٢٠ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٧٧ .

يا أخية : اتقي الله واصبري ، وتعزي بعزاء الله ، واعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله ، الذي خلق ، الخلق بقدرته ، ويميتهم بقهره وعزته ، ويعيدهم فيعبدونه وحده ، وأعلمي أن أبي خير مني وأمي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة حسنة(١) .

ثم قال لها — رضي الله عنه — موصيا :

« يا أخية : أني أقسم عليك فأبري قسمي ، لاتشقي علي جيبا ، ولاتخمشي علي وجها ، ولا تدعي بالويل والثبور إذا أنا هلكت »(٢) .

* * *

وخرج رضي الله عنه إلى أصحابه ، ليتحمل مسئولية التخطيط والقيادة في معركة الخلود ، فأمرهم بادناء بيوتهم بعضا من بعض ، إلا يجعلوا للعدو مخلصا إليهم إلا من ناحية واحدة ، وأن يحفروا وراء البيوت خندقا يملأونه حطبا ، ويضرمون فيه النار ، حتى لايخلص إليهم أحد من ورائهم(٣) .

وبات سيد شباب أهل الجنة وأصحابه — رضي الله عنهم أجمعين — طوال ليلهم يصلون ويستغفرون ، ويتضرعون ويدعون ، حتى أصبح الصبح ، فصلى بأصحابه ، وعدتهم اثنان وثلاثون فارسا .. وأربعون رجلا ، فلما انتهى من صلاته ، أخذ يصف أصحابه وينظم صفوفهم ، فجعل على الميمنة زهير بن القين ، وعلى الميسرة حبيب بن مظاهر ، وأعطى الراية أخاه العباس بن علي رضي الله عنهم أجمعين(٤) .

وعمد الحسين — رضي الله عنه — إلى خيمة قد نصبت فاغتسل وانطلى بالنورة ، وتطيب بمسك كثير ، وحذا حذوه بعض أصحابه ، استعدادا للشهادة في سبيل الله ، وقد استبد بهم من الشوق إليها ، ماعبر عنه أحدهم — يزيد بن حصين — إذ يقول :

« والله لقد علم قومي أني ماأحببت الباطل شابا ولا كهلا .. والله إني لمستبشر بما نحن لاحقون ، والله مابيننا وبين الحور العين ، إلا أن يميل علينا هؤلاء القوم بأسيافهم »(٥) .

اسداء النصيحة .. وابراء الذمة :

وركب الحسين رضي الله عنه فرسه ، وقد وضع بين يديه كتاب الله تعالى ، واستقبل القوم في هذه الحفنة المباركة من أهل الأيمان وهو يدعو ربه جل وعلا قائلا :

« اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ، وأنت لي من كل أمر نزل ثقة وعدة ، فكم من هم يضعف فيه الفؤاد ، وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت فيه العدو ، أنزلته بك ، وشكوته اليك ، رغبة فيه إليك عمن سواك ، ففرجته كشفته ، فأنت ولي كل نعمة ، وصاحب حسنة ، ومنتهى كل غاية .. »(٦) .

(١ ، ٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبري : ٥ - ٤٢١ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٨٦ ، البداية والنهاية ٨ - ١٧٧ .
(٣ ، ٤) تاريخ الرسل والملوك ، للطبري : ٥ - ٤٢٢ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٨٦ ، البداية والنهاية ٨ - ١٧٨ .
(٥ ، ٦) تاريخ الرسل والملوك ، للطبري : ٥ - ٤٢٣ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٨٦ ، البداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٧٨ .

وأبت رحمة الحسين — رضى الله عنه — وشفقته بأعدائه ، إلا أن يحاول — حتى اللحظة الأخيرة —
أن يثنيهم عن الكبيرة التى توشك أن تقترفها أيديهم ، ويصدهم عن الهاوية التى أوشكوا على التردى فيها ،
ويقودهم إلى سبيل السلامة والتقوى ، ابراء للذمة ، ووفاء بالعهد ، واداء لحق النصيحة لهم ، مبينا لهم ماهى
ماهم مقدمون عليه من أمر خطير ، « تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا » .

وهكذا : خطب الحسين — رضى الله عنه — الناس ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس : أسمعوا منى نصيحة أقولها لكم » .

« أيها الناس : أن قبلتم منى وأنصفتمونى كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم على سبيل ، وأن لم تقبلوا منى : « فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلى ولاتنظرون(١) » .. أن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين »(٢) .

ثم أخذ رضى الله عنه يذكر الناس بفضله ، وعظمة نسبه ، وشرف منزلته ويقول لهم :

« راجعوا أنفسكم وحاسبوها .. ها يصلح لكم قتال مثلى ؟ ؟ أنا ابن بنت نبيكم ، وليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيرى ، وعلى أبى ، وجعفر ذو الجناحين عمى ، وحمزة سيد الشهداء عم أبى ، وقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأخى : « هذان سيدا شباب أهل الجنة » أما تتقون الله فى ؟ أما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى ؟ » .. ثم قال :

« أيها الناس : اذ كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم إلى مأمنى من الأرض .. أخبرونى : أتطلبونى بقتيل لكم قتلته ؟ أو مال لكم أكلته ؟ أو بقصاصة من جراحة ؟ »(٣) .

وبالرغم من هذه العبارات التى أرسلها الحسين — رضى الله عنه — من أعماق قلبه ، والتى تنفطر لها الأفئدة ، وتهز لها النفوس والأرواح ، فإن القوم كانت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، فأبوا عليه إلا الاذعان ، وقال له قيس بن الأشعث :

« ألا تنزل على حكم بنى عمك ؟ فإنهم لن يروك إلا ماتحب ، ولن يصل إليك منهم مكروه »

ولكن الحسين — رضى الله عنه — كان يعلم أن القوم لاعهد لهم ولاميثاق فقال :

« لا والله لا أعطيكم بيدى إعطاء الذليل ، ولا أقر لهم إقرار العبيد »(٤) ثم قال :

« عباد الله : إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون ، .. أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » .

استجابة للنور .. ورجعة الى الحق :

على أن هذه الكلمات ما كان يمكن أن تذهب هباء ، أنها لم تنطلق عن هوى ، ولم تصدر عن غرض ، وإنما خالصة لوجه الله ، ولابد — وهذا شأنها — أن يكون لها صداها فى النفوس ، وتأثيرها فى الأعماق .

---

(١) سورة يونس : آية ٧١ .

(٢) سورة الأعراف : آية ١٩٦ .

(٣ ، ٤) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ ، ٤٢٥ ، الكامل لابن الأثير : ٣ ، ٢٨٧ ، البداية والنهاية : ٨ ، ١٧٩ .

وهكذا : لم يكد سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — ينتهى من خطابه ، حتى ألتفت الحر ابن يزيد — قائد مقدمة جيش ابن زياد — إلى عمر بن سعد فقال له :

« أى والله : : قتالا أيسره أن تسقط الرءوس ، وتطيح الأيدى » فقال الحر :

« أفمالكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضا » ؟ فرد عمر قائلا :

« أما والله لو كان الأمر إلى لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك »(١) : ! !

وتيقن الحر بن يزيد — وكان من الأبطال المشهود لهم بالفروسية والاقدام — أن الحسين — رضى الله عنه — مقتولا لامحالة ، فأخذته رعدة تعجب لها رجل من قومه ، هو المهاجر بن أوس فقال له :

يابن يزيد لو قيل لى من أشجع أهل الكوفة رجلا ماعدوتك ، فما هذا الذى أرى منك ؟ فأجاب : إنى والله أخير نفسى بين الجنة والنار ، والله لاأختار على الجنة شيئاً ولو قطعت وحرقت : : ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين عليه السلام ، فقال له :

جعلنى الله فداءك يابن رسول الله : : ! أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع ، وسايرتك فى الطريق ، وجعجعت بك فى هذا المكان ، : : والله الذى لا إله إلا هو ماظننت أن القوم يودون عليك ماعرضت عليهم أبداً ، ولايبلغون منك هذه المنزلة ، وإنى قد جئتك تائبا مما كان منى إلى ربى ، ومواسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك ، أفترى ذلك لى توبة(٢) ؟

ياله من موقف خالد : موقف يفيض بالشهامة والفداء : : موقف بطل كانت نفسه تنازعه بين الحياة والموت : : وبين السيادة فى ظل الطغاة ، والفناء فى سبيل الله : : ، فانتصرت فى أعماقه مروءة العرب ، وعزة الإسلام ، فاختار الموت والفناء فى سبيل الله : : افتداء لابن بنت رسوله ، على الحياة والسيادة فى الدنيا :

ولقد أعجب الحسين — رضى الله عنه — موقف البطل ، وقدر له مروءته وصدقه ، فقال له :

— نعم : : يتوب الله عليك ، ويغفر لك ، ماسمك ؟ قال :

— أنا الحر بن يزيد : فقال له الحسين رضى الله عنه :

— أنت الحر كما سمتك أمك ، : : أنت الحر إن شاء الله فى الدنيا والآخرة ، : : ثم دعاه إلى النزول ، فقال له الحر :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٢٧ ، الكامل لابن الأثير : ٣ - ٢٨٨ ، البداية والنهاية : ٨ - ١٨٠ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٢٧ .

— أنا لك فارسا خير منى راجلا ، أقاتلهم على فرسى ساعة ، وإلى النزول مايصير إليه آخر أمرى ..
فقال الحسين — رضى الله عنه — : فاصنع يرحمك الله — ما بدالك[1] .

* * *

وعاد الحر إلى قومه ، وراجع عمر بن سعد فى موقفه ، وكلمه بمثل ما كلمه به من قبل ، واعتذر عمر إليه بمثل ما سبق ان اعتذر به ، فالتفت الحر إلى أصحابه من أهل الكوفة فقال لهم : « ياأهل الكوفة : أدعوتم الحسين إليكم حتى اذا أتاكم اسلمتموه ؟ وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ؟ وأحطتم به من كل جانب ، ومنعتموه من التوجه فى بلاد الله العريضة ، حتى الوسيعة يأمن ويأمن أهل بيته ؟ وحلتم بينه وبين ماء الفرات الجارى ، الذى يشرب منه خنازير السواد وكلابه ؟ بئسما خلفتم محمداً صلى الله عليه وسلم فى ذريته ، لاسقاكم الله يوم الظمأ الأكبر ، إن لم تتوبوا وتنزعوا أنتم عليه من يومكم هذا .. فى ساعتكم هذه »[2] .

ولاشك فى أن موقف الحر بن يزيد كان له أعمق الإثر فى نفوس الكثيرين من جيش ابن زياد ، لاسيما هؤلاء الذين خرجوا وهم يعرفون لسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — مقامه ، ويكرهون الوقوف فى وجهه ، أو المعاونة على قتاله .. ولذلك : لم يلبث أن انحاز إلى الحر بن يزيد — فى انتصاره للحسين رضى الله عنه — جماعة من أعيان الكوفة وفرسانها يقدر عددهم بثلاثين فارساً .

* * *

ورغم قلة عدد من تركوا صفوف الباطل إلى صفوف الحق ، فقد كان انضمام هذه الحفنة من المؤمنين الصادقين إلى معسكر الحسين رضى الله عنه من أقوى العوامل فى ارتفاع معنوية أصحابه ، حتى أبلوا بلاء تحار فى روعته الألباب ..
أو كأنه عز وجل أراد أن يرفع عن الأمة إثم التقصير الدفاع عنهم ، والانتصار لهم ، والتضحية فى سبيلهم .

وهكذا أمد الله بنوره قائد فرسان عبيد الله بن زياد ، وأمد بنوره تلكم الحفنة التى حذت حذوه من الفرسان والاعيان ، فاذا بهم — وقد انقشعت عن بصائرهم الغشاوة التى كانت تحجب عنهم نور الحق ، وتبغضه إليهم ، وتقودهم فى طريق الباطل ، وتزينه لهم — يرون حقيقة الجريمة الشنعاء التى توشك أن تقع ، ويدركون دناءة الاعتداء الأثيم ، الذى يوشك أن يقترب ضد خير البرية فى وقتة .. ضد ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب أهل الجنة — الحسين بن على رضى الله عنهما ، وعن أهل أهل بيت النبى الذين كرمهم الله تعالى ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ..

ظهرت الحقيقة جلية أمامهم ، وتبين لهم الحق من الباطل ، والنور من الظلام ، فلم يترددوا ..

(١ ، ٢) تاريخ الرسل والملوك ، للطبرى : ٥ - ٤٢٨ ، الهداية والنهاية ، لابن كثير : ٨ - ١٨٠ ، ١٨١ .

فبركوا معسكر الباطل ، رغم رجحان كفته ، وتوفر أسباب النصر له ، لينحازوا إلى معسكر الحق ، رغم قلة عدده ، وضعف عدته ، وانقطاع الأمل فى ظهوره . .

صورة لعظمة الفروسية الاسلامية :

وانضمام هذه الفئة المؤمنة ، إلى الحسين وأهل بيته - رضى الله عنهم أجمعين - ارتفع مستوى المعركة إلى أسمى قمة من التضحية والفداء ، وضرب هؤلاء الرجال أعلى المثل فى المروءة والوفاء ، لأنهم انحازوا إلى معسكر الحسين - رضى الله عنه - دون أى قرابة من دم تربطهم به ، أو علاقة من جوار أو عصبية تشدهم إليه ، بل دون أى رباط من مصلحة ، أو طمع فى منفعة .

لقد انحاز هؤلاء الأبطال إلى الحسين رضى الله عنه بدافع الحب الذى هو أوثق عرى الإيمان : : حب الله والرسول وأهل بيته ، انحازوا إليه بدافع النجدة والمروءة . . انحازوا إليه بدافع الانتصار للحق وأهله : انحازوا إليه وهم يعلمون أنهم - لامحالة - ملاقون حتفهم ، وأنهم مهما بلغوا من قوة البأس ، وشدة البطش ، سوف تمزقهم الرماح وتقطعهم السيوف ، فاذا بهم جثث هامدة ، وأشلاء مبعثرة :

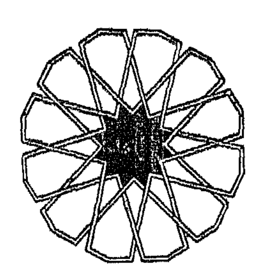
ولكنها الفروسية الإسلامية ، فى أروع مظاهرها ، وأسمى معانيها ، الفروسية التى لاتقيم وزنا لأى اعتبار مادى ، ولا تبالى إلا بالمثل العليا التى يؤمن النبلاء بها ، ويجاهدون فى سبيلها ، ويستعذبون كل تضحية دونها :

إنها الفروسية الإسلامية ، والتى وعد الله أبطالها أحدى الحسنيين ، فإما النصر فى الدينا ، وما يرتبط به من تمكين فى الأرض ، وظهور للحق ، وإما الشهادة التى يتسابق المخلصون إليها ، ويحرصون كل الحرص عليها « فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

إنها الفروسية الإسلامية المستمدة من الإيمان بالله واليوم الآخر ، والتى لايمكن أن تستمد من غيرها والتى تتضاءل أمام روعتها وسموها ، كل فروسيات العالم فى الأولين والآخرين ! !

الفصل العاشر

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » .





المقياس الصحيح لأهمية المعارك :

إن المعارك الفاصلة فى تاريخ البشرية ، لا تتوقف أهميتها على ضخامة الجيوش المقاتلة فيها ، ولاتقوم خطورتها على غزارة الدماء التى سفكت ، ولا على كثرة الأرواح التى آزهقت . إنما تقاس أهمية المعارك ، بمدى تأثيرها فى حياة البشرية ، ومدى انتفاع المجتمع الإنسانى بالنتائج التى انتهت إليها ، والعبر التى تستمد منها ، والمثل العليا التى كافحت دونها ، والمبادىء القويمة التى غرستها .

فكم من معارك اشتبكت فيها عشرات الألوف والملايين ، واستمرت العديد من الشهور والسنين ، وسالت فيها أنهارا ، وملأت الأرض خرابا ودمارا ، فلما وضعت أوزارها ، وخمدت نيرانها ، لم يبق من آثارها إلا الذكريات الأليمة ، والأحقاد المريرة . . وإذا بكل ذلك وغيره ، وقد طوته الأيام فى دورانها ، وابتلعته الأحداث فى تتابعها . .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، قديما . . وحديثا ، فالمعارك الدامية بين الأغريق والرومان ، وبين الفرس والروم ، وفتوحات الاسكندر الاكبر ونابليون ، والحرب العالمية الأولى والثانية ، كل هذه الحروب المدمرة وأمثالها ، انتهت من حيث بدأت ، دون أن تترك فى حياة البشرية أى أثر ، ودون أن تحدث فى المجتمع الانسانى أى تطور ، لأنه لم يكن لها من هدف إلا التغلب والإستعلاء وإلا الفخر والخيلاء ، ولأنها لم تكن كفاحا فى سبيل مثل أعلا أو غاية نبيلة ، وأنما كانت اندفاعا فى سبيل أهواء مضلة ، وشهوات رخيصة . . لم يكن فيها ذرة واحدة لله ، ولا هدف واحد لخدمة الإنسانية ، ولامثل واحد تستمد الاجيال اللاحقة ، ما تنتفع به فى حاضرها ومستقبلها ، أو يرتفع بمستوى المدنية والحضارة فيها .

فى حين نجد أن غزوة بدر الكبرى ، رغم ضيق نطاقها ، سواء فيما يتعلق بالمكان الذى وقعت به ، أو الزمن الذى استغرقته ، أو الاعداد المتقاتلة فيها ، أو الضحايا الذين سقطوا بها . . بالرغم من كل ذلك فان هذه الغزوة قد تركت آثارها الخالدة فى حياة البشرية ، لأنها كانت صراعا بين مبدأين متناقضين . . بين الإيمان وما يقوم عليه من تحرير النفوس من العبودية إلا الله ، والعقول من الخوف إلا منه ، والذل إلا له . . وبين الشرك ومايدعوإليه من عبودية للأصنام وخضوع للظلم والطغيان ، ورضا بالذل والهوان . . وكانت كفاحا بين تعاليم الإسلام وماتدعو إليه من هداية ونور ، ومحبة وسلام ، وأخوة وتعاون ، وأمن وحرية ومساواة . . وبين تقاليدالجاهلية ، وما تقوم عليه من جهالة وضلالة ، وإثارات وفتن ، وسخائم وأحقاد ، وفرقة واختلاف ، وبغى وعدوان ، وعبودية واستعلاء .

ومن هنا : اعتبرت بدر معركة فاصلة فى تاريخ الانسانية ، وظلت ذكراها خالدة ، وآثارها مستمرة ، رغم كر السنين ومر القرون . ، وستظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ويكفى لبيان قيمة هذه المعركة الصغيرة ، موقف النبى صلى الله عليه وسلم منها قبيل وقوعها ، ومدى تقديره لخطورتها ، حتى أنه لبقضى ليلها قائما قاعدا ، يصلى ويدعو ، ويرفع يديه مناشدا ربه ماوعده من النصر ويقول :

« اللهم إن تظهر على هذه العصابة ، يظهر الشرك ، ولايقم دين »(١) .

ولقد أكد المولى عز وجل مالبدر من خطر ، وأعتبرها آية للعالمين ، إذ يقول فى محكم كتابه :

« قد كان لكم آية فى فئتين ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يوّيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »(٢) .

وهكذا خلد التاريخ بدرا ، رغم أن عدد الذين اشتبكوا فيها لايتجاوزون المئات ، وعدد الذين قتلوا أو استشهدوا لا يزيدون عن عشرات ، وعفى على آثار المعارك الكبرى ، رغم أن ضحاياها بلغت الألوف والملايين . . ! !

خلد التاريخ بدرا رغم أنها لم تستمر إلا ساعة من نهار ، وأهمل ذكرى الحروب الهائلة ، التى استمرت الشهور والأعوام . . ! !

خلد التاريخ بدرا رغم أن ميدانها لم يعد نهاية البصر ، وغض من قيمة الصراعات العالمية ، التى هطت بنيرانها مشارق الأرض ومغاربها .

وهكذا : نرى ملايين المسلمين فى كل عام ، يحتفلون بذكرى هذه المعارك الخالدة ، الصغيرة فى حجمها ، الكبيرة فى آثارها ، يستمدون منها الدروس والعبر ، ويستعدون مواقف البطولة والإيمان ، وصور الفداء والاستشهاد ، مايجددون به الهمم ، ويشدون به العزائم ، ويبعثون به موات النفوس والأرواح .

الحق لا يهزم .. وشهداؤه لا يموتون :

وفى مثل هذه المعارك الخالدة ، يتساوى — فى نظر الحقيقة والواقع — انتصار دعاة الحق والإيمان ، وأصحاب المبادئ السامية ، ودعاة المثل العليا ، أو هزيمتهم فى كفاحهم ، واستشهادهم دون غايتهم ! !

ذلك أن الحق لايهزم ابدا . . قد تنكس الويته حينا من الدهر ، وقد تخفت أصواته أحيانا أخرى ، ولكن هذه الألوية لاتلبث أن ترفع عالية خفاقة ، وتلكم الأصوات لاتلبث أن تعلو قوية مدوية . .

وكذلك الشأن فى دعاة الحق وشهدائه ، أنهم لايموتون أبداً . . ! !

قد تمزق الرماح أجسادهم ، وقد تقطع السيوف أوصالهم ، وقد تغيب السجون أشباحهم . . وقد يشتت شملهم ، ويبدد جمعهم ، فيخيل للناس أن قوة الباطل قد غلبت ، وأن دعاة المطامع والمنافع أصبحوا ظاهرين . ولكن . . لاتلبث الأيام أن تصحح تلكم الأوضاع المقلوبة ، ولايلبث التاريخ أن يعود سيرته الأولى ، فاذا بالباطل وقد أزهقته عدالة السماء ، وإذا بدعاته وقد دالت دولتهم ، واندثرت آثارهم . . وإذا بدعوة الحق وقد عادت إلى الظهور ، واذا بأصحابه وقد خلدت الأيام بطولتهم . . وإذا بشهدائه وقد بعثت الأحداث سيرتهم ، ففازوا بأكرم حياتين ، حياة الدنيا ممثلة فى ذكراهم الخالدة ، وسيرتهم العطرة ، وحياة الآخرة موكدة بقول الله تعالى فى محكم كتابه :

---

(١) امتاع الاسماع : لتقى الدين المقريزى : ١ - ٨٤ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٣ .

« ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون(١) »

* * *

فدعاة الحق والإيمان هم حزب الله ، ألا إن حزب الله هم الغالبون وكفاحهم فى سبيل الحق هو فى حد ذاته نصر عظيم ، وفتح مبين ، وسواء بعد ذلك انتصروا فى كفاحهم ، أم حاقت بهم الهزيمة : كتبت لهم الحياة فى عزة وكرامة ، أن كتبت لهم الشهادة فى إباء وشمم ، فكم من نصر أحرزه أهل الباطل كان سببا فى هلاكهم ، واستئصال شأفتهم ، وكم من هزيمة حاقت بأهل الحق ، أحلتهم فى فى النفوس أسمى مكانة ، وفى الأفئدة أكرم مرتبة ، وكان لهم فى تاريخ البشرية أعمق الأثر ، وأخلد الذكر ، فضلا عما وعدهم به رب العالمين ، فى كتابه الحكيم ، من مغفرة وفوز عظيم ، فى مثل قوله تعالى :

« يأأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب : وبشر المؤمنين »(٢) .

النصر دائما لدعاة الحق :

وفى قمة المعارك الخالدة فى تاريخ البشرية ، تقف معركة « كربلاء » شامخة بمثلها العليا ، فخورة بما قدمته من صور الفداء فى أروع مظاهره ، وما سجلته من أمثلة النبل والوفاء فى أصدق معانيه .

لقد حقق سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — والذين آمنوا معه ، أكرم صورة لتعاليم الإسلام السامية ، وما يمكن أن تغرسه فى النفوس من عزة واباء ، وثبات فى الملمات تزول دونه الجبال ، وترحيب بالشدائد ، واستهانة بالموت فى سبيل الحق ، وتنافس على الاستشهاد فى سبيل الله ، حفاظا على الشرف ، ودفاعا عن الكرامة :

ويزيد من قيمة هذه المعركة وروعتها ، الفارق الشاسع بين الطائفتين ، وهو فارق لم يذكر التاريخ مثيلا له ، فقد كان أصحاب الحسين — رضى الله عنه — اثنين وسبعين رجلا ، يقابلهم خمسة آلاف أو يزيدون ، مابين فارس وراجل ، فكل فرد من طائفة الحسين — رضى الله عنه — يقابله سبعون من الطائفة الأخرى :

لقد كان دعاة الحق فى هذه المعركة الضارية ، كقطرة فى بحر لجى من جيوش الباطل : ومع ذلك : فقد أبوا أى ارغام أو استسلام ، ودافعوا عن سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه — وعنهم — دفاع المغاوير ، وأظهروا من ضروب البسالة والفروسية ، وصور الوفاء والفداء ، ماخلب الألباب وبهر الأعداء ، وصمدوا فى كفاحهم للكثرة الساحقة حتى الرمق الأخير ، وأصابوا من أعدائهم أضعاف عددهم ما بين قتيل وجريح ، وفى هذا المعنى يقول صاحب الفخرى :

(١) آل عمران : آية ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) سورة الصف : الآيات ١٠ — ١٣ .

(. . قاتل الحسين عليه السلام وأصحابه — حين التقى الجمعان — قتالا لم يشاهد أحد مثله ، حتى فنى أصحابه ، وبقى هو عليه السلام وخاصته ، فقاتلوا أشد قتال رآه الناس ، ثم قتل الحسين— عليه السلام — قتلة شنيعة ، ولقد ظهر منه — عليه السلام من الصبر والاحتساب والشجاعة والورع ، والخبرة التامة بآداب الحرب والبلاغة ، ومن أهله وأصحابه — رضى الله عنه — من النصر والمواساة بالنفس ، وكراهية الحياة بعده ، والمقاتلة بين يديه عن بصيرة . مالم يشاهد مثلة » (١) .

* * *

ولقد استشهد الحسين — رضى الله عنه — وجميع أصحابه فى هذه المعركة ، ولكنهم ظلوا هم الأحياء، عند الله وعند الناس ، تتناقل الأجيال بعد الأجيال بطولتهم النادرة ، وسيرتهم العطرة ، ويحتفل المسلمون بذكراهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتشد الرحال إلى روضاتهم من كل فج عميق : : وفاء بحقهم ، واعترافا بفضلهم ، ورغم أنقضاء مئات السنين على استشهادهم : فإن هؤلاء الكرام البررة ، ما زالوا ملء الأسماع والأبصار ، فى كل الممالك والأقطار ، يحتلون من قلوب الملايين — من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم — أسمى مكانة ، ويحظون منهم بأصدف المحبة ، ويتلقون منهم اصدق تحيات التوقير : : والتعظيم : : والاجلال :

وبعكس هذا : نرى أولئك الذين تمتعوا بالحياة الدنيا حتى حين، وظنوا أنهم كانوا من الغالبين : : لم يلبثوا إلا قليلا ، حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وقيل بعداً للقوم الظالمين :

لقد زلزلت الأرض تحت أقدامهم ، واجتاحتهم العواصف والفتن من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ، فدالت دولتهم : . وقد ظنوا أنهم قادرون عليها ، وساءت نهايتهم : . وقد أطمأنوا أنهم هم الآمنون ، وعفت آثارهم :. وقد حسبوا أنهم هم الخالدون « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد »(٢) .

وهكذا : لم يعد يذكرهم أحد ، ولم يعد يحفل بهم أحد ، ولايفكر فى زيارة قبورهم أحد ، وإن ذكروا ، فانما يذكرون بأسوأ عملوا فلا تلبث الألسنة أن تنال منهم ، ولا تفتأ الأفئدة أن تلعنهم ، ويستشعر الناس نحوهم كل اشمئزاز واحتقار ، ويحيط بهم من كل جانب العار والشنار . !

فأى الفريقين كتب له النصر : : ؟

وأى الحزبين كتبت له الحياة : : ؟

لقد كتب النصر فى النهاية لدعاة الحق والإيمان : :

ولقد كتبت الحياة للذين بذلوا الحياة فى سبيل المثل العليا والقيم الخالدة : :

بين الكثرة الساحقة . . والقلة المؤمنة :

ولاعجب فى أن تفوز القلة المؤمنة من أصحاب سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — وعنهم — بالخلود فى الدنيا والآخرة ، فان ذلكم الفارق الشاسع فى العدد ، الذى كان يمتاز به أنصار الباطل ، كان

---

(١) الفخرى : فى الآداب السلطانية ، والدول الإسلامية : لمحمد بن على بن طباطبا ، المعروف بابن الطقطقى : ص ١٠٥ .

(٢) سورة هود : آية ١٠٢ .

يخفى تحت ستاره كل عوامل الضعف ، من شك فى الهدف ، وحرص على الحياة ، وتعلق بالمادة . .
فى حين كانت الحفنة المؤمنة ، يكمن فى أعماقها . . من الإيمان بالهدف ، والثقة فى الله ، والرغبة فيما عنده ، وغير ذلك من عوامل القوة ، ماهو أبعد أثراً ، وارجح وزنا عند الله وملائكته والناس أجمعين .

كان أنصار الباطل كثرة . . ولكنها كغثاء السيل ، ليس فيهم واحد يؤمن بالهدف الذى أرغم على الخروج من أجله ، بل ليس فيهم واحد يعتقد أنه محق فى قتاله لسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه— بل الجميع . . وعلى رأسهم كبيرهم — عمر بن سعد — يعتقدون فى قرارة أنفسهم أنهم على الباطل . .

وليس أدل على ذلك : من أن الحسين — رضى الله عنه — حين أمسى فى الميدان ، وحيدا تحيط به الألوف من أهل الباطل من كل جانب ، ومع ذلك « فقد مكثت طويلا من النهار ، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا . . ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء . . »(١) وذلك شعروا منهم بالذنب ، وفرارا من الإثم . .

وقبل ذلك : بينما الحسين— رضى الله عنه — ليلة المعركة — يتلو كتاب الله عز وجل ان سمعه أبو حرب السبيعى يقرأ قوله تعالى « ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب . . » . . فقال أبو حرب : نحن ورب الكعبة الطيبون ، ميزنا منكم : فرد عليه برير بن حضير : يافاسق : أنت يجعلك الله فى الطيبين ؟فسأله أبو حرب : من أنت ؟ قال أنا برير بن حضير ، قال أنا الله . . هلكت والله يابرير : قال له برير : ياأبا حرب : هل لك أن تتوب إلى الله من ذنوبك العظام ، فوالله إنا لنحن الطيبون ، ولكنكم لأنتم الخبيثون ، قال : وأنا على ذلك من الشاهدين »(٢) ! !

وأبو حرب هذا صورة لمئات والوف ممن سيقوا بدافع الرغبة أو الرهبة إلى مقاتلة سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، وهم يعلمون أنهم له ظالمون .

ومع ذلك : فقد قاتلوه ، وقتلوه فى النهاية ، واحتزوا رأسه . . وذهب القاتل إلى سادته ليقبض الثمن ، وهو يصيح مفاخراً :

أوقر ركابى فضة وذهبا أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا

* * *

ولقد بلغت دناءة النفس بهذه الطائفة ، حداً دفع بهم — بعد مقتل سيد شباب أهل الجنة — إلى سلب ماكان يرتديه من المتاع ، وتقاسموه فيما بينهم كما يتقاسمون الغنائم « فأخذ بحر بن كعب سراويله ، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته ، وكانت من خز — وكان يسمى بعد : قيس قطيفة — وتقاسم آخرون

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٤٥٢ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٢١ ، البداية والنهاية : ٨ - ١٧٨ .

نعليه وسيفه »(١) ولم تقف بهم الخسة عند هذا الحد ، حتى « مالوا على نساء الحسين وثقله ومتاعه ، فان كانت المرأة لتنازع لها ثوبها عن ظهرها ، حتى تغلب عليه ، فيذهب به منها »(٢)

ولاعجب : فقد كان معظمهم من رعاع الكوفة . . ليس فيهم صحابى جليل أو تابعى فقيه .

أما أصحاب الحسين — رضى الله عنه — فقد كانوا جميعا من أهل الإيمان والتقوى ، ومن دعاة المثل العليا ، وذوى المروءة والنجدة ، وليس فيهم واحد يشك فى نبل الهدف الذى يكافح دونه ، وليس فيهم واحد يطمع فى عرض من أعراض الدنيا ، . . لقد كانت صحبتهم لسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — خالصة لله ، وبدافع الحب فى الله الذى هو أوثق عرى الإيمان وفى سبيل هذه الصحبة الكريمة طلقوا الدنيا وما فيها ، وآثروا مغادرة الأوطان ومفارقة الأهل والخلان ، وأصروا على البقاء بجوار ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين اصبح الخطر مؤكدا ، والمصير واضحا ، والموت حقيقة لاريب فيها ، . . ودافعوا دفاع الصناديد حتى سقطوا فى ميدان الشرف واحدا بعد الآخر ، وكل منهم يوصى من بعده بالوقوف دون الحسين — حبيب الله ورسوله — حتى الرمق الأخير . .

وفى كلمات : يمكننا أن نقول : إن خصوم الحسين — رضى الله عنه — كانوا فى حقيقة الواقع ، يمثلون فى تصرفاتهم أحط ما يمكن أن تصل إلية النفس البشرية ، من نزوات وشهوات ، فى حين أن أصحابه كانوا يمثلون أسمى ما يمكن أن ترتفع إليه من الفضائل والمكرمات .

والفارق بين الفريقين . . أشد بعدا من الفارق بين الأرض والسماء . .

أولئك قوم يتسابقون إلى الحطام الفانى . وفى سبيله لا يتورعون عن تعرية الشهداء ، ونزع ثياب المحصنات من النساء ، والتمثيل بالقتلى . .

وفى سبيل هذا الحطام الفانى : طابت نفوس القوم أن يثخنوا حبيب الله ، وحبيب رسوله ، ضربا وطعنا ، وأن يحتزوا رأسه ، وأن يطأوا بسنابك الخيل جسده الشريف ، حتى الصقوه بالأرض ، فدلوا بذلك على وضاعة أصولهم ، ودناءة منبتهم ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الصديق عنه ، حيث قال :

رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيم خيمة ، وهو متكئ على قوس عربية ، وفى الخيمة على وفاطمة والحسن والحسين ، فقال :

« معشر المسلمين : أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، حرب لمن حاربهم ولى لمن والاهم ، لايحبهم إلا سعيد الجد ، طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقى الجد ، ردىء الولادة »(٣) .

. . وهؤلاء قوم باعوا الدنيا بما فيها من مرتخص و غال حتى أن قائلهم ليقسم فى خطابه لسيد شباب أهل الجنة ، ويقول :

(١ ، ٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٤٥٣ .

(٣) الرياض النضرة : المحب الطبرى : ٢ - ٢٤٩ .

« والله لو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مخلدين ، إلا أن فراقها فى نصرك ومواساتك . لآثرنا الخروج معك ، على الاقامة فيها »(١) .

وبوجة عام : فإن هذه القضية — كما يقول صاحب الفخرى — « لم يجر فى الإسلام أعظم فحش منها . . وجرى فيها من القتل الشنيع والسبي والتمثيل ، ما تقشعر له الجلود ، فلعن الله كل من باشرها ، وأمر بها ، ورضى بشئ منها ، ولاتقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، وجعلهم من « الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »(٢) .

مقـدمات المعـــركة :

وبالرغم من خطاب الحسين — رضى الله عنه — فى القوم ، ونصحه لهم ، وانضمام الحر بن يزيد وطائفة من فرسان الكوفة وأعيانها إليه ، وبالرغم من مراجعة الحر لعمر بن سعد — قائد جيش ابن زياد ، ولومه على موقفه من الحسين عليه السلام ؛ فان كل ذلك لم يغن من قضاء الله شيئاً ، فقد أصر عمر بن سعد على القتال ، تنفيذا للأوامر الصادرة إليه وقال : « لو كان الأمر لى لأجبت الحسين إلى ماطلب ، ولكن الأمر أمر عبيد الله بن زياد »(٣) .

ومع ذلك : فحين زحف القوم قبل الحسين — رضى الله عنه — خرج إليهم زهير بن القين — وهو الذى التقى بالحسين — عليه السلام — فى الطريق فرأى فيه من نور النبوة ماذكره بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يلبث أن طلق امراته ، وانضم إلى الحسين فى مسيره — فقال مخاطبا أهل الكوفة :

« إن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن أخوة ، وعلى دين واحد ، وملة واحدة ، مالم يقع بيننا وبينكم السيف . . فاذا وقع السيف انقطعت العصمة ، وكنا أمة وأنتم أمة . . إن الله ابتلانا وأياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه والسلام ، لينظر مانحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد . فان لم تنصروهم ، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم . . »(٤)

فرماه شمر بن ذى الجوش بسهم وقال له : « إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة » فقال له زهير : « أفبالموت تخوفنى ؟ فوالله للموت معه أحب إلى من الخلد معكم »(٥) . ثم أقبل على الناس رافعا صوته فقال :

« عباد الله : لايغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافى وأشباهه ، فوالله لاتنال شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم قوما أراقوا دماء ذريته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ، وذب عن حريمهم »(٦) .

ورأى سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — أنه لاجدوى من تكرار النصيحة ، فقد أعمى الله أعين القوم وأصم آذانهم ، فبعث إلى زهير من يقول له : « أقبل : فلعمرى لئن كان مؤمن آل فرعون

(١) تاريخ الرسل والملوك : ٥ - ٤٠٤ من خطاب زهير بن القين رضى الله عنه .

(٢) الفخرى لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى : ص ١٠٤ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : ٥ - ١٢٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٨١ .

(٤ ، ٥ ، ٦) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٨٠ .

نصح لقومه وأبلغ فى الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت ، لو نفع النصح والابلاغ » (١) .

. . وهكذا : بدأت المعركة بين الطائفتين ، وسجلت أرض كربلاء ، فى مجالات التضحية والفداء ، أروع الصور ، وأبلغ الدروس والعبر ، فكانت مدرسة للتوجيه والتعليم ، قبل أن تكون ميدانا للحرب والقتال

أول من رمى بسهم :

وزحف عمر بن سعد نحو الحسين – رضى الله عنه – وأصحابه ، ثم شمر عن ساعده ورمى بسهم – ايذانا ببدء القتال – وهو يقول مفاخرا : « اشهدوا أنى أول من رمى القوم » (٢) :

ومن عجيب أمر الأقدار ، أن يكون عمر بن سعد هو أول من يرمى بسهم ضد سيد شباب أهل الجنة ، فى حين أن والده الصحابى الجليل – سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه – كان أول من رمى بسهم فى سبيل الله تعالى ، تحت لواء النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد الستة من أصحاب الشورى ، الذين توفى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو عنهم راض .

وقد أراد عمر بن سعد بذلك أن يدرأ عن نفسه الشبهات ، فقد كان كارها للخروج لقتال الحسين رضى الله عنه ، وكان ابن زياد قد جهزه قبل ذلك فى أربعة آلاف لقتال الديلم ، فلما تلقى أمر يزيد بشأن الحسين – رضى الله عنه – أمر سعدا بالتوجه إليه ، فاستعفاه من ذلك ، فتهدده عبيد الله بالعزل من عن ولاية « الرى » التى كان قد وعده بها ، وخاف سعد فى نفس الوقت بطشه وغدره ، فسار إلى كربلاء على كره منه ، حتى التقى بالحسين – رضى الله عنه – واجتمع به بين العسكرين ، وعرض عليه الحسين – عليه السلام – ما عرض من خصال ، فكتب عمر بن سعد إلى ابن زياد يقول :

أما بعد : فان الله قد أطفأ النائرة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر الأمة ، هذا حسين قد اعطانى أن يرجع إلى المكان الذى منه آتى ، أو أن نسيره إلى أى ثغر من ثغور المسلمين شئنا ، فيكون رجلا من المسلمين ، له مالهم ، وعليه ماعليهم ، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده فى يده ، فيرى فيما بينه وبينه رأبه ، وفى هذا الكم رضا ، للأمة صلاح »(٣) .

ولكن ابن زياد : كتب إليه بتوعده على تدانيه فى قتال الحسنين – رضى الله عنه – ويقول له :

« أما بعد : فانى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله ، ولالتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقعد له عندى شافعا ، أنظر : فان نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا ، فابعث بهم إلى سلما ، وأن أبوا : فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون ، فان قتل حسين فأوطئ الخيل صدره وظهره ، فانه عاق مشاق، قاطع ظلوم . . إن انت مضيت لأمرنا جزيناك السامع المطيع ، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا ، وخل بين شمر بن ذى الجوش وبين العسكر ، فإنا قدأمرناه بأمرنا والسلام»(٤)

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٢٧ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : ٥ : ١٢٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٨١ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٤١٤ - وقد أوضحنا فى الفصل الخامس أن الحسين - رضى الله عنه لم يعرض ن يضع يده فى يد يزيد ، وأن ابن سمعان الذى كان حاضر أكل مخاطبات الحسين ، نفى ذلك نفياً باتاً .

(٤) المصدر السابق : ٥ - ٤١٥ .

وفى رواية : أن ابن زياد لم يكتف بذلك : بل أرسل من طرفه جويرية بن بدر التميمى ، وأمره أن يضرب عنق عمر بن سعد آن لم يقاتل الحسين(١) ! !

وآثر عمر بن سعد فى النهاية ، بتأثير الوعد بولاية الرى من ناحية ، والوعيد بالعزل والقتل من ناحية أخرى ؛ أن يقاتل الحسين — رضى الله عنه — ولكنه كان فى اعماق نفسه كارها لذلك ، حتى أن السيدة زينب — رضى الله عنها — لما حمى وطيس المعركة ، وسقط حول سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه جميع اصحابه ، واوشك ان يبقى فى الميدان وحيداً ؛ صاحت بعمر بن سعد قائلة :

« ياعمر : أيقتل أبو عبيد الله وأنت تنظر ؟ »(٢) فلم يستطع لها جواباً ولا إليها نظرا . . بل حول وجهه عنها ، وانصرف وقد فاضت عيناه بالدموع ، فسالت على خديه ولحيته .

المبارزة بين الفريقين :

وترامى الفريقان بالنبل . . وتتابعت الأحداث وسجل التاريخ خلال المعركة الخالدة أروع صور الكفاح فى سبيل الحق والكرامة . .وأعظم مواقف الفداء فى سبيل الذود عن سيد شاب أهل الجنة ، وأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . .

هذا هو عبد الله بن عمير الكلبى : لايكاد يسمع نداء القوم إلى المبارزة ويرى اثنين من رجال ابن زياد يتقدمان فى الميدان متحديين ، حتى يهب مسرعا إلى الحسين — رضى الله عنه — فيصيح به قائلا . .

« أباعبد الله ، رحمك الله . . ائذن لى فلاخرج إليهما »(٣) ! !

لقد كان الكلبى متشوقاً لقتال القوم ، منذ رأى الجند بالنخيلة يعرضون ، وعلم أنهم يسرحون لقتال الحسين— ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال محدثا نفسه :

« والله لقد كنت على جهاد أهل الشرك حريصا ، وإنى لارجو أن لايكون جهاد هؤلاء الذين يغزون ابن بنت نبيهم ، أيسر ثوابا عند الله ، من ثوابه إياى فى جهاد المشركين »(٤) .

ودخل الكلبى إلى امرأته ، فأعلمها بما سمع ، وأخبرها بما يريد ، فوافقته على ذلك ، وخرجت معه ليلا حتى أدركا الحسين رضى الله عنه . .

ونظر الحسين — رضى الله عنه إلى الرجل ، فوجده طويل القامة شديد الساعدين . عريض المنكبين ، فقال : إنى لأحسبه للأقران قتالا . أخرج أن شئت . .

وخرج الكلبى منطلقا كالسهم نحو الرجلين ، فشد على أحدهما فضربه بالسيف حتى برد ، وأنه لمشغول به اذ شد عليه الآخر ، فاتقى الكلبى ضربته بيده اليسرى فطارت أصابع كفه ، ولكنه مال عليه فقتله هو الآخر . . ورأت زوجته ماحل بزوجها ، فاندفعت لنصرته ، وقد حملت عمودا لتضرب به ، وهى تصيح بزوجها قائلة :

---

(١) المصدر السابق : ٥ - ٣٩٣ .

(٢) المصدر السابق : ٥ - ٤٥٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٨٧ .

(٣ ، ٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٤٢٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٨١ ،

« فداك أبي وأمي ! ! قاتل دون الطيبين . . ذرية محمد عليه السلام »(١) .

ولكن الرجل لم يكن ليقيم وزنا لماأصابه ، بقدر مايقيم كل الوزن لطاعة الله ورسوله ، فأقبل على زوجته يردها إلى النساء ، وهي تأبى إلاأن تظل بجواره ، وتقول له : « دعني أكون معك ، اني لن أدعك دون أن أموت معك » .

وتقدم سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — فحسم النزاع بين الزوجين ، معلنا حكم الله ورسوله فى الأمر ، فنادى المرأة قائلا :

« جزيتم من أهل بيت خيراً ، ارجعى — رحمك الله — إلى النساء فاجلسى معهن ، فانه ليس على النساء قتال »(٢) .

واستمر عبد الله بن عمير الكلبي — رغم بتر أصابعه — يقاتل بكل بسالة ، حتى صرع رجلين آخرين ، قبل أن يسقط شهيداً ، فأسرعت إليه امرأته حتى جلست عند رأسه ، تمسح عنه التراب وتقول : « هنيئالك الجنة » . . ولكن الخسة بلغت بشمر بن ذى الجوشن ، أن أرسل إليها غلاما له ، فضرب رأسها بعمود فشرخه ، فماتت مكانها(٣) .

* * *

ونادى يزيد بن معقل — من أصحاب عمر بن سعد — برير بن حضير من أصحاب الحسين — رضى الله عنه — فقال له متحديا : كيف ترى صنع الله بك ؟ فأجابه : « صنع الله والله بى خيراً ، وصنع الله بك شراً » .

وبرير بن حضير هذا كان أكابر القراء ، بل هو سيد القراء فى عصره ، ومن أصدق أصحاب الحسين رضى الله عنه — الذين وطدوا العزم على الموت دونه ، حتى كان ينطلى بالنورة ، استعدادا للشهادة ، كان يمازح أصحابه ويقول :

« والله لقد علم قومى أنى ماأجبت الباطل شابا ولا كهلا ، ولكن والله انى لمستبشر بما نحن لاقون ، والله أن بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل هؤلاء علينا بأسيافهم ، ولوددت أنهم مالوا علينا بأسيافهم »(٤)

وحينما دعا القوم أصحاب الحسين — رضى الله عنه — إلى المبارزة كان برير أول من تقدم ، هو وحبيب ابن مظاهر ، لكن الحسين — عليه السلام أخرهما وقدم الكلبي — فلما صرع الكلبي خصميه ، الواحد بعد الآخر ، وقطعت أصابع كفه اليسرى ، تقدم برير فناداه يزيد بن معقل ، وأجابه برير بما سبق ، وتناظرا ، وكل منهما يدعى أنه على الحق ، وأن الآخر على الباطل ، إلى أن قال برير :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٤٣٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٨٢ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٣٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ١ - ١٨٢ .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٤٣٨ .
(٤) المصدر السابق : ٥ - ٤٢٣ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٧٨ .

« هل لك فلأباهلك ، ولندع الله أن يلعن الكاذب ، وأن يقتل المبطل ، ثم أخرج فلأبارزك »(١) .

فخرج ، فرفعا أيديهما إلى الله بذلك ، « ثم برز كل منهما لصاحبه . فضربه برير بن خضير ضربة قدت المغفر ، وبلغت الدماغ ، فخر كأنما هوى من حالق(٢) » .

وبينا برير ينضنض السيف من رأس عدوه ، اذ حمل عليه آخر وعتنقه ، تمكن برير من صرعه ، وقعد على صدره ليجهز عليه ، فاستغاث الرجل بأصحابه ، فذهب كعب بن جابر الأزدى فحمل على برير بالرمح حتى وضعه فى ظهره ، فلما وجد مس الرمح ، لم يبال بالألم ، فبرك على خصمه فعض بوجهه ، وقطع طرف أنفه ، فطعنه كعب بن جابر حتى القاه عنه ، وقد غيب السنان فى ظهره ، ثم أقبل عليه يضربه بسيفه حتى قتله(٣) رحمه الله .

ولقد كان موقف كعب من برير رضى الله عنه ، موقف الجبناء ، لأنه لم يستطع مواجهة برير ، رغم اشتغاله بآخر ، بل فأجاه من الخلف ، حتى استطاع التغلب عليه ، ولقد بلغ من احتقار الناس لموقفه أنه لما عاد إلى بيته ، قالت له امراته مستنكرة : « أعنت على ابن فاطمة ، وقتلت سيد القراء ؟ لقد آتيت عظيا من الأمر ، والله لاأكلمك من رأسى كلمة أبدا »(٤) .

وتتابعت المبارزات بين أبطال الفريقين ، وكان النصر دائما لاصحاب الحسين — رضى الله عنه — لشدة بأسهم ، وقوة يقينهم ، واستهانتهم بالحياة ، وحرصهم على الشهادة ، واستماتتهم فى الذود عن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى رأى القوم أن الاستمرار فى المبارزة ؛ سيئودى إلى هلاك الكثيرين منهم ، قبل أن يصيبوا أحدا من الفريق الآخر ، فصاح فيهم عمرو بن الحجاج قائلا :

« أتدرون من تقاتلون ؟ فرسان المصر ! ! قوما مستميتين ، لا يبرزن لهم منكم أحد ، فانهم قليل ، وقلما يبقون ، والله لولم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم(٥) » .

واقتنع عمر بن سعد بهذا الرأى ، فأرسل إلى من معه يحذرهم من الخروج لمبارزة أحد من أصحاب الحسين رضى الله عنه .

اوصيك بالحسين الى أن تموت :

وحمل القوم بجموعهم على سيد شباب أهل الجنة واصحابه — رضى الله عنهم اجمعين : فتلقاهم هؤلاء بثياب الجبال ، وصلابة الحديد ، فلما دنوا منهم : جثى أصحاب الحسين — رضى الله عنه وعنهم أجمعين — « وأشرعوا الرماح نحوهم فلم تقدم خيلهم على الرماح ، فذهبت لترجع ، فرشقوهم بالنبل ، فصرعوا منهم رجالا ، وجرحوا منهم آخرين »(٦) .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٢٣ ، والمباهلة : الملاعنة ، ومعناها أن يجتمع القوم إذا اختلفوا فى شىء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا .

(٢ ، ٣ ، ٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٣٢ ، ٤٢٣ .

(٥) تاريخ الرسل والملول الطبرى : ٥ / ٥٣٥ .

(٦) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ٥ - ٤٣٠ .

وفى خلال ذلك : سقط اول شهيد من اصحاب الحسين — رضى الله عنه — وهو مسلم بن عوسجه رضى الله عنه ، وكان من أكثرهم ولاء له ، وصدقا فى نصرته ، وكان قبل ذلك مع مسلم بن عقيل بالكوفة ، وقد خرج معه فى قيادة مذحج وأسد ، لقتال ابن زياد ، واستنقاذ هانئ من أسره ، ففر عبيد الله بن زياد من المسجد ، واسرع إلى القصر فأغلق عليه أبوابه ، ثم لم يلبث أن تفرق الناس عن مسلم بن عقيل ، وانتهى الأمر بأخذه وقتله . واستطاع مسلم بن عوسجه الخروج إلى الحسين رضى الله عنهما ، وأصر على البقاء معه ، حين ناشدهم الانصراف عنه ، وقال له : « أنحن نخلى عنك . ولما نعذر إلى الله فى أداء حقك ؟ أما والله حتى أكسر فى صدورهم رمحى ، وأضربهم بسيفى ، ما ثبت قائمه فى يدى ، ولا أفارقك . : حتى أموت معك »(١) .

وحينما اقترب شمر بن ذى الجوشن — قبيل المعركة — من معسكر الحسين رضى الله عنه ، وصاح به متحديا : « أستعجلت النار فى الدنيا قبل يوم القيامة ؟ » . : عندئذ تقدم ابن عوسجه وقال للحسين — رضى الله عنهما — « يابن رسول الله : جعلت فداك ، إلا أرميه بسهم ؟ فإنه قد امكننى ، وليس يسقط منى سهم ، فالفاسق من أعظم الجبارين »(٢) . . ولكن الحسين قال له : لاترمى ، فإنى أكره أن ابدأهم بالقتال ! !

وظل مسلم بن عوسجة وفيا لعهده ، حتى كان أول من سقط فى الميدان دفاعا عن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى سارع إليه وبه رمق ، فقال له :

« رحمك ربك يامسلم بن عوسجة » . . ثم تلا قوله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » . . وتقدم إليه صاحبه — حبيب بن مظاهر — فقال له :

« عز على مصرعك يامسلم ، أبشر بالجنة » فأجابه — رضى الله عنه — بصوت خافت :

« بشرك الله بخير » : : وواصل حبيب حديثه إلى صاحبه قائلا :

« لولا أنى أعلم أنى على أثرك ، لاحق بك من ساعتى هذه ، لأحببت أن توصينى بكل ما همك ، حتى أحفظك فى كل ذلك ، بما أنت اهل له فى القرابة والدين » .

ولكن مسلما — رضى الله عنه — وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لم يكن يفكر فى نفسه ، أو فى أهله وولده وإنما كان الذى يشغل همه ، ويقلق باله ، هو سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه ، الذى ترك الأهل والولد فى سبيل نصرته ، وقدم حياته فداء لحياته . . وحرص على الموت دفاعا عنه ، لذلك أشار — رضى الله عنه — إلى حفيد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وقال لصاحبه : —

« أوصيك بهذا — رحمك الله — إلى أن تموت دونه »(٣) : فأجابه مطمئنا أباه : « أفعل ورب الكعبة . »

وتصايح أصحاب عمر بن سعد مفاخرين بقتل مسلم ، فرد عليهم واحد منهم قائلا :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٤١٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٧٧ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٥٢٤ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٤٣٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - ١٨٢ .

« أما والذى أسلمت له ، لرب موقف له قد رأيته فى المسلمين كريم : لقد رأيته يوم سلق أذربيجان قتل ستة من المشركين قبل تتام خيول المسلمين ، أفيقتل مثله وتفرحون »(١) ؟

عقر خيول أصحاب الحسين :

وحمى الوطيس ، واندفعت جموع من ميسرة عمر بن سعد فحملت على أصحاب الحسين — رضى الله عنه — فثبتوا لهم ، ودافعوا عنه دفاعا مجيدا ، فلم يستطع الأعداء — رغم كثرتهم — إليه سبيلا ، رغم مابذلوه من جهد ، وما أصابهم من خسائر ، وأخذت خيل الحسين — رضى الله عنه — لاتحمل على جانب من خيل الكوفة إلا كشفته ، رغم قلة عددهم ، حتى دب الخلل فى صفوف الكوفيين ، فلما رأى ذلك قائد فرسانهم ، وأن خيله تنكشف من كل جانب ، وترتد فى كل موطن ، بعث يشكو حاله إلى عمر ابن سعد ويقول له :

« أما ترى ما تلقى خيلى من هذه العدة اليسيرة ؟ . ابعث إليهم الرجال والرماة (٢) .

وقد كانت عدة فرسان الكوفة لاتقل عن ألف ، بقيادة الحر بن يزيد الذى انحاز فى اللحظة الأخيرة إلى الحسين — رضى الله عنه — ليقاتل فى صفه ، . . فى حين كانت عدة فرسان الحسين — عليه السلام — اثنين وثلاثين فارسا ، ولكن شعور الألف بباطلهم ، وإيمان الثلاثين بحقهم ، حول الأولين إلى قلة ، وزاد قوة الآخرين عفة . . ثمرة الإيمان بالحق ، والثقة بالله .

واضطر عمر بن سعد أن يستجيب للاستغاثة التى وصلته من فرسانه ، فبعث إليهم بخمسمائة من الرماة ، فأقبلوا . . حتى إذا دنوا من سيد شباب أهل الجنة وأصحابه ، رشقوا خيولهم بالنبل ، فلم تلبث حتى عقرت جميعها ، وصار جميع أصحاب الحسين — رضى الله عنه — راجلين .

* * *

ولقد كان عقر جميع الخيول — رغم قلة عددها — كافيا لانقلاب ميزان القوى بين هذه القلة المؤمنة ، وبين تلكم الكثرة الساحقة ، ولم يعد بالبعد أن تتمكن خيل أهل الكوفة وحدها من اكتساح هذه الحفنة ، ووطئها بالسنابك ، ولكن أصحاب الحسين — رضى الله عنه وعنهم — رغم فداحة الخسارة المادية ، فان ذلك لم يزدهم إلا استبسالا فى القتال ، واستماتة فى الذود عن عترة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، لقد ثبتوا فى مواقعهم كالرواسى الشامخات ، لم يتراجعوا خطوة ، ولم يتزحزحوا شبرة ، واستمروا فى مقاومتهم حتى انتصف النهار ، والألوف حولهم لايقدرون عليهم ، ولايستطيعون أن يأتوهم إلا من وجه واحد ، لاجتماع أبنيتهم ، وتقارب بعضها من بعض(٤) ، طبقا للخطة التى وضعها قائدهم الأكرم ، عليه السلام .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٣٣٦ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٣٣٦ .

(٣) المرجع السابق ، البداية والنهاية : - ١٨٢ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٤٣٨ .

محاولة تقويض البيوت واحراقها :

واستمر القتال سجالا بين الفريقين ، واضطر عمر بن سعد أن يرسل عدة من رجالة يقوضون بيوت الحسين — رضى الله عنه — عن إيمانهم وعن شمائلهم ، حتى يستطيعوا الاحاطة به وبمن معه ، ولكن أصحاب الحسين — رضى الله عنهم — حالوا دون الوصول إليها ، وقتلوا كل من اقترب منها فعمدوا إلى احراقها :، فقال الحسين — رضى الله عنه — « دعوهم فليحرقوها . فانهم لايستطيعون أجتيازها وقد أحرقت» وقد كان ذلك كذلك ، فاستمروا يقاتلونهم من وجه واحد :

وعظم غيظ القوم ، إذ رأوا أن هذه الحفنة القليلة مازالت تقاومهم بشدة ، ليس ذلك فحسب ، بل وتنال منهم ، وتفتك بهم ، فحمل شمر بن ذى الجوشن على فسطاط سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — وفيه أهل بيته من النساء والصبيان ، وحاول احراقه ، فتصدى له رجل من أهل الكوفة ، وقام له مستنكرا :

« . . أن هذا لايصلح لك . أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين ؟ تعذب بعذاب الله ، وتقتل الولدان والنساء » ؟ وصاح به آخر :.

« مارأيت فعالاأسوأ من فعالك ، ولا موقفا أقبح من موقفك ، أمرعبا للنساء صرت »[1] ؟ . . فاستحيا : وانصرف مذموما مدحورا . :

وشمر هذا هو من أكابر المقربين لابن زياد ، ومن ذى الرأى عنده ، ومواقفه كلها تنبئ عن مدى ماتفيض به نفسه من خسة ، وما ينحط إليه أصله من وضاعة ، وهو لشعوره بذلك ، يحقد على ذوى الأحساب العريقة تارة ، فينصح لابن زياد بأن لايقبل من الحسين رضى الله عنه إلا الاستسلام له ، . . ويحاول الظهور بمظهر القوة والقسوة ، وتارة أخرى ، حين تواتيه الفرصة وهو آمن على نفسه ، فيأمر هناك بقتل امرأة الكلبى غيلة حين كانت تبكى زوجها الشهيد ، ويحاول هنا مهاجمة المستضعفين من النساء من النساء والولدان ، وتحريق بيوتهم : وهو فى كل هذا وغيره من المواقف المشابهة ، خسة ودناءة ، يقدم صورة صادقة لأميره ابن زياد ، فكل قرين بالمقارن يقتدى ، . . بل يقدم صورة صادقة ليزيد ابن معاوية ، الذى أعرب لابن زياد عن شكره له وثقته فيه ، ورضائه عما اقترف من جرائم ، وسفك من دماء . !

* * *

وحل وقت الظهر : فطلب الحسين من القوم أن يكفوا عن القتال حتى ينتهوا من صلاتهم ، ولكنهم أبوا : وبالرغم من ذلك ، فقد صلى الحسين صلاة الخوف ببعض أصحابه فى الوقت الذى كان الآخرون يواصلون القتال . .

استشهاد قائد المسيرة :

ونظرا لقلة عدد أصحاب سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنهم — فقد كانوا الواحد منهم إذا قتل ظهر أثره واضحا فى صفوفهم ، فى حين أن مقتل العشرات من أهل الكوفة ، لم يكن ليظهر له أى

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٤٣٨ .

أثر لكثرتهم . حتى أن حبيب بن مظاهر ، كان يرتجز وهو يصول ويجول خلال المعركة ، ويقول مصورا هذه الحالة . ومفاخرا :

أقسم لو كنا لكم أعدادا أو شطركم وليتم أكتادا

ياشر قوم حسبا . . وآدا

وكان حبيب بن مظاهر ممن كاتبوا الحسين — رضى الله عنه — من أهل الكوفة ، يدعونه إلى القدوم عليهم ، ويقول له : لعل الله يجمعنا بك على الحق ، فلما جاءهم مسلم بن عقيل ليتعرف أحوالهم وحقيقة أمرهم ، قال له أحدهم (انى لاأخبرك عن الناس ، ولاأعلم مافى أنفسهم ، وما أغرك منهم . . وإنى محدثك عما أنا موطن نفسى عليه . . والله لأجيبنكم إذا دعوتم ، ولأقاتلن معكم عدوكم ، ولأضربن بسيفى دونكم ألقى الله ، لاأريد بذلك إلا ما عند الله » . .

وقام حبيب بعده ، فلم يزد على أن قال : « وأنا والذى لاإله إلا هو على مثل ما هذا عليه »(١)

ولقد وفى حبيب بعهده ، وكان فى مقدمة القلائل من أهل الكوفة الذين خرجوا للوقوف بجوار ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فولاه الحسين — رضى الله عنه قيادة ميسرته ، فأبلى أحسن البلاء إلى أن صرع صاحبه مسلم بن عوسجة ، وسمع منه وصيته وهو يشير إلى الحسين — رضى الله عنه يقول « أوصيك بهذا إلى أن تموت دونه » . . فأجابه : أفعل ورب الكعبة :

ولقد كان حبيب صادقا فى وعده الثانى لصاحبه ، كما كان صادقا ، فى وعده الأول لمسلم بن عقيل — كما كان كل من مع الحسين — عليه السلام — من الصادقين ، فقاتل — رضى الله عنه — قتالا شديدا ، واثخن فى العدو طعنا وضربا وقتلا ، وهو يرتجل قائلا :

أنا حبيب وأبى مظاهر فارس هيجاء وحرب تسعر

أنتم أوفر عدة . . وأكثر ونحن أوفى منكم . . وأصبر

ونحن أعلى حجة واظهر حقا وأتقى منكم وأطهر(٢)

وظل رضى الله عنه — فى كره وفره ، لايكل ولايمل ، حتى أصيب بطعنة من رمح فوقع ، وقبل أن ينهض من سقطته : عاجله آخر بضربة سيف ، وعمد إليه ثالث فاحتز رأسه .

وهكذا وفى حبيب بما عاهد الله عليه ، ودافع دون الحسين — رضى الله عنه — حتى الموت ، ولحق بصاحبه راضيا مرضيا ، وقد حزن عليه الحسين حزنا شديدا وقال حين علم باستشهاده : أحتسب نفسى وحماة أصحابى(٣) .

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٣٥٥ .

(٢) المرجع السابق : ٥ / ٤٣٩ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٤٠ .

استشهاد الحر .. وزهير :

وتقدم الحر بن يزيد — قائد فرسان ابن زياد — الذى أبت مروءته إلا أن ينصر الحق حين وضح لناظره ، فانضم إلى سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، واعتذر له عن موقفه منه وكان فارسا مغوارا ، وبطلا صنديدا ، فكر على أصحاب ابن زياد فقتل منهم رجلين ، ولقوا منه أشد النكال ، حتى أرسل إليهم عمر بن سعد خمسمائة من الرماة ، لعقر خيول الحسين — رضى الله عنه — فأصيب فرسه بسهم منهم ، فما لبث أن أرعد واضطرب وكبا ، فوثب عنه كأنه ليث ، والسيف فى يده ، وهو يقول متحديا :

أن تعقروا بى فأنا ابن الحر　　أشجع من ذى لبد هزبر (١)

فلما استشهد حبيب بن مظاهر ، انبرى الحر بن يزيد ومعه زهير بن القين ، فقاتلا قتالا شديدا بين يدى الحسين — رضى الله عنه — وأخذ الحر يرتجز :

آليت لا تقتل حتى أقتلا　　ولن أصاب اليوم إلا مقبلا

أضربهم بالسيف ضربا مقصلا　　لا ناكلا عنهم ولا مهللا (٢)

واستمر البطلان فى كفاحهما المجيد ساعة من زمان ، فكان إذا أشد أحدهما على العدو حتى استلحم به ، شد الآخر عليهم فخلصه ، حتى حمل على الحر بن يزيد جماعة من رجال الكوفة ، فسقط — رضى الله عنه — شهيداً .

* * *

وواصل زهير قتاله بين يدى سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، ببسالة واستماتة وهو يردد مفاخرا بموقفه :

أنا زهير . . وأنا ابن القين　　أذودهم بالسيف عن حسين

وزهير هذا هو الذى جمعته الصدفة فى الطريق من الحج ، بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى فى وجهه من نور النبوة ماحمله على مفارقة أهله وطلاق امرأته ، ومرافقة الحسين — رضى الله عنه ، فلما عرض الحسين على أصحابه الانصراف متلفعين بالظلام ، أبى زهير وقال :

« والله لوددت أنى قتلت ثم نشرت ، ثم قتلت ، حتى أقتل كذا ألف قتله ، وإن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك ، عن أنفس هؤلاء الفتية من اهل بيتك »(٣) .

وما زال — رضى الله عنه — دائماً فى أول المجاهدين ، حتى سقط أصحابه الثلاثة الذين سبقوه إلى الشهادة ، فلم يزده ذلك إلا استبسالا فى الكفاح ، وشوقاً إلى الشهادة ، فأخذ يضرب على منكب سيد شباب أهل الجنة ويقول مبشراً له بلقاء الأحبة : . محمد وصحبه :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٣٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٢ . والهزبر : الأسد القوى .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٤١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٣ .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٢٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٧٧ .

اقدم : هديت هاديا مهديا فاليوم تلقى جدك النبيا
وحسناً والمرتضى عليا وذا الجناحين الفتى الكميا
وأسد الله الشهيد الحيا (١)

وما زال يقاتل ويكافح ، حتى شد عليه اثنان من جند ابن زياد فقتلاه ، فلحق — رضى الله عنه — بأصحابه ، وقد صدق ما عاهد الله عليه . .

استشهاد نافع بن هلال الجملي :

وتتابعت صور الفداء . . ومشاهد البطولة والوفاء . .

هذا هو نافع بن هلال . . أحد الأربعة الذين خرجوا من الكوفة ، مع الطرماح بن عدى ، لمقابلة سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، وحاول الحر منعهم ، فلم يقدر ، وقد صاحب الحسين عليه السلام إلى كربلاء ، وكان حامل لواء الجماعة التى بعث بها ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاثين فارساً وعشرين راجلا ، لإحضار المياه التى منع منها النساء والأطفال ، فقاوم رجال ابن زياد الذين حاولوا اعتراضهم ، حتى ملئت القرب ، ثم حمل عليهم مع العباس بن على — رضى الله عنهما — فردهم على أعقابهم .

وعاد نافع ليسجل صورة فريدة فى وقوفه دون سيد شباب أهل الجنة ، فقد أعد أسهماً مسمومة ، كتب اسمه عليها ، وجعل يرمى بها القوم هنا وهناك ، فلا يخطئهم ، وهو يقول :

« أنا الجملى . . أنا على دين على » ، حتى قتل أثنى عشر من أصحاب عمر بن سعد ، بخلاف كثير بن أصيبوا بجراح خطيرة . . فتربص به القوم . . وتكاثروا عليه ، فضربوه إلى أن كسرت عضداه ، وحمل أسيراً إلى عمر بن سعد ، فقال له :

« ويحك يانافع ، ما حملك على ما صنعت بنفسك » ؟ .

ولم يبال نافع — وهو فى قبضة أعدائه الذين قتل منهم العديد من الرجال — بما ينتظره من نكال ، فأجابهم متحدياً ، والدماء تسيل منه وتخضب لحيته :

« إن ربى يعلم ما أردت ، والله لقد قتلت منكم أثنى عشر سوى من جرحت وما ألوم نفسى على الجهد ، ولو بقيت لى عضد وساعد ما أسرتمونى »(٢) .

وانتضى شمر بن ذى الجوشن سيفه ليجهز على البطل ، بأمر عمر بن سعد ، ولكن ذلك لم يغير من موقفه ، فظل ثابت القلب ، رابط الجأش ، وهو يقول لشمر :

« أما والله لو كنت من المسلمين ، لعظم عليك أن تلقى الله بدمائنا ، فالحمد لله الذى جعل منايانا على يد شرار خلقه »(٣) . . فقتل رحمه الله ، ولحق بمن قبله من شهداء الحق . رضى الله عنهم أجمعين .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٤١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٤ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٤١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٤ .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٤٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٤ .

مسيرة الشهداء :

وحمى وطيس المعركة ، وحمل رجال ابن زياد على الحسين — رضى الله عنه — ومن معه من كل جانب ، وتكاثروا عليهم ، حتى كادوا أن يصلوا إليه ، لولا تنافس أصحابه فى الذود عنه ، والاستشهاد بين يديه :

ودنا من سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — فتيان يبكيان : أنهما ابنا عم ؛ سيف بن الحارث ابن سريع ، ومالك بن عبد بن سريع ، وقد دفعت بهما النخوة والمروءة إلى الانضواء تحت لواء حفيد سيد المرسلين ، حرصاً على افتدائه بكل مرتخص وغال :

ورأى الحسين — رضى الله عنه — بكاء الفتيين . فقال لهما :

« أى ابنى أخى : ما يبكيكما ؟ فوالله أنى لأرجو أن تكونا عن ساعة قريرى العين » :

فأجاب الفتيان : « جعلنا الله فداك : . لا والله ما على أنفسنا نبكى ، ولكنا نبكى عليك ، نراك قد أحيط بك ، ولا نقدر أن نمنعك » . فقال رضى الله عنه :

« جزاكما الله يابنى أخى بوجدكما من ذلك ، ومواساتى إياى بأنفسكما أحسن جزاء المتقين »(١) .

فودعاه قائلين : السلام عليك يابن رسول الله ، وقاتلا حتى قتلا .

* * *

وتقدم حنظلة بن أسعد بين يدى الحسين — عليه السلام — ، وقد رأى الأحداث تزداد شدة ، فأخذ ينادى فى رجال ابن زياد يعظهم ، ويذكرهم بمقام ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعظم ما هم مقدمون عليه . . ولكن الحسين — رضى الله عنه — قال له :

« رحمك الله ، أنهم قد استوجبوا العذاب حين ردوا عليك ما دعوتهم إليه من الحق : فكيف بهم الآن وقد قتلوا أخوانك الصالحين ؟ » . قال صدقت : جعلت فداك ، أنت أفقه منى وأحق بذلك ، أفلا نروح إلى الآخرة ونلحق بأخواننا ؟

فلم يتردد الحسين — عليه السلام — فى الرد ، لقد كان سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — موقناً بما ينتظره وينتظر أصحابه عند الله ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فأجاب حنظلة مؤكداً : « رح إلى خير من الدنيا وما فيها ، وإلى ملك لا يبلى » : : فرد عليه حنظلة مودعاً :

« السلام عليك أبا عبد الله ، صلى الله عليك وعلى أهل بيتك ، وعرف بيننا وبينك فى جنته »(٢) .

وتقدم فقاتل حتى استشهد :

* * *

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٤٣ .

(٢) المرجع السابق .

وهذا هو عابس بن أبي شبيب ، الذى كان ممن عاهدوا مسلم بن عقيل على أن يضرب بسيفه دون الحسين – رضى الله عنه – وأهل بيته ، حتى يلقى الله ، لا يريد بذلك غير وجه الله .

ولقد صدق الرجل ما عاهد الله عليه ، وكان من أشجع الناس وأشدهم بطشاً وقوة ، فقاتل بكل ما فيه من بأس ، حتى أصيب فى جبينه ، فتقدم إلى سيد شباب أهل الجنة ، والدماء تسيل منه . . فسلم عليه وقال :

« يا أبا عبد الله : أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد ، أعز على ولا أحب إلى منك ، ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم أو القتل بشىء أعز على من نفسى ودمى لفعلت ، السلام عليك يا أبا عبد الله ، أشهد أنى على هديك وهدى أبيك »(١) .

واندفع البطل نحو القوم شاهراً سيفه ، وهو يتحدى قائلا : ألا رجل لرجل ؟ ألا أبرزوا لى . . ، ولكن الناس هابوه ، لما يعلمونه من قوة بأسه ، وشدة مراسه . . فتراجعوا عنه خوفاً من بطشه ، وهم يتصايحون قائلين :

هذا الأسد الأسود . . هذا ابن أبى شبيب . . لا يخرجن إليه أحد منكم ! !

وعمد الناس إلى الحجارة يرضخونه بها من كل جانب ، فلما رأى ذلك ، ألقى بدرعه ومغفره جانباً ، ثم شد على الناس وهم مئات ، فأخذ يكردهم (يزحمهم) بيديه ، وأخيراً . . عطفوا عليه من كل صوب ، فسقط رحمه الله شهيداً . . كريماً ، وكل يدعى قتله ، ويتخاصمون فيه ، لولا أن قال لهم عمر بن سعد :

« لا تختصموا فيه . . فإنه لم يقتله سنان واحد »(٢) !

* * *

وهذا هو أبو الشعثاء الكندى ، وكان قد خرج مع عمر بن سعد ، لمحاربة الحسين(٣) ، فلما سمع ما قاله ، وعلم برفض ابن زياد لما عرضه من خصال ، وضح له الحق ، فانضم إلى الحسين رضى الله عنه ، وجثا بين يديه ، – وكان من أمهر الرماة – فرمى بمائة سهم ، وفى كل مرة يدعو له الحسين رضى الله عنه قائلا : –

« اللهم سدد رميته ، وأجعل ثوابه الجنة »(٤) .

فلما انتهى من رميه قال : ما سقط منها إلا خمسة أسهم ، ولقد تبين لى أنى قتلت خمسة نفر . . ثم تقدم فقاتل بسيفه حتى قتل .

وتتابع سقوط الشهداء . . ، ولم يبق حول الحسين – رضى الله عنه – من أصحابه إلا عدد قليل ، يأتونه مثنى وفرادى ، فيسلمون عليه ويقولون له :

(١ ، ٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٤٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٥ .

(٣) افادة الأخيار للعلامة التبانى : ٢٢٠ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٤٥ .

« أبا عبد الله : عليك السلام ، حازنا العدو إليك ، فأحببنا أن نقتل بين يديك ، وندفع عنك »

فيجيبهم — رضى الله عنه — قائلا :

« مرحباً بكم ، جزاكم الله أحسن جزاء المتقين » . . ثم يسلمون عليه مودعين ، ويقاتلون حتى يقتلوا . . . وهكذا حتى استشهدوا جميعاً ، ولم يبق من أصحابه إلا سويد بن عمرو بن أبي المطاع (١) .

وهكذا . . سقط الأبطال جميعاً ، وقد سطر كل منهم من صور البطولة والفداء ، ما تحار فيه الألباب ، وما يعيد إلى الأذهان ذكرى المواقف الخالدة للصحابة الكرام ، في غزواتهم مع أشرف الأنام ، رضى الله عنهم أجمعين .

أول شهداء أهل البيت :

ولم يبق حول سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — إلا أبناؤه وأهل بيته .

وانبرى على الأكبر — ابن الحسين رضى الله عنهما وأمه ليلى ابنة أبي مرة الثقفي ، وكان من أبر أبناء الحسين — عليه السلام — ب ، وأكثرهم مواساة له ، وحرصاً عليه ، فأخذ يقى أباه تارة ، ويدرأ عنه ، ويدافع عنه دفاعاً مجيداً ، وتارة أخرى يشد على القوم شدة البطل الصنديد ، وهو يقول مفاخراً بكفاحه عن أبيه . . علم المهتدين ، وإمام المتقين :

أنا على بن الحسين بن على   نحن وبيت الله أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعى (٢)   كيف ترون اليوم ستري عن أبي؟

بل لقد كان — رضى الله عنه — في كفاحه الباسل ، فخوراً بما أكرمه الله به من اتصال بشجرة النبوة والرسالة ، فرحاً بما يترقبه من شهادة وكرامة ، حتى أنه — رغم هول الموقف ، وانقطاع الأمل ، كان في كره وفره ، وسيفه مصلت في يده ، ينشد قائلا :

أنا ابن على الحبر من آل هاشم   كفاني بهذا فخراً حين أفخر
وجدى رسول الله أكرم من مشى   ونحن سراج الله في الناس يزهر
وفاطمة أمي من سلالة أحمد   وعمى يدعى ذو الجناحين جعفر
وفينا كتاب الله أنزل صادقاً   وفينا الهدى والوحي والخير يذكر (٣)

واستمر — رضى الله عنه — على هذه الحال ساعة من الزمان ، حتى أثار ثائرة القوم ، وملأ قلوبهم غيظاً عليه ، فبصر به (مرة بن منقذ العبدى) فأقسم لو مر به يفعل مثل ما كان يفعل أن يثكله أباه . . . ولم يمض قليل حتى أقبل على الأكبر يشد على الناس بسيفه فاعترضه الشقي بطعنة أوقعته على الأرض . . . وحمل عليه الرجال بسيوفهم من كل جانب ، فقطعوه ارباً . .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٤٦ .

(٢) ابن الدعى : يقصد به عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان ، وكان زياد مجهول النسب في الجاهلية ، ويدعى ابن أبيه ، إلى أن أقر معاوية ببنوته لأبي سفيان .

(٣) الصواعق المحرقة : لابن حجر الهيتمى : ص ١٩٧ .

وقد كان لمقتل على الأكبر بهذه الصورة أعمق الأثر فى نفس ابيه — رضى الله عنهما — لما كان يتوسمه فيه من نبل فى السجايا ، وعلو فى الهمة ، وغير ذلك من الصفات السامية التى تربى عليها شباب أهل البيت المطهر ، واشتهروا بها . . ، فلم يملك الحسين — رضى الله عنه — وقد فجعته المصيبة إلا أن يقول : « قتل الله قوماً قتلوك يابنى ، ما أجرأهم على الرحمن ، وعلى انتهاك حرمة الرسول ، فعلى الدنيا بعدك العفاء »(١) .

ورأت السيدة زينب مصرع ابن شقيقها — رضى الله عنهما — فلم تتمالك أن اندفعت من خبائها ، وهى تصيح صيحات الفجيعة والألم : يا أخياه . . ويابن أخاه . . ، وألقت بنفسها عليه تحتضنه وتقبله ، فجاء الحسين — رضى الله عنه — فأخذ بيدها ، فأعادها إلى فسطاطه ، وأمر بابنه الشهيد فحول إليه .

كفاح شباب أهل البيت :

وكان مصرع على الأكبر — رضى الله عنه — إيذاناً بتفاقم البلاء الذى كتبه الله على أهل البيت ، وتتابع سقوط الشهداء منهم ، الواحد بعد الآخر .

هذا هو عبد الله بن مسلم بن عقيل — رضى الله عنهما ، يصاب بسهم فى جبهته ، فلا يكاد يضع كفه عليها ، حتى يعاجله الرامى بسهم يخرق قلبه .

* * *

وتقدم محمد بن عبد الله بن جعفر إلى الميدان ، بنافح عن عميد أهل البيت رضى الله عنه ، ويدافع دفاع الأبطال ، ويضرب بسيفه عن يمينه وشماله . وهو يقول :

أشكو إلى الله من العدوان فعال قوم فى الردى عميان
قد بدلوا معالم القرآن ومحكم التنزيل والتبيان (٢)

واستمر رضى الله عنه ، يثخن فى القوم ضرباً وطعناً ، حتى تعاطفوا عليه فقتلوه .

* * *

ورأى عون الأكبر بن عبد الله بن جعفر من السيدة زينب — رضى الله عنهم أجمعين — رأى اخاه مجندلا ، فاندفع نحو القوم اندفاع الليث الغضبب ، وهو ينشد قائلا :

إن تنكرونى فأنا ابن جعفر شهيد صدق فى الجنان أزهر
يطير فيها بجناح أخضر كفى بهذا شرفاً فى المحشر (٣)

وظل البطل الشاب يصول ويجول ، ويقتحم الرجال ، ويصد الفرسان ، ويصرع الصناديد حتى أصيب فى النهاية بضربة سيف سقط بعدها شهيداً .

* * *

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٤٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٥ .
(٢ ، ٣) العقيلة الطاهرة : لفضيلة الشيخ أحمد فهمى مأمون : ص ٢٠ ، ٢١ .

وتتابع سقوط الشهداء من فتيان أهل البيت رضى الله عنهم . . ولكل منهم من مواقف البسالة وآيات البطولة ، ما لا يدرك وصفه ، ولا يمكن حصره .

هذا هو عبد الرحمن بن عقيل . . يواصل الكفاح الذى بدأه أخوه عبد الله ولا يلبث أن يحظى بما حظى به من الموت والشهادة ، ثم لا يمضى قليل حتى يلحق بهما ثالثهم جعفر بن عقيل بن أبى طالب ، رضى الله عنهم وعن أبيهم أجمعين . .

وبالرغم من استشهاد الكثيرين من فتيان أهل البيت ، فان ذلك لم يزد الآخرين منهم إلا تنافساً فى القتال ، وتسابقاً نحو الشهادة ، حتى سقط أكثرهم سقوط الأبطال فى ميدان الشرف والنضال ، وهم يقاتلون ببسالة منقطعة النظير ، ويفتدون سيد شباب أهل الجنة بكل مرتخص وغال . .

وواصل البقية الباقية من شباب أهل البيت ، كفاح الموت والحياة ، فتقدم القاسم بن الحسن بن على — رضى الله عنهما — وهو غلام وجهه كالقمر ليلة البدر — وقد شهر سيفه دفاعاً عن عمه ، فشد عليه أحد الفرسان — وقيل هو عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى — فضربه بالسيف على رأسه فوقع الغلام لوجهه ، وصاح مستغيثاً : واعماه . . ! !

« فجلى الحسين — رضى الله عنه — كما يجلى الصقر ، ثم شد شدة ليث غضب ، فضرب عمرا بالسيف فاتقاه بالساعد ، فأطنها من لدن المرفق ، فصاح ثم تنحى عنه ، وحملت خيل لأهل الكوفة ليستنقذوا عمرا من الحسين — عليه السلام — ، فاستقبلت عمرا بصدورها ، فحركت حوافرها ، وجالت الخيل بفرسانها عليه ، فوطأته حتى مات ، وانجلت الغبرة ، فاذا بالحسين — رضى الله عنه — قائم على رأس الغلام ، والغلام يفحص برجليه ، والحسين يقول : بعدا لقوم قتلوك . . عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك ثم لا ينفعك ، صوت والله كثر واتره وقل ناصره »(١) .

واحتمل الحسين — عليه السلام — ابن أخيه الصريع على صدره ، حتى وضعه بجوار ابنه على الأكبر ، ومن استشهدوا من أهل البيت .

وفى رثاء ذلكم الشباب المطهر . . يقول الشاعر :

عين جودى بعبرة وعويل ... واندبى أن بكيت آل الرسول
واندبى تسعة لصلب على ... قد أصيبوا . . وستة لعقيل
واندبى إن ندبت عوناً أخاهم ... ليس فيما ينوبهم بخذول
وسمى النبى . . غودر فيهم ... قد علوه بصارم مصقول
فاذا ما بكيت عينى فجودى ... بدموع تسيل كل مسيل (٢)

* * *

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٤٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٦ .

(٢) البداية والنهاية : ٨ / ١٨٩ والعقيلة الطاهرة لفضيلة الشيخ أحمد فهمى محمد : ص ٢١ . وسمى النبى صلى الله عليه وسلم : هو محمد بن عبد الله بن جعفر . أو هو القاسم بن الحسن ، رضى الله عنهم أجمعين .

واستمر ابن بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى نضاله ، وقد سقط حوله كل أصحابه وأكثر آهل بيته ، ومع ذلك : فانه لم يهن ولم يحزن ، لقد ظل كالطود الشامخ فى موقفه ، لا تصل إليه جماعة إلا وترتد عنه ، هيبة أو رهبة ، حتى ضربه مالك بن البشير بالسيف ضربة شديدة ، قطعت البرنس الذى يغطى رأسه ، فامتلأ البرنس دماً ، فألقاه رضى الله عنه جانباً ، ودعا بعمامة فلبسها : :

وبدأ سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – يشعر بقواه وقد بدأت تخور ، لما بذل من جهد جبار ، ولما نزف من دمائه الشريفة ، فأقبل إلى فسطاطه فقعد إلى بابه يلتمس بعض الراحة ، ثم دعا بصبى صغير من أبنائه ، هو عبد الله بن الحسين ، فأجلسه فى حجره ، ثم جعل يقبله ويشمه ، وكأنه يودعه ، وبينما هو يوصى إلى أهل بيته ، وإذا بسهم يصيب الصبى البرىء اصابة قاتلة ، وهو فى حجر والده ، وإذا بدمائه تتفجر ، فيتلقاها الحسين رضى الله عنه ، ويلقى بها نحو السماء مناشداً ربه ، وقد بلغ الحزن منه كل مبلغ :

« رب إن تك حبست عنا النصر من السماء ، فاجعله لما هو خير ، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين »(١) .
ولكن البلاء تتابع وتفاقم ، وكان عظيماً بقدر عظم إيمان الحسين رضى الله عنه ، ومقامه عند الله تعالى :

دعـاء الحسين على الظالمين :

فقد واصلت البقية الباقية من شباب أهل البيت كفاحها ، وهم يسقطون واحداً بعد الآخر بين يدى الحسين رضى الله عنه ، فأصيب أبو بكر بن الحسن – رضى الله عنهما – بسهم أرداه قتيلا ، وتبعه خمسة من اخوة الحسين هم عبد الله ، والعباس ، وعثمان ، وجعفر ، ومحمد ، أبناء على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم أجمعين ، استشهدوا جميعاً الواحد بعد الآخر ، وهم يناضلون عن شقيقهم الأكبر ، ويفتدونه بدمائهم وأرواحهم :

واشتد العطش بالحسين رضى الله عنه ، – وقد منعه رجال ابن زياد من الفرات منذ وصولهم – فجاهد رضى الله عنه للوصول إليه ، وهم يحاولون منعه ، حتى خلص إلى شربة منه ، ولكن القوم – فى قسوة قلوبهم – ابو عليه أن يهنأ بهذه القطرات من المياه ، فرماه أحدهم – وهو الحصين بن تميم – بسهم فى حنكه ، فانتزعه الحسين – عليه السلام – وقد فار الدم من مكانه ، فتلقاه بيديه ، ورفعهما إلى السماء ، وأخذ يدعو عليهم دعاء بليغاً ، ويقول : « اللهم انى أشكو إليك ما يفعل بابن بنت نبيك ، اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تذر على الأرض منهم أحداً »(٢) .

كلب أبقع يلغ فى دماء أهل البيت :

ولم يقف القوم ، فى إيذائهم للحسين رضى الله عنه ، عند هذا الحد من تقتيل أصحابه وأهل بيته ، بل تعدوه إلى تكرار محاولتهم الدنيئة ، للوصول إلى منزله الذى به نساؤه وعياله ، ولكن الحسين رضى الله عنه صاح بهم موبخاً :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : ٥ / ٤٤٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٧ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : ٥ / ٤٤٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٧ .

« ويلكم . . . : إن لم يكن لكم دين ، وكنتم لا تخافون يوم المعاد ، فكونوا فى أمر دنياكم أحراراً وذوى أحساب . . . امنعوا أهلى ورحلى من طغامكم وجهالكم . . »(١) .

وكان قائد ذلكم النفر هو شمر بن ذى الجوشن ، الذى كان قائد النفر الأول فى المحاولة الأولى ، وكما استخزى فى المرة الأولى ، فانه كان كذلك فى الثانية ، فرد على الحسين — رضى الله عنه — قائلا : ذلك لك يابن فاطمة . . .

وارتد القوم عن رحل الحسين — عليه السلام — واتجهوا إليه ، وقد كاد أن يكون وحيداً فى الميدان بعد أن استشهد معظم أصحابه ، وفتيانه من أهل البيت .

وأحاطت الجموع بسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — وأخذ شمر يحرضهم على قتله ، وهم لا يزدادون إلا تردداً وإحجاماً ، كل منهم يتمنى لو كفاه الآخرون مؤونة ذلك الإثم ، الذى « تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا . . » .

ومضت ساعة والقوم فى حيرة من أمرهم . . كل منهم يحرض الآخر على الإقدام ، وكل منهم لا يجد الشجاعة الكافية لذلك . . . ! !

هذا هو شمر بن ذى الجوشن يمر بأبى الجنوب عبد الرحمن الجعفى ، وهو شاك فى السلاح ، فيقول له محرضاً إياه على مهاجمة الحسين : « أقدم عليه » ! ! فلا يتردد الرجل أن يجيبه مستنكراً : « وما يمنعك أن تقدم عليه » ؟ !

فأجابه شمر : محاولا إخفاء ضعفه وجبنه خلف ستار من التجبر والكبرياء :

« إلى تقول ذا » ؟ . . . فأجابه الرجل بمثل قوله :

« وأنت لى تقول ذا » . . . ؟

وتطور الحديث بينهما حتى سب كل منهما الآخر ، وبلغ الغضب بأبى الجنوب — وكان مشهوراً بالشجاعة — أن قال لشمر مهدداً :

« والله لقد هممت أن أخضخض السنان فى عينك »(٢) : : . . . فلم يسعه إلا الانصراف عنه ، وهو يتوعده وينذره .

* * *

وعاد شمر إلى رجاله يحرضهم على قتل حفيد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، ويصيح بهم :

ويحكم : : ماذا تنتظرون بالرجل ؟ أقتلوه . . . ثكلتكم أمهاتكم . . . ! !

ونظر سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — إلى شمر ثم قال :

« صدق الله ورسوله . . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كأنى أنظر إلى كلب أبقع يلغ فى دماء أهل بيتى »(٣) . . . : وقد كان شمر — قبحه الله — أبرص . . . !

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٧ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٠ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٨ .

رسالة الحسين .. في لحظاته الأخيرة :

ارتفعت حرارة المعركة الضارية إلى أوجها ، حين حمل الرجال على سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه وعن أصحابه وأهل بيته أجمعين — ، وقد وقف فيهم كالأسد الهصور ، يقاتل وحده جيشاً جراراً ، وهو مع كل ذلك : رابط الجأش ، ثابت الجنان .

عز على غلام صغير من غلمان أهل البيت — هو عبد الله بن الحسن — وله من العمر إحدى عشرة سنة ، أن يرى عمه في الميدان وحيداً ، فانفلت مقبلاً نحوه ، وجاء ليجاحف عنه ، وخرجت خلفه السيدة زينب رضى الله عنها ، محاولة منعه ، . . وصاح بها الحسين — رضى الله عنه بأمرها بحبسه ، ولكن الغلام النبيل أبى إلا أن يذود عن عمه قدر استطاعته ، وفى خلال ذلك أهوى أحد الأشقياء إلى الحسين بالسيف . فصاح به الغلام : يابن الخبيثة : أتقتل عمى ؟ فضربه الشقى بالسيف فاتقاه الغلام بيده فأطنها إلا الجلدة ، فصاح : يا أبتاه . . فأخذه الحسين — رضى الله عنه — فضمه إلى صدره وقال له :

« يا بنى : أصبر على ما نزل بك ، واحتسب أجرك عند الله ، فانك تلحق بآبائك الصالحين »(١) ، ثم رفع — رضى الله عنه رأسه إلى السماء داعياً . .

« اللهم أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم بركات الأرض ، اللهم فان متعهم إلى حين ، ففرقهم فرقاً ، واجعلهم طرائق قدداً » .

وواصل الرجال حملتهم من كل جانب على ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشد على من عن يمينه حتى اندحروا ، وشد على من عن شماله حتى تفرقوا ، وظل — رضى الله عنه — ثابت الجنان ، يتقى الرمية ، ويفترص العورة ، ويصد الخيل ، . . كل ذلك : رغم نكبته بقتل أولاده وأهل بيته وأصحابه ، ورغم ما يعانيه من عطش ، وما أصابه من جراح ، ونزف من دماء ، . . وكأنه — رضى الله عنه — لم يكن في الميدان فرداً واحداً ، بل كان جيشاً مغازياً . « ولولا ما كادوه به من أنهم حالوا بينه وبين الماء ، لم يقدروا عليه ، إذ هو الشجاع القرم ، الذى لا يزول ولا يتحول(٢) .

وخلال هذه الصورة الرائعة للإيمان بالله ، والموقف الخالدة للفروسية والبطولة ، التى لم يشهد تاريخ البشرية مثلها ، لا قبلها ولا بعدها ، كان سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه لا يفتأ عن نصح القوم ، مبيناً لهم خطورة ما هم مقدمون عليه ، وسوء عاقبة ما هم مقترفون له ، سواء كان ذلك فى الدنيا ، أم كان ذلك فى الدار الآخرة ، إذ يقول لهم :

« أعلى قتلى تحابون ؟ أما والله لا تقتلون بعدى عبداً من عباد الله أسخط عليكم بقتله منى ، . . وأيم الله إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم ، ثم ينتقم الله لى منكم من حيث لا تشعرون ، أما والله لو قد

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : ٥ - ٤٥١ ، البداية والنهاية ٨ / ١٨٧ .

(٢) الصواعق المحرقة : لابن حجر الهيتمى : ص ١٩٧ .

قتلتموني لقد ألقى الله بأسكم بينكم ، وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى لكم بذلك حتى يضاعف لكم العذاب الأليم »(١) .

استشهاد سيد شباب أهل الجنة :

ولكن هيهات : لقد كتبت الشقاوة على القوم ، فطمس الله على أبصارهم ، وربط على قلوبهم ، فذهبت صيحات سيد شباب أهل الجنة هباء ... واستطاع زرعة بن شريك أن يصيب ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بضربة على كتفه ، وبالرغم من شدتها : فقد ضربه الحسين رضى الله عنه — على عاتقه فصرعه(٢) ... وتفرق القوم عنه وقد خافوا شدة بأسه ، ثم أرغموا على العودة إليه ، وقد شجعهم ما رأوه من ظهور الإعياء عليه ، بتأثير الضربة الشديدة التى أصابت كتفه ، حتى انه لينوء ويكبو .. فحمل عليه سنان بن أنس ... فطعنه بالرمح ، فوقع رضى الله عنه إلى الأرض ، فتقدم إليه أشقى القوم فاحتز رأسه الشريف ، وتقاسم القوم سلبه وأمواله وحواصله ، ومحتويات خبائه ، حتى ما كان على نساء أهل البيت من الثياب الظاهرة .

وقد وجد فى جسده — رضى الله عنه — ثلاث وثلاثون طعنة من رمح ، وأربع وثلاثون ضربة من سيف(٣) .!!

وكان استشهاده — رضى الله عنه يوم الجمعة العاشر من المحرم سنة إحدى وستين ، وذلك بعد تولية يزيد بن معاوية بستة أشهر ، وله من العمر ٥٦ عاما ، وقيل ٥٨ عاما .

وقد كان موعده — رضى الله عنه — مع ربه « بين الظهر والعصر ، لأنه صلى صلاة الخوف بأصحابه ظهراً »(٤) .

آخر الشهداء ..!!

ويأبى الله إلا أن يختم هذه المأساة الدامية ، بصورة من أروع صور الفداء فى سبيل الله ، والوفاء لابن بنت رسوله ... فلقد كان سويد بن أبى المطاع آخر من بقى من أصحاب الحسين معه ، فظل بجواره حتى أثخن بالجراح ، وسقط مغشياً عليه ، وظنه الناس فى القتلى ... وبعد انتهاء المعركة .. أفاق سويد مما أصابه ، وسمع أصوات جند ابن زياد وهم يتصايحون مفاخرين بمقتل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه ، فتفقد سيفه فلم يجده وعثر على سكين فأخذه وبرز إليهم فقاتلهم وأثخنهم طعناً وضربا ، حتى تحاملوا عليه من كل جانب فقتلوه ، رضى الله عنه .

هزيمة المنتصرين !

وإن من أعجب الظواهر فى هذه المعركة ، أنها وإن انتهت باستشهاد الحسين — رضى الله عنه — وجميع من كانوا معه ، وعدتهم اثنان وسبعون رجلا ، إلا أن هذه الخاتمة كانت فى حقيقة أمرها —

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى ٥ / ٤٥٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ / ٢٠٣ .

(٣) الطبرى ٥ / ٤٥٣ ، البداية والنهاية : ٨ / ١٨٨ .

(٤) تذكرة خواص الأمة فى معرفة الأئمة ، لسبط الجوزى ص : ١٤٦ .

حتى من ناحية الخسارة العددية — هزيمة منكرة لجيش ابن زياد ، لأن هذه الحفنة من أصحاب الحسين — رضى الله عنه — وأهل بيته ، وقد كانت تواجه جيشاً جراراً تعداده خمسة آلاف من الفرسان والرجال : لم تلق مصرعها إلا بعد أن أصابت من تلكم الكثرة الجارفة التى كانت تحاربها ، أضعاف عددها ، حيث بلغ عدد القتلى من أهل الكوفة : ثمانية وثمانين رجلا ، بخلاف مئات آخرين من الجرحى(١) .

ومن ناحية أخرى : فإنه وإن لم يفلت من أبناء الحسين — رضى الله عنه — سوى ولده على الأصغر (المسمى زين العابدين) الذى اقتضت رحمة الله بعباده أن ينقذه من القتل ، استمراراً لذرية النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبقاه لروح الشمم والاباء ، والجرأة فى الحق ، والشجاعة البطولية فى ميادين القتال ، كى يستمر سريانها فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، فى صورة مناهضة للباطل ، أونصرة للحق ، أو دفاع عن الحرية والكرامة ، يقوم بها من حين لآخر : أحفاد أكرم الشهداء ، على مر السنين والأعوام . . نقول : انه وإن لم يفلت من أبناء الحسين سوى ذلك الغلام ، — رضى الله عنهم — فلقد بارك الله فى نسل سيد شباب أهل الجنة ، بحفظه هذا الغلام الوحيد من المصير الذى انتهى إليه جميع اخوته ، فقد أنجب عشرة من الذكور ، تكاثروا قرناً بعد قرن حتى انتشروا فى كل الآفاق ، فالحسينية كلها من ذريته(٢) . . فى حين كان ليزيد بن معاوية خمسة عشر ذكراً ، وخمس بنات ، انقرضوا جميعاً ، فلم يبق ليزيد عقب(٣) ، وما ربك بظلام للعبيد .

أما ما أصاب المعتدين من الخسران المبين ، فقد أوضحناه تفصيلا فى الفصل التاسع من هذا الكتاب ، وفى ذلك « ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

ما بعد المعركة :

ولقد اقتضت حكمة المولى عز وجل ، فى رعايته لعلى الأصغر (زين العابدين) أن يمرضه فى تلكم الظروف العصيبة ، ليحول بينه وبين الأخطار التى تعرض لها اخوته وأبناء عمومته ، والتى انتهت بقتلهم جميعاً ، وفيهم من هو دونه فى السن ، كما كان ذلك المرض سبباً فى نجاته من فتك رجال ابن زياد الذين اقتحموا سرادق الحسين — رضى الله عنه — وفى مقدمتهم شمر ابن ذى الجوشن ، وهموا بقتله ، لولا مرضه من ناحية ، وأن قيض الله له من ناحية أخرى من يقف فى وجه شمر ، فيقول له مستنكراً : سبحان الله ! ! أتقتل الصبيان ؟ إنما هذا صبى ، وما زال به حتى جاء عمر بن سعد فقال : « ألا لا يدخل بيت هؤلاء النسوة أحد ، ولا يعرضن لهذا الغلام المريض » . فقال له على الأصغر — رضى الله عنه — شاكرا

« جزيت من رجل خيراً . . فوالله لقد دفع الله عنى بمقالتك شراً »(٤) .

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ / ٢٠٣ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٣٧ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٩ .

وفى الوقت الذى عنى فيه عمر بن سعد ، بدفن القتلى من رجال ابن زياد ، بعد أن صلى عليهم ، عشرة من الفرسان — تنفيذاً لأمر أميره الطاغية — فداسوا الحسين — رضى الله عنه — بحوافر خيولهم ، حتى ألصقوه بالأرض .

أما بقية شهداء الحق الأبرار ، من أصحاب سيد شباب أهل الجنة ، فقد تركوا مبعثرين فى الفلاة ، بعد أن احتز القوم رءوسهم جميعاً ، وحملوها معهم إلى عبيد الله بن زياد ، مع من بقى من نساء الحسين وبناته ، واخواته وأطفاله .

وقد قيض الله للشهداء الأبرار ، من يقوم بشأنهم ، فى اليوم التالى للمعركة ، وبعد انصراف عمر بن سعد ورجاله ، خرج أهل الغاضرية ، فصلوا على الشهداء ، ودفنوهم فى مكانهم ، ابتداء بالجسد الشريف لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم باخوته وأبنائه وأبناء أخيه ، وكلهم مدفونون مما يلى رجليه ، . . ثم بقية الشهداء الكرام ، ما عدا العباس بن على فإنه دفن فى الموضع الذى قتل فيه بطريق الغاضرية .

وقد أقيم حول مدفن الحسين وأصحابه — رضى الله عنهم أجمعين ، مشهد عظيم بكربلاء كان قبلة الزائرين من محبى أهل البيت المطهر ، حتى سنة ٢٣٦ من الهجرة ، حيث أمر المتوكل على الله بهدم ذلك المشهد ، ومنع الناس من التردد عليه ، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك وما زال قائماً حتى الآن . .

صحيفة الشرف :

وقد استشهد فى « كربلاء » مع سيد شباب أهل الجنة ، اثنان وسبعون رجلا وغلاما ، منهم تسعة عشر من أهل البيت المطهر ، أكثرهم من أولاد فاطمة الزهراء — رضى الله عنها — بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما على وجه الأرض يومئذ مثلهم . .

وفى رواية عن الحسن بن ابى الحسن البصرى ، قال :

« اصيب مع الحسين — رضى الله عنه — ستة عشر رجلا من اهل بيته ، ما على وجه الأرض لهم شبيه »(١) .

ولا تعارض بين العددين ، لأنه بإضافة الحسين — رضى الله عنه ، ومسلم بن عقيل الذى قتل بالكوفة قبل ذلك ، وعبد الله بن الحسين — الطفل الرضيع الذى قتل بسهم وهو فى حجر الحسين — رضى الله عنهم أجمعين — نقول بإضافة هؤلاء الثلاثة يصبح عدد من استشهدوا من أهل البيت تسعة عشر .

وفيما يلى بيان بأسمائهم ، وهم الذين اقتضت العناية الإلهية ، أن يحتلوا مكانة القمة ، فى صحيفة الشرف والخلود ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون .

---

(١) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، للمحب الطبرى : ص ١٤٦ .

شهداء أهل البيت (رضى الله عنهم) بكربلاء (١)

١ - الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما
ووالدته فاطمة الزهراء رضى الله عنها

٢ - العباس بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما
ووالدته أم البنين ابنة خزام بن خالد

٣ - جعفر بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما
ووالدته أم البنين ابنة خزام بن خالد

٤ - عثمان بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما
ووالدته أم البنين ابنة خزام بن خالد

٥ - محمد بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما
ووالدته أم ولد

٦ - أبو بكر بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما
ووالدته ليلى ابنة مسعود بن خالد

٧ - على بن الحسين بن على رضى الله عنهما
ووالدته ليلى ابنة أبى مرة

٨ - عبد الله بن الحسين بن على رضى الله عنهما
ووالدته الرباب ابنة امرؤ القيس

٩ - أبو بكر بن الحسن بن على رضى الله عنهما
ووالدته أم ولد

١٠ - عبد الله بن الحسن بن على رضى الله عنهما
ووالدته أم ولد

١١ - القاسم بن الحسن بن على رضى الله عنهما
ووالدته أم ولد

١٢ - عون الأكبر بن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما
ووالدته السيدة زينب بنت على رضى الله عنها(٢)

١٣ - محمد بن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما
ووالدته الخوصاء ابنة خصفة بن ثقيف

١٤ - جعفر بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنهما
ووالدته أم البنين ابنة الشقر بن الهضاب

١٥ - عبد الرحمن بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنهما
ووالدته أم ولد

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥/ ٤٦٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٩ .

(٢) العقيلة الطاهرة : للشيخ أحمد فهمى مأمون المحامى : ص ٢٠ .

١٦ – عبد الله بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنهما

ووالدته أم ولد

١٧ – مسلم بن عقيل بن أبى طالب رضى الله عنهما

ووالدته أم ولد

١٨ – عبد الله بن مسلم بن عقيل رضى الله عنهما

ووالدته رقية ابنة على بن أبى طالب

١٩ – محمد بن أبى سعيد بن عقيل رضى الله عنهما

ووالدته أم ولد

* * *

وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم :

وهكذا انتهت هذه المعركة الخالدة ، بهذه الصورة الأليمة ، طبقاً لمشيئة الله عز وجل ، الذى اقتضت حكمته ، أن يصطفى الحسين – رضى الله عنه – وأصحابه الأبرار ، وأهل بيته المطهرين ، : : إلى جواره الكريم ، ليرفع منازلهم لديه ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا :

ومهما يكن الأمر ، فإن الذى لا شك فيه ، أن هذه المأساة الدامية ، تخفى فى طياتها خيرات جزيلة ، ونعماً جليلة ، ولا يعلم غير الله وحده ، كم امدت كربلاء ، بأحداثها الأليمة ، ومشاهدها الخالدة ، دعاة الحق والإيمان ، فى كل مكان ، على مر القرون ، وكر السنين بالقوة التى لا تنفد ، فى مصارعتهم للباطل ، ومقارعتهم للطغيان ، والعزيمة التى لا تلين ، فى مقاومتهم للبغى والعدوان ، والرغبة الأكيدة فى الفوز بإحدى الحسنيين ، فاما النصر والحياة فى ظل العزة والكرامة ، واما الشهادة فى ميدان الشرف والخلود :

كما لا يعلم إلا الله وحده ، أنه لولا خروج سيد شباب أهل الجنة وأصحابه – رضى الله عنهم أجمعين ، وما قدموه فى كل المواقف والمواطن من مثل عليا ، وقدوة سامية ، وما سطروه من آيات البطولة ، وخلدوه من صور التضحية والفداء : : لا يعلم إلا الله وحده ، ماذا كان ينتهى إليه مصير المسلمين ، وهم يخوضون غمار المعارك الرهيبة ، التى أرغموا ومازالوا يرغمون على خوضها ، دفاعاً عن كيانهم ، وذودا عن مقدساتهم ، ضد أعداء يفوقونهم عدة وعدداً ، ويرجحونهم سطوة وسلطانا : : لو لم يضعوا نصب أعينهم ، ما خلده الحسين – رضى الله عنه – وأمثاله من شهداء الحق . : وأبطال الإيمان ، من مواقف الصمود فى الملمات ، وما سطروه بتضحياتهم الغالية من آيات بينات ، وما حققوه بإيمانهم بالله ، وحرصهم على طاعته ورضاه ، من عظائم البطولات :

وستظل معركة كربلاء – كغيرها من المعارك الخالدة فى تاريخ الإسلام – مصدر فخر وعزة للمسلمين جيلا بعد جيل ، يستمدون منها أروع الدروس ، وأعظم العبر ، ما يفيدهم فى حاضرهم ، وينير لهم الظلمات فى المستقبل ، فإنه لن يصلح أواخر هذه الأمة ، إلا بما صلح به أوائلها :

الفصل الحادى عشر

« والله لا نفارقك .. وانفسنا الفداء لك .. نقيك بنحورنا وجباهنا ، فاذا نحن قتلنا وفينا وقضينا ما علينا » .

« عهد أصحاب الحسين اليه قبل المعركة ».



دروس نافعة ، وعبر بالغة :

لم تكن مواقف الحسين وصحبه – رضى الله عنهم – صورة من أروع صور البطولة والفداء فحسب ، وإنما كانت فى نفس الوقت مدرسة للإيمان فى أسمى مراتبه ، ومرسخا للمثل العليا فى أقوى مظاهرها ، وأعمق مرامبها ، تمد الأجيال اللاحقة – على مر السنين ، وكر القرون – بأروع دروس الكفاح فى سبيل الحق ، وأصدق مواقف الدفاع عن الحرية والكرامة .

وفى استطاعة كل من أنار الله بصيرته بهدايته ، وعمر قلبه بحب الله ورسوله وأهل بيته ، وشرح صدره للدعوة إليه . والجهاد فى سبيله ، أن يتلقى عن هذه المدرسة دروساً من الفروسية الإسلامية الخالدة ، وآيات رائعة من الفدائية والوفاء . . بل ان فى استطاعته ، أن يجد فى كل خطوة خطاها سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – وكل كلمة قالها ، عبرة نافعة ، وحكمة بالغة ، وذكرى تنفع المؤمنين فى جهادهم ، ومنارة تهدى الحائرين إلى سواء السبيل ، فى سعيهم إلى إحياء المجد الغابر ، وتحقيق العزة المنشودة . .

وسوف نقتصر فى هذا الفصل على عرض بعض الدروس ، واستنباط أهم العبر ، على سبيل المثال لا الحصر . .

١ – الحياة عقيدة وجهاد :

كان فى استطاعة حفيد سيد الأنبياء – عليه السلام – أن يحظى – بركونه إلى السلم ، وقبوله للضيم – بكل ما يطمع فيه أهل الدنيا من مال ومتاع ، وجاه وسلطان ، فلقد كان رضى الله عنه موضع اكرام أمير المؤمنين معاوية ، يرحب به إذا رآه ، ويكرمه إذا أقبل عليه ، حتى انقد أمر اه ولأخيه الحسن – رضى الله عنهما – بمائتى ألف دينار فى يوم واحد ، وقال لهما : والله لا يعطيكماها أحد قبلى ولا بعدى .. فأجابه الحسن – رضى الله عنه – على الفور اجابة بإيمانه ، ومكانته من الله ورسوله ، وقال : « والله لن تعطى أنت ولا أحد قبلك ولا بعدك رجلا أفضل منا »(١) . .

❊ ❊ ❊

وكان فى استطاعة حفيد سيد الأنبياء – بعد وفاة معاوية – أن يقف من يزيد موقفه من أبيه ، ليقضى البقية الباقية من حياته معظماً موقراً ، له ما شاء من أبهة الدنيا وجاهها ، ولكن يزيد لم يكن كأبيه ، فى التزامه لطاعة الله ، والوقوف عند حدوده ، ومن ثم فليس فى استطاعة الحسين – رضى الله عنه – أن يبايعه على السمع والطاعة . كما بايع أباه من قبل ، لأنه إنما كان يبايع الله تعالى ، ويبايع معاوية رضى الله عنه ، باعتباره خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، للحكم بكتاب الله ، فى أرض الله ، ولأن الحياة ما كانت أبدا – فى نظر الحسين رضى الله عنه – مجرد شهوات تقضى ، أو أموال تجمع ، أو جاه يسعى إليه ، وهو القائل :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٥١ .

لئن كانت الدنيا تعد نفيسة ... فدار ثواب الله أعلى وأنبل
وإن كانت الأبدان للموت أنشئت ... فقتل امرىء بالسيف فى الله أفضل
وإن كانت الأرزاق شيئاً مقدراً ... فقلة سعى المرء فى الرزق أجمل
وإن كانت الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخل(١)

إنما كانت الحياة فى نظر الحسين – رضى الله عنه – هى الحياة السامية التى يريدها الله لأهل الإيمان ، وهى الحياة كما كانت فى نظر جده – سيد الأنبياء وأشرف المرسلين صلى الله عليه وسلم – حينما قال لعمه أبى طالب :

« ياعم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر – حتى يظهره الله أو أهلك فيه – ما تركته »(٢) .

وهى الحياة كما كانت دائماً أبدا فى نظر أبيه – رابع الخلفاء الراشدين – عقيدة راسخة تطمئن بها القلوب ، وجهاداً مستمراً فى سبيل هذه العقيدة ، لا يتطرق إليه وهن أو يأس ، حتى النصر أو الشهادة .

وهكذا أبى سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – أن يرغم على بيعة لا يؤمن بصلاحية صاحبها ، أو أن يبقى مستضعفاً فى الأرض ، وقد كتب الله العزة للمؤمنين ، وأبى عليهم الرضا بالذل ، أو الاستكانة للظلم ، فأما حياة أبيّة فى ظل الإسلام ، وأما هجرة فى سبيل العزة والكرامة ، أو شهادة فى ميدان الشرف والخلود .

ولقد اختار الحسين رضى الله عنه الهجرة فى سبيل الله ، وارتضى البلاء دفاعاً عن الحق ، وإعلاء لكلمة الله ، وانتصاراً لشريعته ، وألقى الدنيا بشهواتها وراء ظهره ، ووضع متاعها ونعيمها تحت أقدامه ، فوقف بذلك الموقف الجدير بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضرب المثل الأعلى الأجيال اللاحقة ، كيف يكون الحرص على الكرامة ، وكيف يكون الإيمان بالعقيدة ، وكيف تكون التضحية فى سبيل المبدأ ، وكيف يكون الفناء فى سبيل الله تعالى :

٢ – ثبات العزيمة وصدق النية :

وحينما اعتزم سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – الخروج من مكة ، وصحت نيته على التوجه إلى الكوفة ، حفاظاً على الكرامة ، وإباء للإرغام ، وضناً بالبلد الحرام أن تستحل حرمته ، أو أن يستباح حماه ، كان رضى الله عنه – يعلم أنه فى قلة من العدد والعدة ، وأن المتربصين به – بعكس ذلك – فى كثرة من العدد ، ووفرة من العدة ، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمته ، ولم يصرفه عن نيته ، فخرج فى عدة من الرجال ، لا يتجاوزون السبعين إلا قليلا ، ومعه أهله ونساؤه وولده . .

وحينما بلغه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقتل الحسين بأرض بابل » لم يغير من اصراره على مواصلة المسير ، بل رحب بالمصير المقدر عليه ، وقال :

« فلا بد اذن من مصرعى » . . ومضى فى سبيله .

* * *

(١) الحسين عليه السلام : لعلى جلال الحسينى : ١ / ١٨٧ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٢ / ٣٢٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٣ / ٤٨ .

ولما لحق به عبد الله بن جعفر — رضى الله عنهما — وقدم له خطاب والى مكة — عمرو بن سعيد — يدعوه إلى الرجوع ، ويقول له : « فإن كنت خائفاً فاقبل إلى ، فلك عندى الأمان والصلة ، والبر وحسن الجوار ، والله على ما أقول شهيد » . . وبالرغم من ذلك : فإنه — رضى الله عنه — أبى إلا أن يستمر فى طريقه الذى قدره الله له ، دون تردد أو شك وقال مؤكداً ذلك :

« إنى رأيت رؤيا ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى فيها بأمر ، وأنا ماض ، على ماكان أولى » :

* * *

وكان أهل الكوفة قد بايع منهم ثمانية عشر ألفا رسوله إليهم — مسلم بن عقيل — ثم زادوا إلى أربعين ألفا ، وانضم إليه فى مسيره إلى العراق خلق كثيرون ، ولكنه رضى الله عنه — ماكان لقيم وزناً للقوة المادية ، أو الكثرة العددية ، بمقدار ما يقيم الوزن كله لما يؤمن به من أنه على الحق ، وسواء بعد ذلك لديه ، عاش أو مات ، انتصر أم اندحر ، أقبل الناس إليه ، أم تفرقوا عنه ، لأنه — رضى الله عنه — سما بروحه المحمدية فوق الأسباب ، واستغنى عنها باعتماده على مسبب الأسباب ، فلم يعد يضمر سوءاً لأحد ، ولا يعتمد على أحد ، بل كان يرى فى جميع المسلمين اخوة فما ، خرج — رضى الله عنه — معادياً لفئة منهم ، أو مناصراً لأخرى ، إنما خرج حباً لهم جميعاً ، وسعياً لما فيه خيرهم جميعاً ، وتفادياً لأى سوء يقع بأى طائفة منهم :

لذلك ، حينما بلغه انقلاب الأحوال بالكوفة ، وتولى ابن زياد أمورها ، ونقض أهلها لما عاهدوا الله عليه من نصرته ، حتى انتهى الأمر بأخذ رسله وضرب أعناقهم ، : : حينما بلغته هذه الأنباء ، لم يهن ولم يحزن ، ولم يخطر بباله أن يعدل عن عزمته ، أو يتحول عن سبيله ، ليس ذلك فحسب ، بل لقد صارح الناس بحقيقة الموقف وقال لهم :

« خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف ، فلينصرف من غير حرج عليه : : ! ! » :

* * *

وحين تفرق الناس من حوله — بعد أن صارحهم بالموقف — حتى لم يبق معه سوى أهله وأصحابه الذين خرجوا من مكة معه ، لم يمنعه كل ذلك من مواصلة الطريق ، إلى الهدف الذى خرج من أجله ، مع تلكم الحفنة الضئيلة من أهل الإيمان ، وذلك مع علمه أن عبيد الله بن زياد ، قد حشد للقائه جيشاً يبلغ تعداده بضعة آلاف ! ! :

ولكنه رضى الله عنه — وقد صدقت نيته على ما هو مقدم عليه — لم يكن أمامه إلا أن يستمر فى سبيله ، معتمداً على الله تعالى ، متأسياً بقوله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : « حسبك الله . . ومن اتبعك من المؤمنين » :

٣ - سجايا المؤمن .. لا تغيرها الشدائد :

ولقد كان سيد شباب أهل الجنة - رضى الله عنه - فى معاملاته للناس ، لا يحيد قيد شعرة عن المثل العليا التى طبع عليها . فلقد نشأ - رضى الله عنه - نشأة النبل والكرم ، والمروءة والنجدة ، وظل على ما نشأ عليه حتى آخر لحظة من حياته الشريفة ، لم تغيره الشدائد عن طبيعته ، ولم تصرفه الخصومة عن مقابلة السيئة بالحسنة ، والغدر بالوفاء ، فتساوى لديه الصديق الحميم ، والعدو اللئيم ، وتسامى بذلك فوق الاحن والأحقاد ، فهو يصنع المعروف فى أهله ، وفى غير أهله ، ويغيث الملهوف ولو كان من أعدى أعدائه ، ويكرم الناس جميعاً على السواء .

لقد سبق - رضى الله عنه - مع أصحابه ، فسطروا فى طريقهم على مواطن المياه ، فشربوا وسقوا خيولهم ، ولم يمض قليل حتى أقبلت مقدمة جيش ابن زياد ، فى ألف من الفرسان ، بقيادة الحر بن يزيد ، وقد بلغ بهم وبخيولهم التعب والعطش كل مبلغ ، وقد وقف أصحاب الحسين - عليه السلام - على المياه موقف الاستعداد ، والسلاح فى أيديهم ، وهم قادرون - فى موقفهم هذا - على ارهاق عدوهم ، ومنعه من الوصول إلى المياه ، ولكن شهامة سيد شباب أهل الجنة - رضى الله عنه - ومروءته ، أبت عليه إلا أن يأذن لهم بأخذ حاجتهم من المياه ، ليس ذلك فحسب ، بل أمر فتيانه - وهو معهم - بسقى الخيل ورشفها . . . وملء الأوانى والقرب ، حتى أخذ القوم حاجتهم من الماء كاملة . . . ! !

وهكذا قام حفيد سيد المرسلين - صلى الله عليه وسلم - بما هو أهل له ، فقدم إلى أعدائه ماء الحياة ، وهم فى أشد الحاجة إليه ، ولو أنه منعهم إياه ، ما كان لأحد أن يلومه على ذلك . ولكن الحسين - رضى الله عنه - كان فى معاملاته للناس . إنما يعامل الله تعالى ، فإذا تغير الناس وتبدلوا . فإن الله تعالى لا يتغير ولا يتبدل ، وإذا أنكر الناس أو تنكروا ، فإن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

لقد كان الحسين - رضى الله عنه - فى موقفه هذا ، مستهدفاً هداية القوم ، حريصاً على تأليف قلوبهم ، أملا فى حقن دماء المسلمين ، وطمعاً فى إنقاذهم من الفتنة الكبرى التى توشك أن تحيق بهم ، وحرصاً على منعهم من التردى فى الهاوية السحيقة التى يتدافعون نحوها بوقوفهم فى وجه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب أهل الجنة ، وإصرارهم على محاربته وقتله .

* * *

ولكن القوم لم يقدروا للحسين - رضى الله عنه - هذه النجدة ، وهذه المروءة ، فإنه لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل ، وهؤلاء كان معظمهم من الرعاع الأجلاف ، ليس فيهم صحابى ولا تابعى فقيه فى الدين ، أو راسخ فى العلم ، فلما تحكموا فى الفرات ، منعوا الماء عن الحسين - رضى الله عنه - وعن أصحابه ، وعمن كان فى كنفه من سيدات أهل البيت ، وأحفاد سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، حتى أعياه التعب والعطش ، فدافع القوم على الماء ، حتى خلص إلى شربة منه ، فرماه رجل منهم بسهم فى حنكه ، فانتزعه الحسين رضى الله عنه ، فتفجرت الدماء غزيرة من فيه ، فتلقاها بيديه ، ورفعهما إلى السماء ، مشهداً الله على ما يلقاه من جحود ونكران . .

٤ ــ الحرص على الموت فى سبيل الله :

وكما أن سيد شباب أهل الجنة ــ رضى الله عنه ــ لم يقم أى اعتبار ــ فى كفاحه فى سبيل العزة والكرامة ، لكثرة الأنصار أو قلتهم ، وقوة الأعداء أو ضعفهم ، فكذلك : تساوى فى نظره ــ رضى الله عنه ــ الحياة والموت ، فلا الحرص على السلامة نال من عزيمته ، ولا الخوف من الموت رده عن سبيله ، فسواء لديه عاش عزيزاً ، أو مات شهيداً ؛

بل لقد كان ــ رضى الله عنه ــ أشد حرصاً على الموت ، منه على الحياة ، رغبة فيما أعده الله للشهداء ، من حياة خالدة ، لا حزن فيها ، ولا فناء بعدها وأى حياة أكرم وأهنأ ، من الحياة فى جوار رب العالمين ، مع من سبقه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . ؟

وهكذا : حينما التقى ــ رضى الله عنه ــ بقائد مقدمة جيش ابن زياد ــ الحر بن يزيد ــ وقال له : لقد أمرنا بأن لا نفارقك حتى نقدمك على عبيد الله بن زياد . .

فأجاب رضى الله عنه : الموت دون ذلك ! ! وأمر أصحابه بالركوب ، فحال القوم بينه وبين الانصراف ، وقال له قائدهم :

إنى لم أومر بقتالك ، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك على ابن زياد ، ولئن قاتلت لتقاتلن ، ولئن قوتلت لتهلكن فيما أرى !

فانتهزه الحسين رضى الله عنه قائلا :

أبالموت تخوفنى ؟ ثم أنشد مؤكداً اصراره على المسير ، واستهانته بالأخطار ، واستخفافه بالتهديد :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى ... إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما

وآسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق خوفاً أن يذل ويرغما

حتى لقد أكبر قائد القوم فيه هذه الروح العالية ، فلم يعترض سبيله ، بل استمر فى متابعته عن كثب ، حتى تلقى أوامر ابن زياد بمنعه من الانصراف ! !

٥ ــ ما كنت لأبدأهم بالقتال :

كان الحسين ــ رضى الله عنه ــ بحق هو ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المبعوث بمكارم الأخلاق ، ولم يكن فى كل مواقفه يتصرف إلا على ضوء المثل العليا التى جاء بها الإسلام الحنيف ، ليخرج بها العالمين من الظلمات إلى النور . .

هذا هو رسول عبيد الله بن زياد ، يقبل من الكوفة ، راكباً فرسه . متنكباً قوسه وسلاحه ، فيدفع إلى الحر بن يزيد كتاب ابن زياد ، يقول فيه :

«أما بعد : فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابى ، ويقدم عليك رسولى ، فلا تنزله إلا بالعراء فى غير حصن ، وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولى أن يلزمك ولا يفارقك ، حتى يأتينى بإنفاذك أمرى والسلام » .[1]

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٠٨ .

وأخبر الحر بن يزيد الحسين — رضى الله عنه — بما تلقاه من الأمر ، وحمله وأصحابه على النزول فى المكان الذى نزل به ، على غير ماء أو حصن ، ورفض ما عرضوه عليه من النزول فى قرية من القرى الثلاث القريبة منهم — نينوى أو الغاضرية أو شفية ، حتى أيقن الجميع بسوء نية ابن زياد ، وإصراره على إرغام الحسين أو قتله . . وهنا : تقدم زهير بن القين ، إلى سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنهما — فقال له :

— يابن رسول الله : ان قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم ، فلعمرى ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به (١) : :

وحقاً قال زهير ، فقد كان مع الحر بن يزيد ألف من الفرسان ، وكان عدة رجال الحسين — رضى الله عنه — دون المائة ، ممن شهدت لهم ميادين القتال بالصبر وشدة البأس ، وممن هانت عليهم الحياة فوطدوا النفس على بذلها رخيصة ، دفاعاً عن الحق ، وحفاظاً على الكرامة ، فى حين كانت الطائفة الأخرى فى شك من أمرهم ، فهم رغم كثرتهم فى ضعف من الإيمان ، وخوف من الحق ، وحرص على الحياة ، ومن تم كان فى استطاعة حفنة مؤمنة من أمثال الحسين وأصحابه — رضى الله عنهم — أن ينالوا من تلكم الكثرة المفككة ، وأن ينتصروا عليها . . وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك : أن سيد شباب أهل الجنة وأصحابه — رضى الله عنهم — قد استطاعوا مقاومة خمسة أضعاف هذه القوة : : وأن يصيبوا منها أكثر من تعدادهم ! !

ولكن الحسين — رضى الله عنه — كان دائماً يقيس الأمور بمقياس المثل الإسلامية العليا ، التى جعلها دائماً نصب عينيه ، لأنه أولى الناس بالحفاظ عليها ، والتضحية بكل مرتخص وغال فى سبيل العض بالنواجذ عليها ، لمقامه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا : لم يتردد الحسين — عليه السلام — فى رفض ما عرضه عليه زهير بن القين — رضى الله عنهما — وقال له : « ما كنت لأبدأهم بالقتال »(٢) . !

وقد صدر الحسين — رضى الله عنه — فى قوله هذا ، عن فهم شامل لروح الإسلام ، وفقه راسخ بأهدافه وأحكامه . فقد نهى الإسلام صراحة عن البدء بالاعتداء ، فقال تعالى فى محكم كتابه :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » (٣) :

وإذا كانت هذه الآية الكريمة — بالنسبة للمشركين — قد نسخت بمقتضى قوله تعالى :

« وقاتلوا المشركين كافة » (٤) فلا شك أن حكمها ما زال قائماً بالنسبة لأهل الإسلام فيما بينهم ، فلا يجوز القتال إلا رداً للعدوان ودفاعاً عن النفس ، أو مقاومة للبغى ، قال تعالى :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٠٩ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٠٩ .
(٣) البقرة : ١٩٠ .
(٤) التوبة : ٣٦ .

« فمن اعتدى عليكم ، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم »(١) وقال تعالى :

« فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله »(٢) .

كان الحسين رضى الله عنه — ولا شك — يعلم كل ذلك ، فرفض البدء بالقتال ، حرصاً منه على محبة الله تعالى ، التي حرمها على المعتدين ، كما كان رضى الله عنه يعلم قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فقتل أحدهما صاحبه ، فالقاتل والمقتول فى النار . قيل يا رسول الله : هذا القاتل . . فما بال المقتول ؟ قال : انه كان حريصاً على قتل صاحبه »(٣) .

وما كان الحسين رضى الله عنه حريصاً على قتل أحد ، بل كان أشد ما يكون حرصاً على حقن الدماء ، وهداية الجميع إلى سبيل الحق والرشاد .

* * *

ولقد ظل — رضى الله عنه — مثالا سامياً للمثل العليا ، التي تدعوه إلى تحمل الأذى وعدم البدء بالعدوان ، حتى رأى جيوش ابن زياد مقبلة عليه ، متأهبة لقتاله ، وقد اندفع شمر بن ذى الجوشن بفرسه وسلاحه نحو أبيات الحسين — رضى الله عنه — وقد أحيطت بالحطب والنار حتى لا يوصل إليها — فصاح به : يا حسين : استعجلت النار فى الدنيا قبل يوم القيامة ؟ فأجابه رضى الله عنه :

« يابن راعية المعزى : أنت أولى بها صلياً » ! ! وهنا تقدم مسلم بن عوسجة من الحسين — رضى الله عنه — قائلا : يابن رسول الله : جعلت فداك : ألا أرميه بسهم فإنه قد أمكنني ، وليس يسقط مني سهم ، فالفاسق من أعظم الجبارين : فقال الحسين — رضى الله عنه — : لا ترمه فإني أكره أن أبدأهم(٤) .

وهكذا : ظل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — ملتزماً موقف المسالمة حتى اللحظة الأخيرة . . إلى أن زحفت إليه جيوش ابن زياد ، وقد جاءها الأمر بالقتال ، فوجهت إليه وإلى صحبه الكرام السهام ، فاضطر إلى مقابلتها بالمثل ، دفاعاً عن نفسه وعن أصحابه .

٦ — لا يقاتل معي من عليه دين !!

ويقدم لنا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثلا رائعاً ، ودرساً بليغاً حينما قدم عليه اثنان من المخلصين له، ليلة المعركة — فرحب بهما وسألهما عما جاء بهما وهما يريان كثرة عدوه، وقلة أنصاره ، فقالا :

— جئنا لنسلم عليك ، وندعو الله لك بالعافية ، ونحدث بك عهداً ، ونخبرك خبر الناس ، وأنا نحدثك أنهم قد جمعوا على حربك ، فر رأيك . فقال الحسين عليه السلام :

— حسبي الله ونعم الوكيل . . ولما استأذنا فى الانصراف قال لهما :

(١) البقرة : ١٩٤ .
(٢) سورة الحجرات : ٩ .
(٣) أحمد والشيخان وغيرهما من حديث أبي بكرة رضى الله عنه .
(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبرى : ٥ / ٤٢٤ .

ــ فما يمنعكما من نصرتى ؟ فأجاب أحدهما :

ــ على دين . . ولى عيال . . ولكن ان جعلتنى فى حل من الانصراف ، إذا لم أجد مقاتلا قاتلت عنك ماكان لك نافعاً ، وعنك دافعاً . . وقال الآخر مثل قوله :

ولم يتردد ابن بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لكل منهما : أنت فى حل . . ! ! فلما كان الليل قال لهما : هذا الليل قد غشيكم ، فاتخذوه جملا . . وتفرقوا فى سوادكم ومدائنكم حتى يفرج الله (١) .

وفى رواية أخرى : أن سيد شباب أهل الجنة ــ رضى الله عنه ــ قال لهما : لا يقاتل معى من عليه دين (٢) ! ! . .

فأى سمو يمكن أن ترتفع إليه البشرية فى إيمانها بالله ، وحرصها على تقواه أكثر من هذا السمو الذى يدفع بالحسين ــ رضى الله عنه ــ إلى رفض نصرة من عليهم للناس حقوق ، والإذن لهم بالانصراف ، وهو أحوج ما يكون إلى كل عون يأتيه ، وكل نصرة تعرض عليه ، ولكنه ــ رضى الله عنه ــ يرى أن حقوق الناس أولى أن تؤدى إليهم قبل حقه هو ، وأنه لو أذن لهم بالبقاء معه ، والاستشهاد فى الدفاع عنه ، لتحمل مسئولية تأخير السداد لديونهم أمام الله تعالى ، وهذه أخطر فى نظره من كل ما يمكن أن يتعرض له من الأذى والموت ، فهو لا يعتمد فى جهاده على كثرة أو عدة ، وإنما يعتمد على الله وحده ، وكفى به ولياً ونصيرا .

ومن ناحية أخرى : فقد رأى الحسين ــ رضى الله عنه ــ أن لا يقاتل معه إلا هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله : وتركوا الدنيا خلف ظهورهم ، فلم تتعلق أرواحهم بأى شىء فيها ، من مال أو أهل أو ولد ، حتى لا يكون ذلك مصدر ضعف لهم إذا ما اشتد البأس ، وحمى وطيس القتال ، لأن ضعف الفرد قد يؤثر فى قوة الجماعة ، وقد يؤدى بها إلى الهزيمة والاندحار .

وما أشبه موقف الحسين عليه السلام فى هذا الأمر ، بموقف جده صلى الله عليه وسلم ، حين خرج يدعو القبائل لنصرة دين الله ، فلما جاء إلى بنى شيبان : قالوا له : إنا قد نزلنا بأرض بين العرب والعجم ، وقد عقدنا مع كسرى عهداً ألا نأوى محدثاً ، فإن شئت أن نحميك مما يلى العرب فعلنا ، أما العجم فلا قبل لنا بقتالهم ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رفض هذه النصرة الناقصة ، قائلا لهم : ان دين الله لا ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه » .

٧ ــ التزود بالطاعات استعدادا للقاء :

وحينما أيقن الحسين رضى الله عنه ، بما سوف يصير إليه أمره ــ وقد أخذته سنة من النوم ، أثناء جلوسه أمام خيمته ، محتبياً بسيفه ، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام يقول له : « انك تروح إلينا » ــ لم يكن يشغل باله بعدئذ إلا أمران : أولهما التزود بالطاعات ، استعداداً للقاء الأعداء بقلب

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤١٨ ، ٤١٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ / ٢٠٢ .

سليم ، وقدم ثابت . . ثم لقاء الله عز وجل بنفس راضية ، وروح مطمئنة ، وثانيهما افتداء من معه بنفسه ، لينقذهم من القتل ، ويدرأ عنهم ذل الإرغام والأسر : :

وهكذا : عندما زحفت خيل ابن زياد صوب سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – بعث إليهم أخاه العباس بن على ، ليسألهم ما بدا لهم ، فقالوا له :
– جاء أمر الأمير ، اما أن تأتوا على حكمه ، واما أن نقاتلكم : :

فلما علم الحسين بالأمر ، قال للعباس رضى الله عنهما :
– ارجع فارددهم العشية : لعلنا نصلى لربنا هذه الليلة ، ونستغفره وندعوه ، فقد علم الله منى أنى أحب الصلاة له ، وتلاوة كتابه ، والاستغفار والدعاء :

وهكذا : قضى الحسين – عليه السلام – ليلته – كما يحب ويرضى – فى صلاة ودعاء ، وتلاوة واستغفار ، وأوصى فى هذه الليلة إلى أهله بما عن له أن يوصيهم به ، وبذلك قدم – رضى الله عنه – أروع صورة للإيمان الذى لا تزعزعه الشدائد ، ولا تزلزله الأخطار ، فظل حتى اللحظة الأخيرة من حياته ، رابط الجأش ، ثابت اليقين ، راضياً بقضاء الله تعالى ، واثقاً بما أعده للمخلصين من عباده ، من حسن الذكر فى الدنيا ، ومن عظيم الأجر فى الآخرة : : وبما وعد به الشهداء فى سبيله ، من مغفرة واسعة ، وحياة طيبة ، ورزق كريم ، فهو عز وجل القائل فى محكم كتابه – وقوله الحق ، ووعده الصدق – « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

٨ – وفاء وفداء .. بين القائد والجنود :

وحينما خاطب الحسين رضى الله عنه أصحابه ، مطالباً إياهم بالانصراف عنه ، لأن القوم إنما يريدونه ، فلو أصابوه لهوا عن طلب غيره ، لم يتردد هؤلاء الأوفياء فى الاختيار ، فقالوا :

« والله لا نفارقك ، ولكن أنفسنا لك الفداء ، نقيك بنحورنا وجباهنا : : فإذا نحن قتلنا وفينا : : وقضينا ما علينا »(١) : :

وحينما اتجه سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – بحديثه إلى أخوة مسلم بن عقيل ، الذى أمر ابن زياد بضرب عنقه ، وإلقائه من فوق سطح القصر قائلا لهم :

« حسبكم بمسلم أخيكم ! ! اذهبوا فقد أذنت لكم : : » أجابوا على الفور :

لا والله لا نفعل ، ولكن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ، ونقاتل معك حتى نرد موردك ، فقبح الله العيش بعدك :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : ٥ / ٤١٩ ، ٤٢٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٧٧ .

انها لصورة رائعة من الوفاء والفداء : : صورة القائد الأمين ، الحريص على نجاة جنوده ، وافتدائهم بحياته ، وصورة الجنود الأوفياء ، الذين يؤثرون الموت دفاعاً عن قائدهم ، الحبيب إلى نفوسهم ، على الرجوع سالمين إلى أبنائهم وأهليهم : :

ولقد صدق القوم فى كل ما قالوا : : لأنهم حينما بايعوا أميرهم على السمع والطاعة ، وعاهدوه على التأييد والنصرة ، لم يكونوا هازلين فى بيعتهم ، ولم يكونوا جاهلين بحقوقها والتزاماتها ، ولم يخطر ببالهم أن طريق الجهاد فى سبيل الله ، سيكون منثوراً بالورد والرياحين ، وإنما كانوا يعلمون علم اليقين أنهم سوف يروونه بالدماء ، وينثرونه بالأشلاء ، فوفوا ببيعتهم ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وما بدلوا تبديلا : :

٩ ــ الأخذ بالأسباب فى كل الاحوال :

وبالرغم من البون الشاسع بين عدة أصحاب الحسين رضى الله عنه ، وعدة الجيوش المواجهة لهم ، فإنه رضى الله عنه ــ أبى الا أن يؤدى واجبه بكل أمانة ، كأمير لهذه الحفنة الصغيرة من المؤمنين ، والا أن يأخذ بكل أسباب النصر الممكنة ، من تنظيم للصفوف ، وحماية للظهور ، وتحريض على الثبات ، ثقة منه أن النصر من عند الله وحده ، يمن به على من يشاء ، وأنه تعالى على كل شىء قدير ، فنى استطاعته أن يؤيد القلة بروح منه ، فيصبحوا على أعدائهم ظاهرين ، أو أن يلقى فى قلوب الكثرة الباغية الرعب ، فيولوا الأدبار هاربين :

فعل الحسين ــ رضى الله عنه ــ كل ذلك ، أخذاً بالأسباب ، مع انقطاعها فى ظاهر الحال ، ومع يقينه بالنتيجة ، وثقته فى الشهادة ، حتى أنه ليعمد إلى أصحابه ــ وهم دون المائة ــ فيقسمهم إلى ميمنة وميسرة ، لكل منهما قائد معين ، كما عهد إلى أخيه العباس ــ رضى الله عنهما ــ بحمل الراية ، وجعل البيوت بمن فيها من النساء والأطفال وراء ظهورهم ، وأمر بحفر خندق وراءها ، أضرمت فيه النيران ، حتى لا يخلص إليها أحد من الخلف(١) : فلما اطمأن ــ رضى الله عنه إلى كل شىء ، اغتسل وتطيب بالمسك ، استعداداً لما يتوقعه من شهادة فى سبيل الله ، وحذا أصحابه حذوه مستبشرين ، وكأنهم يتهيأون لعرس منتظر ، ولا يترقبون الموت الأحمر ، حتى أن بعضهم ليقول للبعض الآخر :

ــ والله ما بيننا وبين الحور العين إلا أن يميل علينا هؤلاء القوم فيقتلوننا(٢) .

* * *

وهكذا استطاع سيد شباب أهل الجنة ــ رضى الله عنه ــ بما قدمه لأصحابه من أسوة حسنة ، وقدوة طيبة ، أن يعمر قلوبهم بالسكينة ، ونفوسهم بالرضا ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، وقوة على قوتهم :

ولا يقلل من قيمة هذا الدرس البليغ ، الذى يقدمه لنا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عدم جدواه بالنسبة للنتيجة التى انتهت المعركة إليها ، فإن ثبات هذه الحفنة المؤمنة إزاء قوة تفوقها

(١ ، ٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، الكامل لابن الأثير : ٣/ ٢٨٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ٨ / ١٧٨ .

سبعين مرة ، ودفاعها عن أميرها ذلكم الدفاع المجيد الذى لم يذكر التاريخ له مثيلا ، وما أثخنته فى الأعداء ضرباً وقتلا ، حتى لقد أصابت منهم أضعاف عددها : : كل ذلك هو فى حقيقته نصر دونه أى نصر ، أما القيمة الروحية لهذا الكفاح الرائع : فى سبيل الحق والكرامة ، فإنها تفوق كل تقدير أو اعتبار :

١٠ - سباق نحو الشهادة :

ولقد سطر أصحاب الحسين رضى الله عنه وعنهم أجمعين ، أروع الصور فى الوفاء لأميرهم ، وافتدائهم له عن طيب خاطر منهم ، وما كان للتاريخ الإسلامى أن يزخر بهذه الصور الخالدة من البسالة والفداء ، لو أن الحسين رضى الله عنه استجاب لمن نصحوه بعدم الخروج من مكة ، أو دعوه إلى الرجوع إليها :

هذا هو مسلم بن عوسجة - رضى الله عنه - أول الشهداء من أصحاب سيد شباب أهل الجنة ، لا يفكر ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا فى أمر واحد ، هو بالنسبة له كل شىء فى حياته ، وكل شىء بعد مماته ، فيشير إلى الحسين - رضى الله عنه - قائلا لصاحبه : أوصيك بهذا : : إلى أن تموت دونه (١) :

ولم يتردد صاحبه - حبيب بن مظاهر - فى الحرص على وصية صاحبه ، فقاتل دون الحسين رضى الله عنه قتالا شديداً ، وأبلى بلاء حسناً ، حتى لحق بصاحبه راضياً مرضياً :

وتتابع سقوط الأبطال بين يدى سيد شباب أهل الجنة - رضى الله عنه - فاستشهد الحر بن يزيد قائد الفرسان ، فزهير بن القين قائد الميمنة ، فنافع بن هلال الجملى ، بعد أن قتل اثنى عشر من جند ابن زياد ، فعابس بن شبيب : : وغيرهم : : وغيرهم ، كلهم استقبلوا الموت فرحين مستبشرين ، مقبلين غير مدبرين ، يود كل منهم لو كانت له ألف حياة ليبذلها عن طيب خاطر ، فداء لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووفاء بعهد الله ورسوله : :

ورأى بقية أصحاب الحسين رضى الله عنه وعنهم ، أن العدو قد تكاثر حولهم ، رغم ما أصابوه منهم من القتلى والجرحى ، وانه لم تعد لهم القدرة الكافية على منع الحسين رضى الله عنه ، ولا منع أنفسهم ، فتنافسوا فى الفوز بالشهادة بين يديه ، غير مفرطين ولا مبدلين ، يدرأون عنه بصدورهم ، ويفتدونه بأرواحهم ، وهم يقولون له :

« أبا عبد الله : عليك السلام : : حازنا العدو إليك ، فأحببنا أن نقتل بين يديك ، وندفع عنك » :

وهكذا : : استمر أصحاب الحسين رضى الله عنه وعنهم أجمعين ، يأتونه مثنى وفرادى ، مسلمين ومودعين ، حتى تفانوا جميعاً بين يديه ، وقد سطروا أصدق صفحات الوفاء والفداء ، وخلدوا فى تاريخ البشرية أروع الذكريات ، بين أهل الأرض والسماء :

١١ - المؤمن لا يرضى الا باحدى الحسنيين :

ولم يبال سيد شباب أهل الجنة - رضى الله عنه - بسقوط أصحابه واحداً بعد الآخر : : ولم يبال بعد ذلك بمقتل جميع البالغين من أقمار أهل البيت أمام عينيه ، وفيهم الكثير من فلذات كبده ، ولم يبال بعد ذلك كله ببقائه وحيداً فى الميدان ، تحيط به الألوف من الجنود والفرسان . :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٣٦ ، الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٩٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٢ .

ذلك أن الإسلام — كما قلنا — لا يرضى لأتباعه إلا العزة والسيادة ، ولا يقبل للمؤمن أن يستسلم للأسر والهوان ، وفيه عرق ينبض ، أو نفس يخفق ، وهذا هو ما فعله الحسين — عليه السلام — وما كان له أن يرضى إلا بإحدى الحسنيين ، فراراً من ذل الأسر ، وحرصاً على تمام الأجر ، الذى أعده الله للصادقين فى جهادهم ، ووعدهم به فى محكم كتابه ، حيث قال عز وجل :

« ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجراً عظيما »(١) .

وهكذا استمر سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه شاهراً سلاحه ، يقاتل وحده الجموع الكثيفة من أعدائه ، ويحمل عليهم ذات اليمين وذات اليسار ، فيتنافرون عنه تنافر الانعام ، حتى خارت قواه لما نزف منه من الدماء ، وما أعياه من التعب والعطش ، فاتجه إلى باب فسطاطه ، فجلس إليه ، وهو فى غاية من الجهد ، يدفع القوم عنه ، ويحول دون اقتحامهم له حتى أصيب فى النهاية بالضربة القاتلة ، والطعنة النافذة ، فسقط فى ميدان الشرف والخلود ، وفى جسده الشريف ثلاث وثلاثون طعنة برمح ، وأربع وثلاثون ضربة بسيف . .

١٢ — ليس على النساء قتال :

وبالرغم من الظروف القاسية التى كانت تحيط بسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — والأخطار الجارفة التى كانت تهدده ، فإنه — رضى الله عنه — يقدم لنا درساً بليغاً ، فيما يتعلق بمكان المرأة المسلمة ، من ميادين القتال .

ففى الوقت الذى كان فيه — رضى الله عنه — فى أشد الحاجة إلى كل ساعد يرمى ، وفى الوقت الذى سقط فيه جميع أصحابه ، وإذن — رضى الله عنه — للناشئين من أهل بيته أن يشتركوا فى معركة الفناء ، حتى استشهدوا واحداً بعد الآخر ، فإنه لم يخطر بباله أن يستعين بالنساء فى قليل أو كثير ، فوضعهن خلف الصفوف ، وأحاط بيوتهن بخندق تضطرم فيه النيران ، باعتبارهن الحمى الذى تبذل دونه الأرواح ، والشرف الذى يراق على جوانبه الدم .

ويؤكد لنا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حكم الله ورسوله فى هذه المسألة ، فى موقفه من أم وهب ، امرأة عبد الله بن عمير ، حين رأت زوجها وقد غشيه أحد الأعداء فأطار أصابع يده اليسرى ، فانبرت أم وهب لنجدته وقد حملت عموداً تسلحت به ، فأقبل إليها زوجها يردها نحو النساء وهى تأبى قائلة : « دعنى أكون معك » . . إلى أن حسم سيد شباب أهل الجنة الموقف ، معلناً حكم الله ورسوله ، فى خطابه لأم وهب ، قائلا لها : « انصرفى إلى النساء فاجلسى معهن ، فإنه ليس على النساء قتال »(٢) .

---

(١) سورة النساء : آية ٧٤ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٣٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٢ .

وهذا الموقف من حفيد سيد المرسلين ، يتفق تماماً مع مواقف سابقة للنبي صلى الله عليه وسلم ، تؤكد في مجموعها أنه ليس على النساء قتال ، وأن ما وقع من اشتراك البعض منهن فى غزوات متقدمة ، قد نسخ بما ثبت من رده — صلى الله عليه وسلم — لهن فى غزوات أخرى لاحقة .

* * *

من ذلك : ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن حشرج بن زياد ، عن جدته أم أبيه أنها قالت :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة خيبر ، وأنا سادس ست نسوة ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن معه نساء ، فأرسل إلينا فدعانا ، فرأينا فى وجهه الغضب ، فقال :

« ما أخرجكن ؟ وبأمر من خرجتن ؟ » قلنا :

خرجنا نناول السهام ، ونسقى السويق ، ومعنا دواء للجرحى ، ونغزل الشعر فنعين به فى سبيل الله . قال :

« قمن فانصرفن »(١) .

* * *

ومن ذلك ما ذكره الواقدى عن أم سنان الأسلمية ، أنها قالت : لما أراد النبى صلى الله عليه وسلم الخروج إلى خيبر ، قلت :

يارسول الله : أخرج معك أخرز السقاء ، وأداوى الجرحى ؟ .

فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم :

« ان لك صواحب قد أذنت لهن من قومك ومن غيرهم ، فكونى مع أم سلمة »(٢) .

وهذا الحديث يؤكد ما قبله ، لأن كلا من الواقعتين تتعلقان بغزوة واحدة ، والظاهر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد غضبه لخروج النسوة الست دون إذنه ، أمرهن بالانصراف إلى حيث توجد أم سلمة ، رضى الله عنها ، فلما استأذنته أم سنان ، أمرها بأن تلحق بصواحبها عند ام سلمة . .

وفى اجابة النبى صلى الله عليه وسلم ، ما يشعر بحرصه على الابتعاد بالمرأة المسلمة عن مواطن الخطر ، وإعفائها من كل عبء فى ميدان القتال ، حتى من سقى الماء ومداواة الجرحى ، اتساهم مع أم المؤمنين — أم سلمة — رضى الله عنها ، بالقدر الذى يبيحه لها الإسلام ، من طهى للطعام ، وإعداد للملابس والضمادات ، وما شابه ذلك من أعمال تناسب كرامة المرأة وطبعها ، وتتفق مع ما يريد لها الإسلام من حفاظ وخفر .

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٤ - ٢٠٥ .

(٢) الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى : ٤ / ٤٦٣ .

ومن ذلك ما رواه ابن حجر فى الإصابة أن أم كبشة القضاعية قالت :

يارسول الله : ائذن لى أن أخرج فى جيش كذا . . وكذا . . قال :

« لا » . . ! ! قالت :

يارسول الله : إنى لست أريد أن أقاتل ، إنما أريد أن أداوى الجرحى . . والمرضى ، وأسقى الماء . قال :

« لولا أن تكون سنة ، ويقال إن فلانة خرجت ، لأذنت لك ، ولكن اجلسى » .

وفى رواية لابن سعد عن ابن أبى شيبة ، أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« اجلسى . . لا يتحدث الناس أن محمداً يغزو بامرأة »(١) . .

وبهذا الحديث وضع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حداً فاصلا ، وتشريعاً محكماً ، فحرم على المرأة المسلمة الخروج إلى ميادين القتال ، لأى سبب كان ، لأن خروجها يتعارض مع كرامة الإسلام وعزته ، ومروءة المؤمنين وغيرتهم .

يقول الحافظ بن حجر تعقيباً على ما رواه : ويمكن الجمع بين هذا ، وبين ما تقدم فى ترجمة أم سنان الأسلمية ، بأن هذا ناسخ لذاك ، لأن ذلك كان بخيبر ، وقد وقع قبله مثله بأحد ، كما فى الصحيح من حديث البراء ابن عازب . وهذا كان بعد الفتح فى غزوة حنين (٢) .

١٣ ــ ارتباط أطوار الدعوة بجهاد المرأة :

والمتأمل فى هذه الأخبار يستطيع أن يرى ارتباطها الوثيق بأطوار الدعوة الإسلامية ، التى كانت فى أول أمرها قليلة الأنصار ، كثيرة الأعداء ، ضعيفة العدة ، فكان لا بد من أن يترك للمتطوعات من النساء ، السبيل مفتوحاً لحمل نصيبهن من الجهاد فى سبيل الله تعالى .

فلما تحقق للدعوة القوة الكافية لرد أعدائها وحماية ذمارها ، اقتصرت مهمة المتطوعات على مصاحبة أزواجهن أو محارمهن ، لإعداد الطعام ، ومداواة الجرحى ، وسقى الماء .

فلما تم الظهور لدعوة الحق والإيمان ، لم يبق هناك ما يدعو المرأة المسلمة للخروج إلى ميادين القتال ، لأى سبب كان ، ما دام يوجد من الرجال ، من يكفى لحمل أعباء الجهاد . وهكذا ، ألزم الإسلام المرأة بالتفرغ لرسالتها الأصلية فى البيوت ، لرعاية الأزواج ، وتربية النشء تربية صالحة . . تربية جديرة بخير أمة أخرجت للناس ، وقصر معاونتها فى الحرب على اعداد الضمادات والملابس والأطعمة ، وغير ذلك من الأعمال ، التى يمكن للمرأة أن تؤديها وهى بعيدة عن الأخطار .

* * *

(١ ، ٢) الإصابة فى تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلانى : ٤ / ٤٨٧ .

أما ما ذكر عن اقتراع النبي صلى الله عليه وسلم بين نسائه ، إذا ما أراد الخروج للغزو ، فلا يصح أن يتخذ قياساً لخروج النساء — بصفة عامة فى الحروب ، بدليل أن أكابر الصحابة — رضوان الله عليهم — لم يفعلوه ، مع ما عرف عنهم من شدة الحرص على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فى كل صغيرة وكبيرة ، فضلا عن أن خروج أمهات المؤمنين — رضى الله عنهن — لم يكن للقتال أو سقى الماء أو مداواة الجرحى ، وإنما كان لخدمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والعناية بشئونه ، لأن مشغوليته بأمر المسلمين كانت أعظم من أن تمكنه من العناية بشئون نفسه .

وإذا كان الإسلام فى النهاية قد أعفى المرأة من شرف الجهاد فى سبيل الله ، فقد عوضها عن ذلك جهاداً من نوع آخر ، أقل مشقة ، وأعظم ثواباً ، فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها — قالت : يارسول الله : انى لا أرى فى القرآن أفضل من الجهاد ، أفلا نجاهد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : «لكن أفضل الجهاد حج مبرور»(١) . وعنها أيضاً أنها قالت :

يارسول الله : هل على النساء جهاد ؟ . قال :

« نعم . . ! ! جهاد لا قتال فيه . . الحج والعمرة »(٢) .

١٤ — جهاد المرأة فى طاعة زوجها :

ومن ناحية أخرى ، اعتبر الإسلام أن طاعة المرأة لزوجها ، وحسن تبعلها له ، يكفل لها ثواباً يعدل ثواب المجاهدين فى سبيل الله تعالى : :

هذه هى أسماء بنت يزيد : تأتى النبى صلى الله عليه وسلم فتقول له :

بأبى أنت وأمى يارسول الله : أنا وافدة النساء إليك ، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك وبإلهك ، وأنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم ، وانكم معشر الرجال : فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك : الجهاد فىسبيل الله عز وجل ، وإن أحدكم إذا خرج حاجاً ، أو معتمرا ، أو مجاهداً فى سبيل الله ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفنشارككم فى هذا الأجر والخير ؟

فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال : :

« هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها فى أمر دينها من هذه » : : ! !

فقالوا يارسول الله ، ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا . . ! !

فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إليها فقال :

---

(١) ارشاد السارى فى شرح صحيح البخارى : للقسطلانى : ٥ / ٣٣ — باب الجهاد .

(٢) البدر العينى : ١٠ / ٢٢١ .

« أفهمي أيتها المرأة ، وأعلمي من خلفك من النساء : أن حسن تبعل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته : يعدل كل ذلك ؟ » .

فانصرفت المرأة وهي تهلل ، حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب ، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرحن وآمن جميعهن(١) .

وواضح من حديث السيدة أسماء بنت يزيد : أنها فهمت أن الجهاد من خصائص الرجال . كما أن أجابته صلى الله عليه وسلم لها ؛ يتضح منها أنه أقرها على هذا الفهم .

***

ولاشك أن الحسين – سيد شباب أهل الجنة ، رضى الله عنه – وهو الفقيه فى دين الله ، حين رد السيدة أم وهب عن القتال مع زوجها ، دفاعاً عنه ، كان يعلم كل ما أوردناه هنا ، وأكثر منه ، لأن العارف بأحكام الشريعة ، المحيط بأهدافها ومقاصدها .. الذى يصدر عن روح محمدية خالصة ، وفهم سليم لتعاليم الدين الذى بعث به جده صلى الله عليه وسلم .. بل أنه – رضى الله عنه – باعتباره بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بموجب قوله : « حسين منى ، وأنا من حسين » ، وبطبيعة الصلة الوثيقة التى تربطه بصاحب ذلكم النطق الكريم ، ما كان ليتصرف أو ينطق عن هوى ، كما كان صلى الله عليه وسلم كذلك لا ينطق عن الهوى .

فاذا ما قال سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – : ليس على النساء قتال ، فالقول ما قاله .. والحكم ما حكم به ، لأنه إنما قال بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحكم بحكم الله عز وجل .

ولعل فيما أصاب أم وهب فى خروجها للمرة الثانية لمواساة زوجها بعد أن سقط صريعاً ، حيث أصيبت بضربة شدخت رأسها فقتلتها ، ما يوضح الحكمة التى توخاها الإسلام من أعفاء النساء من القتال .

١٥ – لا غدر فى الاسلام :

ولقد استمد أصحاب الحسين – رضى الله عنه وعنهم – من مثل هذه المواقف الكريمة لإمامهم ، والمثل العلياً التى يعتصم بها فى كل أمر من أموره ، خير قدوة وأعظم أسوة فكانوا فى سلوكهم صورة واحدة ، وقالباً واحداً ، رغم اختلاف أشباحهم . وتباين أمزجتهم ، لأنهم لم يجتمعوا حول عرض من أعراض الدنيا ، ولم يخرجوا سعياً فى سبيل مطمع من المطامع الرخيصة ، وإنما اجتمعوا فى الله وحده ، وخرجوا جهادا فى سبيله ، وانتصارا لابن بنت نبيه ورسوله ، فلم يجتمعوا بأجسامهم فحسب ؛ بل اتحدوا قبل ذلك بالقلوب والأرواح .. حتى صدق فيهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم :

« الأرواح جنود مجندة .. فما تعارف منها أئتلف ، وما تناكر منها اختلف(٢) » .

وهكذا كان من أبرز صفاتهم ما جبلوا عليه جميعاً من شهامة ومروءة ، فهم لا يعرفون غدراً ، ولا يرضون خداعاً ، ومهما لجأ خصومهم للغدر والخداع ، فهم لا يفكرون فى مقابلتهم بالمثل ، ولا يقبلون طعنهم إلا وجها لوجه ، لأن شيمتهم شيمة الفرسان والشجعان ، يأنفون التدبير فى الظلمات : أو الدنية فى الخصومات .

***

(١) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب : لابن عبد البر القرطبى ، بهامش الاصابة لابن حجر : ٤ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٢) متفق عليه : من حديث أبي هريرة وعائشة رضى الله عنهما .

هذا هو هانىء بن عروة – من أعيان الكوفة وأشرافها ، المحبين للحسين وأهل بيته – رضى الله عنهم أجمعين – تعتل صحته ، فيأتيه عبيد الله بن زياد عائداً له ، فيحرضه بعضهم على انتهاز فرصة وجوده فى داره للتخلص منه ، ويقول له : قد أمكنك الله منه فاقتله ، فلا يتردد هانىء فى استنكار هذا الرأى ، مدفوعاً بنبل الطبع ، وشهامة الفطرة ، مستنكفاً أن يسعى إليه زائر ، مستظلا بسقف داره ، ثم لا يكون فى أمن من كل خطر ، ووقاية من كل عدوان ، ولو كان هذا الزائر ، هو أعدى أعداء الحسين رضى الله عنه ، وأخطر المتربصين به وبأصحابه الدوائر .

وهكذا : لم يتردد هانىء فى رفض ذلك الرأى قائلا : ما أحب أن يقتل فى دارى .

وتتكرر الفرصة فى مناسبة أخرى ، حين مرض شريك بن الأعور ، أثناء نزوله بدار هانىء وكانت له مكانته لدى ابن زياد – زغم تشيعه لعلى كرم الله وجهه – فأرسل إليه يخبره بقدومه العشية لعيادته ، فبعث شريك إلى مسلم بن عقيل – ابن عم الحسين – عليه السلام – ورسوله إلى الكوفة – يخبره بذلك ، ويدعوه للتربص به ، فاذا جلس خرج إليه مسلم فقتله .

وأقبل ابن زياد ، وأطال الجلوس والسؤال عن صحة شريك ، وشريك يترقب خروج مسلم لقتله ، حتى طال انتظاره فأخذ يردد :

ما تنتظرون بسلمى أن تحيوها . . ؟ ؟

وظن عبيد الله أنه يهذى من المرض ، فقام منصرفاً . . وخرج مسلم من مخبئه فسأله شريك : ما منعك من قتله ؟ فأجاب – رضى الله عنه :

– خصلتان : أما احداهما فكراهة هانىء أن يقتل فى داره ، وأما الأخرى فحديث حدثه الناس عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن الإيمان قيد الفتك ولا يفتك مؤمن » . . فقال له هانىء .
– أما والله لو قتلته فاسقاً فاجراً ، كافراً غادراً ، ولكن كرهت أن يقتل فى دارى(١) .

وهكذا : أبى هانئ بن عروة أن يقتل عبيد الله حين عاده فى داره ، لأن الخلق الإسلامى ، لا يعرف غدراً ولا خيانة ، ويدعو إلى إكرام الضيف وحمايته ، ويعتبر ذلك من دلائل الإيمان بالله تعالى ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه(٢) » .

كما أبى مسلم بن عقيل – رضى الله عنه – أن يفتك به لأن الخلق الإسلامى يدعو إلى مراعاة حق الجوار ، فقد سبق لهانىء بن عروة أن أجار مسلم بن عقيل – رضى الله عنه – وأخفاه فى داره عن أعين ابن زياد ورجاله ، فلم يكن من المروءة فى نظره – أن يتجاهل شعوره ، أو أن يضرب بكراهيته قتل ابن

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٦٣ ، الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
(٢) أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم وغيرهما ، عن أبى شريح وأبى هريرة رضى الله عنهما .

زياد بداره عرض الحائط ، وأكد هذا الإحساس فى أعماقه ، ما تذكره عن حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، سالف الذكر ، بالنهى عن الفتك بمؤمن .

وحقاً : لقد دفع كل من هانىء بن عروة ومسلم بن عقيل ، ثمناً غالياً لهذا الخلق النبيل ، بعد ذلك بأيام قلائل ، حين تمكن منهما ابن زياد ، فقتلهما شر قتلة ، ولكن المثل العليا التى كلفتهما حياتهما ، قد كتب لها الخلود ، كما كتب لصاحبيها الحياة الكريمة عند الله تعالى ، والذكر الطيب عند الناس جميعاً .

١٦ — حق الضيافة .. وحرمتها :

نعم . . فان هانىء بن عروة — رضى الله عنه — وقد أبت مروءته وشهامته أن يغتال عبيد الله وهو فى داره ، لم يتردد أن يفتدى مسلم بن عقيل بحياته ، مفضلا الموت على تسليمه لعدوه — وقد أجاره فى داره — ما دام فيه عرق ينبض أو نفس يتردد .

لقد لجأ مسلم بن عقيل إلى هانىء — رضى الله عنهما — وسأله النزول عليه ، فاستحيا من رده ، فأدخله داره ، وأضافه وآواه ، وعلم ابن زياد ذلك فدعا هانئاً بعد أن أمنه ، وطلب منه أن يسلم إليه مسلم بن عقيل ، فقال :

إن شئت أعطيت موثقاً مغلظاً وما تطمئن إليه ألا أبغيك سوءاً ، وإن شئت أعطيتك رهينة تكون فى يدك حتى آتيك ، وانطلق إليه فآمره أن يخرج من دارى إلى حيث شاء الله من الأرض ، فأخرج من ذمامه وجواره .

وأصر ابن زياد على تسليم مسلم ، وطال الأخذ والرد بينه وبين هانىء ، وهو لا يتزحزح عن موقفه ، حتى قال لابن زياد :

لا . . والله لا أجيئك به أبداً ، أنا أجيئك بضيفى تقتله ؟ !

وبالرغم من تكرار التهديد والوعيد . . وبالرغم من مناشدة بعض الحاضرين لهانىء ألا يقتل نفسه ، ويدخل البلاء على قومه وعشيرته . . وبالرغم من تهوين الأمر عليه بأن مسلماً هو ابن عم القوم ، وأنهم ليسوا بقاتليه ولا ضائريه ، وأن دفعه إليهم ليس فيه مخزاة عليه ولا منقصة . . بالرغم من ذلك كله ، فان شيمة الوفاء والمروءة ، التى جبل عليها الحسين وأصحابه رضى الله عنهم ، دفعت بهانىء إلى الإصرار على موقفه ، رغم كونه فى قبضة الطغاة ، لا حول له ولا قوة ، ورغم يأسه من النجاة من انتقامهم وبطشهم . . رغم كل ذلك أجاب — رضى الله عنه فى اباء وشمم :

بلى . . والله أن على فى ذلك للخزى والعار ! ! أنا أدفع جارى وضيفى وأنا حى صحيح أسمع وأرى ، شديد الساعد ، كثير الأعوان ؟ ! . . والله لو لم أكن إلا واحداً ليس لى ناصر ، لم أدفعه حتى أموت دونه (١) :

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ، ٥ / ٣٦٩ ، الكامل لابن الأثير ، ٣ / ٢٧٠ ، ٢٧١ .

ولو أن هذا الموقف الكريم كان تجاه أمير يعرف للمروءة حقها ، وللضيافة حرمتها ، لكان هانىء محل كل تكريم وإجلال ، ولكن عبيد الله بن زياد لم يكن كذلك ، فزاده هذا الموقف غضباً وثورة ، وصاح بهانىء مهدداً بضرب عنقه ، فأجابه — رضى الله عنه — قائلا :

« إذن تكثر البارقة (١) حول دارك » : فرد ابن زياد :

« والهفا عليك : بالبارقة تخوفنى ؟ » .

وأمر ابن زيادة بادناء هانىء منه ، فلم يزل يضرب وجهه بقضيب فى يده ، حتى كسر أنفه ، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، إلى أن كسر القضيب ، ومع ذلك : فقد ظل هانى — رضى الله عنه — يقاوم جلاديه ، وضرب بيده إلى قائم سيف شرطى بالقرب منه ، محاولا اختطافه ليدفع به عن نفسه ، ولكنه لم يستطع ، وصاح به عبيد الله قائلا : أحرورى سائر اليوم ، أحللت بنفسك ، قد حل لنا قتلك .. خذوه فألقوه فى بيت من بيت الدار ، واجعلوا عليه حرساً (٢) .

* * *

وأخيراً — وبعد أن تخلص عبيد الله بن زياد من مسلم بن عقيل ، الذى كان يخشى بأسه ، ويتهيب قدومه لنجدة هانىء بن عروة — أمر به أن يخرج إلى السوق ، وأن يضرب عنقه ، فشد وثاقه ، ثم ضرب بالسيف ضربة لم تؤثر فيه شيئاً ، ولم تفقده شيئاً من رباطة الجأش ، وثبات الجنان ، ورسوخ اليقين ، حتى أنه ليقول وهو فى هذا الحال مستبشراً :

إلى الله المعاد .. اللهم إلى رحمتك ورضوانك (٣) :

ثم ضرب ضربة أخرى فكانت القاضية .

١٧ — وفــاء .. وايثار :

وفى كل المواقف . . ومختلف الصور ، كانت المثل العليا دائماً : هى رائد أصحاب سيد شباب أهل الجنة ، رضى الله عنه وعنهم ، وكانت مكارم الأخلاق هى سجيتهم التى فطروا عليها ، فلا تكاد تجد لأى منهم أقل هنة ، تغض من قرب أو بعد ، من السمو الذى ارتفعوا بأرواحهم إليه ، ولولا أنهم بشر ، لحق لمن يتأمل سيرتهم الناصعة ، ومواقفهم الرائعة ، أن يرتفع بهم فوق مستوى البشرية بأسرها .

ولكن الإيمان بالله ، والاخلاص فى الإقبال عليه ، والثقة فى موعوده ، يسمو بالنفس البشرية إلى أعلى عليين ، كما أن الفسوق والعصيان ، والغفلة عن الله ، والتعلق بالمطامع الفانية ، يهبط بهذه النفس إلى أسفل سافلين .

وهكذا : كانت التضحية والفداء ، والإيثار بالنفس والمال ، من أيسر الأمور وأهونها ، بالنسبة لسيد شباب أهل الجنة وصحبه الكرام — رضى الله عنهم أجمعين — لم يكن الواحد منهم يفكر فى نفسه ،

(١) البارقة : السيوف التى يلمع بريقها .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٦٧ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٧٩ .

أو فى أهله وولده ، بقدر ما كان يعنيه أمر إخوانه فى الله ، فهم الأوفياء حقاً والأخطار تحيق بهم . . الأوفياء حقاً والموت واقع لا محالة عليهم ، الأوفياء حقاً وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، وقد سقطوا سقوط المغاوير فى ساحات الشرف والفخار .

لم تهن لهم عزيمة ، ولم تلن لهم قناة ، ولم تضعف لهم شكيمة ، حتى وهم مثخنون بالجراح ، مخضبون بالدماء ، كأن هذه الجراح ليست جراحهم ، وهذه الدماء ليست دماؤهم ، وهذه الأجساد ليست أجسادهم ، وهكذا . . بلغت بهم قوة الروح وقوة الإيمان ، درجة تساوى لديهم فيها السلامة والبلاء بل الحياة والفناء .

هذا مسلم بن عقيل — ابن عم الحسين — رضى الله عنهما — ورسوله إلى الكوفة — يبلغه ما أصاب صاحبه هانىء بن عروة بسببه ، فلا يفكر فى النجاة بنفسه ، ولا يخطر بباله الا أن يقابل المروءة بالمروءة ، والنجدة بالنجدة ، ولو كان فى ذلك حتفه ، فلم يتردد . . وأمر بأن ينادى فى أصحابه بشعاره : « يامنصور أمت » فاجتمع حوله منهم أربعة آلاف ، سار بهم نحو قصر ابن زياد الذى تحصن به ، وأغلق أبوابه حوله . .

ولكن هذه الجموع من أهل الكوفة التى أحاطت بقصر ابن زياد ، لم تلبث بتأثير الوعد من ناحية ، والوعيد من ناحية أخرى ، أن نكصوا على أعقابهم ، حتى لم يبق منهم معه فى صلاة المغرب الا ثلاثون رجلا ، خرج بهم متوجهاً نحو أبواب كنده ، فلما بلغها كان عدة من معه عشرة ، فلما خرج منها لم يبق معه أحد . . وانتهى به الأمر أن لجأ إلى بعض الدور ، حتى علم به ابن زياد ، فأرسل إليه ثلة من ستين أو سبعين فارساً ، فخرج إليهم ، وشد عليهم يضربهم بسيفه حتى أخرجهم من الدار ، فأخذوا يرمونه بالحجارة ، ويضرمون النار فى أطنان من القصب فوق ظهر الدار ، ويلقونها عليه . . واستمر رضى الله عنه يقاتلهم حتى أثخن بالجراح ، ومع ذلك لم يستسلم إلا بعد أن أمنه القوم ، وقال له محمد ابن الأشعث : أن القوم بنو عمك ، وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك ، فلما أمكنهم منه ، نزعوا منه سيفه ، فأيقن بغدرهم به فقال :

— أين أمانكم ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون (١) ! !

وأيقن مسلم — رضى الله عنه — أنه هالك لا محالة ، فبكى . . لا لنفسه ، فإنها أهون عليه من أن يفكر فيها ، وإنما كان كل تفكيره ، فى الحسين — عليه السلام وأهل بيته ، الذين خرجوا من مكة فى طريقهم إليه ، إشفاقاً عليهم من أن يصيبهم أقل أذى ، أو يمسسهم أى سوء . .

وأقبل مسلم على محمد بن الأشعث فقال له :

— يا عبد الله : أنى أراك والله ستعجز عن أمانى ، فهل عندك خير ؟ تستطيع أن تبعث من عندك رجلا يبلغ حسيناً بما وقع ، ويقول له : ارجع بأهل بيتك ، ولا يغرك أهل الكوفة ، فانهم قد كذبوك وكذبونى ، وليس لمكذب رأى . فقال ابن الأشعث : والله لأفعلن ، ولأعلمن ابن زياد أنى قد أمنتك (٢) . .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٧٤ .
(٢) المصدر السابق : ٥ / ٣٧٥ .

وكما توقع مسلم — رضى الله عنه — أنكر ابن زياد أمان ابن الأشعث ، وأقسم ليقتلن مسلماً .

ولم يعد هناك شك لدى مسلم — رضى الله عنه — فى النهاية المحتومة ، ولكن هذه النهاية لم تصرفه عن التفكير فيما يجب عليه نحو إخوانه فى الله . . ونحو ربه عز وجل . . لقد كان — رضى الله عنه — حريصاً على إبراء ذمته أمام الله ، وإبلاغ نصيحته إلى ابن بنت رسول الله ، أما ما عدا ذلك من أمور الدنيا ، فلم يخطر له على بال ، ولم يقم له أى وزن .

لقد كان مديناً . . فلم ينس دينه وما يجب عليه من الوفاء لصاحبه ، مع أنه لا حرج عليه لو أنه ترك التفكير فيه ، فله عذره فى ذلك ، من وقوعه فى الأسر ، وقدومه على الموت ، ولكن الخلق الإسلامى أعظم وأقوى من ذلك ، فالموت أهون وأضعف من أن يصرف المسلم الصادق فى إسلامه ، عن أداء حقوق الغير ، والشهادة فى سبيل الله هى أسمى ما يتمناه المؤمن ختاماً لحياته وقربة إلى ربه عز وجل .

والتفت مسلم — رضى الله عنه — فوقع بصره على عمر بن سعد فقال له :

١ — أن على بالكوفة ديناً استدنته منذ قدمت ، سبعمائة درهم ، فاقضها عنى . .

٢ — وانظر جثتى فاستوهبها من زياد ، فوارها .

٣ — وابعث إلى حسين من يرده ، فانى قد كتبت إليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه إلا مقبلا (١) .

وهكذا . . لقى — رضى الله عنه — ربه راضياً مرضياً ، وضرب عنقه ، وهو يكبر ويستغفر ويصلى على ملائكة الله ورسله (٢) . .

* * *

١٨ — يحتسب ابنه ونفسه عند الله :

وهذا هو أحد المحبين لأهل البيت رضى الله عنهم ، العارفين بمقامهم عند الله ورسوله ، يترك خلفه أهله وماله ، مؤثراً صحبة سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — فى رحلته إلى الموت ، يأتيه نبأ ابنه وفلذة كبده ، وقد أسره الديلم ، وطلبوا الفدية ثمناً لفك أسره ، وعلم الحسين — رضى الله عنه — بالأمر ، فاستدعى الرجل إليه ، وأحله من عهده وبيعته ، وقدم إليه ما يكفى لافتداء ابنه ، وأذن له فى الانصراف ليتفرغ لأمره ، ويقوم بما طلب منه . . ولكن الرجل — حين وطد النية على مصاحبة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونصرته بالنفس والنفيس ، كان قد طلق الدنيا ثلاثا ، وألقى بها وراء ظهره ، وأعد نفسه لإحدى الحسنيين ، إما النصر . . وإما الشهادة ، بل كانت الثانية أقرب إليه ، وأحب إلى نفسه من الأولى ، فلم يتردد أن أجاب الحسين — عليه السلام — قائلا :

— عند الله أحتسبه ونفسى . . . ! ! ثم قال — رضى الله عنه :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٧٦ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٧٨ .

ـ هيهات أن أفارقك ، ثم أسأل الركبان عن خبرك ، لا يكون والله هذا أبداً (١) . ! !

لقد صدق الرجل ما عاهد الله عليه ، وبلغ إيمانه من الصدق أنه رأى فى الحسين ـ عليه السلام ـ بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحله من نفسه المكانة اللائقة به ، وعرف له حقه من الوفاء والإيثار ، وأحبه ـ كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم ـ أكثر من والده وولده والناس أجمعين . . فآثر البقاء وفاء بعهده ، وفاز بالحياة الكريمة التى أعدها الله للشهداء والصالحين . .

***

١٩ ـ يغالب الموت حتى النهاية :

ويبلغ أصحاب الحسين رضى الله عنه أعلى قمة من الوفاء والفداء ، بما سجله التاريخ لأحدهم وهو سويد بن عمرو بن أبى المطاع ـ رضى الله عنه ـ فقد تركه المعتدون بين الموت والحياة مثخناً بالجراح ، قد قطعته السيوف ، واخترمته الرماح ، فأيقنوا بهلاكه ، وأخذوا سيفه ومتاعه ، وانصرفوا يتصايحون فرحين بمصرع سيد شباب أهل الجنة ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتسابقون إلى اقتسام أسلابه ، وأمتعة أهل بيته .

وطرقت صيحات القوم وضوضاؤهم مسامع سويد رضى الله عنه ، فأيقظته من غيبوبته ، ولم يلبث ان أدرك مغزاها ، وعلم علم اليقين أن المعركة وصلت إلى نهايتها المحتومة ، وأن الإمام التقى النقى ، الذى أحبه من الأعماق وافتداه بدمائه وروحه ، قد انتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً ، وشهيداً حياً ، وأن الطغاة الآثمين قد كتب لهم النصر فى الأرض ـ ولو إلى حين ـ فغدت أرواح الناس فى قبضة أيديهم ، ومقدساتهم تحت رحمة أهوائهم ، إن شاءوا حفظوها ، وإن شاءوا أضاعوها وأهدروها .

أدرك سويد ـ رضى الله عنه ـ كل ذلك ، وكان الأولى بمن هو فى مثل حالته أن يستسلم للأمر الواقع ، وأن يحرص على الرمق الذى بقى له من الحياة ، فقد يكتب له الشفاء ، ويعود إلى أهله وولده ، ولا حرج عليه فى ذلك ، فقد وفى بعهده ، وضحى بحياته ، وغدا فى حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة.

ولكن هيهات لمثل سويد أن يفكر فى الحياة ، وقد فارقها أحب الناس إليه ، فما قيمة الحياة بعده ، وما أهنأ الموت الذى يجمعه به . . !

وهكذا . . استمد الشهيد من مثل هذه المعانى القوة . . ودبت الحياة فى أوصاله ، وثارت فى عروقه البقية الباقية من الدماء حارة ، فنهض من مصرعه ، متناسياً آلامه وجراحه ، مغالباً الموت والفناء ، باحثاً عن سيفه الذى سلبه المعتدون ، حتى يئس من العثور عليه ، فتناول مدية وجدها ، واندفع كالسهم، بكل ما فيه من قوة ، وما بقى له من حياة . .

---

(١) ابو الشهداء للعقاد : ١٢٢ .

وفوجىء جند ابن زياد بذلكم الميت الحي يخترق صفوفهم ، مخضباً بالدماء ، شاهراً مديته ، يضرب بها ذات اليمين وذات اليسار .. لقد أذهلتهم المفاجأة ، فلم يفيقوا حتى كان البطل قد أثخنهم قتلا .. وطعناً.. ومع ذلك لم يقووا عليه ، حتى تعاون على قتله رجلان ، فكان رضى الله عنه آخر الشهداء(١) .

٢٠ - يغتبط بقتل ولديه مع الحسين :

وبهذه الروح العالية ، والنفس السامية ، التي لا تقيم وزناً للخسائر والتضحيات ، ما دامت في سبيل الحق ، بقدر ما تقيم الوزن كله ، للقيم الفاضلة ، والمبادىء القويمة : استقبل عبد الله بن جعفر - ابن عم سيد شباب أهل الجنة - رضى الله عنهما - نبأ استشهاد ولديه - عون الأكبر ابن السيدة زينب ، ومحمد ، رضى الله عنها وعنهم أجمعين ، بنفس راضية ، وقلب مطمئن ، حتى أن أحد مواليه دخل عليه ، والناس يعزونه فيهما ، فقال : هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين ! !

وهنا لم يتمالك عبد الله بن جعفر نفسه ، غضباً لما سمعه ، فلم يجد أمامه سوى نعله يحذف بها الرجل ، وهو يرد مستنكراً :

« يابن اللخناء ! ! للحسين تقول هذا ؟ . . والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه ، والله إنه لمما يسخي بنفسي عنهما ، ويهون على المصاب بهما ، أنهما أصيبا مع أخي وابن عمي ، مواسيين له ، صابرين معه » ؛

وأقبل - رضى الله عنه - على جلسائه فقال :

« الحمد لله عز وجل على مصرع الحسين . . ألا تكن آست حسيناً يدى ، فقد آساه ولدى »(٢) .

٢١ - من مواقف أشبال أهل البيت :

وإذا كان ما ذكرناه من الأمثلة الزاهرة ، والموقف الباهر ، تتصل جميعاً بهؤلاء الأسود من رجال أهل بيت الحسين - رضى الله عنه - وأصحابه ، فانا نرى نفس الروح العالية والهمة السامية ، تسرى في دماء الأشبال الصغار ، من غلمان أهل البيت وصبيانه ، فنراهم رغم حداثة سنهم لهم قوة الكبار وحزمهم ، ورغم صغر أجسامهم ، لهم جرأة الأبطال وشجاعتهم ، فلم تفزعهم الأهوال ، ولم يرعبهم الموت ، بل كانوا في اندفاعهم إلى الميدان ، واستهانتهم بالأخطار ، لا يقلون إدراكاً للمثل العليا ، ورغبة في الموت دونها ، وسعياً إلى الشهادة في سبيلها ، عن خيار المؤمنين من أكابر أهل البيت ، وصحابة سيد شباب أهل الجنة ، رضى الله عنه وعنهم أجمعين . .

انظر إلى القاسم بن الحسن بن علي ، وقد جاء في وصفه أنه « غلام كأن وجهه شقة قمر ، في يده السيف ، وعليه قميص وأزار ونعلان ، قد انقطع شسع أحدها »(٣) . . ومن هذا الوصف ، يمكننا أن ندرك حداثة سن ذلك الغلام ، وأنه لا يتجاوز الثانية عشرة أو نحو ذلك من عمره ، ومع ذلك فانه

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٣ ، الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٩٥ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٦٦ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٤٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٦ .

يحمل السيف ، لا ليلهو به ، وإنما يحمله كما يحمله الرجال المدربون على فنون الحرب والقتال ، ويخرج به ليساهم جهده فى معركة الخلود بجوار عمه العظيم ، وليحظى فى النهاية بما حظى به السابقون من أعمامه وأصحاب عمه من الشهادة فى سبيل الله(١) .

* * *

وكان مقتل القاسم بن الحسن — رضى الله عنهما — كفيلا بأن يقنع أخاه الأصغر — عبد الله — بأن يرضى بالمكان المناسب لسنه — وقد كان فى الحادية عشرة — بعيداً عن القتال وأهواله ، ولكن الغلام الأبى — الذى نشأ لا يعرف الخوف إليه سبيلا ، شأن جميع صبية أهل البيت ، الذين تسرى فى عروقهم دماء سيد الخلق وأشجعهم — صلى الله عليه وسلم — . . لم يكد يرى مصرع أخيه ، ويرى عمه — سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه — يصول ويجول ، كالأسد الهصور ، وقد أوشك أن يكون وحيداً فى الميدان . . لم يكد الغلام الصغير يرى ذلك حتى ثارت فى عروقه الدماء الزكية ، فاندفع إلى عمه العظيم مغالباً عقيلة أهل البيت المطهر — السيدة زينب رضى الله عنها — التى كانت تحاول منعه ، وهو يقاومها بكل شدة ، والحسين — عليه السلام — يصيح بها أن تحبسه ، حرصاً عليه ، ولكن حمية الغلام وحماسته ، كانتا أقوى من كل شىء يعترضه ، فاندفع إلى الميدان بجوار عمه ، وصاح بالشقى الذى أهوى بسيفه إلى الحسين — رضى الله عنه — قائلا : يابن الخبيثة : أتقتل عمى ؟ . . فتلقاه ابن الخبيثة هذا بضربة سيف قطعت يد الغلام الباسل ، الذى ثبت أنه فى وصفه لذلك الشقى بخبث الأصل ، كان ينطق عن فراسة تستمد من نور الله ، لأن الذى يستبيح قتل الصبية والغلمان ، لا يصدر فى ذلك الا عن أصل خبيث ، وحسب وضيع .

* * *

ونرى هذه المواقف التى يقدمها أشبال أهل البيت ، والتى تتفجر اباء وعزة ، وشهامة وجرأة ، تتكرر بصورة أكثر وضوحاً ، وأعظم روعة حين وقف على بن الحسين — رضى الله عنهما — بعد ذلك ، أمام ابن زياد ، وهو يعلم مقدار بغيه وطغيانه ، وما جبلت عليه نفسه من قسوة ، ورغبة فى سفك الدماء . . ومع ذلك : فان هذا الغلام الذى كان يعانى من المرض ما يعانى ، أبت نفسه الكبيرة أن يخفض من كبريائه فى مجلس الطاغية ، وإلا أن يرد على مهاتراته بما يفحمه من آيات القرآن الكريم ، حتى أثار غيظه ، فقال له : أنت والله منهم . . ! ! . . وأمر بقتله . .

ولكن الغلام الزكى ، ظل رابط الجأش ، لم يهتز فيه شعرة واحدة إزاء تهديد ابن زياد ، بل قال له فى ثقة المؤمن الواثق بربه :

« أبالقتل تهددنى ؟ أما علمت أن القتل لنا عادة ، وكرامتنا من الله شهادة »(٢) ؟ !

---

(١) ذكر ابن كثير ان الذى شد على هذا الغلام وضربه بالسيف ، هو عمر بن سعد امير الجيش ، وهذا وهم ، فإن الذى قتل ذلك الغلام كما جاء فى الطبرى وابن الأثير ، هو عمر بن سعد بن نفيل الأزدى . وقد جاء فى رواية الطبرى — كما أشرنا آنفا — أن الخيل قد جالت بفرسانها عليه ، فوطأته حتى مات ، فى حين أن عمر بن سعد امير الجيش ، ظل حيا حتى قتله رجال المختار فى اخذهم بثأر الحسين سنة ٦٦ كما سيأتى إيضاحه بالفصل التاسع من هذا الكتاب : « مصارع الظالمين » .

(٢) العقيلة الطاهرة : لفضيلة الشيخ أحمد فهمى مأمون : ص ٤٦ .

ثم قال له وقد وطد النفس على الموت :

« يابن زياد : إن كان بينك وبين النسوة قرابة ، فابعث معهن رجلا تقياً يصحبهن بصحبة الإسلام»(١)

وقد شاءت إرادة الله أن يحفظ ذلك الغلام من بغى ابن زياد . . فألقى فى قلب الطاغية طرفاً من الشفقة، فنظر إليه ملياً ثم قال : « دعوه . . ثم التفت إليه وقال : انطلق مع نسائك »(٢) .

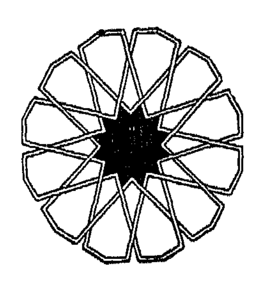
٢٢ ــ جرأة نساء أهل البيت :

ولم يكن نساء أهل البيت أقل استشعاراً للمثل العليا ، وتمسكاً بالكرامة ، وجرأة فى الحق ، من الرجال. فقد تخرج الجميع فى مدرسة واحدة ، وإن اختلفت رسالة الرجال عن رسالة النساء ، فان المبادىء الأساسية واحدة ، والمنهل العذب الذى يروون منه لا يتغير .

وقد سبق أن أشرنا إلى بعض مواقف السيدة زينب ــ رضى الله عنها ــ من ابن زياد تارة ، ومن يزيد بن معاوية تارة أخرى ، وكيف استطاعت بايمانها وجرأتها ، وبلاغتها فى القول ، أن تفحمهم بالحجة ، وتقهرهم بالبينة ، وترغمهم على الشعور بالخزى ، وهم فى عنفوان قوتهم ، وأوج سلطانهم . فرضى الله تعالى عن هؤلاء الكرام البررة . . والعترة المطهرة .

ورضى الله تعالى عن القائل فى شأنهم :

هم القوم فاقوا العالمين مناقباً محاسنهم تجلى وآثارهم تروى
موالاتهم فرض وحبهمو هدى وطاعتهم ود وودهمو تقوى(٣)



(١ ، ٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٨ ، البداية والنهاية : ٨ / ١٩٤ .
(٣) نور الأبصار : فى مناقب آل بيت النبى المختار : للشبلنجى : ٨ / ١٩٤ .

الفصل الثاني عشر

« ماذا تقولون .. ان قال النبى لكم ماذا فعلتم وانتم آخر الأمم » .

« بعترتى وباهلى بعد مفتقدى منهم أسارى ومنهم ضرجوا بدم » .

« ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحم » .



تفاعل المجتمع بتأثير الجريمة :

قد تنتهى بعض الأحداث الخطيرة ، بخاتمة لم يتوقعها أحد ، أو بخاتمة متوقعة ، ولكنها – فى ظاهر أمرها – تتعارض مع الحق والعدالة ، وتتنافر مع ما تجيش به قلوب المؤمنين من الأمانى والآمال ، وما تختلج به ضمائر المخلصين من حب لدعاة الخير ، وتعلق بأصحاب المثل العليا ، كما أنها فى نفس الوقت تناهض المصلحة العامة للإنسانية ، وتعوق تقدمها ورقيها .

وقد يقف الناس – لفترة من الزمان – إزاء هذه الأحداث ، فى صمت وجمود ، وقد أفزعتهم النهاية الأليمة التى ختمت بها ، وأذهلتهم النتيجة المحزنة التى صارت إليها ، بارتفاع الباطل وأهله إلى أعلى قمة ، وتردى الحق ودعاته فى أعمق هاوية . . !

ولكن ذلك الصمت لا يلبث أن يتحول إلى همس ، والهمس لا يلبث أن يصير دوياً نقض مضاجع الظالمين ، ويميد بالأرض تحت أقدامهم . .

كما أن الجمود لا يلبث أن يتحول إلى حركة ، والحركة لا تلبث أن تتطور إلى عاصفة ثم . . إلى إعصار ، يكتسح فى طريقه كل ما شاده الطغاة من صروح ، ويهدم كل ما تخيلوه من آمال واحلام .

وهذا هو ما حدث فعلا بعد مقتل الحسين – سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه – ومن كانوا معه من أصحابه الصادقين ، وأهل البيت الطيبين الطاهرين ، فلقد كانت هذه النهاية الأليمة صدمة قوية لجميع محبى الحسين وأهل البيت ، وهم الأكثرية الساحقة من الأمة ، وذلك رغم توقعهم للنهاية المذكورة . . وبدأت هذه الصدمة بتفاعل صداها فى النفوس ، وبحدث رد فعلها فى المجتمع ، لا فى اوساط أهل الحق فحسب – الذين انفطرت قلوبهم بالفجيعة ، ثم فاضت غيظا وسخطاً ، إلى أن ارتفعت أصواتهم بالإنكار على الطغاة ، دون مبالاة بسلطانهم ، أو اشفاق من جبروتهم – بل لقد امتد هذا الصدى إلى أوساط الطغاة أنفسهم ، فبدأوا يستشعرون فظاعة الجريمة التى اقترفوها ، ويشفقون على أنفسهم من عواقبها ، ويحاولون – دون جدوى – التخفيف من آثارها ، أو التبرؤ من مسئوليتها ، فكل منهم يعلن أسفه للجريمة الكبرى التى وقعت ، ويظهر حزنه على الدماء الطاهرة الزكية التى سفكت ، ويلقى التهمة على غيره ، فى حين أنهم جميعاً آثمون ، وعلى تلكم الفعلة الشنعاء متواطئون . . ولكن لا عجب من موقفهم من بعضهم ، فان الله تعالى هو القائل فى محكم كتابه : « الأخلاء بعضهم يومئذ لبعض عدو إلا المتقين »(١) .

---

(١) سورة الزخرف : آية ٦٧ .

اعتراف المعتدين بفضل الحسين :

ولم تكد المعركة تنتهي ، وما زالت دماء الشهداء تخضب أرضها ، حتى سار سنان بن أنس — وهو الذى طعن سيد شباب أهل الجنة برمحه ، ثم عمد إليه فاحتز رأسه — . . إلى فسطاط عمر بن سعد يحمل بين يديه رأس الشهيد الكريم — رضى الله عنه — فخوراً بما اقترفته يداه ، فرحا بما ينتظره من عطاء ، وما يتوقعه من شكر وثناء ، حتى أنه لم يكد يصل إلى فسطاط أميره ، حتى نادى بأعلى صوته قائلا :

أوقر ركابى فضة وذهبا أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسبا (١)

ومن أعجب العجب : أن يكون قائل هذا الكلام : هو نفسه الذى طعن الحسين — رضى الله عنه — وهو الذى احتز رأسه . . ولكنها الحقيقة الغالبة ، تأبى إلا أن تظهر رغم كل القوى التى تحاول إنكارها ، وإلا أن تعلن عن نفسها ، بلسان أشد الناس حرباً عليها ، وحرصاً على إخفات صوتها ، وإطفاء نورها .

وهكذا : انطق الله سنان بن أنس ، فاعترف — وهو قاتل الحسين رضى الله عنه — بما له من مقام سام ، وأقر بأفضليته على العالمين فى عصره ، وأنه خير الناس أما وأبا ، وأنه أعرقهم نسباً ، وأشرفهم حسباً ، وأنفسهم جوهراً . . ! !

ولم يكد عمر بن سعد يطرق سمعه ذلك الكلام ، حتى ارتاع لمغزاه ، فأمر بادخال سنان بن أنس ، ورماه بالسوط مغضباً ، وقال له :

« ويحك . . ! ! ! أنت مجنون ؟ ؟ والله لو سمعك ابن زياد تقول هذا لضرب عنقك » (٢) ! !

ولقد جاءت كلمات ابن سعد مؤكدة للمعانى التى عبر عنها سنان بن أنس — دون أن يدرى — معلناً بها ما لسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — من مقام كريم . . هذه المعانى التى يحرص أعداء الحسين — رضى الله عنه — على انكارها ، ويسيئهم كل الإساءة ذكرها أو الاعتراف بها ، لأن معنى ذلك : أنهم يحكمون بأنفسهم بالإدانة ، وأنهم كانوا فى عدوانهم على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ظالمين ، وتقتيلهم لأصحابه وأهل بيته آثمين مفترين .

موقف زوجة مؤمنة من زوجها :

وسرح عمر بن سعد رأس الحسين — عليه السلام — إلى عبيد الله بن زياد ، مع خولى بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدى ، فأقبل به خولى فوجد القصر مغلقاً ، فاتجه إلى منزله فوضع الرأس الشريف تحت أجانة الدار ، ثم دخل البيت فأوى إلى فراشه فسألته زوجته — النوار بنت مالك : ما الخبر ؟ ما عندك ؟ فقال : جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس الحسين معك فى الدار . . ! !

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٩ ، وفى العقد الفريد للإمام ابن عبد ربه الأندلسى : ٢ / ٤٢ : ان قائل ذلك الشعر هو خولة بن يزيد الأصبحى ، حين حمل الرأس الشريف إلى عبيد الله ابن زياد ، وأن عبيد الله أمر به فضربت عنقه ، كما سيأتى تفصيله فى الفصل التاسع .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٠ .

وبدلا من أن تفرح الزوجة – كما كان ظن الشقي – قابلته أسوأ مقابلة ، وصاحت به قائلة :

« جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! . . لا والله ما يجمع رأسي ورأسك بيت أبداً » .

وقامت الزوجة المؤمنة من فراشها ، حيث باتت ليلتها في صحن الدار ، في حين دعا الشقي زوجة أخرى له ، فأدخلها إليه .

تقول النوار بنت مالك – الزوجة المؤمنة – :

« وجلست أنظر . . فوالله ما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود ، من السماء إلى الاجانة ، ورأيت طيراً بيضاً ترفرف حولها »(١) .

يقظة الضمائر .. ودموع الندم :

ولقد كان للصيحات المكلومة التي أطلقتها عقيلة أهل البيت – السيدة زينب رضى الله عنها – من أعماق قلبها الباكي ؛ أبعد الأثر في إيقاظ الضمائر الميتة ، وإلهاب المشاعر الجامدة . .

فلقد حملت – رضى الله عنها – مع نساء سيد شباب أهل الجنة وبناته وأخواته ، ومن تبقى من صبيان أهل البيت – رضى الله عنهم أجمعين – وسار الركب الحزين في طريقه إلى الكوفة ، ومر بميدان المعركة ، ورأى جميع أفراد الركب الصورة الأليمة لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهل بيته وأصحابه ، مجندلين بالفلاة ، مقطعي الرءوس ، مبعثري الأشلاء ، فلم يتمالك نساء أهل البيت المطهرات ، من الصراخ والبكاء ، وأخذت السيدة زينب – رضى الله عنها – تندب أخاها وأهل بيتها ، بعبارات تنقطع لها نياط القلوب ، وتحترق لها الأكباد ، وتنادي جدها صلى الله عليه وسلم وتقول :

« يامحمداه . . يامحمداه ! صلى عليك الله ، وملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء ، مرمل بالدماء ، مقطع الأعضاء يامحمداه ، وبناتك سبايا ، وذريتك مقتلة ، تسفي عليها الصبا »(٢) .

نفذت هذه العبارات إلى أعماق الناس ، فهزت قلوبهم ، وأبكت عيونهم ، حتى هؤلاء الذين حاربوا الحسين – رضى الله عنه – وقتلوه ، لم يستطيعوا أن يتمالكوا أنفسهم من البكاء ، لقد أيقظت كلمات السيدة – رضى الله عنها – الموات من ضمائرهم ، وأزالت الغشاوة عن أبصارهم ، فبدأوا يدركون فظاعة الجريمة التي شاركوا في اقترافها ، ويستشعرون مرارة الندم عليها .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري : ٥ / ٤٥٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٠ ، وفي رواية ابن كثير أن النور الساطع كان صادراً من الإجانة إلى السماء بعكس رواية الطبري وأن الذي رأى ذلك : الزوجة الثانية لا الأولى ، ونرى أن رواية الطبري أصح وأدق لأن الرأس كانت في الدار حيث قضت الزوجة الأولى ليلتها ، ولأن الأرجح أن خولى لم يخبر الثانية حين دعاها إليه بما أخبر به الأولى حتى لا تسلك مسلكها .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبري : ٥ / ٤٥٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٣ ، وتسفي : تذر التراب ، والصبا : الريح ، والمعنى هو أن الرياح تذر الترب على جثث الشهداء من ذرية أهل البيت .

صيحات فى وجه الطاغية :

.. وهذا هو عبيد الله بن زياد — سفاك بنى أمية — جبار الناس غداة كربلاء ، وبين يديه قد وضع رأس سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — وقد بلغ به الجحود والتجبر ، أنه أخذ ينكت بين ثنيتيه بقضيب فى يده . . والناس حوله صامتون ، لا يستطيعون — رغم تألمهم — له رداً ، ولا عليه إنكاراً ، لما يعلمونه من تجبره وطغيانه .. وهو يقول ساخراً : لقد كان جميلا ! ! ، وفى رواية أخرى أنه جعل ينكت بقضيب فى أنفه ويقول : ما رأيت مثل هذا حسناً . . : :

ولكن الحق لا يعدم نصيراً فى كل زمان ومكان ، فقد رأى أنس بن مالك(1) — رضى الله عنه — ذلك ، فلم يطق صبراً عليه ، فأقسم فى نفسه أن يحدث الطاغية بما يسيئه ، فقال :

« انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يلثم حيث يقع قضيبك »(2) .

انقبض الطاغية لما سمع من حديث أنس — رضى الله عنه — ولكنه أخذته العزة بالإثم ، ولم يبال بهذه النصيحة ، واستمر ينكت ثنايا الحسين — رضى الله عنه ، فاعترضه زيد بن أرقم(3) فقال له بشدة .

« أعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالذى لا إله غيره ، لقد رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الشفتين يقبلهما » .

ثم انفجر — رضى الله عنه باكياً .. ولكن ابن زياد — رغم كل ذلك — لم يزد إلا تكبراً وطغياناً ، فقال لصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أبكى الله عينيك : فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك » .

فنهض زيد — رضى الله عنه — فخرج ، إظهاراً لاستنكاره وسخطه ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل لقد قال لمن مر بهم قولا ، لو سمعه ابن زياد لقتله ، ذلك قوله :

« ملك عبد عبداً ، فاتخذهم تلدا ، أنتم يامعشر العرب العبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة ، وأمرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ، فرضيتم بالذل ، فبعداً لمن رضى بالذل »(4) :

---

(1) هو أنس بن مالك بن النضر الأنصارى ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحد المكثرين من الرواية عنه ، حيث جاءت به أمه إلى النبى صلى الله عليه وسلم حين مقدمه إلى المدينة ، وكان فى العاشرة من عمره ، فقالت له : هذا أنس : غلام يخدمك ، فخدم النبى عشر سنين وشهد معه غزوة بدر ولكنه لم يقاتل فيها لصغر سنه ، ودعا له النبى صلى الله عليه وسلم فقال « اللهم أكثر ماله وولده وبارك فيه » فولد له ثمانية وسبعون ذكراً وبنتان ، وكانت اقامته بعد النبى بالمدينة ، ثم شهد الفتوح ، ثم سكن بالبصرة ومات بها سنة ٩٢ من الهجرة ، وله مائة عام أو أكثر . . الاصابة لابن حجر : ١ / ٧١ ، والاستيعاب بهامش الاصابة ١ / ٧١ .

(2) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٠ .

(3) زيد بن أرقم رضى الله عنه : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغزا معه سبع عشرة غزوة ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة ، وشهد صفين مع على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومات بالكوفة أيام المختار سنة ست وستين : الاصابة : ١ / ٥٦٠ .

(4) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٠ .

مواجهة بين الحق والباطل :

وبالرغم من أن ألوية النصر ، كانت تخفق عالية في كل مكان ، ولما يمض على الكارثة التى أصابت أهل البيت أيام ، فقد اقتضت إرادة الله تعالى ، أن يشهد الناس مصير الباطل فى أول لقاء له مع الحق ، وأن يكون الباطل ممثلا فى أقوى جبابرته ، وهو عبيد الله بن زياد ، فى حين كان الحق ممثلا فى سيدة لا حول لها ولا قوة . . هى السيدة الطاهرة زينب رضى الله عنها . حتى تكون النتيجة أوضح واسطع ، والعبرة أبلغ وأقطع .

فقد وصلت القافلة الحزينة إلى الكوفة ، وأدخلت العقيلة الطاهرة — رضى الله عنها — ومن معها من نساء أهل البيت وصبيانه ، إلى عبيد الله بن زياد ، فجلست وقد لبست أرذل ثيابها وتنكرت ، وحفت بها أماؤها ، ومع ذلك : فقد كان يحيط بها من المهابة والجلال ، ما حمل ابن زياد أن يتساءل : من هذه الجالسة ، فلم تجبه رغم تكراره السؤال ثلاثاً ، إلى أن قال بعض من فى صحبتها من الاماء :

« هذه زينب ابنة فاطمة » . فالتفت إليها الطاغية قائلا :

الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وكذب أحدوثتكم !

وبالرغم من الحزن الذى كان يفعم قلب السيدة الكريمة — رضى الله عنها — وبالرغم من الطغيان الذى كان يتهددها ، فانها لم تفقد ما عرف به أهل البيت — رضى الله عنهم أجمعين — من رباطة الجأش وقوة الحجة ، وفصاحة اللسان ، حتى لقد أجابت الطاغية على الفور قائلة :

« بل الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وطهرنا تطهيراً ، لا كما تقول أنت ، وإنما يفتضح الفاسق ، ويكذب الفاجر » (١) .

واستشاط ابن زياد غيظاً ، فقال لها مظهرا الشماتة :

كيف رأيت صنع الله بأهل بيتكم ؟ فأجابت رضى الله عنها متحدية :

« كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتخاصمون عنده » . فازداد ابن زياد غضباً ، وأبى الا أن يزيدها إيلاماً فقال لها :

قد أشفى الله نفسى من طاغيتك ، والعصاة المردة من أهل بيتك : فلم تتمالك — رضى الله عنها — أن بكت ، تأثراً وحزناً ، ثم قالت :

« لعمرى لقد قتلت كهلى ، وأبرت أهلى ، وقطعت فرعى ، واجتثثت أصلى ، فان يشفك هذا فقد أشتفيت » . فأجابها الطاغية وقد أخذ بشجاعتها وثباتها :

هذه شجاعة . . لعمرى كان أبوك شاعراً شجاعاً .

* * *

ويأبى الله إلا أن يحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون ، فلم يكد هذا اللقاء الأول ينتهى بهزيمة الطاغية ، على ملأ من الناس ، حتى يتبعه الله بهزيمة تالية فى لقاء ثان ، حيث يكون ممثل الحق فى هذا اللقاء : الغلام المريض الذى لم يتخط سن المراهقة من عمره الا قليلا ، على بن الحسين رضى الله عنهما . .

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٣ .

فقد التفت ابن زياد إلى وفد أهل البيت ، فلفت نظره غلام أهل البيت ، فقال له :

ما اسمك ؟ فأجاب : أنا على بن الحسين . . فقال ابن زياد : ألم يقتل الله على بن الحسين ؟ فسكت — رضى الله عنه — ولم يجب . . فأعاد ابن زياد وقال له : مالك لا تتكلم ؟ فأجاب رضى الله عنه :

« كان لى أخ يقال له على أيضاً قتله الناس » فقال : إن الله قتله : فسكت فقال له للمرة الثانية : مالك لا تتكلم ؟

وإلى هنا كان على « زين العابدين » يحاول ان يتفادى التحدى الذى يسعى إليه ابن زياد ، ولعله كان يحاول الوصول إلى نصر صورى أمام الناس ، يعوض من هزيمته أمام العقيلة الطاهرة ، ولكن يأبى الله أن يزيده خزياً على خزى ، إذ أجابه غلام أهل البيت — رضى الله عنه وعنهم — قائلا :

« الله يتوفى الأنفس حين موتها » (١) . . « وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله » (٢) . .

وهكذا : وقف على « زين العابدين » — بهذا الرد البليغ — موقف المعلم الفقيه من ابن زياد ، فبين له بالآيات المحكمات : أن الله تعالى هو الذى يميت الناس جميعاً ، وليس أخاه فحسب ، فهو مسبب الأسباب ، ولا يتعارض ذلك مع اختلاف الأسباب ، بأن يكون الناس هم الذين باشروا القتل باذن الله تعالى وقدره .

ولم يكد « زين العابدين » رضى الله عنه ينتهى من رده المفحم ، حتى صاح الطاغية :

أنت والله منهم . . ! ويحك ! أنظروا هذا أدرك ؟ والله أنى لأحسبه رجلا !

وتقدم شرطى فكشف عنه ، وقال : نعم أدرك . فقال ابن زياد — وكأنه وجد المخرج لهزيمته : انطلقوا به . . فاضربوا عنقه (٣) . . ! !

إلى هذا الدرك من الاسفاف يصل الطاغية ، فهو فى قرارة نفسه يحس بوضاعة الأصل ، ويشعر بالعجز والجبن عن مواجهة الرجال ، فى أى ميدان ، ولقد سبق له أن بلغ به الجبن أن احتمى بقصر الإمارة لعجزه عن مواجهة مسلم بن عقيل فى الميدان ، وهنا يبلغ بن الجبن حين يقهر فى مناظرته لابن الحسين — رضى الله عنهما — أن يأمر بقتله ، لمجرد بلوغه سن الإدراك ، وفى ذلك ما يشعر برغبته فى استئصال الرجال ، لعجزه عن مواجهتهم فى أى مجال ، حتى يستطيع أن يستأسد على المستضعفين من النساء والولدان ، الذين لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا . ! !

ولكن الله تعالى يأبى الا أن يزيده ذلا على ذل ، فان تهديده بالقتل لذلك الغلام ، كان سبباً فى إظهار ما يكمن فى أعماقه من فضائل أهل البيت ، وما عرف عنهم من قوة فى اليقين ، ووفرة الرجولة والشهامة ، والاستهانة بالأخطار ، . . وهكذا . . فان « زين العابدين » بدلا من أن ترتجف أوصاله رعباً — كما كان يتوقع ابن زياد — على العكس من ذلك . لم يبال بما ينتظره من القتل ، وصاح بالطاغية قائلا :

(١) سورة الزمر : آية ٤٢ . (٢) سورة آل عمران : آية ١٤٥ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٤ .

« ومن يوكل بهذه النسوة ؟ ان كان بينك وبينهن قرابة : فابعث معهن رجلا تقياً . . ، يصحبهن بصحبة الإسلام » . .

أما السيدة الطاهرة — رضى الله عنها — فقد دافعت دفاع المستيئس عن البقية من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصاحت بابن زياد وقد اعتنقت آخر من تبقى من أبناء شقيقها — سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه — وتعلقت به وهى تقول :

« يابن زياد : حسبك منا ما فعلت بنا ، أما رويت من دمائنا ؟ وهل أبقيت منا أحداً ؟ أسألك بالله — إن كنت مؤمناً — إن قتلته فاقتلنى معه . .

نظر ابن زياد برهة ، وقد كان لهذه الكلمات أثرها فى نفسه ، وصداها فى أعماقه ، فبدأ يشعر بعظم ما اقترفه فى حق المصطفى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، وفداحة العدوان الذى أوقعه بهم ، فأذاب ذلك بعض قسوة قلبه ، ولو إلى حين ، فالتفت إلى من حوله وقال :

عجباً للرحم : والله انى لأظن أنها ودت لو أنى قتلته أن اقتلها معه ، . . دعوا الغلام ، ثم التفت إليه وقال : انطلق مع نسائك (١) .

وهكذا : كما أحاطت عناية الله من قبل : على بن الحسين — رضى الله عنهما — فأمرضته لتحول بينه وبين الاشتراك فى المعركة ، والتعرض للقتل ، فقد استمرت هذه العناية الكريمة فى رعايتها له فقيضت له السيدة زينب — رضى الله عنها — لتفتديه بروحها ، وتنقذه من الموت بقوة دفاعها وفصاحة كلامها ، فكان لها أكبر الفضل فى استنقاذ آخر أبناء سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — وكان لها أكبر الفضل فى استمرار ذريته إلى يوم القيامة .

تحدى ابن زياد بالمسجد الأعظم :

وبدأ صدى الأحداث فى التصاعد ، حينما أمر ابن زياد ، فنودى الناس إلى صلاة جامعة ، فلما اجتمعوا فى المسجد الأعظم ، صعد الطاغية المنبر ، فحمد الله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر يزيد ابن معاوية ، وقتل الحسين الذى أراد أن يسلب ملكهم ، ويفرق كلمتهم ، . . إلى آخر أمثال هذه المزاعم والافتراءات ، التى تخللها بعض الألفاظ الفاحشة ، يوجهها الطاغية إلى الحسين وأبيه — رضى الله عنهما .

ولم يكد ابن زياد ينتهى من مقالته ، حتى وثب إليه عبد الله بن عفيف الأزدى فصاح به :

« يابن مرجانة : إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك ، والذى ولاك ! ! يابن مرجانة : .. أتقتلون أبناء النبيين ، وتكلمون بكلام الصديقين ؟ !

وقد كان من الطبيعى : أن يكتسح تيار الباطل ، وهو فى أوجه وعنفوانه ، مثل هذه الانفعالات الصريحة ، خوفاً من أن يؤدى التغاضى عنها ، إلى اقتداء الآخرين بها ، وإسقاط الهيبة التى يحرص الطغاة بكل الوسائل عليها .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٤ .

وهكذا : لم يكد عبد الله بن عفيف [١] ينتهى من كلامه ، حتى صاح ابن زياد قائلاً : على به ! فأمر به فقتل وصلب فى المسجد ، ثم أمر برأس سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — فنصب بالكوفة ، وطيف به فى أزقتها [٢] وكأنه يريد بذلك إثارة الرعب فى النفوس ، باظهار صورة من بطشه وجبروته ، حتى لا يفكر أحد فى أن يبدى أسفاً ، ولا يخطر ببال أحد أن يظهر اعتراضاً .

بين ابن الحر .. وابن زياد :

على أن هذه الصيحة الجريئة ، التى أطلقها ابن عفيف — رضى الله عنه — وإن انتهت به إلى القتل والصلب ، إلا أن صداها فى النفوس كان قوياً ، وأثرها فى أعماق المؤمنين كان بعيداً ، فضاعف من سخطهم على البغى والعدوان ، وحفزهم إلى مضاعفة الإنكار عليه ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً .

وتفقد عبيد الله بن زياد أشراف أهل الكوفة ، فلم يجد بينهم عبيد الله بن الحر — وأبوه الحر بن زيد قائد فرسان ابن زياد ، الذى سبقت له من الله الحسنى ، فانضم إلى الحسين — رضى الله عنه — وقاتل دونه قتال الأبطال ، حتى استشهد راضياً مرضياً — . ومضت أيام ، جاء بعدها عبيد الله بن الحر حتى دخل على ابن زياد ، فقال له :

أين كنت يابن الحر ؟ فأجاب : كنت مريضاً . فرد ابن زياد ساخراً :

مريض القلب أم مريض البدن ؟ ، فأجاب ابن الحر فى ثبات وإيمان :

أما قلبى فلم يمرض ، وأما بدنى فقد من الله عليه بالعافية . فقال ابن زياد : كذبت . . ، ولكنك كنت مع عدونا ! فأجاب ابن الحر فى عزة وشمم :

لو كنت مع عدوك لم يخف مكان مثلى ، ولكان الناس شاهدوا ذلك [٣] .

وشغل ابن زياد عن ابن الحر ، فخرج فامتطى فرسه ، ثم تذكره فتساءل : أين ابن الحر ؟ قالوا خرج الساعة ، فقال على به ، وأرسل فى أثره الشرط لاحضاره ، فقالوا له : أجب الأمير ، فدفع ابن الحر بفرسه ، وهو يقول :

أبلغوه أنى لا آتيه والله طائعاً أبداً ،.. ثم أسمعهم ما يكرهون ، وأثنى على الحسين وأخيه وأبيهما ، بما هم أهله ، وأغلظ القول فى ابن زياد ، وامتنع البطل منهم ، فلم يستطع الشرطة إليه سبيلا ، ثم خرج حتى أتى كربلاء فنظر إلى مصارع الشهداء فاستغفر لهم ، ثم مضى حتى نزل المدائن .

---

(١) عبد الله بن عفيف الأزدى : من خيرة التابعين الذين كانوا مع على — كرم الله وجهه — وشهد معه يوم الجمل حيث صيبت عينه اليسرى ، فلما منعه ذلك من الخروج معه إلى صفين ، حيث أصيب بضربة على رأسه ، وأخرى على حاجبه ، فذهبت عينه الأخرى ، فكان رضى الله عنه — لا يفارق المسجد الأعظم ، يصلى فيه إلى الليل ثم ينصرف ، إلى أن كتب الله له الشهادة على يد ابن زياد .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٥٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩١ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : الطبرى : ٥ / ٤٦٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢١٠ .

وقد روى عنه أنه قال فى سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — وفى أصحابه الكرام ، شعرا جاء فيه :

يقول أمير غادر حق غادر	ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمة
فيا ندمى ألا أكون نصرته	ألا كل نفس لا تسدد نادمة
وانى لأنى لم أكن من حماته	لذو حسرة ما أن تفارق لازمة
سقى الله أرواح الذين تآزروا	على نصره سقياً من الغيث دائمة
وقفت على أجداثهم . . ومجالهم	فكاد الحشى ينفض والعين ساجمة
لعمرى لقد كانوا مصاليت فى الوغى	سراعا إلى الهيجا حماة خضارمة
تآسوا على نصر ابن بنت نبيهم	بأسيافهم آساد غيل ضراغمة
فان يقتلوا . . فكل نفس تقية	على الأرض قد أضحت لذلك واجمة
وما أن رأى الراءون أفضل منهم	لدى الموت سادات وزهرا قماقمة

ثم قال فى ابن زياد وجنوده :

أتقتلهم ظلما . . وترجو ودادنا ؟	فذى خطة ليست لنا بملائمة !
لعمرى : لقد راغمتمونا بقتلهم	فكم من ناقم منا عليكم وناقمة
أهم مراراً آن أسير بجحفل	إلى فئة زاغت عن الحق ظالمة
فكفوا وألا ذدتكم فى كتائب	أشد عليكم من زحوف الديالمة
فيابن زياد استعد لحربنا	وموقف ضنك تقصم الظهر قاصمة(١) .

* * *

وإذا كانت إرادة الله تعالى قد اقتضت أن يفوز عبد الله بن عفيف — رضى الله عنه — بمرتبة الشهادة ، فى دفاعه عن الحق ، ومجابهته للطغيان ؛ فقد اقتضت مشيئته عز وجل أن يحمى « قيس بن خرشة القيسى » مما توعده به ابن زياد ، من العذاب والنكال ، بأن يصطفيه إلى جواره ، تصديقا لوعد نبيه صلى الله عليه وسلم ، وتكذيباً لوعيد الطاغية ، وخذلانا له . .

وكان قيس — رضى الله عنه — قد بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقول الحق ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« ياقيس : عسى إن مر بك الدهر أن يليك بعدى ولاة لا تستطيع أن تقول معهم الحق » .

فقال قيس : لا والله ، لا أبايعك على شىء الا وفيت به . فقال صلى الله عليه وسلم : « إذن لا يضرك شىء » .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٦٩ و ٤٧٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢١٠ — ٢١١ .

فلما استشهد سيد شباب أهل الجنة عليه السلام ، كان قيس من اشد الناس تنديداً بعبيد الله بن زياد ، وإنكاراً عليه ، حتى بلغه ذلك ، فأرسل إليه فقال :

أنت الذى تفترى على الله ورسوله ؟ ! فأجاب قيس :

لا والله . . ولكن ان شئت أخبرتك بمن يفترى على الله ورسوله ! قال : من هو ؟ قال قيس :

من ترك العمل بكتاب الله وسنة رسوله ! قال : ومن ذاك ؟ قال :

أنت وأبوك . . ! ! فاستشاط بن زياد فقال :

وأنت الذى تزعم أنه لا يضرك بشر ؟ قال : نعم ! قال : لتعلمن اليوم أنك كاذب ، أئتونى بصاحب العذاب . .

فمال قيس عند ذلك فمات رضى الله عنه [1] .

بين على بن الحسين رضى الله عنهما ويزيد :

ويستمر صدى الأحداث الأليمة فى التصاعد ، وتبدأ الأوضاع المقلوبة تتخذ تدريجياً وضعها الطبيعى ، فيتحول الضعفاء المأسورون فى قبضة الباطل إلى قوة لها هيبتها وقهرها ، ويتضاءل الجبابرة الغالبون أمام سطوة الحق وسلطانه . .

فقد جهز ابن زياد أهل البيت من نساء الحسين — عليه السلام — واخواته وغلمانه — رضى الله عنهم أجمعين ، وسرح بهم إلى يزيد بن معاوية ، فلما ادخلوا عليه — وقد اجتمع حوله أشراف أهل الشام ، التفت إلى على بن الحسين (زين العابدين) رضى الله عنهما ، وقال له :

« ياعلى : أبوك قطع رحمى ، وجهل حقى ، ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما قد رأيت » ! !

ولا شك أن قول يزيد مغالطة صارخة للواقع ، لأن الحسين — رضى الله عنه لم يقطع الرحم ، بل الذى فعل ذلك هو يزيد حين أمر واليه بالمدينة بأخذ الحسين — عليه السلام — بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة ، حتى يبايع ، وهو يعلم أن الحسين لا يمكن إرغامه على أمر لا يؤمن به ، وأما جهل الحسين لحق يزيد فلا موضع له ، لأنه لا حق له عليه ، بل الحق كل الحق للحسين — رضى الله عنه ، فهو الأعلى مقاما لمكانه من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، والأوفر علماً وفقهاً ، والأكبر سنا ، ولكن يزيد جهل كل ذلك ، وعامل الحسين معاملة من أخذته العزة بالاثم ، وخالف وصية أبيه إليه وهو على فراش الموت حيث قال له بشأنه : « ان له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم » وقال له فى وصية أخرى : « وإياك وخبرة أهل الشرف ، واستهانتهم ، والتكبر عليهم » والحسين رضى الله عنه — هو فى مكان القمة من أهل الشرف ، ومع ذلك فان يزيد لم يعرف له مكانته ، ووقف منه موقف المستهين المتكبر . وأما ما زعمه يزيد من منازعة الحسين رضى الله عنه لسلطانه فقد أوضحنا آنفاً

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير : ٤ / ٤٢٠ .

أن الحسين لم ينازع أحداً سلطاناً ، ولم يطلب حكماً أو خلافة ، وإنما كان مطارداً من مكان إلى آخر ، حتى انتهى الأمر بحصاره وقتله (١) .

وإزاء هذه المغالطات : لم يجد على بن الحسين — رضى الله عنهما — خيراً من أن يجيب بآية من كتاب الله تحسم كل نزاع . . فقال :

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها » (٢) .

فقال يزيد لابنه خالد : أردد عليه . . ، ولكنه لم يدر ما يقوله ، فقال يزيد : قل له :

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير » (٣) .

وسكت يزيد برهة ، ثم نظر إلى نساء الحسين — رضى الله عنه وصبيانه فرأى ما كانوا عليه من بؤس ومهانة . . فلم يتمالك أن قال ، مستنكرا لهذا الحال :

« قبح الله ابن مرجانة ، لو كانت بينه وبينكم رحم أو قرابة ، ما فعل هذا بكم ، ولا فعل بكم هكذا » (٤) .

ولا شك أن حالة أهل بيت الحسين — رضى الله عنهم أجمعين — إذا كانت قد آلمت يزيد ، فانها من باب أولى ، تركت أسوأ الأثر فى نفوس الكثيرين من أشراف أهل الشام ، الذين مهما كانت صلتهم بيزيد ، فان إيمانهم يحملهم على استشعار الحب للحسين وأهل بيته ، والتألم لكل ما يحيق بهم من أذى لأنهم بضعة من النبى صلى الله عليه وسلم .

* * *

وتبدأ الأحداث فى تفاعلها رغم أنف الظالمين ، فقد جيء برأس سيد شباب أهل الجنة ، وإذا برجل من حثالة أهل الشام ينبرى فيلعن الحسين ويلعن أباه — رضى الله عنهما — تزلفاً منه لسادته ، وثقة منه أن أحداً لن ينكر عليه سفاهته ، ولكن أبى الله الا أن يخيب فاله ، . . فاذا بواثلة بن الأسقع (٥) — رضى الله عنه — يقوم فيعلن بين القوم مكانة أهل البيت من الله ورسوله ، ويقذف بكلمة الحق مدوية عالية ، فتزهق باطل المنافق قائلا بكل ما فى قلبه من إيمان بالله تعالى ، وحب لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وتوقير لأهل البيت رضى الله عنهم وأرضاهم !

---

(١) لمزيد من الإيضاح : يرجع إلى الفصل العاشر فى بحث « قضية القضايا » .

(٢) سورة الحديد : آية ٢٢ .

(٣) سورة الشورى : آية ٣٠ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٦١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٤ .

(٥) واثلة بن الأسقع : أسلم قبل تبوك وشهدها ، وخدم النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين ، وكان من أهل الصفة ، ثم نزل الشام ، وشهد فتح دمشق وحمص وغيرهما ، ثم تحول إلى بيت المقدس ، ومات بها فى آخر خلافة عبد الملك بن مروان ، وله ثمان وتسعون سنة ، الاستيعاب : لابن عبد البر القرطبى بهامش الاصابة : ٣ / ٦٤٤ .

« والله لا أزال أحب عليا والحسن والحسين وفاطمة ، بعد ان سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيهم ما قال . . لقد رأيتنى ذات يوم وقد جئت النبى صلى الله عليه وسلم ، فى بيت أم سلمة ، فجاء الحسن فأجلسه على فخذه اليمنى وقبله ، ثم جاء الحسين فأجلسه على فخذه اليسرى وقبله ، ثم جاءت فاطمة فأجلسها بين يديه ، ثم دعا بعلى ، ثم قال :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيراً (١) »

لم يجرؤ أحد أن يرد على واثلة بكلمة ، فكان سكوتهم أبلغ دلالة على تصديقهم له ، وتجاوبهم معه ، وتأثرهم لما حل بأهل البيت الكريم ، من بلاء أليم ، وعدوان آثم .

قوة الحق تزهق جبروت الباطل :

ويأبى الله الا أن برغم أنوف الطغاة ، فى الوقت الذى ظنوا فيه أن لن يقدر عليهم أحد ، فاذا برجل من أهل الشام يتقدم إلى يزيد ، وقد أخذ بما كانت عليه السيدة فاطمة بنت على — رضى الله عنهما — من جمال وجلال ، . . ويقول مشيراً إليها

يا أمير المؤمنين : هب لى هذه الجارية . . ! ! . . فأرعدت السيدة فاطمة وفرقت ، ظناً منها أن ذلك يجوز لهم ، وتعلقت بثياب شقيقتها الكبرى — السيدة زينب رضى الله عنهما — وكانت من العقل والفقه بحيث تعلم أن ذلك لا يجوز شرعاً ، لذلك : لم تتردد العقيلة الطاهرة أن صاحت بالشامى مغضبة ، وهى تقول :

« كذبت ولؤمت . . ! ما ذلك لك ولا له » فقال يزيد — وقد استشاط غضباً لإشارة السيدة زينب إليه ، تلك الإشارة التى تشعر بعدم المبالاة به ، والاستهانة بقدره :

« كذبت . . . : والله أن ذلك لى ، ولو شئت أن أفعله لفعلت » (٢) . . :

وقد أثبت يزيد برده هذا أنه جاهل بحكم الإسلام فى مثل هذه الأمور ، لذلك وقفت منه السيدة زينب — رضى الله عنها . . موقف المعلم ، فقالت له متحدية :

« كلا . . ! والله ما جعل الله ذلك لك ، إلا أن تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا » (٣) . . ! !

فازداد يزيد غضبا ، وأحس بموقفه يزداد حرجاً أمام أشراف الشام ، فقال لها مهدداً :

« اياى تستقبلين بهذا ؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك » .

وقد تورط يزيد فى إجابته ، وسقط سقطة خطيرة بتكفيره علياً والحسين — رضى الله عنهما — وقد بشر النبى صلى الله عليه وسلم أولهما بالجنة ، وأخبر بأن الثانى هو سيد شباب أهل الجنة ، فكيف يكون خروجهما من الدين مع كل ذلك ؟ !

واستمرت السيدة الطاهرة فى موقفها .. تؤدى دور المعلم ، فلم تبال بثورة يزيد ، ولا بتمكنه

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير : ٢ / ٢١ .

(٢ ، ٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٦١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٤ .

فى الأرض ، وقدرته على البطش ، فردت عليه فى ثقة وإيمان ، تذكره بالحقائق التى لا ينكرها أحد ، ولا محل لأى جدال فيها ، أو مناقشة حولها ، وتقول له :

« بدين الله : ودين أبى ،ودين أخى وجدى ، اهتديت أنت وأبوك وجدك » (١) .

وأسقط فى يد يزيد ومع ذلك : أخذته العزة بالإثم فقال :

كذبت يا عدوة الله . . ! ! . ولم تجد السيدة زينب — رضى الله عنها — خيراً من أن تحسم هذه المهاترات ، فقالت :

« أنت أمير مسلط ، تشتم ظالماً ، وتقهر بسلطانك » .

وسكت يزيد مرغماً ، وقد أقامت السيدة زينب — رضى الله عنها — الحجة واضحة عليه ، وأحس بالخجل من نفسه ، وهو يقف من حفيدة سيد المرسلين — صلى الله عليه وسلم — موقف التجبر والاستعلاء

ولقد حققت السيدة زينب — رضى الله عنها — وهى فى ضعفها واستكانتها — أول نصر حاسم على الطغاة ، وهم فى سلطانهم وقوتهم ، فقد أفحمته المرة بعد المرة ، فلم يجد سبيلا إلا أن يلجأ إلى المكابرة ، فأنكر دون أن يدرى — أن الإسلام الذى بعث به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، هو الذى أخرج الكثير من الناس — ومن بينهم هو وأبوه وجده — من ظلمات الجهالة والوثنية ، إلى نور المعرفة والإيمان ، فأظهر بذلك للملأ جهله ، كما كشف قبل ذلك عن قلة فقهه ، حين غاب عنه ما أدركته السيدة زينب لأول وهلة ، أن مطالبة الشامى بأن توهب له السيدة فاطمة بنت على — رضى الله عنهما — لا تجوز شرعاً ، لأن نساء المسلمين لا يصح مطلقاً اعتبارهم سبياً ، ومعاملتهم معاملة السبى فى الحروب .

* * *

وهكذا ، ظهر الحق الضعيف ، المهيض الجناح ، المجرد من كل سلاح ، وزهق الباطل الشامخ بأنفه ، المعتز بأسلحته وأمواله وسلطانه ، القوى بجنده وأعوانه ، حتى أن رجل الشام لما أعاد طلبه إلى يزيد ، قائلا « يا أمير المؤمنين : هب لى هذه الجارية » أجابه يزيد مغضباً : « أغرب . . وهب الله لك حتفاً قاضياً » (٢) :

مهـــاترات وجهـــالات :

ولقد أحس يزيد بلاشك بحرج موقفه ، لاسيما ومجلسه يغص بأشراف الشام الذين دعاهم إليه ، وكان من الطبيعى أن يحاول بأى وسيلة إخفاء هزيمته ، أو التخفيف من أثرها . . فالتفت إلى من حوله وقال (٣) :

« أتدرون من أين أتى ابن فاطمة ؟ وما الحامل له على ما فعل ؟ وما الذى أوقعه فيما وقع فيه ؟ . .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٦٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٥ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٦٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٥ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٦٣ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٥ .

يزعم أن أباه خير من أبى ، وأن أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من أمى ، وجده رسول الله خير من جدى ، وأنه خير منى . . وأحق بهذا الأمر منى . . » .

« فأما قوله : أبوه خير من أبى : فقد حاج أبى أباه إلى الله عز وجل ، وعلم الناس أيهما حكم له».

« وأما قوله : أمه خير من أمى : فلعمرى أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خير من أمى ، وأما قوله جده خير من جدى ، فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر ، يرى أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه أنما أتى من قبل فقهه ، فلم يقرأ : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير »(١) . . وقوله تعالى : « والله يؤتى ملكه من يشاء »(٢) .

وواضح أن ما ذكره يزيد فيه كثير من المغالطات ، ولعله أخذته العزة بالإثم فوضع نفسه موضع المستنبط لما يجول بخاطر سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — . . ثم وضع نفسه موضع المعلم منه — فضلا عما فيه من تهافت ، نوضحه فيما يلى :

أولا : أن الحسين — عليه السلام — لم يثبت عنه أنه قال ما ذكره يزيد عنه ، لأنه لا حاجة به إلى قوله ، فكونه عليه السلام خيراً من يزيد ، نفساً وأبا وأما وجداً ، أمر معروف ، لا خلاف فيه بين المسلمين :

١ — فالحسين : هو سيد شباب أهل الجنة . . وقد صحب النبى صلى الله عليه وسلم وروى عنه ، ولا مجال للمقارنة بين صحابى وغيره ، فكيف والحسين — رضى الله عنه — هو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن تصريحه صلى الله عليه وسلم بأن حسيناً منه ، وأنه من الحسين ، وأن الله يحب من أحبه ويبغض من يبغضه ، وليس بعد هذا علو أو فضل . .

٢ — وأما على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — فهو رابع الخلفاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأول من آمن به صلى الله عليه وسلم بعد خديجة والصديق ، وقد اختاره النبى صلى الله عليه وسلم زوجاً لابنته الزهراء سيدة نساء العالمين ، ولا مجال للمقارنة بينه وبين معاوية — رضى الله عنهما — لأن علياً فى مقدمة الطبقة الأولى من الصحابة ، فضلا عن اعتراف معاوية بفضله ، . . وأما ما زعمه يزيد من أن علياً حاج معاوية إلى الله ، وعلم الناس أيهما حكم له ، فان هذه الواقعة لا وجود لها ، ولم يرد بها أى نص فى كتاب أو حديث أو أثر من آثار الصحابة ، أو رواية من روايات ثقات المؤرخين .

ثانياً — أن ادعاء يزيد أن الحسين — رضى الله عنه — زعم أنه أحق بهذا الأمر منه ، فالواقع الذى لا شك فيه أنه أحق به ، ولكنه تسامى عنه وزهد فيه ، ولو لم يحاول يزيد إرغامه على بيعته ، لظل فى مكانه بالمدينة ، ملء الأسماع والأبصار ، يرشد الناس فى أمور دينهم ، ويعبد الله حتى يأتيه

---

(١) سورة آل عمران : آية ٢٦ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٤٧ .

اليقين ، ولو ترك — رضى الله عنه — بعد التجائه إلى مكة ، لما فكر فى الخروج منها ، خوفاً من أن تستحل به حرمتها ، مما أوضحناه بالتفصيل فى حديثنا عن « قضية القضايا » بالفصل العاشر .

ثالثاً — أن الغرور بلغ بيزيد إلى حد الظن بأنه أكثر علماً ، وأعمق فقها ، من سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — وأن الحسين — وهو القوام بالليل . . الصوام بالنهار — لم يقرأ قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك » . الخ . . ، ومثل هذه الجهالة لا تستحق أى مبالاة أو اعتبار (١) .

انهيار الطغـاة ازاء قـوة الايمان :

ولم يقف يزيد فى غروره عند هذا الحد ، بل بلغ به الأمر أنه أخذ ينكت ثغر سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — بقضيب فى يده ، وهو يقول :

ان هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام المرى :

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواضيب فى أيماننا تقطر الدما
يفلقن هاما من رجال أعزة علينا . . وهم كانوا أعق وأظلما(٢)

ولم يعدم الحق نصيراً — حتى فى مجالس الطغاة — فإذا بأبى برزة الأسلمى — صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينكر على يزيد فعلته ، ويقول له مغضباً .

« اتنكُت بقضيبك فى ثغر الحسين؟ ! أما والله لقد اخذ قضيبك هذا مأخذا ؛ لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشفه ، أما إنك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ، ويجيء هذا يوم القيامة ، وشفيعه محمد صلى الله عليه وسلم » . . ثم قام فولى . . (٣)

ورأت السيدة زينب ذلك المشهد الأليم ، فلم تستطع عليه صبرا ، وانبرت تندد بيزيد بكل شدة وتقرعه فى قوة وجرأة ، وكأنها — رضى الله عنها — هى الحاكمة الآمرة ، . . وكأنه هو الأسير المغلوب على أمره ، وتقول له فيما قالت ، بعد حمد الله والصلاة على رسواه وآله أجمعين :

أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض ، وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى ، أن بنا هوانا على الله ، وبك عليه كرامة ، وان هذا لعظم خطرك ، فشمخت بأنفك ، ونظرت فى عطفيك جذلان فرحاً ، حين رأيت الدنيا مستوسقة لك ، والأمور متسقة عليك ، . . أنسيت قول الله تبارك وتعالى : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين »(٤) .

---

(١) يردد بعض الكتاب المعاصرين هذه المغالطات التى تضمنتها مقالة يزيد ، ويتخذونها دليلا على أن الحسين — رضى الله عنه — كان فعلا ينازعه الخلافة ، فى حين يغفلون أقوال الحسين — رضى الله عنه — وسلوكه فى مختلف المواطن وفيهما ما يدحض ادعاءات يزيد من أساسها . فأى الرجلين أولى بالتصديق ؟ وأيهما أولى بأن يكون حجة على الآخر . . ؟

(٢ ، ٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٦٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٢ .

(٤) سورة آل عمران : آية ١٧٨ .

« أمن العدل — يابن الطلقاء — تخديرك حرائرك وإماءك ، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسبايا ، قد هتكت شعورهن ، وأبديت وجوههن . . ليس معهن من حماتهن حمى ، ولا من رجالهن ولى . . وأنت تنكث ثنايا أبى عبد الله بمخصرتك ؟ . . والله ما فريت إلا فى جلدك ، ولا حززت إلا فى لحمك ، وسترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم برغمك ، وعترته ولحمته فى حظيرة القدس ، يوم يجمع الله شملهم ملمومين من الشعث ، وهو قول الله تبارك وتعالى :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون »(١) .

« وسيعلم من بوأك من رقاب المؤمنين — إذا كان الحكم الله ، والخصم محمد صلى الله عليه وسلم ، وجوارحك شاهدة عليك ، فبئس للظالمين بدلا — أيكم شر مكاناً وأضعف جندا » .

« فلئن اتخذتنا مغنماً ، لتتخذن مغرما ، حين لاتجد إلا ما قدمت يداك ، تستصرخ بابن مرجانة ، ويستصرخ بك ، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان ، وقد وجدت أفضل زاد لك ، قتلك ذرية محمد صلى الله عليه وسلم فوالله ما اتقيت غير الله ولا شكواى إلا إلى الله ، فكد كيدك واسع سعيك ، وناصب جهدك فوالله لا يرحض عنك عار ما أتيت إلينا أبدا ، يوم ينادى المنادى : « ألا لعنة الله على الظالمين »(٢) .

« والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة » (٣) .

تراجع الطغاة .. عن غرورهم :

ولقد سجلت السيدة زينب — رضى الله عنها — بموقفها هذا ، وما يفيض به من شجاعة وجرأة ، وما أظهرته من فصاحة وبلاغة ، أكرم صورة لسيدة أهل البيت المطهر ، التى تربت فى أشرف بيئة ، على مكارم الأخلاق ، وأسمى الآداب ، ونهلت من أعذب منهل ، وأصفى مورد ، مما غرس فى أعماقها من الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، ما تزول دونه الجبال ، وتنحنى أمامه الجبابرة .

ولقد كان لعباراتها الصادرة من أعماق نفس جريحة ، وقلب مكلوم ، صداها العنيف فى النفوس ، فأحدثت هزة شديدة فى مجلس يزيد ، واشاعت بين أشراف الشام أعمق مشاعر الحزن والأسى ، وأشد إحساسات التذمر والأسف .

وحتى يزيد نفسه : لقد زلزلت هذه العبارات من كيانه ، وحطمت من غروره ، وخفضت من كبريائه ، فقد استطاعت السيدة الطاهرة — رضى الله عنها ، أن تقيم الحجة قاطعة عليه ، وأن تسوق التهمة واضحة إليه ، أمام كبراء الدولة وأمرائها ، الذين دعاهم ليشهدوا ما أحرزه من ظهور وانتصار ، فإذا بهم يرونه فى موقف الاتهام والانكسار ، لا يستطيع حيلة ، ولا يملك حجة ، ولا يهتدى سبيلا . وأخيراً . . استشار يزيد من حوله فى أمر أهل البيت ، فقال بعض المنافقين — قبحهم الله :

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٦٩ .

(٢) سورة هود : آية ١٨ .

(٣) العقيلة الطاهرة : لصاحب الفضيلة الشيخ أحمد فهمى محمد المحامى الشرعى : ص : ٤٧ ، ٤٨ .

يا أمير المؤمنين ، لا تتخذن من كلب سوء جروا . . اقتل على بن الحسين ، حتى لا يبقى من ذرية الحسين أحد . فسكت يزيد ، وقد ازداد موقفه حرجاً . . إلى أن انبرى النعمان بن بشير (١) — رضى الله عنه — صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : اعمل معهم كما كان يعمل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو رآهم على هذه الحال »(٢) .

***

ولم يتمالك يزيد ، إلا أن يأذن لمن دعاهم إلى مجلسه بالانصراف ، . وأمر بالسيدة زينب — رضى الله عنها — ومن معها من نساء أهل البيت أن ينزلن فى دار الخلافة ، فاستقبلهن نساء الدار بالبكاء والنواح ، مشاركات للسيدة الطاهرة ومن معها فى مصابهن الأليم . .

وأحاط يزيد على بن الحسين وأخاه عمر بن الحسين — رضى الله عنهم أجمعين — بكل ما يستطيع من رعاية وإكرام ، فكان لا يتناول طعامه إلا معهما ورد إلى نساء أهل البيت المطهر أضعاف ما سلب منهن ، محاولا بذلك التخفيف من مرارة المصيبة فى نفوسهن ، والتكفير عما اقترفه رجاله من عدوان ، وارتكبوه من اثم مبين .

ولما أذن وقت الرحيل إلى المدينة . . أمر يزيد النعمان بن بشير رضى الله عنه ، أن يبعث مع نساء أهل البيت رجلا أميناً معه رجال وخيل ، ويكون معهن على بن الحسين رضى الله عنهما ، ثم اخذ يودعهم ويقول معتذراً . :

— قبح الله ابن سمية ، أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة إلا أعطيته إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ، ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن الله قضى ما رأيت . . ، ثم أعطاه مالا وفيرا ، وأوصاه أن يكاتبه بكل ما يحتاجه . .

***

وهكذا انتصرت العقيلة الطاهرة ، المجردة من كل سلاح ، إلا إيمانها بالله تعالى ، على قوة السلطان ، وما يحيط به من جند وأعوان ، حتى أرغمته بكلماتها الرادعة ، وحججها القاطعة ، على التحول من موقف الغرور والشماتة ، إلى استشعار الأسف والندامة ، والاعتذار عن الجريمة الشنعاء ، والتنصل من مسئوليتها . .

---

(١) النعمان بن بشير الأنصارى هو ابن بشير بن سعد اول من بايع لأبى بكر يوم السقيفة ، وكان النعمان اول مولود فى الإسلام للأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً ، وقد تولى قضاء دمشق بعد فضاله بن عبيد ، وكان اميراً لمعاوية على الكوفة اسبعة أشهر ، ثم أميراً له على حمص ، ثم استعمله يزيد على الكوفة إلى ان عزله عنها وضمها إلى ابن زياد ، فلما مات يزيد دعا لابن الزبير . . وقد استشهد فى قتاله ضد مروان بن الحكم سنة ٦٥ ، وكان كريماً ، جوادا ، شاعراً ، من ابلغ الناس خطابه . الاصابة لابن حجر : ٣ / ٥٥٩ ، الاستيعاب بهامش الأصابة : ٣ / ٥٥٠ — ٥٥٥ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٦ .

ولا شك أن هذا النصر ، أعظم قدراً ، وأبعد أثراً ، من هزيمة الأعداء ، بعد سفك الكثير من الدماء ، لأن الظهور بالقوة فى ميادين الحروب ، لا يقاس بالانتصار على الأرواح والقلوب .

ارتفاع مكانة أهل البيت :

ولقد امتد صدى الأحداث إلى كل مكان فى الجزيرة العربية ، فاهتزت له القلوب والمشاعر ، وارتفعت مكانة أهل البيت بين الناس : وتغلغلت محبتهم فى القلوب ، حتى أن الرسول الذى بعث به يزيد ، لحراسة أهل البيت فى عودتهم إلى المدينة ، أظهر من حسن الصحبة ، وصدق الرعاية ، ما حمل نساء أهل البيت المطهر ، على أن يبعثن له بحليهن ، تقديراً لحسن صحبته ، واعترافاً منهن بإخلاصه . ولكن الرجل أبى أن يقبل منهن شيئاً ، لأنه إنما فعله بوازع من نفسه ، مدفوعاً بحبه للرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، وإشفاقة لما وقع بهم من أذى وما أصابهم من بلاء ، حتى إنه ليقول عند رده للحلى ، مؤكداً ولاءه وإخلاصه :

« لو كان الذى صنعت معكم إنما هو للدنيا ؛ كان فى هذا الذى أرسلتموه ما يرضينى وزيادة ، ولكن : والله ما فعلت ذلك إلا لله تعالى ، ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم »(١) .

ثورة المشاعر بالمدينة :

واستقبل أهل المدينة المنورة — على صاحبها أعطر الصلاة وأزكى التسليم — القافلة الحزينة بالبكاء والأسى ، وقد تفطرت القلوب لهول المصاب . وأرسلت القصائد معبرة عن الألم العميق ، والغيظ الدفين ، والثورة المتأججة فى الأعماق . .

ولم يكد والى المدينة — عمرو بن سعيد — يعلن الناس بمقتل سيد شباب أهل الجنة ، اعلان الظافر السعيد بانتصار أميره ، حتى خرجت زينب بنت عقيل بن أبى طالب ومعها نساؤها ، ناشرة شعرها ، وهى تردد قائلة !

ماذا تقولون ان قال النبى لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم ؟
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى منهم أسارى . . ومنهم ضرجوا بدم
ماكان هذا جزائى إذنصحت لكم أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحم(٢)

وإذا كانت هذه الأبيات تعبر عن الأسى والحزن ، فان صدى الأحداث يظهر تصاعده ، فى تطور المعانى فى قصائد أخرى من السلبية التى تقف عند حد تصوير الحزن والألم ، إلى الايجابية التى تنتقل إلى التنديد بالطغاة ، وبيان قبيح فعلهم ، وشناعة جرمهم ، من ذلك ، مارثى به بعض الشعراء ، سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — إذ يقول :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٦٣ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٥ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٦٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٨ .

جاءوا برأسك يابن بنت محمد ... متزملا بدمائه تزميـــــلا
وكأنما بك يابن بنت محمد ... قتلوا جهارا . : عامدين رسولا
قتلوك عطشانا ، : ولم يتدبروا ... فى قتلك القرآن والتنزيلا
ويكبرون بأن قتلت : . وإنما ... قتلوا بك التكبير . : والتهليلا (١)

وتستمر قصائد الرثاء فى تطورها المتصاعد ، من التعبير عن الأسى ، إلى التنديد بالمعتدين : .وأخيرا : إلى التهديد بالانتقام والثأر ، كما يظهر من قصيدة سليمان بن قتيبة ، التى يقول فيها :

وأن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقابامن قريش : : فذلت
فان تتبعوه عائذا لبيت تصبحوا ... كعاد تعمت عن هداها فضلت
مررت على أبيات آل محمد ... فألفيتها أمثالهـا حين حلت
فلا يبعد الله البيوت وأهلها ... وأن أصبحت منهم برغمى تخلت
وكانوا لنا غنما فعادوا رزية ... لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
أولئك قوم لم يشيموا سيوفهم ... ولم تنك فى أعدائهم حين سلت
وعند يزيد قطرة من دمائنا ... سنجزيهم يوما بها حيث حلت
ألم تر أنالأرض أضحت مريضة ... لقتل حسين : . والبلاد اقشعرت
وقد أعولت تبكى السماء لفقده ... وأنجمها ناحت عليـه وصلت

* * *

وظن والى يزيد على المدينة : عثمان بن محمد بن أبى سفيان ــ الذى حل محل عمرو بن سعيد بن العاص ، استجابة لشكوى أهل المدينة من غلظته وشدته ــ . .ظن أنه يستطيع تهدئة النفوس ببذل المادة ، ومجاملة الكبراء ، . . فبعث وفدا من أشراف المدينة إلى يزيد بن معاوية ، فأكرمهم ، وأحسن وفادتهم ، وأعظم جوائزهم ، طمعا فى ارضائهم ، وكسبا لودهم ، وضمانا لولائهم ، ولكن هيهات هيهات . : فليس أهل المدينة من الذين يشترى ولاؤهم بالدرهم والدينار ، وهم الذين كانت فجيعتهم فى ابن بنت رسول الله أكبر من أن يعوضها كل متاع الدنيا وأموالها : .لقد كان رضى الله عنه يعيش طوال حياته بين ظهرانيهم ، ويحتل من قلوبهم أسمى مقام ، ويملأ منهم الأسماع والأبصار ، ويرون فى صورته ومكارم أخلاقه مايذكرهم بالحبيب الأعظم : : بالنبى صلى الله عليه وسلم ، الذى من الله به عليهم ، فكانوا ببركته أسعد الناس ، وغدوا بهدايته ونوره خير أمه أخرجت للناس :

وهكذا : : عاد وفد المدينة ، لاليدعو أهل المدينة إلى الولاء ليزيد ، وإنما ليعلن سخطه عليه ، ولينشر بين الناس مارأوه فيه من إعراض عن الدين ، ومعاقرة للخمر ، وترك للصلاة ، وإقبال على اللهو ، وغير

---

(١) المصدر نفسه .

ذلك مما ضاعف من ثورة النفوس عليه ، وأكد كراهية الناس له ، حتى أعلنوا الخروج على طاعته ، وجاهروا بخلعه ، وبايع الأنصار منهم عبد الله بن حنظلة على الموت ، وبايع المهاجرون عبد الله بن مطيع على مثل ذلك (١) .

مهاجمة المدينة واباحتها ثلاثا :

واجتمع أهل المدينة على اخراج واليها ، واجلاء بنى أمية عنها فحاصروهم فى دار مروان بن الحكم ، حتى كتبوا إلى يزيد بما هم فيه من الذل والمهانة والجوع والعطش .

ومن الطبيعى أن لايقفت يزيد مكتوف الأيدى ازاء هذه الأحداث الخطيرة ، وهو الذى يميل بطبيعته إلى العنف والبطش ، فكيف وقد أوشك الزمام أن يفلت منه ، وتيار الحوادث أن يجرفه . كل ذلك دفع به بالرغم عنه ، إلى مزيد من العنف والقسوة فى معالجة الأمور . أملا فى أن ينقذ بهما البقية الباقية من هيبته وسلطانه .

ولم يقف يزيد — فى بطشه — عند حد . لقد فقد أعصابه وهو يرى الأرض تميد تحت قدميه ، فجاءت تعليماته التى أصدرها إلى مسلم بن عقبة — قائد الجيش الذى أعده لحرب أهل المدينة — أبعد ماتكون عن روح الإسلام وسماحته ، وأقرب ماتكون إلى الجاهلية الأولى ، حيث قال له :

أدع القوم ثلاثا . فإن رجعوا إلى الطاعة فأقبل منهم . وكف عنهم ، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا ظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثا ، ثم أكفف عن الناس(٢) .

وقد يكون ليزيد بعض العذر فى مقاتلة أهل المدينة ، ما داموا قد خرجوا عليه ، ورفضوا الرجوع إلى طاعته ، بعد دعوتهم إلى ذلك ، لأنه لا يجوز الخروج على طاعة الإمام وإن كان فاسقاً ، لما فى ذلك من إثارة للفتنة ، وتفرقة لوحدة الأمة ، واضعاف لشوكتها ، وإغراء للأعداء بالطمع فيها ، ولكن . أى عذر له فى إباحته المدينة ثلاثا — إذا ما تحقق له النصر — دماءها وأموالها وأعراضها ؟ وهى دماء وأموال وأعراض المسلمين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رسول الإنسانية والسلام ، الذى حين أمكنه الله من أعدائه الذين أخرجوه وآذوه ، وقتلوا أصحابه ، لم يزد أن قال لهم وهو فى موقف العزة والقوة ، قائماً على باب الكعبة :

---

(١) عبد الله بن حنظلة ، ويقال له ابن غسيل الملائكة ، لأن والده حين استشهد فى غزوة أحد ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان صاحبكم تغسله الملائكة ، فاسألوا صاحبته . . ، فقالت : خرج وهو جنب لما سمع الهيعة : فقال صلى الله عليه وسلم : (لذلك تغسله الملائكة) وقد رأى عبد الله النبى صلى الله عليه وسلم . وروى عنه ، وكان فى السابعة من عمره حين لحق صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى « الاصابة لابن حجر : ١ / ٣٦١ » .

أما عبد الله بن مطيع ، فقد حنكه النبى صلى الله عليه وسلم بتمرة ، ودعا له بالبركة ، وكان من خيرة رجال قريش شجاعة ونجدة ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم بعض الأحاديث . فلما انهزم أهل الحرة ، لجأ ابن مطيع إلى مكة ، ووازر ابن الزبير على أمره ، وقتل معه فى حصار الحجاج لمكة « الاصابة : ٣ / ٦٥ » .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٨٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢١٩ .

ـ يامعشر قريش ، ويا أهل مكة ؛ ماترون أنى فاعل لكم ؟ قالوا :

ـ خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال صلى الله عليه وسلم :

ـ اذهبوا فأنتم الطلقاء (١) ! !

هكذا كان موقف سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم من كفار قريش حين أظهره الله عليهم : عفو كريم . . مع القدرة على التنكيل والإنتقام .

بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى صراحة عن قتل الصبيان والنساء (٢) ، وجاء الصديق رضى الله عنه بعده فقال فى وصيته لجيش أسامة مؤكدا مانهى عنه سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم : « لا تخونوا ، ولاتغلوا ، ولاتفسدوا ، ولاتمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولاشيخا كبيراً ولا إمرأة ، ولاتعقروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقتطعوا شجرة مثمرة »(٣) .

* * *

ورفض أهل المدينة الاستسلام ، فاقتحمها مسلم بجيوشه ، ونهب أموالها ، وقتل أشرافها وقراءها ـ وفيهم الكثير من الصحابه وأبنائهم ، ثم أباحها ثلاثة أيام ، جرت فيها الدماء أنهارا ، وهتكت فيها الأعراض دون حساب .

وقد ظن يزيد أنه بذلك يوطد لسطانه ، ويقضى على الفتنة التى أشعلها بموقفه من سيد شباب أهل الجنة وأهل بيته ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ ولكنه بدلا من ذلك ، زاد سلطانه ضعفا ، والفتنة اشتعالا ، وقد غاب عنه ما لأهل المدينة عند الله ورسوله من مقام كريم ، فهم الذين آووا ونصروا ، وهم الذين آثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وهم الذين حذر النبى صلى الله عليه وسلم من ايذائهم أو الاعتداء عليهم ، فقال :

« لا يكيد أهل المدينة أحد إلا إنماع كما ينماع الملح فى الماء » (٤) . وقال أيضاً :

« من أخاف أهل المدينة ظلما أخافه الله ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لايقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولاعدلا » (٥) .

هذا هو جزاء من أخاف أهل المدينة ، فكيف بمن قتل سبعمائة من نجوم الهدى ، من المهاجرين والأنصار ؟ ؟ وعشرة آلاف من غيرهم ؟ ؟ بل كيف بمن استباح أعراض نسائها ، وهدم دورها ، ونهب أموالها ؟ ؟

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٣ / ٦١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٤ / ٣٠١ .

(٢) البخارى ومسلم : عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ بإسناد صحيح .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٣ / ٢٢٧ .

(٤) البخارى ومسلم : من حديث سعد بن أبى وقاص .

(٥) الإمام أحمد : من حديث السائب بن خلاد ، ومن حديث جابر بلفظ : من أخاف أهل المدينة ، فقد اخاف ما بين جنبى .

صدى الأحداث بمكة المكرمة :

ولم تكن مكة بأهدأ حالا من المدينة ، فانه لم يمض إلا قليل على مقتل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — حتى كان لذلك أثره العميق فى النفوس ، فملأتها غضبا وسخطا ، ودفعت بها إلى مقاومة الظلم ، والثورة على الطغيان .

وضاعف من ثورة النفوس بمكة ، ماوقع بأهل المدينة من البلاء والفناء ، وما اقترفته جيوش يزيد من الكبائر ، فأخذ عبد الله بن الزبير — رضى الله عنهما — يخطب الناس ، محرضا لهم على الجهاد ، ومعظما فى أعينهم ، مااقترفه يزيد من الآثام ، بقتل ابن بنت رسول الله وأهل بيته وأصحابه — رضى الله عنهم — ، بإباحته المدينة ، واهداره لمقدسات أهلها ثلاثة أيام ، ومنددا فى نفس الوقت بأهل الكوفة والعراق ، الذين دعوا الحسين — رضى الله عنه — إليهم ثم خذلوه ، وتخلوا عن نصرته ، ومعرضا بيزيد وسلوكه ، حيث يقول :

« أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ، ونصدق قولهم ، ونقبل لهم عهدا ؟ لا ، ولانراهم لذلك أهلا ، أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا فى النهار صيامه ، أما والله ما كان يستبدل بالقرآن الغناء والملاهى ، ولا بالبكاء من خشية الله اللغو والحداء ، ولابالصيام شرب المدام ، وأكل الحرام ، ولابالجلوس فى حلق الذكر الصيد ، فسوف يلقون غيا » (١) .

واستجاب كثير من الناس لدعوة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، إلى مخالفة يزيد وخلعه ، وبايعوه على ذلك سرا وعلانية ، حتى عظمت شوكته ، وتفاقم خطره ، لاسيا بعد أن انضم إليه نجدة ابن عامر الحنفى ، الذى قام فى اليمامة ، معلنا الخروج على يزيد ، كما تلاحق به جماعات ممن بقى من أشراف المدينة ، فأصبحت له الكلمة النافذة ، والسيطرة التامة على الحجاز ، حتى أنه حج بالناس فى تلك السنة .

ولم يقف يزيد مكتوف الأيدى ازاء ذلك ، فأصدر تعليماته إلى مسلم بن عقبة — سفاح المدينة — بالتوجه إلى مكة لقتال ابن الزبير — رضى الله عنهما — ولكنه هلك فى الطريق إليها ، فتولى القيادة حصين ابن نمير ، فحاصر البلد الحرام حصاراً شديداً طوال شهرين كاملين ، وأقام المجانيق تجاه الكعبة المشرفة ، ترميها بالأحجار والنيران ، حتى تهدمت جدرانها ، واحترقت أستارها وأخشابها . ومع ذلك فقد دافع ابن الزبير عن مكة دفاعاً مجيداً لم يمكن المعتدين من اقتحامها ، حتى وصلت الأنباء أخيراً بموت يزيد ، وهو فى عنفوان شبابه ، لم يتعد الخامسة والثلاثين من عمره — فارتدت جيوشه خائبة عن البلد الحرام ، وانقلب المعتدون إلى بلادهم صاغرين .

بين ابن عباس ويزيد :

وفى خلال تكلم الأحداث : دعا عبد الله بن الزبير . ، ابن عباس — رضى الله عنهم جميعا — إلى بيعته فأبى ، وظن يزيد أن ذلك حرصا منه على الوفاء بعهده له ، فكتب إليه يقول :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٧٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢١٢ .

« اما بعد : فقد بلغني أن ابن الزبير دعاك إلى بيعته، أنك اعتصمت ببيعتنا ، وفاء منك لنا ، فجزاك الله من ذى رحم ، خير ما يجزى المواصلين لأرحامهم ، الموفين بعهودهم ، فما أنسى من الأشياء فلست بناس برك ، وتعجيل صلتك بالذى أنت له أهل ، فانظر من طلع عليك من الآفاق ممن سحرهم الزبير بلسانه ، فأعلمهم بحاله ، فانهم منك أسمع الناس ، ولك أطوع منهم للمحل » :

ولكن ابن عباس — رضى الله عنهما — وهو الذى لم يتخلف عن مبايعة يزيد بعد وفاة معاوية ، حرصا على وحدة المسلمين ، وحقنا لدمائهم — كان قد بلغ به الأسى لمقتل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — حدا لم يدع فيه مجالا لمجاملة فى الحق ، أو مهادنة فى الباطل ، فلم يتردد فى الكتابة إلى يزيد ، مصارحا إياه باستنكاره العدوان ، وامتناعه عن العمل لتأييده ، :: بل وترقبه ساعة الثأر والانتقام ، إذ يقول له :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابك ، فأما تركى بيعة الزبير ، فوالله ما أرجو بذلك برك ولا حمدك ، ولكن الله بالذى أنوى عليم ، وزعمت أنك لست بناس برى ، فاحبس أيها الإنسان برك عنى فإنى حابس عنك برى وسألت أن أحبب الناس ، إليك وأبغضهم وأخذلهم لابن الزبير؟ فلا سرورا ولا كرامة ! ! كيف وقد قتلت حسينا وفتيان عبد المطلب ؟ ؟ مصابيح الهدى ونجوم الأعلام ، غادرتهم خيولك بأمرك فى صعيد واحد ، مزملين بالدماء مسلوبين بالعراء ، مقتولين بالظمأ لا مكفنين ولا موسدين ، تسفى عليهم الرياح :: حتى أتاح الله بقوم لم يشركوا فى دمائهم ، كفنوهم وأجنوهم وبى وبهم لو عززت وجلست مجلسك الذى جلست ، فما أنسى من الأشياء ، فلست بناس أطرادك حسينا من حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حرم الله ، وتسييرك الخيول إليه ، فمازلت بذلك حتى أشخصته إلى العراق ، فخرج خائفا يترقب ، فنزلت به خيلك ، عداوة منك لله ورسوله ، ولأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فطلب إليكم الموادعة ، وسألكم الرجعة ، فاغتنمتم قلة أنصاره ، واستئصال أهل بيته ، وتعاونتم عليه ، كأنكم قتلتم أهل بيت من الترك والكفر ، فلا شيء أعجب عندى من طلبتك ودى ، وقد قتلت ولد أبى ، وسيفك يقطر من دمى ، وأنت أحد ثأرى ، ولا يعجبك أن ظفرت بنا اليوم ، فلنظفرن بك يوما والسلام » (١) :

ويعطينا هذا الخطاب صورة واضحة ، عن مدى ما وصلت إليه الأمور من الشدة ، والمشاعر من التوتر ، بالنسبة لأكثر الناس حكمة ، وأوفرهم علما ، وأرجحهم عقلا ، مثل ابن عباس — رضى الله عنه — فكيف بمن دونه من عامة الناس ؟

الأخـلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو :

ولم يقف صدى الأحداث عند حد المدينة ومكة ، بل لقد أمتد دويه إلى ضمائر بعض الأمويين أنفسهم ، فأيقظها من سباتها ، وأشعرها بهول الجريمة ، التى ذهب ضحيتها سيد شباب أهل الجنة —

(١) افادة الأخبار : للعلامة محمد العربى التبانى : ٢ / ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

رضى الله عنه ــ وثمانية عشر من أقمار أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فمنهم من استشعر الندم لاشتراكه فى مقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من جاهر باستنكاره للحادث ، أو براءته منه . .

هذا هو مروان بن الحكم ؛ وهو الذى كان يحرض الوليد بن عتبة ــ والى المدينة ــ على حبس الحسين ــ رضى الله عنه ــ حتى يبايع ، أو تضرب عنقه ، . . فلا يكاد يرى وفد الكوفة وقد أقبلوا برأس الشهيد الكريم ــ رضى الله عنه ، وبقية رءوس أهل بيته ، حتى يسألهم قائلا :

ماذا صنعتم ؟ فقالوا :

ورد علينا منهم ثمانية عشر رجلا ، فأتينا والله على آخرهم ، وهذه الرءوس والسبايا ! !

فزع مروان لهول ما سمع ــ مع أنه لم يكن من محبي الحسين ــ رضى الله عنه ــ فلم يتمالك أن وثب من مكانه وانصرف ، فى حين أن أخاه يحيى بن الحكم ــ وقد كان معه ــ حين علم بما حدث ، أنكر على القوم صنيعهم ، وقال لهم :

« حجبتم عن محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، لن أجامعكم على أمر أبداً » (١) .

* * *

وهذا هو عمر بن سعد بن أبى وقاص ، قائد الجيش الذى قاتل الحسين وقتله ، يلتقى بالطاغية ابن زياد ، قائلا : أين الكتاب الذى كتبت به إليك فى قتل الحسين؟ قال عمر :

مضيت لأمرك ، وضاع الكتاب ، قال : لتجيئن به ! فكرر عمر قوله : ضاع . .

فقال ابن زياد : والله لتجيئنى به . .

وازاء الحاح ابن زياد فى استرداد كتابه ، الذى هو دليل إصراره على قتل الحسين ــ عليه السلام ــ ، بعد أن رفض قبول أى عرض من عروضه ؛ اضطر عمر بن سعد إلى مصارحته بالحقيقة فقال له :

« ترك والله يقرأ على عجائز قريش ، اعتذاراً إليهن بالمدينة ، أما والله لقد نصحتك فى حسين نصيحة لو نصحتها أبى ــ سعد بن أبى وقاص ــ كنت أديت حقه (٢) » ، أى أنه كان مخلصا كل الاخلاص فيما نصحه به من قبول أى خصلة من الخصال التى عرضها ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حقنا للدماء ، وإطفاء للنائرة . وأنه فى ذلك كان ينصحه نصيحة الابن البار لوالده .

وسمع عثمان بن زياد ــ أخو عبيد الله ــ مقالة عمر بن سعد لأخيه ، فقال معقباً :

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٦٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٦ . . وغيرهما .
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٦٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٠٨ . . وغيرهما .

صدق عمر والله ... ولوددت والله أن ليس من بني زياد رجل إلا وفى أنفه خزامة إلى يوم القيامة ، وأن حسينا لم يقتل (١) :

وسكت عبيد الله بن زياد ، دون أن ينكر على أخيه مقالته ، وقد أحس فعلا أنه بعدوانه الأثيم على سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — قد حمل نفسه أوزارا تنوء بها الرواسى ، وأنه قد خسر الدنيا والأخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، ولاسيا وأن أمه — مرجانة (٢) — ماكادت تعلم بما أقترفه أبنها ضد ابن بنت رسول الله وأهل بيته — صلى الله عليه وعليهم أجمعين — حتى قالت له مستنكرة فعلته ، ومنذرة إياه بأسوأ مصير :

« ياخبيث : قتلت ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لا ترى الجنة أبدا » (٣) ... !

* * *

وهذا هو يزيد بن معاوية : بعد أن فرح أول الأمر بمقتل الحسين — رضى الله عنه — وحسنت بذلك منزلة ابن زياد عنده ؛ لم يلبث إلا قليلا حتى ندم على ذلك فكان يقول :

« ... وما كان على لو احتملت الأذى ، وأنزلته معى فى دارى ، وحكمته فيما يريد ، وإن كان على فى ذلك وكف ووهن فى سلطانى ، حفظا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورعاية لحقه وقرابته .. لعن الله ابن مرجانة ، فانه أحرجه واضطره ، وقد كان سأله أن يخلى سبيله أو يرجع ، فلم يفعل ، أو يضع يده فى يدى ، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين ، حتى يتوفاه الله عز وجل ، فلم يفعل ، بل أبى ذلك ورده عليه وقتله ، فبغضنى بقتله إلى المسلمين ، وزرع لى فى قلوبهم العداوة ، فأبغضنى البر والفاجر ، بما استعظم الناس من قتلى حسينا ، مالى ولابن مرجانة .. لعنه الله وغضب عليه » (٤) .

واستمر الندم يلاحق يزيد ، وخاصة بعد أن اضطربت الأمور عليه ، واشتعلت الثورات ضده ، حتى كان من آخر ما تكلم به قبيل وفاته ، قوله :

اللهم لاتؤاخذنى بما لم أحبه ، ولم أرده ، واحكم بينى وبين عبيد الله بن زياد (٥) ..

وهكذا : صدق فى الطغاة قول الله تبارك وتعالى : «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» (٦).

صدى الأحداث بالكوفة :

وإذا كان مقتل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — قد وصل صداه إلى ضمائر بعض الأمويين ،

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٦٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٠٨ .

(٢) مرجانة : هى أم عبيد الله بن زياد ، وكانت مجوسية ، ثم أسلمت وحسن إسلامها .

(٣) تاريخ الإسلام : الحافظ الذهبى : ٢ / ٣٧٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٨٦ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٠٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٣٢ .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٣٦ .

(٦) سورة الزخرف : آية : ٦٧ .

فأيقظها من سباتها ، فقد كان من الطبيعي أن يكون لذلك الصدى دويه القوى فى أعماق الكثيرين من أهل الكوفة ، الذين كاتبوا الحسين — رضى الله عنه — ودعوه إليهم ، فلما جاءهم : كانوا معه بقلوبهم ، ومع أعدائه بسيوفهم ، فتخاذل الكثيرون من خيارهم عن نصرته ، وعاون شرارهم على حربه ، حتى انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه بكربلاء .

لم يستطع البعض البقاء بالكوفة ، فآثروا التحول منها إلى أى مكان آخر ، لا يذكرهم بالمأساة الأليمة ، ويبعدهم عن البقعة المشئومة ، الملوثة بدماء سيد شباب أهل الجنة عليه السلام ، ودماء أهل بيته ، وأصحابه المكرمين ، رضى الله عنهم أجمعين .

من هؤلاء : عبد الرحمن بن مل أبو عثمان النهدى ، فانه كان يسكن الكوفة ، فلما قتل الحسين — عليه السلام — تحول إلى البصرة وقال :

« لا أسكن بلدا قتل فيه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) » .

وأحس آخرون — بعد مقتل الحسين وأهل بيته رضى الله عنهم — بأنهم كانوا من الأسباب المباشرة لوقوع هذه المأساة ، بنقضهم لعهودهم إليه ، وتفرقهم عنه ، وأنه ليس أمامهم من سبيل إلى التكفير عما فرط منهم ؛ إلا أن يتعاهدوا على الأخذ بثأره ممن قتلوه ، وإلا أن يضحوا فى سبيل هذه الغاية النبيلة ، بكل ما فى أيديهم من أموال وأرواح .

وهكذا : بدأت الدعوة إلى الأخذ بثأرات الحسين — رضى الله عنه — تشق طريقها حثيثا ، سرا وعلانية ، وتزداد قوة ، يوما بعد يوم ، بما أعده القائمون عليها — من ناحية — من أموال وأسلحة ، ومن ناحية أخرى : بما اقترفه يزيد من أخطاء ، وارتكبه من جرائم ، ضاعفت ، من كراهية الناس له ، وسخطهم عليه ، من تقتيله لأهل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستباحته لمقدساتها ثلاثة أيام ، ثم ضربه الكعبة بالمجانيق إلى أن هدمت . وحرقت .

واجتمع حول هذه الدعوة فى بدئها أكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم ، بدار سليمان ابن صرد(٢) ، حيث وقف فيهم المسيب بن نجبة (٣) ، فقال : بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أما بعد : فانا قد أبتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير : ٣ / ٤٩٨ .

(٢) سليمان بن صرد الخزاعى : كان اسمه فى الجاهلية يسارا ، سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان ، وكان خيراً فاضلا ، له دين وعبادة ، وشرف وقدر فى قومه ، شهد صفين مع على كرم الله وجهه ، وكان ممن كتب إلى الحسين — رضى الله عنه — يسأله القدوم إلى الكوفة ، فلما قدمها ترك القتال معه ضد المعتدين ، ثم ندم على ذلك ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن على وغيرهما . الاستيعاب بهامش الاصابة : ٢ / ٦٣ ، والإصابة لابن حجر : ٢ - ٧٦ .

(٣) المسيب بن نجبة : أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، وشهد القادسية وفتح العراق فيما ذكر ابن سعد ، وكان مع على كرم الله وجهه — فى مشاهده وروى عنه : الإصابة لابن حجر : ٣ / ٤٩٥ .

غداً : «أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير (١) » . . وأن أمير المؤمنين قال : العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة ، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا ، وقد ابتلانا الله فوجدنا كاذبين في نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن كتبنا إليه وراسلناه ، فأتانا طمعا في نصرتنا اياه فخذلناه وأخلفناه ، وآتينا به إلى من قتله ، وقتل أولاده وذريته وقراباته الأخيار ، فما نصرناهم بأيدينا ، ولاخذلنا عنهم بألسنتنا ، ولاقويناهم بأموالنا ، فالويل لنا جميعا . . ويلا متصلا أبدا ، لايفتر ولايبيد دون أن نقتل قاتله والممالئين عليه ، أو نقتل دون ذلك ، وتذهب أموالنا ، وتخرب ديارنا » (٢) . ثم قال :

« أيها القوم : ولوا عليكم رجلا منكم ، فانه لابد لكم من أمير تفزعون إليه ، وراية تحفون بها ، أقول قولي هذا . . واستغفر الله لي ولكم » (٣) .

تعاهد التوابين على الثأر :

وبعد أن تحدث آخرون بمثل هذه المعاني ، اجتمع أمرهم على تأمير سليمان بن صرد(٤) ، وسموا أنفسهم « جيش التوابين » وأطلقوا على أميرهم : « أمير التوابين » (٥) كناية عن اعتزامهم التوبة ، عما فرط منهم ، من خذلان لسيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، والتعاهد على الأخذ بثأره .

وتكلم أمير التوابين : سليمان بن صرد — رضى الله عنه — فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله :

« أما بعد : . . إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ، ونمنيهم النصر، ونحثهم على القدوم ، فلما قدموا : ونينا وعجزنا ، وادهنا ، وتربصنا ، وانتظرنا مايكون ، حتى قتل فينا ولد نبينا وسلالته وعصارته ، وبضعة من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ فلا يصرخ ، ويسأل النصف فلا يعطاه ، اتخذه الفاسقون غرضا للنبل ، ودرية للرماح ، حتى أقصدوه ، وعدوا عليه فسلبوه .. ألا انهضوا . . فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضيا دون أن تناجزوا من قتله ، أو تبيروا . . ألا لاتهابوا الموت ، فوالله ماهابه امرؤقط إلا ذل . . كونوا كالأولى من بني اسرائيل إذ قال لهم نبيهم :

« انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم . . فتاب عليكم »(٦) . . فما فعل القوم ؟جثوا على الركب والله ، ومدوا الأعناق ، ورضوا

---

(١) سورة فاطر : آية ٣٧ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٥٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٤٧ . . وغيرهما .
(٣ ، ٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٥٣ ، ٥٥٤ .
(٥) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٥٥ .
(٦) سورة البقرة : آية ٥٤ .

بالقضاء ، حتى حين علموا أنه لاينجيهم عن عظيم الذنب ، الا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعى القوم إليه ؟ . . اشحذوا السيوف ، وركبوا الأسنة ، « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » . . حتى تدعوا حين تدعوا وتستنفروا (١) . .

* * *

واستمر القوم فى جمع الأموال والأسلحة ، والاستعداد للقتال ، وبث الدعوة سرا إلى الأخذ بدم الحسين – إلى أن توفى يزيد بن معاوية سنة أربع وستين – بعد ثلاث سنوات وشهرين من مقتل الحسين عليه السلام – فاجتمع التوابون عند أميرهم ، يتشاورون فى الجهر بالمطالبة بثأر الحسين رضى الله عنه ، وتتبع قتلته ، فقال لهم سليمان بن صرد :

« رويدا . . لاتعجلوا . . أنى قد نظرت فيما تذكرون ، فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف الكوفة ، وفرسان العرب ، وهم المطالبون بدمه ، ومتى علموا ماتريدون ، وعلموا أنهم المطلوبون كانوا اشد عليكم . . ونظرت فيمن تبعنى منكم ، فعلمت أنهم لو خرجوا لم يدركوا ثأرهم ، ولم يشفوا أنفسهم ، ولم ينكوا فى عدوهم ، وكانوا لهم جزرا ، ولكن : بثوا دعاتكم فى المصر ، فادعوا إلى أمركم هذا شيعتكم وغير شيعتكم ، فانى أرجو أن يكون الناس اليوم حيث هلك الطاغية ، أسرع إلى أمركم استجابة منهم قبل هلاكه »(٢) .

واستجاب التوابون لرأى أميرهم ، فجدوا فى نشر الدعوة بين شيعتهم وغيرهم حتى كثر جمعهم ، وكانت استجابة الناس لهم قوية بعد أن أطمأنوا إلى موت يزيد ، حتى أخذ التوابون فى الظهور بأسلحتهم ، والمجاهرة باستعداداتهم(٣) .

وأخيرا . . وبعد مضى عام من موت يزيد ، بعث أمير التوابين إلى أصحابه أن يأتوه إلى النخيلة ، فخرج إليهم ، فلم تعجبه قلتهم ، فأمر ببعث الرسل إلى الكوفة ، ينادون فيها بندائهم . . يالثارات الحسين(٤) .

دعوة سامية .. وأمنية غالية :

وطبيعى أن تكون الدعوة إلى « ثارات الحسين » محببة إلى نفوس المؤمنين ، وأن تهز نياط افئدتهم ، لما للشهيد العظيم – سيد شباب أهل الجنة – من مكانة راسخة فى الأعماق ، ومحبة صادقة فى القلوب ، ولما تركه مصرعه مع أهل بيته وأصحابه – رضى الله عنهم – من مرارة أليمة ، وحسرة مفجعة . . بل أن هذه الدعوة ، كانت تجيش فى أعماق الكثيرين ، كأمنية من أحلى الأمانى ، وكقربة من أعظم القربات ، التى يرجى بها رضاء الله ورسوله ، وفى سبيلها . . يرخص كل غال ، وتهون كل تضحية . . ! !

لذلك : لم يكد دوى هذه الدعوة يقرع الآذان ، وصداها يتجاوب فى الآفاق ؛ حتى استجاب لها المخلصون ، استجابتهم لداعى الإيمان ، فى صور تأخذ بالألباب . . جديرة بالذكر والتقدير والاعجاب . . بل جديرة بالحياة والخلود . .

* * *

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٥٤ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٥٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٤٧ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٦٣ . (٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٦٨ .

وخرج أمير التوابين بمن معه عشية الجمعة ، لخمس مضين من ربيع الآخر سنة خمس وستين من الهجرة ، حتى انتهوا إلى قبر سيد شباب أهل الجنة — عليه السلام — فبكى الناس لذكراه ، وتمنوا أن لو كانوا أصيبوا معه ، وأخذ أمير التوابين — سليمان بن صرد — يدعو له ويقول :

« اللهم أرحم حسينا ، الشهيد ابن الشهيد ، المهدى ابن المهدى ، الصديق ابن الصديق . . اللهم إنا نشهدك أنا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم ، وأولياء محبيهم »(١) .

وأقام الناس ليلتهم يبكون ويصلون ويستغفرون ، فما رئى يوم كان أكثر باكيا منه .

وواصل أمير التوابين مسيره فى طريقه إلى الشام ، وبادر إلى « عين وردة » فنزل بها ، فلما اقترب جند الشام : خطب — رضى الله عنه — أصحابه ، ورغبهم فى الآخرة ، وزهدهم فى الدنيا ، وحرضهم على الجهاد .

والتقى الجمعان : واقتتل الفريقان قتالا شديداً ، وأبلى التوابون بلاء حسنا ، فكان النصر لهم فى أول الأمر ، رغم قلة عددهم ، ولكن أهل الشام توالت عليهم الامدادات ، حتى اذا كان اليوم الثالث ، كان أهل الشام فى كثرة ساحقة ، بعد أن أمدهم عبيد الله بن زياد باثنى عشر ألفا بقيادة الحصين بن نمير ، ثم بثمانية آلاف بقيادة ابن ذى الكلاع ، فأحاطوا بالتوابين من كل جانب ، ورأى أمير التوابين سليمان ابن صرد — مايلقى أصحابه من شدة ، فترجل عن فرسه — وهو يومئذ فى الثالثة والتسعين من عمره — وكسر جفن سيفه ، وهو ينادى أصحابه قائلا :

« ياعباد الله : من أراد البكور إلى ربه ، والتوبة من ذنبه ، والوفاء لعهده ، فليأت إلى »(٢) .

فاستجاب الكثيرون لندائه ، وحذوا حذوه ، فكسروا جفون سيوفهم ، وحملوا على أعدائهم ، وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة ، وجرحوا فيهم فأكثروا الجراح ، حتى أصيب أمير التوابين بسهم فوقع ، ثم وثب ثم وقع ، ثم وثب ثم وقع ، وهو يقول : « فزت ورب الكعبة »(٣) .

وحمل الراية المسيب بن نجبة ، فقال مخاطبا أميره الشهيد : « رحمك الله يا أخى ، فقد صدقت ، ووفيت بما عليك . . وبقى ماعلينا »(٤) .

ثم حمل الراية ، فشد بها ، فقاتل ساعة ثم رجع ، ثم شد بها فقاتل ثم رجع ، ففعل ذلك مرارا . . يشد ثم يرجع ، حتى استشهد رحمه الله .

* * *

انتهت بذلك حركة التوابين . . لقد حاقت بهم الهزيمة ، ولكنهم سطروا صورة كريمة من صور البطولة والفداء ، التى تستمد روحها من مواقف سيد شباب أهل الجنة وصحبه — رضى الله عنهم أجمعين — والتى لها صداها المدوى فى النفوس ، وأثرها القوى فى التاريخ .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٨٩ .

(٢ ، ٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٩٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٥٤ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك : ٥ / ٥٩٩ .

صدى الأحداث فى العوالم الأخرى :

كان مقتل الحسين وأهل بيته وصحبه – رضى الله عنهم أجمعين – من الأحداث الأليمة فى تاريخ البشرية بأسرها ، ومن المآسى المحزنة التى تكادالسماوات يتفطرن منها ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا . .

فلا عجب إذا لم يقتصر أثر ذلكم الحادث الجلل على أهل الأرض ، بل يمتد صداه المدوى إلى العوالم الأخرى .

هؤلاء هم أهل كربلاء – فيما رواه كعب الأحبار ، وحكاه أبو الجناب الكلبى وغيره – يسمعون أصوات الجن ، وهن يبكين الحسين – سيد شباب أهل الجنة رضى الله – وينحن عليه ويقلن :

مسح الرسول جبينه فله بريق فى الخدود
أبواه من عليا قريش جده خير الجدود(١)

فأجابهم بعض الناس قائلين

خرجوا به وفدا اليهم فهم له شر الوفود
قتلوا ابن بنت نبيهم سكنوا به ذات الخدود (٢)

وروى هشام بن الكلبى عن عمر بن مكرمة قال : أصبحنا صبيحة قتل الحسين – رضى الله عنه – بالمدينة ، فاذا مولاة لنا تحدثنا أنها سمعت البارحة مناديا ينادى ويقول :

أيها القاتلون ظلما حسينا أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم من نبى . . ومالك وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود وموسى وحامل الإنجيل(٣)

وقد ذكر الإمام أحمد : من حديث أم سلمة – رضى الله عنها ، أنها قالت : سمعت الجن يبكين على الحسين.. وسمعت الجن ينحن على الحسين ، وهن يقلن : أيها القاتلون جهلا.. إلى آخر الأبيات الثلاثة السابقة.

* * *

وإذا كان هذا شأن الجن فى تأثرهن بمقتل سيد شباب أهل الجنة وأهل بيته ، فكيف بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو الذى كان قلبه يتفطر رحمة وحنانا لأقل مصاب يقع بأى واحد من أصحابه ، فضلا عن الحسين الذى هو منه ، وهو من الحسين ، والذى كان يقول بشأنه لفاطمة الزاهراء : ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى ؟ فكيف بقتله ، وحز رأسه ؟ وكيف بوطئه – عليه السلام – بسنابك الخيل ؟ وكيف مع كل ذلك : بقتل ولده واخوته ؟ .

لاشك أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يتابع الأحداث من روضته الشريفة ، بكل ما فيها من قسوة وضراوة – وكان على صلة وثيقة بابن بنته فى كل خطوة يخطوها ، حتى لقد بشره – صلى الله عليه وسلم – بالشهادة قبيل المعركة الدامية فقال له فى رؤياه : « انك تروح إلينا »(٤) وكان قلبه – صلى الله

(١ ، ٢) البداية والنهاية : لابن كثير : ٨ / ٢٠٠ .
(٣) البداية والنهاية : لابن كثير : ٨ / ٢٠١ .
(٤) البداية والنهاية : لابن كثير : ٨ / ١٧٦ .

عليه وسلم — الذى يتفجر بالرحمة والرأفة للناس أجمعين ، يوشك أن تتقطع نياطه ، لما أصاب أهل بيته المطهر ، من سفك لدمائهم ، وتقطيع لأوصالهم ، وتمزيق لشملهم .

ففد روى الإمام أحمد من حديث ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال :

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، أشعث أغبر ، معه قارورة فيها دم ، فقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله : ماهذا ؟ قال : « هذا دم الحسين وأصحابه ، لم أزل التقطه منذ اليوم » . . وقد أحصى ذلك اليوم ، فوجد أن الحسين — رضى الله عنه — قتل فيه فعلا(١) .

* * *

وفى رواية أخرى لابن أبى الدنيا : أن ابن عباس — رضى الله عنهما — لاستيقظ من نومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله . . ! فقيل له لم يا ابن عباس ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال :

« أتعلم ماصنعت أمتى من بعدى ؟ قتلوا الحسين ، وهذا دمه ودم أصحابه ارفعهما إلى الله » .

فلم يمض أربعة وعشرون يوما حتى جاءهم الخبر بالمدينة ، أنه — رضى الله عنه — قتل فى ذلك اليوم وتلك الساعة(٢) .

وأورد الترمذى من حديث سلمى أنها قالت : دخلت على أم سلمة — رضى الله عنها — وهى تبكى ، فقلت لها : مايبكيك ؟ قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى رأسه ولحيته التراب . . فقلت : مالك يارسول الله ؟ قال : « شهدت قتل الحسين آنفا »(٣) .

ولقد كانت أم المؤمنين — السيدة أم سلمة رضى الله عنها ، آخر من مات من زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت تحب الحسين — عليه السلام — حبا جما ، حتى لقد بلغ من تأثرها لمقتله ، أنها ماكادت تعلم به حتى وجمت ، وغشى عليها ، وحزنت عليه حزنا شديداً ، ولم تلبث بعده إلا يسيراً ، حتى لحقت بربها ، رضى الله عنها(٤) .

قوة الروح بعد الموت :

ولا عجب فى كل ماتقدم : فان حياة الشهداء بعد الموت ثابتة بقول الله تعالى « أحياء عند ربهم يرزقون » والأنبياء أعلى مقاما من الشهداء ، وحياتهم ثابتة بقوله صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون(٥) ؛ وقوله : « أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »(٦) .

(١ ، ٢ ، ٣) البداية والنهاية لابن كثير ، ٨ / ٢٠٠ ، وسلمى التى روت الحديث الثالث : هى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقال لها مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد روت عنه ، وشهدت خيبر معه ، وهى امرأة أبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الاستيعاب : ٤ / ٣٢٨ .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبى : ٢ / ١٤٢ .

(٥) رواه أبو يعلى من حديث أنس رضى الله عنه .

(٦) ابن ماجة وأحمد من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه .

ثم إن للأرواح المطلقة من أسر البدن – كما يقول ابن القيم – « من التصرف والقوة والنفاذ والهمة ، ما ليس للروح المحبوسة فى علائق البدن وعوائقه ، وقد تواترت الرؤيا على فعل الأرواح بعد موتها ، مالا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن ، من هزيمة الجيوش الكبيرة بالواحد والاثنين والعدد القليل ونحو ذلك . . وكم قد رئى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر ، قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم ، فاذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة ، مع كثرة عددهم ، وعددهم ، وضعف المؤمنين وقلتهم»(١)

* * *

وقد أكد النبى صلى الله عليه وسلم هذه المعانى ، فى حديثه التالى :

« حياتى خير لكم ، تحدثون ويحدث لكم (أى تحدثون شئونا ، ويحدث لكم أحكامها) فاذا أنامت كانت وفاتى خيراً لكم ، تعرض على أعمالكم ، فان رأيت خيراً حمدت الله ، وإن رأيت شراً استغفرت لكم »(٢) .

اندلاع الفتن .. والثورات :

كان من الطبيعى ، بعد أن تورط يزيد بن معاوية فى اعتدائه على المدينة المنورة ، واباحتها ثلاثا ، ثم فى محاصرة مكة المكرمة ، وضرب الكعبة بالمجانيق ، بجانب ماوقع قبل ذلك من عدوان أثيم على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كان من الطبيعى بعد كل ذلك ، أن تستمر الأحداث فى تصاعدها ، بالرغم من موت يزيد ، وأن تندلع الفتن والثورات فى مختلف الأقطار والأمصار ، بما يهدد وحدة البلاد ، ويهدر مصالح العباد .

وإن من أعجب العجب : أن تتحول هذه الدولة الكبرى ، التى ظلت عشرين عاماً – طوال خلافة معاوية رضى الله عنه – فى أمن واستقرار ، يعمل أبناؤها فى الداخل فى البناء والإنتاج ، ويجاهدون فى الخارج لإعلاء كلمة الله ، فيهزمون الجيوش ، ويقتحمون الأمصار ، ويرفعون ألوية الحق والإيمان فى كل مكان . .

من أعجب العجب أن تتحول هذه الدولة الكبرى ، فى أقل من أربع سنوات – هى مدة حكم يزيد ابن معاوية – من البناء إلى الهدم ، ومن الوحدة إلى الفرقة والاختلاف ، وأن يتحول هذا البأس الشديد ، الذى عرف به المسلمون ، من الجهاد فى سبيل الله ، إلى القتال من أجل المطامع والأهواء ، فتنشب المعارك الضارية بين أبناء الإسلام ، ويذهب ضحيتها عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال ، وفيهم خيار الأمة من الصحابة والتابعين .

ولا شك أن يزيد ، بسياسته الخرقاء ، هو المسئول الأول عن كل ذلك ، فلو أنه وقف من سيدنا الحسين – سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه – موقف العارف لمقامه من الله ورسوله ، لاستتب له

(١) الروح لابن القيم : ١٠٢ ، ١٠٣ .

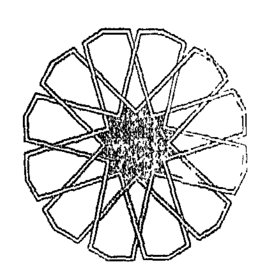
(٢) ابن سعد : من حديث بكر بن عبد الله رضى الله عنه .

الأمر ، ودانت له الأمصار بالطاعة والولاء ، ولكنه أبى الا أن يقف منه موقف التجبر والاستعلاء ، والا أن يطارده من مكان إلى آخر ، حتى انتهى الأمر بحصاره وقتله ، فغضب لمقتله أهل الأرض ، وارتجت له أطباق السماء ، فكان من جراء ذلك ما كان من ثورات وحروب ، وفوضى واضطراب . فاستتب الأمر لعبد الله ابن الزبير — رضي الله عنه — بالحجاز ، وسيطر مروان بن الحكم على الشام ، وبايع أهل خراسان سلم بن زياد ، وخرج القراء والخوارج بالبصرة ، وطردوا عبيد الله بن زياد ، واندلعت الاضطرابات فى الأهواز وفارس . . وبوجه عام تزلزلت قواعد العرش الأموى ، واهتزت أركانه ، وفقد هيبته فى النفوس حتى أوشك على الانهيار .

* * *

ولا شك فى أن كل هذه المآسى ، ما كانت لتقع ، لو أن يزيد بن معاوية ، سار فى خلافته سيرة أبيه ، والتزم فى سياسته كتاب الله وسنة رسوله ، فبهما اتحدت كلمة العرب بعد جاهلية عمياء ، وخمدت ثاراتهم بعد حروب شعواء ، وتآلفت قلوبهم بعد عداوة وبغضاء ، ولكن يزيد كان فى حياته الخاصة مستهتراً ماجناً ، وكان فى حكمه بين الناس جباراً ، لا يراعى حرمة ، ولا يهاب قدسية ، ولا يخشى لوماً أو عتاباً . . حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وهو فى عنفوان شبابه ، وذروة آماله وأحلامه ، وصدق سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم إذا يقول :

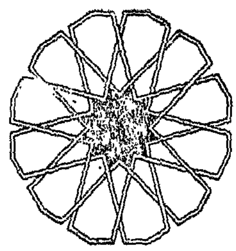
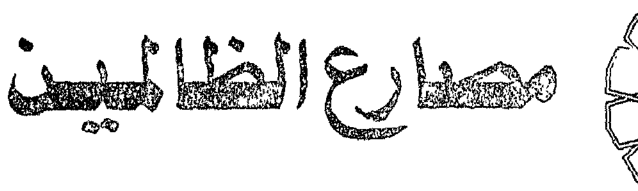
« إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، ان أخذه أليم شديد » (١) .



(١) البخارى : من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

الفصل الثالث عشر

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون
انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » .
(قرآن كريم)

بين الامهال . . والأخذ الشديد :

قد يمهل الله الطغاة والظالمين حيناً من الدهر ، ليزدادوا اثماً وطغياناً ، وليعيثوا فى الأرض فساداً ، ولكن الذى لا شك فيه ، أن الظلم مرتعه وخيم ، ونهايته مظلمة ، وأن الظالمين ما لهم من الله من واق ، وما لهم من ملجأ يومئذ ولا نكير (١) ، وهو القائل عز وجل فى محكم كتابه :

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رءوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء » (٢) .

وفى هذا وعيد للظالم أن الله له بالمرصاد ، وبشرى للمظلوم أن الله منتقم له ، آخذ بحقه . . وأن تأخير المؤاخذة والعقاب عن الطغاة والظالمين ، ليس عن رضى من الله عنهم ، أو رحمة منه بهم ، وإنما هو امهال لهم لعلهم يرجعون ، واختيار للمؤمنين ، ليعلم الله الذين جاهدوا منهم ويعلم الصابرين .

* * *

وقد يؤخر الله ذلك اليوم الذى أعده للطغاة ، والذى تشخص فيه أبصارهم ، أى لا يغمض لها طرف لهول ما تراه فى ذلك اليوم ، وما يتوقعه الظالمون من الذل والصغار ، وقد يؤخر الله ذلك اليوم إلى ما بعد الحياة الدنيا وقد يعجله فى الدنيا ، انتصاراً للمؤمنين ، وطمأنة لقلوبهم ، وتعزية لنفوسهم ، فيمضى فى الظالمين عدالته ، قصفاً لأعمارهم ، وتقويضاً لسلطانهم ، وتنكيلا بأفرادهم وجماعاتهم ، وتشتيتاً لشملهم ، دون أن ينقص ذلك مما أعده لهم فى الدار الآخرة من خزى مبين ، وعذاب أليم ، قال تعالى :

« ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » (٣) .

ولقد ارتجت السموات والأرضون ، لما وقع بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من عدوان أثيم ، وما تبع ذلك من افساد فى الأرض ، وإسراف فى سفك الدماء ، وهتك للحرمات والمقدسات ، فكان من الطبيعى — رحمة من الله تعالى بعباده — أن يعجل للطغاة فى الدنيا بعض ما يستحقونه من العقاب ، جزاء وفاقاً على ما اقترفوا من آثام ، وتعدوا من حدود .

دعــوة المظــلوم :

وحينما اشتد الكرب بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد رأى شباب أهل البيت رضى الله عنه وعنهم من أبنائه وأبناء اخوته ، وقد اخترمهم الرماح وقطعتهم السيوف . وقد أخذ منه الجهد كل مأخذ ، واشتد به العطش ، فحاول الوصول إلى شربة ماء من الفرات ، فرماه أشقى القوم بسهم فجر الدماء غزيرة من فيه . .

---

(١) النكير : الناصر وقيل : النكير بمعنى الإنكار ، أى : ليس لهم ناصر من دون الله ، أو لا يستطيعون انكاراً لذنوبهم .

(٢) سورة ابراهيم : آية ٤٣ . و « مهطعين » أى ينظرون فى ذل وخشوع ، « ومقنعى رءوسهم » : أى ناكسو الرءوس من الخزى والهوان ، و « أفئدتهم هواء » : أى مضطربة كالهواء من شدة الخوف . أو خاوية لا عقل فيها ولا خير .

(٣) سورة السجدة : آية ٢١ .

وحينما لم يبق لدى الحسين — رضى الله عنه — أى أمل فى رجوع القوم عن غيهم ، ويئس تمام اليأس من هدايتهم وارشادهم ، عندئذ لم يجد — رضى الله عنه — بدأ من الدعاء عليهم ، فرفع يديه إلى السماء مناشداً ربه :

« اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تذر على الأرض منهم أحداً » .

ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، فكيف إذا كان هذا المظلوم هو حفيد سيد الأنبياء ، وهو سيد شباب أهل الجنة ، كيف إذا كان هذا المظلوم هو الذى نظر إليه جده العظيم — صلى الله عليه وسلم — والى أخيه الحسن — رضى الله عنهما — وقال لهما : « أنا حرب لمن حاربتم ، وسلم لمن سالمتم » ! !

لا شك أن دعوة مثل ذلكم المظلوم الكريم ، الحبيب إلى الله وملائكته ورسله وصالح المؤمنين . . أسرع ما تكون استجابة من رب العالمين . . وأحكم الحاكمين .

* * *

وهكذا : فى الوقت الذى كان فيه السفاحون يرفعون ألوية النصر ، كانت عدالة السماء تأخذ مجراها ، تارة بأيدى الظالمين أنفسهم من ناحية ، تحقيقاً لقوله عز وجل ، فى محكم كتابه :

« وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » (١) .

وتصديقاً لما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم فى حديثه : « من أعان ظالماً سلطه الله عليه » (٢) .

وتارة أخرى : كانت عدالة السماء تأخذ مجراها بأيدى المؤمنين ، فلقى كل من اشترك فى الاعتداء على سيدنا الحسين وأهل بيته — رضوان الله عليهم أجمعين — أسوأ مصير ، وأسود نهاية ، ليعلم الذى لم يعلم ، أن الله تعالى يمهل ولا يهمل ، وأنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وأنه يستدرج الظالمين من حيث لا يعلمون ، وأنه سريع الحساب شديد العقاب ، كيف وهو القائل جل وعلا فى محكم كتابه :

« حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » (٣) .

عدالة موقف الحسين وكرامته :

وهكذا : لم يذكر فى تاريخ الإسلام — على مر القرون ، وكر السنين — قوم عجل الله لهم العقوبة فى الدنيا ، وسلط عليهم سوط عذابه وانتقامه ، كما وقع بالنسبة لهؤلاء الذين سفكوا دماء الحسين رضى الله عنه — أو اشتركوا فى العدوان على أهل بيته وأصحابه ، أو أسهموا من قريب أو بعيد فى إيذائه ، فانه لم يمض بضع سنوات ، حتى حاق بالمعتدين من النكال — رغم كثرة أعدادهم ، وتمكن سلطانهم — ما بدد جمعهم ، وأعفى آثارهم ، وصدق فيهم قول الله تبارك وتعالى :

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٩ ، والمعنى : نسلط بعض الظالمين على بعض فيذله ويهلكه .

(٢) أورده السيوطى فى الجامع الصغير : ٢ / ١٦٤ عن ابن عساكر ، من حديث ابن مسعود رضى الله عنه ، والحديث وإن كان ضعيفاً فى اسناده ، إلا أن الآية الكريمة تتفق معه فى المعنى .

(٣) سورة الأنعام : ٤٤ ، ٤٥ ومعنى مبلسون : أى متحيرون لشدة ما نزل بهم .

« فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث ، فبعداً لقوم لا يؤمنون »(١) .

وبمقدار ماكان الاعتداء على سيد شباب أهل الجنة وصحبه – رضى الله عنهم – أثيماً وأليماً ، بمقدار ماكان الانتقام من الجناة سريعاً . . وحاسماً .

ولا عجب : فإذا كان مقام الحسين – عليه السلام – من الله ورسوله فى الحياة الدنيا ، هو مقام المحبة والقرب ، والرعاية والرضا ، فإن مسارعة المولى عز وجل إلى الانتقام من المعتدين عليه ، لمن أعظم الكرامات الدالة على عدالة موقفه فى الدنيا ، فضلا عما له فى الآخرة من مكانة عالية ، ومقام كريم .

وإذا كان الله تعالى قد آذن بالحرب كل من يعادى ولياً من أوليائه ، فقال عز وجل : « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب »(٢) . . فكيف بمن يعادى ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف بمن يعين على قتله ويفاخر به ؟ . . وهكذا : « فإنه قل من نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة أو عاهة فى الدنيا ، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض ، وأكثرهم أصابهم الجنون »(٣) . !

ولم يقف القصاص من الطغاة والمجرمين عند حد هؤلاء الذين اشتركوا فعلا فى العدوان على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل لقد بلغ من كرامة الحسين – رضى الله عنه – على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، أن آخذ الله بشدة من حضر مقتله ، ولم ينتصر له ، من ذلك : ما حكاه سبط الجوزى عن الواقدى قال :

« ان شيخاً حضر مقتل الحسين فقط فعمى ، فسئل عن سببه فقال : انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم حاسراً عن ذراعيه ، وبيده سيف ، وبين يديه نطع ، ورأى عشرة من قاتلى الحسين مذبوحين بين يديه ، ثم سبه ولعنه بتكثيره سوادهم ، ثم أكحله بمرود من دم الحسين فأصبح أعمى »(٤) .

* * *

ولعل أبرز مظاهر انتقامه عز وجل : ما أجراه على يد المختار الثقفى الكذاب(٥) ، الذى سلطه الله تعالى على الظالمين ، فسفك دماء الألوف ممن قاتلوا الحسين – رضى الله عنه – وقتلهم أقبح القتلات ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :

« ان الله ليؤيد الدين بالرجل الفاجر »(٦) . وما أحسن قول الشاعر :

---

(١) سورة (المؤمنون) : آية ٤٤ . (٢) حديث قدسى : رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٠٢ . (٤) الصواعق المحرقة : لابن حجر الهيتمى : ص ١٩٥ .

(٥) هو ابن أبى عبيد بن عوف الثقافى ، أسلم أبوه فى حياة النبى ، وبعثه عمر بن الخطاب فى جيش لقتال الفرس ، سنة ١٣ فاستشهد يومئذ ، وقد كان المختار فى أول أمره ناصبيا ، يبغض عليا بغضا شديداً ، حتى كان من أمر مسلم بن عقيل ما كان ، فقال المختار : أما لأنصرنه ، ثم انضم إلى عبد الله بن الزبير فقاتل معه فى مكة قتالا شديداً ، ثم تركه إلى الكوفة داعياً لمحمد بن الحنفية ، مظهرا التشيع للحسين ، حتى استحوذ عليها ، وأخرج عامل الزبير منها ، ثم شرع فى تتبع قتلة الحسين ، فقتل معظمهم ، وخاصة كبراءهم ورءوسهم ، ولكن دولته لم تلبث أن دالت ، لأنه كان كاذبا ، يزعم أن الوحى يأتيه على يد جبريل ، فانفض الناس من حوله ، وأرسل إليه ابن الزبير أخاه مصعب بن الزبير ، فسار إليه فقاتله ، وكان المختار فى نحو من عشرين ألفا ، جعلوا ينصرفون إلى مصعب ويدعون المختار ، وينقمون عليه ما هو فيه من الكهانة والكذب ، فلما رأى المختار ذلك : انصرف إلى قصر الإمارة ، فحاصره مصعب وقتله وله من العمر سبع وستون سنة (البداية والنهاية : ٨ / ٢٨٩ وما بعدها) .

(٦) الطبرانى : من حديث عمرو بن النعمان بن مقرن .

وما من يد إلا يد الله فوقها   وما من ظالم إلا سيبلى بظالم

ولقد بلغ أمر الانتقام من الجناة ، والتنكيل بهم ، حداً يمكن تصوره من الخطاب الذى بعث به المختار إلى محمد بن الحنفية ، الذى كان المختار يستغل اسمه كأخ لسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنهما — ويزعم أنه يعمل بأمره ، ليجمع الناس حوله ، بدعوى الأخذ بثأر الحسين — رضى الله عنه — حيث كتب إليه يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم : إلى محمد بن على ، من المختار بن أبى عبيد ، سلام عليك أيها المهدى ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد : فإن الله بعثنى نقمة على أعدائكم ، فهم بين قتيل وأسير ، وطريد وشريد ، فالحمد لله الذى قتل قاتليكم ، ونصر مؤازريكم ، وقد بعثت إليك برأس عمر ابن سعد وابنه ، وقد قتلنا ممن اشترك فى دم الحسين وأهل بيته — رحمة الله عليهم — كل من قدرنا عليه ، ولن يعجز الله من بقى ، ولست بمنحجم عنهم حتى يبلغنى أنه لم يبق على وجه الأرض منهم أحد ، فاكتب إلى أيها المهدى برأيك أتبعه وأكون عليه ، والسلام عليك أيها المهدى ورحمة الله وبركاته »(١) .

* * *

ومن استطاع من الجناة أن يفر بحياته . . فإنه لم يفلت فى النهاية من القصاص الذى قضى به رب العالمين ، حتى تواترت أنباء الثقات بما أصابهم من بلاء شديد ، وعذاب أليم .

من ذلك : ما أخرجه أبو الشيخ : « أن جمعاً تذاكروا أنه ما من أحد أعان على قتل الحسين — رضى الله عنه — إلا أصابه بلاء قبل أن يموت ، فقال شيخ : أنا أعنت .. وما أصابنى شىء ! ! .. فقام ليصلح السراج فأخذته النار ، فجعل ينادى : النار . . النار . . وانغمس فى الفرات ومع ذلك لم يزل به حتى مات »(٢) .

وعن الزهرى : « لم يبق ممن قتله إلا من عوقب فى الدنيا بقتل أوعمى أو سواد الوجه ، أو زوال الملك فى مدة يسيرة »(٣) .

ومن ذلك : « أن شخصاً منهم علق فى لبيب فرسه رأس الحسين — رضى الله عنه — فرئى بعد أيام ووجهه أشد سواداً من القار ، فقيل له : أنك كنت أنضر العرب وجهاً ؟ . . فقال : ما مرت على ليلة من حين حملت تلك الرأس إلا واثنان يأخذان بضبعى ، ثم ينتهيان بى إلى نار تؤجج ، فيدفعانى فيها وأنا أنكص ، فتسفعنى كما ترى . . ثم مات وهو على أقبح حالة »(٤) .

ومن ذلك : « أن عبد الله بن الحصين ناداه وقت محاربتهم له ، ومنعهم الماء عنه : يا حسين : ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء ؟ والله لاتذوق منه قطرة حتى تموت عطشا ، فقال الحسين رضى الله

(١) تاريخ الرسل والملوك : ٦ / ٦٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٧٤ .
(٢) الصواعق المحرقة : لابن حجر الميتمى : ص ١٩٥ .
(٣) الصواعق المحرقة : لابن حجر الميتمى : ص ١٩٥ .
(٤) المصدر السابق : ص ١٩٦ .

عنه : اللهم اقتله عطشا ، ولا تغفر له أبدا ، فكان ذلك الخبيث يشرب الماء حتى يبغر ثم يقيء ، ثم يعود فيشرب حتى يبغر فما يروى فما زال ذلك دأبه حتى لفظ نفسه(١) .

بشرى للمؤمنين .. ونذير للطغاة :

ولا شك أن ما أصاب الطغاة من بلاء ، ووقع بهم من هلاك وفناء ، لمن الظواهر الخطيرة التي لها دلالتها القاطعة ، وعبرها الرادعة ، وأي ظاهرة أخطر مما حل بالدولة الأموية — في ذلك الحين — بما لها من بطش وسلطان ، وبما فيها من أمراء وأعيان ، وأبطال وفرسان ، فإذا بالظلم يأتي بنيانها من القواعد ، وإذا بالظالمين وقد دالت دولتهم ، ونكست ألويتهم .. وإذا بملوكهم وأمرائهم ، وقد قصف الله أعمارهم ، وهم في عنفوان فتوتهم ، وإذا بأعيانهم وإشرافهم ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، يحاولون الفرار من الموت فيلاحقهم ، ومن الذل فيحيط بهم ، وإذا بجيوش هذه الدولة ، وقد تشتت شملها ، وتفرق جمعها ، وتحول بأسها فيما بينهما . . !

وفي كل ذلك : بشرى لأهل الحق والإيمان ، أن الله وليهم في الدنيا والآخرة قد ينصرهم في الدنيا بالظهور على الأعداء ، أو الأخذ بثأرهم من المعتدين ، وينصرهم في الآخرة ، بما أعده لهم عنده من حياة طيبة ، ومقام كريم .

كما أن فيه نذيراً للحكام والأمراء ، أن أسرع ما يذهب السلطان ، ويقصف الأعمار ، ويجتث الأصول ، هو البغي والعدوان ، فطوبى لهم أن حكموا بالعدل ، فقد جاءتهم البشرى من النبي صلى الله عليه وسلم ، أن الإمام العادل : في مقدمة السبعة الذين « يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله »(٢) . . وويل لهم إن خانوا الأمانة ، وهضموا الحقوق ، وعاثوا في الأرض فسادا ، فقد جاءتهم النذر ممن لا ينطق عن الهوى ، أن « أبغض الناس إلى الله يوم القيامة ، وأبعدهم منه مجلساً ، امام جائر »(٣) . . وأنه (ما من وال يلي رعية من المسلمين ، فيموت وهو غاش لهم ، إلا حرم الله عليه الجنة »(٤) .

❋ ❋ ❋

وفي الصفحات التالية : تفصيل لما أجملناه ، مما حل بالطغاة من سريع العقاب ، وشديد الحساب ، وسوء النهاية : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد »(٥) .

بلاغ الى القوم الظالمين :

ومن الآيات التي لها دلالتها ، والكرامات التي لا يخفى على ذوي البصيرة مغزاها ، أن الله عز وجل : اقتضت عدالته — قبيل بدء المعركة — أن يظهر للقوم المجرمين ، مدى تربصه بالمعتدين ، وولايته لابن

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبري : ٥ / ٤١٢ جامع كرامات الأولياء : للنبهاني : ١ / ١٣١ .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي : من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) رواه الترمذي : من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

(٤) رواه الشيخان : من حديث معقل بن يسار — رضي الله عنه .

(٥) سورة ق : آية ٣٧ .

بنت سيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، فأوقع قصاصه الأليم ، بأول متحد للحسين ، متطاول على مقامه الكريم ، ليكون فى ذلك : البلاغ المبين ، للناس أجمعين ، « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

هذا هو عبد الله بن حوزة ، يتقدم الخيل الزاحفة لقتال سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — حتى إذا ما وقف بين يديه ، قال : يا حسين : أبشر بالنار . . ! ! فأجابه رضى الله عنه :

«كلا . . ويحك . . ! ! انى أقدم على رب غفور ، وشفيع مطاع ، فمن أنت ؟ » فأجاب الرجل :

أنا ابن حوزة . فرفع الحسين — رضى الله عنه — يديه إلى السماء وقال :

« اللهم حزه إلى النار» ! . . فغضب ابن حوزة، وأخذته العزة بالاثم، فأراد أن يقحم عليه الفرس : : فجالت به الفرس فسقط عنها ، وبقى جانبه الآخر متعلقاً بالركاب ، وشد عليه مسلم بن عوسجة — من أصحاب الحسين — رضى الله عنه وعنهم — فضربه ضربة أطارت رجاه اليمنى ، وغارت به فرسه ، فلم يبق حجر يمر به إلا ضربه فى رأسه حتى مات(١) :

ولقد اعتبر بهذا النذير بعض من شاهده ، من رجال ابن زياد ، كسروق بن وائل ، الذى كان فى أوائل الخيل ، بالقرب من ابن حوزة ، وكان يحدث نفسه بالأمل فى ضرب رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليصيب به منزلة عند ابن زياد ، فلما رأى ما رأى : رجع وترك الخيل من ورائه ، فلما سئل عن ذلك قال :

— لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئاً . . لا أقاتلهم أبدا(٢) .

اعتبر الرجل بما شاهدته عيناه من كرامة واضحة لسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — فترك ميدان القتال ، لينجو بدينه ودنياه ، فكان إن شاء الله من الفائزين .

أما الذين استمروا على موقفهم ، وقاتلوا الحسين — رضى الله عنه — حتى قتلوه ، فقد كان ذلك الحادث ، حجة من الله عليهم ، ليضاعف لهم العذاب سواء كان ذلك فى حياتهم الدنيا ، أم فى حياتهم البرزخية فى القبر ، أم بعد ذلك عند الله تعالى يوم القيامة :

صور من غضب الله تعالى :

ولقد تعددت الصور ، مؤكدة غضب الله تعالى على المعتدين ، لا سيما هؤلاء الذين تتفجر قلوبهم حقداً على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته الكرام البررة ، فدفعهم ذلك إلى الإيغال فى الأذى ، والإسراف فى سفك الدماء ، حتى دماء الأبرياء من الأطفال ، الذين لا يعرفون قتالا ، ولا يستطيعون عن أنفسهم دفعا . :

هذا هو عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى ، من الجبابرة الذين خلت قلوبهم من الرحمة ، وقست فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، حتى أنه لايكاد يقع نظره على القاسم بن الحسن بن على — رضى الله عنهم — وهو غلام لم يبلغ الحلم بعد ، كأن وجهه شقة قمر ، وقد خرج من فسطاط الحسين ، بيده سيف ، وعليه قميص وإزار ، ونعلان قد انقطع شسع اليسرى منهما — حتى تحدثه نفسه الخبيثة باغتنام

(١ ، ٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٣١ ، البداية والنهاية لحافظ ابن كثير ٨ / ١٨١ .

الفرصة ، للفتك بضحية سهلة ، لا تستطيع له مقاومة ، فيقول لصاحب له هو حميد بن مسلم : والله لأشدن عليه ، فيجيبه صاحبه مستنكراً نيته :

ـ سبحان الله . . ! ! وما تريد إلى ذلك ؟ يكفيك قتل هؤلاء الذين تراهم قد احتولوهم .

لم يبال عمرو بقول صاحبه ، فأقسم قائلا : والله لأشدن عليه . . !

وفعلا شد عمرو بن سعد على الغلام ، فضرب رأسه بالسيف ، فوقع الغلام لوجهه وصاح يستغيث بالحسين ـ رضى الله عنه ـ قائلا : ياعماه . . وطرقت استغاثة الصبى أعماق سيد شباب أهل الجنة ، فجلى كما يجلى الصقر ، ثم شد شدة ليث غضب ، فضرب عمرا بالسيف ، فاتقاه بالساعد ، فأطنها من لدن المرفق ، فصاح ، ثم تنحى عن الغلام ، نجاة بنفسه . .

إنها لصورة مزرية للقسوة التى تجردت عن المروءة ، وتلبست بالضعة والخسة . . فاستأسد صاحبها تجاه الغلام الضعيف ، فلما برز إليه الرجل القوى ولى الأدبار . . وركن إلى الفرار . . طمعاً فى النجاة . . ولكن دناءة الجريمة وقسوتها ، جعلت العدالة الإلهية تعجل بالقصاص . . عبرة للمسرفين ، وحجة على المتجبرين . .

حملت خيل أهل الكوفة ، ليستنقذوا صاحبهم من بطش الحسين ـ رضى الله عنه ـ فى الوقت الذى اتجه فيه الرجل إليها ، فاستقبلته الخيل بصدورها ، وحركت حوافرها ، وجالت بفرسانها عليه ، فوطأته حتى مات أشنع ميتة(١) .

وهكذا لقى عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى حتفه فوراً ، وباء بغضب الله تعالى ، وملائكته والناس أجمعين .

مصرع قاتل الحسين عليه السلام :

لم تمض ساعات على مقتل سيد شباب أهل الجنة ـ رضى الله عنه ـ حتى بدأت عدالة الله تعالى تأخذ مجراها ، انتقاماً من المعتدين ، مبتدئة بأشدهم جرأة على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأغلظهم عليه قسوة ، فتسلط عليه الطغاة الذين ظاهرهم فى إجرامهم ، وكان ينتظر منهم الأجر الكبير ، والعطاء الموفور . . !

وذلك هو سنان بن أنس ، الذى طعن ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم برمحه طعنة أوقعته على الأرض ، ثم أمر خولى بن يزيد أن يحتز رأسه الشريف ، فلما ارتعد الأخير فرقاً وفزعاً : قال له سنان : فت الله عضديك ، وأبان يديك . . ! !

ونزل الشقى إلى سيد شباب أهل الجنة فأجهز عليه ، واحتز رأسه ، ووقف يشد بسيفه على كل من يدنو منه ، مخافة أن يغلبه على غنيمته ، التى يرجو أن تحقق له ما يطمع فيه ـ لدى سادته ـ من مال وجاه ، فلما اطمأن : دفع بالرأس الشريف إلى صاحبه خولى بن يزيد(٢) للتحفظ عليه .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر الطبرى : ٥ / ٤٤٧ ، البداية والنهاية للإمام ابن كثير : ٨ / ١٨٦ وقد جاء فى رواية البداية والنهاية : « فشد عليه عمر بن سعد أمير الجيش فضربه : وصاح الغلام يا عماه ، قال : فشد الحسين على عمر بن سعد شدة ليث أغضب ، فضرب عمر بالسيف فاتقاه بالساعد فاطنها . . » إلى آخر الرواية ، وهذا خطأ نتج عن تشابه الإسمين ، لأن عمر بن سعد أمير الجيش لم يكن هو الذى قتل القاسم ابن الحسن ، وإنما الذى قتله هو عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٣ .

وذهب سنان إلى فسطاط عمر بن سعد جذلان فرحا ، فجعل يفاخر بجرمه ، ويقول بأعلى صوته :

أوقر ركابي فضة وذهبا   أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أماً وأباً   وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فرماه ابن سعد بالسوط مغضباً، وقال له : ويحك . . ! ! أنت مجنون ؟ لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك(١) . : ! !

ولكن سنان بن أنس : كانت العدالة الإلهية قد أفقدته فعلا العقل والتفكير ، انتقاماً منه ، وسخطاً عليه ، قبل أن تعدمه الحياة ، ليكون عبرة لأمثاله فى كل زمان وحين ، ممن يبيعون ضمائرهم للطغاة ، ويعمرون دنياهم بخراب آخرتهم ، فيخسرون الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

فقد توجه سنان فى اليوم التالى إلى عبيد الله بن زياد ، ومعه رأس الشهيد الكريم ، وهو يردد بكل قوته ما قاله بالأمس « أوقر ركابي . . » فاستشاط ابن زياد غضباً من قوله ، وقال له :

« إذا علمت ذلك . . فلم قتلته ؟ والله لانلت منى خيرا ، ولألحقنك به » ثم أمر به فضربت عنقه(٢) .

وفى رواية أخرى : أن المختار الثقفى طلب سنان بن أنس ، فوجد أنه هرب إلى البصرة ، فأمر بداره فهدمت(٣) .

وروى أن الحجاج قال يوماً : من كان له بلاء فليقم ، فقام قوم كل منهم يذكر خدمته لبنى أمية ، وقام سنان فقال مفاخراً : أنا قاتل الحسين . . فلما رجع إلى منزله اعتقل لسانه ، وذهب عقله ، فكان يأكل ويحدث فى مكانه(٤) .

وسواء صحت رواية أو أخرى ، فكل نهاية فيها أشد سوءاً من الأخرى .

مصرع قائد شرطة بن زياد :

وفى الوقت الذى كان فيه قاتل الحسين — رضى الله عنه — يلقى مصيره على يد أوليائه وسادته ، كانت يد العدالة تمتد بقوة إلى الحصين بن تميم ، فتوقع به من النكال ، ما يناسب جهاده فى نصرة الباطل ، وبلاءه فى مقاتلة سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — واسرافه فى العدوان عليه .

ولقد لعب الحصين دوراً كبيراً فى المأساة ، وكانت له مواقف متعددة ، فاز بها بغضب الله ورسوله ، واستحق بها لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

فهو الذى أخذ قيس بن مسهد الصيداوى — ومعه كتاب الحسين — رضى الله عنه — إلى أهل الكوفة ، يخبرهم فيه بشخوصه إليهم من مكة لثمان مضين من ذى الحجة ، يوم التروية — فبعث به إلى عبيد الله ابن زياد ، فأمر به فألقى من رأس القصر ، فتقطع ومات(٥) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٩ .
(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٢ / ٢٤٢ .
(٣) تاريخ الرسل والملوك : ٦ - ٦٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٧٢ .
(٤) التاريخ الكبير لابن عساكر : ٤ / ٣٤٠ .
(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٩٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٦٨ .

وهو الذى بعثه عمر بن سعد على رأس خمسمائة من الرماة ، إلى الحسين وأصحابه ــ رضى الله عنه وعنهم ــ حتى إذا دنوا منهم ، جعلوا يرمون الخيول ، حتى عقروها كلها ، وأصبح الجميع رجالة(١) .

وهو الذى علق رأس حبيب بن مظاهر ــ صاحب الحسين رضى الله عنهما ، وفى مقدمة من استشهد دفاعاً عنه ــ فى عنق فرسه ، وجال به بين العسكر ، مفاخراً بأنه ساهم فى قتله(٢) .

على أن كل ذلك لا يعد شيئاً ، بجانب فعلته المنكرة ، حين اشتد عطش الحسين ــ رضى الله عنه ــ فحاول الوصول إلى ماء الفرات فمانعوه ، حتى خلص إلى شربة منه ، فرماه الحصين بسهم فى حنكه فأثبته ، فانتزع الحسين ــ رضى الله عنه ــ السهم من فيه ، ففار الدم غريراً ، فتلقاه الحسين ــ عليه السلام ــ بيديه ورمى به إلى السماء ، وهو يحمد الله ويثنى عليه ، رضاء منه بقضائه ، ويدعو فى نفس الوقت على الظالمين دعاءاً بليغاً(٣) .

ولقد كان جزاء المجرم عاجلا . . واستجاب المولى عز وجل فوراً لدعاء ابن بنت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلما لبث الحصين إلا يسيرا حتى صب الله عليه الظمأ صبا ، فجعل يشرب ولا يروى ، ويسقى الماء مبرداً تارة ، واللبن تارة أخرى ، فلا يزداد إلا شعوراً بالظمأ ، وإحساساً بالهلاك ، حتى أنه ليصيح : ويلكم ... ! ! اسقونى . . قتلنى الظمأ . . ! !

وهكذا ، ما لبث الآثم إلا قليلا ، حتى بلغ به الإعياء كل مبلغ ، فخمدت أنفاسه ، وانقد بطنه انقداد البعير(٤)

نهاية يزيد بن معاوية :

لم يختلف المؤرخون حول أمير من أمراء المسلمين ، اختلافهم حول يزيد ــ ثانى خلفاء أو ملوك الدولة الأموية ــ فقد تضاربت فى شأنه وأحواله الروايات ، فالبعض منها يبرئه من المسئوليه المباشرة . فى مقتل الحسين ــ رضى الله عنه ــ ومن كانوا معه ، والبعض الآخر يدينه إدانة تامة ، ويحمله مسئولية تلكم المأساة الدامية ، التى ليس لها مثيل فى تاريخ البشرية بأسرها .

لذلك : فإن من الضرورى أن نستعرض ــ أولا ــ بعض هذه الروايات ، ثم نقيسها بمقياس الأحداث التاريخية الثابتة ، باعتبارها الفيصل القاطع بين الحق والباطل .

أولا ــ حول مطالبته الحسين بالبيعة : وقد تناقضت فيها عدة روايات ، بعضها يدعو إلى استعمال الرفق مع الحسين ــ رضى الله عليه ــ ويدعو البعض الآخر إلى استعمال العنف . .

ففى رواية ابن كثير : أن يزيد كتب إلى الوليد بن عتبة وإلى المدينة المنورة فور توليه الخلافة ، خطاباً جاء فيه :

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٣٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٢ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٤٠ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٤٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٧ . .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٧ .

« . . أن ادع الناس فبايعهم ، وابدأ بوجوه قريش ، وليكن أول من تبدأ به الحسين بن على ، فإن أمير المؤمنين عهد إلى فى أمره الرفق به واستصلاحه »(١) .

وجاء فى رواية للذهبى : أن يزيد كتب فى كتابه إلى عامله : « وابدأ بالوجوه ، وارفق بالحسين »(٢) .

والمعنى فى الروايتين متقارب ، وفيه دعوة إلى استعمال الرفق مع الحسين — رضى الله عنه — وتوصية به ، ولكن آخر الروايتين المذكورتين ، يناقض أولهما ، حيث جاء فى كل منها : «وكان الوليد أغلظ للحسين ، فشتمه الحسين ، وأخذ عمامته فنزعها من رأسه»(٣) .. وهذا يتعارض مع الرفق الذى أوصى به يزيد وإن كانت الغلظة التى بدرت من الوليد لم تصل إلى حد استعمال العنف ، لأن الوليد كان يحب العافية ، ويكن فى أعماقه للحسين كل تقدير وإجلال ، حتى إنه قال له فى نهاية مقابلته له : « فانصرف على اسم الله حتى تأتينا فى جماعة »(٤) .

ويفسر لنا هذا التناقض بين الأقوال والأفعال : ما ذكره الطبرى وابن كثير وغيرهما من أن يزيد كتب إلى الوليد بن عتبة — بجانب كتابه السابق — فى صحيفة كأنها إذن الفأرة يقول فيها :

« أما بعد : فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة ، حتى يبايعوا ، والسلام »(٥) .

ثانيا : حول خروج الحسين إلى الكوفة . . وكما تناقضت الروايات المتعلقة بموقف يزيد من مطالبة الحسين — رضى الله عنه بالبيعة ، فقد تناقضت كذلك فيما يتعلق بموقفه من خروج الحسين — عليه السلام — إلى الكوفة .

ففى بعض الروايات : أن يزيد كتب إلى عبيد الله بن زياد — حين علم بخروج الحسين ، رضى الله عنه إلى الكوفة — خطاباً يقول فيه :

« . . ان حسينا صائر إلى الكوفة ، وقد ابتلى به زمانك من بين الأزمان ، وبلدك من بين البلدان ، وابتليت أنت به من بين العمال ، وعندها تعتق أو تعود عبداً ، كما ترق العبيد وتعبد »(٦) .

وظاهر هذه الرواية : التوصية بالحسين رضى الله عنه ، وعدم التورط فى إيذائه ، ولكن هذه المعانى ينقضها من أساسها : رواية أخرى ، جاء فيها أن يزيد كتب إلى ابن زياد يقول :

(قد بلغنى أن الحسين قد توجه إلى العراق ، فضع المناظر والمصالح ، واحترس ، واحبس على الظنة ، وخذ على التهمة ، غير أن لا تقتل إلا من قاتلك ، واكتب إلى فى كل ما يحدث من خبر والسلام »(٧) .

ثالثا — موقف يزيد من مقتل الحسين عليه السلام : وفى هذا الصدد أيضاً تناقضت الروايات ، فبعضها يشير إلى أسف يزيد لما وقع بالحسين عليه السلام وأهل بيته ، وحزنه على ذلك ، والبعض الآخر يؤكد فرحه بما حدث ، وارتياحه له ، وأنه كان بعلمه وأمره .

(١ ، ٢ ، ٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٦٢ ، سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ / ١٩٨ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٤٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٤٧ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٣٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٤٦ .

(٦) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٦ ، سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ / ٢٠٥ .

(٧) البداية والنهاية : ٨ / ١٩٦٥ .

ففي رواية من حديث الحصين ، عن مولى لمعاوية — رضى الله عنه — أنه : « لما أتى يزيد برأس الحسين — عليه السلام — فوضع بين يديه ، رأيته يبكى ويقول : لو كان بين ابن زياد وبينه رحم ما فعل هذا »(١) .

ويشبه هذا ما رواه هشام عن الغاز بن ربيعة الجرشى ، قال : « والله إنى لعند يزيد بن معاوية إذ أقبل زحر بن قيس ، فقال له : ويحك .. ما وراءك ؟ فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره ، ورد علينا الحسين وثمانية عشر من أهل بيته ، وستون رجلا من شيعته ، فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة(٢) ، وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس ، وتسفى عليهم الريح ، فدمعت عينا يزيد بن معاوية وقال : كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سمية ، أما والله لو إنى صاحبه لعفوت عنه ، ورحم الله الحسين ، ... ولم يصل الذى جاء بشىء ، ... ولما وضع رأس الحسين بين يديه قال : أما والله لو انى صاحبك ما قتلتك »(٣) .

وفى رواية أخرى للثورى عن أبى الحجاف عن أبيه : أن السيدة سكينة بنت الحسين — رضى الله عنهما — قالت ليزيد : أبنات رسول الله سبايا ؟ فقال : يا بنت أخى : هو والله على أشد منه عليك ، ولو أن بين ابن زياد وبين حسين قرابة ما قدم عليه ، فرحم الله حسينا ، عجل عليه ابن زياد ، أما والله لو كنت صاحبه ، ثم لم أقدر على دفع القتل عنه إلا بنقص بعض عمرى ، لأحببت أن أدفعه عنه ، ولوددت أن أتيت به سالما »(٤) .

ولكن هذه الأقوال الثلاثة ، المنسوبة ليزيد ، يضعف من قيمتها ما رواه يونس بن حبيب الجرمى : انه لما قتل ابن زياد الحسين ومن معه ، بعث برؤوسهم إلى يزيد ، فسر بقتله أولا ، وحسنت بذلك منزلة ابن زياد عنده ، ثم لم يلبث إلا قليلا حتى ندم(٥) .

ويؤكد هذا المعنى ، ما روى عن يزيد من اظهاره بعض الشماتة لما حل بالحسين — رضى الله عنه — بإذنه لأشراف الشام بالدخول عليه ، ورأس سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — بين يديه ، وهو ينكت فى ثغره بقضيب كان فى يده ، ثم قوله لعلى زين العابدين — رضى الله عنه — أمام الناس ! ياعلى : أبوك الذى قطع رحمى ، وجهل حقى ، ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما قد رأيت(٦).

* * *

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٧١ .

(٢) مرملة : أى ملطخة بالدم .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٦٠ ، البداية والنهاية : ٨ / ١٩١ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٦٤ ، سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ / ٢٠٤ .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٣٢ ، سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ / ٢٠٣ .

(٦) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٦١ ، سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ / ٢٠٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩٤ .

ومثل هذه الأقوال والروايات المتضاربة كثيرة ، فما يمكن فهمه أو استنباطه من بعضها ، ينفيه البعض الآخر ويأتى بعكسه ، ولذلك فلا مناص من قياس مدى صحة هذه الروايات ، بمقياس الأحداث الثابتة ، والحقائق الواقعة ، فهى وحدها لها دلالتها القاطعة فى تأكيد رواية ما ، أو نفى أخرى — من ذلك :

أولا — ثبت أن يزيد عزل الوليد بن عتبة عن امرة المدينة ، لتهاونه فى أمر الحسين عليه السلام ، حتى أمكنه من الخروج إلى مكة المكرمة ، وولى عمرو بن سعيد بن العاص بدلا منه ، وكان متألهاً متكبراً ، معروفاً بالقسوة والغلظة ، وهذا يؤكد أن ما نسب إلى يزيد من دعوته إلى الرفق بالحسين لا أساس له ، وأن مطالبته بأخذه بالبيعة أخذاً شديداً ، هو الواقع الذى لا شك فيه .

ثانيا — ثبت أن يزيد عزل النعمان بن بشير — رضى الله عنهما عن الكوفة ، وهو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لسبب مشابه لما عزل الوليد من أجله ، وهو عدم أخذه القائمين بالدعوة للحسين عليه السلام بالشدة ، واكتفاؤه بنهيهم عن الاختلاف والفتن ، ودعوتهم إلى الائتلاف والسنة ، واعلانه أنه لايقاتل من لايقاتله ، ولا يثب على من لايثب عليه ، ولا يأخذ بالظنة »(١) .

وقد أضاف يزيد الكوفة — بعد عزل النعمان — إلى عبيد الله بن زياد ، والى البصرة ، كما سبق أن أضاف المدينة إلى والى مكة : عمرو بن سعيد ، وكلاهما سواء فى التجبر والبطش ، وقد كتب يزيد إلى ابن زياد حين ولاه الكوفة يقول : « إذا قدمت الكوفة فاطلب مسلم بن عقيل ، فإن قدرت عليه فاقتله أو انفه(٢) .

وكان عزل الوليد بن عتبة عن المدينة فى رمضان ، أى بعد شهر ونصف من تولى يزيد للخلافة ، وعزل النعمان بن بشير بعد ذلك بقليل .

ثالثا — أن يزيد — وقد اختار ابن زياد للكوفة — من الطبيعى أن يكون قد زوده بالتعليمات التى يجب أن يعمل فى حدودها ، ويتصرف على ضوئها ، وعلى ضوء هذه التصرفات يمكن التأكد من كنه هذه التعليمات ، وهل كانت تدعو إلى الرفق والتسامح ، وتقوم على الحق والعدل ، أم كانت — بعكس ذلك تبيح سفك الدماء ، وأخذ الأبرياء ؟ !

والثابت أن عبيد الله بطش بطش الجبارين ، فقتل مسلم بن عقيل ، وهانىء بن عروة ، وبعث برأسيهما إلى يزيد ، فكتب إليه يعلن رضاءه عنه ، وثقته فيه ، وأنه كان عند حسن ظنه به ، فقد عمل الحازم ، وصال صولة الشجاع الرابط الجأش . . . الخ(٣) .

واستمر عبيد الله بن زياد فى جبروته ، طبقاً لتعليمات يزيد إليه ، يحبس على الظنة ، ويأخذ بالتهمة ، إلى أن سير إلى سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — رجاله وفرسانه ، ولم يقبل منه ما عرضه عليه

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٥٦ ، الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٦٧ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٤٨ ، ٣٥٧ ، البداية والنهاية : ٨ / ١٥٢ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٨٠ .

من الحصال ، حتى انتهى الأمر بحصاره وقتله ، إلى أن احتزوا رأسه الشريف ، وداسوا بسنابك الخيل جسده الطاهر ، حتى ألصقوه بالأرض . !

رابعا — انه من الثابت أن يزيد بن معاوية ، لم يظهر أى استياء فعلى لما اقترفه ابن زياد من تقتيل وتمثيل بالحسين وأهل بيته — رحمات الله وبركاته عليهم — ولم يقف من عبيد الله أى موقف يشعر باستنكاره لفعلته الشنيعة ، مما يدل على أن كل ما فعله ، كان طبقاً لأمره ، ووفقاً لهواه ، ولو كان ما حدث مخالفاً لأمره وهواه لكان فى إمكان يزيد أن يعزل ابن زياد ، كما عزل الوليد والنعمان بن بشير ، لتهاونهما فى تنفيذ تعلياته ، ولكنه على العكس من ذلك ، أبقاه على ولاية المصرين (١) — الكوفة والبصرة — وبالغ فى رفعه حتى أدخله على نسائه(٢)، وفى ذلك دليل قاطع على رضائه عنه ، وارتياحه لشدته وبطشه : :

خامسا — أن تعليمات يزيد إلى مسلم بن عقبة — حين أرسله فى جيش إلى المدينة — تنسق فى روحها العامة ، التى تتسم بالقسوة والبطش ، والإسراف فى سفك الدماء ، والاستهتار بالحرمات والمقدسات ، مع ما حدث قبل ذلك بكربلاء ، بالنسبة للحسين وصحبه وآل بيته — رضى الله عنهم أجمعين — فإن الذى يبيح مدينة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، تجرى فيها دماء الصحابة والتابعين أنهارا ، وتنتهك فيها الحرمات جهارا ، لايتورع عن الأمر بقتل الحسين ، ومن معه من الأهل والأصحاب .

ومن جملة ما تقدم : يتضح أنه مهما كانت الأحوال ، فإنه لا مجال لتبرئة يزيد من مسئولية مقتل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — وأهل بيته وأصحابه ، وسواء كانت هذه المسئولية مباشرة ، كما تؤكده الحقائق التى أوضحناها ، أوكانت غير مباشرة كما يظن بعض المؤرخين ، أو يتوهم بعض المعاصرين ، متعللين بتهاون يزيد فى القيام بشئون الدولة ، وانشغاله بلهوه وصيده ، حتى ترك الحبل على غاربه لولاة الأمصار ، . . سواء كان هذا هو الواقع أو ذاك ، فإن الذى لاشك فيه : أن يزيد مسئول عن الأمة بأسرها ، باعتباره الراعى لأمورها ، المطالب بالسهر على مصالحها والرفق بها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته »(٣) . وقال :

« ان شر الرعاء الحطمة »(٤) . . أى القساة الذين يشقون على الناس ويظلمونهم ، ولا يرقبون الله فيهم .

استئصال شأفة يزيد :

وعلى قدر المسئولية : يكون الجزاء والعقاب . .

ولقد كانت مسئولية يزيد عن مقتل الحسين وأهل بيته وصحبه — رضى الله عنهم — واباحة المدينة ثلاثة أيام ، وحرق الكعبة وضربها بالمجانيق ، أكبر من أن تنكر ، وأخطر مما يتصور :

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٠٣ .

(٢) الصواعق المحرقة : لابن حجر الهيتمى : ص ١٩٩ .

(٣) متفق عليه : من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

(٤) متفق عليه من حديث عائذ بن عمر رضى الله عنه .

ومن أجل ذلك : اقتضت حكمة المولى عز وجل وعدالته ، أن يعجل له العقوبة فى الدنيا ، وأن يهدم كل ما بناه من آمال ، أو أحكمه من تدبير :

لقد أراد أن يوطد ملكه ، وأن يثبت سلطانه ، فأذله الله بقهره ، وسلبه الملك والسلطان ، فلم تدم خلافته أكثر من ثلاث سنوات وتسعة أشهر ، وقبضه الله إليه وهو فى عنفوان قوته ، وكان هلاكه بعد ضرب الكعبة بالمجانيق وحرقها بإحدى عشرة ليلة(١) .

ولقد أراد بقتل الحسين — عليه السلام — أن تصفو له الحياة ، فبتر الله عمره لسوء فعلته ، واستجابة لدعوة أبيه معاوية رضى الله عنه ، الذى حين خوطب فى أمر توليته العهد ليزيد ، قال فى خطاب له بين الناس :

« اللهم ان كنت إنما عاهدت ليزيد لما رأيت من فعله ، فبلغه ما أملته وأعنه ، وإن كنت إنما حملنى حب الوالد لولده ، وأنه ليس لما صنعت به أهلا . فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك(٢) .

فكان الأمر كما قال معاوية رضى الله عنه ، فهلك يزيد وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره ، سنة أربع وستين من الهجرة ، بعد أن عهد إلى ابنه معاوية بن يزيد بالخلافة ، ولكنه لم يمكث فيها إلا قليلا ، فلحق بأبيه ، بعد أربعين يوماً من خلافته ، عن إحدى وعشرين سنة(٣) .

ولقد قتل من أهل البيت المطهر ثمانية عشر شاباً بخلاف سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه وعنهم — كلهم من أبناء فاطمة الزهراء ، ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبيه ، وكاد نسل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تستأصل شأفته ، لولا افلات على بن الحسين « زين العابدين » من القتل لمرضه ، فاقتضت عدالة السماء أن تنقرض ذرية يزيد « وقد كان له من البنين خمسة عشر ، ومن البنات خمس ، انقرضوا جميعاً فلم يبق ليزيد عقب»(٤) وقد أدرك ذلك ابنه معاوية — وكان شاباً صالحاً — فإنه لما تولى الخلافة صعد المنبر فقال :

« ان أبى قلد هذا الأمر وكان غير أهل له ، ونازع ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقصف عمره ، وانبتر عقبه ، وصار فى قبره رهيناً بذنوبه(٥) .

أما الحسين — رضى الله عنه — فقد بارك الله فى البقية الباقية من ذريته ، فتوفى على « زين العابدين » عن أحد عشر ذكراً وأربع أناث ، ومن أولاده استمر نسل النبى صلى الله عليه وسلم من الحسينية حتى الآن ، وسيستمر إن شاء الله إلى يوم القيامة ، « والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لايعلمون »(٦) .

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٢ / ٢٤٧ .
(٢ ، ٣) الصواعق المحرقة : لابن حجر الهيتمى ص : ٢٢٤ .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٢٥ .
(٥) الصواعق المحرقة للهيتمى المكى : ٢٢٤ .
(٦) سورة يوسف : آية : ٢١ .

تفكك الدولة الأموية :

وقد كان موت يزيد بن معاوية ، إيذاناً بتفكك الدولة الأموية ، واندلاع الفتن والثورات فى مختلف أرجائها ، لما اقترفه من مظالم ، وغرسه من أحقاد :

ففى البصرة : خرج القراء والخوارج ، بقيادة نافع بن الأزرق ، وطردوا عنهم عبيد الله بن زياد :

وفى الحجاز استفحل أمر عبد الله بن الزبير — رضى الله عنه — وبايعه الناس ، فاستناب على المدينة أخاه عبيد الله بن الزبير ، ودانت له أغلب الأمصار حتى تابعه أهل مصر والجزيرة واليمن وخراسان :

وفى الكوفة بدأت الدعوة إلى الأخذ بثأر الحسين — رضى الله عنه ، تظهر جهاراً ، وتواعد «التوابون» على الخروج فى العام التالى : كما ذكرنا آنفاً :

وهكذا لم يمض عامان على موت يزيد ، حتى أحس قتلة الحسين — عليه السلام — أنهم قد فقدوا الكثير من نفوذهم وسلطانهم ، وأن العدالة توشك أن تأخذ بخناقهم ، فغدوا فى قلق من مصيرهم ، وخوف على حياتهم ، حتى أن ابن زياد فر هارباً من البصرة ، ولحق بمروان بن الحكم ، وكان عمر بن سعد بن أبى وقاص — قائد جيش ابن زياد — لا يبيت فى بيته خوفاً من القتل ، ويحتمى بقصر الإمارة ، عند عبد الله بن يزيد الخطمى ، نائب ابن الزبير بالكوفة على الحرب والثغر(١) .

قيام المختار بالدعوة للثار:

بالرغم من هزيمة جيش «التوابين» ، ومقتل أميرهم «سليمان بن صرد» رضى الله عنه — كما قدمنا — فقد استمرت الدعوة إلى الأخذ بثارات سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — تتصاعد بقوة ، واستغل المختار بن عبيد الله الثقفى — المشهور بالكذاب — هذه الفرصة ، فأعلن أنه سيتولى الأخذ بثأر الحسين عليه السلام من قاتليه ، وزعم أنه يعمل بأمر محمد بن الحنفية ، أخو الحسين — رضى الله عنهما — فانضم إليه من بقى من فلول التوابين ، فأخذ يتتبع قتلة الحسين — عليه السلام — أفراداً وجماعات ، حتى طار صيته ، وتفاقم أمره ، لا سيما بعد أن استطاع قلة من رجاله : أن يهزموا أضعاف أضعافهم ، من القوات التى سيرها ابن زياد إليهم من الشام ، فانتهت المعركة بفرار جند الشام ، بعد أن أسر منهم رجال المختار ثلاثمائة ، ضربت أعناقهم :

❋ ❋ ❋

وكان المختار قد سيطر على الكوفة ، ودان له أهلها بالطاعة ، فلما بلغهم أن عبيد الله بن زياد — بعد هزيمة جنوده ، قد بدأ فى الاستعداد لغزو الكوفة ، وأنه فى الطريق إليها فى ثمانين ألفاً من أهل الشام ، عندئذ : نقض أهل الكوفة عهدهم للمختار ، وخرجوا عليه ، ترضية منهم لابن زياد : ولكن المختار هزمهم ، وأسر منهم زهاء خمسمائة ، فلما عرضوا عليه قال :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٥٢ .

« انظروا : من كان منهم شهد مقتل الحسين فاقتلوه » » فقتلوا منهم ٢٨٤ رجلا(١) ! !

وقد كان لهذا الحادث أعمق الأثر فى نفوس أهل الكوفة ، وعظم المختار فى نظر الكثيرين منهم ، فى حين خرج منها كل من كانت له صلة بمقتل سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — فراراً بحياته من القتل ، ولكن المختار استمر فى تتبعهم ، واحداً بعد الآخر ، حتى استأصل شأفة معظمهم ، فقتل منهم كل من وقع فى يده ، واستطاع القليلون النجاة بحياتهم ، فمنهم من أدركته عدالة السماء ، فلقى جزاءه بعد حين ، ومنهم من انقطعت أنباؤه ، فلم يعرف له مصير .

مصير قائد ميمنة بن زياد ؟

وهو عمرو بن الحجاج الزبيدى ، الذى بعثه عمر بن سعد على رأس خمسمائة فارس ليحولوا بين الحسين وأصحابه — رضى الله عنهم — وبين الماء : حتى لايصلوا إلى قطرة منه ، فلما اشتد العطش بهم ، بعث الحسين أخاه العباس — رضى الله عنهما — فى جماعة من الرجال والفرسان ليملأوا القرب بالماء ، فاعترضهم عمرو بن الحجاج بمن معه ، ولكن العباس وأصحابه حملوا عليهم فردوهم ، وتمكنوا — رغم قلتهم — من أخذ حاجتهم من الماء(٢) .

وحينما اقترب موعد المعركة ، ولاه عمر بن سعد قيادة الميمنة ، فأخذ يحرض رجاله على القتال ويقول :

ألزموا طاعتكم جماعتكم ، ولا ترتابوا فى قتل من مرق من الدين ، وخالف الإمام(٣) ! !

فناداه الحسين — رضى الله عنه قائلا :

« ياعمرو بن الحجاج : أعلى تحرض الناس ؟ أنحن مرقنا وأنتم ثبتم عليه ؟ أما والله لتعلمن لو قبضت أرواحكم ، ومتم على أعمالكم — أينا مرق من الدين ، ومن هو أولى بصلى النار؟» (٤) .

ولما انتهت المعركة : كان عمرو بن الحجاج رابع الأربعة الذين عهد إليهم بحمل رءوس الشهداء ، وعدتها ثنتان وسبعون رأساً ، والقدوم بها على ابن زياد(٥) .

***

على أن لعمرو بن الحجاج موقفاً يوضع ضمن حسناته ، وذلك حينما جاء أمر ابن زياد بإرغام الحسين — رضى الله عنه — على الخضوع ، أو قتاله وقتله ، فبعث إليهم أخاه العباس — رضى الله عنهما — ليردهم هذه الليلة حتى يتفرغ فيها للقاء ربه ، فلما تردد عمر بن سعد فى الاستجابة : صاح به عمرو ابن الحجاج قائلا :

سبحان الله : ؟ والله لو كانوا من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة ، لكان يجب أن تجيبهم إليها(٦) .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٦ / ٥١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٧٠ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤١٢ .

(٣ ، ٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣١٣ ، ٤٢٢ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٦ .

(٦) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤١٧ .

ولعل هذه الحسنة ، هى التى مكنت لعمرو بن الحجاج من النجاة من القتل ، حين استولى (المختار الثقفى) على الكوفة ، وأخذ فى التنكيل بكل من علم باشتراكه فى مقاتلة سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — وأيقن أنه فى مقدمة المطلوب ضرب أعناقهم ، فركب راحلته وفر هارباً فلم يعرف له مصير ، ولا يدرى أى أرض بخسته ، أم سماء حصبته(١) ؟ !

نهاية شمر بن ذى الجوشن :

وقد كان من أشد الناس عداوة للحسين — رضى الله عنه — وأكثرهم استهتاراً بحقه وتحريضاً عليه ، .. حتى أن عمر بن سعد ، حين كتب إلى ابن زياد ينصح له بقبول ما عرضه الحسين — عليه السلام — حقناً للدماء ، فقال : نعم قبلت . . اعترضه ابن ذى الجوشن فقال له : والله لئن رحل من بلدك ، ولم يضع يده فى يدك ، ليكونن أولى بالقوة والعزة ، ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، .. ولكن لينزل على حكمك ، فإن عاقبت فأنت أولى بالعقوبة ، وإن غفرت كان ذلك لك (٢) .

وقد لقى هذا الرأى رضاً من ابن زياد ، ولا عجب . . فقد تشابهت نفساهما لؤماً وخبثاً ، فبعثه إلى عمر بأمره النهائى : إما أن يسير الحسين إليه ، وإما أن يقاتله ، . . كما أمره أن يضرب عنق عمر ابن سعد ان تردد فى اكراه الحسين — عليه السلام — على المسير إلى الكوفة ، أو قتاله .

وحينما انتهى الأمر إلى القتال ، اخذ شمر يحرض على سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه ، وحاول حرق فسطاطه على من فيه ، وأرهب النساء ، حتى دعا عليه الحسين عليه السلام قائلا « أحرقك الله بالنار »(٣) .

ولما أصبح الحسين — رضى الله عنه — وحيداً ، أقبل نحوه شمر فى جماعة من الفرسان ، وأخذ يحفز الجموع المتهيبة من الإقدام على قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويصيح بهم ، ماذا تنتظرون بقتله ؟ حتى أن الحسين رضى الله عنه ، حين نظر إليه : تذكر حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشأنه ، فقال صدق الله ورسوله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كأنى أنظر إلى كلب أبقع يلغ فى دماء أهل بيتى(٤) » .

وكان شمر قبيح الصورة ، أشبه ما يكون بالكلب الأبقع ، لما به من برص !

* * *

فلما تمكن المختار من الكوفة : كان شمر فى مقدمة المطالبين بثأر الحسين عليه السلام ، فخرج منها نجاة بنفسه مع جماعة من أشرافها ، قاصداً مصعب بن الزبير ، فأرسل المختار فى أثره غلاماً يقال له زرنب ، فقتله شمر وسار فى طريقه ، فخرج فى أثره أبوعمرة — أمير حرس المختار — واستدل على

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٦ / ٥٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٧٠ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤١٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٧٥ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٣ .

(٤) البداية والنهاية : ٨ / ١٨٨ .

مكانه ، فلما كان الليل انقض أبو عمرة فى الخيل على شمر وجماعته ، قبل أن يتمكنوا من ركوب خيلهم أو أخذ أسلحتهم ، فطاعنهم شمر برمحه وهو عريان ، ثم عمد إلى خيمته فاستخرج منها سيفاً أخذ يناضل به حتى قتل ، وانهزم أصحابه ، فلما سمعوا أصوات رجال المختار تدوى قائلة : الله أكبر . . قتل الله الخبيث(١)، عرفوا أن صاحبهم قد لقى حتفه :

ولم يكتف رجال المختار بذلك . . فلم ينصرفوا ، حتى تناولوا جثة الأثيم ، فأوطأوا الخيل صدره وظهره ، لأنه فعل مثل ذلك بابن بنت رسول الله(٢) ، ثم تركوا أشلاءه نهباً للكلاب .

مصرع أصحاب الورس :

واستمر المختار ، يضع العيون ، لتتبع قتلة الحسين ــ رضى الله عنه ــ فى كل مكان يسمع بوجودهم فيه ، ويبعث البعوث إليهم ، لتأتيه بهم طوعاً أو كرهاً ، جماعات وأفرادا ، حتى غدوا جميعاً ، من خوف الذل فى ذل ، ومن خوف الموت فى موت :

هؤلاء هم أربعة ممن قاتلوا الحسين وأهل بيته وصحبه ــ رضى الله عنهم أجمعين ــ وأصابوا من الورس الذى كان فى رحله ، فلما علم المختار بنبأهم : أرسل إليهم « عبد الله بن كامل » أحد قادته ، فى نفر من رجاله ، فجاءوا بهم إليه ، فقال لهم :

يا قتلة الصالحين . . وقتلة سيد شباب أهل الجنة ، ألا ترون الله قد أقاد منكم اليوم ؟ لقد جاءكم الورس بيوم نحس . . . . ثم أمر بهم فأخرجوا إلى السوق ، فضربت أعناقهم(٣) .

مصرع رامى الحسين بالنبل :

وهو حكيم بن الطفيل السنبسى ، كان يفاخر بأنه ضم الحسين رضى الله عنه ، ويقول : تعلق سهمى بسرباله وماضره . .

واشترك الطفيل فى قتل العباس بن على ــ أخو الحسين رضى الله عنهم أجمعين ــ ولم يكتف بذلك : بل بلغت به خسة النفس فى حرصه على الحطام الفانى ، أن نزع عنه ثيابه وأخذها سلباً له . .

وقد كان جزاء الفاسق من جنس عمله . . ، فأخذه جند المختار ، فشدوا وثاقه ونصبوه غرضاً . . ثم قالوا له :

ــ سلبت ابن على ثيابه ؟ والله لنسلبن ثيابك وأنت حى تنظر ! !

وبعد أن نزعوا ثيابه قالوا له ! !

ــ رميت حسينا ، واتخذته غرضاً لنبلك ؟ . . وقلت : تعلق سهمى بسرباله ولم يضره ؟ وأيم الله لنرمينك كما رميته بنبال ما تعلق بك منها أجزاك ! !

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٦ / ٥٣ ، البداية والنهاية : ٨ - / ٢٧ .

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى المكى : ١٩٨ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٦ / ٥٨ ، والورس نبت أصفر يكون باليمن تتخذ منه الغمرة ك وهى طلاء يطلى به وجه المرأة ليصفر لونها .

ثم أرسلوا نبالهم إليه عن قوس واحد ، فاخترمته من كل ناحية ، فخر صريعاً ، وقد صار جسده وكأنه القنفد ، لكثرة ما رشق فيه من نبال (١) .

شلل قاتل على الأكبر :

وهو مرة بن منقذ بن النعمان العبدى ، وهو الذى غاظه أن يرى عليا الأكبر بن الحسين – رضى الله عنهما – يقف موقف البطولة ، ويفاخر الناس بدفاعه عن أبيه – سيد شباب أهل الجنة – ويصول ويجول هنا وهناك بسيفه ، وهو يقول :

أنا على بن الحسين بن على　　　نحن وبيت الله أولى بالنبى

فما كان من مرة إلا أن اعترضه وطعنه ، فوقع رضى الله عنه ، وقبل أن ينهض من وقعته ، عطف عليه رجال ابن زياد ، فقطعوه بأسيافهم .

وعلم المختار بمكانه ، فأرسل إليه ابن كامل ، فى جماعة من رجاله ، فأحاطوا بداره ، فخرج إليهم ابن منقذ وبيده رمحه ، وقد امتطى فرسه ، فضربه ابن كامل بالسيف ضربة اتقاها بيده ، وأسرعت به فرسه ، فاستطاع الإفلات ، ولحق بمصعب بن الزبير – رضى الله عنه – ولكن يده شلت بعد ذلك (٢) :

مصرع قاتل العباس بن على :

وما زالت يد الله القاهرة تلاحق المجرمين ، وتوقع بهم من النكال أنواعاً وأصنافا ، بما يتفق مع صور الجرائم التى اقترفوها ، والحرمات التى انتهكوها .

هذا هو زيد بن رقاد الجنبى ، وهو الذى ساهم فى قتل العباس بن على – رضى الله عنهما – مع حكيم بن الطفيل السنبسى ، وعاون بعد انتهاء المعركة فى قتل آخر الشهداء الكرام ، سويد بن عمرو بن أبى المطاع (٣) .

وبلغت الجاهلية بزيد : أنه كان يفاخر بأنه رمى فتى من فتيان أهل البيت – رضى الله عنهم بسهم ، وكان واضعاً كفه على جبهته يتقى بها السهام ، وبلغ من قوة الرمية أنها أثبتت كف الغلام على جبهته ، فما استطاع أن يزيلها عنها ، فصاح الفتى عندئذ مناجياً ربه :

« اللهم إنهم استقلونا واستذلونا ، اللهم فاقتلهم كما قتلونا ، وأذلهم كما استذلونا » . ولكن يزيد لم يكتف بما فعل ، بل عاجل الغلام بسهم آخر فقتله ، ثم أقبل عليه وهو ميت فانتزع السهم من جوفه ، ولم يستطع أن ينتزع السهم الذى فى جبهته ، فبقى النصل مثبتاً فيها . وكان ذلك الفتى هو عبد الله بن مسلم ابن عقيل(٤) رضى الله عنهما .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : لابن جرير الطبرى : ٦ / ٦٣ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : لابن جرير الطبرى : ٦ / ٦٤ .

(٣) المصدر السابق : ٥ / ٤٥٣ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك : ٦ / ٦٤ ، البداية والنهاية : ٢٧٢/٨ . قلنا : وجاء فى المصدر الأول ٤٤٧/٥ أن عمرو بن صبيح الصدائى ، رمى عبد الله بن مسلم بن عقيل بسهم فوضع كفه على جبهته ، فأخذ لا يستطيع أن يحرك كفيه ، ثم انتحى له بسهم آخر ففلق قلبه ، بينما جاء بعد ذلك فى الجزء ٦ / ٦٤ ما أوردناه هنا من أن رامى السهم كان زيد بن رقاد ، مع أن كلا من الروايتين عن أبي مخنف ، وربما كان السبب فى اختلاف الروايتين أن الإثنين اشتركا فى رمى عبد الله بن مسلم بن عقيل رحمة الله عليه .

وأحاط رجال المختار بدار زيد ، واقتحموها عليه ، فخرج شاهراً سيفه ، فقال لهم قائدهم ابن كامل ، لا تضربوه بسيف ، ولا تطعنوه برمح ، ولكن ارموه بالنبل ، وارجموه بالحجارة ، ففعلوا به ذلك ، حتى سقط جريحاً ، فأخرجوه وبه بقية من الحياة ، فدعا بنار فحرق بها (١) .

واتبعنا بعضهم بعضا :

وهذا هو بحر بن كعب : الذى بلغت به بطولته . . أنه استأسد إزاء غلام من غلمان أهل البيت ، لم يتعد الحادية عشرة من عمره ، هو عبد الله بن الحسين — رضى الله عنهما — فضربه بالسيف ضربة أطنت يده إلا الجلد ، ثم أضاف إلى جريمته هذه ، فعلة أشد شناعة وخسة ، إذ عمد إلى سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — بعد سقوطه ، فأخذ سراويله ، وتركه مجرداً . ! !

وقد انتقم الله من الشقى بما يناسب فعلته ، وبالرغم من أنه استطاع الإفلات من سيف المختار فقد عجز عن الإفلات من عدالة السماء ، فكانت يداه فى الشتاء تنضحان الماء ، وفى الصيف تيبسان كأنهما عود(٢) .

واستمر المختار فى تتبع قتلة سيد شباب أهل الجنة ، وكانوا يؤتون بهم من كل مكان ، حتى وقفوا بين يديه فيأمر بقتلهم على أنواع من القتلات ، التى تناسب جرائمهم ، فمنهم من حرق بالنار ، ومنهم من قطعت أطرافه وترك حتى نزفت دماؤه ، ومنهم من رمى بالنبال حتى مات (٣) .

من هؤلاء : رجلان شهدا مقتل الحسين — رضى الله عنه — واشتركا فى قتل عبد الرحمن بن عقيل ابن أبى طالب ، وأخذا سلبه ، فبعث إليهما المختار رسوله عبد الله بن كامل ، حتى عثر عليهما مختفيين فى جبانة استعداداً للهرب إلى الجزيرة ، فضرب عنق كل منهما ، فلما أخبر المختار بذلك : أمره أن يرجع فيحرقهما بالنار(٤) :

مصرع صاحب البرنس :

وهو مالك بن النسير الكندى ، وكان رسول ابن زياد إلى الحر بن يزيد ، بكتابه الذى يطلب فيه منه أن يجعجع بالحسين ، فلا ينزله إلا بالعراء ، فى غير حصن ولا ماء ، فرآه أبو الشعثاء — من أصحاب الحسين — رضى الله عنهما — فقال له : ماذا جئت فيه ؟ قال : وما جئت فيه : أطعت إمامى ووفيت ببيعتى ، فقال له أبو الشعثاء : عصيت ربك ، وأطعت امامك فى هلاك نفسك ، كسبت العار والنار(٥) .

وبالرغم من هذه النصيحة ، استمر مالك فى ضلاله ، وهو الذى جاء إلى الحسين عليه السلام فضربه على رأسه بالسيف ، ضربة قطعت البرنس ، وأدمت الرأس حتى امتلأ البرنس دماً ، فقال له الحسين — رضى الله عنه : لا أكلت بها ولا شربت . . وحشرك الله مع الظالمين .

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥١ .

(٣) البداية والنهاية للإمام الحافظ ابن كثير القرشى : ٨ / ٢٧٢ .

(٤) تاريخ الأمم والملوك للطبرى : ٦ / ٥٩ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٠٨ .

وألقى سيد شباب أهل الجنة بالبرنس جانباً ، واستبدله بقلنسوة لبسها واعتم عليها ؛

وأخذ المعتدى الأثيم البرنس ، فيما أخذه من الأسلاب ، ورجع إلى بيته ، وأقبل يغسله من الدماء التى علقت به . . فصاحت به امرأته مستنكرة :

ـ أسلب ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تدخل بيتى ؟ . أخرجه عنى (١) .

ولقد ظن الرجل أن ما سلبه من ابن بنت رسول الله ، سيغنيه فى دنياه ، ولكن الله عز وجل خيب آماله ، وعكس ظنونه ، فما زال بقية حياته فى فقر وبؤس ، حتى وقع فى يد المختار ، مع اثنين من المجرمين ، فصاح بهم :

أين الحسين بن على ؟ ! أدوا إلى الحسين ! ! قتلتم من أمرتم بالصلاة عليه فى الصلاة . . ؟ فقالوا رحمك الله . . بعثنا ونحن كارهون ، فأمنن علينا واستبقنا . . فقال المختار :

فهلا مننتم على الحسين بن بنت رسول الله نبيكم واستبقيتموه وسقيتموه ؟ ثم التفت إلى الكندى وقال له :

أنت صاحب برنسه ؟ ؟ فلما قيل للمختار انه هو هو ، قال :

اقطعوا يدى هذا ورجليه ، ودعوه فليضطرب حتى يموت .

فلم يزل الشقى تنزف دماؤه ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، بينما أخذ الرجلان الآخران فضربت أعناقهما (٢) .

مصرع حامل رأس الحسين :

وهذا هو الخولى بن يزيد ، الذى حمل رأس الحسين بعد أن قتله سنان بن أنس ـ وفى رواية : أنه هو الذى أجهز عليه واحتزها(٣) ـ فلما انتهى إلى قصر ابن زياد وجده مغلقاً ، فرجع بالرأس الشريف إلى بيته ، فوضعه تحت اجانة ، وقال لامرأته ـ نوار بنت مالك ـ جئتك بعز الدهر ! ! فقالت : وما هو ؟ فقال : برأس الحسين . . ! !

وفزعت المرأة لهول ما سمعت ، وبدلا من أن تشارك زوجها فى فخره بقتل الحسين ـ كما كان يتوقع ـ أظهرت له استنكارها للجريمة ، واحتقارها لشخصه ، وقالت له :

ـ جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لا يجمعنى وإياك فراش أبدا(٤)

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٤٨ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٦ / ٥٨ .

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه : ٢ / ٢٤٢ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٥ ، البداية والنهاية : ٨ / ١٨٩ ، ١٩٠ .

ونهضت المرأة المؤمنة عن فراشها، وقد أصبح زوجها من أبغض الناس إليها، وما زالت تكن له العداوة والبغضاء، منذ ذلك الحين، حتى إذا ما جاءها أبو عمرة ــ صاحب حرس المختار ــ فأحاط بالدار، وسألها عن زوجها، لم تتردد فى الإشارة بيدها إلى المكان الذى كان مختبئاً به ، فدخلوا عليه، فأخرجوه . .وجاءوا به إلى المختار ، فأمر برده إلى داره حيث قتل بجانب أهله، وأحرقت جثته بالنار ،حتى تحولت رمادا(١) . .

مصرع عمر بن سعد :

وهو قائد جيش ابن زياد فى محاربة سيد شباب أهل الجنة ــ رضى الله عنه ــ وقد استبدل دنياه بدينه وآخرته ، فقد خيره ابن زياد بن العزل من ولاية «الرى» التى عهد بها إليه ، وبين الخروج لقتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع أنه ما استشار أحداً إلا نهاه عن المسير إلى الحسين رضى الله عنه ، حتى أن ابن أخته ــ حمزة بن المغيرة ــ قال له :

ــ إياك أن تسير إلى الحسين ، فتعصى ربك ، وتقطع رحمك ، فوالله لأن تخرج من سلطان الأرض كلها ، خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين ، فأجابه عمر : فإنى أفعل إن شاء الله تعالى (٢) .

. . ومع ذلك : فإن عمر فى النهاية استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وارتضى المسير لقتال الحسين ــ رضى الله عنه ــ على أن يعزل من ولاية من ولايات الدنيا ، ولعل عبيد الله بن زياد ــ حين رأى تردده ــ هدده بالعزل والقتل، كما جاء فى بعض الروايات(٣) ، فأغراه الوعد ، وأرهبه الوعيد ، حتى بلغ به الحرص على الدنيا ، أن يشهد الناس على أنه أول من بدأ القتال ضد ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعل فى ذلك ما يقربه زلفى إلى سادته ، من جبابرة الدنيا، فشمر عن ساعده ، ورمى بسهم ، وهو يقول مفاخراً : اشهدوا أنى أول من رمى القوم (٤) ! !

وقبل ذلك : كان عمر بن سعد فى مقدمة من كتبوا إلى يزيد بن معاوية ، يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ، وينصحه بإرسال رجل قوى إلى الكوفة ، بدلا من النعمان بن بشير ، الذى كان ضعيفاً فى نظره (٥) . . !

وهكذا : فى سبيل الدنيا تنكر عمر بن سعد لأصله ، ونسى أو تناسى ــ وهو يرمى بأول سهم فى قتاله ضد ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الفارق الشاسع بين الوضع الذى اختاره لنفسه ، والوضع الذى كان عليه والده العظيم ــ سعد بن أبى وقاص ــ الصحابى الجليل ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، حين سجل له التاريخ أنه كان أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، ضد أعداء الله ورسوله !

وفى سبيل الدنيا . . بعث عمر بن سعد خمسمائة من الفرسان ، فحالوا بين سيد شباب أهل الجنة وأهل بيته وصحبه رضى الله عنهم، وبين ماء الفرات ، طوال ثلاثة أيام(٦) ، حتى بلغ منهم العطش والجهد كل مبلغ ، وفيهم الأطفال الرضع ، وفيهم النساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا :

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٦ / ٥٩ ، ٦٠ ، البداية والنهاية : ٨ - ٢٧٢ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٠٩ ، البداية والنهاية : ٨ - ١٧٤ .

(٣) الطبرى : ٥ / ٣٩٣ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٢٩ ، البداية والنهاية : ٨ / ١٨١ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك الطبرى : ٥ / ٣٥٦ .

(٦) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤١٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٧٥ .

وفى سبيل الدنيا : أمر عمر بن سعد عشرة من الفرسان ، فوطئوا الشهيد الأكرم بحوافر خيولهم ، حتى رضوا ظهره وصدره ، وألصقوه بالأرض ، ثم أمر برأسه الشريف أن يحمل من يومه – مع خولى بن يزيد – إلى سيده عبيد الله بن زياد ، تأكيداً لولائه ، وضماناً لأنعامه ورضائه(١) .

فما الذى جناه عمر بن سعد من كل ذلك ؟ لقد أفاق من ذهوله ، فأخذ يعض بنان الندم على ما فرط منه ، ويقول « ما رجع رجل إلى أهله بشرمما رجعت به . . أطعت ابن زياد ، وعصيت الله ، وقطعت الرحم »(٢) ! !

لقد حرص على ولاية الرى ، فلم يعطها ، وحرم منها ، وحاول أخواله – بعد موت يزيد – أن يولوه الكوفة بعد خروج ابن زياد منها ، فذكر الناس له مقتل الحسين – رضى الله عنه – وثاروا عليه ، ولم يمكنوه من ذلك(٣) .

ولقد سعى إلى التمكن فى الدنيا ، وحرص على الحياة فيها ، فلم تدم حياته – بعد مقتل الحسين – رضى الله عنه – سوى بضع سنين ، عاشها فى خوف وذل ، حتى كان لايبيت إلا فى قصر الإمارة ، مخافة أن يؤتى فى داره فيقتلوه(٤) . وبلغ به الذل أن أرسل إلى المختار من يتوسط لديه ، حتى أعطاه الأمان الذى يطلبه « على نفسه وأهله وماله ، ما أطاع ولزم رحله ومصره ، وما لم يحدث حدثاً » – ولكن هذا الأمان لم يمنع المختار من الانتقام منه ، لأنه كان يقصد بالحدث ألايأتى الخلاء فيبول أو يغوط . . فلما اعتزم قتله قال لمن حوله : لأقتلن غداً رجلا عظيم القدمين ، غائر العينين ، مشرف الحاجبين ، يسر بقتله المؤمنون ، والملائكة المقربون .

وبلغ ذلك عمر بن سعد ، فأيقن أنه المقصود بالقتل ، فأخذ يتنقل من مكان إلى آخر ، لا يقر له قرار ، خوفاً من القتل ، حتى انتهى به المطاف إلى العودة إلى داره ، وبلغ المختار أمر تنقله فقال : كلا والله . . ان فى عنقه لسلسلة ترده لوجهه ، ولو طار لأدركه دم الحسين فأخذ برجله(٥) .

وأخيراً . . حلت ساعة القصاص ، فأرسل المختار رئيس حرسه – أبا عمرة – إلى دار عمر بن سعد ، فحاول الفرار منه ، فعثر فى جبته ، فعلاه أبوعمرة بالسيف حتى أجهز عليه ، وجاء برأسه فوضعه بين يدى المختار ، وفى مجلسه حفص بن عمر بن سعد ، فقال له المختار :

أتعرف هذا الرأس ؟ فاسترجع وقال : نعم ولا خير فى العيش بعده . . فقال :

صدقت ! ! ثم أمر فضربت عنقه ، ووضعت رأسه مع رأس أبيه جنباً إلى جنب ، والمختار يقول :

هذا بالحسين ، وهذا بعلى الأكبر ، ولا سواء ! ! ..والله لو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله(٦) .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٥٥ ، البداية والنهاية : ٨ / ١٨٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ / ٢٠٣ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٤٢ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٨٧ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٦ / ٦٠ ، ٦١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٧٣ .

(٦) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٦ / ٦١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٧٤ .

مصرع عبيد الله بن زياد :

إذا كانت المسئولية الكبرى فى مقتل سيد شباب أهل الجنة وأهل بيته وصحبه ؛ تقع على عاتق يزيد ابن معاوية — كما أوضحنا آنفاً ، فإن ما ثبت بعد ذلك من شعوره بالندم ، وتألمه لما وقع بأهل البيت من آلام ومحن ، واعتذاره عن كل ذلك لعلى بن الحسين — رضى الله عنهما — ومحاولاته التخفيف عن مصاب أهل البيت ، ورده إلى السيدات أكثر مما سلب منهن ، وإعادتهن معززات مكرمات إلى المدينة ، وأخيراً : تأكيده وهو على فراش الموت لشعوره بالندم ، ولعنه ابن زياد لما اقترفه من عدوان على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته . . نقول : أن كل ذلك وغيره ، لمما يخفف من خطورة هذه المسئولية . . ولو بمقدار . .

وبعكس ذلك كله : كان عبيد الله بن زياد ، فاجراً فى خصومته ، جاهلا فى تجبره وقسوته ، حتى بلغ به الإسفاف ، أنه أصر على رضوخ الحسين — عليه السلام — لأمره ، وحضوره بين يديه ، وإلا فليقتل ، وليوطأ جسده الشريف بسنابك الخيل . . ! !

ولا عجب فى أن يقف ابن زياد ذلك الموقف من ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل ، وهيهات أن يكون مثل عبيد الله بن زياد منهم ، فقد دل بتجاهله لمقام الحسين — رضى الله عنه — من الله ورسوله ، على تأصل جاهلتيه ، وفساد سريرته .

كان عبيد الله — كما جاء فى وصفه — جميل الصورة قبيح السريرة تولى البصرة فى عهد معاوية — رضى الله عنه — وهو فى الثانية والعشرين من عمره :

بلغ من سوء خلقه ، ما ذكر الحسن البصرى طرفاً منه إذ يقول : « قدم علينا عبيد الله — أمره معاوية — غلاماً سفهياً ، سفك الدماء سفكاً شديداً »(١) .

وبلغ من قسوته وإسرافه : أنه أخذ امرأة من الخوارج فقطع يديها ورجليها ، وأمر بعرضها فى السوق . . !

وبلغ من استهتاره وجاهليته : ما روى من أن عبد الله بن مغفل — رضى الله عنه — دخل فقال له : « انتبه . . فإن شر الرعاء الحطمة »(٢) . فأجابه قائلا :

ما أنت وذاك . . ؟ إنما أنت من حثالة أصحاب محمد . . ! ! فقال :

« وهل فيهم حثالة ؟ لا أم لك »(٣) . . وفى رواية أخرى مشابهة أن عائذ بن عمر — رضى الله عنه — دخل على عبيد الله فقال : أى بنى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن شر الرعاء الحطمة » فإياك أن تكون منهم ، فقال له : اجلس . . فإنما أنت من نخالة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ! فقال : وهل كان فيهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفى غيرهم(٤) .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبى : ٣ / ٣٥٧ — ٣٥٩ .

(٢) الحطمة : أى القاسى الذى يظلم الناس ولا يرحمهم ، والحديث متفق عليه .

(٣) سير أعلام النبلاء : ٣ / ٣٥٧ — ٣٥٠ .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٨٥ .

ومع ما اشتهر به عبيد الله بن زياد من تجبر وطغيان ، فقد كان جباناً رعديداً ، حريصاً على السلامة ، بلغ به الجبن أنه لما سمع بخروج مسلم بن عقيل ، لنجدة هانىء بن عروة — وكان عبيد الله بالمسجد يخطب الناس وحوله أنصاره وحرسه . . ومع ذلك فقد فر هارباً ، وأسرع إلى القصر فأغلق أبوابه(١) . !

وفى رواية عن الحسن ؛ كان عبيد الله جباناً . . لما جاء نعى يزيد هرب بعد أن كاد أن يؤسر ، واخترق البرية إلى الشام ، وانضم إلى مروان(٢) .

ومن هنا : كان شعور عبيد الله بالنقص والتخلف فى مجالات الرجال والأبطال ، هو الدافع له للتظاهر بمظهر القوة والبطش ، ستراً لما جبل عليه من ضعة وخبث ، كما أن ذلك الشعور كان من أقوى أسباب حقده على ذوى الرجولة الموفورة ، والبطولة الشامخة ، ورغبته فى إذلالهم ، والتنكيل بهم . . ! !

فهذا هو يكتب إلى عمر بن سعد . . يتهدده ويتوعده ، على توانيه فى قتال الحسين — رضى الله عنه — ويأمره — إذا لم يأت الحسين إليه ! أن يقاتله ومن معه ، فإنهم مشاقون . . وأن يوطىء الخيل جسده الشريف . . !

وهذا هو يثور لموقف الكرامة والنبل الذى وقفه منه هانىء بن عروة ، برفضه تسليم مسلم بن عقيل ، فلا يزال يضرب وجهه حتى كسر أنفه وأسال دماءه ، ثم أمر به فضرب عنقه ، وألقى به من فوق القصر . . ! !

وهذا هو يقف على منبر الكوفة ، معلناً مقتل الحسين ، متطاولا عليه بأقبح ألفاظ السباب فإذا ما عارضه عبد الله بن عفيف الأزدى ، ثارت فى نفسه عوامل الحقد الدفين ، فأمر بقتله وصلبه ، ثم أمر برأس الحسين ، فنصب بالكوفة ، وطيف به فى الأزقة(٣) .

* * *

ولقد ظل عبيد الله يعيث فى أرض الله فسادا ، وبين عباده ظلماً وجوراً ، حتى اقتضت عدالة الله ، أن تخلص الأمة من شروره ، فلم يمض قليل حتى سلط الله عليه ابن الأشتر النخعى ، أحد قادة قوات المختار بن عبيد الله الثقفى ، فسار إليه فى سبعة آلاف من المطالبين بثارات الحسين — عليه السلام — وأخذ يحرض الناس عليه ، ويقول لهم بشأنه :

« هذا قاتل ابن بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد جاءكم الله به ، وأمكنكم الله منه ، فإنه قد فعل فى ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما لم يفعله فرعون فى بنى اسرائيل . . هذا ابن زياد قاتل الحسين ، الذى حال بينه وبين ماء الفرات أن يشرب منه هو وأولاده ونساؤه ، ومنعه أن ينصرف إلى بلده . . أو يأتى يزيد بن معاوية ، حتى قتله . ، ويحكم . . ! ! اشفوا صدوركم منه ، وأرووا رماحكم وسيوفكم من دمه . . هذا الذى فعل فى آل نبيكم ما فعل ، قد جاءكم الله به »(٤) . .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٦٨ ، الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٧١ .

(٢) سير أعلام النبلاء : ٣ / ٣٥٧ — ٣٥٩ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : ٥ / ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٩١ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٦ / ٨٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٨ — ٢١٧١ .

والتقى الجمعان ، ومع أن ابن زياد كان معه أضعاف جند ابن الأشتر ، فقد انهزم ومن معه شر هزيمة ، لحرصهم على الحياة ، وانتصر ابن الأشتر ومن معه رغم قلتهم لحرصهم على الموت ، وشوقهم إلى الشهادة ، وظفر ابن الأشتر بابن زياد فقتله شر قتله ، إذ ضربه بالسيف ضربة قدته نصفين . . ! !

وكان مصرع ابن زياد فى عاشوراء سنة سبع وستين ، فى مثل اليوم الذى استشهد فيه سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — منذ ست سنوات .

وقطعت رأس الطاغية ، وأرسلت إلى المختار بن أبى عبيد الله الثقفى ، فوضعت فى نفس المكان والحالة التى وضع فيها ، وكان عليها رأس الحسين عليه السلام منذ ست سنوات .

فقد روى عبد الملك بن عمير قال : دخلت على عبيد الله بن زياد ، وإذا رأس الحسين بن على بين يديه على ترس ، فوالله ما لبثت إلا قليلا ، حتى دخلت على المختار بن أبى عبيد الله ، وإذا رأس عبيد الله بن زياد بين يدى المختار على ترس(١) ! !

نهاية الشـهداء .. ونهاية الظالمين :

وهكذا . . اقتضت عدالة الله أن يقتص من الطاغية بنفس الصورة التى اعتدى بها على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يقصف عمره وهو فى الرابعة والثلاثين من ريعان شبابه . . ! !

وإذا كانت النهاية واحدة فى ظاهرها ، فى هذه الحياة الدنيا ، فشتان بين النهايتين فى الدار الآخرة . . شتان بين من قتل فى سبيل الله ، تحف به المهابة والجلال ، فى أسمى مواقف البطولة والفداء . . فارتجفت العوالم لمقتله فى الأرض والسماء ، وبين من قتل فى سبيل الباطل ، فلم يشعر بموته أحد ، ولم يقم لفقده أى وزن ؟

وتأبى عدالة الله تعالى إلا أن تقدم للناس صورة لما سيحظى به المتقون — عند ربهم — من إكرام ونعيم ، وما سيلاقيه المجرمون من عذاب أليم ، تصديقاً لقوله جل وعلا : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون »(٢) .

وبينما كان الناس يتذاكرون — فيما بينهم — ما روته النوار بنت مالك ، زوجة خولى بن يزيد الأصبحى ، الذى حمل الرأس الشريف إلى منزله ، فوضعه تحت اجانة عنده ، فتقص النوار ما رأته بعينها ، مقسمة على صدقها ، حيث تقول :

« والله ما زلت أرى النور ساطعاً ، من تلك الإجانة إلى السماء ، وطيوراً بيضاء ترفرف حولها »(٢).

بينما يتذاكر الناس هذه الصورة الطيبة ، والكرامة السامية ، لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إذا بهم يرون رأى العين تلكم الحية التى زحفت بين رءوس القتلى من أصحاب عبيد الله ، حتى دخلت فم ابن مرجانة ، وخرجت من منخره ، ثم دخلت من منخره وخرجت من فه ، وجعلت تدخل وتخرج من رأسه من بين الرءوس(٣) !

---

(١) سورة السجدة : آية ٢١ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ - /١٩ .

(٣) المصدر السابق : ٨ / ٢٨٦ .

رأى الناس ذلك بأعينهم . . وكلما عادت الحية يتصايحون قد جاءت . . قد جاءت . . حتى تغيب عن أعينهم . . فإذا ما عادت عادوا إلى مثل قولهم ! !

رأى الناس كل ذلك ، فتمثل أمام ناظرهم قول الله تبارك وتعالى فى كتابه المبين :

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون »(١) .

فرح المؤمنين بنصر الله :

وقد كان لمصرع عبيد الله بن زياد رنة فرح فى نفوس المؤمنين عامة ، وشكر الناس لابراهيم بن الأشتر وأصحابه حسن بلائهم فى سبيل الله، وقتلهم لعبيد الله ، وفى ذلك قال سراقة بن مرداس البارقى :

أتاكم غلام من عرانين مذحج ... جرى على الأعداء : . غير نكول
فيابن زياد بؤ بأعظم مالك ... وذق حد ماضى الشفرتين صقيل
ضربناك بالغضب الحسام بحدة ... إذا ما أبـــأنا قاتلا بقتيل
جزى الله خيراً شرطة الله أنهم ... شفوا من عبيد الله أمس غليلى(٢)

مصرع الحصين بن نمير .. وشرحبيل :

وقد قتل مع عبيد الله بن زياد — فيمن قتل من أئمة البغى — الحصين بن نمير السكونى ، وشرحبيل ابن ذى الكلاع ، أما الأول فقد كان من أفراد الجيش الذى سيره يزيد إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة ، فنكل بأهلها فى موقعة (الحرة) ، وما تبع ذلك من استباحتها ثلاثة أيام :

كما أنه — حين هلك مسلم بن عقبة — تولى قيادة الجيش بعده ، وحاصر البيت الحرام ، وضرب الكعبة بالمجانيق ، وأحرق أستارها وأخشابها :

فلما قام « التوابون » للأخذ بثارات الحسين — رضى الله عنه — وخرجوا بجموعهم إلى « عين وردة » كان الاثنان : الحصين وشرحبيل ، ضمن أمراء الجيوش التى بعث بها ابن زياد ، مدداً لقتال التوابين ، حتى تكاثروا عليهم وهزموهم .

أما فى هذه المعركة التى لقى فيها ابن زياد مصرعه ، فقد كان الحصين بن نمير هو قائد الميمنة ، بينما كان شرحبيل هو قائد الفرسان .

فلما قتلا : بعث ابن الأشتر برأسيهما إلى المختار ، مع رأس أميرهم عبيد الله بن زياد ، وجماعة من رؤساء أصحابهم(٣) .

---

(١) سورة الجاثية : آية ٢٠ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٦ / ٩٢ .
(٣) البداية والنهاية : لابن كثير : ٨ - ٢٨٦ .

والله غالب على أمره :

وبمقتل عبيد الله بن زياد ، وأمراء جيشه ، ورؤساء أصحابه ، حقق الداعون إلى « ثارات الحسين » أخطر أهدافهم ، فقد كان عبيد الله رمزاً صارخاً للمذبحة الأليمة ، التي حلت بسيد شباب أهل الجنة ، وأهل بيته ، رضى الله عنهم أجمعين . . فكان القضاء العاجل عليه ، نهاية عادلة لمأساة رهيبة ، أقضت مضاجع أولياء الله فى الأرض ، وأزعجت أرواحهم فى الملأ الأعلى ، وبذلك : اطمأنت القلوب المؤمنة إلى وعد الله ، وأيقنت أنه سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل . . وأنه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . . وأنه غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

مقتل قاتل حبيب بن مظاهر :

. . واستمرت العدالة الإلهية تلاحق المعتدين – ممن لم يدركه القصاص بعد – وتنتقم من كل منهم بصورة تختلف عن الآخر ، كل حسب الجرم الذى اقترفه :

هذا هو بديل بن صريم : قاتل حبيب بن مظاهر رضى الله عنه – أصدق أصحاب الحسين عليه السلام ، وقائد مسيرته ، وفى مقدمة من رزقوا الشهادة ، فى معركة الحق والإيمان ، بعد أن أبلى أحسن البلاء – . . وقد احتز القاتل رأسه ، وعلقها فى لبان فرسه ، ثم أقبل بها إلى قصر ابن زياد ، فبصر به ابنه القاسم بن حبيب ، وهو يومئذ غلام لم يجاوز الحلم إلا قليلا ، فأقبل يتابع قاتل أبيه ، فى كل مكان يقصد إليه ، ويلاحقه فى كل طريق سار فيه ، حتى شعر القاتل بأمره ، فقال له :

مالك يا بنى تتبعنى ؟ . . فأجاب الغلام بكل صراحة قائلا :

ان هذه الرأس التى معك هى رأس أبى ، أفتعطينيه حتى أدفنه ؟ ؟ :

فقال :

وأنا أريد أن يثيبنى الأمير على قتله ثواباً حسناً ! ! فرد الغلام :

ولكن الله لا يثيبك على ذلك إلا أسوأ الثواب ، أما والله لقد قتلت خيراً منك :

وانصرف الغلام باكياً ، وقد استقرت فى أعماق نفسه النية الصادقة فى الثأر لأبيه ، فمكث لا هم له إلا متابعة أثر القاتل ، عاماً بعد عام ، وملاحقته أنى ذهب ، حتى كان ذات يوم دخل فيه الغلام عسكر مصعب بن الزبير – رضى الله عنه – بحثاً عن قاتل أبيه ، حتى وجده فى فسطاطه ، وهو قائل فى منتصف النهار ، فضربه بالسيف حتى برد[1] .

احكام . . اخــرى

وتواصل العدالة الإلهية مؤاخذتها للظالمين : :

هذا هو إسحاق بن حيوة الحضرمى ، ومعه أحبس بن مرثد الحضرمى ، وكلاهما ممن انتدبه عمر ابن سعد ، بعد انتهاء المعركة ، ليوطئوا بسنابك الخيل جسد ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٤٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٣ .

وزاد أولهما على ذلك : ان سلب قميص سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه .

وقد لقى كل منهما الجزاء الأوفى ، فأصيب أولهما بالبرص . . وأما الثانى : فقد أتاه سهم طائش ، فاخترق قلبه ، فسقط ميتاً(١) .

❊ ❊ ❊

وكان فيما انتهبه المعتدون من فسطاط الحسين – رضى الله عنه – بعد أن حظى بالشهادة : بعض الطيب ، فاقتسموه فيما بينهم ، فما تطيبت منه امرأة من نسائهم إلا وبرصت(٢) . . ! !

نهاية محمد بن الاشعث :

ولا يفوتنا – ونحن نختم هذا الفصل – أن نشير إلى الدور الذى قام به محمد بن الأشعث ، وما أصابه من جراء ذلك .

ومحمد بن الأشعث هذا ، من الشخصيات المائعة ، التى تظهر على مسرح الأحداث بين آونة وأخرى ، وتتسم بمواقفها المتأرجحة بين الحق والباطل ، ولكن هذه المواقف : نجد فيها أهل البغى والعدوان – غالباً – ما يعاونهم على تثبيت أقدامهم ، وتوطيد سلطانهم ، أكثر مما نجد فيها أهل الحق والإيمان ، ما يدفعون به الأذى عن أنفسهم .

ولاعجب . . فقد كان أبوه – الأشعث بن قيس – ممن ارتد بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، فسير أبو بكر الجنود إلى اليمن ، فأخذوه أسيراً ، فأحضر بين يديه ، فقال له : استبقنى لحربك ، وزوجنى أختك : : !

فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته ، فأنجبت محمد بن الأشعث .

وأخت محمد بن الأشعث : جعدة بنت الأشعث ، هى التى تزوجها الحسن عليه السلام ، وقيل أنها هى التى دست له السم ، فكان فى ذلك حتفه(٣) . :

ولقد استعان زياد بن أبى سفيان ، بمحمد بن الأشعث ، فى تمكينه من أسر حجر بن عدى – رضى الله عنه – فتعهد له بأنه آمن حتى يأتى معاوية ، ولكن زياد – فى النهاية – قتله ، دون مبالاة بأمان ابن الأشعث ، حتى أن عبيدة الكندى عيره بخذلانه لحجر بن عدى ، ونكوصه عن الدفاع عنه ، بعد أن استسلم لأمانه ، فقال :

أسلمت عمك لم تقاتل دونه ... فرقا . . ولولا أنت كان منيعا
وقتلت وافد آل بيت محمد (٤) ... وسلبت أسيافاً له ودروعا(٥)

❊ ❊ ❊

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٤٤٥ .

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى المالكى : ٢ / ٢٤٣ .

(٣) أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير : ١ / ١١٨ .

(٤) وافد آل محمد : هو مسلم بن عقيل : رسول الحسين عليه السلام إلى الكوفة لاستطلاع أحوال أهلها ، وقد أمنه ابن الأشعث فاستسلم له فقتله ابن زياد شر قتلة .

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٢٨٥ .

. . وبعد ذلك بسنوات : نرى محمد بن الأشعث يتخذ موقفاً مشابهاً ، حيث استعان به عبيدة الله ابن زياد ، لاستدراج هانىء بن عروة ، فلم يزل به حتى جاء معه إلى ابن زياد ، فطالبه بتسليم مسلم ابن عقيل ، فلما أبى : هشم ابن زياد وجهه ،وكسر أنفه ، بمرأى من محمد بن الأشعث ، دون مبالاة بأمانه ، وبلغ الضعف والهوان بابن الأشعث أنه لم يقف عند هذا الحد المزرى ، بل أخذ يعان رضاه عن موقف ابن زياد من هانىء ، ويقول :

رضينا بما رأى الأمير . . لنا كان أم علينا . . إنما الأمير مؤدب(١) ؟ ! .

ولما خرج مسلم بن عقيل لاستنقاذ هانىء بن عروة ، وأحاط بقصر ابن زياد ، أمر الأخير محمد ابن الأشعث بالخروج فيمن أطاعه ،ليخذل الناس عن مسلم ،فلم يتردد فى ذلك ، حتى انصرف الكثيرون ، وبقى مسلم فى النهاية وحيداً . . ثم لما علم ابن الأشعث بالمكان الذى يختبىء فيه ابن عم سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنهما — انطلق إلى عبيد الله بن زياد ، فأخبره ، تزلفا إليه ، والتماسا لرضاه ، فبعث به ابن زياد فى كوكبة من الفرسان ليأتوا به ، فقاومهم مسلم بكل شدة ، ولم يقدروا عليه ، حتى قال له ابن الأشعث :

يا فتى : لك الأمان . . أن القوم بنو عمك ، وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك ! ! فسأله مسلم : آمن أنا ؟ ؟ فقال له ابن الأشعث مؤكداً ذلك : نعم(٢) .

وتقدم مسلم مطمئناً إلى الأمان الذى بذل له ، فجرده رجال ابن الأشعث من سيفه ودروعه ، وساروا به إلى زياد ، فأمر بضرب عنقه ، وإلقاء جثته من أعلا القصر ، ثم أمر بهانىء بن عروة — رضى الله عنه ، فأخرج إلى السوق ، حيث قتل هو الآخر ، وتركت جثته ملقاة ، ليراها الناس ، ارهابا لهم من الطاغية .

❊ ❊ ❊

ولما هلك يزيد : حاول ابن زياد أن يأخذ لنفسه البيعة من أهل الكوفة ، فكان محمد بن الأشعث من المعارضين لذلك ، ولكن سراً ، حتى اجتمع الناس على عامر بن مسعود ، وكتبوا بذلك إلى عبد الله ابن الزبير — رضى الله عنهما — فأقره(٣) ، وفى نفس الوقت ، بعث محمد بن الأشعث والياً على الموصل ، على أن يسمع ويأتمر بما يشير به عبد الله بن مطيع .

فلما ظهر المختار الثقفى : أرسل رجاله ليأتوا برأس محمد بن الأشعث ، فأحاطوا بقصره ، ولكنه فر هارباً ، ولحق بمصعب بن الزبير — رضى الله عنهما فلما عرف المختار بذلك : أمر بهدم داره ، وبنى بلبنها وطينها دار حجر بن عدى — رضى الله عنه — التى كان زياد أمر بهدمها(٤) .

---

(١) المصدر السابق : ٥ / ٣٦٧ .
(٢) المصدر السابق : ٥ / ٣٧٤ ، الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٧٣ .
(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٥٢٤ .
(٤) المصدر السابق : ٦ / ٦٦ .

على أن هذه المواقف الضعيفة التى عرف بها محمد بن الأشعث ، فى مختلف المواطن . . والتى لم ينصر فيها حقاً ، أو يقاوم باطلا ، أو يغير منكراً . . هذه المواقف . . قد ختمها محمد بن الأشعث بنهاية كريمة ، حظى فيها بالشهادة فى سبيل الله ، فى قتاله مع مصعب بن الزبير – رضى الله عنهما – للمختار ابن أبى عبيد الله الثقفى ، وانتهى الأمر بقتله ، بعد أن بلغ به الكفر حداً ادعى فية النبوة ، وزعم أن الوحى ينزل عليه ! !

استمرار النقمة فى الأجيال اللاحقة :

وكما أن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، ويؤيد ذلك : قوله تعالى فى محكم كتابه : « وكان أبوهما صالحاً »(١). فكذلك : فإن جريرة الآباء ، يمتد أثرها إلى الأبناء والأحفاد ، عدالة من رب العالمين ، وردعاً للطغاة والظالمين ، ليعلموا علم اليقين ، أنهم ببغيهم وعدوانهم ، لايعرضون أنفسهم – فحسب – لسخط الله ونقمته ، بل يورثون أبناءهم عاقبة بعض ما اقترفوا من السيئات ، أو اجترحوا من المظالم .

وهكذا : لم تقف نقمة العدالة الإلهية عند حد المعتدين على سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – بل امتدت إلى ذرياتهم من بعدهم .

روى جلال الدين السيوطى فى « المحاضرات والمحاورات » . . قال :

« حصل بالكوفة جدرى فى بعض السنين ، عمى فيه ألف وخمسمائة من ذرية من حضروا مقتل الحسين رضى الله عنه(٢) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فما زالت النقمة التى حاقت ببنى أمية ، كنتيجة لمقتل سيدنا الحسين وأهل بيته وصحبه – رضى الله عنهم أجمعين ، ما زالت هذه النقمة تلاحق الأمويين ، وتنخر فى عظام الدولة الأموية ، حتى لم ينقض سبعون عاماً من استشهاد ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انهارت تلكم الدولة وحل محلها دولة العباسيين .

ومع ذلك : فقد ظل مقتل سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – يلاحق الأمويين ، حتى بعد أن دالت دولتهم ، وزال ملكهم ، فما كاد السفاح – أول خلفاء بنى العباس – يستتب له الأمر ، حتى أخذ . . « يتتبع بقايا بنى أمية ورجالهم ، ويضع السيف فيهم »(٣)

ولقد بلغ الأمويون من الهوان والضعة – بعد زوال ملكهم – حداً لا مثيل له فى التاريخ ، فكانت دماء الأمراء والأشراف منهم ، تهدر لمجرد كلمة قالها قائل ، أو بيت من الشعر نظمه أحد الشعراء ، استجلاباً للعطاء ! !

---

(١) سورة الكهف : آية ٨٢ .

(٢) نور الأبصار : فى مناقب آل بيت النبى المختار : للشبلنجى – ص ١٥٢ .

(٣) الفخرى : فى الآداب السلطانية : لابن الطقطقى ص ١٣٤ .

هذا هو السفاح : عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، كان جالساً أحد الأيام فى مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه السفاح وقربه إليه ، وإذا بسديف الشاعر ، يدخل عليهما ، فلا يكاد يقع بصره على سليمان ، ويرى ما أكرمه به السفاح ، حتى ينشد قائلا :

لا يغرنك ما ترى من الرجال ان تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وضع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان للشاعر : قتلتنى يا شيخ :

وفعلا . . فإن السفاح لم يكد يسمع ما قاله « سديف » حتى قام من فوره ، فدخل منزله ، وأخذ سليمان ، فقتل(١) .

ودخل على السفاح شاعر آخر ، وعنده نحو سبعين رجلا من أشراف بنى أمية ، وقد جلس الجميع للطعام ، فأنشده قائلا :

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بنى العباس(٢)
طلبوا وتر (٣) هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان وياس
لاتقيلن عبد شمس . . عثارا واقطعن كل رقلة(٤) وغراس
ذلها أظهر التودد منهـــا وبها منكم كجر المواسى
ولقد غاظنى . . وغاظ سوائى(٥) قربهم من نمارق وكراسى
انزلوها بحيث أنزلها اللـــه بدار الهوان والاتعــاس
واذكروا مصرع الحسين . . وزيد وقتيلا . . بجانب المهراس (٦)
والقتيل الذى بحران أضحى ثاويا بين غربة وتنـــاس

فالتفت أحدهم إلى من بجانبه وقال : قتلنا العبد ! ! ثم أمر بهم السفاح فضربوا بالسيوف حتى قتلوا ، وبسط النطوع عليهم ، وجلس فوقهم فأكل الطعام ، وهو يسمع أنين بعضهم ، حتى ماتو جميعاً (٧) .

❊ ❊ ❊

ونكتفى بهذا القدر ، فى بيان مصارع الطغاة ، ومصير الظالمين ، وما فعله الله تعالى بهم ، انتقاماً من أعدائه ، وانتصاراً لأوليائه وأحبابه .

« فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين » .

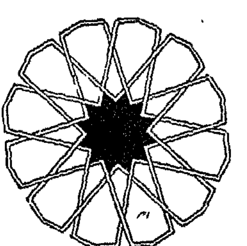
---

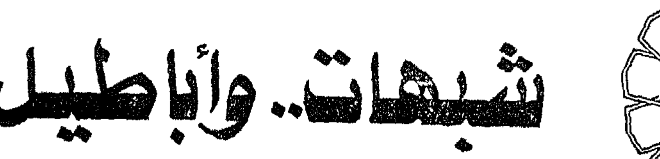
(١) المصدر السابق . (٢) البهلول : الضحاك ، والسيد الجامع لكل خير .
(٣) الوتر يكسر الواو وفتحها : الثأر والحقد .
(٤) الرقلة : النخلة .
(٥) السواء بفتح السين وكسرها وضمها : الغير .
(٦) المهراس : موضع باليمامة .
(٧) الفخرى فى الآداب السلطانية : ص ١٢٤ . لابن طباطبا .

الفصل الرابع عشر

« يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

(قرآن كريم)





ترويج أعداء الاســلام للأكاذيب :

تناول بعض الكتاب المعاصرين فى مؤلفاتهم ، أحداث هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية — فى منتصف القرن الأول من الهجرة — فكان لبعضهم فضل عرضها فى صورة جذابة ولغة عصرية جميلة ، وجمع ما تفرق من أخبارها ، ولكنهم نقلوا فيما نقلوه ، بعض الشبهات التى سبق للثقات من علماء الأمة ، ومؤرخيها ان محصوها ، وأظهروا ما فيها من خلل واضطراب ، وأثبتوا أنها من الأخبار المدسوسة ، من بعض الطوائف — لأغراض سياسية ضد طوائف أخرى ، أو من الإسرائيليات التى ترمى إلى تشويه الصورة الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم ، وإظهارهم بمظهر المتكالبين على الدنيا ، المتقاتلين فى سبيل السيطرة والسلطان ، الضاربين عرض الحائط بالمثل العليا التى جاء بها الإسلام ، وكانوا هم أصدق نموذج لها . .

ومع أن أغلب هذه الشبهات — كما قلنا — سبق للثقات أن وضعوها فى المكان اللائق بها ، إما بإهمالها وعدم التعرض لها ، واما بإيرادها وبيان ما فيها من زيف وبهتان ، فإن قدم العهد بها ، أدى إلى تورط بعض المعاصرين فى ايرادها ، بصورة توهم القارىء العادى أنها حقائق ثابتة لا شك فيها ، مع أنها فى الواقع أوهام لا أساس لها من الصحة ولا تتفق مع المنطق السليم ، ولا مع المقام المحمود الذى قرره القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، لأصحاب سيد الأنبياء والمرسلين . صلى الله عليه وعليهم أجمعين .

* * *

يقول الإمام الكوثرى رضى الله عنه(١) :

« وليس بخاف مبلغ سعى أعداء الإسلام فى كل دور ، ووجوه تجدد مكرهم فى كل طبقة ، فمن ألوان مكرهم فى عهد تدوين الروايات : اندساس أناس منهم بين نقلة الأخبار ، متلفعين بغير أزيائهم ، لترويج أكاذيب بينهم ، مما يشوه سمعة الإسلام ، وسمعة القائمين بالدعوة إلى الإسلام ، فراجت تلك الأكاذيب المدبرة ، على نقلة لم يؤتوا بصيرة نافذة ، فخلدوها فى الكتب ، حتى ظلت يتذرع بها الكائدون فى كل قرن للكيد للإسلام »(٢) . . ثم يقول رضى الله عنه :

« وصفوة القول : ان تدوين أنباء الصدر الأول كيفما اتفق ، بدون تمحيصها بالطرق العلمية المعروفة ، والاكتفاء بسبكها فى اساليب روائية عصرية ، جذابة خلابة . بدون أى إشارة إلى مصادر النقول ، وبدون أى عناية بتوثيق المرويات وتحقيقها ، مما تكون فيه خطورة بالغة ، وتشكيك فى مواضع اليقين ، وتأثير غير حميد فى النفوس ، ولا سيما فى نفس النشء الحديث ، الذى افتتن بأساليب كتاب مخصوصين . . »(٣) .

* * *

---

(١) هو السيد العلامة الإمام محمد زاهد الكوثرى ، وكيل المشيخة الإسلامية فى دار الخلافة العثمانية ، وأستاذ العلوم القرآنية فى معهد التخصص فى التفسير والحديث ، وأستاذ الفقه وتاريخه بالقسم الشرعى من الجامعة العثمانية ، وأستاذ العربية فى دار الشفقة الإسلامية توفى بالقاهرة سنة ١٣٧١ هجرية عن ٧٥ عاما رحمه الله رحمة واسعة .

(٢) مقالات الكوثرى : ص ٥٦٠ .

(٣) مقالات الكوثرى : ص ٥٦٩ .

لذلك : رأيت من واجبى — وقد أتيحت لى فرصة تحقيق بعض هذه الشبهات ، أثناء وضعى لهذه الرسالة — أن أسجل فى هذا الفصل بعض النتائج التى وصلت إليها — بفضل من الله وتوفيقه — فيما يتعلق ببعض ما تناقله كبار كتابنا المعاصرين منها ، مبيناً — على ضوء الأمانة العلمية ، والحقيقة التاريخية ، مدى ما تقوم عليه هذه الشبهات من زيف وبهتان .

ثبوت عدالة الصحابة رضى الله عنهم :

ولما كان الأساس الذى اتخذته دستوراً لوزن الروايات التاريخية المتعارضة ، الخاصة بحوادث الصدر الأول من الإسلام ، هو أن الأصل فى أصحاب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، توافر العدالة الكاملة ، والتجرد عن الهوى ، فكل ما يتعارض مع عدالتهم : . أو يمس صدقهم وإخلاصهم ، يجب نفيه عنهم ، وتبرئتهم منه ، كيف لا ، وقد اختارهم الله تعالى لنصرة نبيه ، وخلفهم من بعده فى أمته ، وأشاد بذكرهم فى محكم كتابه ، مبيناً ما لهم عنده من مقام كريم ، وما أعده لهم من أجر عظيم ، لأسبقيتهم فى الإيمان ، وجهادهم فى سبيل الله والرسول ، فقال عز وجل :

« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . . »(١) . وقال جل وعلا :

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . . »(٢) . وقال تبارك وتعالى :

« محمد رسول الله ، والذين معه ، أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود »(٣) . وقال جل شأنه :

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم »(٤) .

وقال عز وجل :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(٥) .

وقد روى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » . . قال عدلا . قال : هذا حديث حسن صحيح ، وفى التنزيل : « قال أوسطهم : أى أعدلهم وخيرهم »(٦) .

---

(١) الأحزاب : آية ٢٣ .

(٢) سورة الفتح : آية ١٨ .

(٣) سورة الفتح : آية ٢٩ .

(٤) سورة التوبة : آية ١٠٠ .

(٥) سورة البقرة : آية ١٤٣ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٣ / ١٥٣ .

وبموجب هذه العدالة الثابتة لهم : « شهدوا على الناس ، فكل عصر شهيد على من بعده ، فقول الصحابة حجة وشاهد على التابعين ، وقول التابعين حجة على من بعدهم »(١)

.. إلى غير ذلك من الآيات البينات ، التي أثنى فيها رب العالمين على أصحاب رسوله الأمين أعطر الثناء ، فشهد لهم بالإيمان وصدق العهد تارة ، وأعلن رضاه عنهم تارة أخرى ، ووصفهم بالشدة على الكفار والرحمة على المؤمنين ، والتفانى فى عبادة الله ثالثة ، وفى الآية الرابعة أكد رضاءه عنهم ، وألحق بهؤلاء البررة ، التابعين لهم بإحسان ، وبين ما أعده لهم جميعاً من أجر كبير ، وفوز عظيم .

هذه هى شهادة رب العالمين فى الصحابة والتابعين ، وكفى بالله شهيدا ! وهذا هو قوله ، وليس بعد قول الله قولا ، ومن أصدق من الله قيلا ؟

❋ ❋ ❋

وقد رأيت — وقد هدانى هذا الدستور الذى التزمته ، إلى الحق والصواب ، وقادنى بنور الله إلى فصل الخطاب فى كثير من الأنباء والروايات — أن أبدأ ببيان ما يجب على أبناء الإسلام نحو أصحاب سيد المرسلين ، من معرفة بمقامهم ، وحب صادق لهم ، وتوقير لأشخاصهم واعتراف بفضلهم ولا شك أن سيدنا الحسين — موضع هذه الرسالة — هو من خيارهم .

حب الصحابة من الايمــان :

ولما كان حب النبى صلى الله عليه وسلم هو المقياس الصحيح للإيمان ، فإنه ينبغى على ذلك أن يكون حب الصحابة رضوان الله عليهم ، جزءاً لايتجزأ من حبه ، بل هو جزء لايتجزأ من الحب لله تعالى ، فمن أحب الله تعالى لعظيم نعمه ، وجزيل إحسانه وفضله ، أحب رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه الهادى إليه ، الدال عليه ، الداعى إلى سبيله ، ومن أحب الرسول صلى الله عليه وسلم : أحب تبعاً لذلك أصحابه — مهاجرين وأنصارا — لأنهم الذين آزروه وعزروه ونصروه ، وبذلوا كل مرتخص وغال فى سبيل نصرته ، وجاهدوا فى الله حق جهاده لإظهار دعوته .

ايذاء الصحابة .. ايذاء لله ورســـوله :

لذلك : فإن التعريض بصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو التنقيص من قدرهم ، أو الاستخفاف بجهادهم أو الشك فى عدالتهم وصدقهم ، أو السكوت عما ينسبه المنافقون إليهم ، أو يردده الجهلاء عنهم ، أو الخوض فيما شجر بينهم ، كل ذلك وما شابهه ، لا يمكن صدوره عن مؤمن اطمأن قلبه بالإيمان ، وعمر بحب الله والرسول ، إنما يصدر مثل ذلك عن جاهل غافل ، أو منافق زنديق . وفى هذا المعنى يقول الإمام الحافظ « أبو زرعة الرازى » رضى الله عنه :

« إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول حق ، والقرآن حق ، وما جاء به حق ، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة ، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ، ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى ، وهم زنادقة »(٢) .

---

(١) المصدر السابق : ٣ / ١٥٦ .

(٢) الاصابة فى تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلانى : ١ - ١٠ .

«وروى أبو عروة الزبيرى – من ولد الزبير بن العوام رضى الله عنهما – قال : كنا عند مالك ابن أنس رضى الله عنه ، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ هذه الآية : «محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة،ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . . »(١) ، فقال مالك : من أصبح من الناس وفى قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أصابته هذه الآية ، ذكره الخطيب أبو بكر(٢) . . «ولقد أحسن مالك فى مقالته ، وأصاب فى تأويله ، فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه فى روايته فقد رد على رب العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين»(٣)

* * *

ولقد عنى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بتأكيد مكانة الصحابة التى شهد بها المولى عز وجل ، بما لا يترك مجالا لغموض أو ابهام ، فى وجوب استشعار الحب لهم ، والرضى عنهم ، والحذر كل الحذر من بغض أحد منهم ، أو التنقيص من قدر بعضهم ، فقال صلى الله عليه وسلم :

«الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فقد أحبنى ومن أبغضهم فقد أبغضنى ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»(٤) . أى اتقوا الله فى أصحابى لا تجعلوهم هدفاً لنقدكم ، أو مضغة فى أفواهكم . ولا تنالوا بعدى منهم فى أقوالكم أو كتاباتكم ، او فى مؤلفاتكم وصحفكم ، ولا تضعوا أنفسكم موضع الحكام فيما شجر بينهم ، لأنهم منى وأنا منهم ، يرضينى ما يرضيهم ، ويؤذينى ما يؤذيهم فمن أحبهم فكأنه أحبنى ، ومن كرههم فكأنه كرهنى ، ومن آذاهم بالغض من مكانتهم أو النيل من سيرتهم ، أو الشك فى عدالتهم ، فكأنه آذانى ، بل فكأنه آذى الله تعالى ، لأن هؤلاء ما استجابوا إلا لدعوة رسوله ، وما جاهدوا إلا فى سبيله ، ومن آذى الله ورسوله فقد حق عليه قوله تعالى :

«إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ، وأعد لهم عذاباً مهيناً »(٥) . وفى نفس هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

«إن الله عز وجل اختارنى ، واختار أصحابى ، فجعل لى منهم وزراء وأختاناً وأصهاراً ، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا»(٦) .

وتأكيداً لما تقدم : عنى النبى صلى الله عليه وسلم بأن يوضح للمسلمين من بعده . أن مراعاة مقام الصحابة – رضوان الله عليهم – هى من أوجب الواجبات عليهم ، وأن إعطاءهم حقهم من التوقير والتعظيم والإجلال ، من أفضل القربات إلى الله ورسوله ، وأن التهاون فى ذلك من أقبح الفواحش ، وأكبر الذنوب ، التى تؤدى بصاحبها إلى أوخم العواقب ، وأسوأ المصير .

---

(١) سورة الفتح : آية ٢٩ . (٢ ، ٣) الجامع لأحكام القرآن : للقرطبى : ١٦ / ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٤) الترمذى : عن عبد الله بن مغفل بإسناد حسن . (٥) سورة الأحزاب : آية ٥٧ .

(٦) رواه القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن : ١٦ / ٢٩٧ عن عويم بن ساعدة رضى الله عنه .

قال صلى الله عليه وسلم :

« احفظونى فى أصحابى ، فمن حفظنى فى أصحابى : رافقنى وورد على حوضى ، ومن لم يحفظنى فيهم لم يرد على حوضى ، ولم يرنى إلا من بعيد »(١) :

وقال أيضاً :

« احفظونى فى أصحابى وأصهارى ، فمن حفظنى فيهم : حفظه الله فى الدنيا والآخرة ، ومن لم يحفظنى فيهم تخلى الله منه ، ومن تخلى الله منه : أوشك أن يأخذه »(٢) .

مقام الصحابة لا يدركه أحد بعدهم :

قال تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » : قال ابن عباس رضى الله عنهما :

« هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، وشهدوا بدرا والحديبية »(٣) :

وقد بين سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، أن الفارق بين السابقين من أصحابه ، واللاحقين من امته ، هو فارق شاسع لا مطمع لأحد فى ادراكه ، لأنه تحقق لهم ما لم يتحقق لغيرهم من الناس :

أولا : باصطفاء الله تعالى لهم ، بمقتضى قوله تعالى : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى »(٤) : فعن وكيع قال : سمعت سفيان يقول : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (٥) .

ثانيا : بصحبتهم لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، ومشاهدتهم لطلعته ، وتلقيهم عنه ، وجهادهم تحت لوائه ، فهم لذلك كانوا أصدق الناس إيماناً ، وأخلصهم عملا ، وأعمقهم فهما للكتاب والسنة ، وأكثرهم حرصاً على طاعة الله ومرضاته ، فمن ذا الذى يستطيع تحصيل ما أدركوه من ذلكم الفضل العظيم ، فكيف وهم السابقون إلى الإسلام ، وإلى نصرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهم الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والله تعالى يقول :

« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، : وكلا وعد الله الحسنى »(٦) :

فإذا كان من أنفق وقاتل فى سبيل الله قبل فتح مكة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد فتحها ، فكيف بمن جاء بعدهم منا بمئات السنين ، ولم يشرف لحظة بصحبة الصادق الأمين ، ولم ينفق أو يقاتل لإعلاء كلمة الحق والدين ؟ ! أيحق لمثل هؤلاء أن يضعوا أنفسهم فى مقام المساواة مع السادة الأولين ، فضلا عن وقوفهم موقف المتعالى منهم ، المؤاخذ لهم ،

---

(١) الجامع الكبير للسيوطى : حديث رقم ٧٢٥ عن ابن عمر بإسناد حسن .

(٢) المرجع السابق : الحديث رقم ٧٢٨ عن عياض الأنصارى .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : للقرطبى : ٤ / ١٧٠ .

(٤) سورة النمل : آية ٥٩ .

(٥) الأصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى : ١ / ١٢ .

(٦) سورة الحديد : آية ١٠ .

الموازن لأعمالهم ، لا شك أنه لا يستبيح مثل هذا الوضع المقلوب إلا من كان فى قلوبهم مرض ، أو على أبصارهم غشاوة :

وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويـنكر الفم طعم الماء من سقم(١)

لذلك : لا عجب : إذا وضع النبي صلى الله عليه وسلم ، صحابته الأبرار من أمته موضع النجوم التى يهتدى بضوئها فى ظلمات البر والبحر ، فقال :

« أصحابى كالنجوم ، فبأيهم اقتديتم اهتديتم »(٢) .

ويؤكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى ، محدداً مكانة أصحابه من الناس جميعاً فيقول :

« إن الله اختار أصحابى على العالمين ، سوى النبيين والمرسلين ، واختار من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعلى — فجعلهم أصحابى »(٣) .

« وقد ذهب معظم العلماء إلى أن من صحب النبي صلى الله عليه وسلم ، ورآه ولو مرة فى عمره ، أفضل ممن يأتى بعده ، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل »(٤) .

واجب أهل الايمان نحو الصحابة :

ولقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم ما يجب على أهل الإيمان والتقوى ازاء أصحابه وما يجب أن يتأدبوا به إذا ما تحدثوا عنهم ، أو ذكروا بمجلسهم ، فقال :

« إذا ذكر أصحابى فأمسكوا »(٥) أى فأمسكوا ألسنتكم عن التحدث عنهم إلا بما يليق بمقامهم من الله ورسوله ، وكفوا عن الخوض فيما يسيء إليهم ، وأحسنوا الظن بهم ، لأنهم أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله ، ولأن عدالتهم ثابتة بتعديل الله لهم ، واخباره عن طهارتهم ، واختياره لهم ، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله لهم ، إلى تعديل أحد من خلقه .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم السبب فيما دعا إليه من الإمساك عن ذكر أصحابه إلا بما يليق بمقامهم الكريم ، من تشريف وتوقير وتعظيم ، فإنهم فضلا عن أنهم أسبق الناس فى ميادين البذل والجهاد ، فإنه لن يلحقهم فى الفضل أحد من بعدهم ، مهما جاهد وبذل ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل « أحد » ذهبا ، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »(٦) . أى أو بذل

---

(١) من بردة البوصيرى رضى الله عنه .

(٢) رواه البيهقى ، وأسنده الديلمى عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ : « أصحابى بمنزلة النجوم فى السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

(٣) البزار فى مسنده من حديث جابر رضى الله عنه .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٤ / ١٧١ .

(٥) الطبرى : من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

(٦) البخارى : من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، والمدمكيال قدره قدح ونصف إلى قدحين ونصف .

فى سبيل الله ما يوازى جبل أحد ذهبا ، ما بلغ فى الثواب والأجر أقل مقدار ينفقه أى واحد منهم ، لصدق إيمانهم ، وأسبقيتهم بالجهاد ، والإنفاق فى سبيل الله .

* * *

بل ان هذا الفارق الشاسع بين الصحابة ومن بعدهم ، لا تزيده الأيام إلا بعدا ، والأعوام إلا اتساعا ، ولا غرو ، فكلما ابتعد الإنسان عن السراج الذى يهتدى به ، كلما تكاثفت حوله الظلمات ، فما من يوم إلا والذى بعده شر منه ، حتى لاتقوم الساعة إلا على شرار الناس ، الذين لايتبعون رسولا أمينا ، ولا يستهدون كتاباً منيرا ، وفى هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »(١) .

لذلك ، كان من الطبيعى أن يستشعر المؤمنون الصادقون أعمق التوقير والإجلال للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، لأن توقيرهم إنما هو فى حقيقة الأمر توقير للرسول صلى الله عليه وسلم فى حين أن الغض من مكانتهم هو فى الواقع غض من مكانته ، وجحود بفضله .

توقير الصحابة دليل على الايمـان :

تضمن بيان الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لعظيم فضل الصحابة رضوان الله عليهم وسابق جهادهم وحسن بلائهم ما تضمن كل ذلك وجوب توقيرهم وتقديرهم لأن ، ذلك يتبع حقاً الاعتراف بالفضل ، والشعور بالحب ، بل ان هذا التوقير هو النتيجة الطبيعية لصدق الإيمان ، والعكس بالعكس وفى هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« إن الله افترض عليكم حب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، كما افترض عليكم الصلاة والزكاة والصوم والحج . فمن أنكر فضلهم فلا تقبل منه الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج »(٢) .

وقال سهيل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه : **لم يؤمن بالرسول صلى الله عليه وسلم من لم يوقر أصحابه ولم يعز أوامره(٣) .**

وقال العلامة : سعد الدين التفتازانى : « يجب تعظيم الصحابة والكف عن مطاعنهم ، وحمل ما يوجب بظاهر الطعن فيهم على محامل وتأويلات سيما المهاجرين والأنصار ، وأهل بيعة الرضوان ، ومن شهد بدرا ، وأحد والحديبية ، فقد انعقد على علو شأنهم الإجماع ، وشهدت بذلك الآيات الصراح ، والأخبار الصحاح ، وتفاصيلها فى كتب الحديث والسير والمناقب ، ولقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتعظيمهم ، وكف اللسان عن الطعن فيهم ، حيث قال : « أكرموا أصحابى فإنهم خياركم »(٤) .

وتوقير أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، يشمل كل ناحية من النواحى المتصلة بحياتهم الخاصة والعامة ، وجهادهم ، وآرائهم ، وعلمهم وفتاويهم ، وغير ذلك من شئون الدين أو الدنيا .

فمن التوقير لهم : حسن الثناء عليهم بما أثنى به الله تعالى ، فلا يذكر اسم أى منهم إلا مشفوعاً بمثل : رضى الله عنه أو رضوان الله عليه .

---

(١) متفق عليه : من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

(٢) الرياض النضرة للمحب الطبرى : ١ / ٤٣ من حديث أنس رضى الله عنه ، وقال أخرجه الملاء فى سيرته .

(٣) الأنوار المحمدية : للنبهانى : ص ٤٤٢ . (٤) شرح المقاصد فى علم الكلام : للتفتازانى ص ٣٠٣ .

ومن التوقير لهم : رفض كل ما أورده المؤرخون وجهلة الرواة وبعض ضلال الشيعة والمبتدعة ، مما فيه نقد لتصرفاتهم ، أو تهوين من فضلهم ، أو إساءة الظن بهم .

ومن التوقير لهم : تأويل ما نقله المبطلون عما شجر بينهم ، بما يتفق مع حسن الظن بهم . وصدق إيمانهم ، وسمو غايتهم ، وإنهم مهما اختلفوا فإنما كان اختلافهم عن اجتهاد ، وفي سبيل الحق وحده ، فمن كان منهم محقاً فله أجران ، ومن كان منهم مخطئاً فله أجر واحد .

ومن التوقير لهم : الإشادة بمحاسنهم ، وإذاعة فضائلهم ، وتربية النشء على حبهم ، وتغذية النفوس بذكر مناقبهم ومآثرهم . .

ومن التوقير لهم : تحقير كل من يخوض في سيرتهم ، والإعراض عنه ، والتسفيه لآرائه ، حتى يعود إلى الحق ، أو يرغم على الصمت . .

ومن التوقير لهم : عدم التعرض لترتيبهم في الأفضلية ، وتقديم بعضهم على بعض بغير ما قدمهم به رسول الله عليه وسلم ، فهو أعرف بهم ، وأصدق خبراً عنهم ، فأفضل الصحابة هم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وقد خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بالحض على اتباع سنتهم ، باعتبارها هي عين سنته ، وليس بعد ذلك فضل ، فقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ »(١) .

ويلى هؤلاء في الفضل : الستة تمام العشرة . . ، الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجراح ، رضى الله عنهم أجمعين ، ثم يلى هؤلاء أهل بدر والحديبية ، ثم بقية الصحابة ممن صحب المصطفى صلى الله عليه وسلم ولو ساعة ، ومات على الإسلام .

موقف السلف من الصحابة :

كل هذه المعاني وما شابهها كانت واضحة كل الوضوح أمام السلف الصالح ، فكانوا يعرفون مقامهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يقدمون بين أيديهم ، ولا يرفعون أنفسهم عليهم ، ولا يقفون منهم إلا موقف الإبن البار من آبائه الكرام ، والتلميذ المهذب من أساتذته العظام ، فشغلوا أنفسهم بتذاكر حسناتهم ، ودراسة مفاخرهم ، واستمدوا منهم القدوة الطيبة ، والأسوة الحسنة وضربوا عرض الحائط بكل ما دس عليهم في بطون الكتب وصحائف التاريخ ، من أوهام وبهتان ، مما قصد به أعداء الإسلام الحط من شأنهم ، والتهوين من عدالتهم التي أثبتها الله ورسوله لهم ، ليصلوا بذلك — قاتلهم الله — إلى الحط من شأن المعلم الأول لهم صلى الله عليه وسلم ، بل إلى الحط من شأن الإسلام نفسه ، وما يقوم عليه من مبادىء كريمة ، وما يدعو إليه من مثل عليا .

* * *

(١) أبو داود والترمذي : عن أبي نجيح العرباض بن سارية رضى الله عنه — حديث صحيح .

ولا عجب أن يقف السلف الصالح ذلكم الموقف الكريم ، من نجوم الهداية ، وسيوف الحق ، فقد كان لهم من نور البصيرة ما عصمهم من الخوض فى الباطل ، ومن رسوخ الأقدام فى العلوم والعرفان مادلهم على الزيف من الأخبار والموضوع من الإفك والبهتان ، وما أكثر ما وضعه الإسرائيليون وأعداء الإسلام ، وما أخطر ما دسوه من سموم ، واختلقوه من أحداث ، وجاء المستشرقون من بعدهم فبعثوا المفتريات القديمة ، ورددوا الأكاذيب الموضوعة ، وفخموا الدعاوات المسمومة ، مدفوعين بكراهيتهم المتأصلة للإسلام ، وتعصبهم الأعمى ضد المسلمين ، سعياً فى سبيل زعزعة عقيدتهم ، وتشكيكهم فى مفاخرهم ، وزحزحتهم عن التعلق بالإسلام وأبطاله ، والرسول وأصحابه :

قال أحد الناس للإمام الحافظ أبى زرعة الرازى : إنى أبغض معاوية :: ! فقال له : ولم ؟ قال : لأنه قاتل عليا بغير حق ! فقال الإمام رضى الله عنه :

« رب معاوية رب رحيم ، وخصمه كريم ، فما دخولك بينهما »(١) !

وقال شريك : سألت ابراهيم بن أدهم عما كان بين على ومعاوية رضى الله عنهما — فبكى :: فندمت على سؤالى إياه ، فرفع رأسه فقال :

« ان من عرف نفسه اشتغل بنفسه ، ومن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره »(٢) :

وسئل الشعبى رضى الله عنه : ما تقول فيما قاله الناس لهذين الرجلين ؟ قال : أى هذين الرجلين ؟ قيل له : على وعثمان ، فقال :

« إنى والله لغنى أن أجيء يوم القيامة خصيماً لعلى وعثمان »(٣) :

وسأله صالح بن مسلم عن مسألة فقال له : قال فيها عمر بن الخطاب كذا ، وقال فيها على بن أبى طالب كذا ، فقال له صالح : فما ترى ؟ فقال الشعبى :

« ما تصنع برأيى بعد قولهما ؟ إذا أخبرتك برأيى فبل عليه »(٤) : ! !

* * *

وعرضت مسألة تنازعها الحضور فى مجلس هارون الرشيد ، فاحتج أحدهم بحديث لأبى هريرة رضى الله عنه ، فعارضه آخرون بأن أبا هريرة متهم فيما يرويه ، وانتصر الرشيد لهذا القول ، فما كان من عمر بن حبيب رضى الله عنه إلا أن قال :

« الحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو هريرة صحيح النقل ، صدوق فيما ينقله عن النبى صلى الله عليه وسلم » .

وظهر الغضب على الرشيد ، فقام عمر بن حبيب من المجلس منصرفاً ، فلم يلبث الرشيد أن أرسل إليه فقال له : يا عمر بن حبيب : ما تلقانى أحد من الرد بمثل ما تلقيتنى به ، فأجابه قائلا :

---

(١) اتحاف ذوى النجابة بما فى القرآن والسنة من فضائل الصحابة ، للعلامة الشيخ محمد العربى التبانى : ص ٩ .

(٢) ابراهيم بن أدهم : للدكتور عبد الحليم محمود : ص ١٠٨ .

(٣) اتحاف ذوى النجابة للتبانى : ص ٧٣ .

(٤) اتحاف ذوى النجابة : للتبانى ، ص ٧٣ .

« إذا كان أصحاب رسول الله كذابين ، فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام فى الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود كلها مردودة غير مقبولة » :

فرجع الرشيد إلى الحق ، وقال : أحييتنى ياعمر بن حبيب أحياك الله ، وأمر له بعشرة آلاف درهم(١) .

* * *

هذا قليل من كثير مما كان عليه السلف العظيم ، من غيرة على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعظيم لهم ، وإيمان بعدالتهم ، وثقة فى كل ما ثبتت روايته عنهم :

استهتار الجهلاء بالصحابة :

ثم خلف من بعد هؤلاء السلف الكريم ، خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، إذا كتبوا فعن غير خبرة ، وإذا سئلوا أفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا :

وبتوالى القرون ، واندثار الكثير من العلم ، وذهاب خيرة العلماء ، وظهور الرءوس الجاهلة ، والنفوس المريضة ، انطمست تلكم الحقائق الناصعة ، أمام الكثيرين من أبناء هذا الجيل ، بتأثير الجهالات التى قرأوها ، والضلالات التى سمعوا بها ، حتى استقر فى أعماقهم من تاريخ الصحابة المكرمين ، ما دسه المغرضون من إفك وزور ، وردده الغافلون من وهم وبهتان ، ممن لا هداية لهم من نور ، ولا إثارة لهم من علم ، وكأنه الحقائق الثابتة ، والوقائع المؤكدة ، فتفتحت له القلوب المريضة ، وانشرحت له الصدور الخاوية ، ولم يقف الأمر عند حد ترديد هذه الجهالات دون تحقق أو تمحيص ، بل زادوا الطين بلة بما أضافوه من تعليقات ، واستنبطوه من نتائج ، حتى وضعوا أنفسهم من نجوم الهدى موضع النقد والتحكيم ، فأساءوا الأدب فى التحدث عنهم ، وأطالوا التهجم فى عرض سيرتهم ، وتحليل تصرفاتهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فظنوا أنهم بذلك قد توخوا الحرية فى بحوثهم ، وأنصفوا العلم بآرائهم ، وكأنهم لا يكونون أحراراً إلا إذا تطاولوا على الكرام البررة ، ولا يكونون علماء إلا إذا تجاهلوا كرامتهم ، ولوثوا سيرتهم ، وقد فاتهم أنه لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل ، وأنه أكرم لهم أن يسخروا حرية البحث ، لإبراز الحقائق الغامضة ، وتمحيص الروايات المختلة ، وأن يتذكروا

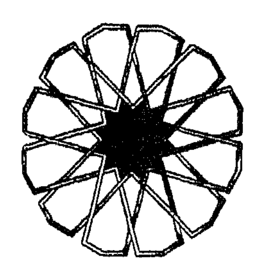
---

(١) المصدر السابق : ص ٧٨ .

دائماً عند ذكرهم لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، أو كتابتهم عنهم ، أنهم نجوم الهدى ، :: وأنهم أصحاب المصطفى ، قد أثبت الله لهم العدالة والصدق وشهد لهم بعظيم الفضل ، وأوجب لهم حسن الذكر :

***

هذه مقدمة ؛ كان لابد من ابرازها ؛ قبل وضع الأمور فى نصابها ؛ فيما يتعلق بأهم شبهات المعاصرين ؛ فيما يتصل بسيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، والأحداث المتصلة به ، كما سنوضحه فيما يلى :

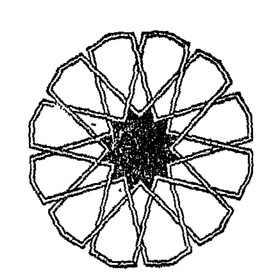


الفصل الخامس عشر

« يا بنى : الا لا يقتلن الا قاتلى ، فاذا أنا مت من ضربته هـذه : فاضربوه ضربة بضربة ، ولا تمثلوا به ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« اياكم والمثلة ، ولو انها بالكلب العقور » .

« من وصية أمير المؤمنين على بن أبى طالب الى الحسن والحسين — رضى الله عنهما » .



التمثيل بقاتل رابع الخلفاء

وصية أمير المؤمنين بالقـاتل :

كان الاعتداء الأثيم الذى اقترفه « عبد الرحمن بن ملجم » بقتله رابع الخلفاء الراشدين ، ووالد الحسن والحسين ، سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، كان ذلك الاعتداء من أخطر الأحداث التى وقعت فى القرن الأول الهجرى وأبعدها أثراً فى حياة الأمة الإسلامية بأسرها ، إذ فقد المسلمون أعظم قادتهم إيمانا ، واثبتهم يقينا ، وأبعدهم بلاء فى سبيل الله ، وأقربهم مكانة إلى الله ورسوله .

ولو وضع فى الميزان دماء الألوف من الخوارج ، من أمثال ابن ملجم ، ما عدلت قطرة واحدة من دماء تلكم النفس الزكية ، التى قتلت ظلماً وعدواناً ، فى وقت ما كان أحوج المسلمين إليها ، فى حزمها وعزمها ، وفى إيمانها وتقواها ، وفى قيادتها الأمينة لخير أمة أخرجت للناس .

ولكن رابع الخلفاء الراشدين — رضى الله عنهم أجمعين — كان أول ما عنى به ، وقد أصابته الضربة القاتلة ، أن يوصى أبناءه بصفة عامة ، والحسن — رضى الله عنه — بصفة خاصة ، بأن يحسنوا معاملة القاتل وأن يحذروا كل الحذر من التشفى منه ، أو التمثيل به ، فقال :

« انظر يا حسن : إن أنا مت من ضربته هذه ، فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثل بالرجل ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إياكم والمثلة : : ، ولو أنها بالكلب العقور » :

فهل حرص الحسن واخوته — رضى الله عنهم — على التزام وصية أبيهم كرم الله وجهه ؟ أم أنهم خالفوها ، وأطلقوا لغضبهم العنان ، فانتقموا من القاتل أشد الانتقام ، ومثلوا به أشنع التمثيل ؟؟ .

* * *

اختلفت روايات المؤرخين حول هذا الموضوع ، فنهم من جاءت روايته للحادث خالية من أية إشارة إلى تمثيل أو تعذيب ، ومنهم من اضفى على القاتل من صفات الصبر والإيمان ، وما يرتفع به إلى مقام الصديقين والشهداء ، ووصف ما حل به من التعذيب والنكال ، وصفاً تشيب لهوله الولدان ، ويصم ابناء رابع الخلفاء الراشدين — رضى الله عنهم أجمعين — بالتجرد عن الرحمة ، والإسراف فى الخصومة ، فضلا عن المخالفة الصريحة لله والرسول ، وحاشا لله أن يكونوا كذلك ، وفيهم سيدا شباب أهل الجنة — الحسن والحسين — رضى الله عنهما وعن آل بيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أجمعين .

وقد رأينا فى تحقيقنا لهذه الشبهة : أن نتعرف أولا شخصية القاتل ، وما يتصل بها من فضيلة أو منقصة — وما تقوم عليه من إيمان وتقوى ، أو من ارتياب وفسق ، فإن ذلك يساعدنا على تمحيص ما نسب إليه ، أو روى عنه ، وإظهار مدى ما يقوم عليه من صدق ، أو يتلبس به من وضع وادعاء .

ثبوت فسـق ابن ملجم :

وبالرجوع إلى ما لدينا من روايات المؤرخين : يتبين لنا انهم اتفقوا على أن ابن ملجم ما كاد يقع نظره على إمرأة سافرة من نساء الخوارج : هى « قطام بنت الشجنة » — وكانت فائقة الجمال — حتى إلتبست بعقله ، وسيطرت على لبه ، وملكت عليه حواسه ، فلم يلبث أن سارع إلى خطبتها لنفسه ، فقالت له :

« إنى آليت أن لا أتزوج إلا على مهر لا أريد سواه : ثلاثة آلاف ، وعبد وقينة ، وقتل على ابن أبى طالب » . . ولم يمالك الشقى — قبحه الله — إلا أن يجيبها على الفور قائلا :

« هو مهر لك »(١) . . ! ! وفى روايات أخرى أنه قال لها :

« وماذا يغنيك ، وما يغنيني منك قتل على ؟ وأنا أعلم أنى إن قتلته لم أفت » ؟ فقالت له :

« إن قتلته ونجوت : فهو الذى أردت ، تبلغ شفاء نفسى ، ويهنئك العيش معى . . ، وإن قتلت : فما عند الله خير من الدنيا وما فيها »(٢) .

فقال لها : « لك ما اشترطت»(٣) .

ويتضح مما تقدم : أن ابن ملجم — قبحه الله — كان رجلا ضعيف النفس ، مزعزع العقيدة ، فاسقاً ، لا خلاق له ، تحكمه الشهوات ، وتستثيره النزوات ، وأنه فى سبيل إشباع شهوة رخيصة ، وافق على اغتيال خير خلق الله فى ذلك الحين ، وجعل تلك الجريمة الشنعاء جزءاً من مهره . . ! ! .

ثبوت جبن ابن ملجم :

واتفق المؤرخون كذلك : على أن الشقى لم يجرؤ على الإقدام وحده على اغتيال سيدنا على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — رغم علمه بأنه يسير دائماً دون حراسة ، وأن أصحابه كانوا قد تعاهدوا على حراسته ، خوفاً من القتل ، فلما علم بذلك ، أبى عليهم وقال لهم :

« تحرسونى من أهل السماء ، أو من أهل الأرض » ؟ قالوا : من أهل الأرض . . ، قال رضى الله عنه : « انه ليس يقضى فى الأرض . . حتى يقضى فى السماء »(٤) .

كان عبد الرحمن بن ملجم يعلم كل ذلك . . ، ومع هذا : فإنه لم يجرؤ على الإقدام على جريمته إلا بمعاونة اثنين من الرجال ، أحدهما انتدبته « قطام » من بنى قومها ، والآخر استماله ابن ملجم لقتل على — كرم الله وجهه — فقال له : « ويحك ! لو كان غير على لكان أهون على ، قد عرفت بلاءه فى الإسلام ، وسابقته مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فما أجدنى أنشرح صدراً لقتاله »(٥) وبالرغم من هذه التذكرة البليغة ، فإن ابن ملجم أصر على جريمته ، مدفوعاً بهواه الآثم ، فما زال بالرجل حتى وافقه على الاشتراك معه . .

وذكر المؤرخون أيضاً أن هذه المرأة كانت تتخذ من المسجد مقراً لمؤامرتها ومن التظاهر بالتعبد ستاراً لها ، تخفى به جريمتها ، فقالوا : « إن المتآمرين الثلاثة : جاءوا قطام — وهى فى المسجد الأعظم معتكفة — فأخبروها بإجماع أمرهم على قتل على — كرم الله وجهه — ثم عاد إليها ابن ملجم فى ليلة الجمعة التى قتل فى صبيحتها على ، فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافهم »(٦) . .

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ١٤٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧ / ٣٢٦ .

(٢ ، ٣) الاستيعاب : لابن عبد البر : القرطبى ، بهامش الإصابة ؛ ٣ / ٥٨ و ٥٩ .

(٤) العقد الفريد : لابن عبد ربه الأندلسى : ٢ / ٢٣٤ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ١٤٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧ / ٣٢٦ ، وغيرهما .

(٦) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ١٤٥ .

نهى أمير المؤمنين عن المثلة :

وأجمع المؤرخون على أن عليا رضى الله عنه حين أصابه سيف ابن ملجم فى قرنه ، قال « لايفوتنكم الرجل » ، وإن الناس شدوا عليه من كل ناحية حتى أخذوه ، فأدخل على على رضى الله عنه ، فأمرهم بالإحسان إليه ، ثم قال : احبسوه ، فإن أعش فأنا ولى دمى ، إما عفوت وإما اقتصصت ، وان أمت فألحقوه بى ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين »(١) .

وأكد على وصيته بالقاتل ، إلى الحسن والحسين فقال لهما :

« يا بنى : ألا لايقتلن لى إلا قاتلى ، فإذا أنا مت من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة ، ولا تمثلوا به ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إياكم والمثلة ، ولو أنها بالكلب العقور »(٢) .
وفى رواية للإمام أحمد أن عليا كرم الله وجهه قال لأولاده :

« افعلوا به كما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل برجل أراد قتله فقال : اقتلوه : ثم حرقوه »(٣) .

مخادعة ابن ملجم للخلاص :

ولما قبض عليه السلام : بعث الحسن رضى الله عنه إلى ابن ملجم فأحضر بين يديه ، ليقيم عليه الحد ، كما أمر الله ورسوله ، ولكن الشقى بلغ به الجزع من القصاص : أن حاول مخادعة الحسن — رضى الله عنه — أملا فى الخلاص ، والعودة إلى عشيقته ، فقال له :

« إنى أعطيت الله عهداً أن أقتل عليا ومعاوية ، أو أموت دونهما ، فإن شئت : خليت بينى وبينه ، ولك الله على إن لم أقتله ، أو قتلته ثم بقيت ، أن آتيك حتى أضع يدى فى يدك » !

ومن الواضح أن الشقى كان كاذباً فى قوله ، لأنه يعلم أن معاوية قد وكل قتله إلى خارجى آخر ، .. ولو صدق : ماكان الحسن عليه السلام ليقبل منه ما عرضه من قتل معاوية رضى الله عنه ، ولذلك فقد أبى الحسن أن يقيم وزناً لكلامه ، وقال له : «كلا والله حتى تعاين النار » .

وقدم الشقى فضرب عنقه ، ثم أخذه الناس فأدرجوه فى بوارى ، ثم أحرقوه بالنار »(٤) .

* * *

إلى هنا : نجد أن روايات المؤرخين متسقة مع بعضها ، بخلاف بسيط فى بعض الجزئيات ، مثل : هل دخل ابن ملجم بقطام أو لم يدخل بها ، والأرجح أنه رغم تردده عليها ، واختلاطه بها ، لم يدخل بها دخولا شرعياً ، لأن شرطها الذى اتفقا عليه ، أن يكون ذلك بعد الانتهاء من قتل على رضى الله عنه ،

(١) الاستيعاب لابن عبد البر . . بهامش الإصابة : ٣ - ٥٩ ، والامامة والسياسة لابن قتيبة ١ / ١٦٣ ، والرياض النضرة للمحب الطبرى : ٢ / ٣٢٩ .
(٢) الطبرى : ٥ / ١٤٥ وغيره .
(٣) البداية والنهاية : ٧ / ٣٢٨ .
(٤) الطبرى ٥ / ١٤٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٧ / ٢٣٠ .

وهو أهم جزء فى مهرها . ومثل : ما ذكره الطبرى فى روايته : أن الناس شدوا على ابن ملجم فأخذوه « إلا أن رجلا من همدان يكنى « أبا أدماء » اخذ سيفه فضرب رجله فصرعه »(١) .

موقف أكابر المؤرخين من واقعة التمثيل :

لم يذكر الطبرى وابن الأثير فى تاريخهما أى تمثيل وقع ، أما ابن كثير فبعد أن ذكر أن الحسن – عليه السلام – قدم ابن ملجم فقتله ، ثم أخذه الناس فأحرقوه قال : « وقد قيل ، أن عبد الله بن جعفر قطع يديه ورجليه ، وكحلت عيناه ، وهو مع ذلك يقرأ سورة : اقرأ باسم ربك الذى خلق . . إلى آخرها ، ثم جاءوا ليقطعوا لسانه فجزع ، وقال : إنى أخشى أن تمر على ساعة لا أذكر الله فيها ، ثم قطعوا لسانه ، ثم قتلوه ثم حرقوه فى قوصرة ، والله أعلم »(٢) .

وموقف ابن كثير من هذه الرواية ، هو موقف الناقل لما بلغه ، دون أن يجزم برأى فيه ، بل هو موقف المتشكك فيما رواه ، بدليل قوله فى أول روايته ، « وقد قيل » . . وفى آخرها : « والله أعلم » .

وذكر ما يشبه هذه الرواية ابن سعد . . وابن قتيبة فى الإمامة والسياسة ، والمحب الطبرى فى الرياض النضرة . . وقد ذكر الأخير أن الذين قطعوا ابن ملجم ، هما الحسين ومحمد بن الحنفية ، وأن الحسن نهاهما .

ومع اختلاف هذه الروايات ، فإن « صاحب الفتنة الكبرى » كعادته دائماً يأخذ الجانب الأسود من أنباء الصحابة ، فيجعله أساساً لتأكيد الظنون ، وتحقيق الشبهات فيقول : « والشىء المحقق : هو أن ولاة الدم لم ينفذوا وصية على فى أمر قاتله ، فهو قد أمرهم أن يلحقوه به ولا يعتدوا ، ولكنهم مثلوا به أشنع تمثيل ، فلما مات : حرقوه بالنار »(٣) .

ولا ندرى كيف جزم صاحب « الفتنة الكبرى » بأن واقعة التمثيل شىء محقق فى حين أن كل الدلائل تشير إلى بطلانها عقلا ونقلا ، كما سنوضحه . .

بطلان واقعة التمثيل عقلا :

أما من ناحية بطلانها عقلا ، فإنه يتضح مما يأتى :

أولا – من المستبعد – بل من المستحيل – أن يتجاهل أبناء على – رضى الله عنه – وصية أبيهم ، وأن يعملوا على عكسها ، وهم جميعاً أئمة الهدى ، وقادة الإيمان ، وليسوا من الدهماء الذين تعميهم الجهالة فينساقون وراء اهوائهم وأحقادهم ، وقد كانوا طوع بنان والدهم فى حياته ، فلا يعقل أن يعصوه بعد مماته ، وهم يعلمون حق العلم أن طاعته طاعة لله ورسوله ، وأن معصيته معصية لله ورسوله ، بموجب قوله صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ »(٤) .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ١٤٥ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٧ / ٣٣٠ .

(٣) الفتنة الكبرى – (على وبنوه) لطه حسين : ٢ / ١٦٧ و ١٦٨ .

(٤) الترمذى وأبو داود من حديث العرباض بن سارية رضى الله عنه : حديث حسن صحيح .

وقوله : « من اطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ، ومن يعص الأمير فقد عصانى »(١) . فكيف وقد أكد الإمام وصيته هذه بحديث قاطع ينهى فيه النبى صلى الله عليه وسلم عن المثلة ، ولو كانت بالكاب العقور ؟ !

ثانيا — إن الأمر قد صار بعد على إلى ابنه الحسن — رضى الله عنهما — ومن المعلوم شرعاً أن الإمام الحق المطلق فى الطاعة ، ما لم يأمر بمعصية ، ولا يعقل أن يكون الحسن رضى الله عنه قد أمر بالتمثيل بالقاتل ، لأن ذلك لا يتفق مع طبيعته التى تميل إلى السلام ، وتنفر من القسوة والعنف ، فضلا عن مخالفة ذلك لأمر الله والرسول ، كما انه لا يعقل ان يكون الحسن قد نهى إخوته — رضى الله عنه وعنهم — عن التمثيل بالرجل ، فخالفوه وقطعوا أطرافه ! !

ثالثا — أن الصورة التى صورها بعض المؤرخين لابن ملجم ، من صبره على تقطيع أطرافه ، وتكحيل عينيه ، واستمراره مع ذلك فى ذكر الله وتلاوة القرآن ، وعيناه تسيلان على خديه ، ثم جزعه الشديد حين حاولوا قطع لسانه ، وقوله فى ذلك : «إنى أخاف أن أمكث فى الدنيا فواقا — أى برهة — لا اذكر الله فيه »(٢) هذه الصورة لا تتفق مطلقاً مع ما عرف عن الرجل وثبت بإجماع آراء المؤرخين ، من إنسياق وراء الشهوات ، حتى افتتن بإمرأة لأول نظرة ، بلغ من فجورها أنها تجتمع بالرجال ، وتحرضهم على قتل خيرة الله فى عصره ، وتجعل ذلك مهراً للوصول إليها ، وتتخذ من عبادة الله ستاراً لها ، ومن بيت الله مقراً لمؤامراتها . . وهذا فضلا عما ثبت عن ابن ملجم من جبن وخور ، حتى تهيب من لقاء على — كرم الله وجهه — وحده ، وهو يعلم أنه مجرد من السلاح والحراسة ، وحتى أنه بعد ضربه حاول الهرب ، شأن الجبناء الأنذال . . ممن لا خلاق لهم ، ولا مروءة . . ولا إيمان .

رابعا — إنه لو كان حقاً ما وقع بابن ملجم من تقطيع الأوصال وسمل العينين ، وبتر اللسان ، لما وقف المنتقمون منه عند هذا الحد ، وهم يعلمون — كما يعلم غيرهم من الناس — أن وراء المجرم امرأة أغرته بنفسه ، واستثارته بأنوثتها ، حتى سلبت عقله ، وجردته من إرادته ، ودفعت به إلى قتل أمير المؤمنين وجعلت ذلك مهراً لوصولها ، ومعنى ذلك أنها هى المحرضة على القتل ، الشريكة فى الإثم . . ومع كل ذلك ، فقد ثبت أن هذه المرأة لم يصل إليها أى أذى ، ولم يفكر أبناء أمير المؤمنين فى أى مساءلة لها ، أو انتقام منها ، وفى ذلك دلالة واضحة ، على التزام الجميع وصية الشهيد الراحل « النفس بالنفس . . فإن مت فالحقوه بى ولا تعتدوا » . .

---

(١) متفق عليه : من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .
(٢) البداية والنهاية : ٨ - ١٣ .

بطلان واقعة التمثيل نقلا :

وأما من ناحية بطلانها نقلا ، فيتضح مما يأتى :

أولا – قوله صلى الله عليه وسلم فى وصف الخوارج – وقد أشار بيده إلى الشرق ، وفى رواية إلى العراق : « يخرج قوم يقرأون القرآن بألسنتهم ، لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، محلقة رؤوسهم »(١) .

ثانيا – قوله صلى الله عليه وسلم فى وصف ابن ملجم ، انه « أشقى الآخرين » .

فعن صهيب رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى : من أشقى الأولين يا على ؟ ؟ قال : الذى عقر ناقة صالح . قال : صدقت ، فمن أشقى الآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال أشقى الآخرين الذى يضربك على هذه ، وأشار إلى يافوخه(٢) .

وفى رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى حين ولى غزوة العشيرة :

« يا أبا تراب : ألا أحدثك بأشقى الناس رجلين ؟ قال : بلى يارسول الله قال : أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا على على هذه – يعنى قرنه – حتى يبلل هذه – يعنى لحيته »(٣) .

وقد تعددت روايات هذا الحديث ، بصيغ متقاربة ، فقد أخرجه الحافظ أبو يعلى عن صهيب ، والخطيب البغدادى عن جابر بن سمرة ، والبيهقى عن على ، كما أخرجه آخرون بأسانيد مختلفة .

وفى الحديث الأول عن الخوارج – وابن ملجم منهم – قضى النبى صلى الله عليه وسلم بكفرهم ، فهم من الذين « ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »(٤) .

وفى الأحاديث التالية ، قضى النبى صلى الله عليه وسلم على ابن ملجم بأنه أشد كفراً ، وأنه – بقتله عليا عليه السلام – صار أشقى الآخرين .

ابن ملجم شيطان رجيم لعنه الله :

ولا يعقل مع هذا وذاك ، أن يكون ابن ملجم على هذه الدرجة من المداومة على ذكر الله ، لأن مداومة الذكر تحفظ العبد من نزغات الشياطين ، وبعكس ذلك : فإن الغفلة عن ذكر الله توقعه فى قبضتهم ، قال تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين »(٥) ، واقدام الشقى على قتل ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته الزهراء ، ووالد سيدى شباب أهل الجنة ، ورابع الخلفاء الراشدين ، فى سبيل امرأة خارجة على الله ورسوله ، لا يمكن إلا أن يكون دليلا على براءته من ذكر الله ، فهو أقذر وأخبث من أن يجرى ذكر الله على لسانه ، وجميع أحواله تدل على إغراقه فى الفسق والزندقة ، وأنه من الذين : « نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون »(٦).

---

(١) البخارى فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى ، ومسلم من حديث سهل بن حنيف .

(٢) الرياض النضرة للمحب الطبرى : ٢ / ٣٣١ وقال : أخرجه أبو حاتم والملاء فى سيرته .

(٣) الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضى الله عنه .

(٤) الكهف آية : ١٠٤ .

(٥) سورة الزخرف : آية ٣٦ .

(٦) سورة الحشر : آية ١٩ .

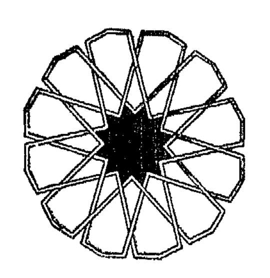
بل ان ابن ملجم ماكان إلا شيطاناً رجيما لعنه الله ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

قل لابن ملجم والأقدار غالبة هدمت — ويلك — للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشى على قدم وأول الناس اسلاماً وإيمانا
وأعلم الناس بالقرآن .. ثم بما سن الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبي ومولاه . . وناصره أضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان فى الحرب سيفاً صارماً ذكرا ليثا إذا لقى الأقران أقرانا
ذكرت قاتله والدمع . . منحدر فقلت سبحان رب العرش سبحانا
إنى لأحسبه ما كان من بشر يخشى المعاد . ولكن كان شيطانا(١)

خاتمة .. ونتيجة :

وبعد : فإنه لم يبق بعد كل ما أوضحناه ، إلا أن كل ما ذكر عن التمثيل بابن ملجم ، وتقطيع أطرافه ، وسمل عينيه ، ومداومته لذكر الله خلال كل ذلك ، لا أساس له من الحقيقة والواقع — وإن كان فى نظر صاحب الفتنة الكبرى شيئاً محققاً — وإنما من تنميق خصوم أهل البيت فى تلكم العهود التى كانت تضطرب بالتيارات السياسية ، وتشتغل بالخصومات الحزبية : . أو من وضع أعداء الإسلام من اليهود لإظهار المسلمين بمظهر القسوة والتجبر ، أو من وضع الخوارج لإظهار أنفسهم بمظهر البطولة والفداء . وإلى هذا المعنى المنطقى ، ذهب أحد الكتاب المعاصرين ، إذ يقول :

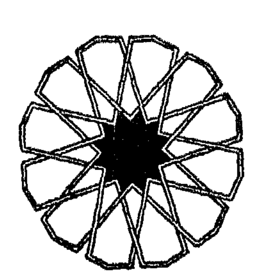
« ولعل رواية التمثيل بابن ملجم من مزاعم الخوارج ، لاستثارة الحمية فيهم ، ولتمجيد ابن ملجم ، وكيف يمثل به وقد أوصى الإمام ، فقال : ضربة بضربة ؟ ! » .



(١) الاستيعاب لابن عبد ربه القرطبى ، بهامش الإصابة : ٣ / ٦٣ و ٦٤ من قصيدة لأبى بكر بن حماد .

الفصل السادس عشر

« .. فنظر اليهم - اى نظر الحسن رضى الله عنه الى جيوشه - أمثال الجبال فى الحديد فقال : اضرب هؤلاء بعضهم ببعض فى ملك من ملك الدنيا ؟ .. لا حاجة لى به » .





تنازل الحسن لمعاوية : من اعلام النبوة :

بالرغم من وضوح موقف الحسن بن على — رضى الله عنهما — من الخلافة ، وزهده فيها ، بعد أن بويع عليها ، دون رغبة منه فى ذلك . . وبالرغم مما عرف عنه من كراهية لسفك دماء المسلمين ، فى سبيل أمر من أمور الدنيا ، وكيف انتهى به الأمر إلى التنازل عن الخلافة لمعاوية رضى الله عنهما ، حرصاً على وحدة الأمة ، وحقناً لدمائها ، وتركيزاً لجهودها فى سبيل الله ، حتى تستطيع استئناف الفتوحات الإسلامية ، التى توقفت منذ مقتل ثالث الخلفاء — رضى الله عنه — بتأثير الفتن التى أشعلها أعداء الإسلام ، والمؤامرات التى دبروها ، لعرقلة انتشاره ، وإضعاف شوكته ، وتحويل بأس المسلمين فيما بينهم . . وقبل كل ذلك : كان تنازل الحسن — رضى الله عنه — عن الخلافة : تحقيقاً لما أخبر به صلى الله عليه وسلم ، من أن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين .

بالرغم مما تقدم : فإن بعض المؤرخين والكتاب المعاصرين قد تجاهلوا كل ذلك والتمسوا لتنازل الحسن — رضى الله عنه — أسباباً لا أساس لها من الحق والواقع ، قلبوا بها الحقائق الثابتة ، وحولوا زهده فى الخلافة إلى عجز عن القيام بها ، وحرصه على حقن دماء المسلمين ، إلى شعور بالضعف عن القتال ، وتعلق بالشهوات والأموال ! !

وكمثال لهذه المزاعم : ما ذكره مؤلف « تاريخ الإسلام » من أن معاوية « نال الخلافة بحد السيف تارة وبالمكيدة والسياسة تارة أخرى » . . وأن خلافة الحسن رضى الله عنه — « لم تثبت أمام قوة معاوية . . فلم يجد بدأ من النزول عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين »(١) .

ثم يقول بعد ذلك :

على أن الدافع الحقيقى الذى حدا بالحسن الى النزول عن الخلافة : يرجع — على ما ذهب إليه اليعقوبى(٢) إلى أنه قد أصبح لا قبل له بمعاوية وجنده ، فعقد معه صلحاً نزل فيه عن الخلافة »(٣) .

وكل هذه المزاعم باطلة عقلا . . ونقلا . . أما من جهة العقل :

فلوضوح التناقض فى هذه المزاعم ، فأولها ينفى آخرها ، فإن معاوية لم ينل الخلافة بحد السيف كما ذكر المؤلف فى مقدمة عبارته ، وإنما نالها بالصلح مع الحسن رضى الله عنه ، وتنازله عنها ، كما قرر فى آخر عبارته الثانية .

أما ما زعمه « اليعقوبى » من أن السبب فى تنازل الحسن — رضى الله عنه — أنه أصبح لا قبل له بمعاوية وجنده ، فلا موضع له ، لأن الحسن لم يلتق بمعاوية — رضى الله عنهما — فى معركة واحدة ، ولم يهزم قط ، فكيف يحكم عليه بأنه لا قبل له به ، وقد بايعه أربعون ألفا ، وفى رواية : تسعون ألفا ،

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى للدكتور حسن ابراهيم ١ / ٢٧٨ .
(٢) تاريخ اليعقوبى : ٢ / ٣٥٤ .
(٣) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى للدكتور حسن ابراهيم ١ / ٢٧٨ .

سبق لهم أن قاتلوا أهل الشام ، وأرغموهم على رفع المصاحف ، تفادياً للهزيمة التى كادت أن تحيق بهم ، وتحايلا على النجاة . . ! !

* * *

وأعظم من ذلك : بعداً فى الضلالة ، وعمقاً فى الجهالة ، ما ذكره العلامة الشيخ محمد العربى التبانى ، عن أستاذ معاصر كان يدرس التاريخ بمدرسة بمكة المكرمة : زعم أن الحسن بن على — رضى الله تعالى عنه — ما تنازل عن الخلافة لمعاوية لحقن دماء المسلمين ، وإنما تنازل له بها ، لأنه لا يعرف السياسة ، ويحب المال والنساء(1) . . ! !

وقد فات ذلكم الأستاذ المعاصر ، أن إجماع المسلمين على تسمية العام الذى تم فيه التنازل عن الخلافة بعام الجماعة ، هو أكبر شاهد على سلامة سياسة الحسن التى بها وحد كلمة الأمة . . كما أن ثناء النبى صلى الله عليه وسلم — على الحسن ، واخباره بأن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين : هو خير شهادة لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — وأقطع دليل على أنه سار فى سياسته على ما يرضى الله تعالى ، وأخبر به رسوله .

أما الزعم بأن تنازل الحسن — عليه السلام — عن الخلافة ، كان بسبب حب المال والنساء ، فيهدمه حقيقتان :

الأولى — أن الأولى بمن يحب المال والنساء إلى هذه الدرجة التى ذكرها الأستاذ المعاصر ، أن يحرص على الإمارة ، لتكون له عوناً فى الاستكثار منهما ، لأن التنازل عنها قد يؤدى إلى عكس ذلك .

الثانية — أنه ثبت أن الحسن عليه السلام — قاسم الله تعالى ماله ثلاث مرات ، وخرج عنه مرتين ، فهل الذى يفعل ذلك عن طيب نفس ، يكون محباً للمال ، حريصاً عليه ؟ !

ومن ناحية أخرى : فإن الحسن عليه السلام : إذا كان قد عرف بحبه للنساء ، فأى منقصة فى ذلك ، ما دام فى حدود ما أحله الله لعباده ؟ . . وأى منقصة فى ذلك وهذا هو سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، وصاحب الخلق العظيم ، يقول : « حبب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة »(2).

البخارى : أصدق حديثا :

وأما من جهة النقل : فقد كان يكفى لبيان بطلان المزاعم سالفة الذكر ، أن نورد هنا ما أخرجه أمام المحدثين فى صحيحه — محمد بن اسماعيل البخارى — عن الحسن البصرى ، بشأن هذه الواقعة ، حيث قال :

« استقبل — والله — الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال ، فقال عمرو بن العاص : إنى لأرى كتائب لاتولى حتى تقتل أقرانها . . فقال معاوية — وكان والله خير الرجلين — إن قتل هؤلاء هؤلاء ، وهؤلاء هؤلاء ، من لى بأمور الناس ؟ من لى بنسائهم ، من لى بضيعتهم ؟ . . فبعث إليه —

---

(1) افادة الأخيار ببراءة الأطهار ، للعلامة الشيخ محمد العربى التبانى ٢ / ١٨٣ .

(2) من حديث أنس رضى الله عنه .

أى بعث معاوية إلى الحسن — رجلين من قريش من بنى عبد شمس : عبد الرحمن بن سمرة[١] وعبد الله ابن عامر بن كريز[٢]، فقال اذهبا إلى هذا الرجل — أى الحسن رضى الله عنه — فاعرضا عليه ، وقولا له ، واطلبا إليه ، فأتياه فدخلا عليه ، فتكلما وقالا له ، وطلبا إليه ، فقال لهما الحسن بن على : إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال ، وان هذه الأمة قد عاثت فى دمائها ، قالا : فإنه يعرض عليك كذا . . وكذا . . ويطلب إليك ويسألك . قال : فمن لى بهذا ؟ قالا : نحن لك به ، فصالحه »[٣] .

وقال الكرمانى : « وقد كان يومئذ الحسن أحق الناس بهذا الأمر ، فدعاه ورعه إلى ترك الملك رغبة فيما عند الله ، ولم يكن ذلك لعلة ولا لذلة ولا لقلة ، فقد بايعه على الموت أربعون ألفا »[٤] .

أقوال ثقات المؤرخين :

وقد كان فيما تقدم من رواية البخارى ما يكفى ، ولكننا نضيف إليها روايات بعض المؤرخين الثقات ، حتى تتضح الصورة كاملة :

١ — ما رواه ابن عبد البر فى الاستيعاب ، حيث قال فى ترجمة الحسن رضى الله عنه .

« . . دعاه ورعه وفضله إلى ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله ، وقال : والله ما أحببت منذ علمت ما ينفعنى ويضرنى أن إلى أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، على أن يهراق فى ذلك محجمة دم . . ولما قتل أبوه : بايعه أكثر من أربعين ألفا ، كلهم قد كانوا بايعوا أباه عليا قبل موته على الموت وكانوا أطوع للحسن وأحب فيه منهم فى أبيه »[٥] .

٢ — ما رواه ابن الأثير الجزرى فى أسد الغابة : حيث قال :

قام الحسن بعد موت أبيه أمير المؤمنين ، فقال بعد حمد الله عز وجل :

« إنا والله ما ثنانا عن أهل الشام شك ولا ندم ، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر ، فسلبت السلامة بالعداوة ، والصبر بالجزع ، وكنتم فى منتدبكم إلى صفين ، ودينكم أمام دنياكم ، فأصبحتم

---

(١) عبد الرحمن بن سمرة : قال البخارى له صحبة ، وكان إسلامه يوم الفتح ، وشهد غزوة تبوك مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم شهد فتوح العراق ، وهو الذى افتتح سجستان وغيرها فى خلافة عثمان ، وغزا خراسان ففتح بها فتوحاً ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وتوفى سنة ٥٠ من الهجرة — الإصابة : ٢ / ٤٠١ .

(٢) عبد الله بن عامر بن كريز : ابن خال عثمان بن عفان ، ولد على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأتى به إليه وهو صغير وجعل يتفل عليه ويعوذه ، وجعل يبتلع ريق النبى ، وتوفى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو دون السنتين ، وكان جواداً شجاعاً ميموناً ، ولاه عثمان البصرة سنة تسع وعشرين ، وضم إليها فارس ، فافتتح خراسان كلها وأطراف فارس وسجستان وكرمان وغيرها ، وشهد الجمل مع طلحة والزبير ، ولم يحضر صفين ، وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين ، ثم صرفه عنها ، فأقام بالمدينة ، ومات سنة سبع أو ثمان وخمسين . (الإصابة فى تمييز الصحابة : ٣ - ٦١) .

(٣) البخارى فى صحيحه : كتاب الصلح : باب قول النبى : أن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين .

(٤) ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى : للعلامة القسطلانى : ٤ - ٤٢٦ .

(٥) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبد البر القرطبى : بهامش الاصابة : ١ - ٣٧٠ .

اليوم ودنيا كم أمام دينكم ، ألا وإنا لكم كما كنا ، ولستم لنا كما كنتم ، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين : قتيل بصفين تبكون له ، وقتيل بالنهروان تطالبون بثأره ، فأما الباقى فخاذل ، وأما الباكى فثائر ، ألا وإن معاوية دعانا إلى أمر ليس فيه عز ولا نصفة ، فإن أردتم الموت رددناه عليه ، وحاكمناه إلى الله - عز وجل - بظبا السيوف ، وإن أردتم الحياة قبلناه ، وأخذنا لكم الرضا » . . فناداه القوم من كل جانب : البقية ، البقية . . فلما أفردوه أمضى الصلح (١) .

وهذا الذى ذكره ابن الأثير ، يكشف لنا عن أن الرغبة فى الصلح وحقن الدماء لم تكن قاصرة على الحسن - رضى الله عنه - وإنما كانت فى نفس الوقت : هى أمنية الكثيرين من رجاله ، إذ أنهم ماكادوا يعلمون بما عرضه معاوية ، حتى أعلنوا موافقتهم . . ولا تعارض بين هذا وبين معاهدتهم للحسن - عليه السلام - على السمع والطاعة ، ومبايعتهم على الموت ، فقد كان ذلك قبل عرض الصلح من معاوية ، رضى الله عنهم أجمعين .

فالحسن - رضى الله عنه - فى إبرامه الصلح ، لم يكن مستبداً برأيه ، بل استشار خاصة أصحابه أولا ، ثم استشار عامتهم ، فوافقه الجميع ، رحمة من الله تعالى ألقاها فى قلوبهم ، وتصديقاً لما أخبر به نبيه ورسوله ، فجنحوا للسلم بعدما طال الخلاف بينهم ، وقتل عشرات الألوف منهم ومن خصومهم .

٣ - ما رواه ابن كثير فى البداية والنهاية : قال :

« كانت البيعة للحسن بن على ، بايعه أربعون ألفا ، أو اثنان وأربعون ألفا . . وقال صالح بن أحمد : سمعت أبى يقول : بايع الحسن تسعون ألفا ، فزهد فى الخلافة ، وصالح معاوية ، ولم يسل فى أيامه محجمة من دم »(٢) .

٤ - ما رواه ابن حجر العسقلانى فى ترجمته للحسن رضى الله عنه ، حيث قال :

« . . فنظر إليهم - أى : نظر الحسن إلى جيوشه - أمثال الجبال فى الحديد ، فقال : أضرب هؤلاء بعضهم ببعض فى ملك من ملك الدنيا ؟ لا حاجة لى به » (٣) .

* * *

ويتضح من جملة ما تقدم : أن كلا من الطرفين - الحسن ومعاوية رضى الله عنهما - كان راغباً فى السلم ، حريصاً على حقن الدماء مشفقاً على المسلمين من استمرار القتال والحروب بينهم ، لا عن ضعف من أى منهما ، ولا عن قلة أو ذلة . . وإن كان موقف الحسن عليه السلام ، أقوى وأظهر ، بخلاف ما زعمه الغافلون عن شعوره بالضعف ، فقد كانت تحت قيادته كتائب كالجبال فى ضخامتها ، أو كأمثال الجبال فى الحديد ، تتراوح ما بين أربعين ألفا وتسعين ألفا ، قد عاهدوه على السمع والطاعة ، وبايعوه على الموت ، تقطر سيوفهم من الجد والحرص على قتال أهل الشام ، فضلا عن كونه الأحق بالخلافة

(١) اسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير : ٢ / ١٤ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٤١ .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلانى : ١ / ٣٣٠ .

من معاوية بلا ريب . . وهو بهذه الصورة : أقرب ما يكون إلى القوة والغلبة ، وأبعد ما يكون عن الشعور بالضعف ، أو الخوف من الهزيمة :

ولقد أكد هذه الرغبة فى نفس كل من الحسن ومعاوية — رضى الله عنهما — ما يعلمانه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى لاينطق عن الهوى ، حين أخبر أن الحسن — عليه السلام — سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين : :

ولشعور معاوية بقوة الحسن — رضى الله عنهما — ومكانته فى قلوب المؤمنين من ناحية . . ولمعرفته بزهده فى الخلافة ، وحبه للسلم ، من ناحية أخرى ، فإنه سارع بإرسال مندوبيه إلى الحسن — عليه السلام — يعرضان عليه الصلح ، بأى شروط يقدمها ، وبأى ثمن يطلبه ، وقد وجد المندوبان من استعداد الحسن — رضى الله عنه ، ما مكنهما من إبرام الصلح المنشود .

* * *

والثابت من سير الحوادث على كل حال : أن الحسن —عليه السلام — ظل فى مكانة العز والشرف ، اللائقة بسيد شباب أهل الجنة ، وابن سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم ، فظل أصحابه يكنون له أعمق مشاعر الحب والوفاء ، وظل معاوية ومن معه يحسون نحوه بكل هيبة وإجلال .

هذا هو عليه السلام — بعد تنازله عن الخلافة — يخطب الناس فيقول :

« أيها الناس : إنما نحن أمراؤكم وضيفانكم ، ونحن أهل بيت نبيكم ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » : . وكرر ذلك ، حتى أجابه الناس بأبلغ رد ، فما بقى منهم أحد إلا وبكى ، حتى سمع نشيجه (١) :

* * *

وهذا هو — رضى الله عنه — يطلب منه معاوية ، بعد دخوله الكوفة ، ومبايعة الناس له ، أن يتحدث إليهم بما جرى بينهما ، استجابة من معاوية لعمرو بن العاص ، الذى توهم أن فى ذلك احراجاً لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعجيزاً له ، : . وكأنه — عليه السلام — أحس بما يضمر له ، فلم يتردد أن قام ، فوقف بين الجميع موقف العزة والسيادة ، : . وموقف التذكرة والتعليم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال فى بديهته : :

« أما بعد أيها الناس : فإن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، إلا أن أكيس الكيس التقى ، وأن أعجز العجز للفجور ، وان هذا الأمر الذى اختلفت أنا ومعاوية فيه ، اما أن يكون أحق به منى ، واما أن يكون حق قد تركته لله عز وجل ولإصلاح أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحقن دمائكم » :

ثم التفت — عليه السلام — إلى معاوية — رضى الله عنهما ، وتلا قوله تعالى :

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير : ٢ / ١٥ .

« وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » (١) .

فقطع الحسن – عليه السلام – بهذه الكلمة ، كما قطعت جهيزة – قول كل خطيب .

الصورة الصحيحة للموقف :

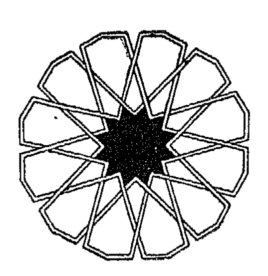
هذه هى الصورة الصحيحة للواقعة ... وإن كان لمعاوية – رضى الله عنه – فضل السبق فى السعى إلى الصلح ، فإن فضل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم وأجل ، فقد تنازل عن الخلافة ، وهو الأحق بها ، القادر عليها ، وأرغم من معه على الرضا بذلك ، وقد كانوا أشد ما يكونون حرصاً على القتال ، وتعرض فى سبيل ذلك إلى أشد اللوم من بعض أصحابه ، فضلاً عن تطاول بعض السفهاء إليه ، واعتدائهم عليه ، ولكن استمر فى طريقه ، الذى شرح الله له صدره ، واطمأن إليه قلبه ، وأنبأه به جده – صلى الله عليه وسلم ..

أما معاوية – رضى الله عنه – فقد سعى إلى الصلح ، وهو راغب فى الخلافة ، حريص عليها ، مع علمه بأن الحسن – عليه السلام – أحق بها ، لكن معاوية من ناحية أخرى ، كان لديه من البشرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما حمله على الحرص عليها ، والتمسك بها ، حتى إنه ليقول :

« والله ما حملنى على الخلافة ، إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لى ، يا معاوية : إن ملكت فأحسن » .. ! وفى رواية أخرى :

« يا معاوية : إن وليت أمراً فاتق الله وأعدل » (٢) .

ولكل رأيه واجتهاده ، رضى الله عنهما (٣) .



(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير : ٢ / ١٥ .

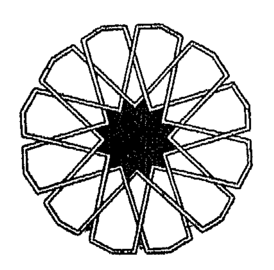
(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٠ .

(٣) أوضحنا بالفصل الأول تحت عنوان « الحسن القوى الأمين » ، ما يكمل هذا البحث فليرجع إليه .

الفصل السابع عشر

« لئن كان صاحبى الذى أظن ، لله أشد نقمة ، وأشد بأسا ، وأشد تنكيلا ، وان لم يكنه، ما أحب أن تقتل بى بريئا » .

« الحسن رضى الله عنه »



حول دس السم للحسن رضى الله عنه

أقوال أكابر المؤرخين :

تضاربت أقوال المؤرخين حول هذا الموضوع ، وتعددت رواياتهم ، ولكنها فى مجموعها لايمكن الاعتماد عليها ، فى الوصول إلى نتيجة قاطعة ، سواء فى واقعة السم نفسها ، وهل وقعت أم لم تقع ، أم فى الأشخاص المتهمين بها ، أو المحرضين عليها .

لم يشر ابن قتيبة فى كتابه « الإمامة والسياسة » المنسوب إليه ، أية اشارة إلى الواقعة المذكورة ، مع أنها تتسق فى روحها مع ما تضمنه الكتاب المذكور ، من خيالات وأوهام ، تمس سمعة الصحابة — رضوان الله عليهم — وتنال من عدالتهم .

وكذلك الطبرى ، لم يرد فى تاريخه أى ذكر عن هذه الواقعة ، مما يدل على عدم اطمئنانه لأى رواية بشأنها .

أما القاضى أبو بكر العربى فقد أنكر ما قيل من أن معاوية قد دس السم للحسن — رضى الله عنهما — وقال : هذا محال من وجهين :

احدهما : أنه ما كان ليتقى من الحسن بأساً وقد سلم الأمر إليه .

الثانى : أنه أمر مغيب لايعلمه إلا الله ، فكيف تحملونه بغير بينة على أحد من خلقه ، فى زمان متباعد ، لم نثق فيه بنقل ناقل ، بين أيدى قوم ذوى أهواء ، وفى حالة فتنة وعصبية ، ينسب كل واحد إلى صاحبه مالا ينبغى ، فلا يقبل منها إلا الصافى ، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم »(١) .

وعرض ابن تيمية لما تزعمه الشيعة من أن معاوية سم الحسن — رضى الله عنهما — فقال :

« لم يثبت ذلك ببينة شرعية ، ولا اقرار معتبر ، ولا نقل يجزم به ، وهذا مما لا يمكن العلم به ، فالقول به قول بلا علم »(٢) . وبعد أن ذكر أن الحسن مات بالمدينة ، وأن معاوية كان بالشام ، أورد للخبر — على فرض صحته — احتمالات ، منها أن الحسن — رضى الله عنه — كان مطلاقاً ، لا يدوم مع أمرأة .

وقد أورد الحافظ ابن كثير عدة روايات — نذكر منها :

١ — ما رواه أبو بكر بن أبى الدنيا ، وفيه أن الحسن بن على — رضى الله عنهما قال « لقد لفظت طائفة من كبدى أقلبها بهذا العود ، ولقد سقيت السهم مراراً ، وما سقيت مرة هى أشد من هذه . . فجاء حسين — رضى الله عنه — حتى قعد عند رأسه فقال : أى أخى من صاحبك ؟ قال : تريد قتله ؟ قال نعم ! قال : لئن كان صاحبى الذى أظن ، لله أشد نقمة ، وأشد بأساً وأشد تنكيلا ، وإن لم يكنه ، ما أحب ان تقتل بى بريئاً (٣) .

---

(١) العواصم من القواصم ، للقاضى أبى بكر بن العربى : ص ٢١٤ .
(٢) منهاج السنة : لابن تيمية : ٢ / ٢٢٥ .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٤٢ .

٢ — ما رواه الواقدى عن عبد الله بن حسن قال : « كان الحسن بن على كثير نكاح النساء ، وكان قل ما يحظين عنده ، وكان قل أمرأة تزوجته إلا أحبته وضنت به ، فيقال انه كان سقى سماً ثم أفلت ، ثم سقى فأفلت ، ثم كانت الآخرة التى توفى فيها ، فقال الحسين — رضى الله عنه — : يا أبا محمد : أخبرنى من سقاك ؟ . . فقال : « يا أخى : إنما هذه الدنيا ليال فانية ، دعه حتى التقى أنا وهو عند الله » وأبى أن يسميه . وقد سمعت بعض من يقول : كان معاوية قد تلطف لبعض خدمه أن يسقيه سماً[1] ! ! .

٣ — ما رواه محمد بن سعد عن المغيرة عن أم موسى ، قالت : « أن جعدة بنت الأشعث ابن قيس ، سقت الحسن السم ، فاشتكى منه شكاة ، فكان يوضع تحته طشت ويرفع آخر ، نحواً من أربعين يوماً » . وروى بعضهم أن يزيد بن معاوية ، بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سمى الحسن وأنا أتزوجك بعده ، ففعلت ، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال : انا والله لم نرضك للحسن ، افنرضاك لأنفسنا[2] ؟

وقد عقب ابن كثير على ما نسب إلى يزيد بقوله : « وعندى أن هذا ليس بصحيح ، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى » .

أخذ بعض المعاصرين بالشبهات :

ومن اعجب العجب : أنه مع وضوح التناقض فى هذه الروايات من ناحية ، وغموضها من ناحية أخرى ، وانصراف كثير من ثقات المؤرخين عن الأخذ بها : فإن بعض المعاصرين قد استساغوا ترددها ، وتولوا كبرها ، دون ما دليل يقدمونه على صحتها ، بل على عكس ذلك : تجاهلوا — عن قصد — كل الشواهد العقلية والنقلية التى تهدمها ، وترمى بهما إلى قرار سحيق .

من هؤلاء : من قال فى حديثه عن معاوية — رضى الله عنه :

« وزاد على ذلك — كما تواتر فى شتى الروايات — أنه أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسمه ، ووعدها أن يزوجها يزيد ، ويعطيها مائة ألف ، فوفى بوعد المال ، ولم يوف بوعد الزواج »[3]

ومن هؤلاء : صاحب « الفتنة الكبرى » الذى يقول فى هذا الصدد :

« فأما الشيعة : فيرون أن معاوية قد دس إليه من سمه ، ليخلو له ولابنه وجه الخلافة ، وأما مؤرخو الجماعة من أهل السنة : فيروون ذلك ، ويكثرون من روايته . . ، ولكنهم لايقطعون به ، ومن المحدثين من يرويه ، ولكنه يراه بعيداً ، لا لشىء إلا لأن معاوية قد صحب النبى ، فلا يليق به أن يأتى مثل هذا الأمر البغيض »[4] . . ثم يقول بعد ايراد قصة بنت الأشعث وتحريض معاوية لها لتدس السم للحسن : « ومنهم من يزعم أنه وعدها أن يتخذها لنفسه زوجاً ، فلما مات الحسن : وفى لها معاوية بالمال ، وكره ان يتزوجها مخافة أن تفعل به ما فعلت بالحسن . . ، وبعض المؤرخين يرون ان معاوية اختار لسمه قرشية هى هند بنت سهيل بن عمر »[5] .

(١ ، ٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٤٣ .

(٣) أبو الشهداء ، للأستاذ عباس محمود العقاد : ١٩ .

(٤) الفتنة الكبرى (على وبنوه) للدكتور طه حسين : ٢ / ١٩٢ .

(٥) المصدر السابق : ٢ / ١٩٣ .

دحض أوهام المعاصرين :

ومع أنه من أيسر الأمور على أى باحث منصف أن يصل باستعراضه لما سبق ايراده من الروايات وغيرها ، إلى نبذها جملة وتفصيلا ، للأسباب التالية :

١ — عدم تأكد الحسن نفسه — رضى الله تعالى عنه — من الفاعل الذى دس السم له — على فرض صحة الواقعة ولذلك دفعه ورعه إلى عدم اتهام أى أحد ، مخافة أن يقتل الحسين — رضى الله عنه — بريئاً ؛ وفى هذا وحده ما يكفى لهدم كل اتهام موجه إلى أى كان .

٢ — الاختلاف حول المتهم بدس السم ، وهل هو خادم الحسن بن على رضى الله عنهما — كما جاء فى بعض روايات الواقدى؟ أم جعدة بنت الأشعث ؟ كما جاء فى رواية محمد بن سعد ، أم هند بنت سهيل بن عمر ، التى ذكرها صاحب الفتنة الكبرى ؟ . .

٣ — الاختلاف حول المحرض على دس السم ، وحول الغرض المنشود من ذلك ، وهل كان المحرض معاوية بقصد ان يخلو له ولابنه وجه الخلافة ، كما جاء فى بعض المزاعم ؟ . : أم بقصد زواجه من بنت الأشعث ، كما جاء فى مزاعم اخرى ؟ أم بقصد تزويج ابنه منها ؟ أم كان المحرض هو يزيد نفسه ، بقصد زواجه من بنت الأشعث ؟

رد مزاعم « صاحب الفتنة الكبرى » :

نقول مع كل ذلك ، فإن صاحب « الفتنة الكبرى » يأبى كعادته إلا أن يعرض الأوهام والشبهات ، ثم يعود فيشير إليها بصورة توهم القارىء بأنها ان لم تكن من الحقائق الثابتة ، فهى أقرب ما تكون إلى ذلك إذ يقول :

« ولست أقطع بأن معاوية قد دس إلى الحسن من سمه ، ولكنى لا أقطع كذلك بأنه لم يفعل ، فقد عرف الموت بالسم فى أيام معاوية على نحو غريب مريب ، . : مات الأشتر — فيما يقول المؤرخون — مسموماً فى طريقه إلى ولاية مصر ، فخلصت مصر لمعاوية وقال معاوية وعمرو : « إن لله لجندا من عسل » ومات عبد الرحمن بن خالد مسموماً بحمص فى خبر طويل : . ، ومات الحسن بين هذين الرجلين مسموماً كذلك فى أكبر الظن ، وخلصت الخلافة لمعاوية وابنه يزيد »(١) .

وبصرف النظر عن أنه يكفى فى دفع هذه التهمة الشائنة عن معاوية — رضى الله عنه — بعض ما سبق أن أوردنا من أقوال المحققين ، وأوضحناه من أسباب الخلل فى الروايات : :

وبصرف النظر عن أن صحبة معاوية — رضى الله عنه — للنبى صلى الله عليه وسلم تكفى وحدها لجعله فوق الشبهات ، رغم أن صاحب « الفتنة الكبرى » لا يؤمن فى قرارة نفسه بقيمة هذه الصحبة فى إثبات

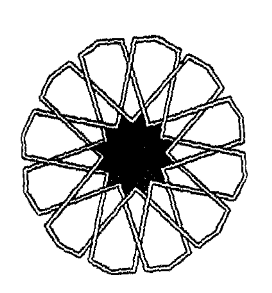
---

(١) الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين : ٢ / ١٩٣ .

العدالة ودفع الشبهات ، حتى أنه ليهون من شأنها بقوله « ومن المحدثين من يرويه ولكنه يراه بعيداً ، لاالشيء إلا لأن معاوية قد صحب النبي ، فلا يليق به أن يأتي مثل هذا الأمر البغيض »(١) :

بصرف النظر عن كل ذلك : فإنا لا ندرى كيف استطاع صاحب « الفتنة الكبرى » أن يجد في موت نفرين أو ثلاثة ، خلال عشرين عاماً ، في دولة مترامية الأطراف كالدولة الأموية ، دليلا على « أن السم قد عرف في أيام معاوية على نحو غريب مريب» : : بل دليلا على استعمال معاوية لهذا السلاح للتخلص من منافسيه في الولاية أو الخلافة ! ! بدلا من أن يكون ذلك دليلا على استقرار الأمور ، واستتباب الأمن ، واطمئنان الناس على أرواحهم ؟ !

إن مثل هذا المنطق العجيب لايستطيعه إلا أمثال هؤلاء الذين نزل فيهم قول رب العالمين تبارك وتعالى : « فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله »(٢) .



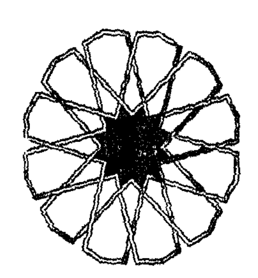
(١) المصدر السابق : ٢ / ١٩٣ .

(٢) سورة آل عمران : آية ٧ .

الفصل الثامن عشر

« وورث سليمان داوود .. » .

(قرآن كريم)



توريث الملك بدعة لم يبحها كتاب ولا سنة !

آراء لبعض المعاصرين :

يزعم بعض الكتاب المعاصرين ، أن معاوية — رضى الله عنه — حين عهد إلى ابنه بولاية العهد ، قد استحدث فى المسلمين بدعة جديدة ، طالما أنكروها من قبل ، وهى توريث الملك ، الذى لم يبحه كتاب ولا سنة ، ولا عرف مألوف من صالحى المسلمين»[١] ويرى البعض الآخر : « إن الدولة انتقلت بذلك من نظام الخلافة الذى يعتمد على الشورى ، ويستند إلى الدين ، إلى النظام الملكى الذى يقوم أساساً على التوريث ، ويستند إلى السياسة أولا ، وإلى الدين ثانياً »[٢] . . إلى غير ذلك من الأقوال المتشابهة .

ولم يوضح لنا صاحب القول الأول — دكتور طه حسين — كيف كان توريث الملك بدعة طالما أنكرها المسلمون ؟ ومتى أنكر المسلمون ذلك ؟ مع أن هذه هى المرة الأولى التى عهد فيها الخليفة إلى ابن من أبنائه ؟ !

كما أنه لم يأت بنص واحد من الكتاب والسنة ، تثبت التحريم الذى يزعمه :

أما قول صاحب الرأى الثانى — دكتور حسن ابراهيم — أن النظام الملكى الذى انتقلت إليه الدولة — حين عهد معاوية إلى يزيد — يقوم أساساً على التوريث ، ويستند — بعكس نظام الخلافة — إلى السياسة أولا ، وإلى الدين ثانياً ، فهو قول يحتاج إلى مراجعة وتمحيص .

حكم الاسلام فى توريث الملك :

وردنا على الدكتورين ، ومن نحا نحوهما من المعاصرين يتلخص فيما يلى :

أولا — أن الإسلام — كما أوضحنا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب لايتعارض مع تولية الأبناء للخلافة ، متى توفرت فيهم الصلاحية اللازمة لذلك ، وهو ما كان يظنه معاوية — رضى الله عنه — فى ابنه ، كما أن من الجائز العدول عن الفاضل إلى المفضول ، درءاً لمفسدة متوقعة ، أو ضماناً لمصلحة مرجوة ، وهو ما كان يستهدفه معاوية — رضى الله عنه — درءاً للخلاف ، وحرصاً على وحدة الأمة ، كما أن الصحابة — رضى الله عنهم أجمعين — لم ينكر أحد منهم ما اقترحه المغيرة بن شعبة على عمر بن الخطاب من تولية ابنه عبد الله — رضى الله عنهما — ، ولا ما اقترحه جندب بن عبد الله على على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — من مبايعة ابنه الحسن — عليه السلام[٣] ، وإنما عدل كل منهما عن ذلك ، تورعاً وزهداً ، رضى الله عنهما وعن الصحابة أجمعين :

ثانيا — إن الإسلام — كما ذكرنا بالفصل الثالث — لم يرسم طريقاً معيناً لاختيار الخليفة : : ، وإنما ترك ذلك للأمة ، لتحدد الطريق الذى يتفق مع ظروفها ، لذلك : اختلفت السبل فى اختيار الخلفاء

---

(١) الفتنة الكبرى « على وبنوه » للدكتور طه حسين : ٢ / ٢٢٧ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى والدينى . . للدكتور حسن ابراهيم حسن : ١ / ٤٢٧ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ١٤٦ .

الراشدين ، ومن هنا فلا محل للانكار على معاوية ــ وهو الصحابى المشهود له بالعدالة والفقة والإجتهاد ــ لو أن اجتهاده أدى به إلى أن يسلك سبيلا يختلف عن السبل التى سلكها من قبله ، فكيف وهو لم يذهب بعيداً عن هذه السبل ؟ ! فإذا كان قد عين من يخلفه ، وعهد بذلك إليه ، فقد سبقه الصديق إلى ذلك حين عين عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنهما ــ ، وعهد إليه بالخلافة من بعده :

وإذا كان معاوية ــ رضى الله عنه ــ قد وقع اختياره على ابنه ، فقد بايع المسلمون قبل ذلك الحسن خليفة لوالده رضى الله عنهما . . ، وقد سبق أن ذكرنا ما قاله ابن خلدون فى هذا الصدد ، من أن « حضور أكابر الصحابة بيعة يزيد ، دليل على انتفاء الريب فيه ، وأن الإمام لايتهم فى هذا الأمر وان عهد إلى أبيه أو ابنه ، لأنه مأمون على النظر لهم فى حياته ، فأولى أن لايتحمل فيها تبعة بعد مماته ، . . وأن فعل معاوية مع موافقة الناس له ، حجة فى هذا الباب »(١) .

ثالثا ــ أن معاوية ــ رضى الله عنه ــ حين عهد إلى يزيد ، لم يقرر أن توريث الملك هو الأساس الذى يلزم الأخذ به ، وإنما كان ذلك عن اجتهاد منه يستهدف صالح الأمة ، كما فعل الصديق حين عهد إلى الفاروق باجتهاد يستهدف صالح الأمة ، كما يظهر واضحاً فى خطابه إلى الناس ، الذى يقول فيه : « إنى لم آل الله رسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظنى به ، وعلمى فيه ، وإن بدل فلكل امرىء ما اكتسب ، والخير أردت» .(٢) ، وفى مثل هذا المعنى ، قال معاوية فى خطبة له بعد أن عهد إلى يزيد : « اللهم إن كنت تعلم أنى وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك ، فأتمم له ما وليته ، وان كنت وليته لأنى أحبه ، فلا تتم له ذلك »(٣) .

رابعا ــ أن نظام توريث الملك ــ وإن كان لايتعارض مع الإسلام ، فإن تسلسل الخلافة فى بنى أمية ، يدل على أنهم لم يلتزموه فى كل الحالات ، فإن معاوية بن يزيد أبى أن يعين من يخلفه ، وتولى بعده مروان بن الحكم ، وسليمان بن عبد الملك لم يعهد إلى أحد من بنيه ، بل عهد إلى عمر بن عبد العزيز ــ رضى الله عنه ــ لأهليته وصلاحه وتقواه .

خامسا ــ أن من المتفق عليه : أن الحلال هو ما أحله الله ورسوله ، وأن الحرام هو ما حرمه الله ورسوله ، وأن الأصل فى الأشياء الحل ، ما لم يرد نص بتحريمها ، وتوريث الملك أو الخلافة ــ الذى يزعم الواهمون أنه لم يبحه كتاب ولا سنة ــ قد جاء به كتاب الله تعالى فى قوله : « وَوَرِثَ سليمان داوود » . .(٤) قال ابن عطية « داود كان ملكاً ، وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوة »(٥) .

سادسا ــ أن التفرقة بين الخلافة والملك ، بزعم أن الأولى تعتمد على الشورى وتستند إلى الدين ، والثانى يستند إلى السياسة أولا وإلى الدين ثانيا ، . . هذا الزعم وهم لا أساس له ، لأن الإسلام نظام

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ٢١٠ و ٢١١ .
(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٣ / ٤٢ ، عيون الأخبار : ١ / ١٥ ، الكامل للمبرد ١ / ١٢ .
(٣) البداية والنهاية : ٨ / ٨٠ .
(٤) سورة النمل : آية ١٦ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٥ / ٢٥٨ .

متكامل ، ويشمل الدين الدولة ، ويجمع بين العبادة والسياسة ، وقد أوجب الإسلام الشورى فى جميع الحالات ، بصرف النظر عن شكل الحكم واسمه ، وقد أشاد الله تعالى فى كتابه بملوك بلغوا الذروة فى الصلاح والعدل ، حتى اصطفاهم الله فى عداد أنبيائه ، مثل داود عليه السلام ، وفيه يقول تعالى : « وآتاه الله الملك والحكمة »(١) . . قال السدى : آتاه الله ملك طالوت ، ونبوة شمعون(٢) ، ويقول أيضاً : « وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكمة . . وفصل الخطاب » (٣) أى النبوة والعدل فى الأحكام(٤) . ومثل يوسف عليه السلام الذى يقول مخاطباً ربه ، شاكراً لأنعمه : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وَلِيِّ فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين »(٥) .

كما أن تاريخ الإسلام ، ذكر لكثير من ملوك الإسلام سيراً عاطرة ، كمعاوية — رضى الله عنه ، وعمر بن عبد العزيز ، الذى بلغ من عدله وورعه : أن ألحقه البعض بالخلفاء الراشدين ، وغيرهما ممن نهجوا فى خلافتهم أو ملكهم نهج المتقين الصالحين ، والحكام العادلين .

سابعا — إن الإسلام لا يقيم وزناً للشكليات وإنما يقيم كل الوزن للجوهر فليس المهم شكل الحكم أو رسمه ، وإنما المهم جوهر الحكم وروحه ، فمادام الحكم فى حدود الإطار الذى أمر الله به فى قوله تعالى : « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » (٦) فسواء بعد ذلك كان الحاكم خليفة أو ملكاً أو سلطاناً ، فما دام سينهض بأعباء وظيفته فى إقامة أحكام الله ، وحمل الناس عليها ، ورعاية مصالح المسلمين ، فله حق السمع والطاعة ، أما إذا أمر بمعصية ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

رد الشـيخ العربى .. على الخضرى :

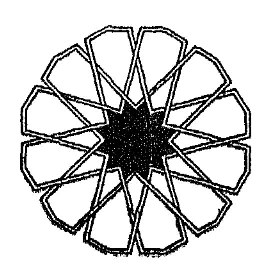
ومن أحسن ماكتبه المحققون الثقات فى هذا الصدد ، ما سطره العلامة الشيخ محمد العربى التبانى ردأ على فضيلة الشيخ محمد الخضرى فى قوله : « . . مما انتقده الناس — أى على معاوية رضى الله عنه — **أنه اختار ابنه للخلافة ، وبذلك سن فى الإسلام سنة الملك المنحصرة فى أسرة معينة بعد أن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش ، وقالوا : إن هذه الطريقة التى سنها معاوية تدعو فى الغالب إلى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة ، وتجعل فى أسرة الخلافة الترف والانغماس فى الشهوات »(٧) .**

وقد رد الشيخ العربى بقوله : « . . ولكنه — أى معاوية — صحابى مجتهد ، مقتد فيه فى الجملة بالشيخين رضى الله عنهما ، الصديق فى استخلافه الفاروق ، والفاروق فى استخلافه واحداً من ستة بعينه أهل الحل والعقد ، فإن قيل : ان الصديق لم يستخلف ابنه أو ابن عمه طلحة بن عبيد الله ، مع

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٥١ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ٣ / ٢٥٨ .
(٣) سورة ص : آية ٢٠
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٥ / ١٦٢ .
(٥) سورة يوسف : آية ١٠١ .
(٦) سورة المائدة : آية ٤٩ .
(٧) تاريخ الأمم الإسلامية : المحاضرة ٣٣ ص ٥٠٢ للشيخ محمد الخضرى .

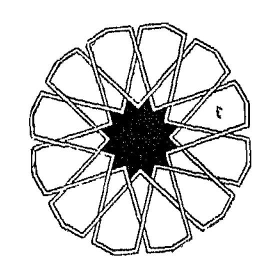
أهليتهما لها ، والفاروق لم يستخلف ابنه أو ابن عمه سعيد بن زيد ، مع أهليتهما لها ، قلت : أن الأمة فى عصر الشيخين ليست مثل الأمة التى كانت فى عصر معاوية ، فإن الأمة التى بيدها أزمة الأمور فى عصرهما ، أهل دين مكين ، واتحاد متين ، وكلها جسد واحد ، والأفاضل الذين فيهم أهلية الخلافة من غير قرابتهما من قريش كثيرون : : ، فلم يسوغ لهما دينهما واجتهادهما الصائب أن يستخلفا على أمة فاضلة ، المفضول من قرابتهما ، مع وجود الأفضل منه فى غيرها ، والأفاضل فى عصر معاوية مكثورون بالأمة التى جل ولاة أمورها مالوا إلى الدنيا ، فهم لا يريدون إلا صاحبها ، . والحجاز إذ ذاك وإن كان فيه كثير من أفاضل الصحابة وأبنائهم ، قرشيون وغيرهم ، فالشوكة التى يرفع بها عماد الخليفة فى مصرين : العراق والشام » . . ثم يقول : « لهذه الأمور التى يدركها من أمعن فى التاريخ . استخلف معاوية ابنه ، مع علمه بأن كل واحد من أبناء أكابر الصحابة القرشيين خير منه ، وكان يزيد ظاهر الاستقامة إذ ذاك ، وقد أرسله أبوه قائد جيش حاصر القسطنطينية ، والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، فلم يأل معاوية فى اجتهاد مصلحة المسلمين نصحاً »(١).

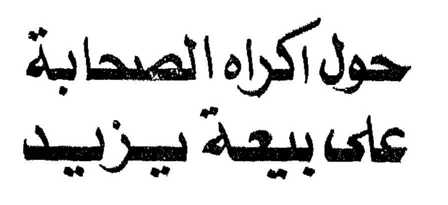


(١) افادة الأخيار ببراءة الأبرار : للعلامة الشيخ محمد العربى التبانى : ١ / ١٩٣ و ١٩٤ .

الفصل التاسع عشر

« •• فعدالة معاوية وصحبته مانعة من سوى ذلك ، وحضور أكابر الصحابة وسكوتهم عنه ، دليل على انتفاء الريب فيه .. ، وليسوا ممن تأخذهم فى الحق هوادة ، وليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق » .





بين معاوية وأكابر الصحابة :

ذكر بعض المؤرخين أن معاوية — رضى الله عنه — حين اعتزم مبايعة يزيد بالخلافة ، خرج إلى المدينة — وكان بها عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر ، رضى الله عنهم أجمعين ، فتركوها إلى مكة ، فخرج معاوية رضى الله عنه إليها ، وبعد أن قضى نسكه بها جمع ثلاثتهم ، وتحدث إليهم فى أمر يزيد ، فخيروه بين ثلاث خصال : أن لا يستخلف أحداً كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أن يعهد إلى رجل ليس من بنى أمية كما فعل أبو بكر رضى الله عنه . أو أن يحصر فى نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بنى أبيه كما صنع عمر ، فلما سمع منهم معاوية ذلك قال لهم :

« إنى أحببت أن أتقدم إليكم ، وأنه قد أعذر من أنذر ، إنى كنت أخطب فيكم ، فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح ، وإنى قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن رد على أحد منكم كلمة فى مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه » ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال : « أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد على . . كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما » ثم خرج وخرجوا معه ، حتى رقى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لايبتز أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله » . . فبايع الناس ، وكانوا يتربصون ببيعة هؤلاء النفر ، ثم ركب رواحله ، وانصرف إلى المدينة ، ثم إلى الشام .

أقوال المعاصرين عن الواقعة :

هذه رواية من الروايات العديدة التى ذكرها بعض المؤرخين لواقعة التهديد ، والتى سنوضح فيما بعد ، مدى الاختلاف والتضارب بينها ، ومع أن الراسخين فى العلم قد سبق لهم أن أثبتوا زيفها منذ مئات السنين ، فإن الكثيرين من المعاصرين ، قد عادوا إلى ترديدها ، دون إشارة إلى ما ذكره الراسخون فى العلم عنها . . ! !

وفى مقدمة من ردد هذه الرواية من السادة المعاصرين : فضيلة الشيخ محمد الخضرى أستاذ التاريخ الإسلامى بالجامعة المصرية[١] ، والأستاذ عباس محمود العقاد[٢] ، والدكتور حسن ابراهيم[٣] والدكتور طه حسين[٤] ، وغيرهم ، بخلاف بينهم فى الأشخاص الذين وجه التهديد إليهم ، وفى عددهم ، وهل كانوا ثلاثة أم أربعة ؟

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية لفضيلة الشيخ محمد الخضرى : ص ٥٠١ .

(٢) أبو الشهداء . . الحسين بن على للأستاذ عباس العقاد : ص ٣٠ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسى والدينى . . للدكتور ابراهيم حسن ابراهيم : ١ / ٢٨٣ .

(٤) الفتنة الكبرى : على وبنوه للدكتور طه حسين : ٢ / ٢٢٦ .

ومع أن بعض هؤلاء المعاصرين — كما يتضح من كلامه — فى ريب من صحة هذه الواقعة ، فإنه مع ذلك : رأى أن الإكراه المزعوم قد وقع بصورة ما ، حتى أنه ليقول :

« وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ، فالشيء المحقق : هو أن معاوية قد استكره هؤلاء النفر على الصمت ، بعد أن لم يستطع أن يستكرههم على البيعة »(١) .

ولا ندرى كيف تحقق لكاتبنا المعاصر أن معاوية قد استكره هؤلاء النفر على الصمت ، مع أن الروايات التى اعتمد عليها كانت موضع شك منه ، حتى أنه ليقول : « سواء صحت أو لم تصح » ؟

والذى لاشك فيه أن واقعة التهديد أو الإكراه على البيعة ، باطلة من أساسها ، عقلا ونقلا ، كما سنوضحه فيما يلى :

بطلان واقعة التهديد عقلا :

وهذا ثابت بما يأتى :

أولا — أن معاوية رضى الله عنه ، معروف بحسن السياسة وبعد النظر ، ولا يعقل مع ما ذكرناه أن يصل فى خلافه مع أكابر الصحابة — رضوان الله عليهم — إلى حد التهديد بالقتل ، كما أنه لايعقل أن يقبلوا منه ذلك التهديد المزعوم ، وهم الذين لا يخشون فى الله لومة لائم ، وفى هذا المعنى يقول العلامة ابن خلدون ، بعد أن ذكر أن معاوية عدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق الذى شأنه أهم عند الشارع : « وإن كان لا يظن بمعاوية غير ذلك ، فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك ، وحضور أكابر الصحابة وسكوتهم عنه ، دليل على انتفاء الريب فيه ، فليسوا ممن تأخذهم فى الحق هوادة ، وليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق »(٢) .

ثانيا — أن معاوية رضى الله عنه — بصرف النظر عن صحبته وعدالته — ليس من البساطة بحيث يظن أنه يستطيع إقناع الناس بأن هؤلاء النفر قد بايعوا مختارين على هذه الصورة التى سبق ذكرها ، كما أن الناس ليسوا جميعاً من البلاهة ، بحيث يصدقون قول معاوية ، فى الوقت الذى يرون فيه السيوف مسلطة فوق رأس كل من النفر المذكور ، ولا يعقل مع هذا وذاك ، أن يتصرف معاوية — رضى الله عنه — بهذه الصورة ، مع وضوح النتيجة العكسية لها فى النفوس .

ثالثا — أنه لاحاجة بمعاوية — رضى الله عنه — إلى تهديد أحد من الناس ، مهما قل عدد المعارضين لرأيه أو كثر ، كما أنه لاحاجة به إلى الادعاء أمام الناس بوقوع بيعة من لم يبايع ، لأن البيعة تتحقق شرعاً بأى عدد من الناس ، وفى هذا الصدد ، يقول القاضى أبو بكر العربى : « أن معاوية — رضى الله عنه — ترك الأفضل فى أن يجعلها شورى ، وألا يخص بها أحداً من قرابته ، فكيف ، وأن يقتدى بما أشار به عبد الله بن الزبير — رضى الله عنهما — فى الترك أو الفعل ، فعدل إلى ولاية ابنه ، وعقد له البيعة ، وتخلف عنها من تخلف ، فانعقدت البيعة شرعاً ، لأنها تنعقد بواحد ، وقيل باثنين »(٣) .

---

(١) الفتنة الكبرى لطه حسين : ٢ / ٢٢٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٢١٠ / ٢١١ .

(٣) العواصم من القواصم ، فى تحقيق مواقف الصحابة ، للقاضى أبى بكر بن العربى : ص ٢٢٢ .

بطلان واقعة التهديد نقلا :

وأما بطلان هذه الواقعة المزعومة نقلا ، فيتضح مما يلى :

أولا — لتعارضها مع العدالة الثابتة للصحابة — رضى الله عنهم أجمعين بالكتاب والسنة والإجماع .

أما كتاب الله : ففى مثل قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً »(١) . . وقد نزلت هذه الآية فى بيعة الرضوان ، وقد أخبر فيها المولى عز وجل برضائه عن المبايعين ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنهم لايدخلون النار»(٢) . وفى مثل قوله تعالى : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا» (٣) ، وقد نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد ، وفيها ثناء على من وفى بعهده حتى استشهد ، مثل حمزة وسعد بن معاذ وغيرهما ، وعلى من ينتظر الشهادة ، دون تبديل لما عاهدوا الله عليه .

فإن قيل إن هاتين الآيتين نزلتا قبل الحديبية ، التى أسلم معاوية — رضى الله عنه — بعدها ، قلنا : ان قوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » . . إلى آخر قوله تعالى « . . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » . . هذه الآية تشمل جملة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . . ومنهم معاوية — فضلا عن أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وأما سنة الرسول صلى الله عليه وسلم : ففى مثل قوله : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »(٤) .

وأما الإجماع : « فقد اتفق أهل السنة على أن جميع الصحابة عدول ، ولم يخالف فى ذلك إلا شذوذ من المبتدعة »(٥) . ويشمل هذا الإجماع « جميع الصحابة ، من لابس الفتن أو لم يلابسها »(٦) .

وهذا السبب وحده يكفى للحكم ببطلان هذه الواقعة ، وبطلان كل الوقائع المشابهة لها مما فيه مساس بعدالة الصحابة ، رضى الله عنهم ، الثابتة بكتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإجماع أهل السنة .

ثانيا — أن واقعة التهديد المزعومة ، قد تعددت الروايات بشأنها ، وتضاربت الأقوال حولها ، سواء فى كيفية وقوعها . . أم فى المكان الذى وقعت فيه . . أم فى الأشخاص الذين وجه التهديد إليهم . .

ولعل أبرز مثال لهذا التناقض ، الروايات الثلاث ، التى قدمها القاضى أبو بكر العربى ، ومع أنها جميعها منسوبة إلى راو واحد ، هو وهب بن جرير بن حازم عن أبيه وغيره ، فإنها يناقض بعضها بعضا :

---

(١) الفتح : آية ١٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى : ١٦ / ٢٧٦ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٢٤ .

(٤) أحمد والبخارى ومسلم والترمذى ، من حديث ابن مسعود رضى الله عنه .

(٥) الإصابة لابن حجر ، ١ / ٩ .

(٦) علوم الحديث : مقدمة ابن الصلاح رضى الله عنه : ص ١١٥ .

ففى الرواية الأولى :

أن معاوية لما دنا من المدينة ، صعد المنبر وذكر ابنه يزيد وقال : من أحق بهذا الأمر منه ؟ ثم قدم مكة ، فبعث إلى ابن عمر وابن الزبير وابن أبى بكر ، وكلم كلا على حدة ، ثم خرج إلى المسجد ، فأعلن أنهم قد بايعوا ، فقال أهل الشام :

« لا نرضى حتى يبايعوا على رءوس الأشهاد ، وإلا ضربنا أعناقهم » . . فاستنكر معاوية هذا القول وقال :

« ما أسرع الناس إلى الشر . . لا أسمع هذه المقالة من أحد بعد اليوم »(١) .

وفى الرواية الثانية :

أن معاوية خطب بالمدينة ، فذكر ابن عمر وحده ، وقال : « والله ليبايعن أو لأقتلنه » . . فلما قدم مكة سأله عبد الله بن صفوان : تزعم أنك تقتل ابن عمر إن لم يبايع لابنك ؟ فقال معاوية — رضى الله عنه — مستنكراً : أنا أقتل ابن عمر ؟ إنى والله لا أقتله »(٢) .

وفى الرواية الثالثة :

أن معاوية بعد أن قضى نسكه بمكة ، استأذن الثلاثة فى الدخول عليه ، ومعهم الحسين — رضى الله عنهم أجمعين ، فتكلم معهم فى أمر خلافة يزيد ، فعرضوا عليه الخصال الثلاث التى سبق الإشارة إليها ، ورد عليهم معاوية بالتهديد(٣) الذى ردده بعض المعاصرين فى مؤلفاتهم ، كما أشرنا آنفاً .

* * *

ويتضح لنا من التأمل فى الروايات المذكورة ما يأتى :

١ - أن الرواية الأولى : لم تذكر أى تهديد صدر من معاوية — رضى الله عنه بل على العكس من ذلك : ذكرت استنكاره لمقالة أهل الشام : من تلويح بضرب الأعناق ، ما لم تتم البيعة على رءوس الأشهاد .

٢ — أن الرواية الثانية : ذكرت أن التهديد وقع بالمدينة ، وكان موجهاً لابن عمر وحده ، وقد نفاه معاوية حين سئل عنه ، وأقسم مؤكداً ذلك .

٣ — أن الرواية الثالثة : هى التى جاء فيها ذكر التهديد ، لأربعة من كبار الصحابة — لا لثلاثة — بالصورة التى أوردناها كاملة فى أول البحث . فأمامنا روايتان تنفيان التهديد ، ورواية ثالثة تذكره ، والراوى واحد .

ثالثا — أن موقف كبار المؤرخين من هذه الواقعة ، كان متناقضاً فى كثير من النواحى كما سنوضحه فيما يلى :

---

(١) العواصم من القواصم : للقاضى أبى بكر بن العربى : ص ٢١٥ إلى ٢١٨ .
(٢) العواصم من القواصم : للقاضى أبى بكر بن العربى : ص ٢١٩ .
(٣) العواصم من القواصم : للقاضى أبى بكر بن العربى : ص ٢١٩ إلى ٢٢١ .

١ — عرض ابن قتيبة — ٢١٣ — ٢٧٦ هـ — التهديد المشار إليه ، فى صورة مسرحية هزلية تتلخص فى أن معاوية — رضى الله عنه — قدم المدينة ، واجتمع بالناس بالمسجد ، ومعه الخمسة الأكابر « ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وابن أبى بكر والحسين » — رضى الله عنهم أجمعين — فدعا إلى بيعة يزيد ، فاعترضه سيد شباب أهل الجنة — عليه السلام وجرت بين الاثنين مشادة ، تبادلا فيها عبارات غاية فى الشدة ، ثم أعلن معاوية بيعته ليزيد تفادياً للخلاف . . بعد أن انصرف : استدعى هؤلاء النفر ، فهددهم بالقتل ، فلما كان العشى ، ألبسهم حالا مختلفة الألوان ، فابن عمر حلة حمراء ، والحسين صفراء ، وابن عباس خضراء وابن الزبير يمانية ، وخرج معهم فأعلن لأهل الشام أنهم بايعوا وسلموا ، فلم يتكلموا حذر القتل(١) .

٢ — وأما الطبرى : ٢٢٤ — ٣١٠ هـ ، فإنه لم يذكر عن التهديد المزعوم شيئاً ، مع أنه يعنى كثيراً بأخبار وهب بن جرير — الذى نسبت إليه الروايات الثلاث المشار إليها — ومع أن الطبرى معروف بنقل كل ما وصل إليه من الأخبار ، بإسنادها(٢) . وهذا دليل على أن واقعة التهديد لم تثبت عنده .

٣ — وأما ابن الأثير : ٥٥٥ — ٦٣٠ هـ فقد ذكر أن التهديد المزعوم وقع من معاوية — رضى الله عنه — مرتين ، الأولى بالمدينة ، حيث خطب الناس ، وذكر يزيد ، وأنه الأحق بالخلافة ، ثم قال مهدداً : وما أظن قوماً بمنتهين حتى تجتث أصولهم ، وقد أنذرت أن أغنت النذر ، ثم دخل على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فشكا إليها من ذلكم النفر . فلما سألته : بلغنى أنك تهددهم بالقتل ؟ أنكر ذلك وقال : يا أم المؤمنين : هم أعز من ذلك ، ولكنى بايعت ليزيد ، وبايعه غيرهم ، افترين أن أنقض بيعة قد تمت ؟ قالت : فارفق بهم فإنهم يصيرون إلى ما تحب إن شاء الله . فقال : أفعل(٣) .

ويتابع ابن الأثير بعد ذلك حديثه عن معاوية فيقول : « ثم خرج إلى مكة ، فكان أول من لقيه الحسين فابن الزبير فعبد الرحمن بن أبى بكر ، فابن عمر ، فرحب بهم ثم دعاهم ليحدثهم فى أمر يزيد ،

---

(١) الإمامة والسياسة للإمام أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : ١ / ١٦٢ إلى ١٦٤ ، وقد انتقده القاضى أبو بكر بن العربى نقداً مراً ، حيث قال فى العواصم من القواصم : ص ٢٤٨ :

« ومن أشد شىء على الناس جاهل عاقل ، أو مبتدع محتال ، فأما الجاهل فهو ابن قتيبة فلم يبق ولم يذر للصحابة رسماً ، فى كتاب « الامامة والسياسة » إن صح عنه جميع ما فيه » . .

وجاء فى هامش الصفحة المذكورة ، من تعليق للسيد / محب الدين الخطيب ، تعقيباً على ما ذكر ابن العربى ما نصه : « أن مؤلف الامامة والسياسة يروى كثيراً عن اثنين من كبار علماء مصر ، مع أنه لم يدخل مصر ، ولا أخذ عن هذين العالمين ، فدل ذلك على أن الكتاب مدسوس عليه . (هامش ص ٢٤٨ من العواصم من القواصم) وهذا هو الأرجح .

(٢) للطبرى مكانة عالية لدى القاضى أبو بكر بن العربى حيث يقول فيه « لا تسمعوا للمؤرخ كلاماً إلا للطبرى » ص ٢٤٨ من العواصم من القواصم .

(٣) التاريخ الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٥١ .

فحبر وه بين الخصلات الثلاث ، السابق ذكرها . . ثم ذكر ابن الأثير باقي الرواية ، إلى أن انتهت بالتهديد الذي أشرنا اليه في أول البحث ، وأخذ به بعض المعاصرين(١) .

٤ — وأما ابن كثير : ٧٠٠ — ٧٧٤ هـ فقد أشار باختصار إلى أن معاوية لما اجتاز بالمدينة — مرجعه من مكة — استدعى كل واحد من هؤلاء الخمسة فاوعده وتهدده على حدة ، ثم خطب داعياً الناس إلى مبايعة يزيد ، وهؤلاء حضور تحت منبره ، لم يوافقوا ، ولم يظهروا خلافاً ، لما تهددهم وتوعدهم »(٢) .

تناقض شامل في الشكل والموضوع :

مما تقدم يتضح أن الخلاف حول واقعة التهديد المزعوم ، يشمل كل ما يتصل بها شكلا وموضوعاً :؛ كما نلخصه فيما يلي :

١ — في واقعة التهديد نفسها . فإن الطبري مثلا لم يقم لها وزناً ولم يشر إليها ، مع أنه أخذ بالرواية الثالثة لوهب بن جرير ، ولكنه وقف فيها عند عرض الخصال الثلاث على معاوية — رضي الله عنه — دون أي تهديد بعد ذلك ، في حين أخذ آخرون بوقوع التهديد .

٢ — في عدد الصحابة المهددين : فهم ثلاثة في الرواية الأولى لوهب بن جرير وكذا في الرواية الثالثة التي أخذ بها الشيخ الخضري والدكتور ابراهيم حسن ، وأربعة في الرواية الثانية لابن الأثير ، التي أخذ بها العقاد وطه حسين ، وخمسة عند ابن قتيبة وابن كثير :؛

٣ — في مكان الواقعة : فهو في الرواية الثالثة لوهب بن جرير : مكة المكرمة ، وقد تابعه على ذلك ابن الأثير في روايته الثانية ، وبهذا أخذ المعاصرون الثلاثة ، بينما قرر وهب بن جرير في روايته الثانية أن التهديد كان بالمدينة لابن عمر وحده ، أما ابن قتيبة ، وابن الأثير في روايته الأولى وابن كثير ، فقد قرروا أن التهديد المزعوم وقع بالمدينة .

٤ — في كيفية وقوع التهديد : فقد ذكر ابن قتيبة أن التهديد كان جماعياً ، يشمل صراحة ضرب رءوس الخمسة الأكابر ، ان تكلموا بتصديق أو تكذيب ، وتابعه على ذلك ابن الأثير في روايته الثانية ، وأكثر الكتاب المعاصرين ، في حين أن ابن الأثير في روايته الأولى بين أن التهديد لم يكن صريحاً ، وأن معاوية رضي الله عنه أنكر وقوعه ، أما ابن كثير فقد ذكر أن معاوية هدد كل واحد على حدة :

ثبوت عدم صحة الواقعة :

وعلاوة على ما تقدم : فإن الثابت — من مصادر التاريخ الكبرى : « أن ابن عمر ، وابن عباس » ،

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٥٢ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٨٠ .

حين قبض معاوية — رضى الله عنهم — وتولى يزيد : قدما إلى المدينة ، فأقاما أياماً ، فلما جاءت البيعة من البلدان ، تقدماً إلى الوليد بن عتبة — والى المدينة فبايعاه »(١) .

وقد سبق ذلك أن كتب يزيد إلى الوليد بن عتبة ، يأمره بأن يأخذ حسينا وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً حتى يبايعوا(٢) .

فكل هذا يدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء الأربعة لم يكونوا قد بايعوا قبل ذلك ليزيد ، فى عهد معاوية ، ولولا ذلك : ما عنى يزيد بالحرص على أخذهم أخذاً شديداً حتى يبايعوا ، ولم يذكر ابن عباس بكتاب يزيد ، لما عرف به من اعتدال ، ولصلاته الطيبة بمعاوية رضى الله عنهما . أما عبد الرحمن بن أبى بكر : فكان قد توفى قبل ذلك ، عام ثمان وخمسين من الهجرة .

وبقاء هؤلاء الأربعة دون مبايعة ، حتى وفاة معاوية ، ثم تقدم اثنين منهم للمبايعة طائعين بعد وفاته ، يدل على أن واقعة التهديد غير صحيحة .

وهم من ابن العربى :

وقد استشهد القاضى أبو بكر العربى بحديثين أوردهما البخارى ، للدلالة على أن ابن عمر — رضى الله عنهما — قد بايع ليزيد فى عهد معاوية ، راضياً ، فقال :

« . . وقد حسم البخارى الباب ، ونهج جادة الصواب ، فروى فى صحيحه : أن معاوية خطب ، وابن عمر حاضر فى خطبته ، فيما روى البخارى عن عكرمة بن خالد : أن ابن عمر قال : دخلت على حفصة ونسواتها تنطف(٣) قلت : قد كان من الأمر ما ترين ، فلم يجعل لى من الأمر شىء ، فقالت : « الحق فإنهم ينتظرونك ، وأخشى أن يكون فى احتباسك عنهم فرقة » فلم تدعه حتى ذهب ، فلما تفرق الناس : خطب معاوية فقال : من كان يريد أن يتكلم فى هذا الأمر ، فليطلع لنا قرنه ، فلنحن أحق به منه ومن أبيه . . قال عبد الله : فحللت حبوتى ، وهممت أن أقول : أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام ، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع ، وتسفك الدم ، ويحمل عنى غير ذلك ، فذكرت ما أعد الله فى الجنان »(٤) .

وهذا وهم من ابن العربى رحمه الله ، لأن هذا الحديث كان بعد يوم صفين ، ويتعلق بما وقع بين على ومعاوية رضى الله عنهما من الاتفاق على تحكيم أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص فى الخلاف بينهما ، إلى أن انتهى الأمر بإعلان عمرو بن العاص خلع على وتثبيت معاوية(٥) — رضى الله عنهما — ولا علاقة له اطلاقاً ببيعة يزيد .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٣٤٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٤٨ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ - ٣٣٨ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٨ / ١٤٦ .

(٣) قوله : ونسواتها تنطف : أى وذوائبها تقطر ماء .

(٤) العواصم من القواصم : للقاضى أبى بكر بن العربى : ٢٢٣ و ٢٢٤ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ - ٥٨ و ٥٩ ، شرح صحيح البخارى للقسطلانى : ٦ / ٣٢٥ .

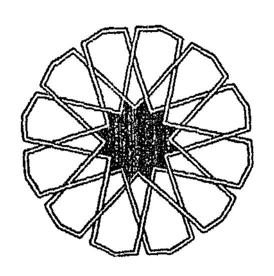
أما الحديث الثانى الذى ذكره ابن العربى عن البخارى فهو :

« أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد بن معاوية ، جمع ابن عمر حشمه وولده وقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة » . وأنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ، وإنى لا أعلم غدراً أعظم من أن نبايع رجلا على بيع الله ورسوله ، ثم ننصب له القتال وإنى لا أعلم أحداً منكم خلعه ، ولا بايع فى هذا الأمر ، إلا كانت الفيصل بينى وبينه »(١) .

فهذا الحديث — كما هو ظاهر من ألفاظه ، كان قبل وقعة الحرة سنة ثلاث وستين من الهجرة . وقد أثبتنا آنفاً أن ابن عمر وابن عباس قد بايعا يزيد عقب توليه الخلافة سنة إحدى وستين ، وهذا هو ما يقصده عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما بقوله : « وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله » ، ولا علاقة له — كما توهم ابن العربى — بالبيعة التى طالب بها معاوية لابنه قبل وفاته سنة ست وخمسين من الهجرة ، والتى رفض الخمسة إعطاءها ، فلم يوافقوا عليها ، ولم يظهروا خلافاً ، فتركهم معاوية على رأيه ، وتمت البيعة ليزيد ، دون حاجة إلى إرغامهم أو تهديدهم .

* * *

وبعد فالذى يعنينا من كل ما تقدم ، هو أن تضارب الروايات التى أوردها المؤرخون فى واقعة ما ، وتعارضها مع العدالة المشهود بها لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحتم علينا أن نضرب عنها صفحاً ، وعما يشابهها من الروايات والوقائع المدسوسة على نجوم الهداية فى خير أمة أخرجت للناس وأن نقف الموقف السليم الذى يحتمه الإيمان والعقل ، وتفرضه الأمانة العلمية بالرجوع إلى نصوص الكتاب الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإلى أحاديث الرسول العظيم ، الذى لا ينطق عن الهوى . . وإلى الآثار الثابتة عن الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين — بما يشهد بعدالتهم ، وسموهم فوق الشبهات .

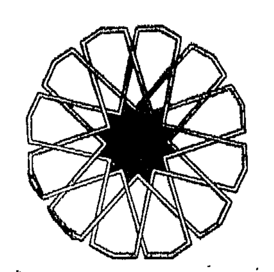


(١) العواصم من القواصم : للقاضى ابو بكر بن العربى : ٢٢٤ و ٢٢٥ . وحديث البخارى فى كتاب الفتن : باب إذا قال عند قوم شيئاً ثم خرج فقال بخلافه .

الفصل العشرون

« ان كل راع مسئول عن رعيته ، فانظر من تولى أمر امة محمد صلى الله عليه وسلم » .

« محمد بن حزم : من حديثه مع معاوية رضى الله عنهما » .



حول مشاورة الأمة فى بيعة يزيد

تضارب الأقوال حول المشـــاورة :

هل أستبد معاوية – رضى الله عنه – برأيه ؟ وهل أهمل مشاورة أهل الحل والعقد ، فيما يتعلق بولاية العهد لابنه يزيد ؟

لقد تضاربت أقوال السادة المعاصرين فى هذه الناحية ، تضارباً صارخاً : يكفى لإعطاء صورة عنه أن نورد فيما يلى الروايتين التاليتين :

الرواية الأولى : لفضيلة الشيخ محمد الخضرى ، حيث يقول : « . . وقد فعل معاوية ما يظهر معه أنه لم يستبد بالأمر ، دون الأمة ، فطلب وفود الأمصار ، فحضروا عنده وأجابوه إلى طلبته ببيعة يزيد ابنه »(١) .

الرواية الثانية : للدكتور طه حسين ، وفيها ينفى وقوع الشورى من معاوية – رضى الله عنه – فى أى صورة من صورها ، ولكنه يعود فيعترف بوقوعها ، ولكن من خاصة معاوية ، والطامعين فيه ، إذ يقول :

« . . وهو – أى معاوية رضى الله عنه – بعد ذلك لم يؤامر الأمة فيمن اختار لخلافتها ، على أى نحو من المؤامرة ، وإنما شاور قوماً من خاصته والطامعين فيه ، فكلهم أغراه بذلك وحببه إليه ، ولم يستطع أحد من خاصة الناس ولا من عامتهم أن ينكر على معاوية مما أراد شيئاً »(٢) ! !

ولم يذكر الدكتور – كعادة أكثر المعاصرين – المرجع الذى أستند إليه فى استنباط رأيه هذا ، وأغلب الظن أنه تخيل ذلك فظنه حقيقة واقعة ، كما سبق له أن تخيل استكراه أكابر الصحابة – رضى الله عنهم – على الصمت ، فظنه كذلك حقيقة واقعة ! !

ثبوت استشارة أكابر الأمة :

ونقول : إن ما تخيله الدكتور لا نصيب له من الصحة وإن كبار المؤرخين قد ذكروا عكسه تماماً ، وبينوا بوضوح أن معاوية – رضى الله عنه – قد استشار الكثيرين من أكابر الأمة – ولم يكونوا جميعاً من خاصته أو الطامعين فيه – فمنهم من وافق على البيعة ليزيد ، ومنهم من اعترض وطلب التريث فى الأمر ، فأخذ معاوية – رضى الله عنه – برأيهم ، ولم يبت فى أمر البيعة إلا بعد سنوات .

والثابت أن أول من أشار على معاوية بتولية يزيد ، هو المغيرة بن شعبة – أمير الكوفة – وإن معاوية وقف من هذه الفكرة موقف التريث ،فلم يبت فيها برأى ، بل أمر المغيرة بالعودة إلى الكوفة ، ونشر الدعوة إلى رأيه(٣) .

واستشار معاوية رضى الله عنه – بعد ذلك – زياد بن أبى سفيان ، أمير البصرة ، ومع أنه كان

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى : ص ٥٠٢ .

(٢) الفتنة الكبرى (على وبنوه) للدكتور طه حسين : ٢ / ٢٢٦ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٠٢ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٧٩ .

أقرب الولاة إليه ، فإنه لم يقره ولم يحبب إليه ذلك الرأى ، . . بل كره ذلك لما يعلمه من تهاون يزيد ، وما أولع به من اللعب والصيد ، فكتب إليه ينصحه بالتؤدة ، وألا يعجل ، . : وفى نفس الوقت بعث زياد إلى يزيد بمن ينصحه بترك ما هو عليه ، حتى يستحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس ، ويسهل له ما يريد : وقد قبل معاوية — رضى الله عنه — ذلك ، وكف يزيد عن كثير مما يصنع (١) .

وترك معاوية التفكير فى هذا الأمر حوالى ست سنوات ، توفى خلالها المغيرة بن شعبة سنة ٥٠ ، وتبعه زياد بن أبى سفيان سنة ٥٣ ، فلما كانت سنة ٥٦ بدأ معاوية — رضى الله عنه — يعيد التفكير فى الأمر ، حرصاً على وحدة الأمة ،وأخذ فى استئناف استشاراته لذوى الرأى ، من أكابر رجالات الدولة . :

وهكذا : استشار معاوية — رضى الله عنه — محمد بن عمرو بن حزم ، من أشراف المدينة ، فلم يقره على ذلك ، ولم يحببه إليه ، بل كلمه بكلام قوى ، وقال له :

« إن كل راع مسئول عن رعيته ، فانظر من تولى أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم »(٢) .

وما كان محمد بن عمرو بن حزم من خاصة معاوية ولا من الطامعين فيه — كما زعم صاحب « الفتنة الكبرى » — بل على العكس من ذلك ، كان من فقهاء المدينة ، وروى عنه كثير من الصحابة ، وكان أميراً للأنصار يوم الحرة ، واستشهد فيها .

استشار معاوية الأحنف بن قيس — رضى الله عنهما — فلم يقره على ذلك ، ولا حببه إليه ، بل قال له صراحة(٣) :

« إنا نخاف الله إن كذبنا ، ونخافكم إن صدقنا ، وأنت أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، وأنت أعلم به بما أردت ، وإنما علينا أن نسمع ونطيع ، وعليك أن تنصح للأمة ، . : فإن كنت تعلمه لله تعالى . . وللأمة رضا ، فلا تشاور فيه ، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك ، فلا تزوده الدنيا ، وأنت سائر إلى الآخرة »(٤) .

واستشار معاوية أكابر الصحابة بالمدينة — ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وابن أبى بكر ، والحسين رضى الله عنهم أجمعين — أولا عن طريق أميره بالمدينة — مروان بن الحكم(٥) . وثانياً : حين التقائه بهم فى رحلته إلى مكة ، وواضح أن جميع هؤلاء ليسوا من خاصة معاوية أو الطامعين فيه ، وقد اعترض هؤلاء الخمسة فى المرة الأولى ، وأصروا على موقفهم فى المرة الثانية ، فلم يوافقوا . . ولكنهم لم يظهروا خلافاً(٦) .

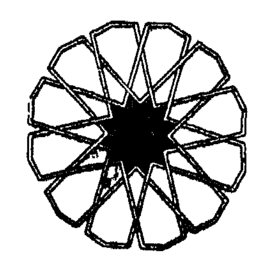
وهكذا اتسقت البيعة ليزيد ، ووفدت إليه الوفود من سائر الأقاليم (٧) .

* * *

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٠٣ ، الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٤٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٧٩ .
(٢) الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٥٠ .
(٣) الاصابة لابن حجر : ٣ / ٤٧٦ .
(٤) الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٥٠ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٨٠ .
(٥) راجع الفصل الثالث : (٦ ، ٧) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٨٠ .

وفيما ذكرناه ، ما يكفى لإثبات أن مؤامرة الأمة ، فيمن تختار لخلافتها ، قد تحققت بما فيه الكفاية ، وأن معاوية ــ رضى الله عنه ــ عنى باستشارة أهل الحل والعقد ، من أكابر الصحابة ، ومن خيرة رجالات الأمة ــ لا من خاصته أو الطامعين فيه ، وأن هؤلاء لم يقروه ، ولم يحببوا إليه رأيه ، بل وقفوا منه موقف الناصح الأمين ، وأعلنوا رأيهم فى وضوح وصراحة .

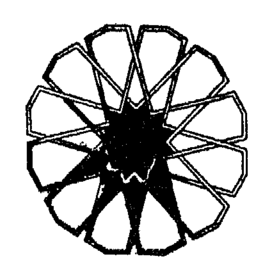
وقد أوضحنا فى الفصل الثالث من هذا الكتاب : أن معاوية رضى الله عنه ، وقد تمت الشورى كما يأمر بها الإسلام الحنيف ، فمن حقه أن يختار الاتجاه الذى يراه ــ فى نظره ــ متفقاً مع صالح الأمة ، وأنه وإن أخطأ فى الاختيار ، فله أجر المجتهد المخطىء ، وإن أصاب : فله أجران وليس لأحد بعد ذلك : كائناً من كان ــ أن يتعدى هذا الحد ، إلى افتراضات وأوهام لا أساس لها من الصحة والواقع .



الفصل الحادى والعشرون

« والله لأن أقتل خارجا منها بشبر ، أحب الى من أن أقتل داخلا منها بشبر ، وأيم الله لو كنت فى جحر هامة من هذه الهوام ، لاستخرجونى حتى يقضوا فى حاجتهم ، والله ليعتدن على كما اعتدت اليهود فى السبت » .

« الحسين عليه السلام »



قضية القضايا: أو موقف الحسين رضى الله من البيعة والخلافة

الحقيقة .. بين الأقوال والأفعال :

هل امتناع الحسين – سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه – عن مبايعة يزيد بن معاوية ، وخروجه من المدينة المنورة ، قاصداً أم القرى ، حيث قضى بها بضعة أشهر ، خرج بعدها إلى الكوفة . . ، هل كان فى كل ذلك يستهدف الخروج على يزيد ، والوصول إلى تولى الخلافة بدلا منه ؟ .

أم أن امتناعه عن البيعة ، كان إبراء للذمة ، والتجاءه إلى مكة كان احتماء بالبيت الحرام من الذل والارغام ، وخروجه إلى الكوفة كان خوفاً من الأخذ ، وإشفاقاً من أن تستحل به حرمة البلد الحرام ؟ .

ومع أننا قد عرضنا لبعض نواحى هذه القضية ، فى مواضع مختلفة من الفصول السابقة ، إلا أننا قد آثرنا – لأهمية الموضوع وخطورته ، وخوض الكثير من الكتاب المعاصرين فيه بغير علم ، خوضاً شوهوا به الحقائق ، وقلبوا به الأوضاع – . . آثرنا أن نخصص لهذه القضية بابا قائماً بذاته ، نعرض فيه ما تفرق فى الفصول السابقة ، ونضيف إليه ما لم يسبق ذكره ، حتى تظهر الصورة فى النهاية واضحة جلية بإذن الله .

* * *

وأول ما يلاحظ الباحث عن الحقيقة ، إنه لايكاد يوجد خلاف بين أكابر علماء السير والتاريخ ، حول الأحداث الرئيسية لهذه الفترة ، وإن وجد : ففى حدود ضيقة لا تغير كثيراً من الواقع ، بينما نجد الخلاف يزداد اتساعاً فيما يتعلق بالأقوال والكتب والرسائل المنسوب صدورها إلى بعض الأشخاص أو الجماعات . . ولا مناص إزاء ذلك : من أن نعتمد على الأحداث والوقائع المتفق عليها ، أكثر من اعتمادنا على الأقوال والكتب والرسائل المختلف حولها ، بل إن من الطبيعى أن نتخذ هذه الأحداث والوقائع الثابتة ، أساساً للموازنة بين الأقوال والكتب والرسائل ، فما كان من الثانية متفقاً مع الأولى : كان أقرب إلى الصحة ، وأولى بالترجيح ، والعكس بالعكس .

ومن ناحية أخرى : فإن الأقوال والكتب والرسائل المختلف حولها ، منها ما كان صدوره من بعض الصحابة والتابعين فى حديثهم مع الحسين – رضى الله عنه وعنهم – ومنها ما كان صدوره من بعض جماعات الشيعة بالكوفة ، فى كتاباتهم إلى سيد شباب أهل الجنة عليه السلام ، وهذه وتلك قد تتضمن من المعانى والخواطر والظنون ، مالا يتفق مع الواقع ، ولذلك : لا يصح أن تتخذ حجة على الحسين – رضى الله عنه – ما لم تؤيدها أقوال صدرت عنه ، أو تصرفات وقعت منه .

ومن هذه الأقوال والكتب ما كان صدوره من الحسين– عليه السلام – فى رده على بعض نصائح وأقوال محدثيه ، أو فى إجابته على بعض الكتب والرسائل المرسلة إليه ، وهذه بلا شك ، أولى بالاعتماد عليها ، والاستدلال بها فى استجلاء الحقائق ، وإزالة الغموض الذى يكتنف بعض الأحداث .

ومع أن الفاصل بين ما قيل للحسين – رضى الله عنه – أو كتب له ، . . وبين ما قاله أو كتب به ، واضح كل الوضوح ، وخاصة فى مصادر التاريخ الكبرى ، فإن بعض المؤرخين ، الذين جاءوا بعد

ذلك — قديما وحديثا — خلطوا بين الناحيتين ، فاعتبروا بعض ما قيل للحسين — عليه السلام — أو كتب إليه ، حجة عليه ، وتغافلوا عما يتعارض مع ذلك ، من أقوال الحسين — رضي الله عنه — وكتاباته وتصرفاته ، وكان من نتيجة ذلك : أن توهموا أن سيد شباب أهل الجنة — رضي الله عنه — كان يعمل في نطاق خطة تهدف إلى تولي الخلافة بدلا من يزيد ، لأنه الأحق بها ، ولأن يزيد اشتهر بما يمس عدالته ، ويطعن في أهليته .

ومن ناحية أخرى ، فإن بعض الكتب التي نسبت إلى الحسين — عليه السلام — ثبت أنها لم تصدر عنه ، وكمثال لذلك : ما روى في بعض كتب التاريخ من أن الحسين — رضي الله عنه — كتب إلى اشراف البصرة كتاباً جاء فيه .

« . . . أما بعد : فإن الله اصطفى محمدا على خلقه ، أكرمه بنبوته ، واختاره لرسالته ، ثم قبضه إليه وقد نصح لعباده ، وبلغ ما أرسل به ، وكنا أهله وأولياءه وورثته ، وأحق الناس به وبمقامه في الناس ، فاستأثر علينا قومنا بذلك ، فرضينا وكرهنا الفرقة ، ونحن نعلم أنا أحق بهذا الحق المستحق علينا ممن تولاه (١) » . . الخ ، فإن مثل هذه المزاعم والعبارات لا يمكن أن تصدر عن الحسين — رضي الله عنه — لذلك : فإن الحافظ بن كثير بعد أن ضمن تاريخه الكتاب المذكور : قال معقباً عليه :

« وعندي في صحة هذا عن الحسين نظر ، والظاهر أنه مطرز بكلام مزيد من بعض رواة الشيعة » (٢).

خطأ شـائع . . وفكرة واهمـة :

ومع أن الوهم بأن خروج الحسين — عليه السلام — كان يقصد المنازعة على الخلافة بعيد عن الحقيقة الواقعة ، ومع أن أهم كتب السير والتاريخ قد تضمنت من الأنباء الصادقة ، والروايات الصحيحة ، ما ينفيه تماماً ، ويهدمه من أساسه ، فقد تناقله كثير من الكتاب والمؤرخين ، قرناً بعد قرن ، حتى سرى بين الناس مسرى الخطأ الشائع ، والأسطورة المتواترة :

ولعل الدافع إلى انتشار هذه الأسطورة — مع عدم واقعيتها — هو أنه ليس فيها ما يستدعي الغرابة والإنكار ، أو ما يغض من كرامة الحسين — عليه السلام — ومقامه ، فهو بلا شك كان جديراً بالخلافة ، ولا مجال للمقارنة بينه وبين إجلاء الصحابة في ذلك الحين ، فكيف بمقارنته بمن لم يحظ بشرف صحبة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، بل كيف بمقارنته بيزيد نفسه ؟ ؟ . . ومن ثم فلو أن سيد شباب أهل الجنة — رضي الله عنه — كان حقاً يسعى إلى الخلافة ، فهو بذلك إنما كان يسعى إلى مصلحة عامة ولا شك فيها ، كما أن خروجه على يزيد ، إنما كان خروجاً في سبيل الله تعالى ، له ما يبرره من الأسباب ، وما يدعمه من الدوافع .

وحقاً : لقد كان الحسين أولى بالخلافة من يزيد ، كما كان الحسن أحق بها من معاوية . . . —

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبري : ٥ / ٣٥٧ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٥٧ .
(٢) البداية والنهاية : ٨ / ١٥٨ .

ـــ رضى الله عنهم أجمعين ـــ ولولا تنازله عنها ، زهداً فيها ، وحقناً لدماء المسلمين ، وتصديقاً لما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، لكان معاوية مخطئاً فى اجتهاده ، لو وقف من الحسن موقف المنازعة والخلاف .

تسامى الحسين عن مطامع الدنيا :

ولكن الحق شىء ، والواقع شىء آخر ، وقد يكون للحق مكانته وقيمته . ولكن الواقع قد يكون أسمى مكانة ، وأعلى مقاماً ، وهذه هى الصورة الصحيحة بالنسبة لسيد شباب أهل الجنة ـــ رضى الله عنه ـــ فإنه مع أحقيته بالخلافة ، كان زاهداً فيها ، عازفاً عنها ، ومع رفضه البيعة ليزيد ، وإصراره على الرفض ، ابراء للذمة ، ووفاء بحق الله ورسوله ، فإنه كان أبعد مايكون عن التفكير فى منازعة ، أو السعى إلى فتنة لا عن قصور منه أو ضعف ، فلو أراد الحسين ـــ رضى الله عنه ـــ لاجتمعت بإشارة منه الكتائب المتراصة ، تفتديه بكل مرتخص وغال ، ولكنه ـــ على عكس ذلك ـــ رفض نصرة الألوف التى عرضت عليه ، وكان فى كل المواطن يحث من حوله على النجاة بأنفسهم ، ليواجه وحده المصير المحتوم ، . وإنما كان ذلك تسامياً منه عن مطامع الدنيا ، وزهداً فى القتال عليها ، وهو . . هو الفقيه فى دين الله تعالى ، والعليم بمعنى قوله عز وجل :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً . . والعاقبة للمتقين »(١) . .
وبمعنى حديث جده الأعظم ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الذى يقول فيه :

« يا عبد الرحمن بن سمرة ، لاتسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها »(٢) . . وحديثه صلى الله عليه وسلم :

« إنا والله لا نولى هذا الأمر أحدا حرص عليه »(٣) .

الفارق .. بين الحق والواقع :

وقد لايظهر الفارق واضحاً لأول وهلة ـــ بالنسبة لهذه القضية ـــ بين الحق والواقع ، ولكن النتائج المترتبة على هذا الفارق فى النهاية ، ستكون أعظم من أن تغفل ، وأخطر من أن تتجاهل .

فإذا ثبت أن الحسين ـــ رضى الله عنه ـــ كان فى الواقع زاهداً فى الخلافة بعيداً كل البعد عن التفكير فى السعى إليها ، أو المنازعة عليها ، . . وأنه رفض كل نصرة عرضت عليه ، حرصاً على بقاء الفتنة محصورة فى أضيق نطاق ، وأنه كان يحث من صاحبوه على الانصراف عنه ، إيثاراً منه لأنفسهم على نفسه ، وحياتهم على حياته .

نقول : إذا ثبت ذلك : فإن مسئولية الذين تعمدوا احراجه بالمدينة ، حتى اضطر إلى الخروج منها ،

---

(١) سورة القصص : آية ٨٣ .
(٢) متفق عليه من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه .
(٣) متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

ثم تابعوه بمكة ، حتى تركها خوفاً من أن تستحل به حرمتها ، ثم طاردوه من مكان إلى آخر ، حتى حصروه فى كربلاء ، وقتلوه تقتيلا ، . . إن مسئولية هؤلاء ، تكون مسئولية عدوان أثيم ، مع سبق الإصرار والتدبير ، ولا مفر من إدانة المعتدين الإدانة التى تتفق مع فظاعة العدوان ، ودناءة التدبير ، فى حين يتبوأ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بهذا السلوك النبيل الذى يسمو فوق طبائع البشر ، أعلى قمة بين الشهداء الأبرار ، الذين كتبوا بتضحياتهم الغالية ، وأرواحهم الطاهرة ، الحياة الخالدة للمبادىء التى آمنوا بها ، والمثل العليا التى حرصوا عليها ، وجاهدوا دونها .

أما إذا كان سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — يستهدف فى خروجه سعياً إلى الخلافة ، أو مجاهدة بالقوة عليها ، فإن وصف الواقعة الأثيمة يتغير ، ومسئوليتها تصبح أمراً تقديرياً ، لا يصل فى خطورته إلى مستوى المسئولية فى الحالة الأولى ، بل قد تضيع المسئولية فى نظر بعض المحققين ، إذا نظروا إليها باعتبارها خروجاً على أمير قد وجبت طاعته ، بعد أن بايعه أكثرية الناس ، وفيهم معظم أهل الحل والعقد ، مما يعطى الأمير الحق فى مقاومة الخارجين ، والعذر فى قتالهم وقتلهم . .

وإلى هذا المعنى ، ذهب القاضى أبو بكر بن العربى ، ومن نحا نحوه ، حيث يقول :

« . . وذكر المؤرخون أن كتب أهل الكوفة وردت على الحسين ، وأنه أرسل مسلم بن عقيل — ابن عمه — إليهم ، ليأخذ عليهم البيعة ، وينظر هو فى أتباعه ، فنهاه ابن عباس . . وأعلمه أنهم خذلوا أباه وأخاه ، وأشار عليه ابن الزبير بالخروج فخرج ، فلم يبلغ الكوفة إلا ومسلم قد قتل ، فتمادى ، واستمر غضباً للدين ، وقياماً بالحق ، ولكنه — رضى الله عنه — لم يقبل نصيحة أعلم أهل زمانه ابن عباس ، وعدل عن رأى شيخ الصحابة — ابن عمر — وطلب الابتداء فى الانتهاء ، والاستقامة فى الإعوجاج ، ونضارة الشبيبة فى هشيم المشيخة ، ليس حوله مثله ، ولا له من الأنصار من يرعى حقه ، ولا من يبذل نفسه دونه ، فأردنا أن نطهر الأرض من خمر يزيد ، فأرقنا دم الحسين ، فجاءتنا مصيبة لا يجبرها سرور الدهر »[1] . .

ثم يقول القاضى أبو بكر بن العربى بعد ذلك .

« وما خرج إليه أحد إلا بتأويل ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل ، المخبر بفساد الحال ، والمحذر من الدخول فى الفتن ، وأقواله فى ذلك كثيرة ، منها قوله صلى الله عليه وسلم :

« أنه ستكون هناك هنات وهنات ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع ، فاضربوه بالسيف كائناً من كان »[2] . . فما خرج الناس إلا بهذا وأمثاله »[3] .

---

(١) العواصم من القواصم : للقاضى أبى بكر بن العربى : ص ٢٣١ و ٢٣٢ .
(٢) صحيح مسلم : كتاب الإمارة : باب حكم من فرق أمر المسلمين .
(٣) العواصم من القواصم : للقاضى أبى بكر بن العربى : ص ٢٣٢ .

خطأ القاضي ابن العربي فى حكمــه :

وقد جانب القاضى أبو بكر بن العربي الصواب فى عدة مواقع من أقواله ، مثل :

اولا ــ الحسين لم يطالب أهل الكوفة بالبيعــة :

يقول ابن العربي : إن الحسين ــ رضى الله عنه ــ أرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى أهل الكوفة ، ليأخذ عليهم البيعة ، فالواقع غير ذلك ، وكتاب الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة ، يوضح الغرض الذى استهدفه الحسين ــ رضى الله عنه ــ من إرسال ابن عمه ، إذ يقول فيه ، « وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى ، وثقتى من أهل بيتى ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم . . . »(١) الخ .

هذا هو ماكتب به ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى أهل الكوفة ، فلما جاءها مسلم ابن عقيل ــ رضى الله عنه ــ بايعه منها اثنا عشر ألفا ، وقيل ثمانية عشر ألفا ، . . والفارق كبير بين أن تكون هذه البيعة قد تمت بناء على سعى الحسين ــ رضى الله عنه ــ وطلبه ، كما خيل للقاضى أبى بكر بن العربي وغيره ، وبين أن تتم البيعة تلقائياً ، من هؤلاء الذين ظلوا بضعة أشهر يبعثون الوفود إلى سيد شباب أهل الجنة ــ رضى الله عنه ــ ويرسلون إليه مئات الكتب ، ويلحون عليه فى الخروج إليهم ، كل ذلك دون ما دعوة من الحسين رضى الله عنه ، أو طلب منه .

ثانيا ــ ابن الزبير لم يخدع الحسين رضى الله عنه :

يقول ابن العربي : « وأشار عليه ابن الزبير فخرج . . » . . والقاضى أبو بكر يشير بهذا إلى ما ذكر فى بعض مصادر التاريخ ، من أن ابن الزبير كان . . « لايزال يشير عليه ــ أى على الحسين رضى الله عنهما ــ بالرأى ، وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير ، قد عرف أن أهل الحجاز لايبايعونه . . ، ولا يتابعونه أبدا ، ما دام حسين بالبلد ، وإن حسينا أعظم فى أعينهم وأنفسهم منه ، وأطوع فى الناس منه . . »(٢) . . كما جاء فى روايات أخرى : أن سيد شباب أهل الجنة ــ رضى الله عنه ــ قال : « . . والله لقد حدثت نفسى بإتيان الكوفة » فقال له ابن الزبير ــ رضى الله عنه ــ : « أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلت عنها . . »(٣) .

ونقول : إن هذه الروايات تنقضها وتعارضها روايات أخرى بنفس المصادر ، تتفق مع ما هو ثابت للصحابة من عدالة ، توجب نبل الخلق ، وصدق النصيحة ، والإخلاص فى المحبة فى الله بعضهم البعض ، وكان الأولى بالقاضى أبى بكر بن العربي ، أن يأخذ بما ذكره الطبرى منها ، لا سيما وقد أوصى ــ أى ابن العربي ــ بأن لا نأخذ التاريخ إلا عنه ، فضلا عن أن ابن العربي قد عنى فى كتابه « العواصم من القواصم » بتحقيق كثير من مواقف الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ وتنزيههم عما لا يليق بشريف مقامهم : .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٥٣ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٥١ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٥١ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٨٣ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٦٠ .

فقد ذكر الطبرى : أن ابن الزبير قال للحسين — رضى الله عنهما :

« إن شئت أن تقيم أقمت ، فوليت هذا الأمر ، فآزرناك وساعدناك ، ونصحنا لك وبايعناك » . .
فقال له الحسين عليه السلام :

« ان أبى حدثنى أن لها كبشاً يستحل حرمتها ، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش »[1] !

وقد أورد ابن كثير فى تاريخه هذه الرواية ، وأضاف إليها رواية أخرى تعززها ، عن بشر ابن غالب ، وفيها : أن عبد الله بن الزبير قال لسيدنا الحسين رضى الله عنهما :

« أين تذهب ؟ إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك ؟ » . فقال له :

« لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلى من أن تستحل بى — يعنى مكة — » [2] .

فلماذا نأخذ بالرواية التى تتهم ابن الزبير بكراهية ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتسىء به الظن دون بينة ، ولا نأخذ بالرواية المعارضة لها ، مع كونها أقرب إلى التقوى ، إذ يظهر فيها ابن الزبير — رضى الله عنه — بالمظهر اللائق بما عرف عنه من إيمان وتقوى ، وزهد وورع ، وحب لله ورسوله ، وجهاد صادق فى سبيل إعلاء كلمة الله ، . . مظهر المشفق على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الحريص عليه ، العارف بفضله ومقامه ؟ ؟ . . لا سيما وأن الحسين نفسه — رضى الله عنه — قد أكد هذه الرواية ، فقد ذكر الطبرى : أنه بعد أن عرض ابن الزبير على الحسين — رضى الله عنهما الإقامة والمؤازرة : قال الحسين — عليه السلام — لمن معه .

« أتدرون ما يقول ابن الزبير » ؟ ؟ . . قالوا : لاندرى . . جعلنا الله فداك . فقال :

« قال : أقم فى هذا المسجد أجمع لك الناس ، . . والله لأن أقتل خارجا منها بشبر . . ، أحب إلى من أن أقتل داخلا منها بشبر » [3] .

ثالثا — البواعث الحقيقية لخروج الحسين :

وقد أغفل القاضى أبو بكر العربى — فى اتهامه لعبد الله بن الزبير بأنه هو الذى أشار على الحسين ، رضى الله عنهما . بالخروج — . . أغفل الأسباب الحقيقية التى دفعت بسيد شباب أهل الجنة — عليه السلام — إلى الخروج من مكة ، بعد التجائه إليها ، والتى ذكرها بوضوح ، فى حديثه إلى كل من ابن عباس وابن الزبير — رضى الله عنهما — وهى افتقاده الأمن فى مكة ، وخوفه من أن يؤخذ بها ، ويقتل فيها ، وتستحل بذلك حرمة البلد الحرام ، والبيت الحرام ، وهو ما يحرص — رضى الله عنه — كل الحرص على مفاداته ، وقد أقره على كل ذلك ، ابن عباس ، وابن الزبير ، وابن جعفر [4] ، رضى الله عنهم أجمعين .

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٨٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٦٦ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٦١ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٣٨٥ . (٤) راجع تفصيل ذلك بالفصلين الرابع والخامس .

رابعا – الحسين رضى الله عنه كان عليه نور من ربه :

يقول ابن العربى : « فلم يبلغ الكوفة إلا و مسلم قد قتل ، فتمادى ، واستمر غضبا للدين وقياماً بالحق » . ولا ندرى أى ضير فى ذلك ، على فرض صحته ، مادام ذلك غضباً للدين وقياماً بالحق ؟ وحاشا لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون تماديه لغير ذلك ، أو أن يسير على غير نور من ربه ، وبينة من رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك : فقد ثبت ان سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – أجاب من سأله عن سبب تعجيله بالخروج قبل إتمام شعائر الحج ، فقال له : « لو لم أعجل لأخذت » . كما ثبت أن أمير مكة أرسل فى أثره الفرسان ليحولوا دون مسيره ، ويرغموه على الرجوع ، لولا أن امتنع – رضى الله عنه – منهم ، فلم يقدروا عليه .

ولما لحق به عبد الله بن جعفر ومعه كتاب أمير مكة ، يؤمنه فيه ، ويعده الصلة والبر ، قال له الحسين عليه السلام : « أنى رأيت رؤيا . . ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى بأمر ، وأنا له ماض ، لى كان أو على » .

فكل هذا وغيره : يؤكد أن الحسين – رضى الله عنه – لم يواصل طريقه بعد علمه بمقتل ابن عمه مسلم ، إلا وهو على نور من ربه ، وإلا لأن لديه من الأسباب الظاهرة والخفية ، ما دفعه إلى مواصلة المسير ، ومنعه من التفكير فى الرجوع .

خامسا – أصحاب الحسين رضى الله عنه كانوا خير الأصحاب :

يقول ابن العربى بعد ذلك : « وطلب الابتداء فى الانتهاء ، والاستقامة فى الاعوجاج ، ونضارة الشبيبة فى هشيم المشيخة ، ليس حوله مثله ، ولا له من الأنصار من يرعى حقه ، ولا من يبذل نفسه دونه » . .

وهذا كله مخالف لما أجمعت عليه روايات المؤرخين الثقات ، عن أصحاب الحسين رضى الله عنه وعنهم ، وكيف شهد لهم الأعداء بأنهم فرسان المصر ، رغم قلة عددهم ، وتقدم سنهم ، حتى أنهم ما برز إليهم أحد – ليبارز واحداً منهم – إلا وصرعوه ، ولقد استمروا فى مقاومتهم لجيش يفوقهم فى العدد سبعين مرة ، ويتمتع أكثر أفراده بنضارة الشباب ، ومع ذلك : فقد نالوا منه ، وأثخنوه قتلا وجرحاً ، وطعناً وضرباً .

ولقد كانوا – رضى الله عنهم أجمعين – خير الأصحاب لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرف الناس بحقه ، ولقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه من نصرته ، وآثروا البلاء معه ، على السلامة بعيداً عنه ، والموت فى سبيله على الحياة بعده ، حتى استشهدوا جميعاً غير مفرطين ولا مبدلين .

ولقد أخبر سيدنا على – كرم الله وجهه – بعلو مقامهم ، فيما رواه ابن سعد وغيره ، أنه حين وصل كربلاء – فى مسيره إلى صفين – نزل وصلى عند شجرة هناك ، وقال :

« يقتل هنا شهداء ، هم خير الشهداء خير الصحابة ، يدخلون الجنة بغير حساب »(١) .

سادسا ـ قتلة الحسين كانوا من الرعاع الأجلاف :

يقول ابن العربى : وما خرج إليه أحد إلا بتأويل ، ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل ، المخبر بفساد الحال . . . الخ » .

وهذا القول يوهم أن الذين قاتلوا سيد شباب أهل الجنة ـ رضى الله عنه ـ وقتلوه ، وداسوا جسده الشريف بسنابك الخيل : كانوا من أهل العلم ، الذين بلغوا مرتبة الاجتهاد ، حتى استطاعوا أن يتأولوا أحاديث سيد المرسلين التأويل الصحيح ، وأن يجدوا فيها ما يبيح لهم مقاتلة ابن بنته ـ رضى الله عنهما ـ .. وقتله :

والثابت أن الجيش الذى أعد لمقاتلة الحسين ـ عليه السلام ـ كان أكثر أفراده من الرعاع ، الأجلاف ، ليس فيهم صحابى جليل ، ولا تابعى فقيه فى دينه ، وقد كان كبير القوم ـ عبيد الله بن زياد ـ أبعد من أن يوصف بأنه من أهل العلم والدين ، وإنما كان جباراً جهولا ، لا دين له ولاأخلاق ، وليس أدل على ذلك مما رواه مسلم فى صحيحه ، قال :

« دخل عائذ بن عمرو على عبيد الله بن زياد ، فقال : أى بنى : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن شر الرعاء الحطمة » فإياك أن تكون منهم ، فقال ابن زياد : اجلس ، فإنما أنت من نخالة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما النخالة بعدهم ، وفى غيرهم » ! !

كبار القتلة كانوا من السفهاء الجهال :

فانظر إلى أى مدى من السفه والجهالة يصل ابن زياد فى استهانته بالصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ؟ . . وإذا كان هذا هو شأن أمير القوم : فكيف بمن دونه من قادة الجيش وأفراده ، وهم الذين ما خرجوا لقتال الحسين ـ عليه السلام ـ عن تأويل أو فقه ، وإنما خرجوا رهبة من طغيان ابن زياد ، أورغبة فيما عنده من أمور الدنيا ، وعلى رأس هؤلاء : عمر بن سعد بن أبى وقاص ـ قائد الجيش ـ الذى خرج خوفاً من بطش ابن زياد ، وطمعاً فى ولاية الرى التى وعده بها . . ويليه شمر ابن ذى الجوشن ، الذى كان أشد القوم تحمساً فى التحريض على قتل الحسين ـ عليه السلام ـ والذى أخبر النبى صلى الله عليه وسلم إنه الكلب الأبقع الذى يلغ فى دماء أهل البيت . . ثم سنان بن أنس ، الذى احتز رأس الحسين ـ رضى الله عنه ـ وذهب به إلى ابن زياد يطالب بالأجر ! !

وهكذا : نجد أن البارزين من قتلة الحسين ـ رضى الله عنه ـ كانوا جميعاً من الرعاع الأجلاف ، فكيف بمن دونهم ، والكثير منهم كانوا ممن كاتبوه يدعونه للخروج ، ثم انقلبوا عليه ، وحاربوه ، ومثل هؤلاء وهؤلاء هم أبعد الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشدهم جهلا بحديثه ، ومع

(١) البداية والنهاية : للحافظ ابن كثير : ٨ / ١٩٩ .

ذلك : فإن القاضى ابا بكر بن العربى رحمه الله ، ذهب بعيدا فى حسن ظنه [illegible] ، فاعتبرهم [illegible]
من أهل التأويل الراسخين فى العلم ، حتى قال عنهم : « وما خرج إليه أحد إلا بتأويل » .

محاربة الحسين : محاربة لله ورسوله :

ولقد ذهب القاضى أبو بكر إلى أبعد من ذلك ، فى تبريره لموقف المحاربين لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ولا قاتلوه إلا بما سمعوا من جده المهيمن على الرسل . . » . . الخ ، ذلك لأن لجد الحسين صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصريحة ، ما يكفى بيان أن معاداة الحسين : معاداة لله ورسوله ، ومحاربته محاربة لله ورسوله ، وكفى بذلك إثما فى الدنيا ، وخزيا فى الآخرة ، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« لا يحب أهل البيت إلا مؤمن ، ولا يبغضهم إلا منافق »(١) .

وفيه حكم صريح بالنفاق على كل من اشترك فى قتال الحسين — عليه السلام — وأى بغض له أشد من حصاره ، ومنعه من الانصراف فى أى جهة ، حرصاً منهم على قتاله وقتله ؟ ؟

ومن ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « انا حرب لمن حاربكم ، سلم لمن سالمكم »(٢) . وقد كانت نهاية المعتدين على سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — أقطع دليل على شدة غضب الله ورسوله عليهم ، ومحاربتهما لهم ، حتى لم يبق أحد إلا وأصابه من نكال الله تعالى ونقمته ما أصابه .

بل أن النبى — صلى الله عليه وسلم — أوصى صراحة بالوقوف فى صف الحسين — رضى الله عنه — والعمل على نصرته . . لا على قتله . .

فقد روى أنس بن الحارث ، عن أبيه الحارث بن نبيه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم — والحسين فى حجره — يقول : « أن ابنى هذا يقتل فى أرض يقال لها العراق ، فمن أدركه فلينصره » . . فقتل أنس بن الحارث مع الحسين » . أخرجه أبو موسى (٣) .

وقد روى عن أنس بن الحارث أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يقل عن أبيه (٤) .
وجاء فى الإصابة :

« . . وقال البخارى : أنس بن الحارث قتل مع الحسين بن على سمع النبى صلى الله عليه وسلم . . ومنه :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أن ابنى هذا — يعنى الحسين — يقتل بأرض يقال

(١) ابن عساكر : من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .
(٢) رواة الإمام أحمد من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .
(٣ ، ٤) أسد الغابة فى معرفة الصحابة : لابن الأثير : ١ / ١٤٨ طبعة « دار الشعب » .

لها كربلاء ، فمن شهد ذلك منكم فلينصره » قال فخرج أنس بن الحارث إلى كربلاء ، فقتل بها مع الحسين »(١) .

فكيف تغاضى القاضى أبو بكر عن كل ذلك ؟ وكيف فاته أن الحسين ــ رضى الله عنه ــ ما خرج من المدينة إلا مكرهاً ، حتى لا يرغم على بيعة لا يرضاها ، أو يقتل ابن أبى . . وأنه ما خرج من مكة إلا خوفاً من أن يؤخذ بها ، واشفاقاً من أن تستحل حرمتها . . ثم لا يقف القاضى أبو بكر عند هذا الحد ، حتى يتهم سيد شباب أهل الجنة ــ عليه السلام ــ بمحاولة تفريق أمر الأمة ، ويلتمس العذر لقاتليه ، بأنهم استجابوا لأمر النبى صلى الله عليه وسلم : « فاضربوه بالسيف كائناً من كان » !

استنكار علماء السلف لرأى ابن العربى :

وقد أنكر كثير من أكابر علماء السلف رأى ابن العربى : ومن هذا : ما ذكره الحافظ السخاوى عن الحافظ الزاهد « النور الهيثمى » . . أنه كان يبالغ فى الغض من ابن خلدون ، لما بلغه عنه من ذكره للحسين بن على ــ رضى الله عنهما ــ فى تاريخه ، وقوله عنه : « قتل بسيف جده »(٢) .

وذكر السخاوى بعد ذلك : أن شيخه ــ الحافظ ابن حجر العسقلانى ــ قال : « ولما نطق شيخنا ــ يعنى النور الهيثمى ــ بهذه الكلمة ، أردفها بلعن ابن خلدون وهو يبكى »(٣) .

ومع أن ما توهمه الحافظان الكبيران : نور الدين الهيثمى ، وابن حجر العسقلانى ، أنه من أقوال ابن خلدون ، هو فى حقيقة الأمر من أقوال ابن العربى فى العواصم من القواصم ، فإن ذلك يعطينا صورة لمدى الخطأ الذى تردى فيه ابن العربى ، ومن قال بقوله ، حتى اضطر بعض العلماء إلى الغض من مكانته ، فضلا عن استباحتهم للعنه .

ومع أن العلامة ابن خلدون ، خالف القاضى أبا بكر بن العربى فى رأيه السابق ، وخطأه فيه ، حيث قال فى مقدمته :

« وقد غلط القاضى أبو بكر بن العربى فى هذا ، فقال فى كتابه الذى سماه بالعواصم من القواصم ، ما معناه : أن الحسين قتل بشرع جده ، وهو غلط حملته عليه الغفلة عن اشتراط الإمام العادل ، ومن أعدل من الحسين فى زمانه فى إمامته وعدالته ، فى قتال أهل الآراء ؟ » (٤) .

نقول : ان العلامة ابن خلدون رغم معارضته لرأى ابن العربى ، فإنه أكد الشبهة المزعومة بأن الحسين ــ عليه السلام ــ كان يقاتل أهل الآراء ، باعتباره الإمام العادل ، صاحب الحق فى الخلافة ، وأن خروجه إنما كان سعياً للوصول إليها .

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلانى : ١ / ٦٨ .
(٢) العواصم من القواصم : للقاضى أبى بكر بن العربى . ص ٢٣٢ .
(٣) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، للحافظ شمس الدين السخاوى : ص ٧١ .
(٤) مقدمة العلامة ابن خلدون : ص ٢١٧ .

وهكذا : تمثل هذه الآراء ، البعيدة عن الحق والصواب ، اصبحت المسئولية عن مقتل الحسين — عليه السلام — مسألة خلافية بين أكابر العلماء ، وذلك نتيجة طبيعية للاختلاف حول ملابسات الوقائع ، والبواعث الحقيقية لها ، حتى بلغ الأمر ببعضهم أن يعتبر خصوم الحسين — رضى الله عنه — قتلة سفاحين ، بينما يعتبرهم آخرون كابن العربى ، عاملين بما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم :

خطأ ابن خلدون فى دفاعه :

وقد أخطأ ابن خلدون — رحمه الله فى دفاعه خطأ بالغا ، لأنه وقع فيما وقع فيه غيره من عدم التفرقة بين الحق والواقع ، فأقام دفاعه عن سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — على أساس من الوهم ، هو أنه كان خارجاً على يزيد ، محقاً فى ذلك : حتى أنه ليقول :

« ولما حدث فى يزيد ما حدث من الفسق . . اختلف الصحابة حينئذ فى شأنه ، فمنهم من رأى الخروج عليه ، ونقض بيعته من أجل ذلك ، كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير — رضى الله عنهما — ومن اتبعهما فى ذلك . . » (١) .

الحسين رضى الله عنه — لم يبايع يزيد أصلا :

فالثابت أن الحسين — رضى الله عنه — لم يبايع أصلا ، لا قبل وفاة معاوية ولا بعد تولى يزيد ، فكيف يكون نقضه لبيعة لم تقع ، ولا وجود لها . . كما أن خروجه من المدينة ، كان فراراً من الإرغام ، واحتماء بالبيت الحرام ، كما سنوضحه فيما بعد .

واستمر ابن خلدون فى بناء استنتاجاته على وهم غير صحيح ، فقال بعد ذلك :

« ورأى الحسين أن الخروج على يزيد متعين من أجل فسقه ولا سيما من له القدرة على ذلك ، وظنها من نفسه بأهليته وشوكته ، فأما الأهلية : فكانت كما ظن وزيادة ، وأما الشوكة : فغلط — يرحمه الله — فيها . . » (٢)

وقد اخطأ ابن خلدون فى تصويره للموقف ، من نواح عدة ، نوضحها فيما يلى :

الحسين رضى الله عنه — لم يخرج على يزيد لفسقه :

إن خروج الحسين — رضى الله عنه — من المدينة ، لم يكن — كما توهم ابن خلدون — لأنه رأى انه تعين عليه الخروج على يزيد ، من أجل فسقه ، وإنما كان خروجه لأن والى المدينة طالبه بالبيعة ، وذلك تنفيذاً لأمر يزيد « بأن يأخذه أخذاً شديداً لا هوادة فيه حتى يبايع »(٣) ولأن مروان بن الحكم الذى كان حاضراً ، طالب بحبسه وضرب عنقه ، إن لم يبايع(٤) ، فكان خروجه من المدينة : اباء للإرغام ، وخوفاً من القتل ، حتى أنه ليعبر عن شعوره هذا حين خروجه منها بتلاوة قوله تعالى :

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٢ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢١٦ .
(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٣٨ ، الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٦٣ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٤٦ .
(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبري : ٥ / ٣٤٠ الكامل لابن الأثير : ٣ / ٢٦٤ ، البداية والنهاية لابن كثير : ١٤٧/٨ .

« فخرج منها خائفاً يترقب ، قال رب نجني من القوم الظالمين »(١) .

وقد ثبت أنه — رضى الله عنه — اتجه فى خروجه إلى الجنوب قاصداً مكة ، فلما التقى بواليها قال له : « جئنا عواذاً بالبيت »(٢) ، ولو أنه كان يستهدف الخروج على يزيد لاتجه إلى الشمال الشرقى حيث توجد الكوفة . ؟ وقد بينا تفصيل ذلك بالفصل الثالث .

كما ثبت أنه كان حين خروجه من المدينة ، لا يفكر فى أى شيء سوى الوصول إلى مكة ، طلباً للأمن الذى كان يتوقعه بها ، حتى أن عبد الله بن مطيع — رضى الله عنه — حين التقى به سأله : جعلت فداك . . أين تريد ؟ فأجابه سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — قائلا :

« أما الآن فإنى أريد مكة ، وأما بعدها فإنى استخير الله »(٣) .

ولقد كان خروجه من مكة ، بعد أن استقر بها أكثر من أربعة أشهر ، كان خلالها ملء الأسماع والأبصار « فأقبل أهلها يختلفون إليه ويأتونه ، ومن كان بها من المعتمرين وأهل الآفاق » . . كان خروجه من مكة : بسبب افتقاره الأمن بها ، وثقته أن القوم يدبرون خططهم لأخذه ، لمكانته فى النفوس ، ولعدم ارتياحهم لالتفاف القلوب حوله حتى أنه حين خروجه منها ثالث يوم التروية ، سأله الفرزدق : يا ابن رسول الله : ما أعجلك عن الحج ؟ قال رضى الله عنه : « لو لم أعجل لأخذت »(٤) .

وقد ثبت سوء ظن الحسين رضى الله عنه بالقوم ، فلم يكد خبر خروجه يبلغهم ، حتى حاولوا اعتراضه بالقوة ، لولا أن امتنع منهم امتناعاً شديداً (٥) .

خوف الحسين من أن تستحل البلد الحرام :

ولقد كان من أهم أسباب خروجه — عليه السلام — من مكة ، رغم كثرة الناصحين له بالبقاء فيها ، ورغم ما عرضه عليه عبد الله بن الزبير — رضى الله عنهما — من مبايعته له ، وموازرته ومساعدته ، هو خوفه من أن بقاءه بها قد يؤدى إلى هتك حرمتها ، ولذلك رفض ما عرضه ابن الزبير ، وقال له « لأن أقتل بمكان كذا أحب إلى من أن تستحل بى »(٦) بل أقسم لمن حوله — رضى الله عنه — أنه أحب إليه « أن يقتل خارجاً منها بشبر ، من أن يقتل داخلا منها بشبر »(٧) . ولقد أكد هذا المعنى ما روى عن عبد الله بن عباس ، عن أن الحسين — رضى الله عنهم جميعاً — قال له : «لأن أقتل فى مكان كذا وكذا ، أحب إلى من أن أقتل بمكة وتستحل بى » . . وقد أقر ابن عباس الحسين على رأيه ، إذ يقول : « فكان هذا الذى سلى نفسى عنه »(٨) .

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٤٣ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٤٨ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٥١ .

(٤) المصدر السابق : ٥ / ٣٨٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٦٧ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٨٥ .

(٦) البداية والنهاية : ٨ / ١٦١ .

(٧) تاريخ الطبرى : ٥ / ٢٨٥ .

(٨) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٥٩ .

الحسين لم يظن بنفسه شوكة ، ولم يحاول أن يوفرها :

وعليه : فإن ما توهمه ابن خلدون من أن الحسين رضى الله عنه ظن بنفسه الشوكة التى تمكنه من الخروج على يزيد ، ينقضه ما ثبت من أن الحسين خرج من مكة فى عدة من الرجال لا تتجاوز الثمانين ، ومثل هذا العدد لا يكفى للخروج على مدينة واحدة ، فكيف بدولة مترامية الأطراف ، كما أنه لم يحاول فى أى ظرف من الظروف أن يستكثر من الأعوان ، بل كان يعمل - فى كل مناسبة على العكس من ذلك ، كما تؤكده الحقائق التالية :

١ - أنه لما بلغه مقتل مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة وعبد الله بن بقطر بالكوفة : أعلن ذلك صراحة لمن معه ، قال لهم :

« خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف ، فلينصرف من غير حرج ، وليس عليه منا ذمام » . . فتفرق عنه الناس أيدى سبا ، يميناً وشمالا حتى بقى فيمن جاء معه من مكة (١) .

٢ - ولما عرض عليه الطرماح بن عدى نصرة عشرين ألف طىء ، يضربون بين يديه بأسيافهم ، ولا يوصل إليه ومنهم عين تطرف : رفض الحسين - رضى الله عنه - هذه النصرة الحاسمة ، وقال له : « جزاك الله وقومك خيراً »(٢) .

٣ - فلما كانت ليلة المعركة ، قال لمن معه : « هذا الليل غشيكم ، فاتخذوه جملا ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتى . . تفرقوا فى سوادكم ومدادكم حتى يفرج الله . . فإن القوم إنما يطلبونى . . ولو قد أصابونى لهوا عن طلب غيرى »(٣) .

ولو أن الحسين - رضى الله عنه - كان يريد قوة أو شوكة ، لمظاهرته فى الخروج على يزيد ، لدعا الناس لنصرته ، ولا ستجاب لدعوته الكثيرون ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل ، لأن الخروج على يزيد لم يكن على باله ، بل فعل عكسه ، فأخذ يحرض الناس على الانصراف عنه ، ورفض كل نصرة عرضت عليه ، وود لو بقى وحيداً حتى لا يصاب أحد بسببه ، وليس بعد ذلك من أسباب أقوى فى تبرئته من التهمة التى ألصقت به بغير حق . . تهمة الخروج على يزيد ، ومنازعته الخلافة .

خطأ ابن تيمية فى دفاعه عن يزيد :

وقد كان « ابن تيمية » ممن نهجوا نهج القاضى أبى بكر بن العربى ، فى موقفهم من هذه المأساة الأثيمة :

فمع وضوح الحقائق التى ذكرناها ، وثبوتها بالتحقيق التاريخى الصحيح فإنه قد اتخذ لنفسه موقف

---

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٩٩ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٦٩ .

(٢) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٤٠٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٧٤ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥/ ٤١٩ ، ٨ / ١٧٦ .

الدفاع عن يزيد ، فنفى عنه ما عرف من شربه للخمر ، ومقارفته للآثام ، ووصفه بالشجاعة والكرم ، وانتهى إلى تبرئته من مسئولية الجريمة الشنعاء ، إذ يقول :

« انه لم يأمر بقتل الحسين ولا أظهر الفرح بهلاكه ، ولكن أمر بدفعه عن الأمر ولو بقتاله »(١) ! !.

وآخر قول ابن تيمية ينقض أوله ! ! :

فأى أمر هذا الذى أمر يزيد بدفع سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — ولو بقتاله ؟ ؟

وأى خطر هذا الذى حفزه لإصدار هذا الأمر ؟! .

أهو خروج الحسين رضى الله عنه من مكة ، فراراً من الذل والإرغام ، فى حفنة من الناس لا يزيد عددها عن بضعة وسبعين شخصاً ، نصفهم من النساء والأطفال ؟ ؟

وهل هذه هى القوة التى يخشاها يزيد على دولته المترامية الأطراف حتى جعل كل همه التدبير لدفعها والقضاء عليها ؟

ألم يعرض ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم أن يدعوه يعود من حيث أتى ، أو يتركوه يضرب فى الأرض حتى يجعل الله له مخرجا . فأبوا عليه إلا التسليم والإذعان ؟ !

قد يكون حقاً أن يزيد بن معاوية لم يأمر صراحة بقتل الحسين ، ولكنه — باعتراف ابن تيمية — أمر بقتاله ، وقتال الحسين — مع الفارق الشاسع فى العدة والعدد بينه وبين مقاتليه ، معناه قتله دون شك ، بل معناه الإصرار على قتله . . فكيف وقد ثبت بعد ذلك أن يزيد لم يغضب لمقتل الحسين — رضى الله عنه — ولم يؤاخذ ابن زياد على فعلته المنكرة ، بل أبقاه فى ولايته على المصرين — البصرة والكوفة — وزاده انعاماً عليه . وقرباً منه ! !

فيالها من شجاعة . . ويا له من كرم ؟ !

امثلة من اوهام المعاصرين :

ولعل ما عرضناه آنفاً من آراء القاضى ابن العربى ، والعلامة ابن خلدون ، يعطى صورة كافية — تغنى عن غيرها من الآراء المتشابهة — عن النتائج الخطيرة التى ترتبت على عدم التفرقة بين الحق الذى لا لوم على سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — لو دعا إليه ، أو حرص عليه ، وبين الواقع الذى سما إليه ، وصدر فعلا عنه .

على أن هذا الفارق — بين الحق والواقع — لم يقف عند هذا الحد ، بل ازداد اتساعاً وخطورة ، بما أضاف إليه بعض المعاصرين فى كتاباتهم ، من استنتاجات ، لا تقوم على أساس من الصحة ، ومن أوهام بعيدة كل البعد عن الواقع . . حتى انتهى الأمر ببعض سيئى النية من متعصبة المستشرقين ، أنهم اتخذوا من كل ما تقدم ، وسيلة لتشويه الصورة الرائعة للمواقف النبيلة الخالدة ، التى وقفها سيد شباب

---

(١) الاسلام والحضارة العربية : محمد كرد على : ٣٩٧/٢ : عن الوصية الكبرى لابن تيمية .

أهل الجنة — رضى الله عنه وعن والديه وجده وأهل البيت أجمعين — حتى أنتهوا إلى وصفه بالحماقة سعياً وراء العرش ، ولو كان فى ذلك تقويض لكيان المجتمع ! !

وفيما يلى أمثلة لما تورط فيه بعض المعاصرين من استنتاجات وأوهام ، مع بيان ما فيها من تهافت وبطلان :

أوهام الشيخ الخضرى .. والرد عليها ..

هذا هو فضيلة مؤلف « تاريخ الأمم الإسلامية » . . تقوده ظنونه وأوهامه إلى نتائج خطيرة ، لا تقوم على أى أساس من الحقيقة والواقع ، منها :

أولا : أن الحسين — رضى الله عنه — « رمى بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط وظن بأهل العراق خيراً »(١) . . وردنا على ذلك أن الإسلام أوجب الشورى ، ولكنه لم يجعلها ملزمة ، وأن الحسين — رضى الله عنه — وقد استشار من ناحيته من رأى استشارتهم ، واستمع من ناحية أخرى لمشورة من نصحوه ، كما أنه استخار الله تعالى فى أمره ، فمن حقه بعد ذلك ، وهو الفقيه فى دين الله ، المجتهد فى تفهم مقاصده ، أن يختار الرأى الذى يراه متفقاً مع ظروفه ، وأقرب إلى التقوى(٢) .

ثانيا : « أن الحسين — رضى الله عنه — أخطأ خطأ جسيماً فى خروجه هذا الذى جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف ، وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا »(٣) . . ! !

وقد أثبتنا آنفاً أن خروج الحسين — رضى الله عنه — كان اضطراراً ، خوفاً من أن يؤخذ ، وإشفاقاً من أن يستحل به البلد الحرام ، ولو أنه ترك وشأنه فى المدينة ، أو فى مكة ، ما فكر فى الخروج من أى منهما ، وعلى ذلك : فإن تبعة كل ما حدث بعد ذلك ، تقع على الذين كانوا السبب الحقيقى فى إخراجه لا على الحسين رضى الله عنه (٤) .

ثالثا : « أنه لاينبغى لمن يريد عظائم الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية ، فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح ، أو يقرب من ذلك (٥) . . » .

وقد أجبنا على هذا الزعم فى ردنا على العلامة ابن خلدون ، وأثبتنا أن الحسين — رضى الله عنه — لم يفكر فى رفع سيفه أو الخروج بالقوة . . بل على العكس من ذلك : رفض كل نصرة عرضت عليه ، حرصاً على وحدة الأمة ، وضناً بدمائها أن تذهب سدى ، وحصراً للفتنة فى أضيق نطاق .

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى : ص ٥١٦ .
(٢) راجع الفصل الخامس من هذا الكتاب لمزيد من الإيضاح .
(٣) تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى : ص ٥١٧ .
(٤) راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب لمزيد من الإيضاح .
(٥) تاريخ الأمم الإسلامية للشيخ محمد الخضرى : ص ٥١٧ .

الحسين اغتر بأهل الكوفة .. !!

وقريب مما تقدم : ما ذكره صاحب « الإسلام والحضارة العربية ، حيث قال : « ولكن أهل الكوفة بعد أن خذلوا عليا وابنه الحسن ، عادوا يزينون للحسين بن على الرحيل إليهم ، ليعاونوه على اخراج الأمر من يزيد ، فاغتر بهم ، فلما بلغ كربلاء غدروا به ، وصاروا مع عبيد الله بن زياد — عامل يزيد — حتى قتل الحسين وأكثر آله بكربلاء »(١) .

وهذه المزاعم واضحة البطلان من نواح كثيرة ، منها :

أولا : أن الحسين لم يغتر بأهل الكوفة ، فقد كان على علم تام بطبيعتهم ، وسبق أن حذر أخاه — محمد بن الحنيفة — من الانخداع بهم . فلم يكن خروجه إليهم لثقته فيهم ، أو اعتماده عليهم ، فى إخراج الأمر من يزيد ، وإنما كان اضطراراً . تفادياً للخطر الذى يتهدده ، وحرصاً على حرمة البيت الحرام والبلد الحرام أن تهدر قدسيتهما .

ثانيا : أن الحسين لم يفاجأ — بعد وصوله كربلاء — بنقض أهل الكوفة لعهدهم ، وانحيازهم إلى ابن زياد ، فقد بلغه كل ذلك وهو فى منتصف الطريق ، وكان على علم به قبل وصوله بأيام ، فقد أخبر به من معه ، وأذن لهم بالانصراف عنه دون حرج . . واستمر بعد ذلك فى طريقه ، وليس معه سوى الحفنة التى صحبته من مكة ، فدل ذلك أنه لم يخرج اعتماداً على أهل الكوفة ، أو اغتراراً بوعودهم .

ثالثا : أنه بناء على ما تقدم ، فإن الزعم بأن الحسين استهدف من خروجه اخراج الأمر من يزيد ، هو زعم فاسد ، مصدره الجهل بمجريات الأمور ، أو غشاوة حالت دون الحقيقة والنور . .

اوهام العقاد .. والرد عليها ..

وهذا هو مؤلف « أبو الشهداء » .. يصل فى استنتاجاته إلى أن سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — كان ممن طالبوا بالخلافة ، وأنه عجل بالخروج من مكة لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته إلى ذلك ، وهذا هو نص ماكتبه :

« وانصرف الناس فى مكة إلى الحسين عن كل مطالب بالخلافة غيره ، فلبث فى مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين إلى الظهور ، وطلب البيعة »(٢) .

وآخر هذا القول يناقض أوله ، فإذا كان الناس قد انصرفوا إلى الحسين — عليه السلام — عن كل مطالب غيره بالخلافة ، فمعنى ذلك : أنه أعلن مطالبته بها ، حتى عرف الناس ذلك ، واتجهوا إليه ، فليس ثمة حاجة بعد ذلك ، إلى الظهور وطلب البيعة . . ! !

وقد سبق أن أثبتنا أن خروج الحسين — رضى الله عنه — كان إباء للبيعة التى طولب بها ليزيد ، وأن

(١) الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على : ٢ / ٣٣٧ .
(٢) أبو الشهداء : لعباس العقاد : ص ٧٦ .

مجيئه إلى مكة كان تفادياً من الأخذ واحتماء بالبيت ، وأنه حين وصل مكة لم يعان أنه جاء مطالباً بالخلافة ، بل قال صراحة : « جئنا عواذاً بالبيت »[١] .

ويقول مؤلف « أبو الشهداء » بعد ذلك :

« وخرج فى الثامن من ذى الحجة ، لا ينتظر العيد بمكة ، لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته إلى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان »[٢] .

ونقول : ان الحسين — رضى الله عنه — ظل أكثر من أربعة أشهر ، والوفود والكتب تتتابع عليه بالدعوة إلى الكوفة ، ومع ذلك : فإنه لم يقم لذلك وزناً خلال الأشهر الثلاثة الأولى ، إلى آن ظهر له أن الخطة تدبر لأخذه ، دون مبالاة بحرمة البيت الحرام والبلد الحرام ، كما سبق أن دبرت لأخذ ابن الزبير — رضى الله عنهما — ولو أدى الأمر إلى غزوه فى جوف الكعبة[٣] ، لولا حرصه على مقابلة البعوث الموجهة ضده خارج مكة ، وانتصاره عليهم ، فلما أيقن سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — من سوء نية القوم نحوه : عندئذ فقط اضطر إلى التفكير فى الخروج إلى الكوفة ، وكتب إلى من دعوه إليها ، يخبرهم بأنه أرسل إليهم ابن عمه — مسلم بن عقيل — ليكتب إليه بحالهم[٤] .

وهكذا : كانت مسارعة الحسين — رضى الله عنه — إلى الخروج من مكة ، لا بسبب أخبار البيعة التى كان حريصاً على اغتنامها قبل فوات الأوان — كما توهم مؤلف أبى الشهداء — وإنما كانت مسارعته لسببين : ذكرهما بنفسه بكل وضوح ، وهو الأدرى بما يجيش فى أعماق نفسه ، وهو الأقوم قيلا ، والأصدق حديثاً .

السبب الأول : ذكره — رضى الله عنه — قبيل خروجه بأيام فى حديثه مع ابن عباس — رضى الله عنهما — حيث قال له : « لأن أقتل فى مكان كذا وكذا ، أحب إلى من أن أقتل بمكة وتستحل بى »[٥] . ثم كرر ذلك يوم خروجه .

السبب الثانى : ذكره بعد خروجه من مكة الثامن من ذى الحجة ، لما التقى بالفرزدق ، فسأله عما أعجله ؟ فقال الحسين — رضى الله عنه : « لو لم أعجل لأخذت »[٦] .

ولو كان الحافز للحسين — رضى الله عنه — على تعجيل الخروج من مكة — كما توهم مؤلف « أبو الشهداء » هو ما بلغه من أنباء البيعة بالكوفة ، لكانت أنباء النكيثة [٧] والخذلان التى بلغت مسامعه وهو فى منتصف الطريق ، حافزة له على العدول عن سيره ، والرجوع إلى مكة . ولكنه مع ما بلغه

---

(١) البداية والنهاية : لابن كثير : ٨ / ١٤٨ .

(٢) أبو الشهداء : عباس العقاد : ص ٧٩ .

(٣) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٤٤ . (٤) المرجع السابق : ٥ / ٣٥٣ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٨٥ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٥٩ و ١٦١ .

(٦) تاريخ الرسل والملوك للطبرى : ٥ / ٣٨٦ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٦٧ .

(٧) النكيثة : أى الخلف للوعد .

من مقتل رسله ، وانقلاب الأوضاع ، استمر فى طريقه . . ولم يفكر فى العودة إلى مكة ، اشفاقا من أن يكون سبباً فى استباحة حرمتها ، وتفادياً من أن يؤخذ فيها :

مزاعم الدكتور طه حسين .. والرد عليها :

وأما صاحب « الفتنة الكبرى » فإنه كعادته : سار بعيداً فى خياله وأوهامه ، فصور لنا الحسين — سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه — كرئيس لحزب سياسى من أحزاب المعارضة ، له أساليب الأحزاب السياسية المعاصرة ومناوراتها ، فى سبيل تحقيق أهدافها الحزبية ، إذ يقول :

« وما أشك فى أنه — أى الحسين — أثناء هذه السنين التى قضاها بالمدينة ، بعد صلح أخيه : كان يتحرق تشوقاً إلى الفرصة التى تتيح له استئناف الجهاد من حيث تركه أبوه ، وقد أتيحت له هذه الفرصة — شيئاً ما — حين صارت إليه رياسة الشيعة ، فقد أصبح سيد قومه ورئيس حزبه [1]» ! !

أما ما هو الدليل على أن الحسين كان يتحرق شوقاً إلى الجهاد بعد تنازل أخيه — رضى الله عنهما — عن الخلافة ، فيكفى — عند صاحب الفتنة الكبرى — أنه لا يشك فى ذلك ، وان خالفه الواقع ، حتى بعد أن أتيحت للحسين الفرصة المزعومة ، وهى وفاة شقيقه الحسن — عليهما السلام — فإن الثابت أن الحسين بعد وفاة أخيه — رضى الله عنهما — لم يتغير عما كان قبل وفاته ، فلم يعلن جهاداً ، ولم يحدث خروجاً ، بل ظل — كما كان — ملازماً المدينة ، متفرغاً لعبادة ربه ، وهداية خلقه . .

أما ما توهمه صاحب « الفتنة الكبرى » من أن الحسين — رضى الله عنه — قد أصبح سيد قومه ، ورئيس حزبه ، بعد أن صارت إليه رياسة الشيعة ، فكل ذلك خلط لا معنى له ولا وجود ، فالحسين كان — كأخيه — رضى الله عنهما — سيداً فى قومه ، منذ طفولته ، بل كان — كأخيه — سيداً لشباب أهل الجنة ، بموجب قول الصادق المصدوق ، الذى لاينطق عن الهوى : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »[2] .

فالحسين — عليه السلام — فى مكان السيادة بين المسلمين جميعاً ، لا بين الشيعة وحدهم ، وليس فى حاجة إلى مزيد من الشرف أو السيادة — كما توهم صاحب « الفتنة الكبرى » برئاسة جماعة من الجماعات ، أو حزب من الأحزاب ، على نمط الجماعات والأحزاب السياسية ، التى نعرفها ، والتى طالما تصارعت حول المطامع الرخيصة ، والأغراض التافهة ! !

إن الحسين — رضى الله عنه — اسمى من كل ذلك وأعظم ، انه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحبيب الله تعالى ووليه ، فضلا عن كونه سيد شباب أهل الجنة ، وكفى بذلك شرفاً وفخرا : :

وبذلك : فإن الحسين — رضى الله عنه — هو إمام المسلمين جميعاً — لا إمام طائفة منهم فحسب ،

(١) الفتنة الكبرى لطه حسين : ٢ / ١٩٥ .

(٢) ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى : للمحب الطبرى — ص ١٢٩ .

والحزب الذى نفصل صاحب « الفتنة الكبرى » فجعله رئيساً له ، لا وجود له إلا فى مخيلته ، ولا ذكر له فى أى مصدر من مصادر التاريخ ، سواء ما كان منها من وضع الثقات ، أو من وضع غيرهم .

ويأبى صاحب « الفتنة الكبرى » إلا أن يؤكد الأسطورة التى توهمها عن الحزب المزعوم ، ويقول بعد ذلك :

« . . ولكنه غير سياسة أخيه التى ساس بها الحزب ، فأطلق لسانه فى معاوية وولاته ، حتى أنذره معاوية ، ثم أغرى حزبه بالاشتداد فى الحق ، والإنكار على الأمراء ، ففعلوا »(١) .

ومعنى ذلك : أن الحزب المزعوم هو حزب قديم ، له سياسته الخاصة ، وكان رئيسه الأول الحسن — رضى الله عنه — مع أن الحسن تنازل عن الخلافة طائعاً مختاراً ، فما حاجته بعد ذلك إلى حزب يؤيده ؟ . .

ان كل هذه الأوهام من خيالات المؤلف ، الذى — على ما يظهر — يقيس أمور أكابر أهل البيت ، بمقياس السياسيين من أهل زمانه ، فلكل مطامعه وأهواؤه ، ولكل أنصاره وأعوانه ، ولكل سياسته وأسلوبه . . وقد فاته أن أهل البيت — رضى الله عنهم — هم أئمة نجوم الهدى ، وهم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فلا مطمع لهم إلا فى رضاء الله ، ولا سياسة لهم إلا ما جاء به الله ورسوله ، قد سمت نفوسهم فوق مطامع الدنيا وزخرفها ، وعزفوا عن خلافتها وسلطانها ، وكفى بهم — رضى الله عنهم — شرفاً وعلواً ، أنهم السادة فى الدار الآخرة . . « . . . وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون »(٢) .

ومن ناحية أخرى : فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، من حق كل مسلم ، والدين النصيحة : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وليس الأمر فى حاجة إلى تكوين حزب ليقوم كل مسلم بواجبه ، ولا إلى صدور أمر ليعلن كل مسلم رأيه ، فينكر ما يراه مخالفاً لكتاب الله وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم ، ويدعو إلى ما فيه خير الإسلام ، وعزة المسلمين .

وواضح من أسلوب صاحب « الفتنة الكبرى » أنه لا يستطيع إثبات أى زعم من مزاعمه ، فهو يرسل الكلام جزافاً ، دون أى سند يرجع إليه ، أو دليل يعتمد عليه ، بل انه — دون أن يدرى — يعود فيناقض نفسه بنفسه ، إذ يقول بعد ما تقدم من أقواله ، فى موضع آخر من كتابه :

« . . وأراد الحسين أن يستقصى خبر هؤلاء الناس ، فأرسل ابن عمه — مسلم بن عقيل — إلى الكوفة ، ليلقى أهلها ، ويعلم علمهم »(٣) . .

فهل هنالك أعجب من حزب له نشاطه ، وله سياسته ، ثم لا يعلم رئيسه شيئاً عن أعضائه ، الذين يتلقون أوامره ، وينفذون تعليماته ، ويكاتبونه بآرائهم ، حتى أنه ليضطر إلى ارسال من يستطلع له حقيقة أمرهم ؟ ؟ ! ! .

* * *

(١) الفتنة الكبرى : للدكتور طه حسين : ٢ / ١٩٦ .

(٢) سورة العنكبوت : آية : ٦٤ .

(٣) الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين : ٢ / ٢٣٧ .

وقد وقع صاحب « الفتنة الكبرى » فى النهاية ، فيما وقع فيه غيره ، وتوهم أن خروج الحسين — رضى الله عنه — من مكة إلى الكوفة ، كان يستهدف خلع يزيد بن معاوية ، وقد أجمنا آنفاً على هذا الوهم ، وسقنا من الأدلة ما يكفى بعضه لهدمه من القواعد ، ولكنه أحسن فى الواقع فى تصويره للعوامل التى دفعت بسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — إلى الإصرار على أخذ أهل بيته معه ، رغم نصح الناصحين له بتركهم بمكة وادعين آمنين ، إذ يقول فى هذا الصدد :

« وما أراه أبى عناداً ، أو ركوباً لرأسه ، وإنما كان يعلم أن يزيد سيأخذه بالبيعة أخذاً عنيفاً ، فإن بايع غش نفسه ، وخان ضميره ، وخالف عن دينه ، لأنه كان يرى بيعة يزيد إثماً ، وإن لم يبايع صنع به يزيد ما يشاء » . . ثم يقول بعد ذلك :

« ولم يكن الحسين مخطئاً فيما قدر ، فهو قد عرف ماكان من غضب يزيد على ابن الزبير ، حين امتنع عن البيعة ، وأقسم أن لا يرضى حتى يحمل إليه ابن الزبير فى جامعة ، يقاد إليه كما يقاد الأسير ، ولم يخطىء الحسين حين أبى أن يترك أهل بيته بالحجاز ، فلم يكن يأمن أن يأخذهم يزيد بمسيره هو إلى العراق ، منابذاً للسلطان »(١) .

مزاعم الدكتور حسن ابراهيم .. والرد عليها :

وممن نحا نحو صاحب « الفتنة الكبرى » فى قياسه للأحداث ، بمقاييسه الخاصة ، وحكمه عليها بحال بعض أهل هذا الزمان ، هو مؤلف « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » حيث يقول :

« ثم ظهر حزب المعارضة ، الذى أنكر البيعة ليزيد ، وعلى رأسه : عبد الرحمن بن أبى بكر ، والحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير » (٢) . . ! !

ولسنا فى حاجة إلى بيان أن وصف الحزب والمعارضة ، بعيد كل البعد عن هؤلاء الأكابر ، وإن الأمر أسمى من ذلك وأكرم ، فهم لم يوافقوا على البيعة ابتغاء مرضاة الله ، ولكنهم لم يظهروا خلافاً(٣)، حرصاً على وحدة الأمة ، ودرءاً للفتنة . . فأين المعارضة . . ؟ وأين حزبها المزعوم . . ؟ ؟ !

وقد وقع صاحب « تاريخ الإسلام » فى خطأ بسيط آخر ، ولكنه مع بساطته يقلب الحقيقة التاريخية رأساً على عقب ، وذلك فى قوله بعد أن ذكر مقابلة الحسين — رضى الله عنه — لوالى المدينة وعدم استجابته للبيعة :

« وعلى أثر هذه المقابلة : توجه الحسين إلى مكة ، وكاتب الشيعة بالكوفة »(٤) .

(١) الفتنة الكبرى : للدكتور طه حسين : ٢ / ٢٢٩ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى . . . للدكتور حسن ابراهيم حسن : ١ / ٢٨٢ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٨٠ .

(٤) تاريخ الإسلام السياسى . . . للدكتور حسن ابراهيم حسن : ١ / ٢٨٦ و ٣٩٨ .

فإن الثابت فى جميع مصادر التاريخ الكبرى ، أن سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — لم يكاتب الشيعة ، وإنما هم الذين كاتبوه ، وكرروا الكتابة له ، وأرسلوا إليه رسلهم تترى . . كل ذلك : والحسين — عليه السلام — لا يلقى لهم بالا ، ولا يقيم لهم وزنا ، إلى أن أحس بالغدر يدبر لأخذه ، وبالبلد الحرام يوشك أن تستحل حرمته ، فعندئذ . . وعندئذ فقط ، كتب إليهم يعلمهم بإرسال ابن عمه لاستطلاع حقيقة أمرهم :

ولا شك أن الفارق بين الصورتين ، أوضح من أن يغفل :

مثال لتخرصات المستشرقين :

وإذا كان ما استعرضناه من صور ، على سبيل المثال لا الحصر ، يكفى لبيان مدى الأوهام التى انخدع بها بعض أكابر المحققين ، والأخطاء التى سقطوا فيها ، كنتيجة لما أشرنا إليه آنفاً ؛ من عدم التفرقة بين الحق والواقع ، أو بين ما قيل عن الحسين — رضى الله عنه — أو قيل له ، وبين ما قاله أو وقع فعلا منه ، فإن الأفعال أصدق دلالة من الأقوال . . ثم كيف تطورت هذه الأوهام والأخطاء فى تصويرها للحقائق ، وتقديرها للمسئوليات ، من جيل إلى جيل ، حتى وصلت فى عصرنا الحاضر فى نظر بعض أكابر الكتاب المعاصرين ، إلى صورة بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، فظهر ابن بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسيد شباب أهل الجنة ، فى نظر بعض هؤلاء المعاصرين ، فى هيئة رئيس حزب سياسى ، يحاول الوصول إلى الحكم بأى ثمن ، ولا يبالى فى سبيل ذلك بما يؤدى إليه ، أو يترتب عليه ، من سفك للدماء ، وتمزيق لشمل الأمة ، وحاشا أن يكون ابن بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كذلك .

ولا عجب بعد ذلك : إذا رأينا بعض المستشرقين ، الذين لا يدينون بالإسلام : . والكثير منهم قد أعماه التعصب ، وأرداه الجهل ؛ قد اعتمد على مثل ما أشرنا إليه من أوهام وأخطاء ، فسار فى استنتاجاته من الوقائع ، وتصويره للأحداث ، شوطاً أكثر بعداً فى الضلال ، وعمقاً فى الباطل ، حتى انتهى بعضهم إلى وصم الحسين — رضى الله عنه — بتهمة الخيانة العظمى . . ! !

وكمثال لما أشرنا إليه : نورد فيما يلى ما علق به « نيكلسون » على مأساة كربلاء ، فى كتابه "The Preacing of Islam" حيث يقول :

« يعتبر جميع المؤرخين الإسلاميين الذين — باستثناء القليل النادر منهم — يكادون يجمعون على بغض الأمويين ، والعداء لهم : . يعتبرون الحسين بن على شهيداً ، فى الوقت الذى يعتبرون فيه يزيد بن معاوية سفاكاً ، على حين يرى جمهرة المؤرخين المحدثين ، رأى « سير وليم ميور » ، الذى يذهب إلى أن الحسين ، بانسياقه إلى تدبير الخيانة ، سعياً وراء العرش ، قد ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع ، وتطلب من أولى الأمر فى الدولة الأموية — التعجيل بقمعها »(١) :

* * * *

(١) تاريخ الإسلام السياسى : للدكتور حسن ابراهيم حسن : ١ / ٤٠١ .

وواضح أن « جمهرة المؤرخين المحدثين » إنما كونوا آراءهم ، متأثرين بآراء أمثال « سير ميور » وغيره من المستشرقين ، الذين جعلوا منهم أئمة لهم ، في المعرفة والبحث العلمى ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وكان الأولى بهم الرجوع إلى المصادر الإسلامية الموثوق بها ، بدلا من النقل عن قوم مشكوك فى أمانتهم العلمية .

ولسنا فى حاجة إلى تفنيد ما ذكره « نيكلسون » من مزاعم « سير وليم موير » بالنسبة لما افتراه على سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – من تدبير للخيانة ، وسعى وراء العرش ، فقد سبق الإشارة إلى ذلك ، بما فيه الكفاية .

حقيقة موقف سيد شباب أهل الجنة :

ويمكننا – من جملة ما تقدم – أن نلخص موقف الحسين – رضى الله عنه – فيما يأتى :

أولا : أن سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، لم يوافق على مبايعة يزيد فى خلافة معاوية ، ولكنه لم يظهر أى خلاف ، فلما تولى يزيد الخلافة أمر بأخذه بالبيعة أخذاً شديداً لا رخصة فيه ، وطالب مروان بن الحكم . . الوليد بن عتبة – والى المدينة – بأن يحبس الحسين – عليه السلام – وأن يضرب عنقه إن لم يبايع ، فاضطر الحسين رضى الله عنه إلى الخروج من المدينة ، إباء للذل ، ونجاة من الإرغام والقتل ، قاصداً مكة المكرمة ، فلما التقى بواليها قال له : جئنا عواذاً بالبيت .

ثانيا : إن أهل الكوفة كتبوا إلى سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – يدعونه إلى الخروج إليهم ، وكرروا الكتابة إليه ، حتى بلغت كتبهم المئات ، وأرسلوا إليه رسلهم متتابعين ، ولكنه لم يأبه بهم ، وظل أميناً لعهده ، منصرفاً إلى ربه ، إلى أن رأى يزيد يبعث البعوث تلو البعوث ، لمقاتلة ابن الزبير – رضى الله عنهما – وأخذه ، دون مبالاة بحرمة البلد الحرام ، والبيت الحرام ، وشعر فى الوقت نفسه : أن القوم لن يتركوه آمناً ، رغم جنوحه إلى السلم ، وأنهم يدبرون فعلا لأخذه ، وأن الخطر عليه أعظم منه على ابن الزبير ، وأن أخذه أيسر من أخذ ابن الزبير ، لأنه لم يتخذ لنفسه أية وقاية من الغدر ، أو عدة ضد العدوان ، كما فعل ابن الزبير ، فاضطر – رضى الله عنه – إلى التفكير فى ملجأ آخر ، يتوفر له فيه الأمن والاستقرار فكتب إلى أهل الكوفة – بعد إهماله إياهم زهاء ثلاثة أشهر – يخبرهم بأنه قد أرسل ابن عمه إليهم ، ليستطلع أمرهم ، ويتعرف أحوالهم ، ويكتب إليه بحقيقتهم .

ثالثا : اشتد شعور سيد شباب أهل الجنة – رضى الله عنه – بتفاقم الخطر حوله ، فاضطر إلى التعجيل بالخروج من مكة قبل أن يتم شعائر الحج ، خوفاً من أن يؤخذ ، وحرصاً على البيت الحرام أن تستحل به حرمته ، وقد ثبت أنه لم يصدر عن الحسين – رضى الله عنه – حتى ذلك الحين أى قول أو كتابة أو تصرف يفهم منه أنه يبغى سعياً إلى خلافة ، أو منازعة لسلطان ، بل على العكس من ذلك : لقد رفض الحسين ما عرضه ابن الزبير – رضى الله عنهما – فى حالة بقائه بمكة : من نصرة ومؤازرة وبيعة ، كما أنه لم يذكر عن الحسين حول خروجه من مكة أكثر من قوله :

— لو لم اعجل لأخذت . . ! !

— لأن أقتل بمكان كذا وكذا أحب إلى من أن تستحل بى — أى مكة :

— لأن أقتل خارجاً منها بشبر ، أحب إلى من أن أقتل داخلا منها بشبر :

رابعا : وقد كان خروج سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، فى الثامن من ذى الحجة ، ومعه زهاء ثمانين رجلا من أهل بيته وأصحابه ، وما كاد يبلغ الوالى نبأ خروجه ، حتى حاول إرغامه على العودة إليها ، فأرسل إليه قوة بقيادة أخيه يحيى بن سعيد ، لتحول بينه وبين الانصراف ، ولكن الحسين — رضى الله عنه — قاومها ، وامتنع منها ، واستمر فى طريقه إلى الكوفة .

وقد دلت محاولة والى مكة لإرجاع الحسين إليها ، والتجاؤه إلى القوة فى ذلك : على أن الحسين — عليه السلام — لم يكن واهماً فى شعوره بتدبير القوم لاخذه ، وانه فعلا لو لم يعجل بالخروج ، لأخذ بالقوة حياً او ميتاً ، ولوقع ما يخشاه من استباحة البلد الحرام والبيت الحرام .

خامسا : ان سيد شباب اهل الجنة — رضى الله عنه — علم وهو فى منتصف الطريق إلى الكوفة ، بمقتل جميع رسله إليها ، وتمكن ابن زياد منها ، فلم يفكر فى الرجوع إلى مكة ، حتى لا يتعرض للوقوع فى قبضة واليها ، وتستباح به البلد الحرام ، حيث حاول ذلك الوالى من قبل منعه من الانصراف ، وإرجاعه بالقوة :

ولم يخف الحسين — رضى الله عنه — الأمر عمن انضموا فى مسيره إليه ، بل صارحهم بما وقع من تغير الأحوال بالكوفة ، واذن لهم بالانصراف عنه ، بدلا من أن يحثهم على الثبات والجهاد والصبر ، فانصرفوا ، . : ولم يبق معه إلا من خرج بصحبته من مكة ، فدل ذلك موقفه هذا على انه لم يخطر بباله ان يقترف عدوانا ، او ان يخوض حرباً فى سبيل الخلافة والملك .

سادسا : أن سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — حين التقى بمقدمة جيش عبيد الله بن زياد ، وعددهم ألف فارس ، بقيادة الحر بن يزيد ، كان وصحبه — رضى الله عنهم اجمعين — يسيطرون على المياه ، والاخرون فى عطش شديد ، ومع ذلك : فقد أمر الحسين — عليه السلام — فتيانه بسقى خيل القوم ورشفها ، وملء الأوانى والقرب ، وساعد فى ذلك بنفسه ، مع علمه أن فى ذلك تقوية للقوم على قتاله ، ثم عرض على الحر بن يزيد ما وصله من كتب اهل الكوفة ، واتفق معه على ان يسلك طريقاً لا يدخله الكوفة ، ولا يرده إلى المدينة ، حتى يكتب إلى ابن زياد ليأمره بامره .

سابعا : أن سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — حين أقبل نحوه الطرماح بن عدى فى أربعة نفر من أعيان الكوفة ، وأخبره بأنه ترك وراءه الألوف من الرجال والفرسان ، فى طريقهم إليه لقتاله ، وعرض عليه نصرة عشرين ألفاً من طىء . يضربون بين يديه بأسيافهم ، ومع ذلك : فقد رفض الحسين — عليه السلام — ما عرضه الطرماح ، ودعا له بخير ، وهو يرى أن من معه من أصحابه وأهل بيته ، قلة يناهزون الثمانين على أكثر تقدير ، ولو أنه كان يسعى إلى الخلافة ، أو ينازع على حكم ، لقبل هذه النصرة القوية ، وهو أشد ما يكون حاجة إليها :

ثامنا : أن سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — حين وصل جيش ابن زياد بقيادة عمر بن سعد ، عرض عليه أحد أمرين : إما أن يرجع من حيث جاء ، وإما أن يدعوه يذهب فى الأرض العريضة ، حتى ينظر إلى ما يصير إليه أمر الناس ، فلما كتب عمر بن سعد بذلك إلى ابن زياد أبى ، وكتب إليه يقول : « لا ولا كرامة .. حتى يضع يده فى يدى »(١) .. ! ! وأمره بأن يحول بين الحسين — عليه السلام — وبين الماء ، فلا يذوقوا منه قطرة (٢) .. وأبى سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — الذهاب إلى ابن زياد ، وقال : « لا والله .. لا يكون ذلك أبدا » .

وأيقن الحسين — عليه السلام — أن عبيد الله بن زياد مصر على أخذه ، حياً كان أو ميتاً ، ومع ذلك : فقد خطب أصحابه ليلة المعركة ، فكرر دعوته لهم إلى الانصراف عنه ، متلفعين بالليل ، لأن القوم إنما يريدونه فقط ، فلو أصابوه لهوا عن طلب غيره ، وكان ذلك حرصاً منه — رضى الله عنه — على افتدائهم بروحه ، وإيثارهم بنفسه .

هذا هو موقف الحسين — عليه السلام — فى كل المواطن ، وليس فيه ما يدل إلا على زهده فى الدنيا ، ورغبته الصادقة فى السلام ، وحرصه على حقن الدماء ، وإصراره على حصر الفتنة .

حقيقة موقف يزيد ورجاله :

وبعكس ما تقدم : كان موقف يزيد بن معاوية ورجاله موقف التحرش بسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — والإصرار على إرغامه ، والمطاردة له ، والتدبير لأخذه ، والحرص على التخلص منه ، كما يتضح مما يأتى :

أولا : أن يزيد خالف وصية والده معاوية — رضى الله عنه — وأصر على أخذ الحسين عليه السلام — بالشدة حتى يبايع ، وهو يعلم حق العلم أنه لن يخضع .. ولن يرغم .

ثانيا : أن يزيد ورجاله استمروا فى تربصهم بسيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — ومطاردتهم له ، حتى بعد التجائه إلى مكة عائذاً بالبيت وانصرافه عن أى نشاط معاد ، وتفرغه للعبادة والإرشاد ، حتى اضطر إلى الخروج من مكة بعد أن استقر بها أكثر من أربعة أشهر .

ثالثا : أن ابن زياد رفض ما عرضه الحسين — عليه السلام — من خصال ، وأصر على إرغامه ، وأن يضع يده فى يده ، وهو يعلم أن ذلك مستحيل ، وأن الحسين — رضى الله عنه — سيؤثر الموت على المهانة ، حتى انتهى الأمر إلى أن حاصرته جيوش ابن زياد ، وقتلته بالصورة المعروفة ، مع أكبر عدد من شباب أهل البيت المطهر ، رضى الله عنهم أجمعين .

* * *

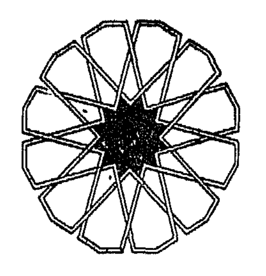
(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٣٩٨ .

(٢) المصدر السابق : ٥ / ٤١٢ .

ولا مناص بعد ما تقدم ، من تبرئة سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — من مسئولية هذه المأساة ، تبرئة تامة ، لنؤكد فى النهاية ، أنها كانت مؤامرة تستهدف التخلص من ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكبر عدد من أهل بيته ، ضماناً لاستقرار العرش الأموى ، آمناً من كل خطر يتهدده ، وكل مزاحم قد يطمع فيه ، وذلك ما ظنه يزيد ورجاله ، وسعوا إلى تنفيذه .

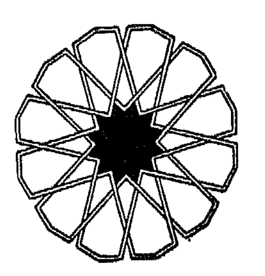
ولعل من أقوى الظواهر التى تؤكد براءة سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، وعدالة موقفه ، وتدين فى نفس الوقت خصومه ، هو سرعة انتصار الله تعالى له ، وغضبه على المعادين له ، وانتقامه العاجل منهم ، حتى لم يبق منهم ولم يذر . . ولم تمض بضع عشرات من السنين ، حتى صارت دولة الأمويين أثراً بعد عين ! ! .

« والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » :



الفصل الثانى والعشرون

- رضاعة الحسين عليه السلام .
- كسوف الشمس لمقتله .
- ظهور الشفق الأحمر بعد استشهاده .
- خرافات واباطيل اخرى .
- حديث مزيف عن آية كريمة .



مكانة الحسين .. والاعتبارات المستمدة منها :

لا شك فى أن مقام أهل البيت المطهر – رضوان الله عليهم أجمعين – فوق كل مقام ، وكفى بهم فخراً وشرفاً : قول سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم فيهم : « لكل شىء أساس ، وأساس الإسلام ، حب أصحاب رسول الله ، وحب أهل بيته » .

ولا شك فى أن سيد شباب أهل الجنة ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم – الحسين عليه السلام – يحتل من أهل البيت مكانة عالية ، ومرتبة سامية ، وهذه المكانة ، وهذه المرتبة ، تستمد كل منهما من اعتبارين أساسيين :

الاعتبار الأول : كون الحسين – رضى الله عنه – بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قال فيه : « حسين منى ، وأنا من حسين » : ولمقامه عند الله تعالى فى الآخرة ، كسيد لشباب أهل الجنة ، بنص حديث النبى صلى الله عليه وسلم .

الاعتبار الثانى : سيرة الحسين – عليه السلام – العطرة ، وسلوكه العملى خلال حياته الشريفة المباركة ، كمثل أعلا ، وقدوة طيبة ، فى كل ناحية من نواحى مكارم الأخلاق ، التى بعث جده العظيم – صلى الله عليه وسلم – داعياً إليها ، ومتمماً لها ، مما دلت عليه مواقفه المشهورة ، ومناقبه السامية ، التى أوردنا الكثير منها ، فى مختلف الفصول السابقة ، فقد كان – رضى الله عنه – حقاً على خلق عظيم ، كما كان جده – صلى الله عليه وسلم – كذلك .

* * *

ومن ثم : فإن الحسين – رضى الله عنه – ليس فى حاجة بعد كل ما ذكرناه ، إلى مزيد من فضل أو شرف ، حتى ننسب إليه من الخرافات والخوارق ، ما يتوهم الغافلون أنه يزيد من مقامه الكريم سموا ، ومن قدره العظيم رفعة وعلوا ، كأنه – رضى الله عنه – لو لا هذه الخرافات ما كان جديراً بالمقام السامى الذى يحتله فى أعماق قلوب المسلمين ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى كل وقت وحين ، مقام الحب والتوقير ، والإجلال والتعظيم .

وسنعرض فيما يلى لبعض هذه الخرافات ، لنبين ما فيها من تهافت ووضع ، فضلا عن مخالفتها لسنة الله تعالى فى خلقه ، والأحاديث الثابتة عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن الأخذ بها : سيظهر المسلمين – أمام العالمين – بمظهر السذج الجاهلين ، الذين تنطلى عليهم كل أكذوبة ، ويسلمون لأى وهم .

الحسين – رضى الله عنه – لم ترضعه أنثى :

وفى مقدمة هذه الخرافات : ماجاء فى بعض الروايات ، من أن سيد شباب أهل الجنة ، حين وضعته أمه فاطمة الزهراء – رضى الله عنها وعنه – لم ترضعه قط ، كما لم ترضعه أى أنثى أخرى ، وإنما كان يؤتى به إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيضع ابهامه فى فيه ، أو يلقمه لسانه فيمصه ، فأنبت الله سبحانه وتعالى ، لحم الحسين عليه السلام ، من لحم النبى صلى الله عليه وسلم .

ونقول : إن أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم : قد ثبت أن أمه آمنة قد أرضعته ، كما ثبت أن حليمة السعدية قد أرضعته بعد ذلك .

والحسين — رضى الله عنه — ما هو إلا بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تجرى فيه نفس السنن التى أجراها الله تعالى فى سيد خلقه ، والتى أجراها قبل ذلك فى المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين ، والصديقين والصالحين .

وقد اختلفت الروايات حول هذه الخرافة ، فيما بينها ، اختلافاً كبيراً ، سواء فيما يتعلق بالأسباب التى دعت إلى منع الحسين من الرضاعة الطبيعية ، أو فيما يتعلق بالمدة التى اقتصر فيها الحسين — عليه السلام — فى رضاعه ، على مص إبهام النبى صلى الله عليه وسلم ، أو لسانه .

* * *

ففى بعض الروايات : أن السيدة فاطمة الزهراء ، لما حملت بالحسين — سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنهما — قال لها النبى صلى الله عليه وسلم :

« يا فاطمة : انك ستلدين غلاماً هنأنى به جبرائيل ، فلا ترضعيه حتى أجيء ، ولو أقمت شهراً » . .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض وجوهه ، فولدت فاطمة الزهراء ، الحسين — رضى الله عنهما — فما أرضعته حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل لسانه فى فمه ، وجعل الحسين عليه السلام يمص لسانه (١) .

وفى رواية أخرى : أن السيدة فاطمة لما ولدت الحسين — رضى الله عنهما ، جف لبنها ، فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيلقمه إبهامه ، ويجعل الله فى إبهام رسوله رزقا ، يغذيه ، ففعل ذلك أربعين يوماً وليلة ، فأنبت الله سبحانه لحمه من لحم رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) .

ففى الرواية الأولى — على فرض صحتها — نجد أن أول ما دخل جوف الحسين عليه السلام ، هو ريق النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا غرابة فيه ، ولا ينفى أن ترضعه فاطمة بعد ذلك — رضى الله عنها — كشأن جميع الأطفال الصغار ، ومنهم النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى الرواية الثانية : يفهم منها أن فاطمة — رضى الله عنها — جف لبنها ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم ألقم الحسين أصبعه أربعين يوماً ، وعلى فرض صحة هذه الرواية ، فإنها أيضاً لاتنفى رضاعة الحسين من أمه قبل جفاف لبنها ، كما أنها لاتنفى رضاعته منها أو من أى مرضعة أخرى بعد الأربعين يوماً التى التقم فيها أصبع النبى صلى الله عليه وسلم .

مما تقدم : يتضح أن كلا من الروايتين ، وما يشابههما من روايات ، لا تكفى للدلالة على أن الحسين لم ترضعه أنثى ، كما استنبط الواهمون ذلك ، ظنا منهم أن فى ذلك تعظيماً لشأنه وتفخيماً لقدره ،

(١) الحسين عليه السلام : لعلى جلال الحسينى : ١ / ٢٥ عن رياض الجنان لشرف على بن عبد المولى ص ٢٥٢ .
(٢) الحسين عليه السلام : لعلى جلال الحسينى : ١ / ٢٥ . عن ابن شهر آشوب فى المناقب .

فضلا عن انه من الثابت فى مصادر التاريخ الكبرى : أنه رضى الله عنه ، كانت له مرضعة ، وكان له اخوان فى الرضاعة ، هما : عبد الله بن بقطر ، وقثم بن العباس .

١ — فقد ذكر أبو جعفر الطبرى « أن الحسين كان لا يمر بأهل ماء إلا اتبعوه ، حتى إذا انتهى إلى (زبالة) ، سقط إليه مقتل أخيه فى الرضاعة ، مقتل عبد الله بن بقطر . . »(١) الخ .

٢ — وذكر الحافظ بن حجر العسقلانى ، فى ترجمة أم الفضل امرأة العباس بن عبد المطلب قال : قال ابن سعد : « أم الفضل : أول امرأة آمنت بعد خديجة ، وروت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رأيت أن عضواً من أعضائك فى بيتى . . » فقال صلى الله عليه وسلم :

« تلد فاطمة غلاماً ، وترضعينه بلبن قثم » ، فولدت حسينا ، فأخذته ، فبينا هو يقبله ، إذ بال عليه ، فقرصته فبكى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « آذيتينى فى ابنى » . وفى رواية : « فأجلسه فى حجره فبال : فضربته بين كتفيه ، فقال : « أوجعت ابنى رحمك الله »(٢) .

مما تقدم : يثبت لنا أن الزعم القائل بأن الحسين — رضى الله عنه — لم ترضعه أنثى — زعم لا أساس له ، فقد ثبت أن له أخوين من الرضاعة : قثم بن العباس ، وعبد الله بن بقطر ، أى أنه رضع من امرأتين ، بخلاف أمه الزهراء ، رضى الله عنها .

كسوف الشمس لمقتل الحسين :

ومن الخرافات والأكاذيب الموضوعة ، ما روى عن كسوف الشمس لمقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد ذكر أبو نعيم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة ، أنه « مما ظهر يوم قتله من الآيات : أن السماء إسودت إسوداداً عظيماً ، حتى رؤيت النجوم نهاراً »(٣) .

وحكى ابن عيينة عن جدته « أن السماء احمرت لمقتله ، وانكسفت الشمس ، حتى بدت الكواكب نصف النهار ، وظن الناس أن القيامة قد قامت »(٤) .

ونقل ابن الجوزى عن ابن سيرين « أن الدنيا أظلمت ثلاثة أيام ، ثم ظهرت الحمرة فى السماء(٥) .

ونقول : ان الشمس لم يقع بها أى كسوف حين لحق بالرفيق الأعلى أشرف خلق الله ، وخاتم رسله ، والحسين عليه السلام ما هو إلا بضعة منه ، وقبس من نوره ، فمن باب أولى لاتنكسف الشمس لمقتله ، ويؤيد ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم — وهو الأصدق قيلا — الذى يقول فيه : « ان

---

(١) تاريخ الرسل والملوك : للطبرى : ٥ / ٣٩٨ ، البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ١٨٦ .
(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة : لابن حجر العسقلانى : ٤ / ٤٨٣ .
(٣ ، ٤ ، ٥) الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة ، لابن حجر الهيتمى : ص ١٩٤ .

الشمس والقمر : لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكنهما آيتان من آيات الله ، يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك : فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم »(١) .

وقد نقل هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم حين انكسفت الشمس يوم وفاة ابنه ابراهيم عليه السلام ، فظن الناس انها انكسفت لموته ، فعنى النبي صلى الله عليه وسلم بإزالة هذا الوهم من أذهانهم ، فأخبرهم بالسبب الحقيقى ، والمغزى الصحيح ، لكسوف الشمس ، وخسوف القمر .

ظهور الشفق الأحمر بعد مقتل الحسين :

ومن هذه الخرافات : ما روى من أن الشفق الأحمر ، لم يظهر إلا بعد مقتل الحسين — رضى الله عنه — وقد ذكر ذلك ابن سيرين فقال :

« أخبرنا أن الحمرة التى مع الشفق ، لم تكن قبل مقتل الحسين »(٢) . وذكر ابن سعد :

« ان هذه الحمرة لم تر فى السماء قبل قتله »(٣) .

وعلل ابن الجوزى هذه الحمرة فقال : « وحكمته أن غضبنا يؤثر حمرة الوجه ، والحق تنزه عن الجسمية ، فأظهر تأثير غضبه على من قتل الحسين ، بحمرة الأفق ، إظهاراً لعظم الجناية »(٤) .

ونقول : ان الحمرة التى تظهر فى السماء قبيل الغروب ، وهى التى تسمى بالشفق الأحمر ، من الظواهر الطبيعية التى لها أسبابها المعروفة منذ زمن بعيد ، وهذه الحمرة موجودة منذ الأزل ، وقبل استشهاد سيد شباب أهل الجنة بآلاف السنين ، وقد جاء الإسلام فاعتبرها من علامات التوقيت بالنسبة لبعض الصلوات ، والمعروف أن الصلوات الخمس فرضت على الأمة ليلة الإسراء ، قبل مقتل الحسين رضى الله عنه بأكثر من ستين عاماً .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم : « صلى المغرب حين وجبت الشمس — أى غربت — وأفطر الصائم ثم صلى العشاء حين غاب الشفق . . »(٥) .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن وقت الصلاة ، فقال : « . . وقت صلاة المغرب إذا غابت الشمس ، ما لم يسقط الشفق »(٦) .

خرافات واباطيل اخرى :

ومن هذا القبيل : ما يردده بعض غلاة الشيعة من خرافات وأباطيل ! مثل :

— انه لما قتل الحسين عليه السلام ، أمطرت السماء دماً ، فأصبحت الجباب والجرار مملوءة دماً ! !

— انهم نحروا ناقة فى عسكرهم ، فكانوا يرون فى لحمها مثل الفيران فطبخوها فصارت مثل العلقم !

(١) رواه الثلاثة والنسائى من حديث أبى بكر وابن مسعود وابن عمر بإسناد صحيح .

(٢ ، ٣) الصواعق المحرقة : لابن حجر الهيتمى : ص ١٩٤ .

(٤ ، ٥) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى المكى : ص ١٩٤ .

(٦) رواه الخمسة إلا الترمذى .

– انه لم يرفع حجر فى الشام إلا رئى تحته دم عبيط ، وأن الكواكب ضربت بعضها بعضا !
– انه لما جيء برأس الحسين – رضى الله عنه – إلى دار ابن زياد ، – سالت حيطانها دماً(١) !

يقول الحافظ رضى الله عنه بن كثير : «وقد بالغ الشيعة فى يوم عاشوراء ، فوضعوا أحاديث كثيرة تتضمن كذباً فاحشاً » . .وبعد أن ذكر ما أوردنا بعضه آنفاً : قال «إلى غير ذلك من الأكاذيب والأحاديث الموضوعة ، التى لا يصح منها شيء »(٢) ثم قال :

« وللشيعة والرافضة – فى صفة مصرع الحسين – رضى الله عنه – كذب كثير وأخبار باطلة ، وفيما ذكرناه الكفاية ، وفى بعض ما أوردناه نظر ، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ والأئمة ذكروه ما سقته ، وأكثره من رواية أبى مخنف لوط بن يحيى ، وقد كان شيعياً ، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة ، ولكنه اخبارى حافظ ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره ، ولهذا يترامى عليه كثير من المصنفين فى هذا الشأن ممن بعده ، والله أعلم »(٣) :

وجملة القول : أن هذه الخرافات وأمثالها ، لا تزيد الحسين شرفاً ، وعدم وقوعها لا ينقصه قدراً أو مقاما .

حديث مزيف عن تفسـير آية :

ومن أشهر الأحاديث الموضوعة ، التى تتصل بسيد شباب أهل الجنة ، ما قيل فى أسباب نزول قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيماً وأسيرا » انها نزلت فى على وفاطمة وجارية لهما ، والصحيح – كما يقول القرطبى – « أنها نزلت فى جميع الأبرار ، ومن فعل فعلا حسناً ، فهى عامة»(٤) :

ومن البديهى : أن نزول هذه الآيات فى جميع الأبرار ، لا يمنع شمولها – من باب أولى – عليا وفاطمة رضى الله عنهما ، فأهل البيت بلا شك : يحتلون مكان القمة بين الأبرار ، ولكن بعض المفسرين ذكروا فى ذلك حديثاً لا يصح ولا يثبت ، نسبت روايته إلى ليث عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، خلاصته : أن الحسن والحسين – رضى الله عليهما – مرضا حتى عادهما النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأن عليا كرم الله وجهه ، نذر صيام ثلاثة أيام شكراً لله تعالى لو عافاهما ، وكذلك السيدة فاطمة – رضى الله عنهما – وجارية لها . فقال الحسن والحسين : وعلينا مثل ذلك :

ومن الله تعالى بالشفاء على الحسنين ، وبدأ الجميع الصيام وفاء بنذرهم ، وأعدت الجارية خمسة قراص من شعير ، لكل واحد منهم قرص ، وإذا بمسكين يقف بالباب ، يقول : أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة فسمعه على – رضى الله عنه – فأنشأ يقول :

---

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى : ص ١٩٤ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير : ٨ / ٢٠١ .
(٣) المصدر السابق : ٨ / ٢٠٢ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن : لأبى عبد الله محمد الأنصارى القرطبى : ١٩ - ١٣٠ .

فاطم ذات الفضل واليقين يا بنت خير الناس أجمعين
أما ترين البائس المسكين قد قام بالباب له حنين
يشكو إلينا جائع حزين يشكو إلى الله ويستكين
كل امرىء بكسبه رهين وفاعل الخيرات يستبين
موعدنا جنة عليين حرمها الله على الضنين
وللبخيل موقف مهين يهوى به النار إلى سجين
شرابه الحميم والغسلين من يفعل الخير يقم سمين
ويدخل الجنة أى حين

فأنشأت السيدة فاطمة — رضى الله عنها تقول :

أمرك عندى يا بن عم طاعة ما بى من لؤم ولا وضاعة
غذيت فى الخبز له صناعة أطعمه ولا أبالى الساعة
أرجو إذا أشبعت ذا المجاعة أن الحق الأخيار والجماعة
وأدخل الجنة لى شفاعة(١)

ويذكر رواة الحادث بعد ذلك : أنهم أطعموا المسكين طعامهم ، ومكثوا يومهم وليلتهم لم يذوقوا شيئاً سوى الماء القراح :

وفى اليوم التالى : صام الخمسة ، وأعدوا الأقراص اللازمة لهم من الشعير ، وتكرر ما حدث فى اليوم الأول ، فطرق الباب يتيم ، فقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، يتيم من أولاد المهاجرين ، استشهد والدى يوم العقبة ، أطعمونى أطعمكم الله من موائد الجنة ، فسمعه على — كرم الله وجهه — فانشأ يقول(٢) :

فاطم بنت السيد الكريم بنت نبى ليس بالزنيم
لقد أتى الله بذى اليتيم من يرحم اليوم يكن رحيم
ويدخل الجنة أى سليم قد حرم الخلد على اللئيم
ألا يجوز الصراط المستقيم يزل فى النار إلى الجحيم
شرابه الصديد والحميم

فأنشأت فاطمة رضى الله عنها تقول :

أطعمه اليوم ولا أبالى وأوثر الله على عيالى
أمسوا جياعاً وهم أشبالى أصغرهم يقتل فى القتال
بكربلا : : يقتل باغتيال يا ويل للقاتل من وبال
تهوى به النار إلى سفال وفى يديه الغل والأغلال
كبولة زادت على الأكبال

(١ ، ٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٩ / ١٣٠ .

فأطعموه الطعام ، ومكثوا يومين وليلتين لم يذوقوا سوى الماء القراح : :

وفى اليوم الثالث : أعدت فاطمة الأقراص الخمسة ، ثم وضع الطعام بين أيديهم للإفطار . إذ أتاهم أسير فوقف بالباب وقال : السلام عليكم أهل بيت محمد ، تأسروننا وتشدوننا ولا تطعموننا ؟ ؟ أطعمونى فإنى أسير محمد ، فسمعه على فأنشأ يقول(١) :

فاطم يا بنت النبي أحمد بنت نبى سيد مسود
وسماه الله فهو محمد قد زانه الله بحسن أغيد
هذا أسير للنبى المهتد مثقل فى غله . . مقيد
يشكو إلينا الجوع قد تمدد من يطعم اليوم يجده فى غد
عند العلى الواحد الموحد ما يزرع الزارع سوف يحصد
أعطيه لا . . لا تجعليه أقعد

فأنشأت فاطمة ــ رضى الله عنها ــ تقول :

لم يبق مما جاء غير صاع قد ذهبت كفى مع الذراع
أبناى والله هما جياع يارب : لاتتركهما ضياع
أبوهما للخير ذو اصطناع يضع المعروف بابداع
عبل الذراعين شديد الباع وما على رأسى من قناع
إلا قناعاً نسجه انساع

وقدمت الأقراص إلى السائل ، وأفطر الخمسة على الماء . . ! !

فلما كان اليوم الرابع أخذ على بيد الحسن والحسين ــ رضى الله عنهم أجمعين ــ وأقبل نحو رسول صلىالله عليه وسلم ، وهم يرتعشون من شدة الجوع ، فلما أبصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انطلق بهم نحو فاطمة ، وهى فى محرابها ، وقد لصق بطنها بظهرها ، وغارت عيناها ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « واغوثاه يا ألله . . أهل بيت محمد يموتون جوعا » فهبط جبريل عليه السلام ، فأقرأه الآيات من أول « هل أتى على الإنسان » إلى « إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا »(٢)

* * *

فمثل هذه القصة ، يستمر بعض الكتاب المعاصرين ، من محبى أهل البيت رضى الله عنهم ، فى تردادها ، وتناقلها فى مؤلفاتهم ، رغم وضوح زيفها ، وإنكار الكثير من الثقات لها ، ظناً منهم أنهم بذلك يرفعون من قدر أهل البيت ، ويظهرونهم بالمظهر الذى يتضاءل دونه أكابر العباد القانتين .

ولسنا فى حاجة إلى إظهار ما فى القصة المذكورة من تكلف ، وما فى الأبيات التى أنشأها على كرم الله وجهه ، والتى ردت بها فاطمة الزهراء ــ رضى الله عنها ــ عليه ، من تلفيق وتزويق ، فضلاً عن ركاكة التركيب ، وتهافت المعنى .

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٩ / ١٣١ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبى : ١٩ / ١٣٢ .

وما أحسن ما أورده القرطبي في التدليل على بطلان حديث تلك الحكاية ، التي هي أشبه ما تكون بتمثيلية مسرحية ، منها بالحقيقة المقبولة عقلا ومنطقاً ، وإليك نص ما قاله :

« قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله ، فى نوادر الأصول : فهذا حديث مزوق مزيف قد تطرف فيه صاحبه ، حتى تشبه على المستمعين ، فالجاهل بهذا الحديث يعض شفتيه تلهفاً أن لا يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هذا الفعل مذموم ، وقد قال الله تعالى فى تنزيله « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو » . : وهو الفضل الذى يفضل عن نفسك وعيالك ، وجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متواترة بأن « خير الصدقة ماكان عن ظهر غنى » . : « وابدأ بنفسك ، ثم بمن تعول » وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» ، أفيحسب عاقل أن عليا جهل هذا الأمر ، حتى أجهد صبيانا صغاراً ، من أبناء خمس أو ست ، على جوع ثلاثة أيام ولياليهم ، حتى تضوروا من الجوع ، وغارت العيون منهم لخلاء أجوافهم ، حتى أبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد ؟ ! هب أنه آثر على نفسه هذا السائل ، فهل كان يجوز أن يحمل أهله على ذلك ؟ وهب أن أهله سمحت بذلك لعلى ، فهل جاز له أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام بلياليهن ؟ » : : ثم يقول :

« ما يروج مثل هذا إلا على حمقى جهال ، أبى الله لقلوب متنبهة أن تظن بعلى مثل هذا ، وليت شعرى من حفظ هذه الأبيات كل ليلة عن على وفاطمة ، وإجابة كل منهما صاحبه ، حتى أداه إلى هؤلاء الرواة ؟ فهذا وأشباهه ، من أحاديث أهل السجون فيما أرى ، بلغنى أن قوماً يخلدون فى السجون فيبقون بلا حيلة ، فيكتبون أحاديث فى السمر وأشباهه ، ومثل هذه الأحاديث مفتعلة ، فإذا صارت إلى الجهابذة ، رموا بها وزيفوها ، وما من شيء إلا وله آفة ومكيدة ، وآفة الدين وكيده أكثر »(١) . انتهى :

وقد أشار الإمام الخطيب الشربيني فى تفسيره إلى هذه القصة فقال :

« وما رواه البيضاوى ، تبعاً للزمخشرى ، عن ابن عباس أن الحسن والحسين رضى الله عنهما مرضا » : : ثم ذكر بقية القصة باختصار ، من نذر الصيام ، وإعداد الطعام ، ووقوف المسكين واليتيم والأسير : : الخ ، ثم قال رضى الله عنه عن كل ذلك : انه « حديث موضوع »(٢) .

* * *

ومما يؤكد أن هذا الحديث موضوع أمران :

الأول — أن سورة « هل أتى على الإنسان » يليها فى ترتيب النزول : الطلاق والبينة ، ثم سورة الحشر التى نزلت فى غزوة بنى النضير ، حتى أن ابن عباس كان يسمى السورة : سورة النضير (٣) ،

(١) الجامع لأحكام القرآن : للقرطبى : ١٩ / ١٣٣ .
(٢) السراج المنير للإمام الخطيب الشربينى : ٤ / ٣٧٦ .
(٣) ارشاد السارى لشرح صحيح البخارى : للعلامة القسطلانى : ٧ / ٣٧٤ .

وكان وقوع هذه الغزوة ، فى السنة الرابعة من الهجرة ، وفى نفس هذه السنة : ولد الحسين ــ رضى الله عنه ــ فى شعبان .

ولما كانت سورة « الإنسان » قد نزلت قبل سورة « النضير » كما قدمنا ، فمعنى ذلك : انه حين نزول قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً . . » الخ لم يكن الحسن رضى الله عنه قد أتم بضعة أشهر من مولده ، فى حين أن الحسين ــ عليه السلام ــ لم يكن قد ولد بعد ، فكيف وقع صيام الأول ثلاثة أيام بدون طعام وهو ما زال رضيعاً ، لم يتعد السنة الأولى من عمره ؟ وكيف وقع صيام الثانى وهو لم يخرج من بطن أمه ؟ .

الثانى ــ وهو ما جاء فى صدر الحديث المزعوم ، وهذا نصه : « . . : فالبس الغلامان العافية وليس عند آل محمد قليل ولا كثير ، فانطلق على إلى شمعون ابن حاريا الخيبرى ، وكان يهودياً ، فاستقرض منه ثلاثة أصوع من شعير ، فجاء به فوضعه ناحية البيت. . »[1] الخ .

فهل لم يجد على ــ كرم الله وجهه ــ من يستقرض منه إلا ذلك اليهودى ؟ وهل لم يكن فى آكابر الصحابة ــ وفيهم الكثير من أهل الثراء ــ من يستطيع على أن يقصده ، فيكون الفضل له ، بدلا من أن يكون الفضل لذلك اليهودى المزعوم ، وتكون اليد العليا لمسلم بدلا من أن تكون ليهودى :

ان آغلب الظن ــ وقد ثبت ــ عقلا ــ ونقلا ــ أن هذه القصة موضوعة ، أن تكون من الإسرائيليات التى دسها اليهود ، بلبلة المسلمين ، وتشويش أفكارهم ، وإظهار اليهود بمظهر أصحاب الفضل على أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولولاهم لمات ابنا الزهراء جوعاً ومسغبة . . ! !

تفسير مناسب للآية :

على أن هناك رواية أخرى فى تفسير هذه الآيات وأسباب نزولها ، أقرب إلى المنطق ، وتتفق مع العقل والدين :

فقد روى عن جعفر بن محمد الصادق ، رضى الله عنه ، أنه قال فى هذا الصدد :

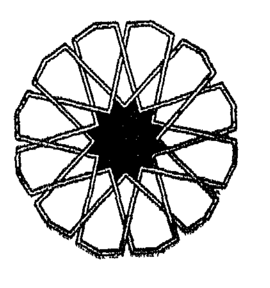
« ان على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ أصبح صائماً ، فقال : يا فاطمة ، عندك شىء نفطر عليه ؟ قالت : نعم . هذه الحيسة قد عملناها لك ، فجاء سائل سأله ، فقال يا فاطمة أطعمى الحيسة هذا السائل ، فأطعمته . . ثم أنه عمل له حريرة ، وهى طعام يصنع من العسل والعجوة والحلبة ، فجاء يتيم قد استشهد أبوه . . فقال على : يا فاطمة أعندك شىء ؟ قالت هيأت لك حريرة لتفطر عليها ، فقال أطعميها (اليتيم) ففعلت ، ثم أنها احتالت فخبزت له خبيزة من شعير ، فدخل عليه أسير ، فأخذ الخبيزة وأطعمها الأسير ، ثم قال عند المغرب : أما من شىء يا فاطمة ؟ قالت : لا . . والله ما عندنا شىء ، قال على : يا فاطمة : ما تقولين فى عشاء الملائكة ؟ الذكر يأكلون ، والنور يشربون ، وعلى الدوام منزهون . . تعالى حتى نذكر الله ونسبحه . . فأنزل الله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى : ١٩ / ١٢٩ .

ويتيماً وأسيرا » : : فالهاء إشارة إلى الله تعالى ، يعنى على حبهم لله ، وقيل : على حبهم للطعام : : إلى قوله : « : : لا نريد منكم جزاء ولا شكورا »(١) :

فالقصة بهذه الصورة ، لا غرابة فيها ولا نكارة ، لأنها تتعلق بعلى وحده — كرم الله وجهه — ولأن إيثاره المسكين واليتيم والأسير ، كان كله فى يوم واحد : : والله أعلم :



(١) علم القلوب : ص ١٨٠ لمحمد بن عطية الحارثى المكى ، المكنى بأبى طالب المكى ، صاحب رياضات ومجاهدات وأسرار ومشاهدة ، ومات ببغداد سنة ٣٨٦ ، وقبره هناك ظاهر بزار .

خاتمـة

« وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت ، واليه أنيب » .

ســـجل حافل .. وتاريخ مجيد :

لا شك فى أن حياة سيد شباب أهل الجنة ـ الحسين بن على رضى الله عنهما ، كانت سجلا حافلا بالمكارم والمثل العليا ، المستمدة من كتاب الله تعالى ، وسنة جده المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قولية كانت أم فعلية فى أروع صورها ، وأسمى مكانتها ، حتى اتحد تحقق فيه قول الصادق الأمين : « حسين منى . . وأنا من حسين » .

وعظمة الحسين ـ عليه السلام ـ أجل من أن يحيط بها كتاب ، مهما تنوعت أبوابه ، وتعددت صفحاته . . وأعمق من أن يحصرها وصف ، مهما نسقت عباراته ، ونظمت كلماته ، لأنها من عظمة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، الذى صنعه الله على عينه ، وأعده لهداية خلقه ، ورحم الله القائل :

وأنسب إلى ذاته ما شئت من شرف وأنسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس لـه حد فيعرب عنه ناطق بفـم

وأقصى ما يمكن أن يصل إليه الباحثون فى تاريخ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إنما هو عرض بعض أمثلة من روائع سيرته ، يقتطفونها من عاطر روضته ، كل حسب طلبته ورغبته ، وكل ميسر لما خلق له .

فأهل الشمم والإباء ؛ يجدون أكرم المثل فى مواقف الحسين رضى الله عنه ، وفى حرصه دائماً على رفض الدنية فى دينه ودنياه ، وإيثاره رضاء ربه ومولاه ، وعزوفه عن الدنيا وما فيها ، وخروجه من المدينة إلى البلد الحرام ، طلباً للأمن والسلامة . . واحتماء بالبيت من الإرغام . .

وأهل البطولة والفداء : يجدون فى ثبات الحسين ـ عليه السلام ـ فى الشدائد ، وشجاعته عند اللقاء ، وصموده أمام كثرة الأعداء ، بعد أن استشهد جميع أصحابه وأهل بيته ، يجدون فى كل ذلك وغيره ، أروع صورة لعزة الإسلام ، التى تنكر كل ضعف أو استسلام ، ما دام هناك عرق ينبض ، أو نفس يتردد .

وأهل المروءة والوفاء : يجدون أعمق دروسها ، فى حرص الحسين ـ عليه السلام ـ على سلامة صحبه ، وتكرار دعوته لهم ، إلى الانصراف عنه ، طلباً لنجاتهم ، وإيثاراً منه لحياتهم على حياته ، وسلامتهم على سلامته .

وأهل الكرم والسخاء : يجدون فى سيرة ابن الزهراء ، أحسن الأسوة ، وأطيب القدوة ، وكيف كان رضى الله عنه ، كالريح المرسلة ، لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ، ولا يبلغه دين إلا قضاه ، ولا يبقى له مال إلا فرقه : يحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويكرم الفقير والمسكين . .

وأهل العفو والمغفرة : يجدون فى قبول الحسين ـ عليه السلام ـ للمعذرة ، ومسارعته إلى الصفح ، وحرصه على أن لا يهجر أحداً فى خصومة فوق ثلاث ، ولو كان محقاً ، واستجابته لطلب أخيه الأصغر ـ

محمد بن الحنفية — فى القصاص عليه لم ضربته قبل انقضاء ذلك الأجل . . وتخلفه عن البدء بمثل ذلك بالنسبة لشقيقه الأكبر : الحسن — عليهما السلام — لأنه الأولى بالفضل منه . . كل ذلك وأمثاله ، يجد فيه الكاظمون الغيظ ، والعافون عن الناس ، ما يؤكد فى أعماقهم هذه الفضيلة ، ويرغبهم فى الحرص عليها ، استجابة لأمر الله تعالى فى قوله :

« . . وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ والله غفور رحيم » .

وأهل التقوى والمجاهدة يجدون أروع صور الإقبال على الله تعالى ، فى قيام سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — بالليل ، وصيامه بالنهار ، وسيره خمساً وعشرين حجة إلى البيت الحرام على الأقدام ، واستعداده للقاء ربه ليلة المعركة ، بتلاوة القرآن وقضاء الليل فى الصلاة والدعاء ، وحرصه على أداء الصلاة فى ميقاتها ، وهو فى ميدان القتال . . وغير ذلك من الأمثلة الكريمة ، التى تدل على مدى اعتصام الحسين — عليه السلام بحبل الله ، وتزوده بطاعته ، ابتغاء عفوه ورضاه .

* * *

وبوجه عام : وفى كل ناحية من النواحى ، يجد المسلمون جميعاً ، رجالا ونساء . . شباناً وشيبا ، فى حياة سيد شباب أهل الجنة ، أروع الصور ، وأكرم الأمثلة ، فهو بين أهله الزوج الحنون ، والصاحب الوفى ، وهو بين ولده المربى الأمين ، والمعلم الكريم ، والموجه الصادق إلى مكارم الأخلاق ، وهو بين أصحابه الرائد الحكيم ، الحريص كل الحرص عليهم ، الرءوف الرحيم بهم ، وهو مع أعدائه الصادق فى كل قول ، الأمين فى كل نصيحة ، الصريح فى كل موقف ، لا يعرف مداراة ولا خداعاً ، يعاملهم معاملة الأشراف ، ويسلك معهم سلوك النبلاء ، ويرحب بهم وقد جاءوا لأسره ، ويسارع إلى سقايتهم ، وهو يعلم حرصهم على قتاله وقتله . . ! !

رجاء . . وأمل :

وإنى لأرجو أن أكون خلال دراستى لصفحات ذلكم السجل العظيم ، لحياة حفيد سيد الأنبياء والمرسلين ، أن أكون قد وفقت فى وضعى لهذا الكتاب ، إلى أداء بعض حقه ، من الحب له ، والوفاء بعهده ، وإيضاح بعض ما اختلف حوله المؤرخون من سيرته ، وتبرئته عما ألصقه الجاهلون والمغرضون بمقامه ، أو افتراه المستشرقون عليه ، أو توهمه المعاصرون عنه ، دون تمحيص لتاريخه ، أو إدراك لعظمته ، مع بيان طرف من نواحى تلكم العظمة ، وإيضاح لبعض المثل العليا التى حرص عليها طوال حياته . . واستنباط بعض الدروس النافعة ، والعبر البالغة ، من خلال كل ذلك ، بما يمد أبناء هذه الأمة الكريمة ، بالروح الذى يفتقرون إليه فى كفاحهم ضد الباطل ، ومقاومتهم للعدوان . . والعزيمة التى تلزمهم فى جهادهم فى سبيل العزة والكرامة .

* * *

كما أرجو أن أكون قد وفقت إلى أداء بعض حق أهل البيت خاصة ، ونجوم الهدى ، من أصحاب المصطفى عامة ، ببيان مقامهم عند الله ورسوله ، وفضلهم على الأمة بأسرها ، وأثرهم في هدايتها وإرشادهم ، وجهادهم في سبيل سيادتها وعزتها . . فضلا عن استمرار بركتهم إلى يوم القيامة فيها ، مما يتحتم معه استشعار أصدق الحب والوفاء لهم ، وأعظم التوقير والإجلال لأشخاصهم ، فهم بحق أهل الفضل والتقوى ، ودعاة الحق والإيمان ، يجب الوقوف عند التحدث عنهم ، أو كتابة سيرتهم ، عند حد الأدب الذى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالوقوف عنده ، دون أى نقد لهم ، أو تحامل عليهم ، فإنه لا معنى لكل ذلك ، بعد أن شهد الله ورسوله بعدالتهم ، واصطفاهم من جميع خلقه ، واختارهم أصحاباً وأنصاراً لأشرف أنبيائه ورسله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« من أحسن القول فى أصحابى ، فقد برىء من النفاق ، ومن أساء القول كان مخالفاً لسنتى ، ومأواه النار وبئس المصير »(١) .

احداث اســـلامية فى حاجة الى تمحيص :

ولعل ما عرضته فى دراستى لهذه السيرة العطرة — سيرة سيد شباب أهل الجنة — رضى الله عنه — من تمحيص لبعض الروايات المتعارضة ، والأنباء المتضاربة ، والأخطاء الشائعة يكفى لإعطاء صورة لما يجب التزامه عند التعرض لمثل هذه الأحداث التاريخية الخطيرة ، المتصلة بالصحابة والتابعين — رضى الله عنهم أجمعين ، من دقة فى البحث ، وتعمق فى الدراسة ، مع بصيرة نافذة فى الموازنة بين مختلف الروايات ، مع التشبث بحسن الظن ، والتسامى عن الشبهات ، ورفض ما لا يتفق مع العدالة الثابتة ، والمقام المحمود .

وفى مقدمة الأحداث الفاصلة فى تاريخ الإسلام ، التى تحتاج إلى مزيد من التمحيص ، يزيل ما علق من مفتريات ، وأحاط بها من غموض وظلمات ، مقتل ثالث الخلفاء الراشدين — عثمان بن عفان — رضى الله عنه ، والخلاف بين على كرم الله وجهه ، وبين طلحة والزبير — رضى الله عنهما من ناحية ، وبينه وبين معاوية من ناحية أخرى ، وحقيقة موقف السيدة عائشة — رضى الله عنها من كل ذلك ، والدور الخطير الذى لعبه « عبد الله بن سبأ » اليهودى المتظاهر بالإسلام فى إثارة الفتن ، وتفرقة الصفوف ، وتمزيق وحدة الأمة . . الخ .

فكل هذه الأحداث الخطيرة وما شابهها ، قد تطرق إليها — بلا أدنى شك — ما تطرق إلى سيرة سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، من اسرائيليات موضوعة ، وأوهام لا أساس لها من الصحة ، ترمى فى مجموعها إلى تشويه سمعة الصحابة الأبرار ، والتشكيك فى مكانتهم السامية ، ومقامهم الذى لا يرام .

(١) الرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبرى ١ / ٢٢ .

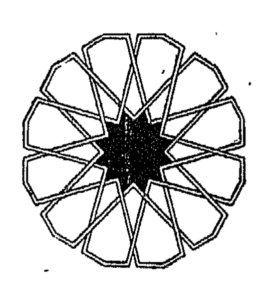
وما توفيقى الا بالله :

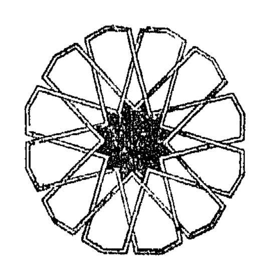
وبعد : فإنه بالرغم من أنى خلال كتابتى لفصول هذا الكتاب ، كنت أشارك بوجدانى ، فى كل موقف من مواقف ابن بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكل مشهد من مشاهده ، حتى لقد تمنيت من أعماق أن لو كنت معه ، لأحظى ببعض ما حظى به أصحابه المكرمون ، من الوقوف دونه ، والشهادة فى سبيله :

بالرغم من ذلك : فإنى أعتقد فى النهاية ، أنى مازلت فى البداية ، وأن سيرة سيد شباب أهل الجنة رضى الله عنه ، تتطلب أضعاف ما بذلت من جهد ، وما أنفقت من وقت ، لتعطى أضعاف ما حققت من نتائج ، أو أحرزت من نجاح :

وأنى لأرجو – بفضل الله تعالى وعونه ، وبركة الحسين – عليه السلام – وامداداته ، أن أواصل ، ويواصل معى المحبون لأهل البيت المطهر ، الجهود لاستكمال ما عجزت عن تحصيله ، وتحقيق ما قصر علمى وجهدى عن الوصول إليه :

« وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب » :





التعريف بأهم المراجع

التعريف باهم المراجع :

أشرت فى مقدمة هذا الكتاب ، إلى أنى عنيت فى تأليفه ، بالاعتماد بصفة أصلية ، على المراجع القديمة ، وخاصة : تلك التى جمع أصحابها بين فنى التاريخ والحديث ، وبينت أسباب ذلك ، ثم أوضحت – فى اختصار – القمة العلمية لبعض المراجع الكبرى ، وشهادة أهل العلم والتحقيق فيها ، مثل : تاريخ الرسل والملوك للطبرى ، والتاريخ الكامل لابن الأثير ، والبداية والنهاية لابن كثير :

ولما كان من المتعذر التعريف بكل المراجع ، لأن ذلك يتطلب اسهاباً ومجهوداً لاموضع له هنا ، لذلك : فإنى أكتفى – بالإضافة إلى ما ذكرته عن المراجع الثلاثة سالفة الذكر ، بالتعريف ببعض المراجع الأخرى ، ذات المكانة العلمية والتاريخية المعترف بها ، مثل :

الاصـــابة فى تمييز الصــحابة :

ومؤلفه هو العلامة الحافظ شهاب الدين أبى الفضل أحمد بن محمد على الكنانى العسقلانى ، المعروف « بابن حجر » :

ولد عام ٧٧٣ من الهجرة بمصر القديمة ، فى بيت من بيوت العلم والفتيا ، وتلقى العلم على شيوخ عصره ، كالحافظ العراقى ، والهيثمى والبلقينى . . وتولى القضاء زهاء عشرين عاما ، حتى تبوأ أسمى مراتبه ، فكان قاضى القضاة فى مصر ، وله مؤلفات كثيرة ، من أشهرها وأهمها « الإصابة » ويمتاز هذا الكتاب عما سبقه من الكتب المشابهة له ، مثل الاستيعاب لابن عبد البر القرطبى ، وأسد الغابة لابن الأثير ، وسير أعلام النبلاء للذهبى ، بأنه ترجم فيه لكثير من الصحابة ، ممن لم يرد لهم ذكر فى الكتب السابقة ، كما أنه عنى فيه بتمييز الصحابة من غيرهم ، إذ قسم من ترجم لهم إلى أربعة أقسام :

القســـم الأول :

فيمن وردت صحبته بطريق الرواية عنه أو عن غيره ، بما يدل على الصحبة بأى طريق كان :

القســـم الثانى :

فيمن ذكر فى الصحابة من الأطفال الذين ولدوا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وماتوا قبل سن التمييز :

القســـم الثالث :

فيمن ورد ذكرهم فى الكتب السابقة من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، ولم يرد فى خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ولا رأوه ، سواء أسلموا فى حياته أم لا ، وهؤلاء ليسوا من أصحابه – صلى الله عليه وسلم – باتفاق أهل العلم والحديث :

القسـم الرابع :

فيمن ذكر فى الكتب السابقة على سبيل الوهم والغلط ، وبيان ذلك البيان الذى يعود عليه ، على طرائق أهل الحديث ، وهذا القسم لم يسبقه أحد إليه ، وهو فى الواقع أهم أقسام هذا الكتاب .
وقد توفى رضى الله عنه فى سنة ٥٨٢ من الهجرة ، وهو فى التاسعة والسبعين من عمره .

الرياض النضرة فى مناقب العشرة :

ومؤلفه حافظ عصره : أبو جعفر أحمد ، الشهير بالمحب الطبرى : الذى يقول عنه ابن كثير :
« سمع الكثير ، وصنف فى فنون كثيرة ، من ذلك كتاب الأحكام فى مجلدات كثيرة مفيدة ، وله كتاب على ترتيب جامع المسانيد ، أسمعه لصاحب اليمن ، وله شعر جيد ، منه قصيدته فى المنازل التى بين مكة والمدينة ، تزيد على ثلاثمائه بيت »(١) .

وكتابه « الرياض النضرة » يقع فى جزءين ، الأول : وقد قسمه إلى قسمين ، القسم الأول ويخص ذكر العشرة وغيرهم بصفة عامة ، والقسم الثانى : ويتعلق بمناقب الأفراد ، ابتداء بأبى بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . ويلى ذلك الجزء الثانى حيث تحدث فيه عن مناقب الثمانية بقية العشرة . والكتاب بجزأيه ، قد جمع فيه مؤلفه ما تفرق فى عشرات الكتب السابقة عليه ، من مناقب العشرة المبشرين بالجنة ، رضى الله عنهم أجمعين .

ومن مؤلفاته القيمة : ذخائر العقبى فى مناقب ذوى القربى ، وهو من خير ما وضع فى هذا الباب .
وقد توفى رحمه الله سنة ٦٩٤ من الهجرة ، ودفن بمكة المكرمة(٢) .

العواصـم من القواصـم :

للقاضى أبى بكر بن العربى : ولد عام ٤٦٨ بأشبيلية ، إحدى عواصم الأندلس ، وحذق القرآن وهو ابن تسع سنين ، ثم تنقل — وهو فى السابعة عشرة من عمره — فى مختلف البلاد الإسلامية ، كالجزائر ومصر والشام والعراق ، حيث التقى بالكثير من علمائها وتلقى عنهم .

وله عشرات المؤلفات ، من أهمها « العواصم من القواصم » ، ويقع فى جزءين ، والمبحث الخاص بتحقيق مواقف الصحابة بعد انتقال النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، من أهم مباحث الجزء الثانى ، وقد عنى فيه بإيضاح حقيقة بعض هذه المواقف ، وتبديد ما يحيط بها من مزاعم ومفتريات ، لا تتفق مع مقام الصحابة — رضوان الله عليهم ، ولا مع العدالة الثابتة لهم بشهادة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقد قام بطبع هذا المبحث المرحوم السيد محب الدين الخطيب ، وله تعليقات بالهامش ، فى حاجة إلى تمحيص ، ويلزم أخذها بتحفظ . وقد توفى القاضى أبوبكر عام ٥٤٣ ودفن بفاس .

(١ ، ٢) البداية والنهاية : لابن كثير : ١٣ / ٣٤٠ .

الصواعق المحرقة :

فى الرد على أهل البدع والزندقة ، لأبى العباس شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى ، المحدث الفقيه الصوفى ، ولد سنة ٨٩٩ من الهجرة ، بمحلة أبى الهيثم ، بمديرية الغربية ، وتلقى مبادىء العلوم ، وحفظ القرآن بمقام السيد البدوى – رضى الله عنه – ثم انتقل إلى الأزهر الشريف ، وأخذ عن علمائه ، وظهر نبوغه المبكر ، فأذن له شيوخه بالافتاء والتدريس ، قبل أن يبلغ العشرين . وله عشرات المؤلفات فى مختلف علوم الفقه والحديث والتصوف وغيرها . ومن أهم مؤلفاته : كتابان :

الأول : الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة ، وقد تعرض فيه لكثير من الشبهات والآراء الفاسدة لبعض الفرق الزائغة من الشيعة والروافض ، وأثبت لجميع الصحابة العدالة المشهود لهم بها ، وأن اختلافهم كان للحق وحده وذكر مناقبهم ، ومناقب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الثانى : تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب سيدنا معاوية بن أبى سفيان ، وهو مكمل للكتاب الأول ، وقد ذكر فيه فضائل معاوية رضى الله عنه وجهاده فى سبيل الله وما شجر بينه وبين الصحابة من خلاف ، موضحاً حقيقة كل موقف ، ومبدداً ما أحيط به من شبهات أو ألصق به من أكاذيب ومفتريات . وتوفى – رضى الله عنه – سنة ٩٧٤ من الهجرة .

افادة الاخيار .. ببراءة الأبرار :

وهذا الكتاب : من أقيم الكتب التى وضعت حديثاً فى إيضاح مواقف الصحابة رضوان الله عليهم والذب عنهم ، وتفنيد المزاعم الكاذبة التى ألصقها الجاهلون بهم ، ومؤلفه العلامة الشيخ محمد العربى التبانى ، الجزائرى ، ثم المكى ، وقد اشتهر بغزارة العلم وسعة المعارف والجمع بين الرواية والفهم ، وله قدم أعلى فى التاريخ الإسلامى وله تصانيف كثيرة فى الدفاع عن الإسلام ورجاله .

وكتابه : افادة الأخبار ببراءة الأبرار ، يقع فى جزءين مكونين من ٦٩٠ صفحة ، وقد عنى فيه بالرد على محاضرات المرحوم الشيخ محمد الخضرى ، التى تضمنها كتابه : تاريخ الأمم الإسلامية ، ويعتبر هذا الكتاب القيم فى حقيقته متمماً لتاريخ الأمم الإسلامية ، لأنه أوضح فيه ما غمض ، وقوم فيه ما أعوج ، وأزاح الكثير من الشبهات حول مواقف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وللمؤلف : كتاب آخر هو : اتحاف ذوى النجابة ، بما فى القرآن والسنة من فضائل الصحابة ، وعنوانه يدل على موضوعه ، وتوفى – رحمه الله – عام (١٣٩٠ من الهجرة) ودفن بمكة المكرمة .

فهارس الكتاب

صفحة

الفصل الأول
(البيت المطهر)

الفصل الثانى
(ابناء الزهراء)

الفصل الثالث
(الحسن رضى الله عنه)

الفصل الرابع
(الحسين رضى الله عنه)

الفصل الخامس
(رأس سيد شباب أهل الجنة وقبره)

الفصل السادس
(السيدة زينب رضى الله عنها)

الفصل السابع
(من الخلافة الى الملك)

الفصـــل الثامن
(هجرة في ســــبيل الله)

الفصل التاسع
(من مكة الى كربلاء)

الفصل العاشر
(المعركة الخالدة)

الفصل الحادى عشر
(مدرسة الإيمان)

الفصل الثاني عشر
(صدى الأحداث)

الفصل الثالث عشر
(مصارع الظالمين)

الفصل الرابع عشر

(شبهات .. وأباطيل)

الفصل الخامس عشر

(التمثيل بقاتل رابع الخلفاء)

الفصل السادس عشر

(حول تنازل الحسين عن الخلافة)

الفصل السابع عشر

(حول دس السم للحسن رضى الله عنه)

الفصل الثامن عشر

(توريث الملك بدعة)

الفصل التاسع عشر

(حول تنازل الحسن عن الخلافة)

الفصل العشرون

(حول مشاورة الأمة فى بيعة يزيد)

الفصل الحادى والعشرون
(قضية القضايا أو موقف الحسين
رضى الله عنه من البيعة والخلافة)

الفصل الثانى والعشرون
(الأحاديث والروايات
عن سيد شباب أهل الجنة)

خاتمــــة

مَطابعُ مؤسسَّة دار الشعب - للصحافة والطباعة والنشرُ

٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣٥٥١٨١٠ - ٣٥٥١٨١٨ - ٣٥٤٣٨٠٠